المركز القومي للترجمة

برنارد كورنويل

من قلب المعركة
أزينكور

ترجمة: على البعلاوى

مراجعة: سحر الموجى

2187



سلسلة
الإبداع
القصصي



من قلب المعركة - أزينكور

(رواية)

تـأليـف: برنارد كورنويل
ترجمـة: على البعـلاوى
مراجعة: سـحر الموجى



2013

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

إشراف: كاميليا صبحى

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2187
- من قلب المعركة: أزينكور
- برنارد كورنويل
- على البعلاوى
- سحر الموجى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2013

هذه ترجمة:
AZINCOURT
By: Bernard Cornwell

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كورنويل، برنارد.
من قلب المعركة – أزينكور (رواية) / برنارد كورنويل، ترجمة: على البعلاوى، مراجعة: سحر الموجي.
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣
١٠٣٢ ص، ٢٤ سم
١ – القصص الإنجليزية
(أ) البعلاوى، على (مترجم)
(ب) الموجى، سحر (مراجعة)
(جـ) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٣٣٤٣ /٢٠١٣
الترقيم الدولى: 6 - 209 – 718 – 977 – 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

- المقدمة 7
- أهداء المؤلف 17
- برولوج 19

الجزء الأول

- القديس كريسبين والقديس كريسبينيان 93

الجزء الثانى

- نورماندى 307

الجزء الثالث

- إلى نهر السيوف 651

الجزء الرابع

- عيد القديس (كريسبين) 797
- الخاتمة 991
- نبذة تارخية 1005

تقديم المترجم

إذا كان الأدب يعد تأريخًا لعادات الشعوب وأفكارها وتفاصيلها اليومية المعيشة، فإن نقله من لغةٍ إلى أخرى لتتسع دائرة من يطلعون عليه، هو وضعٌ لمرايا بين الشعوب فترى بعضها بعضا بشكلٍ أعمق، وتبنى منجزها الحضارى استكمالاً لما بدأه غيرها... ونأمل أن يكون فيما نفعل لبنةً نضعها فى بناء حضارةٍ جديدة لنا، تقف أولاً على منجز الآخر لتبنى فوقه بناءها الجديد منطلقةً من حيث انتهى غيره. وُلِد الكاتب (برنارد كورنويل)[١] صاحب رواية (من قلب المعركة، أزينكور)[٢]. فى الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩٤٤، فى لندن، لأبٍ كندىٍ يعمل طيارًا وأمٍ بريطانيةٍ تعمل فى القوات الجوية، وتبنته أسرة

---

(١) Bernard Cornwell

(٢) الاسم الأجنبى للرواية هو: Azincourt.

متدينةٌ فى إسيكس؛ نشأ فى كنفها، وعندما تركها غيـر اسـمه الأخير إلى كورنويل، وهو الاسم الأوسط لأمه. درس فى جامعة **لندن**، ثم عمل مدرسًا، وانتقل بعدها للعمل فى تليفزيـون بـى. بى. سى. لعشر سنواتٍ ثم التحق بتليفزيـون التـايمز محـررًا للأخبار، وانتقل إلى الولايات المتحدة بعد زواجه مـن زوجـه الأمريكية التى تدعى جودى، وهناك لم يتمكن فى بداية الأمـر من الحصول على البطاقة الخضراء[٣] فبدأ فى كتابة الروايـات وهى المهنة التى لا تحتاج إلى ترخيص عملٍ، وقد حصل على جنسية الولايات المتحدة لاحقًا، ويقيم حاليًا فى ماساشوستس.

ويبدو أن قراءته فى طفولته لروايات فورستر التى تدور أحداثها فى الحروب النابوليونية قد أثرت فيه؛ فقد بـدأ كتاباتـه بسلسلة رواياتٍ تدور أحداثها حول المعارك الحربية.

كتب هو وزوجه سلسلةً من الروايات نشرت تحت اسـمٍ مستعارٍ هو سوزانا كيلز، وقد ظهر أثر تربيتـه البروتـستانتية المتشددة فى سياق روايته: (A Crowning Mercy).

---

(٣) البطاقة التى تسمح بالإقامة المؤقتة، والعمل الرسمى داخل الولايات المتحدة. (المترجم).

وبعد أن نشر ثمانية كتبٍ تلقى عرضًا من شركة إنتاجٍ تليفزيونيٍ نتج عنه سلسلة أفلامٍ تليفزيونيةٍ باسم سلسلة كتبه الأولى (سلسلة شاربى Sharpe) وهو اسم بطل السلسلة. وكتب أيضًا سلسلةً من أفلام الرعب كان آخرها عام ١٩٨٢، وهكذا نرى أن كاتبنا تخصص تقريبًا فى الرواية التاريخية.

هذه الرواية التى نحن بصددها، اتكأت على أحد أكثر الانتصارات البريطانية دراميةً وهى معركة أجنكور – أو أزينكور كما يكتبها الفرنسيون – وقد مجدها شكسبير فى مسرحيته هنرى الخامس؛ فى المعركة حاولت القوات الفرنسية مقاومة القوات الإنجليزية، وَدَفعَ ادعاء هنرى بأحقيته فى عرش فرنسا، وبدا أن هنرى يمتحن فيها ثقته فى دعم الرب له، وقد تحدث الكاتب بشكل أكثر تفصيلاً عن المتكأ التاريخى الذى استند إليه فى النبذة التاريخية المدرجة فى نهاية الرواية، ويمكن للقارئ الرجوع إليها للوقوف على تفصيلاتٍ أكثر بشأنها، ونود أن نشير هنا إلى أن الكاتب قد أورد الكثير من التفاصيل حول الأسلحة والدروعٍ التى كانت مستخدمةً فى ذلك العصر، فوصف الكثير منها قطعةً قطعة، ونرى أن هذا ربما يشير إلى بحثه الجاد الدقيق حول الواقعة التاريخية، والفترة الزمنية التى حدثت فيها أكثر مما يفيد نسيج الرواية وحبكتها، فبطل الرواية نفسه لم

يكن يرتدى الكثير من الدروع لأنه لم يكن سوى واحد من الجنود العاديين؛ رامى سهامٍ ماهرٍ ليس أكثر.

ركز الكاتب على إدراك الخلفية التاريخية، والدينية، والعقائدية، التى دفعت بالرجال إلى ساحات المعارك فى القرون الوسطى، وقد خرجت من المنشأ نفسه الحروب الصليبية التى هاجمت عالمنا الإسلامى فى فترةٍ تسبق فترة هذه الرواية بقليلٍ، ولكننا نراه قد انتقل بنا عبر التاريخ إلى كثيرٍ من المشاعر والأحاسيس الإنسانية، فأجاد وصفها، ونقلها إلينا، بل نقلنا نحن إلى داخلها كالفخر، والألم، والانتقام، والفقد، والحب، والخوف، واللحظات التى يكاد الإنسان يشعر فيها بأن حياته ستنتهى عند هذه النقطة؛ فجنون العنف، والقتل، عندما يعترى الإنسان يحيله إلى وحشٍ قاتلٍ فى ساحات المعارك.

ونود أن نطرح -هنا- شيئًا مما يثار كثيرًا بين الرواية والتاريخ: ما الذى يفعله التاريخ فى الرواية؟ علينا أن نميز بينهما فى البدء، فالرواية حسب التعريفات المعاصرة: هى ذلك الجنس الأدبى النثرى السردى التخيلى الذى ظهر فى القرن الثامن عشر، بينما التاريخ: هو نشاطٌ معرفىٌّ ارتبط باكتشاف الإنسان للكتابة، حيث حاول تدوين الحياة البشرية، وتفيدنا الدراسات الفلسفية حوله أنه يكتب تحت تأثير التصورات التى

تهيمن على مراحل تدوينه، وأن كل كتابة له خاضعة بالضرورة للتصور المزامن للحظة الكتابة، أى أن التاريخ يُؤَطّر بتصورٍ ما عن الماضى، ويلجأ المؤرخون كذلك إلى آليات الحذف، والإيجاز، والاختزال، وهم يقرأون نصوص الماضى، وقد يؤثر ذلك سلبًا على الكتابة التاريخية، وقد لا يفعل بل يكون ضروريًا أحيانًا للتخلص من الزوائد غير المفيدة.

إذًا لكلٍ منهما كيانٌ منفردٌ على حدةٍ فماذا يحدث عند التحامهما؟ يعرف جورج لوكاتش الرواية التاريخية بأنها: "روايةٌ تاريخيةٌ حقيقيةٌ أى: روايةٌ تثير الحاضر، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق" فهى بالتالى: "عملٌ فنىٌ يتخذ من التاريخ مادةً له، لكنها لا تنقل التاريخ بحرفيته بقدر ما تصور رؤية الفنان له وتوظيفه لهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه أو موقفٍ من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة له". ويذهب الدارسون إلى القول بأن الرواية الغربية نشأت فى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر على يد الكاتب الاسكتلندى والتر سكوت ١٧٧١-١٨٣٢، واهتدى معظم من جاءوا بعده بما أقره، وساروا على نهجه، ومن أشهر رواياته التاريخية إيفانهو التى نشرت عام ١٨١٩، والطلسم التى نشرت

عام ١٨٢٥، وسار على دربه الكثيرون فى إنجلترا وخارجهـــا، ومنهم بالورليتون وألكسندر دوماس الأب ١٨٠٢-١٨٧٠، الذى نشر بين عامى ١٨٤٤ و١٨٥٢ سلسلةً من الروايات الـــشهيرة سارت بالقارئ من عصر لويس الثالث عشر حتى عودة الملكية، وقد تبعه فى ذلك ڤيكتور هيجو الذى كتب روايتين تـــاريخيتين يفصل بينهما نحو أربعين سنةً، وكذلك ليو تولـــستوى ١٨٢٨-١٩١٠، وتعد روايته الحرب والسلام مـــن أعظـــم الروايـــات التاريخية. أما الرواية التاريخية العربية، فقد انقـــسم البـــاحثون بشأنها إلى ثلاث فرقٍ: يرى الفريق الأول أنها تطـــورٌ طبيعـــىٌ للتراث القصصى العربى. ويرى الفريـــق الثـــانى أن الروايـــة التاريخية الحديثة ليست امتدادًا للقديمة، كسيرة عنترة، والـــسيرة الهلالية، وسيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة الظـــاهر بيبـــرس، وغيرها، وفى رأيهم أن هذا اللون من الأدب لم يكن إلا صـــدىً لبيئته، وقد زال بزوالها، وأن الرواية الحديثة ما هى إلا فرعٌ من فروع الثقافة التى جاءتنا عن الغرب فى النهضة الحديثة. ويقف الفريق الثالث موقفًا وسطًا فيقول بأن الرواية التاريخية العربيـــة نشأت من مزاوجة الموروث العربى القديم مع ما جاءنـــا مـــن رافدٍ حديثٍ، ونحن نرى أن أحدًا لا يستطيع أن ينكر موروثنـــا

من القصص الشعبى، وقد أفاد الأوروبيون منه مثلاً فى قصص ألف ليلةٍ وليلةٍ، ووظفوها فى أعمالهم القصصية، ثم أفاد العرب من الخطوات التى خطاها الغرب فى مجال الرواية وحاكوه.

ويمثل سليم البستانى وچورچى زيدان وأنطوان فرح ويعقوب صنوع وأمين ناصر وغيرهم الجيل الأول من كتاب الرواية التاريخية، وهو الجيل الذى وَجَّهَ جهده إلى التاريخ فى سياق حكاياتٍ أكثر تسليةً وتشويقًا للقارئ، ثم تلاهم جيلٌ آخر يمثله عادل كامل ونجيب محفوظ – نقصد هنا رواياته الثلاث الأُول: رادوبيس وعبث الأقدار وكفاح طيبة، ونرى أنها كانت تستهدف ترسيخ الهوية القومية المصرية الفرعونية فى مقابل دعاوى الخلافة الإسلامية للملك فاروق، أى أنها ليست تاريخية بالمعنى الذى نشير إليه لكنها اتخذت من التاريخ متكأً لها– وعبد الحميد جودة السحار ومحمد فريد أبو حديد وعلى أحمد باكثير وعلى الجارم الذين استلهموا لحظاتٍ ومواقف من التاريخ العربى والإسلامى، وكان هذا الاستلهام للأشكال والموضوعات التراثية والوطنية والاجتماعية والأخلاقية والعاطفية انعكاسًا أدبيًا لمحاولات إبراز الذات القومية فى مواجهة الغرب، واستلهم بعض الكتاب هذا الطراز فى رواياتهم بهدف بعث أمجاد الماضى وبطولاته؛ فجاء الحدث التاريخى فى رواياتهم مرتبطًا

بالرؤية الاجتماعية التى انطلقت من التاريخ وتميل به إلى معالجة الواقع.

ويمكننا القول إن الرواية التاريخية، على عكس التأريخ لا تحفل كثيرًا بإبعاد شبهة المزج بين الواقعى والتخيلى ولا تحفل بالتزام الأمانة لأن طبيعتها تفرض المزاوجة بين الواقعى والمحتمل كما أنها لا تهتم بالكلية والعام، بل إن غايتها تتحقق من خلال الخاص والتفصيلى، لأنها غالبًا ما تعمد إلى اختيار شخصيةٍ أو أسرةٍ يجرى من خلالها تقديم تاريخ المرحلة المختارة، ويفرض هذا الاختيار الاهتمام بالمقاصد التى تدمج بالضرورة العوالم الداخلية للشخصيات، ومن ثم تفرض على الكاتب – بغية الإقناع الجمالى– تشريحها، مثلما تفرض الاهتمام بالفضاءات والأزمنة وتأثيثها بما يُتَصور ملاءمته لتلك الحقبة. والرواية، فى فعلها ذلك، تعيد كتابة التاريخ بشكلٍ إبداعيٍ مع استهداف الماضى والتعبير عنه، أى أن تكون تأريخيةً، تعيد حبك المادة التاريخية ممتثلةً لشروط الخطاب الأدبى، وتتدرج فى سياقاتٍ مجازيةٍ وتبتكر حبكةً للمادة التاريخية محيلةً إياها إلى مادةٍ سرديةٍ، أى أنها تعيد إنتاج التاريخ بالسرد ولا تكون الحبكة حينئذٍ سوى مركزٍ ناظمٍ للأحداث المتناثرة فى إطار سرديٍ محددِ المعالم.

وقد تذهب الرواية إلى استغلال التاريخ في النص الإبداعى للتعبير عن الحاضر، فتذهب إلى تلك الأماكن المهملة والمهمشة، وتفتش عن الجوانب المنسية في كتابات المؤرخين المقيدة بالكثير من الشروط، وتنبش تاريخ المستضعفين، ويكون شاغلها هؤلاء المنسيين، فتكون لسان حال الحاضر معبرةً عنه وإن أخذت شكل من يحكى الماضى فهى تروى، وتحلل، تؤول، وترفض، وتأخذ من التاريخ، وتنتقى منه مستهدفةً حاضرًا تعايشه ومستقبلاً تستشرفه تاركةً وظيفتها المرجعية، ومكتسبةً وظيفةً جماليةً أولاً، ثم وظائف أخرى بنسبٍ تختلف من روايةٍ إلى غيرها، ومن كاتبٍ إلى آخر مثل توظيفها سياسيًا، واجتماعيًا، وتوعويًا، وتوجيهيًا، وأيديولوجيًا، وغيرها، ورغم أنها – ولا شك – تنطلق من الخطاب التاريخى فإنها لا تنسخه بل تجرى عليه ضروبًا من التحويل حتى تخرج منه خطابًا جديدًا له مواصفاتٍ خاصةٍ ورسالةٍ تختلف جذريًا عن الرسالة التى يحملها التاريخ المجرد.

ورواية من قلب المعركة – أزينكور روايةٌ شائقة بحقٍ، وأثرٌ إبداعىٌ يتمازج فيه الخيال بالواقع، والحلم بالحقيقة، ورغم وجود الكثير من الأحداث والفضاءات الحقيقية فهى تحوى قدرةً عجيبةً على اختلاق الكثير من الأحداث وقصص الحب، وتبدو تجليات

هذه القدرة واضحةً فى وصف المعارك واختلاق شخصيات يتمازج فيها الواقعى بالأسطورى فى ذات الآن. ونحن نرى أن الكاتب برنارد كورنويل قد جنح فى روايته إلى المنحى التأريخى فى الكتابة أكثر من غيره، ورغم ذلك جاءت كتابته بمتعةٍ أدبيةٍ جميلةٍ نرجوها لكل قارئٍ من قراء لغة الضاد.

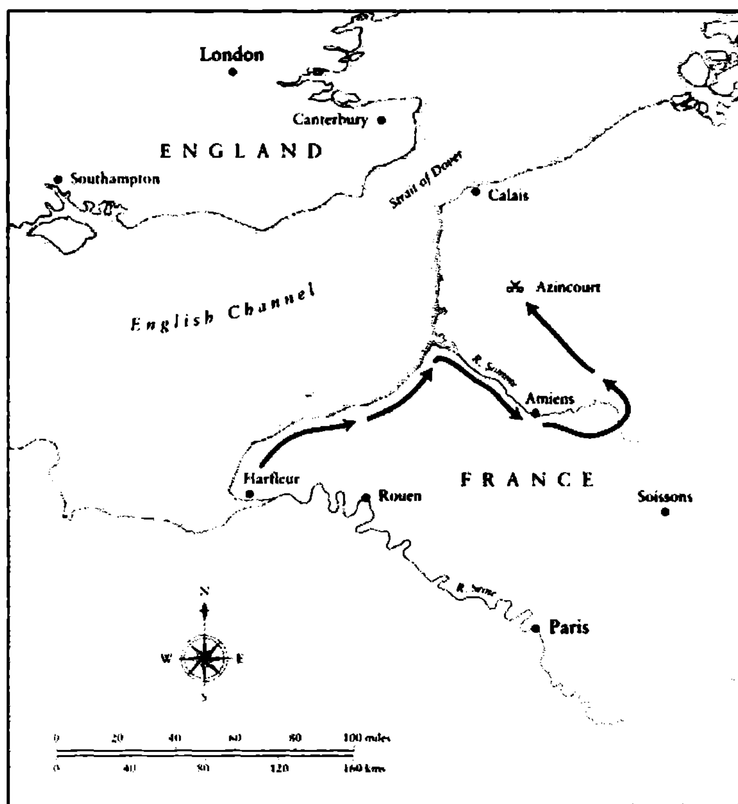
فلندخل سويًا الآن إلى عالم القرون الوسطى وحروبه وشهواته ومفارقاته الطبقية والاجتماعية والسياسية.

إهداء المؤلف

إلى حفيدتى..

(إيسمى كورنويل)

مع حبى


London
Canterbury
ENGLAND
Southampton
Strait of Dover
Calais
Azincourt
English Channel
R. Somme
Amiens
Harfleur
Rouen
FRANCE
Soissons
R. Seine
Paris
N
W
E
S
0
20
40
60
80
100 miles
0
40
80
120
160 kms

برولوج

قرر نيكولاس هوك فى يومٍ شتائيٍ عام ١٤١٣، بالضبط قبل عيد الميلاد أن يرتكب جريمة قتل.

كان يومًا باردًا، وقد ظل الجليد يهطل طوال الليل وأخفقت شمس منتصف النهار أن تذيب هذا اللون الأبيض من فوق العشب، لم يكن ثمة رياح ولذا كان العالم بأكمله شاحبًا، متجمدًا، وراكدًا، حين رأى هوك طلعة توم بيريل على الدرب الذى يقود من الغابة إلى مروج الطاحونة.

كان نيك هوك البالغ من العمر تسعة عشر عامًا يتحرك كالشبح، ويعمل حارسًا للغابة، وحتى فى يوم كهذا حين يمكن لأخف وقعة قدم أن تصدر صوت تكسر الثلج، كان يتحرك فى صمت.

والآن سار على نفس الدرب الغارق الذى سلكه توم بيريل الذى كان يصطحب معه أحد خيول الجر التى تخص اللورد سلايتون وقد ربط بها جذع شجرة دردار(١) مقطوعة، كان توم

---

(١) الدردار (Elm): جنس من الأشجار النفضية ظهرت تقريبًا منذ نحو أربعين مليون سنة فى المنطقة التى تسمى حاليًا آسيا الوسطى. (المترجم).

يسحب الشجرة إلى الطاحونة ليصنع تروسًا جديدةً لساقية الماء. كان وحده وكان هذا شيئًا غير عادى، فلم يكن توم بيريل يمضى بعيدًا عن المنزل دون أخيه أو أى شخصٍ يصحبه. لم ير هوك قط توم بيريل على هذا البعد من القرية دون قوسه معلقًا على كتفه.

وقف نيك هوك عند حافة الأشجار، فى مكان تخفيه فيه شجيرات البهشية[٢]، على بعد مائة خطوة من بيريل الذى كان يسب ويلعن حانقًا لأن الأخاديد فى الدرب قد تجمدت بشدة، وشجرة الدردار تعلق فى الدرب المشقق، والحصان يجفل. ضرب بيريل الحيوان بشراسةٍ، لكن ضرب الحيوان بالسوط لم يُعِنْهُ بشىء. وهكذا وقف بيريل الآن واللجام فى يده يَسُبُّ هذا الحيوان التعيس.

---

(٢) البهشية (Holly): نبات دائم الخضرة من جنس إيلكس موطنه أوروبا وآسيا الغربية وأفريقيا الشمالية وأمريكا الشمالية والجنوبية ويبلغ عدد أنواعه ٢٩٥ نوعًا من أشهرها البهشية الإنجليزية التى يبلغ ارتفاعها نحو خمسين قدمًا (نحو خمسة عشر مترًا) وتحمل أوراقًا لامعة وثمارًا حمراء عادة. (المترجم).

سحب هوك سهمًا من الجعبة المعلقة فى جانبه، وتأكد أنه السهم الذى يريده، كان السهم ذا رأس عريضٍ حاد، وقد صُمم نصله ليخترق جسد الغزال، سهمٌ صُنِعَ ليُقَطِّعَ شرايين الحيوان، فينزف حتى الموت لو لم يُصِبْ هوك القلب، رغم أنه نادرًا ما يخطئه. فقد فاز فى مباراة البلدان الثلاثة عندما كان فى الثامنة عشرة، وهزم أكبر رماة السهام الذين تعرفهم نصف إنجلترا، ولم يكن ليخطئ الرمية من مسافة مائة قدم.

شد السهم على الوتر وهو ينظر إلى بيريل، فلم يكن يحتاج للنظر إلى السهم أو القوس، إبهامه اليسرى تمسك بالسهم، بينما يده اليمنى تشد الوتر قليلاً ليَعلَق فى الفتحة الصغيرة فى نهاية السهم الريشية. رفع القوس ولَمَّا يزل الابن الأكبر للطحّان فى مكانه.

شد الوتر دون جهدٍ يذكر، رغم أن أغلب الرجال ممن ليسوا رماةً لا يمكنهم أن يشدوا الوتر إلى نصفه. شد الوتر إلى آخره حتى صار بموازاة أذنه اليمنى.

استدار بيريل لينظر إلى مروج الطاحونة حيث يجرى النهر كخطٍ فضيٍ براق تحت شجر الصفصاف(٣) الذى عرّاه

---

(٣) الصفصاف (willow): جنس من الأشجار يتبع الفصيلة الصفصافية وقد ذكر فى مخطوطات سومرية وفرعونية قديمة . ينمو فى التربة=

الشتاء، كان يرتدى حذاءً ذا رقبة، وسروالاً قصيرًا، وسترةً جلديةً طويلةً دون أكمامٍ، ومعطفًا من جلد الغزال، ولم يخطر بذهنه أنه باقٍ على موته عددٌ قليلٌ من ضربات القلب.

أطلق هوك السهم وكان إطلاقًا سهلاً فقد فارق الوتر المفتول من الكتان إبهامه وإصبعيه دون اهتزازٍ يُذكَر.

طار السهم بدقةٍ، وتتبع هوك نهايته ذات الريش الرمادى، أخذ يراقب جسد السهم المصنوع من الدردار، ذا الرأس المعدنى المدبب متجهًا إلى قلب بيريل، لقد زاد حدة نصل السهم مثلث الشكل موقنًا أنه سيخترق جلد الغزال كما لو كان بيت عنكبوت.

= الرطبة بنصف الكرة الشمالى ويوجد فى الكثير من أنحاء العالم، حيث يزرعه الفلاحون على حواف الجداول والسواقى ليستفيدوا منه بالالتجاء إلى ظله صيفًا والاحتماء به من الرياح الباردة شتاءً، كما يستخدم خشبه لعمل مماسك لبعض الأدوات الزراعية، وتستخدم الأغصان الصغيرة كحطب للنيران، وقد يصل طول بعض أشجاره إلى ثلاثين مترًا يمكن للشجرة أن تنمو من غصن مكسور، ومنها ما هو مؤنث وما هو مذكر وتحتوى قشرته على مادة الأسبرين المعروفة كمُسَكِن. (المترجم).

إن نيك هوك يكره عائلة بيريل، تمامًا كما تكره عائلة بيريل كل أفراد عائلة هوك. يرجع هذا العداء إلى جيلين، عندما قام جد توم بيريل بقتل جد هوك فى حانة القرية بطعنة سكين فى عينه،.وقد أعلن اللورد سلايِتون الأب أن هذا كان عراكًا عادلاً ورفض معاقبة الطحان، ومنذ ذلك الحين حاولت عائلة هوك الأخذ بالثأر.

لكنهم لم يستطيعوا أبدًا. فقد رُكِل والد هوك بالأقدام حتى الموت فى مباراة كرة القدم السنوية، ولم يتمكن أحدٌ من اكتشاف قاتله رغم أن الكل يعلم أنهم ولا شك عائلة بيريل. لقد أطارت الضربة الكرة داخل بستان الضيعة الإقطاعية، وطاردها اثنا عشر لاعبًا لكن أحد عشر فقط عادوا. ضحك السيد الجديد: اللورد سلايتون الابن على فكرة اعتبار هذه الوفاة جريمة قتل قائلاً:

- لو أنِّى شنقت رجلاً لموت لاعبٍ فى مباراة كرة قدم إذن سنشنق نصف إنجلترا.

ترك والد هوك راعى الغنم خلفه أرملةً تحمل فى بطنها جنيناً، وولدين، وقد توفيت الأرملة خلال شهرين من وفاة زوجها وهى تضع طفلة ولدت ميتة، توفيت فى يوم عيد القديس

نيكولاس[٤] الذى كان يوافق عيد ميلاد هوك الثالث عشر، وقد قالت جدته أنَّ توافق الأحداث هذا يبرهن أن نيك ملعون. وحاولت أن ترفع عنه هذه اللعنة بسحرها الخاص، فطعنته بسهمٍ فى فخذه، دافعةً رأس السهم إلى عمق فخذه ثم أخبرته أن يقتل به غزالاً، وستزول عنه اللعنة؛ فاصطاد هوك واحدًا من أرض اللورد سلايتون، وقتله بالسهم الملطخ بالدماء لكن اللعنة ظلت كما هى، وظل أفراد عائلة بيريل على قيد الحياة، وبقيت

---

(٤) القديس نيكولاس (أو نقولا)؛ (Saint Nicholas): ٢٧٠- ٣٤٦ ميلادية كما يعرف أيضا باسم نيقولا ميرا نسبة إلى بلدة ميرا القديمة فى ليشيا فى تركيا، وهو أسقف يونانى تعززت شهرته ليصبح من كبار القديسين، كان أسقفًا على مدينة ميراليكيا فى آسيا الصغرى وشارك فى المجمع المسكونى الأول وتروى حوله الكثير من القصص، ويعد (شفيع البحارة). كما عرف بشخصية بابا نويل (Santa Claus) لأنه كان يوزع المال والأيقونات على المحتاجين ليلاً وهو متخف، ويحتفل المسيحيون بعيده فى السادس من ديسمبر كل عام. (المترجم).

حزازات النفوس كما هى[٥]. ماتت شجرة تفاح جيدة فى حديقة جدة هوك وأصرَّت الجدة أن والدة بيريل العجوز هى من سممت شجرة الفاكهة، وقالت جدته:

- إن عائلة بيريل كانوا دائمًا عفِنين لعَّاقى غائط وأبناء زنا.

وقامت بتحضير "عمل" للنيل من توم بيريل وأخيه روبرت، لكن من المؤكد أن أمهما العجوز استخدمت تعويذة عكسية، لأن أحدًا منهما لم يسقط مريضًا. اختفت النعجتان اللتان يرعاهما هوك وظنت القرية أن الذئاب هى التى أكلتهما، لكن هوك كان يعلم أن ذلك من أفعال عائلة بيريل، فقتل بقرتهم آخذًا بثأره لكن ذلك ليس يماثل قتلهم هم أنفسهم. وكانت الجدة تقول له بإصرار:

- إن مهمتك أن تقتلهم.

---

(٥) فضلنا أن نستعين بقول الشاعر العربى زفر بن الحارث الكلابى فى وصف العداوة بين قيس وبنى كلب لكى نشير إلى عمق العداوة الباقية فى النفوس، وهو يقول:

"وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا"

(المترجم).

لكنه لم يَجد قط فرصةً ملائمة.

صبت لعناتها عليه قائلةً:

- فليضربك الشيطان بلعنته وليأخذك إلى الجحيم.

وألقته مطرودًا من منزلها عندما كان فى السادسة عشرة وهى تقول مزمجرةً:

- اذهب وتضورَّ جوعًا يا ابن الحرام.

كانت تصاب بنوباتٍ عصبيةٍ شديدةٍ من حينٍ إلى آخـــر، ولم يكن ثمة مساحةٌ للنقاشِ معها؛ ولذا تـــرك المنـــزل وربمـــا تضورَّ جوعًا بالفعل، لولا أنه ربح فى ذلك العام منافسات القرى الست آتيًا فى المرتبة الأولى إذ وهو يرشق السهم بعد الآخر فى العلامة النائية.

وقد جعل اللورد سلايتون من نيك حارسًا للغابة؛ وهو ما يعنى أن عليه أن يحافظ على مائدة سيادته عامرة بلحم الغزال، وقد أبدى اللورد سلايتون ملحوظة:

- أن تقتلهم بطريقةٍ قانونية خيرٌ من أن تُشْنَق من أجـــل الصيد غير المشروع.

والآن فى يوم القديس واينبولد[٦]، قبل أعياد الميلاد مباشرة، أخذ نيك هوك يراقب سهمه يطير نحو توم بيريل، متأكدًا أنه سيقتله.

طار السهم فى مساره وهو ينحرف بخفة عابرًا السياجات؟ لم يكن لدى توم بيريل أدنى فكرة عن السهم القادم. ابتسم نيك هوك.

ثم اهتز السهم.

---

(٦) القديس واينبولد (Winebald): هو أيضًا شقيق القديس ويليبولد والقديسة والبرجا، ولد فى ويسيكس بإنجلترا وذهب فى رحلة إلى روما والأراضى المقدسة وعندما توفى والدهما ظل واينبولد فى روما بينما ذهب شقيقه إلى الأراضى المقدسة، درس فى روما لسبع سنوات ثم عاد إلى إنجلترا لكنه عاد إلى روما مرةً أخرى مصممًا على دخول الحياة الدينية بعد دعوة من القديس يونيفاس، ثم بدأ رحلة التبشير فى ألمانيا وأنشأ مع أخيه دير هايدينهايم وشغل مع أخيه رئاسة الدير وكافح ضد الوثنية المحلية وسعى إلى جعل كينسته رائدة فى ألمانيا، وتوفى فى الثامن عشر من ديسمبر عام ٧٦١، ويحتفل بعيده فى ١٨ ديسمبر من كل عام. (المترجم).

فقد انفلت ريش السهم. لابد أن غراءه ورباطه انفك، وانحرف السهم إلى اليسار قليلاً، ليجرح خصر الحصان، وينغرس فى كتفه؛ صهل الحصان، وشبَّ على قدميه الخلفيتين، واندفع للأمام مما هزَّ جذع الشجرة هزًا عنيفًا، فأفلت من الأخاديد المتجمدة التى كان عالقًا بها.

استدار توم بيريل وحدَّق إلى الأعلى نحو الأشجار العالية، ثم أدرك أن سهمًا ثانيًا قد يتبع الأول، فاستدار مجددًا وانطلق يركض خلف الحصان.

لقد أخفق نيك هوك مجددًا. إنه ملعون.

سقط اللورد سلايتون فى كرسيه. كان فى الأربعينيات من عمره، رجلٌ قاسٍ مقعد من طعنة سيف تلقاها فى عموده الفقرى فى شروزبرى[٧] ولذا لم يتمكن من القتال ثانيةً فى أى معركة أخرى. حدق إلى نيك هوك بفظاظة وقال:

---

(٧) شروزبرى (Shrewsbury): معركة عسكرية وقعت عام ١٤٠٣، عند مدينة تحمل الاسم نفسه فى وسط إنجلترا، بين جيوش الملك هنرى الرابع والمتمردين بقيادة هنرى هوت سبور برسى والتى انتصر فيها=

- أين كنت فى يوم القديس واينبولد؟

تساءل هوك فى براءةٍ ظاهرة:

- متى كان هذا يا سيدى اللورد؟

بصق اللورد سلايتون فى وجهه قائلاً:

- لقيط.

وضربه الوكيل الواقف خلفه بيد سوط الخيل المصنوعة من العظم على مؤخرة رأسه.

قال هوك فى عناد:

- لست أعلم أى يومٍ كان هذا ياسيدى اللورد.

قال السير مارتين:

- قبل يومين.

= الملك هنرى الرابع، وهو الانتصار الذى مجده شكسبير فى مسرحيته المسماة هنرى الرابع فى الفصل الأول المشهد الخامس. (المترجم).

كان ضهر اللورد سلايتون وقس الإمارة والقرية، ولم يكن أكثر فروسية من هوك لكن اللورد سلايتون يصر على أن يُنَادى بلقب (السير مارتين) اعترافًا بنبل محتده.

ادَّعى هوك أنه فهم فجأةً، وقال:

- آووه! كنت أهذب شجيرات الدردار عند تل بيجار يا سيدى اللورد.

قال اللورد سلايتون بهدوء:

- كاذب.

وقام ويليام سنوبول؛ وكيل اللورد وقائد رماة السهام؛ بضرب هوك مجددًا بعقب السوط على مؤخرة جمجمته، فتدفق الدم من فروة رأسه.

قال هوك كاذبًا بكل جدية:

- بشرفى يا سيدى اللورد.

قال اللورد سلايتون بجفاف:

- شرف عائلة هوك!

ثم نظر إلى أخى هوك الأصغر ويدعى مايكل، ويبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وقال:

- وأين كنت أنت؟

قال مايكل:

- كنت أغطى سقف رواق الكنيسة بالقش يا سيدى اللورد.

وأكد السير مارتين حديثه قائلاً:

- نعم كان هناك.

كان القس طويلاً ونحيلاً يرتدى رداءه الأسود، تكسو وجهه تقطيبة، يفترض بها أن تكون ابتسامة لأخى نيك الأصغر. إن كل الناس تحب مايكل، حتى عائلة بيريل يبدو أنهم استثنوه من تلك الكراهية التى يشعرون بها تجاه بقية عائلة هوك. كان مايكل أشقر بينما أخوه أسمر، وكانت تصرفاته لطيفة بينما كان نيك هوك كئيبًا.

وقف الإخوة بيريل جوار الإخوة هوك. كان توماس وروبرت طويلى القامة ونحيفين، يتحركان بمرونة استثنائية، لكل منهما عينان عميقتان وأنفٌ طويل وذقن بارز. ولم تكن

العين لتخطئ الشبه بينهما وبين القس السير مارتين لكن نــاس القرية، مع الاختلاف بسبب نبل مولد رجل الكنيسة، تقبلــوا الادعاء أنهما ابنا الطحان، وظلوا رغم ذلك يعاملونهما باحترام. وكان لدى عائلة بيريل امتيازٌ مسكوتٌ عنه، فكل شخصٍ يدرك أنهم إذا ما تعرضوا فى أى وقتٍ لتهديـدٍ يمكـن للأخـوين أن يستغيثا بالسير مارتين.

والآن توم بيريل لم يتعرض للتهديد فقط وإنمـا كـاد أن يُقتَل. لقد أخطأه السهم ذو الريش الرمادى بمقدار شبر. الـسهم الذى يقبع الآن على منضدة اللورد. أشار اللورد سلايتون إلـى السهم وأومأ إلى وكيله ويليام سنوبول فعبر إلى المنضدة وفحص السهم، ثم قال:

- إنه ليس من أسهمنا يا سيدى اللورد.

فتساءل اللورد سلايتون:

- هل تعنى وجود هذا الريش الرمادى؟

قال سنوبول على مضض، وهو ينظر إلى نيـك هـوك بفظاظة:

- ليس ثمة أحد فى الأنحاء القريبة يـستعمل ريـش الإوز الرمادى فى ترييش السهام أو من أجل أى شيءٍ آخر.

حدَّق اللورد سلايتون فى نيك هوك. كان يعلم الحقيقة. كل شخصٍ فى القاعة كان يعلم الحقيقة ربما باستثناء مايكل الـــذى كانت روحه نقية واثقة، واقترح السير مارتين:

- اجلده.

حدق هوك فى السجادة المنقوشة المزينة، والمعلقة علـــى لوحة عرض على جدار القاعة. كانت تصور صـــيادًا يغـــرس رمحه فى جسد خنزير، وامرأة لا ترتدى سوى غلالة من رداءٍ شبه شفاف تراقب الصياد الذى يرتدى قطعة من الملابس حول خصره وخوذة. وكانت كتلة خشب البلوط(٨) التى تـــدعم لوحـــة

---

(٨) البلوط أو السنديان (Oak): تعد من الأشجار المعمرة وقد تبلـــغ ٥٠٠ عام وأحيانًا ٢٠٠٠ سنة، وتتبع الفصيلة البلوطية التى تـــضم أيـــضًا الزان والكستناء بالإضافة إلى أصناف أخرى، ومن أنواعه البلـــوط الأحمر والأخضر والإيرانى والتركى والرومى والحلبى والفلسطينى وبلوط الفلين والقرمزى واللبنانى والوبرى، ويصنع من خشب البلوط الأثاث الفاخر غالى الثمن وقد عرف القدماء السنديان ونسجوا حوله الكثير من الأساطير وكان المواطنون الرومـــان يـــضعون فروعـــه المورقة كأكاليل على رؤوسهم وكانت المحاكم تعتبره شـــعارًا لهـــا. (المترجم).

العرض قد استحال لونها إلى الدخان الذى تراكم عليها عبر مائة من السنين.

وقال القس مرة أخرى:

- اجلده أو اقطع أذنيه.

خفض هوك عينيه لينظر إلى اللورد سلايتون، وتعجب للمرة الألف: أينظر فى هذه اللحظة إلى والده. كان لهوك نفس عظام الوجه البارزة، والجبهة الواسعة، والفم الواسع، والشعر الأسود، والعيون الغامقة، ونفس ارتفاع القامة، ونفس قوة الجسد التى كانت لفخامة اللورد قبل أن يطعنه هذا السيف المتمرد ويلف فى ظهره فيرغمه على استخدام العكازات المغطاة بالجلد، ويبقيه متكئا على كرسيه أغلب الوقت. وعاد سيادته للتحديق به بنظرات لا تشى بشىء. وأشار فى النهاية إلى هوك قائلاً وهو ما زال يحدق به:

- سوف تنتهى هذه العداوة، هل تفهمنى؟ لن يكون هناك المزيد من القتل، لو مات أى فرد من عائلة بيريل فسأقتلك يا هوك أنت وأخيك. هل تفهمنى؟

- نعم يا سيدى اللورد

واستدار فخامته ليحدق فى توم بيريل قائلاً:

- وإذا مات هوك فسأشنقك أنت وأخيك على أشجار البلوط.

قال بيريل:

- نعم يا سيدى اللورد.

قال السير مارتين:

- ولكن يجب إثبات القتل.

قالها السير مارتين فى صوت يشى بالسخط والدهشة. إن القس النحيل يبدو فى أغلب الأوقات كما لو أنه يعيش فى عالم آخر، أفكاره بعيدة، وقد يعود قافزًا بانتباهه إلى أى نقطة فى الحديث، وينطق الكلمات التى ترد على خاطره دون تفكير وكأنه يسابق الزمن، وكرر مرة أخرى:

- إثبات، إثبات.

عارض اللورد سلايتون صهره، ولكى يؤكد على كلامه ضرب بيده على اليد الخشبية للكرسى الذى يجلس عليه:

- لا! إذا مات أى منكم أنتم الأربعة فسأشنق الباقين! ولا أبالى! لو انزلق واحد منكم فى بئر الطاحونة وغرق فسأعتبر هذا قتلاً. هل فهمتمونى؟ لن أسمح لهذه المهزلة أن تستمر لحظة أخرى!

قال توم بيريل فى تذلل:

- لن يحدث قتل آخر يا سيدى اللورد.

نظر اللورد سلايتون إلى هوك منتظرًا نفس العهد، لكن نيك هوك لم يقل شيئًا فاقترح سنوبول:

- إن الجلد بالسوط سيعلمه الطاعة يا سيدى اللورد.

قال اللورد سلايتون:

- لقد جُلِدَ للتو، متى كانت آخر مرةٍ جُلِدْت فيها يا هوك؟

- فى يوم القديس مايكل(٩) سيدى اللورد.

- وماذا تعلمت من ذلك؟

---

(٩) عيد القديس مايكل (Michaelmas): ويسمى أيضًا عيد القديس رئيس الملائكة أو عيد القديس مايكل وكل الملائكة، ويحتفل به فى التقويم المسيحى الغربى فى التاسع والعشرين من سبتمبر ويرتبط فى نصف الكرة الشمالى مع بدايات الخريف وقصر النهار. والقديس مايكل عند المسيحيين هوأحد الملائكة المحاربين الرئيسيين وهازم الشيطان فى حروب السماء وهو الحامى ضد الظلام ولا تحتفل الكنائس الأرثوذكسية الشرقية بعيد القديس مايكل وتحتفل به الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية فى الثامن من نوفمبر. (المترجم).

قال هوك:

- أن يد السيد (سنوبول) آخذة فى الضعف يا سيدى اللورد.

وجعلت ضحكة مكتومة هوك يتطلع إلى أعلى ليرى سيدته التى كانت ترقب ما يحدث من خلف الستائر. كانت بلا أطفال. وكان لأخيها القس أبناءٌ غير شرعيين أتوا واحدًا تلو الآخر، بينما السيدة سلايتون عاقر عقيم. عَلِم هوك أنها زارت جدته سرًا أثناء رحلة بحثها عن علاج ولكن سحر المرأة العجوز فشل هذه المرة فى أن يأتى بطفل.

زمجر سنوبول بغضب لوقاحة هوك، لكن اللورد سلايتون فاجأه آمراً وهو مقطب:

- اخرجوا! اخرجوا كلكم، باستثنائك أنت يا هوك، ابق.

راقبت السيدة سلايتون الرجال وهم يغادرون القاعة، ثم استدارت واختفت فى غرفة ما خلف القاعة، حدق زوجها إلى نيك هوك دون أن ينبس ببنت شفه، وفى النهاية أشار إلى السهم ذى الريش الرمادى الموضوع على المنضدة البلوطية وقال:

- من أين حصلت عليه يا هوك؟

- لم أره قط من قبل يا سيدى اللورد.

- أنت كاذب يا هوك، أنت كاذب، ولص، ومحتال، وابن زنا، وليس لدى شك فى أنك قاتل أيضًا. إن سنوبول على حق، علىّ أن أضربك بالسوط حتى يَتَكَشَّفَ عظمك، أو ربما علىّ فقط أن أشنقك، إن هذا سيجعل من العالم مكانًا أفضل، عالم بدون هوك.

لم ينطق هوك بكلمة، وظل ينظر فقط إلى اللورد سلايتون. أصدرت النيران قرقعة وطار منها شرر.

استطرد اللورد سلايتون بتذمر:

- لكنك أيضًا أحسن رامى سهام لعين رأيته فى حياتى، أعطنى هذا السهم.

التقط هوك السهم ذا الريش الرمادى وأعطاه إلى سيادته، وتساءل اللورد سلايتون:

- هل أفلت الريش أثناء طيرانه؟

- يبدو الأمر كذلك يا سيدى اللورد.

- أنت لست صانع سهام يا هوك، أليس كذلك؟

- بلى، أنا أصنعهم يا سيدى، لكن ليس كما ينبغى، فلست بقادر أن أستدق السهم بشكل صحيح.

قال اللورد سلايتون وهو يجذب الريش:

- تحتاج إلى مبرد جيد من أجل ذلك! حسنًا، من أين حصلت على هذا السهم؟ أمن أحد الصيادين غير الشرعيين؟

قال هوك بحرص:

- لقد قتلت واحدًا منهم الأسبوع الماضى يا سيدى اللورد.

- لا يفترض بك أن تقتلهم يا هوك، بل يفترض أن تحضرهم إلى قاعة المحكمة؛ وبالتالى يمكننى أن أقتلهم.

- لقد أصاب ابن الحرام غزالاً فى الغابة وحاول الهرب ولذا أصبته بسهم عريض فى ظهره ودفنته خلف تل كاسل.

- ومن كان هذا؟

- إنه متشرد، يا سيدى اللورد أظنه كان يتسكع فقط ولم يكن معه أى شىء سوى قوسه.

قال سيادته:

- قوس وجعبة ملأى بأسهم فى أطرافها ريش رمـــادى!! أنت محظوظ لأن الحصان لم يمت، كنت لأشنقك لـــو حدث ذلك.

- إن الحصان (قيصر) قد خُدِش بالكاد يا سيدى اللـــورد، لا شىء به سوى جرح فى جلده.

- وكيف علمت لو لم تكن هناك؟

قال هوك:

- أسمع بعض الأشياء فى القرية يا سيدى اللورد.

قال اللورد سلايتون:

- أنا أيضا سمعت أشياء يا هوك، عليك أن تترك أفـــراد عائلة بيريل وشأنهم، هل تسمعنى؟ تتركهم وشأنهم!

لم يكن هوك يؤمن بأشياء كثيرة، لكنه أقنع نفسه بطريقةٍ ما أن اللعنة التى تجثم على حياته ستزول لو أنه قتل واحدًا من عائلة بيريل. لم يكن متأكدًا من ماهية هذه اللعنة، اللهـــم إلا إذا كانت هى التوقع المقلق بأن الحياة تحتوى ولا بد أكثر مما تقدمه الضيعة الإقطاعية. ورغم ذلك عندما فكر فى الهرب من خدمة

اللورد سلايتون، هاجمه نذير شؤم قاتم أن بانتظاره كارثة مجهولة وغير مفهومة. كان هذا هو الشكل الأقل وطأة لتلك اللعنة التى لا يدرى كيف يتخلص منها سوى بالقتل، ولكنه مع ذلك أومأ فى طاعة:

- أسمعك يا سيدى اللورد.

قال سيادة اللورد:

- تسمع وتطيع.

وألقى بالسهم على النار الذى بقى لحظة ثم ومض محترقًا، ودار بخلد هوك أن هكذا ضاع سهم عريض الرأس. وقال اللورد سلايتون وقد خفض من صوته:

- إن السير مارتين لا يحبك يا هوك.

ورفع عينيه إلى أعلى ففهم هوك أن سيادته يتساءل إذا ما كانت زوجه لا تزال فى القاعة، فهز هوك رأسه هزة بسيطة يمكن إدراكها نفيًا، فتساءل فخامة اللورد:

- أتدرى لماذا يكرهك؟

أجاب هوك فى غموض:

- لست متأكدًا أنه يحب الكثير من الناس يا سيدى اللورد.

حدق اللورد سلايتون إليه متفكرًا، وقال فى النهاية:

- وأنت أيضا محق فى رأيك عن ويل سنوبول أنه يضعف. كلنا نتقدم فى العمر. وسأحتاج إلى رئيس جديد للرماة، أتفهمنى؟

إن رئيس الرماة هو المسئول عن وحدة رماة الأسهم ووليام سنوبول يشغل هذه الوظيفة منذ وعت ذاكرة هوك، كما يشغل سنوبول أيضا وظيفة وكيل الضيعة الإقطاعية، وقد جعلته الوظيفتان أغنى رجال اللورد سلايتون. أومأ هوك برأسه وتمتم:

- أفهمك يا سيدى اللورد.

- يعتقد السير مارتين أن توم بيريل يجب أن يكون رئيس الرماة القادم، ويخشى أن أوظفك أنت يا هوك، ولا أستطيع أن أفهم لماذا يفكر هكذا، أتستطيع أنت؟

تطلع هوك إلى وجه فخامته، وانتابته رغبة أن يسأل عن أمه، وإلى أى درجة كان سيادته يعرفها، لكنه قاوم ذلك وقال فى تواضع:

- لا يا سيدى اللورد.

- وإذن عندما تذهب إلى لندن يا هوك تعامل بحرص، سوف يصحبك السير مارتين.

- لندن!

أوضح اللورد سلايتون:

- لقد وصلنى استدعاء يطلب منى أن أرسل رماة الأسهم إلى لندن، هل ذهبت إلى لندن من قبل؟

- لا يا سيدى اللورد.

- حسناً، ستذهب إذن، لست أدرى لماذا! إن الاستدعاءات لم تذكر السبب، لكن رماتى سيذهبون لأن الملك أمر بذلك، وربما تكون الحرب؟ لست أدرى، لكن لو كانت حربًا يا هوك لا أريد لرجالى أن يقتل بعضهم بعضًا، من أجل الرب يا هوك لا تجعلنى أشنقك.

- سأحاول يا سيدى اللورد.

- والآن اذهب، وأخبر سنوبول أن يأتى، اذهب.

وذهب هوك.

كان يومًا من أيام يناير، وما زال الجو باردًا، والسماء غائمة والأفق يبدو مظلمًا، رغم أن الوقت لا يزال منتصف الصباح، وكانت بعض زخات خفيفة من الثلج قد تساقطت فى الفجر، ولكن لفترة قصيرة. تجمع الصقيع على الأسقف المصنوعة من القش وتكونت أسطح جليدية رقيقة على البِرك

التى لم يحولها وطء الأقدام إلى وحل. كان نيك هـوك طويـل الساقين عريض الصدر ذا شعر غامق.. وجلس عابسًا خـارج الحانة برفقة سبعة آخرين بينهم أخوه والأخوان بيريـل. كـان هوك يرتدى حذاءً ذا رقبةٍ مرتفعة تصل إلى ركبتيه، وبنطـالين قصيرين ليحمياه من البرد، وقميصًا من الصوف، وسترة جلدية مبطنة بلا أكمام وسترة كتانية قصيرة زُينـت بـشعار اللـورد سلاينون؛ هلالٌ ذهبى وثلاث نجوم ذهبيـة. ارتـدى الرجـال الثمانية أحزمة جلدية ذات جراب علقت بها الخنـاجر الطويلـة والسيوف، وكلهم يرتدون نفس الزى رغم أن أى شخص غريب كان ليضطر للنظر بدقة حتى يميز الهلال والنجمـات الـثلاث، لأن الألوان حالت والسترات اتسخت.

لكن أحدًا لم يدقق النظر، لأن رجالاً مسلحين فى أزيـاء القتال يعنى مشكلة، وهؤلاء الرجال الثمانية رماة أسهم. لم يكن بحوزتهم أقواسهم ولا جعبات الأسهم لكن اتساع صدورهم يشى أنهم من الرجال الذين يمكنهم أن يسحبوا وتر قوس الحرب إلى الخلف مسافة ذراع بأكملها حتى ليظن الرائى أن هـذا عمـل سهل. كان رماة الأسهم هم أحد أسباب الخوف الذى عم شوارع **لندن**، الخوف الذى كان لاذعًا مثل رائحة المجـارير ومنتـشرًا كرائحة دخان احتراق الأخشاب؛ غُلِّقَت أبواب المنازل، وحتـى

الشحاذون اختفوا، ولم يكن هناك سوى القليل من العامة يسيرون في المدينة بين أولئك الذين أثاروا الخوف، وحتى هؤلاء كـــانوا يختارون المرور من الجانب الآخر للطريق بعيدًا عن هـــؤلاء الرماة الثمانية. وحطم نيك هوك الصمت قائلاً:

- يا يسوع المسيح الحبيب.

قال توم بيريل:

- فلتذهب إلى كنيسةٍ إن كنت تريد ترديد الصلوات أيهـــا اللقيط.

زمجر هوك قائلاً:

- سأتغوط في وجه أمك أولاً.

تدخل ويليام سنوبول قائلاً:

- اهدءا أنتما الاثنان.

غمغم هوك في تذمر:

-- لا ينبغي لنا أن نكون هناك، إن لندن ليست مكاننا.

قال سنوبول:

- حسنًا، أنت هنا الآن، ولذا توقف عن العويل.

كانت الحانة تقبع فى زاوية طريق ضيق يقود إلى ميدان السوق الواسع. كان شعار النزل عبارة عن ثور منحوت ومطلى معلق بعارضة كبيرة ترسو على قمة سقف الحانة وتصل إلى عمود آخر مغروز فى ساحة السوق. بالإمكان رؤية رماة آخرين حول الميدان، رجال فى أزياء مختلفة كلهم حضروا إلى **لندن** بأوامر لورداتهم رغم أن أحدًا لا يدرى أين هم أولئك اللوردات. وعلى الجانب البعيد من الطريق هرع اثنان من القساوسة بحزمة من المخطوطات الجلدية. وفى مكان ما فى عمق المدينة سُمعت دقات جرس. نظر أحد القساوسة إلى الرماة الذين يرتدون شعار الهلال والنجمات وكاد أن يتعثر عندما بصق توم بيريل.

تساءل روبرت بيريل:

- ماذا نفعل هنا بحق المسيح؟

أجاب سنوبول بحدة:

- لم يخبرنا المسيح، لكننى متأكد أننا نقوم بعمله.

كان "عمل المسيح" يشمل حراسة الزاوية حيث يصل الشارع إلى الميدان، وقد أُمرَ الرماة ألا يسمحوا لأى رجل أو امرأة بالعبور، سواء دخولاً إلى الميدان أو خروجًا منه. لم يكن

هذا الأمر يسرى على القساوسة وكذا لا يسرى على النبلاء، بل إنه يسرى فقط على العامة، وهؤلاء العامة كان لديهم من الحكمة ما أبقاهم قابعين داخل منازلهم، ودخلت إلى الشارع سبع عربات يجرها يدويًا رجال خشنون وقد حُمِّلَت بخشب الوقود والبراميل والأحجار وأعمدة خشبية طويلة. وقد صحب هذه العربات رجالٌ مسلحون فى الزى الرسمى الملكى، بينما بقى الرماة صامتين فى سكون أثناء مرورهم.

وأتت فتاة بدينة بوجهها ندوب تحمل قِدرًا من الجعة أتت به من الحانة، وملأت أوعية الرماة ولم يبد علـــى وجههـــا أى تعبير عندما تحسس سنوبول أسفل تنوراتها الثقيلات. وانتظرت حتى انتهى مما يفعل ثم مدت إليه يدها.

قال سنوبول:

- لا، لا يا عزيزتى، لقد قدمت إليك معروفًا ولذا يجب أن تكافئيننى.

استدارت الفتاة وذهبت إلى الداخل. كان مايكل؛ أخو هوك الأصغر يحدق فى الطاولة، وسخر توم بيريـــل مـــن ارتبـــاك الشاب، لكنه لم يقل شيئًا. ثمة بعض البهجة فى إثارة مايكل لكنه كان طيب القلب لدرجة عدم إدراك الإهانة.

شاهد هوك الرجال المسلحين وهم يوقفون العربات في منتصف ساحة السوق، حيث أقاموا عمودين قائمين في اثنين من البراميل الكبيرة، وثُبِّتَت الأعمدة داخل البراميل بالأحجار والحصى، واختبر أحد الرجال المسلحين أحد الأعمدة القائمة محاولاً أن ينزعه أو يزحزحه، لكن العمل كان متقنًا بالفعل فلم يستطع أن يزحزح العمود الخشبي الطويل، قفز إلى الأسفل وبدأ العمال يكدسون حِزَمَ أخشاب الوقود حول البرميلين.

قال سنوبول:

- خشب وقود ملكي يحرق أكثر لمعانًا.

تساءل مايكل هوك:

- حقا؟

كان يميل إلى تصديق كل ما يقال له، وانتظر بلهفة إجابةً عن سؤاله لكن بقية الرماه تجاهلوه.

وبدلاً من أن يجيبه قال توم بيريل في النهاية:

- أخيرًا.

شاهد هوك جمعًا متزاحمًا صغيرًا يخرج من الكنيسة في الجانب البعيد من ميدان السوق، كان جمعًا من العامة عادي

الطلعة لكنهم كانوا محاطين بالجنود والرهبان والقساوسة، أحد هؤلاء القساوسة توجه الآن نحو الحانة التى تسمى (الثور).

قال سنوبول:

- ها هو ذا السير مارتين.

وكأن رفاقه لم يعرفوا القسيس الذى ابتسم ابتسامةً عريضةً عندما اقترب، شعر هوك برجفة كراهية عندما اقترب السير مارتين، النحيل كثعبان السمك، يخطو خطواته الواسعة، بوجهٍ يعوزه التناسق وعينين حادتين غريبتين يظن البعض أنهما تنظران إلى ما وراء هذا العالم إلى العالم الآخر، وإن تفاوتت الآراء أتنظران إلى الجحيم أم إلى الجنة، وكانت جدة هوك تحب أن تردد:

- لقد مسه الشيطان ولو لم يولد فى طبقة النبلاء لكان الآن مشنوقًا.

لم يكن لديها شك.

وقف الرماة باحترامٍ ممزوج بالضغينة حين اقترب القس، فحياهم السير مارتين قائلاً:

- إن العمل من أجل الرب ينتظركم يا شباب.

كان شعره الأسود قد بدأ فى التحول إلى اللون الرمـــادى على الجانبين، وبدأ كذلك فى النحول من أعلاه. لم يكن قد حلق شعر ذقنه الطويل لعدة أيام، فصارت مغطاة بالشعر الأبيض مما ذَكَّر هوك بالجليد، وقال السير مارتين:

- إننا نحتاج إلى سلم، والسير إدوارد يجلب الحبال، مــن الجميل أن ترى النبلاء يعملون، أليس كذلك؟ نحن نحتـــاج إلى سلمٍ طويل، لابد أن هنالك واحدًا فى مكانٍ ما.

قال ويل سنوبول:

- سلم.

وكأنه لم يسمع عن شىء كهذا من قبل.

قال السير مارتين:

- طويلٌ بما يكفى ليصل إلى تلك العارضة.

وأشـــار برأسه إلى علامة الثور المعلقة فوق رؤوســـهم وقال بحيرة:

- طويل، طويل.

وكأنه قد نسى بالفعل ما كان ينوى عمله.

قال ويل سنوبول لاثنين من الرماة:

- ابحثا عن سلم، عن واحد طويل.

عاد انتباه السير مارتين مرةً أخرى إلى الرماة قائلاً:

- لست أريد سلالم قصيرة من أجل أعمال الرب.

فرك يديه النحيلتين معًا وعبس فى وجه هوك وأضاف بسعادة وكأنه يتمنى موته:

- تبدو مريضًا يا هوك.

قال هوك:

- إن للجعة نشوتها.

قال القس:

- ذلك أن اليوم هو الجمعة وعليك أن تتجنب تناول الجعة يومى الأربعاء والجمعة، لقد كان القديس نيكولاس المبارك الذى سميت باسمه يرفض ثديى أمه يومى الأربعاء والجمعة وفى هذا درس! فلا سعادة لك يا هوك يومى الأربعاء والجمعة. لا جعة ولا سعادة ولا نساء، هذا هو قدرك للأبد. ولماذا يا هوك، لماذا؟

توقف السير مارتين قليلاً وتغضن وجهه الطويل بعبوسٍ حاقدٍ واستطرد:

- لأنك رضعت من الأثداء المتهدلـــة للـــشيطان، ولـــن تأخذنى بأبنائها شفقة، هكذا يقول الكتاب المقدس، لأن أمهم مارست العُهر.

ضحك توم بيريل ضحكات مكتومة، وتساءل ويل سنوبول فى إجهاد:

- ماذا نفعل هنا يا أبتى؟

- عملٌ للرب، يا سيد سنوبول، أعمال الـــرب المقدســـة، اذهب إليها.

تم إحضار السلم بينما السير إدوارد ديرونت يعبر الميدان بأربعة حبال ملفوفة حول كتفيه العريضين. كان الـــسير إدوارد أحد الرجال المسلحين، يرتدى نفس الزى العسكرى للرماة وإن كان معطفه أنظف وألوانه أكثر إشراقًا. كان قـــصيرًا ربعـــة ذا صدرٍ عريض وله وجهٌ تشوه فى معركة شروزبرى، حيث شق أحدهم خوذته بفأس حرب فسحق عظام وجنته وقطـــع إحـــدى أذنيه. قال:

- اعقدوا الحبال.

وقذف بلفائف الحبال الثقيلة على الأرض، ثـم اسـتطرد مفسرًا:

- أريدهم معقودين فى العارضة الخشبية، ولن أتسلق أنا أى سلالم.

كان السير إدوارد يقود رجال اللورد سلايتون الذين كانوا يحترمونه ويخافونه فى ذات الآن، وألقى أوامره قائلاً:

- قم بذلك يا هوك.

تسلق هوك السلم وربط حبال الجـرس إلـى العارضـة الخشبية، وعقد نفس العقدة التى يستخدمها ليربط الوتر الكتـانى إلى طرفي القوس، رغم أن الحبال كانت معالجتها أصعب لأنها أكثر سمكًا. وعندما انتهى نزل متشبثا بالحبل الأخير ليُظهِر أنه رُبِط بإحكام. قال السير إدوارد بحدة:

- دعونا نقوم بهذا وننتهى منه، لربما بعد ذلك يمكننا أن نترك هذا المكان الملعون. لمن هذه الجعة؟

قال روبرت بيريل:

- إنها لى، يا سير إدوارد.

قال السير إدوارد:

- إنها لى الآن.

وأفرغ الإناء فى جوفه.

كان يرتدى معطفًا يكسوه درع، وفوقهما سترة جلدية ذات لمعة معدنية ويعلق سيفًا فى خصره لا يحيطه أى شيء، وقد عرف هوك أن النصل غير المزخرف، من الصلب العادى، والمقبض ثنائى من اثنتين من جوز الهند مثبتتين إلى طرف النصل. كان السيف إحدى الأدوات التى تميز مظهر السير إدوارد، وقد استعمله ليصرع ذلك الثائر الذى شوه نصف وجهه بفأسه الحربية.

قاد الجنود والقساوسة الجمع الصغير إلى وسط الساحة، حيث ركع معظمهم وأخذوا يصلون، كانوا تقريبًا ستين شخصًا من الرجال والنساء شبابًا وكبارًا. وقال السير مارتين بنبرة آسفة:

- لا نستطيع إحراقهم كلهم ولذا نرسل معظمهم إلى الجحيم عبر حبال المشانق.

قال السير إدوارد فى تذمر:

- لو أنهم مهرطقون؛ يجب أن يُحرَقُوا كلهم.

رد السير مارتين ببعض الخشونة:

- لو أن الرب أراد هذا لوفر ما يكفى من خشب الوقود.

بدأ المزيد من الناس فى الظهـــور. والخـــوف لا يـــزال متغلغلاً فى المدينة، لكن العامة شعروا بطريقةٍ مـــا أن أعظـــم لحظات الخطر قد ولَّت، فبدأوا يتوافدون علىٍ ساحة السوق وقد أمر السير مارتين الرماة أن يدعوهم يمرون وقال مبررًا ذلك:

- يجب أن يروا هذا من أجل أنفسهم.

كان الجمع فى عبوس وبدا تعاطفهم واضحًا مع المساجين وليس مع الحراس، رغم أن راهبًا أو قسيسًا هنا وهنـــاك يلقـــى عظَةً مرتجلة ليبرر أحداث ذلـــك اليـــوم قـــائلين: إن هـــؤلاء المنكوبين كانوا أعداء للمسيح؛ هم أعشاب ضارة بين الحنطـــة السليمة، وقد مُنِحُوا فرصة للتوبة لكنهم رفضوا هذه الرحمة ولذا يجب أن يواجهوا مصيرهم المحتوم.

وتساءل هوك:

- مَنْ هؤلاء، على أى حال؟

قال السير إدوارد:

- مهرطقون.

- ومن هو المهرطق؟

قال سنوبول فى سعادة:

- منشق يا قطعة من الوحل، وكان يُفْتَرَض أن يجتمع أولاد الحرام هؤلاء ها هنا ليبدأوا ثورة ضد مَلِكنا الكريم ولكن بدلاً من ذلك سيذهبون إلى الجحيم.

قال هوك:

- إنهم لا يبدون كالثوار.

كان أغلب السجناء متوسطى العمر، بعضهم من العجائز وبعضهم كانوا صغارًا للغاية وكان بينهم أيضا نساءٌ وفتيات.

قال سنوبول:

- لا يهم كيف يبدون، إنهم زنادقة ويجب أن يموتوا.

قال السير مارتين بغضب:

- إنها إرادة الرب.

تساءل هوك:

- وما الذى جعلهم زنادقة؟

قال السير مارتين بحدة:

- أوه، نحن فضوليون اليوم.

قال مايكل:

- أنا أيضًا أريد أن أعرف ذلك.

قال السير مارتين بصبرٍ نافد:

- لأن الكنيسة تقول إنهم زنادقة.

ثم استطرد وقد لان صوته قليلاً:

- هل تؤمن يا مايكل هوك أننى إذا ما رفعت خبز القربان المقدس يتحول إلى اللحم الأكثر قداسة والمحبوب والمتسامى للرب المسيح عيسى؟

- نعم يا أبتى بالطبع!

قال القس وهو يشير برأسه إلى المارقين الراكعين فى الوحل:

- حسنا، إنهم لا يؤمنون بذلك، إنهم يؤمنون بأن الخبز يبقى خبزاً مما يجعل رؤوسهم تشبه البول والبراز، وهل تؤمن أن أبانا المبارك؛ (البابا) هو نائب الرب على الأرض؟

قال مايكل:

- نعم يا أبتى.

- اشكر المسيح على ذلك، وإلا كان على أن أحرقك.

قال سنوبول:

- كنت أحسب أن هناك اثنين من الباباوات!

تجاهل السير مارتين ذلك، وتساءل:

- هل رأيت آثمًا يحرق من قبل يا مايكل هوك؟

- لا يا أبتى.

ابتسم السير مارتين ابتسامةً عريضة فاسقة، وقال:

- إنهم يصرخون يا هوك الصغير، كخنزيرٍ يخصى، يصرخون مثله تمامًا!

واستدار فجأة ودفع إصبعه الطويل النحيل فى صدر نيك هوك قائلاً:

- وعليك أنت أن تنصت إلى صرخاتهم يا نيكولاس هوك فهؤلاء هم وقود جهنم.

ووخز صدر هوك مرةً أخرى قائلاً:

- وأنت موسوم للجحيم.

ودار القس حول نفسه وقد فرد ذراعيه عن آخرهما، مما ذكر هوك بطائر أسود عظيم يفرد جناحيه الداكنين:

- اتقوا الجحيم، يا أولاد.

ونادى فيهم بحماس:

- اتقوه! لا نساء يومي الأربعاء والجمعة، ونفذوا أوامر الرب باجتهاد كل يوم!

عُلِّقَت المزيد من الحبال فوق المزيد من العارضات الخشبية للأعمدة حول ساحة السوق، وقام الجنود الآن بتقسيم السجناء بشكل غير دقيق إلى مجموعات دُفِعَت نحو المشانق المؤقتة. وبدأ أحد الرجال يصيح في أصدقائه يدعوهم أن يحتفظوا بإيمانهم بالرب، وسيلتقون كلهم في الجنة قبل أن ينتهي هذا اليوم، واستمر في الصياح حتى كسر أحد الجنود الذين يرتدون الزي الملكي فكه بقبضته المغطاة بالدروع. كان الرجل الذي كُسِر فكه أحد الاثنين اللذين اختيرا للحرق، وقد وقف هوك بعيدًا عن رفاقه، يراقب الرجل الذي رُفِع فوق البرميل الممتلئ [illegible] وحجارة ورُبِط إلى العمود الخشبي، ووُضِع المزيد من [illegible] الوقود حول قدميه.

قال سنوبول متذمرًا:

- هيا يا هوك، لا تغرق فى الأحلام.

كان الحشد المتنامى لا يزال متجهمًا، وبدا القليل من العامة سعداء، لكن الأغلبية كانوا مستائين، متجاهلين القساوسة الذين يلقون عليهم عظاتهم وأداروا ظهورهم إلى مجموعة من الرهبان الذين يرتدون ملابس بنية اللون ويهتفون بأغنية تمتدح أحداث اليوم السعيدة.

قال سنوبول لهوك:

- ارفع الرجل العجوز، لدينا عشرة لنقتلهم، وبذلك نتم المهمة!

كانت إحدى العربات التى جلبت خشب الوقود قد وقفت خاوية تحت العارضة الخشبية، وكان على هوك أن يرفع الرجل فوقها، بينما ينتظر الستة الباقون؛ أربعة رجالٍ وامرأتان؛ تعلقت إحدى المرأتين بزوجها بينما أدارت الأخرى ظهرها وركعت على ركبتها تصلى، كان كل السجناء الأربعة على العربة من الرجال، وكان أحدهم عجوزًا ربما فى عمر جد هوك، قال العجوز بينما هوك يلف الحبل الغليظ حول عنقه:

- إننى أسامحك يا بنى، أنت رامٍ، أليس كذلك؟

لم يجب هوك على تساؤل المهرطق، استكمل ضحية هوك وهو يتطلع إلى السحب الرمادية بينما هوك يُحكِم الحبل:

- لقد كنت هناك فى معركة تل هوميلدون(١٠) حيث رميت بالقوس من أجل مليكى، كنت أرسل السهم وراء الآخر، يا بنى، فى الاسكتلنديين، كنت أسحب الوتر بشدة وأطلق بحدة وليسامحنى الرب لكننى كنت جيدًا فى ذلك اليوم.

ونظر إلى عينى هوك قائلاً:

- لقد كنت رامى سهام.

كان لبعض الأشياء مكانة خاصة غالية لدى هوك، فبالإضافة إلى أخيه، وإلى أى عاطفة يحسها تجاه أى فتاة بين ذراعيه، كان للرماة مكانة خاصة. كان هوك يعتبرهم أبطالاً وفى رأيه أن إنجلترا لا يحميها الرجال الذين يرتدون الدروع

---

(١٠) تل هوميلدون (Homildon Hill): معركة حربية بين القوات الإنجليزية والاسكتلنديين جرت فى ١٤ سبتمبر ١٤٠٢م وانتهت بهزيمة الاسكتلنديين وقد ذكرها (شكسبير) فى مسرحية "هنرى الرابع". (المترجم).

اللامعة فوق الخيول المزينة، ولكن يحميهـا الرمـاة، رجـال عاديون يبنون ويحرثون ويصنعون، ويمكنهم أن يسحبوا قـوس الحرب ويرسلوا سهمًا مائتى خطوة ليصيب هدفًا فى حجم راحة يد الرجل. ولذا تطلع هوك فى عينى الرجل العجوز ولـم يـر زنديقًا ولكنه رأى قوة وفخر رامى سهام، رأى نفـسه، وأدرك فجأة أنه قد يكون مثل هذا الرجل العجوز، وكبح هـذا الإدراك يديه.

قال الرجل بلطف:

- لن تستطيع فعل شىء حيال هذا يا بنى، لقد حاربت من أجل الملك القديم وابنه يريدنى الآن ميتًا، اسحب الحبل بإحكام، يا بنى، اسحبه بإحكام، وعندما أمضى، افعـل شيئا من أجلى يا بنى.

أومأ هوك برأسه إيماءة بسيطة وهو ما يمكن أن يكـون إشارة إلى أنه سمع طلب الرجل أو دلالة على موافقته أن يسدى للرجل معروفًا فيفعل أى شىء قد يطلبه منه.

سأله الرجل العجوز:

- هل ترى الفتاة التى تصلى، إنها حفيدتى، سارة، إنهـا تدعى سارة، خذها بعيدًا مـن أجلـى، إن موعـدها

للصعود إلى الأمجاد السماوية لم يحن بعد، ولذا خذها بعيدًا، أنت شاب يا بنى، أنت قوى وتستطيع أن تأخذها بعيدًا من أجلى.

دار بخلد هوك:

- كيف؟

وسحب عقدة الحبل بوحشية مريرة فانقبضت على رقبة الرجل العجوز وقفز من العربة فانزلق نصف انزلاقة فى الوحل. كان سنوبول وتوم بيريل اللذان قاما بإعداد المشانق الأخرى قد نزلا بالفعل من العربة.

كان السير مارتين يقول:

- إنهم عامة بسطاء، مجرد عامة بسطاء لكنهم يظنون أنهم يعرفون أفضل من الكنيسة الأم؛ لذا يجب أن يتلقوا درسًا حتى لا يتبعهم بقية العامة إلى نفس الخطأ، لا تأخذكم بهم شفقة، لأن ما نقيمه هنا إنما هو رحمة الرب، رحمة الرب غير المحدودة!

وأقيمت رحمة الرب غير المحدودة بسحب العربة بحدة من تحت أقدام الرجال الأربعة. فسقطوا قليلاً ثم اهتزوا وتلَّووا. راقب هوك الرجل العجوز متأملاً الصدر البرميلى الواسع

لرامى السهام، كان الرجل يختنق وترتجف ساقاه ثم تعتدل ثـم تنثنى ثانية، لكنه حتى فى عذاب احتضاره كان ينظـر بعينيـه الجاحظتين إلى هوك وكأنه يتوقع من الرجل الشاب أن ينتـزع حفيدته سارة من ساحة السوق. سأل ويل سنوبول السير إدوارد:

- هل سننتظرهم حتى يموتوا، أم نشد على كواحلهم؟

بدا السير إدوارد وكأنه لم يسمع السؤال. لقد تشتت انتباهه مرة أخرى وبدت عيناه بلا تركيز على الرغم من أنـه يبـدو محملقًا فى أقرب رجل مربوط فى العمود الخشبى. كـان أحـد القساوسة يلقى عظة على المهرطق ذى الفك المكسور، بينمـا وقف أحد الرجال المسلحين وقد كست الخوذة وجهـه بـالظلال العميقة يحمل مشعلاً ملتهبًا جاهزًا. قال سنوبول:

- وإذن، سأتركهم يتأرجحون يا سيدى السير.

ولم يتلق أيضًا أى إجابة.

- يا إلهى.

وبدا صوت السير مارتين وهو يقول تلك الكلمات موقرًا، بنفس نغمة صوته فى كنيسة الإبرشية عندما يقرأ القداس.

- يا إلهى، يا إلهى، يا إلهى، يا إلهى، انظر فقط لهذا الجمال الصغير.

كان القس يحدق إلى سارة التى نهضت من ركوعها على ركبتيها، ووقفت تحدق فى معاناة جدها وقد كست وجهها تعبيرات الرعب وقال القس بوقار:

- يا إلهى المجيد.

كان نيكولاس هوك غالبًا ما يتساءل كيف تبدو الملائكة؟! ورغم أن جدار كنيسة القرية كانت عليه لوحات تمثل الملائكة فإنها كانت خرقاء، فقد كان على وجوههم نقاط وثيابهم وأجنحتهم قد صارت مصفرة ومخططة بفعل الرطوبة التى تتسرب عبر الجص والقرميد. لكن هوك رغم ذلك فهم أن الملائكة مخلوقات ذات جمالٍ غير أرضى. كان يعتقد أن أجنحتها لابد أن تكون مثل أجنحة (مالك الحزين)[١١]، فقط أكبر منها، ومصنوعة من ريشٍ يلمع كما تلمع الشمس خلال ضباب

(١١) طائر مالك الحزين (Heron): نوع من الطيور يشبه أبو قردان ويتغذى على الأسماك والضفادع والحشرات والفئران والأفاعى وهو شره يأكل أربعة أضعاف وزنه من الطعام، له سيقان طويلة ويمتاز بلون ريشه الأبيض وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه شاع بين الناس أن هذا الطائر يعزف أجمل الألحان بصوته عندما يجرح وينزف الدماء. (المترجم).

الصباح، وتوقع أن للملائكة شعرًا ذهبيًا طويلاً وملابس نظيفة من أكثر أنواع الكتان بياضًا. كان يعرف أنهم مخلوقات خاصة، كائنات مقدسة لكنهم فى أحلامه كانوا أيضا فتيات جميلات يمكن أن يسكنَّ أفكار الشباب. كانوا الجمال نفسه بأجنحة من نور. كانوا ملائكة.

وهذه الفتاة المارقة كانت جميلة كالملائكة التى يتخيلها هوك، لم يكن لديها أجنحة بالتأكيد، ملابسها موحلة وقد شوه الرعب الذى شاهدته وجهها، وكذا يقينها أنها هى الأخرى ستشنق بالتأكيد. لكنها لا تزال جميلة. كانت عيناها زرقاوان، ولها شعر أشقر وعظام وجه عالية وبشرة ناعمة لم يمسسها الجدرى. كانت فتاة تخطف أفكار الشاب، أو أفكار قس فى هذه الحالة، وتساءل السير مارتين دون أى انفعال:

- هل ترى هذه البوابة يا مايكل هوك؟

كان القس قد تطلع بحثًا عن الأخوين بيريل لينفذا أوامره، لكنهما كانا بعيدين، ولذا اختار أقرب الرماة منه.

- خذها عبر تلك البوابة وأبقها داخل الإسطبل هناك.

بدا شقيق نيك هوك الأصغر مشوشًا وسأل:

- آخذها؟

- لا تأخذها! ليس لك أيها الغبـــي ذو العقـــل المقــرف الموحل! انقل هذه الفتاة فقط إلى إســـطبلات الحانـــة! أريد أن أصلى معها.

قال مايكل بابتسامة:

- أووه، تريد أن تصلى!

تساءل سنوبول بضحكة مكتومة ساخرة:

- تريد أن تصلى معها يا أبتى؟

قال السير مارتين بتقوى:

- إذا تابت فسوف تعيش.

كان القس يرتجف، ولم يكن هوك يعتقد أن ما جعله كذلك هو البرد.

قال السير مارتين:

- إن المسيح برحمته ومحبته يسمح بذلك.

وتنقلت عيناه من الفتاة إلى سنوبول واستطرد قائلاً:

- ولذا دعنا نرى إذا ما كنا نستطيع أن نجعلها تتوب؟ يا سير إدوارد؟

- أيها الأب؟

قال السير مارتين:

- سأصلى مع الفتاة!

ولم يجبه السير إدوارد، كان لا يزال يحدق في أقرب المحارق إليه ولم تكن قد اشتعلت بعد، حيث تجاهل قائد المهرطقين كلمات القس وتطلع إلى السماء.

وألقى السير مارتين بأوامره:

- خذها يا هوك الصغير.

وراقب نيك هوك أخاه وهو يأخذ بمرفق الفتاة، كان مايكل فى مثل قوة نيك تقريبًا لكن كان له من اللطف والإخلاص ما هدأ من روع الفتاة، قال بلطف:

- تعالى يا فتاة، إن هذا الأب الطيب يريد أن يصلى معك، لذا دعينى آخذك. لن يقدم أحد على إيذاءك.

ضحك سنوبول ضحكة مكتومة بينما مايكل يقود الفتاة المستسلمة عبر بوابة الفناء إلى الإسطبل، حيث ربطت خيول الرماة. كان المكان باردًا ومُغبَرًا وتفوح فيه رائحة التبن والروث. وتبع نيك هوك هذا الثنائى. قال لنفسه إنه يتبعهما

ليحمى أخاه، لكنه فى الحقيقة كان مـدفوعًا بكلمـات الرامـى المحتضر، وعندما وصل إلى باب الإسطبل رفع رأسه فـرأى نافذة فى السقف الهرمى، وعلى حين غرة سمع صوتًا كأنه ينبع من العدم يتردد فى رأسه قائلاً:

- خذها بعيدًا.

كان صوت رجل، لكنه شخص لا يبدو أن نيـك هـوك يعرفه وعاد الصوت يقول:

- خذها بعيدًا، ولك الجنة.

قال نيك هوك بصوت عالٍ:

- الجنة؟

قال مايكل:

- هوك؟

كان لا يزال يمسك بمرفق الفتاة، والتفت إلى أخيه الأكبر لكن نيك هوك كان يحدق فى النافذة العالية المضيئة.

قال الصوت:

- أنقذ الفتاة وحسب.

لم يكن هناك أحد فى الإسطبل سوى الأخوين وسارة، لكن الصوت كان حقيقيًا وكان هوك يرتجف. لو يستطيع فقط إنقاذ الفتاة، لو يستطيع أخذها بعيدًا، لم يمر بشىء كهذا من قبل قط، كان عادة ما يظن نفسه ملعونا، مكروهًا حتى من القديس الذى يحمل اسمه، وفجأة عرف أنه إذا أنقذ الفتاة فسيحبه الرب، وسيغفر له أفعاله التى جعلت القديس نيكولاس يكرهه أيًا كانت. لقد عُرِض الخلاص على هوك، إنه هناك خلف النافذة، ويَعِدُه بحياة جديدة، لن يكون بعد الآن نيك هوك الملعون، عرف هذا لكنه لا يعلم السبيل!!

زمجر السير مارتين فى هوك قائلاً:

- ماذا تفعل هنا باسم الرب؟

لم يجبه، كان يحدق فى السحب وراء النافذة، وقد تحرك حصانه الرمادى وضرب بحافره الأرض ونفخ زفرة من الهواء من أنفه، لمن هذا الصوت الذى سمعه؟

دفع السير مارتين بنيك هوك متجاوزًا إياه ليحدق فى الفتاة، وابتسم القس وقال بصوت أجش:

- أهلاً، أيتها السيدة الصغيرة.

ثم التفت إلى مايكل آمرًا باقتضاب:

- انزع عنها ملابسها.

تساءل مايكل فى عبوس:

- أجردها من ملابسها؟

فسّر القس قائلاً:

- يجب أن تكون عارية أمـــام ربهـــا، ليـــستطيع ربنـــا ومخلصنا أن يحكم عليها كما هى على حقيقتها، فـــى العرى تكمن الحقيقة هكذا يقول الكتاب المقدس، فـــى العرى تكون حقيقتنا.

لم يكن الكتاب المقدس يقول ذلك فى أى موقع منه، لكـــن السير مارتين كان غالبًا ما يجد هذا الاقتباس الملفق مفيدًا.

- لكن...

كان مايكل لا يزال مقطبًا. كان أخو نيك الأصغر معروفًا ببطء فهمه الشديد، لكن حتى هو أدرك أن هنالك شيئًا خاطئًا فى الإسطبل ذى الجو الشتائى.

زمجر القس فيه قائلاً:

- افعل ذلك!

قال مايكل بعناد:

- لكن هذا خطأ.

قال السير مارتين بغضب:

- أووه، من أجل المسيح.

ودفع مايكل بعيدًا عن طريقه، وأمسك بطوق ثوب الفتاة، أطلقت الفتاة صياحًا يائسًا قصيرًا، لم يكن صرخةً بالضبط، وحاولت أن تتراجع فارةً بنفسها. راقب مايكل ما يحدث برعب، أما نيك هوك فقد كان صدى الصوت الغامض ومشهد الجنة لا يزالان فى مخيلته، ولذا خطا خطوةً واسعةً سريعةً إلى الأمام ودفع قبضته فى بطن القس بقوة جعلت السير مارتين ينثنى على نفسه بصيحةٍ نصفها الألم ونصفها الدهشة.

قال مايكل مذعورًا مما فعل أخوه:

- نيك!

أخذ هوك بمرفق الفتاة، واستدار نصف استدارة نحو النافذة البعيدة. صاح السير مارتين بصوتٍ متقطع الأنفاس ممتلئ بالألم:

- النجدة! النجدة!

استدار هوك ليسكته، لكن مايكل وقف بينه وبين القس، وقال مرةً أخرى:

- نيك!

وعندها كان الأخوان بيريل قد جاءا راكضين. قال الأب مارتين بصوت مندهش:

- لقد ضربنى!

عبس توم بيريل فى حين بدا أخوه الأصغر روبرت مرتبكًا بالضبط مثل مايكل، وأصدر القس أوامره وقد ارتسمت على وجهه الطويل تعبيرات الألم:

- امسكاه، فقط امسكا هذا اللقيط!

كان صوته نصف مختنق إذ يكافح ليلتقط أنفاسه وقال لاهثًا:

- خذاه للخارج! واحتجزاه.

ترك هوك نفسه يُقَاد إلى فناء الإسطبل، وتبعه أخوه ووقف مستاء يحدق فى الرجال المشنوقين بالضبط هنالك خلف البوابة المفتوحة، حيث بدأت السماء تذرف أمطارًا خفيفة باردة. وأحس نيك هوك فجأة بأنه مستنزف، لقد ضرب قسيسًا: قسيس كريم الأصل، رجلٌ من طبقة النبلاء، صهر اللورد سلايتون نفسه. كان الأخوان بيريل يسخران منه، لكن هوك لم يسمع

كلماتهما وسمع بدلاً منهما صوت تمزيق جلباب سارة وسمع صرختها وسمع تلك الصرخة تُكتَم وسمع حفيف القش وشخير السير مارتين، ونشيج سارة، وتطلع هوك إلى الغيوم الكثيفة، وإلى دخان خشب الوقود الذى يقبع فوق المدينة ثقيلاً مثل غيمة وعلم أنه خذل الرب. كانوا يخبرونه طوال حياته أنه ملعون، ثم وفى موضع موت طلب منه الرب أن يفعل شيئًا واحدًا فقط لكنه أخفق، وسمع صرخةً عظيمةً قادمةً من ساحة السوق، وخمن أن إحدى النيران قد اشعلت لتحمل مهرطقًا إلى المزيد من نيران الجحيم، وراوده الخوف أن يذهب هو نفسه إلى الجحيم لأنه لم يفعل شيئًا لإنقاذ الملاك ذى العينين الزرقاوين من القسيس ذى الروح السوداء. لكنه بعد ذلك قال لنفسه: إن الفتاة كانت مهرطقة وتساءل هل كان الشيطان هو الذى تحدث داخل رأسه؟! كانت الفتاة تلهث الآن وتحول اللهاث إلى تشنجات ورفع هوك رأسه إلى الريح والمطر الخفيف المتساقط.

خرج السير مارتين من الإسطبل على وجهه ابتسامة عريضة، أخذ يرفع ثيابه عند خصره ثم يتركها تسقط، وقال:

– إنها هناك، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلاً. هل تريدها يا توم؟

واستطرد موجهًا حديثه إلى الأخ الأكبر في عائلة بيريل:

- هى لك إذا كنت تريدها، إنها شـىءٌ صـغيرٌ، غـض أيضًا، فقط، اقطع عنقها عندما تنتهى منها.

تساءل توم بيريل:

- ألن نشنقها يا أبتى؟

قال القس:

- اقتل تلك العاهرة وحسب، كنت لأفعل هذا بنفسى لكـن الكنيسة لا تقتل الناس، نسلمهم لأولى القوة مثلـك يـا توم، لذا اذهب وامتطِ تلك المهرطقة العاهرة ثم حـز رقبتها، وأنت يا روبرت، امسك هوك، وأنت يا مايكل، ليس لديك شيء لتفعله حيال هذا الأمر، اذهب!

تردد مايكل فقال له نيك هوك بصوتٍ متعب:

- اذهب، فقط اذهب.

أمسك روبرت بيريل ذراعى هوك خلف ظهـره، كـان بإمكان هوك أن يسحب ذراعيه بكل سهولة لكنه كان لا يـزال مأخوذًا بالصوت الذى سمعه وبغبائه أن ضرب السير مـارتين، كانت هذه إهانةً تستدعى شنقه، لكن السير مارتين يريد أكثر من

مجرد موته، وبدأ السير مارتين يضرب هوك بينمـــا روبـــرت بيريل ممسكٌ به. لم يكن القس قويًا ولم تكن لديه عضلاتٌ كبيرة كالتى لدى الرماة، لكنه بصق فى وجهه ووجّه ضربةً عنيفةً بيده النحيلة ذات المفاصل البارزة إلى وجه هوك وصـــرخ الـــسير مارتين:

- لست إلا قطعة من غائط ساقطة مومس.

وضربه ثانيةً محاولاً إيذاء عينيه وصاح:

- أنت رجلٌ ميت يا هوك، سأجعل منك شيئًا مثل هذا.

وأشار السير مارتين إلى أقرب محرقة. كان الدخان كثيفًا حول العمود الخشبى، لكن اللهب كان مشتعلاً عند قاعدة الكومة حيث تبين عبر الدخان الرمادى قامة محنية مثل قوس مـــشدود. قال السير مارتين وهو يضرب هوك ثانيةً:

- يا ابن الحرام، كانت أمك عاهرةً شبقةً تفتح فخـــذيها، ولقد تغوطتك عاهرًا مثلها.

وضرب هوك مجددًا، ثم علا لهيب النار وســـط دخـــان المحرقة وتردد فى ساحة السوق صراخ كأنه عويـــل خنزيـــرٍ يخصى.

- ماذا يحدث باسم الرب؟

كان السير إدوارد قد سمع غضبة القس وأتى إلى ساحة الإسطبل ليكتشف السبب.

كان القس يرتجف وقد غطت الدماء قبضته، فقد شق شفتى هوك وأسال الدم من أنفه لكن هذا ما زال قليلاً، كانت عيناه مفتوحتين عن آخرهما وتمتلآن بالغضب والسخط، ولكن هوك اعتقد أنه رأى غضبًا شيطانيًا فى عمقهما، وقال السير مارتين مفسرًا:

- لقد ضربنى هوك ويجب أن يُقتَل.

نقل السير إدوارد بصره من القسيس الغاضب إلى الرامى الذى غطت الدماء وجهه، وقال:

- هذا الأمر يرجع إلى اللورد سلايتون وهو من يقرر فيه.

قال السير مارتين:

- وهو سيقرر شنقه، أليس كذلك؟

وجّه السير إدوارد حديثه إلى هوك متسائلاً:

- هل ضربت السير مارتين؟

اكتفى هوك بأن أومأ برأسه بالإيجــاب، كــان لا يــزال يتساءل أهو الرب من تحدث إليه فى الإسطبل أم هو الشيطان؟

قال السير مارتين:

- لقد ضربنى.

ثم اندفع فى تشنجٍ مفاجئٍ ومزق سترته الرسمية ومــزق شعار الهلال والنجوم قطعًا وألقى مِزَق الشعار فى الوحل قائلاً:

- إنه لا يستحق حمل هذا الشعار.

ووجّه أوامره إلى روبرت بيريل:

- أحضــر حبلاً، حبلاً أو وتر قوس وقيد يديــه! وخــذ سيفه!

قال السير إدوارد:

- سآخذه أنا.

وسحب سيف هوك الذى ترجع ملكيته إلى اللورد سلايتون من غمده، وقال آمرًا:

- اتركه لى يا بيريل.

وسحب هوك إلى بوابة الفناء.

- ماذا حدث؟

قال هوك:

- كان ينوى أن يغتصب الفتاة يـــا ســـير إدوارد، ولقـــد اغتصبها بالفعل!

قال السير إدوارد بنفاد صبر:

- حسنًا، لقد اغتصبها بالتأكيد، هذا ما يفعله القس الموقر السير مارتين.

قال هوك دون تفكيرٍ:

- ولقد تحدث الرب إلىّ.

- ماذا؟!

وحدّق السير إدوارد إلى هوك كما لو أن رامى السهام قد ادعى توًا أن السماء تمطر مخيض الحليب.

قال هوك بصوتٍ بدا غير مقتنعٍ بالمرة:

- لقد تحدث الرب إلىّ.

لم يقل السير إدوارد شيئًا، وحدّق فى هوك مرةً أخـــرى أطول من سابقتها، ثم استدار يحدق فى ساحة السوق، حيث كف الرجل المحترق عن الصراخ، وقد احترقت الحبال التـــى كـــان

مقيدًا بها إلى العمود واشتعلت النار فى شعره فجأة وانهار جسده متفحمًا، واستعمل اثنان من الجنود مجارف لدفع الجثة الساخنة جدًا إلى قلب النار مرةً أخرى.

قال هوك بعنادٍ:

- لقد سمعت صوتًا.

أومأ السير إدوارد برأسه إشارةً إلى أنه قد سمع كلمات هوك، لكنه لا يريد سماع المزيد، وفجأةً تساءل وهو لا يزال يتطلع إلى الجثمان المحترق وسط الدخان:

- أين قوسك؟

- فى غرفة الشراب بالحانة يا سير إدوارد مع أقواس الآخرين.

استدار السير إدوارد إلى بوابة ساحة الحانة حيث ظهر توم بيريل للتو يضحك ضحكةً عريضةً وقد تلطخت إحدى يديه بالدماء. قال السير إدوارد بهدوء:

- أنا أرسلك إلى الحانة، وستنتظر هناك. ستنتظر هناك ولذا سنستطيع أن نقيد رسغيك ونعيدك إلى موطننا

ونحاكمك أمام محكمة الضيعة الإقطاعية ونشنقك على شجرة البلوط القائمة أمام محل الحدادة.

قال هوك فى طاعةٍ كئيبةٍ:

- نعم، يا سير إدوارد.

واستطرد السير إدوارد وما زال صوته هادئًا لكنه صار أكثر قوة:

- أما ما لن تفعله فهو أن تسير خارجًا من باب الحانة الأمامى إلى وسط المدينة يا هوك ولن تجد شارعًا يدعى تشيبسايد(١٢) ولن تبحث عن حانة تدعى

---

(١٢) شارع تشيبسايد (Cheapside Street): شارع رئيس فى مدينة لندن يرجع تاريخه إلى القرون الوسطى، حيث كان موقعًا لأحد الأسواق الرئيسة فى لندن، وكلمة (cheap) كانت تستخدم بشكلٍ واسعٍ بمعنى سوقٍ فى العصور الوسطى وكان الطريق جزءًا من خط سير المواكب الملكية من برج لندن إلى تشيبسايد وكذا استخدم فى المناسبات الرسمية مثل وصول الملكة (مارجريت) من فرنسا؛ الزوجة الثانية لـ(إدوارد الأول) إلى لندن فى سبتمبر ١٢٩٩. (المترجم).

(طائرى الكركى)[١٣] ولن تدخل (طـــائرى الكركـــى) وتبحث عن رجلٍ يدعى هنرى مـــن كاليـــه[١٤]، هـــل تنصت إلىّ يا هوك؟

---

(١٣) طائر الكركى (Crane): هى عائلةٌ من الطيـــور طويلـــة الأرجـــل والأعناق ويوجد منها خمسة عشر نوعًا ويطير الكركى وعنقه ممدودٌ للأمام، ويمكنها التأقلم بتغيير نوع الغذاء حسب احتياجها وحسب نوع الغذاء المتوفر. وتقول الدراسات الحديثة أنها لا تغير رفيقهـــا مـــدى حياتها التى قد تمتد لعقودٍ عديدة، وتهاجر بعض أنواعهـــا لمـــسافاتٍ طويلة وتنتشر فى كل قارات العالم عدا أمريكـــا الجنوبيـــة والقـــارة القطبية الجنوبية وتعد أغلب أنواعها معرضة للانقراض. المترجم.

(١٤) استخدمت هذه الطريقة فى الإشارة إلى اسم الشخوص بالإحالة إلـــى بلدانهم خصوصًا لو كانوا ذوى مكانة فيها فى القرون الوسطى، وســـنتخلى عنها تخفيفًا على القارئ وسنفرق لاحقًا بين هنرى هذا والملك هنرى الخامس الذى سيرد لاحقًا بلقب الملك الذى سيرافق اسمه دائمًا بعـــد ذلك. وكاليه (Calais): مدينة فى شمال فرنسا تطل على خلـــيج دوڤر عند أضيق نقطة فى القتال الإنجليزى (يبلغ عـــرض القنـــاة عنـــدها ٣٤كم)، وهى أقرب مدينة فرنسية إلى إنجلترا وقد سيطر عليها الملك إدوارد الثالث عام ١٣٤٧، وكان يعتبر نفسه الملك الشرعى لفرنـــسا وبقيت لقرنيين من الزمان تحت السيطرة الإنجليزية وشهدت معارك=

- نعم يا سير إدوارد.

واستطرد السير إدوارد بينما أحد الرجال الذين يرتـــدون الزى العسكرى الملكى يحمل جذعًا خشبيًا محترقًا إلى حيث قُيِّد زعيم المهرطقين الآخر إلى القائم الخشبى الطويل:

- إن هنرى يجند الرماة، إنهـــم يحتـــاجون رمـــاةً فـــى بيكاردى(١٥) وهم يدفعون عائدًا ماليًا جيدًا.

وكرر هوك الاسم:

- بيكاردى.

واعتقد أنها بالتأكيد مدينةٌ فى مكانٍ آخر فى إنجلترا.

قال السير إدوارد:

- اكسب بعض المال لنفسك فى بيكـــاردى، لأن الـــرب وحده يعلم أنك ستحتاج إليه.

= عدة فى الحرب العالمية الثانية ودمرت كلهـــا تقريبًـــا فـــى تلـــك الحرب. (المترجم).

(١٥) بيكاردى (Picardy): إحدى مناطق فرنسا السبعة والعشرين، وتنقسم الآن إلى ثلاث محافظات وتقع فى الجزء الشمالى من فرنـــسا وقـــد تقلصت مساحتها الآن كثيرًا عن امتدادها القديم. (المترجم).

تردد هوك وسأل بانفعال:

- هل أنا خارجٌ على القانون؟.

قال السير إدوارد:

- أنت رجلٌ ميت يا هوك، والرجال الموتى خارج إطار القانون، أنت رجلٌ ميت لأن أوامرى أن عليك أن تنتظر فى الحانة، ثم نأخذك عائدين إلى محاكمة فى محكمة الضيعة الإقطاعية حيث لن يكون أمام اللورد سلايتون خيارٌ سوى شنقك، لذا اذهب وافعل ما قلته توًا.

ولكن قبل أن يطيع هوك الأوامر انطلقت صيحة من الركن البعيد:

- ارفعوا القبعات.

صاح الرجال فجأةً:

- ارفعوا القبعات.

وأعلنت الصيحة وقعقعة حوافر الخيل عن وصول عشرين فارسًا اندفعوا إلى الميدان الواسع وانتشروا فيه، ووثبت الخيول على أقدامها الخلفية ثم وقفت تنفث بخار الماء من

فتحات أنوفها وتضرب بحوافرها فى الوحـــل. نـــزع الرجـــال والنساء قبعاتهم وركعوا فى الوحل. قال السير إدوارد لهوك:

- انزل على ركبتيك يا فتى.

كان قائد الفرسان شابًا، ولم يكن أكبر فى العمر كثيرًا من هوك. وأوحى وجهه وأنفه الطويل بيقينٍ هادئ وهو يمسح ساحة السوق بأكملها بنظراته الباردة. كان وجهه نحيلاً وعيناه قاتمتين وشفتاه رقيقتين ومطبقتين، حليق الذقن حتى ليبـــدو أن موســـى الحلاقة كاد أن يكشط جلده فيكشف ما تحته. كان يمتطى حصانًا أسود أُسرِج بثراء بالجلد اللامع والفضة المتلألئة، يرتدى حذاء أسود يرتفع إلى ركبته، وسروالاً أسود وسترة ســوداء اللـــون، ومعطفًا من الصوف المبطن من قماش أرجوانى داكن. كانـــت قبعته من القطيفة السوداء مزينة بريشة سوداء، وفـــى خـــصره سيفٌ فى غمدٍ أسود، تطلع فى ساحة السوق كلهـــا. ثـــم حـــث حصانه للسير قدُمًا ليرى المرأة والرجال الثلاثة الذين يتلـــوون ويرتجفون معلقين فى المشانق المعلقة على العارضة الخـــشبية لحانة (الثور). وحملت لفحة من الريح معها سحابة دخان محملة بالشرارات إلى الحصان الفحل الذى يمتطيـــه فـــصهل وجفـــل مبتعدًا؛ حاول راكبه أن يخفف عنه بأن يربت على عنقه بيـــده

المغطاة بالقفازات السوداء، ولاحظ هوك أن الرجل يرتدى خواتم مرصعة بالجواهر فوق القفازات، وتساءل الفارس:

- هل مُنِحُوا فرصة للتوبة؟

أجاب السير مارتين بتزلف:

- العديد من الفرص يا مولاى.

كان القس قد اندفع من ساحة الحانة، ونزل على إحدى ركبتيه، ورسم علامة الصليب، وبدا على وجهه المنهك مسحة قداسة كما لو أنه يعانى من أجل الرب. كان بمقدوره أن يبدو بهذا الشكل فتمتلئ عيناه المسكونتان بالشيطان فجأة بالألم والحنان والشفقة.

قال الفارس بصرامة:

- إذن ففى موتهم إرضاءٌ للرب ولى، ستتخلص إنجلترا من الهرطقة.

استقرت عيناه البنيتان الذكيتان على نيك هوك الذى خفض بصره على الفور محدقًا إلى الوحل حتى اندفع الفارس الذى يرتدى السواد مبتعدًا نحو المحرقة الثانية، التى كانت قد أُشعِلَت للتو. ولكن فى اللحظة التى سبقت خفض هوك بصره كان قد

رأى ندبةً فى وجه الرجل الشاب، كانت ندبة إثر معركةٍ حربية، حيث ضربه سهم فى الزاوية بين أنفه وعينه. كان لهذا السهم أن يقتله؛ لكن الرب قضى أن يعيش هذا الرجل.

تساءل السير إدوارد بهدوء:

- أتدرى من هذا يا هوك؟

لم يكن هوك يدرى على وجه اليقين، لكن لم يكن من الصعب أن يخمن أنه يرى لأول مرة فى حياته إيرل تشستر[١٦]، ودوق أكواتين[١٧] ولورد إيرلندا[١٨]. كان يرى الملك هنرى، الذى هو بنعمةٍ من الرب، ملك إنجلترا.

---

(١٦) تشستر (Chester): هى مدينة فى تشيشاير بإنجلترا تقع على نهر دى على مقربة من حدود ويلز وقد نشأت كقلعة رومانية فى عهد الأمبراطور قاسباسيانوس وأصبحت إحدى القواعد الرئيسة للجيوش الرومانية وبعد رحيل الرومان فى القرن الخامس حصنها الساكسون لمواجهة الدانماركيين، وقد كانت إحدى آخر المدن الإنجليزية التى سقطت. عند دخول النورمان إلى إنجلترا وقد أمر ويليام الفاتح ببناء القلعة لإخضاع البلدة والمناطق الويلزية المجاورة. ونصب هيو دى افرانش كأول إيرل لتشستر. وبالمدينة عدد من المبانى التى يرجع تاريخها إلى القرون الوسطى وإن كان بعض تلك المبانى قد لحقه=

=ترميمات فى العصر الفيكتورى، وإيرلية تشستر من أقوى الألقـــاب مكانة فى إنجلترا خصوصًا فى القرون الوسطى وهى تمنح بالترافق مع إمارة ويلز منذ عام ١٣٠١م. المترجم.

(١٧) أكـــواتين (Aquitaine): إحدى مناطق فرنسا تقع فى الجزء الجنوبى منها، وتطل على المحيط الأطلسى وتحدها جبـــال البـــرانس علـــى الحدود مع أسبانيا، وقد تقلبت حدودها كثيرًا خلال القرون الوسطى وتنقلت بين كونها مملكة ودوقية وقد تبعت التاج البريطانى منذ عـــام ١١٥٤، حين تزوجت دوقتها إليانور ملك بريطانيا (هنـــرى الثـــانى) وظلت كذلك حتى نهاية حرب المائة عام ١٤٥٣. المترجم.

(١٨) لورد أيرلندا (Lordship of Ireland): تشير إلى ذلك الجـــزء مـــن إيرلندا سيطرت عليه الباباوية من خلال ملك إنجلترا. ظهر هذا اللقب بعد الغزو النورماندى لأيرلندا عام ١١٦٩. أصبح ملك إنجلترا هـــو لورد إيرلندا، اتسعت اللوردية لتشمل كـــل إيرلنـــدا إلا أن ســـيادتها الحقيقية لم تشمل إلا مناطق محدودة من الجزيرة. عندما قسم الملـــك هنرى الإقطاعيات على أبنائه لم تبق لأصـــغرهم چـــون أى أراض ليحكمها؛ ولذا استخدم هذه الأرض ليحل هذا النزاع ومن ثم أصـــبح چون لورد إيرلندا عام ١١٧٧ وحتى ١٢١٦. وقد ازدهرت اللوردية فى القرن الثالث عشر خلال فترة الرخاء والـــدفء فـــى القـــرون=

كما أنه وفقًا لكل من يدَّعون فهـم التـداخلات المعقـدة للجذور الملكية، ملك فرنسا أيضًا.

وصلت النيران إلى جسد الرجل الثانى، وأخذ فى الصراخ بينما الملك هنرى -خامس ملكٍ لإنجلترا يحمل هـذا الاسـم- يراقب بهدوء روح هذا المهرطقَ تذهب إلى الجحيم.

قال السير إدوارد بهدوء:

- اذهب يا هوك.

فتساءل هوك:

- لماذا يا سير إدوارد؟

قال السير إدوارد:

- لأن اللورد سلايتون لا يريدك أن تموت وربما تحـدث الرب إليك فعلاً ولأننا كلنا نحتاج إلى فضله، خصوصًا اليوم. ولذا اذهب فقط.

وبالفعل ذهب نيكولاس هوك رامى السهام الخارج على القانون.

=الوسطى، حيث تحـسن الطقـس وأصـبح أكثـر دفئًـا وازدادت المحاصيل. (المترجم).

الجزء الأول

القديس كريسبين

والقديس كريسبينيان[1]

(١) القديس كريسبين (Crispine) والقديس كريسبينيان (Crispinian): قديسان مسيحيان يقال إنهما أخان توءم ولدا لعائلة رومانية نبيلة في القرن الثالث الميلادى وقد فرا من الاضطهاد إلى سواسون، ويقال إنهما عملا إسكافيين، حيث بشرا بالمسيحية مما أثار غضب الحاكم فعذبهما وقطع رأسيهما. المترجم.

كان نهر آيسن[٢] يجرى ملتفًا بطيئًا عبر واد واسع تحفه التلال المنخفضة المكسوة بالأشجار. إنه الربيع. وقد بدأت الأوراق الجديدة تزهو بلونها الأخضر والأعشاب الطويلة تتمايل على النهر حيث يلتف حول مدينة سواسون[٣].

---

(٢) نهر آيسن (River Aisne): نهر فى شمال شرق فرنسا وهو الرافد الأيسر لنهر أويز، ينبع فى غابة أرجون ويجرى شمالاً ثم غربًا ويبلغ طوله ٢٩٠ كم، وقد دارت رحى ثلاث معارك فى الحرب العالمية الأولى فى أودية نهر آيسن. المترجم.

(٣) سواسون (Soissons): مدينة فى إقليم آيسن فى بيكاردى فى شمال فرنسا تقع على بعد حوالى ١٠٠كم شرقًا شمال شرق باريس. وهى واحدة من أقدم المدن فى فرنسا وربما تكون العاصمة القديمة للسيسيونيين؛ وهى أيضًا مقر ابرشية الروم الكاثوليك القديمة والتى يرجع تاريخ إنشائها إلى عام ٣٠٠ م. (المترجم).

كان للمدينة أسوارٌ، وكاتدرائية، وقلعة. وكانت الحصن الذى يحرس طريق فلاندز[٤]، الذى يمتد شمالاً من باريس. ويسيطر عليها الآن أعداء فرنسا. ارتدى أفراد الحامية زيهم

---

(٤) فلاندرز (Flanders): هى مقاطعة قديمة فى الأراضى المنخفضة تمتد بمحاذاة بحر الشمال وغرب نهر شلدت، وهى مقسمة الآن بين بلجيكا وفرنسا ويتكلم معظم أهل الجزء البلجيكى اللغة الفلمنكية وهى تشبه اللغة الهولندية، وموقعها مهم جدًا منذ العصور الوسطى، وقد كانت كونتية منذ عام ٨٦٢ ثم إقطاعية تابعة لفرنسا، وفى القرن الثانى عشر انقرضت ذرية الكونتات وخلفهم كونتات (هينو)؛ (مقاطعة فى بلجيكا) وقد ازدهرت المدن الفلمنكية وأهمها خينت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ونمت صناعة النسيج فيها حتى صارت من أهم صناعات أوروبا ولكن سادت الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية بسبب التصنيع واسع النطاق. واستمر الصراع بين ملوك فرنسا وكونتات فلاندرز وانتصر الفرنسيون عام ١٣٨٣، ثم دخلت تحت سيطرة (فيليب الجسور) دوق بورجوندى، وفى عصر هذه الأسرة ازدهرت التجارة والفن الفلمنكى بشكل كبير لكن تدهورت الصناعة وقلت الحريات السياسية. وفى عام ١٤٨٢، بدأ حكم آل (هابسبرج) وفى عام ١٧٩٧ انضمت لفرنسا ثم منح ڤيينا لهولندا عام ١٨١٥، وفى سنة ١٨٣٠ منحت لبلجيكا وفى الحرب العالمية الثانية غزاها الألمان ثم انسحب الحلفاء من دنكرك فى يونيه ١٩٤٠. (المترجم).

الذى يميزه صليب بورجوندى[٥] الأحمر المتعرج، ورفرف فوق القلعة علم دوق بورجوندى الزاهى، وهو العلم الذى ترفعه قوات فرنسا الملكية بخطوطه الصفراء والزرقاء. على العلم والأزياء رمز الأسد الذى يقف على قائمتيه الخلفيتـين ويرفـع قائمتيـه الأماميتين.

استعر أوار الحرب بين من يرتدون رمز الأسد الذى يقف على قائمتيه الخلفيتين ويرفع الأماميتين، ومن يرتـدون شـعار زهور الزنبق من فرنسا. ولم يفهم هوك إلام يرمز أى منهمـا، وقد أخبره هنرى عندما رآه فى لندن:

- أنت لا تحتاج إلى فهم هذا، ثم إن هذا ليس من شـأنك اللعين، إن الحرب قد اشتعلت بين الفرنسيين الملاعين، هذا كل ما تحتاج إلى معرفته، وجانب منهم يدفع لنـا

---

(٥) دوقية بورجوندى: إقطاعية كانت قائمة داخل أراضى مملكة فرنـسا. توافق تقريبًا بورجوندى الحالية. وُجدت بين عـامى ٨٤٣ و ١٤٧٧، وكان يحكمها دوقات بالوراثة و أدى انقرضهم بوفاة شـارل الجـرىء سنة ١٤٧٧ إلى أن يتم استيعاب الدوقية فى التاج الفرنسى فـى عهـد لويس الحادى عشر ملك فرنسا. (المترجم).

المال لنحارب، وأنا أستأجر الرماة وأرسلهم ليقتلوا أى شخص يُطلَب منهم قتله، أيمكنك التصويب والإطلاق؟

- نعم، يمكننى ذلك.

- سنرى، أليس كذلك؟

كان هوك يستطيع التصويب والإطلاق، ولذا ذهب إلى سواسون، تحت لواء العلم ذى الخطوط والأسد والزنابق. ولم تكن لديه فكرة أين تقع بورجوندى، كل ما كان يعرفه أن لها دوقًا يسمى (چون الذى لا يعرف الخوف)[٦] وأن هذا الدوق هو ابن العم المباشر لملك فرنسا.

وقد قال هنرى لهوك عندما كانا فى إنجلترا:

- إنه مجنون، ملك فرنسا مجنون، ذلك الغبى التافه اللعين يظن أنه مخلوق من الزجاج ويخاف أن يضربه

---

(٦) چون الذى لا يعرف الخوف (John the Fearless): ويسمى أيضًا چون الثانى دوق بورجوندى. ولد فى ٢٨ مايو عام ١٣٧١ وتوفى ١٠ سبتمبر عام ١٤١٩، وتوفى دوقية بورجوندى منذ عام ١٤٠٤ حتى عام ١٤١٩، وكان عضوًا من عائلة ڤالوا، وكان الوصى على ابن عمه المختل عقليًا (تشارلز السادس) ملك فرنسا. (المترجم).

شخص ما ضربة صغيرة فيتكسر إلى ألف قطعة، والحقيقة أن لديه وساوس بعقله، إنه كذلك، إنه يحارب الدوق الذى ليس بمجنون، بل يمتلك الكثير من الذكاء.

وتساءل هوك:

- لماذا يتحاربان؟

- وكيف لى أن أعلم بحق الرب؟ ولماذا أبالى؟ إن ما يهمنى، يا بنى، هى أموال الدوق التى يجلبها من الصيارفة.

وألقى بعض القطع الفضية على طاولة الحانة. فى وقت مبكر من ذلك اليوم ذهب هوك إلى حقول سباتيال[٧] خلف بوابة أسقفية لندن وأطلق ستة عشر سهمًا على كيس مملوء بالقش

---

(٧) حقول سباتيال (Spital Fields): هى مساحة كانت تتبع ابرشية بورو فى حى تاور هاملتس عند الطرف الشرقى من لندن بالقرب من محطة شارع ليفربول وبريك لين، وهى حاليًا منطقة تجارية بها الكثير من المحلات بما فى ذلك السوق التاريخية التى نشأت فى القرن السابع عشر. (المترجم).

معلق فى شجرة ميتة تبعد مائة وخمسين خطوة، كـــان يطلـــق بسرعة كبيرة جدًا، بالكاد يمكن لرجلٍ أن يعد خمس عدات بين كل سهم وآخر، وقد أصاب الكيس باثنى عشر ســـهمًا إصـــابة دقيقة أما الأربعة الباقون فقد مسُّوه فقط، وعندما علم هنرى بهذا الإنجاز، قال على مضض:

- أحسنت.

وقد أنفق هوك القطع الفضية قبل أن يغادر لندن، لم يكن قط وحيدًا هكذا، ولا على هذا البعد من قريته، ولذا أنفق نقـــوده على الجعة، وعاهرات الحانة، واشترى زوجًـــا مـــن الأحذيـــة العالية يصل إلى ركبتيه تفكك قبل وصوله إلى سواسون بفتـــرة طويلة، رأى البحر لأول مرة فى حياته فى تلك الرحلـــة، وقـــد صدَّق بصعوبةٍ ما رآه، ولا يزال أحيانًا يحاول أن يتذكر كيـــف يبدو، وتصور فى مخيلته بحيرة، فقط بحيرة بلا نهاية، وثـــائرة أكثر من أى مياهٍ رآها فى حياته من قبل. سافر مع اثنى عـــشر رامٍ آخرين، وقابلوا فى كاليه دزينة من الرجال المسلحين الذين يرتدون الزى العسكرى لبورجوندى ويتذكر هوك أنه حـــسبهم ولابد من الإنجليز، لأن الزنابق الصفراء على معاطفهم كانـــت تشبه تلك التى رآها على معاطف رجال الملك فى لندن، لكـــن هؤلاء الرجال المسلحين كانوا يتحدثون لغة غريبة، لم يكن هوك

ولا أى من رفاقه يفهمها. وبعد ذلك ساروا طوال الطريق إلى سواسون، إذ لم يكن هنالك مال لشراء خيول. فقد كان كل رامٍ فى إنجلترا يتوقع أن يمنحه اللورد الذى يعمل له حصانًا، ورافق مسيرتهم عربتان تجرهما الأحصنة تحملان أقواسًا احتياطية وحزمًا من السهام.

كانوا مجموعةً غريبة من الرماة، بعضهم تخطى سن الشباب والقليل منهم يعرج إثر جروح قديمة، وأغلبهم كانوا سكارى.

قال هنرى لهوك قبل أن يغادروا إنجلترا:

- لقد خَبِرت الحياة وعركتنى بأسوأ ما فيها، أما أنت فتبدو صغيرًا، يا بنى، فما الخطَأ الذى ارتكبته؟

- خطأ؟

- أنت هنا، ألست كذلك؟ أأنت من الخارجين على القانون؟

أومأ هوك:

- أظن ذلك.

- تظن ذلك! إما أن تكون خارجًا على القانون، وأما أنك لست كذلك، فما الخطأ الذى ارتكبته؟

- لقد ضربت قسيسًا.

- أفعلت؟

كان هنرى رجلاً شجاعًا وعنيدًا ذا وجه نحيل ورأس أصلع، تطلع باهتمام للحظة ثم هز كتفيه.

- ينبغى لك أن تكون حذرًا تجاه الكنيسة فى هذه الأيام يا بنى، إن تلك الغربان السوداء فى حالة هياج الآن، وكذا الملك، ذلك اللقيط الصغير القاسى، ملكنا هنرى، هل رأيته من قبل؟

قال هوك:

- ذات مرة.

- أرايت تلك الندبة فى وجهه؟ لقد أصابه سهم هناك، ضربه فى خده ولم يقتله! ومنذ ذلك الوقت وهو مقتنع أن الرب يقف معه كأفضل أصدقائه، وهو الآن يحرق أعداء الرب، نعم، ستذهب غدًا لتساعد فى جلب الأسهم من البرج ثم ستبحر إلى كاليه.

وها هو ذا نيكولاس هوك رامى السهام الخارج على القانون قد سافر إلى سواسون، حيث ارتدى الثياب التى يميزها صليب بورجوندى الأحمر المتعرج ويسير حارسًا على سور المدينة العالى، كان واحدًا من الفريق الإنجليزى الذى استأجره دوق بورجوندى، ويقودهم رجلٌ مسلح متغطرسٌ يدعى السير روچر بالبير. كان هوك نادرًا ما يرى بالبير، وبدلاً عنه كان يتلقى أوامره من قائد رماة يدعى سميثيسون يقضى جُلَّ وقته فى حانة تدعى (لوى) وتعنى (الإوزة)، وقد رحب سميثيسون بجنوده الجدد قائلاً:

- كلهم يكرهوننا ولذا لا يسر أحدكم فى المدينة بمفرده ليلاً إلا إذا كان يريد أن يتلقى طعنة سكين فى ظهره.

كانت الحامية تتبع بورجوندى لكن المواطنين فى سواسون يدينون بالولاء لملكهم الأبله؛ تشارلز السادس ملك فرنسا. وقد ظل هوك، حتى بعد قضاء ثلاثة أشهر فى المدينة المحصنة، لا يفهم لماذا يكره أهل بورجوندى والفرنسيون بعضهم البعض، إذ لم يكن يميزهم من بعضهم، فهم يتحدثون نفس اللغة، وقد قيل له إن دوق بورجوندى لم يكن فقط ابن عم الملك المجنون، بل أيضًا والد زوجة ولى العهد الفرنسى؛ الابن الأكبر للملك، وقد أخبره چون ويلكنسون:

- نزاعٌ عائليّ يا فتى، وهو أسوأ أنواع النزاعات.

كان ويلكنسون رجلاً كبيرًا فى الأربعينيات من عمره على الأقل. وكان يعمل صانع أقواسٍ وبريش السهام وصانع سهام للرماة الإنجليز الذين استأجرتهم الحامية، ويعيش فى اصطبل حانة (الإوزة) حيث يعلق على الحائط، بعناية، مناشيره، ومبارده، وأزاميله، وسكاكينه، وفؤوسه، ومطرقته، وقد طلب من سميثيسون مساعدًا له، واختير هوك لذلك فهو أصغر القادمين الجدد سناً. وقد قال ويلكنسون مجاملاً على مضض:

- على الأقل أنت كفء، إن القمامة هم من يصلون إلى هنا غالبًا؛ الرجال والسلاح، كلهم قمامة، يسمون أنفسهم رماة ولكن نصفهم لا يستطيع إصابة برميل على بعد خمسين خطوة، أما عن السير روچر؟

وبصق الرجل العجوز ثم استطرد:

- إنه هنا من أجل المال، لقد خسر كل شىء فى وطنه. سمعت أنه مدين بأكثر من خمسمائة جنيه! هل يمكنك حتى أن تتخيل هذا؟

والتقط ويلكنسون سهمًا وهز رأسه الذى زحف عليه الشيب، وقال:

- وعلينا أن نقاتل مع السير ريتشارد بهذه القمامة.

قال هوك مدافعًا:

- لقد أتت السهام من عند الملك.

كان قد ساعد فى حمل حزم السهام من سرداب البرج.

زمجر ويلكنسون قائلاً:

- إن ما فعله الملك، ليحفظ الرب روحه، هو إيجاد بعض السهام من عهد الملك إدوارد الأكبر.

وحدث نفسه قائلاً:

- أنا أعلم ما سأفعله، سأبيع هذه السهام عديمة الفائدة إلى بورجوندى!

وقذف السهم إلى هوك قائلاً:

- انظر إلى هذا!.

كان السهم مصنوعًا من الخشب وأطول من ذراع هوك وكان ملتويًا، قال هوك:

- ملتوٍ!

- إنه ملتوٍ مثل أسقفٍ عجوز! لا يمكنك الضرب به! لو ضربت به ستصيب الزوايا وليس الهدف.

كان الجو حارًا فى إسطبل ويلكنسون، لدى العجوز فرنٌ مستدير الشكل من القرميد، تشتعل فيه النيران ويغلى فوقه قدرٌ من الماء؛ أخذ السهم الملتوى من هوك، ووضعه مع دزينةٍ غيره من الأسهم معلقًا على قمة القدر ثم وضع بحرصٍ قطعةً سميكةً مطويةً من القماش على الأسهم ثم ثبتها بأن وضع حجرًا على منتصفها، وقال مفسرًا:

- إننى أعرضهم للبخار يا بنى، وبعد ذلك أضع ثقلاً عليهم، ومع شىء من الحظ، أُقَوِّمُهُم وبعد ذلك يسقط ريش السهم بسبب البخار. إن نصفهم بلا ريش على أى حال!

اشتعل كانون تحت قدرٍ ثانٍ أصغر مُنتِن من غراءِ من حوافر الخيل: إن ويلكنسون يستخدم الغراء ليستبدل ريش الإوز الذى ريشت به السهام وقال متذمرًا:

- وليس هنالك خيوط حرير، ولذا أنا مضطر لاستخدام وتر.

يربط الوتر الريش المشقوق إلى ذيل السهم مقويًا الغراء، وتَشَكَّى ويلكنسون قائلا:

- ولكن الأوتار ليست جيدة، إنها تجف، وتنكمش وتصبح هشة، لقد أخبرت السير روچر أننا نحتاج لخيوط الحرير، لكنه لا يدرك، إنه يعتقد أن السهم مجرد سهم لكن الأمر ليس كذلك.

وربط عقدة من الوتر، ثم أدار السهم ليفحص الشق الذى يقر فيه الوتر لإطلاق السهم. كانت الثلمة التى يقر فيها الوتر مقواة بهلال فضي صغير يمنع الوتر من أن يشق جسد السهم. قاوم الهلال محاولة ويلكنسون لانتزاعه فأصدر هذا الأخير من منخاره صوتًا يشبه صوت الخنزير فى ارتياح جزئى قبل أن يأخذ سهمًا آخر من جعبة جلدية، كان هنالك زوج من الجعبات الصلبة ذات حواف مسننة، تحمل كل منهما دزينتين من السهام وهكذا لا ينسحق ريش الإوز الهش عند نقل السهام، وقال ويلكنسون بهدوء:

- الريش والهلال، الخشب والحرير، الصلب والطلاء الملمع، يمكن أن يكون لديك قوس جيد كما تريده، ورامى سهام يوازيه جودة لكنه لو لم يكن لديك الريش والخشب والهلال والحرير والصلب والطلاء الملمع فالأفضل أن تبصق على عدوك لا أن تطلق السهام، هل قتلت رجلاً من قبل يا هوك؟

- نعم.

سمع ويلكنسون نغمة المحاربين ودمدم:

- قتل؟ معركة؟ هل قتلت رجلاً فى معركة حربية من قبل؟

قال هوك معترفاً:

- لا.

- ألم تقتل قط من قبل شخصًا بقوسك؟

- واحدًا، سارق صيد.

- هل أطلق هو عليك؟

- لا.

- إذن، لستَ رامى سهام، أأنت كذلك؟ اقتل رجلاً فى معركة حربية يا هوك ويمكنك بعدها أن تسمى نفسك راميًا. كيف قتلت آخر شخص قتلته؟

- شنقته.

- ولماذا فعلت ذلك؟

أوضح هوك:

- لأنه كان زنديقًا.

دفع ويلكنسون يده خلال شعره الرمادى الخفيـف، كـان نحيلاً مثل (ابن عُرس)[٨] وله وجه كئيب وعينان حادتان تحدقان الآن فى هوك بشكل عدائى، وتساءل:

- هـل شنقت زنديقًا؟ أيعانون فى إنجلترا مـن نقـص خشب الوقود هذه الأيام؟ ومتى قمـت بهـذا العمـل الشجاع؟

- الشتاء الماضى.

تساءل ويلكنسون:

---

(٨) ابن عرس (Weasel): حيوان ثديى موجود فى جميع القارات باستثناء قارة استراليا يتراوح طوله بين ١٥ سم و٣٥ سم، وعادةً ما يكـون ذا فراء بنى فاتح وبطن أبيض وطرف ذيل أسود وله حاسة شـم قويـة وحاسة بصر حادة ويتغذى على الفئران والـسناجب وديـدان الأرض والحشرات والضفادع والسحالى والأرانب والذباب والحيات والطيـور وهو يبنى جحره بين أكوم الصخور وتحت جـذوع الأشـجار، وفـى الجحور التى تهجرها القوارض ولا يدخل فى بيات شتوى وتلد الأنثى فى الغالب بين أربعة أو ثمانية صغار فى المرة الواحدة، وفى الأعوام التى تتوافر فيها الفرائس يكون لابن عرس مجموعتان من الـصغار. (المترجم).

- لقد كان أحد الثائرين المتظاهرين، أليس كذلك؟

ثم ابتسم ابتسامةً متكلفةً عندما أومأ هوك بالإيجاب.

- إذن لقد شنقت رجلاً لأنه اختلف مع الكنيسة حول لقمة خبز؟ إن الرب يقول: أنا الخبز الحى الآتِى من السماء ولم يقل الرب شيئًا عن كونه ذلك الخبز الميت على طبق قسيس، هل قال ذلك؟ لم يقل إنه خبز متعفن، أقال هذا؟ لا، لقد قال إنه كان الخبز الحى يا بنى، ولكن لاشك أنك تعرف أكثر منه ما كنت تفعله.

لاحظ هوك نبرة التحدى فى كلمات الرجل العجوز، لكنه لم يستشعر فى نفسه القدرة على تحملها والرد عليها، ولذا لم يقل شيئًا.

لم يكن يبالى كثيرًا من قبل بالدين أو بالرب، لم يكن كذلك، حتى سمع هذا الصوت فى رأسه، وهو الآن يتساءل: أحيانًا هل أنا سمعت هذا الصوت حقًا؟ تذكر الفتاة فى إسطبل حانة لندن وكيف كانت عيناها تناشدانه وكيف خذلها؟ تذكر الرائحة الكريهة للحم المحترق والدخان الذى يثقل النسمات الخفيفة ويلتف حول شارات الزنابق والفهود التى تميز أزياء الإنجليز، تذكر وجه هذا الملك الشاب ذى الندبة عديم الرحمة.

التقط ويلكنسون سهمًا برأسه اعوجاج قائلاً:

- هذا السهم، يمكننا أن نصنع منه شيئًا قاتلاً جيدًا، شيئًا يرسل روح أحد النبلاء إلى الجحيم.

وضع السهم على كتلة خشبية وانتقى سكينًا اختبر حدتها بإظفر إبهامه، وقطع ست بوصات من أعلاه بضربة واحدة سريعة، وقذف به إلى هوك.

- اجعل من نفسك شيئًا مفيدًا يا فتى وانتزع رأس السهم.

كان رأس السهم عبارة عن قطعة ضيقة من الصلب أطول قليلاً من إصبع هوك الأوسط، كان هرمى الشكل مستدقًا تجاه قمته، لم تكن له نصال، كان رأس السهم أثقل من أغلب رؤوس السهام ذلك أنه صُنع ليخترق الدروع، وإذا أطلق من مسافة قريبة ومن قوس كبير لا يستطيع شده سوى رجل ذى عضلات عظيمة مثل هرقل، يمكنه أن يخترق أفضل الدورع، كان قاتل فرسان، وأدار هوك رأس السهم حتى انفك الغراء داخل التجويف وصار رأس السهم مفكوكًا، وسأله ويلكنسون:

- أتدرى كيف يزيدون صلابتها؟

- لا.

قال ويلكنسون وهو منحن على الطرف الذى قطعه من السهم، مستخدمًا منشارًا دقيقًا لا يزيد طول نصله على طول خنصره ليصنع فى ذلك الطرف المقطوع شقًا وتدى الشكل، وظل محدقًا فى عمله أثناء حديثه:

- ما يفعلونه هو إلقاء العظام على النار أثناء صناعة الحديد. عظام يا بنى، عظام. عظام جافة، عظام موتى، والآن لماذا تُحَوِّل تلك العظام فى الفحم المشتعل الحديد إلى صلب؟

- لست أدرى.

قال ويلكنسون:

- ولا أنا أدرى، لكنها كذلك. العظام والفحم.

وأمسك السهم المثلوم إلى أعلى ونفخ بعض نشارة الخشب عن السهم المثلوم من موقع الشق وهز رأسه برضًا.

- أعرف شخصًا فى كِنْت[٩] كان يستخدم العظام البشرية، وكان يعتبر أن جماجم الأطفال تصنع أفضل الصلب، وربما كان على حق، كان ابن الحرام ينبش المقابر بحثًا عنهم ويكسرهم إلى أجزاء ويحرقهم فى فرنه جماجم الرضع والفحم! أوه يا له من رجل معتوه، روث عفن، لكن أسهمه كانت قاتلة. أوه، كانت قاتلة كانت تخترق الدروع، تخترقها بسهولة كالهمس!

وانتقى ويلكنسون سهمًا يبلغ طوله ست بوصات أثناء حديثه، شحذت إحدى نهايتيه إلى شكلٍ وتدى مثلما فعل بالضبط فى السهم الذى قطعه، وقال بفخر وهو يمسح جسد السهم بالفأرة:

- انظر إلى هذا، صناعة ممتازة، أنا أقوم بهذا العمل منذ زمن بعيد.

---

(٩) كنت (Kent): هى مقاطعة جنوب شرق إنجلترا تطل على القناة الإنجليزية، وهى من أولى المناطق التى احتلها الرومان وعاصمة المقاطعة هي ميدستون وهى تلقب بحديقة إنجلترا لما بها من حدائق الأزهار وبساتين الفواكه، وبالمدينة محطتان للطاقة النووية وإحدى مدنها هى كانتربرى التى يعتبر رئيس كنيسة إنجلترا كما يوجد بها جامعة معروفة وقد أخذ اسم المدينة من مملكة كنت القديمة. (المترجم).

ومد يده إلى أحد رؤوس السهام الذى انزلق علـــى قمـــة جسد السهم المصنوع من خشب البلوط، وقال:

- ســـأثبتهما إلى بعضهما بـــالغراء ويمكنــك أن تقتـــل شخصًا به.

لقد أعجبه السهم، جسد السهم المصنوع من خشب البلوط يزيد من ثقل رأسه، وزن المعدن ووزن الخشب؛ يجعلان السهم أقدر على اختراق الدروع واستطرد العجوز متجهمًا:

- سَتُقْتَل عما قريب.

- أنا سأُقْتَل؟

ضحك ويلكنسون ضحكة قصيرة ثقيلة الظل.

- ربما يكون ملك فرنسا مجنونًا، ولكنه لن يتــرك دوق بورجوندى، يحتفظ بـــسواسون، نحن قريبون جدًا من باريس! إن رجال الملك سيكونون هنا قريبًا جـــدًا وإذا ما دخلوا المدينة يا بنى، ستذهب أنت إلى القلعة وإذا ما دخلوا إلى القلعة فلتقتل نفسك. إن الفرنسيين لا يحبون الإنجليز وهم يكرهون الرماة الإنجليز خاصة، وإذا ما أمسكوا بك فستموت وأنت تعوى من الألم.

ورفع رأسه إلى هوك قائلاً:

- أنا جاد أيها الشاب هوك، أن تذبح نفسك خير من أن يمسك بك الفرنسيون.

قال هوك:

- إذا جاءوا سنقاتلهم ونصدهم.

تساءل ويلكنسون بضحكة قاسية:

- سنقاتلهم، أليس كذلك؟ ادعُ أن يأتى جيش الدوق أولاً، لأن الفرنسيين إذا أتوا أولاً أيها الشاب هوك سنجد أنفسنا محاصرين هنا فى سواسون كالفئران فى المصيدة.

ولذا كان هوك يقف كل صباح فوق البوابة ويحدق فى الطريق الموازى لنهر آيسن، تجاه كومبيين[١٠]. ويقضى وقتًا أطول يحدق فى ساحة أحد المنازل التى بُنيت خارج السور. كان منزل الصباغ يقف جوار خندق المدينة، وكل يوم تقوم فتاة ذات شعر أحمر بتعليق الملابس المصبوغة على حبل طويل،

---

(١٠) كومبيين (Compiegne): مدينة فى شمال فرنسا تقع على نهر أويز. (المترجم).

وأحيانًا تتطلع باحثة عن هوك وتلوح له أو لأحد الرماة الآخرين الذين كانوا يصفرون لها، وذات يوم رأتها امرأة أكبر منها سنًا تُلَوِّح، فصفعتها بقوة، لأنها ودودةٌ مع هؤلاء الجنود الأجانب، ولكن فى اليوم التالى كانت ذات الشعر الأحمر تتلوى بخصرها وتهز ردفيها لإسعاد مشاهديها، وعندما لا تظهر الفتاة، كان هوك يراقب الطريق، ليرى انعكاس أشعة الشمس على الدروع، أو يرى الظهور المفاجئ للرايات اللامعة التى ربما تعلن عن وصول جيش الدوق أو وصول جيش العدو، وهو الاحتمال الأسوأ، لكن لم ير هوك جنودًا سوى جنود بورجوندى من حامية المدينة الذين يجلبون الطعام إليها. وأحيانًا يركب الرماة الإنجليز مع أولئك الذين يجلبون الطعام لكنهم لم يروا أى عدو سوى هؤلاء العامة الذين سرقوا منهم حبوبهم وماشيتهم.

اختبأ قاطنو المناطق الريفية فى الغابة عندما جاء جنود بورجوندى، أما قاطنو سواسون فلم يستطيعوا الاختباء من الجنود الذين فتشوا منازلهم بدقة، ونهبوا مخزون طعامهم. كان القائد البورجوندى السير انجيوران دى بورنڤيه يتوقع وصول أعدائه الفرنسيين فى بداية الصيف، وكان يخطط ليتحمل حصارًا طويلاً ولذا جمع الحبوب واللحم المملح فى الكاتدرائية لإطعام سكان المدينة، والحامية.

ساعد هوك في تخزين الطعام داخل الكاتدرائية التي امتلأت برائحة الحبوب من فورها، رغم أن الرائحة الغالبة كانت أكثر الأوقات هي الرائحة النفاذة للجلد المدبوغ، إذ تشتهر سواسون بالإسكافيين وصانعي السروج ودبّاغي الجلود. كانت أحواض الدباغة تقع جنوبي المدينة، وكانت الرائحة الكريهة للبول الذي تنقع فيه الجلود تجعل الهواء دنسًا إذا ما هبت الرياح دافئة، تجول هوك كثيرًا في الكاتدرائية يحدق في الجدران المطلية، أو في المذابح التي زُخرِفَت ببذخ بالفضة والذهب والمينا والحرير المطرز بدقة والكتان. لم يكن قد دخل كاتدرائية من قبل، وقد منحه حجمها والرسوم البعيدة على سقفها العالي وصمت حجارتها شعورًا غير مريح أن الحياة تحمل -ولابد- أكثر من القوس والسهم والعضلات التي تستعملها ليتعيش. لم يكن يدري أي شيء يمكن أن يكون هذا، لكن هذه المعرفة بدأت في لندن حينما حدثه رجل عجوز؛ رامي سهام، وعندما تردد ذلك الصوت في رأسه، وذات يوم ركع على ركبته أمام تمثال العذراء مريم وهو يحس بالارتباك، وطلب منها الغفران عما فشل في تحقيقه في لندن. حدق إلى وجهها الحزين بعض الشيء، وظن أن عينيها اللتين رُسِمَتا مشرقتين باللونين الأزرق والأبيض مثبتتان عليه، ورأى التأنيب في هاتين العينين، وصلى

داعيًا: تحدثى إلى، لكن لم يدو أى صوت داخله. ودار بخلده أن لا غفران لموت سارة. لقد خذل الرب. إنه ملعون.

وقطع صوت حاد صلواته:

- أتظن أنها تستطيع مساعدتك؟

استدار هوك فرأى چون ويلكنسون وتساءل هوك:

- إذا لم تكن هى تستطيع، فمن يستطيع؟

قال ويلكنسون مقترحًا بسخرية:

- ابنها؟

وتلفت الرجل العجوز حوله بمكر، كان هناك نصف دزينة من القساوسة يرددون قداسًا عند مذبح جانبى، ولم يكن ثمة قوم سواهم غير الراهبات اللاتى كن يسرعن عبر الصحن الواسع للكنيسة يرعاهن ويحرسهن القساوسة، قال ويلكنسون:

- فتيات مسكينات.

- مسكينات؟

- أتظنهن يردن أن يكن راهبات؟ إن آباءهن وضعوهن هنا ليجنبوهن المشاكل، إنهن بنات غير شرعيات

للأغنياء، يا بنى، حفظوهن هنا لئلا يكون لهن أبناء غير شرعيين كذلك. تعال هنا، أريد أن أريك شيئًا.

لم ينتظر ردًا، بل اتجه متوكئًا نحو مذبح الكاتدرائية الرئيس العالى الذى يتلألأ بلمعة ذهبية تحت الأقواس المذهلة، التى تقف صفًا وراء صف فى شكل نصف دائرى فى الجانب الشرقى من المبنى، ركع ويلكنسون جوار المذبح وأحنى رأسه فى وقار، وقال لهوك فى لهجة آمرة:

– ألق نظرة على الصناديق، يا بنى.

رفع هوك عينيه إلى المذبح حيث صناديق الذهب والفضة على جانبها صليب ذهبى يمثل المسيح مصلوبًا، كان لأغلب هذه الصناديق وجوه من الكريستال، ورأى هوك من خلال هذه النوافذ المزينة بعض القصاصات الجلدية فسأل:

– ما هذا؟

قال ويلكنسون فى صوت مكتوم بينما لا يزال رأسه منحنيًا:

– أحذية، يا بنى.

– أحذية؟

- ترتديها فى قدميك أيها الشاب هوك لكى لا يدخل الوحل بين أصابع قدميك.

بدا الجلد قديمًا ومجعدًا. كان بداخل أحد أوعية الذخائر المقدسة حذاء مجعد صغير لدرجة أن هوك اعتقد أنه ولا بد أنه جزء من حذاء طفل، وسأل هوك:

- ولماذا أحذية؟

- هل سمعت عن القديس كريسبين والقديس كريسبينيان؟

- لا.

- إنهما القديسان اللذان يرعيان الإسكافيين - يا بنى - وصانعا الجلود لقد صنعا هذه الأحذية، أو هكذا قيل لنا، لقد عاشا هنا، وربما قُتِلا هنا شهداء - يا بنى - مثل ذلك الرجل الذى أحرقته فى لندن.

- لقد كان...

- زنديقًا. أعلم. لقد قلت ذلك قبل. ولكن كل شهيد قُتِل لأن شخصًا أقوى منه لم يتفق مع معتقداته أو معتقداتها. إن المسيح على صليبه - يا بنى - عيسى

نفسه قد صلب بتهمة الهرطقة! ولماذا بحـــق الجحـــيم تظن أنهم ثبتوه على الصليب بالمسامير؟ هــل قتلــت نساء أيضًا؟

قال هوك بعدم ارتياح:

- لا، لم أفعل.

قال ويلكنسون وهو يتطلع إلى هوك:

- ولكن كان هنالك نساء؟

ورأى الإجابة فى وجه هوك وعبس بوجهه.

- أنا متأكد أن الرب ابتهج بعمل ذلك اليوم.

وهز الرجل العجوز رأسه فى اشمئزاز، ومد يـــده إلـــى كيس النقود المعلق فى حزامه، وأخذ حفنة مما ظن هوك أنهـــا عملات معدنية، وأسقطها فى الوعاء النحاسى الضخم الموجـــود جوار المذبح لتَلَقِي تبرعات الحجيج. كان أحد القساوسة يراقب الراميين الإنجليز باسترابة، لكنه ارتاح بوضوح عنـــدما ســـمع صوت سقوط المعدن فى الوعاء الـــضخم، وقـــال ويلكنـــسون موضحًا وهو يبتسم ابتسامة واسعة:

- رؤوس سهام، رؤوس السهام العريضة القديمة الصدئة التى لم تعد ذات أى فائدة، والآن لماذا لا تركع على ركبتيك وتصلى عند كريسبين وكريسبينيان؟

تردد هوك، فقد كان متأكدًا أن الرب رأى ويلكنسون وهو يسقط رؤوس الأسهم عديمة القيمة إلى الوعاء بدلاً من العملات المعدنية، وبدا تهديد نيران الجحيم له قريبًا جدًا ولذا أسرع هوك وأخذ عملة معدنية من كيس نقوده وأسقطها فى الوعاء النحاسى، قال ويلكنسون:

- فتى طيب، سيكون المطران سعيدًا حقًا بما فعلت. ستكفى هذه النقود ثمن رشفة الجعة التى يشربها، أليس كذلك؟

قال هوك لويلكنسون متسائلاً:

- لماذا ندعو لكريسبين وكريسبينيان؟

- لأنهما القديسان المحليان، يا بنى، إن مهمتهما أن يستمعا إلى المصلين من سواسون ولذا فهما أفضل مَن تصلى لهما مِن القديسين هنا.

ولذا نزل هوك على ركبتيه وصلى للقديس كريسبين والقديس كريسبينيان وتوسل طلبًا للغفران عن ذنبه فى لندن،

وصلى ليحفظاه فى مدينتهما؛ مدينة الاستشهاد، ويعيداه إلى بلدته دون أذىً، إلى إنجلترا. لم يشعر المُصلى بمثل تلك القوة التى كان يحسها أمام أم المسيح، لكن هذا كوّن لديه شعورًا ما، وقرر أن يصلى للقديسين لأن هذه مدينتهما ومن المؤكد أنهما سيعتنيان عنايةً خاصة بمن يصلى لهما فى سواسون.

أعلن ويلكنسون بسرعة:

- لقد انتهيت، يا بنى.

دفع شيئًا ما فى كيس نقوده، وبينما هوك يتحرك إلى جانب المذبح رأى ستارة المذبح المعلقة حتى الأرض وقد اهترأت أطرافها وتثنت لأن مربعًا كبيرًا قد تم قطعه بفجاجة، ابتسم الرجل العجوز ابتسامة عريضة.

- حرير، يا بنى، حرير، أحتاج إلى خيوط الحرير من أجل السهام، ولذا أسرقه وحسب.

- من الرب؟

- إذا كان الرب لا يستطيع تحمل بضعة خيوط قليلة من الحرير، يا بنى، فهو فى مشكلة رهيبة، وعليك أنت أن تكون سعيدًا، أتريد أن تقتلَ الرجال الفرنسيين،

أيها الشاب هوك؟ فلتصل إذن أن أحصل على ما يكفى من خيوط الحرير لأربط لك سهامك.

ولكن هوك لم يجد فرصةً ليصلى ففى اليوم التالى وصل الفرنسيون تحت الشمس المشرقة.

كانت الحامية تعرف أنهم قادمون. وصلت الأخبار إلى سواسون باستسلام كومبيين وهى بلدة أخرى كان البورجونديون قد استولوا عليها، وقد صارت سواسون الآن الحصن الوحيد الذى يقف أمام تقدم الفرنسيين إلى فلاندرز حيث تتمركز القوات البورجوندية الرئيسية، وبات معلومًا أن الفرنسيين قادمون من الشرق بطول نهر آيسن.

وبعد ذلك وصلوا هناك فجأة فى صباح صيفى مشرق. راقب هوك وصولهم عند الأسوار الغربية. وصل الفرسان أولاً. كانوا يرتدون الدروع والمعاطف اللامعة، وبعضهم أخذ يركض بفرسه قريبًا من المدينة وكأنهم يتحدون رماة السهام على الأسوار أن يطلقوا عليهم، وقد أطلق بعض رماة السهام الذين يرتدون رمز الصليب العديد من الأسهم القصيرة التى لم تصب أى فارس أو حصان. وقد أمر سميثيسون؛ قائد الرماة، رماته الإنجليز قائلاً:

- حافظوا على سهامكم.

وأشار بإصبعه بإهمال إلى قوس هوك ذى الوتر المشدود، وقال:

- لا تستخدمه يا فتى، لا تضع أى سهم.

كان سميثيسون قد جاء من حانة (الإوزة)، ونظر خلسة إلى الفرسان المتوثبين الذين كانوا يصيحون بطريقة يتعذر سماعها على الأسوار، حيث يعلق الرجال راية بورجوندى جنبًا إلى جنب مع الراية الشخصية لقائد الحامية؛ السير دى بورنفيه. جاء بعض سكان المدينة عند الأسوار، وحدقوا هم أيضًا إلى الفرسان الذين وصلوا حديثًا، قال سميثيسون متذمرًا وهو يشير إلى سكان المدينة:

- انظر إلى أولاد الحرام هؤلاء، إنهم يودون خيانتنا. علينا أن نقتل كل شخصٍ منهم، علينا أن نقطع حلوقهم الفرنسية اللعينة.

وبصق تجاههم.

- لن يحدث شيء اليوم. من الأفضل شرب الجعة طالما ظل هذا ممكنًا.

ومشى بتثاقل مبتعدًا، تاركًا هوك ونصف دزينةٍ من الرماة الإنجليز الآخرين على السور.

أتى الفرنسيون طوال اليوم. كان أكثرهم راجلاً، وقد أحاط هؤلاء الرجال بسواسون وقطعوا الأشجار القائمة على التلال المنخفضة الواقعة إلى الجنوب، نصبت الخيام على الأرض التى تم تطهيرها وبجانب الخيام قامت رايات النبلاء الفرنسيين اللامعة، العديد من الأعلام الحمراء والزرقاء والأعلام الذهبية والفضة. جاءت مراكب البضائع عبر النهر تدفعها مجاديف عملاقة، وكانت المراكب تحمل أربعة مجانيق، وهى آلات ضخمة يمكنها أن تقذف الحجارة بعنف على الأسوار. نُقِل منجنيق واحد من تلك المقاليع الضخمة إلى الشاطئ فى ذلك اليوم وفكر انجيوران دى بورنفيه أن يلقى بها فى النهر فقاد مائتين من الرجال المسلحين فى هجمة من البوابة الغربية. لكن الفرنسيين كانوا يتوقعون الهجوم وأرسلوا فرسانًا بضعف عدد المهاجمين ليتصدوا للبورجونديين؛ التقى الجانبان وارتفعت الرماح وبعد حين تراجع البورجونديون للوراء متبوعين بسخرية الفرنسيين. وبعد الظهيرة، بدأ الدخان يتكاثف إذ بدأ الفرنسيون الذين يحاصرون المدينة يحرقون البيوت التى تقع خارج أسوار سواسون، شاهد هوك الفتاة ذات الشعر الأحمر تحمل حزمة من

الأشياء وتتجه إلى المعسكر الفرنسى الجديد. لم يطلب أى من هؤلاء اللاجئين السماح له بدخول المدينة، وإنما ذهبوا بدلاً من ذلك تجاه خطوط العدو. واستدارت الفتاة فى الجو المغطى بالدخان لتلوح بالوداع للرماة، ظهر أول رماة العدو فى ذلك الدخان. كل رامٍ يحميه مرافق له يحمل ترسًا عريضًا كبيرًا يكفى ليخبئه هو ومرافقه، وهو يعيده فوقهما بعد كل سهمٍ يطلقه. كانت السهام الثقيلة تتساقط على أسوار المدينة أو تصفر فوق الرؤوس لتقع فى مكان ما فى المدينة.

ثم انطلق صوت بوق بعد ذلك، عندما بدأت الشمس تغطس تجاه المجانيق العملاقة على ضفة النهر. انطلق النداء ثلاث مرات، كان صوته واضحًا وحادًا فى الهواء ذى الدخان الغائم، ومع انتهاء النداء الأخير توقف الرماة عن الإطلاق، وانطلقت على حين غرة هبةٌ من الشرارات لانهيار سقف من القش على المنزل المحترقٌ وتلوى الدخان الكثيف مندفعًا على طول طريق كومبيين، حيث رأى هوك اثنين من الفرسان يظهران.

لم يكن أى من الفارسين يرتدى دورعًا. كان كلا الرجلين يرتدى معطفًا زاهى الألوان، ولا يحملان من السلاح سوى صولجانات بيضاء نحيلة يحملانها عاليًا بينما حصاناهما

يخطوان برفقة على الطريق غير الممهد، كان السير دى بورنفيه ولابد يتوقعهما، فقد انفتحت البوابة الغربية، وامتطى قائد المدينة حصانه يرافقه شخصٌ واحد وذهبا ليقابلا الفارسين القادمين.

قال چاك دانسى:

- رسولان.

كان دانسى من هيرفوردشاير[١١] وكان أكبر من هوك بسنوات قليلة وكان قد تطوع ليخدم تحت راية علم بورجوندى إذ قبض عليه وهو يسرق فى الوطن وقد أخبر هوك ذات ليلة:

- كان الخيار إما أن أُشنق هناك أو أُقتل هنا.

وقال الآن:

- ما يفعله هذان الرسولان هو إخبارنا أن نستسلم، وآمل أن نفعل ذلك.

---

(١١) هيرفوردشاير (Herefordshire): مقاطعة إنجليزية تاريخية تقع فى منطقة غرب ميدلاندز، عاصمتها مدينة هيرفورد بها كاتدرائية، والمقاطعة واحدة من المناطق الريفية قليلة الكثافة السكانية ومعروفة حاليًا بإنتاجها الفاكهة ومشروب سيدر وهى الموطن الأصلى لسلالة أبقار هيرفورد. (المترجم).

وتساءل هوك:

- ونقع فى أسر الفرنسيين؟

أومأ دانسى برأسه إلى دى بورنقيه قائلاً:

- لا. لا. إنه شخص جيد، سيتأكد أننا سنكون بأمان، وإذا ما استسلمنا فسيدعوننا نذهب بعيدًا.

- إلى أين؟

قال دانسى بشكلٍ غامض:

- إلى أى مكان يريدوننا أن نذهب إليه.

وقد قابل الرسولان اللذان كان يتبعهما عن بعد حاملى الرايات وحامل بوق؛ قابلا دى بورنقيه غير بعيدٍ من البوابة. وقد شاهد هوك الرجلين ينحنيان تجاه بعضهما من فوق سروجهما، كانت هذه أول مرة يرى فيها رسلاً، لكنه علم أن من المستحيل أن يُهَاجَمُوا. إن الرسول مراقب، رجل يراقب من أجل اللورد الذى يتبعه ويسجل ما يراه ويجب أن يُعَامل الرسول باحترام، والرسل أيضًا يتحدثون باسم لورداتهم وهؤلاء الرجال ولابد أنهم يتحدثون باسم ملك فرنسا، فإحدى راياتهم هى الراية الملكية الفرنسية وهى عبارة عن مربع حريرى أزرق كبير

تزينه ثلاث من زهور الزنبق الذهبية. كانت الراية الأخرى أرجوانية بها صليب أبيض، وقد أخبره دانسى أنها راية القديس دانى وهو القديس الراعى لفرنسا، وقد تعجب هوك إذا ما كان للقديس دانى تأثير أكبر فى السماء، أكثر من كريسبين وكريسبينيان. أطرحوا حججهم أمام الرب مثل المتقاضين فى المحكمة؟ ولمس الصليب الخشبى المعلق فى رقبته.

تحدث الرجال إلى بعضهم لفترة وجيزة ثم انحنوا تحية لبعضهم البعض قبل أن يستدير الرسولان الملكيان بحصانيهما الرماديين وينصرفا؛ راقبهما السير دى بورنقيه للحظة ثم لوى عنق حصانه واندفع عائدًا إلى المدينة، ثم كبح جماح حصانه جوار بيت الصباغ المحترق حيث بدأ فى الصياح، كان يتحدث الفرنسية التى تعلم هوك منها القليل لكنه بعد ذلك أضاف بعض الكلمات بالإنجليزية:

- سنحارب! لن نسلم هذه القلعة لفرنسا! سنحارب وسنهزمهم.

وقد أجيب هذا الإعلان المدوى بالصمت من قبل البورجونديين والإنجليز على حدٍ سواء، وتركوا هذه الكلمات تزون دون أى صدى لجرأة قائدهم، تنهد دانسى لكنه لم يقل

شيئًا ثم طنَّ أزيز سهم عبر فوق الرؤوس ليسقط فـــى شـــارع قريب. انتظر دى بورنقيه أن يرد رجاله فوق الأسوار، لكنهم لم يفعلوا شيئًا؛ فاندفع عبر البوابة وسمع هــوك أنـــين مفاصـــلها الضخمة وصوت اصطدام ضفتيها وقعقعة المزلاج أثناء سقوطه فى مجراه.

بدأت الشمس فى الغروب الآن، وسطع ضوؤها الأحمــر الذهبى عبر سحب الدخان المنتشر، وتحت هذا الضوء بدأ صف من فرسان العدو يسيرون متوازين نحو سور المدينـــة. كـــانوا مسلحين، يرتدون الدروع والخوذات وكان أحدهم يمتطى حصانًا أسود ضخمًا ويحمل راية غريبة ترفرف خلفه، لم يكـــن علـــى الراية أى شعار، كانت ببساطة رايةً طويلة مثلثة مـــن القمـــاش الأحمر الزاهى، يحملها مندفعًا بسرعة البرق وكأنها شريط من الدم الحريرى وقد جعلها ضوء الشمس والدخان شـــبه شـــفافة ومتماوجة بخفة، لكن مرآها جعل الرجـــال الموجـــودين علـــى السور يرسمون علامة الصليب.

قال دانسى بهدوء:

- راية الحرب.

- راية الحرب؟

قال دانسى:

- علم يرفعه الفرنسيون فى الحرب.

ومس لسانه بإصبعه الأوسط ورسم علامة الصليب على نفسه مجددًا واستطرد بكآبة:

- إنه يعنى أنه لن يكون هناك أسرى، إنه يعنى أنهم يريدون قتلنا جميعًا.

وسقط إلى الوراء.

ولوهلة لم يدرك هوك ماذا حدث، ثم ظن أن دانسى تعثرت قدمه بالتأكيد فأمسك بيده ليرفعه ثم رأى السهم المريش بارزًا من جبهة دانسى، كان هناك القليل جدًا من الدم. قطرات قليلة تناثرت على وجه دانسى ولولاها لبدا هادئًا، ونزل هوك على إحدى ركبتيه وحدق بالسهم السميك. كانت تبرز من جبهته مسافة أقل من عرض اليد أما باقى السهم فقد غاص فى مخ رجل هيرفوردشاير، لقد مات دانسى دون أى صوت عدا صوت انغراس النصل فى اللحم، ونادى هوك:

- چاك؟

قال أحد رماة الأسهم الآخرين:

- لا جدوى من الحديث إليه يا نيك، إنـــه يتحــدث مـــع الشيطان الآن.

نهض هوك واستدار، وفيما بعد، استبقت ذاكرته القليـــل عما حدث أو حتى لماذا حدث. إن الأمر ليس لأن چاك دانـــسى كان صديقًا حميمًا فليس لدى هــوك أصـــدقاء حميمــون فـــى سواسون، ربما باستثناء چون ويلكنسون لكنه بعد ذلك اعتـــراه غضب مفاجئ، لقد كان دانسى رجلاً إنجليزيًا، وفى سواســـون يحس الإنجليزيون أنهم محاصرون من جانبهم بنفس القدر الذى يحسون به حصار العدو، والآن مات دانسى، ولذا أخـــذ هـــوك سهمًا لامعًا من الجعبة الكتانية البيضاء المعلقـــة علـــى جانبـــه الأيمن.

واستدار وخفض قوسه فصار أفقيًا أمامه، ووضع ســـهمًا عبر القوس وأمسك جسد السهم بإبهامه وهو يشده على الـــوتر، وأرجح القوس للأعلى بينما يده اليمنى تأخذ الـــسهم المـــريش وتشده إلى الخلف مع الوتر.

قال أحد الرماة:

- علينا ألا نطلق.

وتدخل آخر:

- لا تُضيع سهمًا.

كان وتر القوس جوار أذنه اليمنى. وبحثت عيناه في الأرض التي يحجبها الدخان خارج المدينة، ورأى راميًا يخطو وراء درع يزينه رمز فأسين متعانقين.

حذره الرامي الأول:

- أنت لا تستطيع الإطلاق لنفس المسافة التي يستطيعونها.

لكن هوك كان قد تعلم الرماية منذ طفولته. لقد قوّى نفسه حتى صار يستطيع أن يسحب أكبر أقواس الحرب، وعلّم نفسه أن الرجل لا يُصَوِّب بعينه ولكن بعقله. أنت ترى أولاً، ثم تحضِّر السهم، وتشد يديك بشكل غريزي، وبقوة، لتصوب القوس. سحب رامي السهام سلاحه الثقيل للأعلى بينما مزق سهمان الهواء جوار رأس هوك.

لم ينتبه إليهما. كانت لحظة كأنه في غابة خضراء يرى غزالاً يظهر على مسافة بين الأوراق، وسيطير السهم دون حتى أن يدرك الرامي أنه أطلقه. وقد قال له فتى قروي قبل سنوات:

- إن المهارة كلها تكمن بين أذنيك، يا بني، أنت لا تصوب القوس، أنت تفكر أين سيذهب السهم وسيذهب هو كما تريد.

وأطلق هوك السهم.

قال رام:

- أنت أحمق ملعون.

وراقب هوك السهم ذا ريش الإوز الأبيض وهو يرفرف في الهواء الضبابى، وشاهده ينقض أسرع من انقضاض الصقر. إنه الموت المحلق ذو الرأس الصلب المدبب الذى ريشت مؤخرته ورُبط بالحرير يرفرف فى هدوء المساء.

قال الرامى الأول بهدوء:

- يا إلهى! الطيب.

لم يمت رامى الأسهم بنفس السهولة التى قضى بها دانسى. لقد اخترق سهم هوك حنجرته فتلوى حول نفسه ونزع السهم عن عنقه فطار السهم بجنون إلى السماء بينما الرجل يسقط إلى الخلف وهو ما زال يتلوى، ثم سقط على الأرض يتقلب وهو يخمش عنقه بيديه حيث الألم مثل الحديد المصهور فى حلقه، وفوقه السماء قد صارت حمراء الآن، تخضبت بلون الدم المختلط بالدخان المتصاعد من المنازل المحترقة والشمس المتوهجة فى احتضارها اليومى.

ولذلك اعتقد هوك أن هذا السهم كان جيدًا، جسده مستقيم وريشه مأخوذ كله من نفس الجناح لنفس الإوزة. لقد طار بشكل صحيح، ذهب حيث أراده أن يذهب، وها هو ذا قد قتل رجلاً فى معركة حربية، يستطيع أخيرًا أن يطلق على نفسه رامى أسهم.

ظن هوك فى مساء اليوم الثانى للحصار أن العالم قد انتهى.

كان مساء صافيًا ودافئًا. وكان الهواء منعشًا والنهر يجرى بانسيابية بين ضفتيه المزهرتين حيث ينمو عليهما الصفصاف ونبات جار الماء[١٢]. ارتفعت رايات الفرنسيين ساكنة فوق خيامهم، وما زال بعض الدخان يتصاعد من المنازل المحترقة ويرتفع بنعومة فى هواء المساء حتى يتلاشى فى السماء الصافية، كانت طيور الخطاف والسنونو[١٣] تصطاد جوار السور وتنقض على فرائسها وتعاود الطيران.

---

(١٢) جارُ الماء (Alders): جنس شجرى يتبع الفصيلة القضبانية فى رتبة البلوطيات من ثنائيات الفلقة من النباتات المزهرة وأكبر أنواعه جار الماء الأحمر، ويتميز جار الماء بعلاقة تكافلية مع أحد أنواع البكتيريا تتواجد على عقد فى جذوره وتثبت النيتروجين فى التربة. (المترجم).

(١٣) الخطاف (Martins) والسنونو (Swallows): هى طيور تعيش فى الأرياف المكشوفة فى معظم أنحاء العالم عدا القارة المتجمدة الجنوبية=

انحنى نيكولاس هوك متكئًا على الأسوار، وكان قوسه المشدود مسنودًا جواره بينما سافرت أفكاره عائدةً إلى إنجلترا، إلى الضيعة الإقطاعية، إلى الحقول خلف الحظيرة الطويلة، حيث القش الآن جاهز للتقطيع تقريبًا. ربما توجد الآن الأرانب البرية فى الأعشاب الطويلة، سمك السلمون المرقط فى الماء الجارى والقبرات وقت الشفق، وتذكر حظيرة الماشية العفنة فى الحقل الذى يدعى شوت ميِت، حيث الحظيرة مليئة بالقش العفن والكثير من أزهار الرحيق حيث كانت زوجة ويليام سنوبول الشابة؛ نيل يمكن أن تقابله ويمارسان الحب فى يأسٍ صامت، وتعجب من قطع غابة (الأزرار الثلاثة) وتساءل للمرة الألف: كيف سميت الغابة بهذا الاسم، إن الحانة فى القرية تسمى (الأزرار الثلاثة) ولا يعلم أحد لماذا؟ ولا حتى اللورد سلايتون الذى أحيانًا ما يعرج متكئًا على عكاز عند عتبة باب الحانة

=تتراوح أطوالها بين ١٨ سم و ٢٠ سم وهى تبنى أعشاشها فى السقوف العالية للأبنية القديمة وعلى الأشجار والصفصاف الرملية الموحلة، لها جناحان طويلان وذيل متشعب يساعدها على الطيران بمهارة تتغذى على الحشرات وبعض أنواعها يقوم برحلات هجرة طويلة، فمثلاً يطير خطاف شمال أوروبا مسافة ١١٠٠٠ كم إلى مناطقها الشتوية فى أفريقيا. (المترجم).

ويضع النقود الفضية للنادل لكى يشترى قدحًا من الجعة لجميع الحاضرين. ثم دار بخلده أفراد عائلــة بيريــل الحاقــدين ذوى الحضور الدائم، إنه لا يستطيع العودة للوطن الآن، وللأبد، لأنه خارج عن القانون. يمكن لآل بيريل أن يقتلوه ولن يعد هذا قتلاً عمدًا أو حتى قتلاً خطأً، فالشخص الخارج عن القانون لا يحظــى بحماية القانون. وتذكر النافذة التى كانت فى إسطبل لندن، كــان يعلم أن الرب قد أخبره عبر تلك النافذة أن يأخــذ تلــك الفتــاة المارقة لكنه فشل وظن أن الضوء السماوى المنبعث خلف تلــك النافذة سينقطع عنه إلى الأبد. "سارة". كان غالبًــا مــا يغمغــم باسمها بصوت جهورى وكأن تكراره يمكن أن يجلب الغفران.

وتلاشت هدأة المساء على ضوضاء.

لكن فى البدء كان هناك ضوء، تذكر هوك هذا لاحقًــا، ضوء معتم، طعنة من ضوء معتم فى قلب المساء. ضوء أحمر ملتهب السواد كأنه لسان ثعبانٍ قادمٍ من الجحيم يلعــق الــسماء بلسان يندفع من إحدى الحفر التى جهزها الفرنسيون قريبًا مــن أحد مجانيقهم العملاقة.

ظهر هذا اللسان من النيران الــشريرة للحظــة قبــل أن ينمحى داخل سحابة من الــدخان الكثيــف والــضوضاء التــى تصاعدت فجأة!! ثم جاءت الضوضاء والصوت الذى يــضرب

الأذن ويهز السماوات، ثم تبعه صوت قرقعة عالية أخرى وكأن شيئًا يضرب سور المدينة.

اهتز السور. سقط قوس هوك على الأحجار؛ صاحت الطيور وهى تطير متباعدة من اللهب والدخان والضوضاء الصاخبة. اختفت الشمس. اختفت خلف غيمة الدخان الأسود الكثيف، حدق هوك، وملأه اليقين على الأقل للحظة، أن شقًا قد انفتح فى الأرض وأن الجحيم يقىء نيرانه إلى السطح.

قال رامٍ فى رهبة:

- أيها المسيح الدامى الجميل!

قال آخر فى اشمئزاز:

- أتتعجب مما حدث.

ثم أضاف مفسرًا للرامى الأول:

- إنه مدفع، ألم تر مدفعًا من قبل؟

- قط.

قال الآخر بتجهم:

- ستراها الآن.

لم يكن هوك قد رأى مدفعًا من قبل هو الآخـــر، وأجفــل عندما رأى المدفع الآخر يطلق نيرانه ليملأ سماء الصيف بدخانه القذر. فى اليوم التالى أُطلِقَت أربع طلقات أخرى وقد أحــدثت المدافع الفرنسية الستة ضررًا أكبــر مــن المجــانيق الأربعــة الخشبية الكبيرة. كانت المجانيق غير دقيقة وغالبًا مــا تخطــئ طلقاتها الحجرية الخشنة الأسوار، وتسقط داخل المدينة لتــسحق المنازل التى بدأت بالاحتراق من تناثر نيران مطابخهــا، أمــا طلقات المدافع فقد ظلت تأكل بثبات فى سور المدينة الذى كــان فى حالة سيئة بالأساس. واستغرق الأمر يومين فقط حتى انهدم الجدار الخارجى من السور فى الخندق المُنتِن الواسع، وبعد ذلك قام المدفعيون بتوسيع الخــرق بــشكل مــنظم بينمــا وضــع البورجونديون متراسًا نصف دائرى خلف السور المنسحق.

كان كل مدفع يطلق نيرانه ثلاث مرات يوميًــا، كانــت طلقاتها منتظمة كأجراس دير ينادى على الرجال للصلاة، كــان لدى البورجونديين مدفعهم الذى كانوا قد قاموا بوضعه فى الجهة الجنوبية من الحصن متوقعين هجوم الفرنــسيين مــن طريــق باريس. وقد استغرق جر السلاح إلى الناحية الغربية من السور يومين حيث وضع على سقف برج البوابة. كان هــوك مفتونًــا بأنبوبة السلاح التى كان طولها ضعف طول قوسه ومــستديرة

مثل وعاء الجعة، كانت الأنبوبة ومتعلقاتها مصنوعة من الحديد القاتم وتقبع فوق قاعدة خشبية تحملها. كان المدفعيون هولنديين، وقد ظلوا لفترة طويلة يراقبون مدافع الأعــداء، وفــى النهايــة صوبوا الأنبوبة على أحد المدافع الفرنسية وبدأوا فــى تحميــل آلتهم. كان البارود يوضع فى ماسورة المدفع بمغرفة ذات يــد طويلة، ثم يُدَكُّ بشدة بعصا ذات نهاية ملفوفة بالقماش ثم يضاف طمى صلصالى لين، كان هذا الطمى، يوضع فى دلــو خــشبى فوق بارود، ويترك ليجف بينما يجلس المــدفعيون فــى دائــرة يلعبون النرد. كانت دانة المدفع، وهى الكرة البسيطة من الطمى تنتظر جوار المدفع حتى يقرر قائد المدفع وهو رجل مهيب ذو لحية متشعبة أن الطمى قد جف بما يكفى وبعدها فقط يــضعون الحجر فى الأنبوب الطويل ذى الفوهة الواسعة، ثم يوضع بعدها وتد خشبى ويُدَق عليه ليُبقِى الدانة مــضغوطة فــوق البــارود والطمى المخصب. رش أحد القساوسة الماء المقدس على المدفع وتلا صلواته بينما الهولنديون يستخدمون رافعات طويلة ليقوموا بضبط نهائى صغير لتحديد الهدف.

قال الرقيب سميثيسون لهوك:

– ابتعد إلى الخلف، يا بنى.

لقد تنازل قائد الرماة وغادر حانة (الإوزة) ليرى الهولنديين وهم يطلقون سلاحهم. كما وصل عشرون من الرجال الآخرين بينهم السير دى بورنقيه الذى أخذ ينادى فى المدفعيين مشجعًا. لم يقف أحدٌ من المشاهدين بالقرب من المدفع لكنهم بدلاً من ذلك كانوا يراقبون الأنبوبة السوداء وكأنها وحش مفترس لا يمكن أن يأمنوا له. قال سميثيسون وهو يحنى جبهته تجاه رجل طويل شديد النحول كالسهم:

- صباح الخير، يا سير روچر.

تجاهل السير روچر بالبير قائد الفرقة الإنجليزية التحية. كان وجهه هزيلاً ذا أنفٍ معقوف وفكين طويلين هزيلين وخدين غائرين وشعر داكن وفى صحبة رماته يرتسم على وجهه تعبير رجلٍ مرغم على تحمل الرائحة الكريهة للمراحيض.

انتظر الرجل الهولندى الوقور حتى انتهى القس من ابتهالاته، ودفع عمود دوران مجوف داخل فتحة موجودة فى عَقِب المدفع، واستخدام قمعًا نحاسيًا ليملأ عمود الدوران بالبارود ونظر مرة أخرى بطول ماسورة المدفع ثم خطا خطوة إلى الجانب، ورفع يده لفترة طويلة ممسكًا بفتيل طويل مشتعل. كان القس هو الرجل الوحيد الذى يقف بالقرب من السلاح،

يرسم علامة الصليب ويصلى بتضرعات سريعة ثم لمس قائد المدفعية بالفتيل المشتعل الطويل عمود الدوران المجوف الممتلئ بالبارود؛ وانفجر المدفع.

وبدلاً من أن يرسل المدفع بالصخرة في اتجاه التحصينات الفرنسية، انتهى الحال بالمدفع إلى فوضى من الدخان وقطع المعدن المتناثر والأشلاء الممزقة. قضى القس والمدفعيون الخمسة على الفور وتحولوا إلى ضباب أحمر دموى ولحم ممزق. وصاح رجل من الجنود وتلوى إذ اخترقت قطعة من الحديد بطنه. ابتعد السير روچر بسرعة وهو الذى كان يقف جوار هذا الرجل الصارخ، وقطب وجهه ناظرًا إلى الدم الذى تناثر على الشعار الموجود على معطفه وهو عبارة عن ثلاثة صقور على خلفية خضراء، وتحدث السير روچر وسط الدم المتناثر والدخان المتصاعد فوق السور:

– ستقابلنى الليلة يا سميثيسون فى كنيسة القديس أنطوان الصغير، أنت وكل رفاقك.

قال سميثيسون بضعف:

– نعم يا سيدى، نعم، بالطبع يا سير روچر.

كان الرقيب يحدق فى المدفع الخــرب، كانــت الأقــدام العشرة الأولى من حطام الماسورة ترقد مائلة وقد انفتحت بينما تمزقت القاعدة إلى شظايا معدنية خشنة يتصاعد منها الــدخان. قبع جزء من حلق الأنبوب ويد رجل عند قدمى هوك، أما جنود المدفعية الذين استُأجروا بتكاليف باهظة فلم يبق مــنهم ســوى جثث تناثرت أحشاؤها المنتزعة. رسم السير دى بورنڤيه علامة الصليب وقد تناثرت على زيه العسكرى بعض الدماء والأشلاء، بينما تعالت أصوات الضحكات والإشارات الساخرة من خطوط الحصار الفرنسية.

قال السير روچر وقد ظهر جليًا أنه تناسى الرعب الدامى القابع على بعد خطوات قليلة منه:

- لابد أن نخطط للهجوم.

قال سميثيسون:

- جيد جدًا يا سير روچر.

ورفع قائد الرماة كتلة هلامية من فوق حزامه قائلاً:

- أمخاخ الهولنديين الملاعين.

ووجهها تجاه السير روچر الذى استدار وسار بعيدًا.

قابل السير روچر ومعه ثلاثة من الجنود الذين يرتـــدون نفس شعاره؛ شعار الصقور الثلاثة، قـــابلوا الرمـــاة الإنجليــز والويلزيين لحامية سواسون فى كنيسة القديس أنطوان الـــصغير بعد غروب الشمس مباشرة. كان معطف السير روچر قد غُسِل رغم أن آثار بقع الدم لا تزال مرئية بشكل بسيط على الكتـــان الأخضر. كان يقف أمام المذبح المضاء بالشموع الموقدة علـــى الأرفف المقوسة المثبتة على أعمدة الكنيسة ولا يـــزال وجهـــه يحمل نظرة بعيدة لرجل يتألم من وضعه الحالى، وقال دون أى مقدمات بعد أن استقر تسعة وثمانون من الرماة علـــى أرضـــية صحن الكنيسة:

– مهمتكم ستكون الدفاع عن الخرق، لست أدرى متـــى يهجم العدو لكن يمكننى أن أؤكد لكم أن هذا ســـيكون قريبًا جدًا. أنا واثق أنكم تستطيعون صـــد مثـــل تلـــك الهجمات.

قال سميثيسون فى مداخلة مفيدة:

– أوه، تأكد أننا سنفعل يا سير روچر يمكنك أن تعتمـــد على ذلك يا سيدى.

ارتجف وجه السير روچر الطويل إثر هذا التعليق. تدور الشائعات فى الفرقة الإنجليزية حـــول اقتراضـــه نقــودًا مـــن مصرفيين إيطاليين فى انتظار ضيعة يرثها من عمٍ لــــه، لكـــن الأرض انتقلت إلى ابن عمٍ آخر وظل السير روچر مدينًا بثروة إلى المصرفيين الذين لا يرحمون. كان الأمل الوحيد لسداد هذا الدين أن يأسر فارسًا فرنسيًا غنيًا ويحصل على فدية. ويفترض أن هذا هو السبب الذى دفعه ليبيع خدماته إلى دوق بورجوندى، وقال:

– وفى حالة فشلكم فى إبقاء العدو خارج المدينة علـــيكم أن تجتمعوا هنا، فى هذه الكنيسة.

أثارت هذه الكلمات بلبلة فقد عبس الرجال ونظروا إلـــى بعضهم البعض، كانوا يتوقعون أنهم إذا فشلوا فى الـــدفاع عـــن الخرق وفقدوا الدفاعات الجديدة خلفه، تراجعوا إلى القلعة. غامر سميثيسون بتردد:

– يا سير روچر!

قال السير روچر:

– أنا لم أسمح بأى أسئلة.

قال سميثيسون فى مثابرة وهو يحنى جبهته أثناء حديثه:

- هذا من بعض فضلك الجزيل يا سير روچر، ألن نكون أكثر أمانًا فى القلعة.

قال السير روچر بحزم:

- سنجتمع هنا، فى هذه الكنيسة.

قال أحد الرماة بالقرب من هوك بشكل عدائى:

- ولماذا ليست القلعة؟

توقف السير روچر قليلاً يبحث عمن تحدث، لكنه لم يستطع أن يعرف من السائل لكنه تنازل بطرح الإجابة عن أى حال وتحدث فى النهاية:

- إن أهالى المدينة يمقتوننا ولو حاولتم الوصول إلى القلعة فسيهاجمونكم فى الشوارع. إن هذا المكان أقرب إلى الخرق ولذا تعالوا إلى هنا.

وتوقف مجددًا ثم استطرد:

- وسأسعى للاتفاق على هدنة لكم.

وساد صمت قَلِق. إن تفسير السير روچر قد ترك فى نفوسهم انطباعًا ما. إن الرماة يعلمون أن أغلب العامة فى سواسون يكرهونهم. أهالى المدينة من الفرنسيين يدعمون ملكهم

ويكرهون البورجونديين، لكنهم يكرهون الإنجليز أكثر. ولذا كان الاحتمال كبيرا أن يهاجموا الرماة إذا تراجعوا إلى القلعة. قـــال سميثيسون بريبة:

- هدنة.

قال السير روچر:

- إن معركة الفرنسيين مع البورجونديين وليست معنا.

وصاح أحد الرماة:

- هل ستلحق بنا هنا يا سير روچر؟

قال السير روچر:

- بالطبع.

وتوقف، لكن أحدًا لم يتحدث فاستطرد بكبرياء:

- قاتلوا بقوة وتذكروا أنكم رجال إنجليز!

تدخل أحدهم قائلاً:

- رجال ويلزيون.

أجفل السير روچر عند هذه الكلمات بوضوح، وبعد ذلك، ودون كلمة أخرى، قاد رجاله الثلاثة المسلحين منــصرفًا مــن

الكنيسة وارتفعت همهمات محتجة عند انصرافه، كانت كنيسة القديس انطوان الصغير مبنية من الحجر ويمكن الدفاع عنها، لكنها ليست آمنة كالقلعة ولكن من الحقيقى أيضًا أن القلعة تقع فى الطرف الآخر، وتساءل هوك فى خلده حول مدى صعوبة الوصول إلى ذلك الملجأ إذا سَد أهالى المدينة الشوارع، واخترق الجنود الفرنسيون الأسوار، وتطلع إلى الحائط وعليه رسمٌ يصور رجالاً ونساءً وأطفالاً يطرحون فى الجحيم. كان بين الأرواح المنكوبة كهنة وأساقفة يتساقطون فى الشلال الصارخ إلى حيث تنتظرهم الشياطين السوداء بابتسامةٍ واسعةٍ خبيثةٍ ممسكين برماح ثلاثية الرؤوس، قال سميثيسونٌ وقد لاحظ أين تتجه نظرات هوك:

– ستتمنى لو كنت فى الجحيم إذا أسرك الفرنسيون، ستستجدى الجحيم معتبرًا إياه راحة لو أمسك بك هؤلاء الفرنسيون أولاد الحرام، ولذا تذكر! سنحارب عند المتاريس والدفاعات ولو انهارت كلها إلى هباء، سنأتى إلى هنا.

صاح أحد الرجال:

– لماذا هنا؟

قال سميثيسون ونبرة صوته قد تشى بأى شىء سوى اليقين:

- لأن السير روچر يعلم ما يفعل، وإذا كان لديك أحباب هنا فتأكد أن أحبابك الصغار سيأتون معك.

وبدأ يهز فخذيه الممتلئين إلى الأمام والخلف وهو ينظـر بنظرةٍ خبيثةٍ مستطردًا:

- لا نريد ترك أحبابنا فى الشوارع ليستطـيهن نـصف أفراد الجيش الفرنسى. أليس كذلك؟

حدق هوك فى الصباح التالى جهة الشمال عبر نهر آيسن إلى التلال المنخفضة التى تكسوها الأشجار حيث ينتظرون مددًا من بورجوندى لرفع الحصار، ولكن أحدًا لـم يـأت، وأخـذت أحجار المدفع الكبيرة تئز عبر بقايا المنازل المحترقة، لتضرب الأسوار المتداعية، وتطلق سحبًا من الغبار تستقر فـوق النهـر كبقع رمادية شاحبة. يستيقظ هوك مبكرًا كل صباح قبل انـبلاج الضوء، ويذهب إلى الكاتدرائية حيث يركع على ركبته ويصلى. لقد حذروه من قبل ألا يسير وحده فى الشوارع، لكـن أهـالى سواسون تركوه وحاله ربما خوفًا من حجمه وطوله وربمـا لأنهم علموا أنه رامى السهام الوحيد الذى يصلى بانتظام ولـذا تسامحوا معه، كان قد هجر الصلاة إلـى القـديس كريـسبين

والقديس كريسبينيان فقد حسب أنهما يهتمان أكثر لأمر سكان المدينة؛ أهلهم، ولذا كان يصلى بدلاً عن ذلك إلى أم المسيح لأن أمه هو كانت تدعى مارى وكان يتوسل للعذراء المباركة أن تمنحه الغفران عن الفتاة التى ماتت فى لندن. وفى أحد الصباحات ركع قسيس جواره وتجاهل هوك الرجل.

قال القس وهو يتعثر فى لغة إنجليزية غريبة عليه لم يعتدها:

– أنت الرجل الإنجليزى الذى اعتاد الصلاة.

لم يقل هوك شيئًا، فاستطرد القس وهو يومئ برأسه إلى النساء اللاتى ركعن أمام التماثيل والمذابح:

– إنهن يتساءلن لماذا تصلى؟!

كان هوك قد انتوى أن يستمر فى تجاهل الرجل لكن القس كان له وجه ودود وصوت طيب، فقال هوك فى نبرة فظة:

– أنا أصلى فحسب.

– هل تصلى من أجل نفسك؟

اعترف هوك قائلاً:

– نعم.

كان يصلى لعل الرب يغفر له ويرفع اللعنة التى مــلأت حياته شقاءً.

اقترح القس بلطف:

- وإذن اطلب شيئًا لشخص آخر، إن الرب ينصت إلــى من يفعل ذلك فى صلاته بسهولةٍ على ما أعتقد وإذا ما صليت من أجل شخص آخر فسيجيب ما تطلبه لنفسك أيضًا.

وابتسم ونهض ولمس كتف هوك بلطفٍ قائلاً:

- وصلِّ إلى قديسينا، كريسبين وكريسبينيان أظنهما أقل انشغالاً من العذراء المباركة، فليحرسك الــرب أيهــا الرجل الإنجليزى.

سار القس مبتعدًا، وقرر هوك أن يأخذ بنصيحته ويصلى مرةً أخرى إلى القديسين المحليين وذهب إلى مذبح تحت لوحــة تمثل الشهيدين وصلى من أجل روح سارة التى أخفق فى إنقــاذ حياتها فى لندن، وحدق إلى اللوحة وهو يصلى، كان القديــسان يقفان فى حقل أخضر تتناثر عليه نجوم ذهبية على تــلٍ عــالٍ خلف مدينة ذات أسوار بيضاء، كانا ينظران إلى هوك بحــزنٍ وأسفٍ بالغٍ. لم تكن هيئتهما كصانعى الأحذية، كانا يرتديان ثيابًا

بيضاء. وكان كريسبين يحمل عصا رعاة الأغنام بينما يحمل كريسبينيان سلةً من الخوص تمتلئ بالتفاح والكمثرى، وقد كُتِب اسم كل منهما تحته ورغم أن هوك لم يكن يستطيع القراءة فإنه استطاع أن يميز كلاً منهما من الآخر لأن أحد الاسمين أطول من الآخر.

كان كريسبينيان يبدو رجلاً أكثر ودًا، كان ذا وجه مستدير وعينين زرقاوين ويبتسم نصف ابتسامة بها الكثير من العطف، بينما بدا القس كريسبين أكثر صرامةً بكثير، وقد استدار مبتعدًا نصف استدارة وكأنه ليس لديه وقت لمن يراه، وبدا على وشك النزول من التل إلى المدينة وهكذا اعتاد هوك أن يصلى كل صباح لكريسبينيان رغم أنه يقرعادة بفضل كريسبين أيضًا، وكان يضع فلسين فى الجرة فى كل مرة يصلى فيها.

وقد قال له چون ويلكنسون ذات مساء:

- إن الناظر إليك لا يحسبك رجلاً اعتاد الصلاة.

قال هوك:

- أنا لم أكن كذلك حتى أتيت هنا.

تساءل الرامى العجوز:

- أتخاف على روحك؟

تردد هوك، كان يربط ريش سهم بالحرير المسروق من ستارة مذبح الكاتدرائية ثم قال فجأة:

- لقد سمعت صوتًا.

تساءل ويلكنسون:

- صوتًا؟!

لكن هوك لم يقل شيئًا فعاد الرجل العجوز يسأل:

- صوت الرب؟

قال هوك:

- كان هذا فى لندن.

ثم شعر بالحماقة لاعترافه، لكن ويلكنسون أخذ الأمر بجديةٍ. حدق فى هوك لفترة طويلة ثم أوما برأسه فجأةً، وهو يقول:

- أنت رجل محظوظ يا نيكولاس هوك.

- أنا؟

- إذا كان الرب قد تحدث إليك فإذن لابد أن لديه قصدًا ما منك، وهذا يعني أنك ربما تنجو من هذا الحصار.

قال هوك بارتباك:

- هذا إذا كان الرب هو الذى تحدث إلىّ.

- ولماذا لا يكون هو؟ إنه يحتاج إلى التحدث إلى الناس على أساس أن الكنيسة لا تستمع إليه.

- ألا تفعل؟

بصق ويلكنسون وقال:

- إن الكنيسة تهتم بالمال، يا فتى، المال. إن القساوسة يفترض بهم أن يكونوا رعاة، أليس كذلك؟ أن يتوجه اهتمامهم للعناية بشعبهم، لكنهم كلهم فى قاعة الضيعة الإقطاعية يملأون أفواههم بالمعجنات ولذا صار على الخراف أن تعتنى بأنفسها.

وأشار بسهم إلى هوك قائلاً:

- وإذا اقتحم الفرنسيون المدينة، يا هوك، لا تذهب إلى كنيسة القديس أنطوان الصغير! اذهب إلى القلعة.

وبدأ هوك بالحديث:

- السير روجر...

قال ويلكنسون فى غضب:

- يريدنا موتى.

- ولماذا يريد ذلك؟

- لأنه لا مال لديه وعليه الكثير من الديون - يا أيها الصبى - ولذا يمكن لمن يملك مالاً أكثر أن يشتريه، ولأنه ليس رجلاً إنجليزيًا حقيقيًا، لقد جاءت عائلته إلى إنجلترا مع النورمانديين وهو يكرهك ويكرهنى لأننا ساكسونيون ولأنه ممتلئ حتى الثمالة بهراءات النورمانديين، ولهذه الأسباب، ستذهب إلى القلعة، يا فتى! هذا ما يجب عليك أن تفعله.

كانت السماء مظلمة فى الليالى القليلة التالية، وكان القمر المتضائل محاقًا لامعًا كنصل سلاح سفاح. وكان السير دى بورنقيه يخاف من هجوم ليلى، فأمر بربط كلاب فى الأرض القاحلة حيث احترقت المنازل، وقال: إذا نبحت الكلاب فليضرب جرس الإنذار عند البوابة الغربية. وقد نبحت الكلاب وسمع رنين الجرس، لكن الفرنسيين لم يهاجموا الخرق وعندما غطى ضباب الفجر المتلألئ النهر، قذف مَن يحاصرون المدينة جثث

الكلاب بالمجانيق وقد خُصيت وذُبحت كتحـذير عمّـا ينتظـر الحامية المدافعة من مصير.

ومرّ عيد القديس آبدوس[١٤] ولم يأت المدد ليرفع عـنهم الحصار، ثم جاء عيد القديس بوسيديوس[١٥] ومضى. وكـان اليوم التالى هو عيد العذارى السبع المقدسات، وقد صلى هـوك

---

(١٤) القديس آبدوس (Abdus): ويدعى أيـضًا آبـدو (Abdo) وآبـدون (Abdon) ولا يعرف الكثير عنه سوى اسمه وأنه شهيد وأنه دفن فـى الثلاثين من يوليو وإن كانت بعض الأماكن تحتفل به فى العشرين من مارس والبعض فى الأحد الأول من شهر مايو وتصفه الكتابات التـى وردت فى معظمها قبل القرن التاسع أنه من الفرس وأنه قتل فى عـام ٢٥٠ م وإن قال بعضها بموته عام ٣٣٠. وأنه دفن بعد قتله فى روما وإن اختلفت الكتابات حول طريقة وصوله إليها والعذاب الذى تعـرض له، وتدعى العديد من المدن -أشهرها فلورنسا وسواسون- احتواءهـا رفاته. (المترجم).

(١٥) **القديس بوسـيديوس (Saint Possidius)**: هـو صـديق القـديس أوغسطين وقد كتب سيرته وقائمة أعماله وكان أسـقف كالاما فـى مقاطعة نوميديا الرومانية، ولا يعرف على التحديد تاريخى مولده ووفاتـه وإن كان من المرجح أنه عاش فى القرن الخامس الميلادى. (المترجم).

لكل منهن، وفى فجر اليـوم التـالى تـضرع إلـى القـديس دانستون[١٦] فى عيده؛ هذا الرجل الإنجليزى، وتـضرع طلبًـا للحماية فى اليوم الذى يليه للقديس إيثيلبرت[١٧] الذى كان ملكـا

---

(١٦) القديس دانستون (Saint Dunstan): ولد عام ٩٠٩ وتوفى فى ١٩ من مايو عام ٩٨٨ م، وقد خدم كأسقف جلوستر وأسـقف لنـدن ورئـيس أساقفة كانتربرى وقد سمى قديسًا فى وقت لاحق ومن أهم أعماله إعادة حياة الرهبنة لإنجلترا وإصلاح الكنيسة الإنجليزية. قام بـدور وزيـر الخارجية للعديد من ملوك إنجلترا وكان القديس الأكثر شهرة لقـرنين من الزمان وهناك العديد من القصص الشهيرة من بينها تلك المتعلقـة بهزيمته للشيطان. (المترجم).

(١٧) القديس إيثلبرت (Saint Ethelbert): هو القديس الأشهر فى القرن الثامن الميلادى وقد كان ملكًا على أنجليا الشرقية وهى مملكة أنجلـو-سكـسونية تشمل اليوم مقاطعات نورفولك وسافولك الإنجليزية ولا يعرف سوى القليل عن فترة حكمه، التى ربما تكون قد بدأت عام ٧٧٩ م، ووفقًا للمـؤرخين الأنجلو-سكسونيين قد قتل بناء على أوامر من أوفا من مرسيا عـام ٧٩٤، غدرًا ومن ثم اعتبرته الكنيسة قديسًا وصار رمـزًا فـى إيـست أنجليـا وهيرفورد حيث يقع ضريحه، وقد قتل فى العشرين من مايو عـام ٧٩٤، ويحتفل بعيده فى ذلك اليوم وهنالك العديد مـن الكنـائس فـى نورفولـك وسافولك والريف الغربى الإنجليزى مكرسة له. (المترجم).

لإنجلترا. صلى طوال الوقت أيضًا إلى كريسبينيان وإلى كريسبين يستجدى حمايتهما، وفى اليوم التالى مباشرة؛ فى عيد القديس هوسبيتيوس[١٨] تلقى إجابة صلواته.

لقد هاجم الفرنسيون سواسون وهم يصلون للقديس دانى[١٩].

---

(١٨) القديس هوسبيتيوس (Saint Hospitius): ولد فى مصر فى بدايات القرن السادس وترهبن فيها ثم هاجر إلى بلاد الغال وانعزل فى شبه جزيرة تسمى كاب فيرات تقع على بعد بضعة كيلومترات إلى الشرق من نيس، وكان صديقًا للقديس جريجورى الذى يرجع إليه الفضل فيما نعرفه من معلومات ضئيلة عنه، وتوفى فى الحادى والعشرين من مايو عام٧٥٧م، ويحتفل بعيده فى ذلك اليوم. (المترجم).

(١٩) القديس دانى (Saint Denis): ويسمى أيضًا ديونيسيوس ودنيس، شهيد وقديس مسيحى، كان أسقف باريس فى القرن الثالث الميلادى واستشهد فى فترة اضطهاد الوثنيين للمسيحيين فى عهد الامبراطور داكيوس تقريبا بعد وقت قصير من عام ٢٥٠ م، ويقال إنه التقط رأسه بعد قطعها وسار بها يعظ الناس مسافة عشرة كيلومترات وتعتبره الكنيسة الكاثوليكية الرومانية راعى باريس وفرنسا، ويحتفل بعيده فى التاسع من أكتوبر. (المترجم).

علم هوك بالهجمة الأولى عندما دقت أجراس كنيسة المدينة؛ أخذت تدق فى هياجٍ مسعور وبطريقة فوضوية. كانت ليلة مظلمة وكان مشوشًا. نام على القش خلف ورشة چون ويلكنسون وقد استيقظ على وهج النيران التى تعالت إثر إلقاء الرجل العجوز الخشب تحت الموقد النحاسى كى يزداد الضوء، وقال ويلكنسون:

- لا ترقد هناك مثل أنثى خنزير حبلى، أيها الصبى، إنهم هنا.

وأحس هوك بموجةٍ من الذعر مثل الماء المتجمد الذى تحول إلى الغليان فى جسده.

- يا مريم، يا أم الرب.

قال ويلكنسون:

- عندى ظنٌ بسيطٌ أنها لن تبالى بشكل أو بآخر.

وسحب معطفًا وسارع ليضع دروعه وخوذته على رأسه، واستطرد بينما المعطف يكتم صوته:

- ثمة جعبة أسهم جوار الباب مليئةً بالأسهم المستقيمة، لقد استبقيتها لك. اذهب، يا فتى، واقتل بعض أولاد الحرام هؤلاء.

سأله هوك وهو يشد أربطة حذائه ذى الرقبة الطويلة؛ حذاء جديد صنعه له إسكافيون مهرة من سواسون:

– وماذا عنك؟

– سألحق بك، شد وتر قوسك، يا بنى، واذهب!

ربط هوك غمد سيفه، وشد وتر قوسه، واختطف جعبة سهامه ثم أخذ الجعبة الثانية من جوار الباب، وركض إلى ساحة الحانة، واستطاع سماع الصياح والصرخات، لكنه لم يعلم بالضبط من أين تأتى. كان الرماة يتدفقون على الساحة، وتبعهم بشكلٍ غريزى إلى الدفاعات الجديدة وراء الخرق. كانت أجراس الكنيسة تطرق سماء الليل بضوضاء دقاتها غير المنتظمة، ونبحت الكلاب وعوت.

لم يكن لدى هوك أى دروع سوى خوذةٍ قديمة أعطاها له ويلكنسون، تقبع على رأسه مثل الوعاء. كان يرتدى معطفًا مبطنًا ربما يقية من طعنات السيف الضعيفة، لكن هذا كان حمايته الوحيدة. كان الرماة الآخرون يرتدون معاطف ذات دروعٍ قصيرةٍ وخوذاتٍ مضبوطةٍ عليهم تمامًا، ويزين معاطفهم شعار بورجوندى؛ الصليب الأحمر المتعرج، ورأى هوك من يرتدون هذا الزى يلتفون حول الجدار الجديد المصنوع من

سلالٍ مجدولةٍ مليئةٍ بالتراب، لكن أحدًا من الرماة لـــم يـــسحب وترًا فى قوسٍ حتى الآن، وعوضًا عن ذلك كانوا يتطلعون إلى الخرق الذى ســطع بأضـــواءٍ مفاجئـــةٍ إثـــر إلقـــاء الجنـــود البورجونديين بالمشاعل المنقوعة فى الزيت موقدةً فى الفجـــوة التى أحدثتها طلقات المدفع فى السور.

كان هناك قرابة الخمسين جنديًا عند السور الجديد لكـــن العدو لم يكن عند الفجوة، ورغم ذلك مازالت الأجـــراس تـــدق بشكل محموم لتعلن عن هجومٍ فرنسيٍ، ودار هوك حول نفـــسه ليرى الوهج الموجود فى السماء عند الناحية الجنوبية من المدينة ينعكس كوهج النار فوق برج الكنيسة مما يدل على أن المبـــانى المحترقة فى مكانٍ قريبٍ من بوابة باريس. هل هاجم الفرنسيون من هناك؟ كان المشرف على بوابة باريس هو الـــسير روچـــر بالبير ويدافع عنها الجنود الإنجليز وتعجب هوك لـــيس للمـــرة الأولى، لماذا لم يطلب السير روچر من الرمـــاة الإنجليـــز أن ينضموا لحامية البوابة.

وبدلاً من ذلك كان الرماة ينتظرون عند الفجوة الغربيـــة، حيث لم يظهر العدو بعد. كان سميثيسون قائد الرماة عـــصبيًا، وظل ممسكًا بالسلسلة الفضية التى تدل على رتبته يلقى نظـــرةً

خاطفةً على وهج الحرائق الجنوبية ثم يعـاود النظـر للفجـوة مجددًا، وقال دون أن يوجه حديثه إلى شخصٍ بعينه:

- بحق الشيطان.

تساءل أحد الرماة:

- ماذا يحدث؟

قال سميثيسون:

- وكيف لى أن أعرف بحق اسم الرب؟

ثم استطرد ببرود:

- أظن أنهم داخل المدينة بالفعل.

وجلب دزينةً من حزم السهام الاحتياطية وألقاهـا خلـف الرماة. وترامت أصوات الصرخات من مكانٍ ما فى المدينـة، وجرت جماعةٌ من الرماة البورجونديين متجاوزين هوك تاركين الفجوة ومتجهين نحو بوابة باريس، وتبعهم بعض الجنود.

قال سميثيسون بصوت متردد:

- إذا كانوا داخل المدينـة فعلينـا إذن أن نـذهب إلـى الكنيسة.

فتساءل أحد الرجال:

- ليس إلى القلعة؟

قال سميثيسون:

- أظن أن علينا أن نذهب إلى الكنيسة حسبما قال السير روچر، إنه رجلٌ نبيل، أليس كذلك؟ إنه يعرف ما يفعله بالتأكيد.

قال ويلكنسون معلقًا:

- نعم، والبابا مُغَيَّبٌ عما يحدث.

تساءل أحد الرجال:

- الآن؟ نذهب الآن؟

لكن سميثيسون لم يقل شيئًا، شدّ بقوةٍ فقط على السلسلة الفضية وتلفت يمينًا ويسارًا.

كان هوك يحدق فى الفجوة وتنفسه ضحلاً وارتعدت ساقه اليمنى، وصلى:

- ساعدنى يا ربِ، احمنى أيها المسيح الجميل.

لكنه لم يحصل على راحةٍ من هذه الصلاة، كل ما استطاع التفكير فيه أن العدو فى سواسون أو يهاجم سواسون، بينما لا يستطيع هو أن يعلم ماذا يحدث وأحس بالضعف والعجز. كانت الأجراس تدق داخل رأسه وتربكه، كان الخرق الواسع مظلمًا باستثناء بصيصٍ ضعيفٍ من احتضار ضوء المشاعل، لكن هوك أدرك ببطءٍ أن ثمةً أضواء أخرى تتحرك هنالك؛ أضواءٌ فضيةٌ رماديةٌ متّحركةٌ كأنها الدخان فى ضوء القمر، أو كأنها الأشباح التى تأتى إلى الأرض فى عيد جميعٍ القديسين، ودار بخلد هوك أن الأضواء جميلةٌ، كانت رقيقةً ومتطايرةً فى الظلام. حدق متسائلاً عن كينونة الأشكال المتوهجة، ثم تحولت تلك الأطياف من اللون الرمادى الفضى إلى اللون الأحمر المتوهج، وأدرك حينها مع بداية الرعب أن الأشكال المتحركة كانت رجالاً، وأن ما رآه كان ضوء المشاعل منعكسًا على الدروع المستديرة، وصاح:

- أيها الرقيب.

قال سميثيسون منتصب القامة:

- ماذا؟.

- إن أولاد الحرام هنا!.

وكانوا بالفعل هنا.

كان أولاد الحرام يأتون عبر الفجـوة، كانـت دورعهـم المستديرة لامعةً ونظيفةً بما يكفى لتعكس ضوء النار يتقـدمون تحت رايةٍ زرقاء اللون عليها شعار الزنـابق الذهبيـة، كانـت مقدمة خوذاتهم مغلقة وسيوفهم الطويلة تعكس أضواء النيـران. لم يعودوا الآن كالأطياف الضبابية. بل يـشبهون رجـالاً مـن المعدن المحترق، أشباحًا من أحلام الجحيم، موتٌ يـأتى عبـر الظلام إلى سواسون، لم يستطع هوك أن يحصى عددهم، فقـد كانوا كثيرين جدًا.

قال سميثيسون فى رعب:

– أوه، يا إلهى، أوقفوهم!

وفعل هوك ما أخبروه به. تراجع إلى المتـراس والـتقط سهمًا من الحقيبة الكتانية ووضعه فى القوس. ذهـب الخـوف فجأة، أو نَحَّته جانبًا معرفته الواثقة بما يجب فعله. إن على هوك أن يسحب وتر القوس.

لا يستطيع معظم الرجال الناضجين فى ريعان قـوتهم أن يسحبوا وتر قوسٍ حربيٍ حتى الأذن، والكثير من الجنود رغـم أن المعارك تزيدهم قسوة، ورغم تدريبات السيف الأساسية التى

تزيد صلابتهم فإنهم يستطيعون سحب وتر القوس المجدول من القنب[٢٠] إلى نصف المسافة فقط، لكن الطريقة التى يسحبه بها هوك تجعل الأمر يبدو سهلاً. ينساب ذراعه للخلف بينما عيناه تبحثان عن هدفٍ لرأس السهم اللامع ولا يفكر حتى عند الإطلاق، كان قد أخذ السهم الثانى بالفعل عندما ضرب السهم الأول المثقل برأسه الدرع المعدنى اللامع وألقى بالرجل على حامل الراية الفرنسى.

وأطلق هوك مرةً ثانيةً، لم يفكر، كان يعلم أنهم أخبروه أن يوقف هذا الهجوم. أطلق سهمًا وراء الآخر، كان يشد الوتر

(٢٠) القنب (Hemp): هو الاسم الشائع لنباتات من جنس القنب الهندى، تتبع الفصيلة القنبية. كثيرًا ما يستخدم الاسم للإشارة فقط إلى زراعة سلالة القنب لأغراض صناعية (غير المخدرات). للقنب الصناعى استخدامات كثيرة، منها: الورق والمنسوجات واللدائن القابلة للتحلل الحيوى، والغذاء، والوقود. كما أنه يتماشى مع فكرة المستقبل الأخضر. المنتجون الرئيسيون هم: كندا، فرنسا، الصين. الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى تواصل فى حظر القنب الصناعى. يمكن لألياف القنب أن تبلغ طولاً من ٩١ سم إلى ٤,٦ م وتكون الألياف على طول النبات. (المترجم).

حتى أذنه اليمنى، ولم يدرك كم من السهام الضيقة الرؤوس التى ريشت بالريش الأبيض، أرسلتها يده اليسرى فى رحلةٍ قصيرةٍ من الوتر إلى الضحية. لم يكن يعلم عدد الموتى أو الإصابات التى أحدثتها سهامه أو تلك التى انزلقت عن الدروع لتقع بعيدًا بلا طائل، ولم يكن أغلبها دون جدوى. كان بإمكان الرؤوس الطويلة للأسهم أن تخترق الدروع بسهولة من هذا المدى القريب. إن هوك أقوى من معظم الرماة وهم أقوى من معظم الرجال وكان قوسه ثقيلاً. عندما تقابل چون ويلكنسون وهوك للمرة الأولى، حاول الأول سحب وتر قوس الرجل الشاب وأخفق أن يسحب الوتر أكثر من نقنه، ونظر إلى هوك نظرة احترام، وهذا القوس الطويل السميك، المجوف المقطوع من شجرة سروٍ[٢١]

---

(٢١) السَرْو (yew) أو الطَقْسُوس (وهى ترجمة حرفية من اللاتينية: Taxus): نوع أشجار من فصيلة الطقسوسيات، يصل ارتفاعها إلى ١٥ مترا لحاؤها أحمر وتميل أغصانها لأسفل وأوراقها معمرة وأزهارها المذكرة صفراء صغيرة عند قاعدة الأوراق وثمارها عنبية حمراء وفى داخلها بذرة سمراء، اسمه العلمى (Taxus baccata L.)، يكثر بشمال إفريقيا وأوروبا وشمال إيران وجنوب غربى آسيا، وانتشر استخدامه فى إنجلترا وويلز لصناعة الأقواس الحربية الطويلة لدرجة أثرت على غاباته الطبيعية. (المترجم).

فى منطقة ساڤوى[٢٢] البعيدة يبعث الموت عبر الظلام الذى تدق فيه الأجراس، لم يكن هوك يرى سوى الأعداء الذين أتوا عبـــر الفجوة حيث تحترق المشاعل، ولم يلحظ الجحافل المعتمة مـــن الرجال الذين يندفعون على حافتى فجوة السور، والذين كـــانوا يسحبون بالفعل هذه السلالم المجدولة. ثـــم انهـــار جـــزءٌ مـــن المتراس وجعلت الضوضاء هوك يلتفت ليكتشف أنـــه الرامـــى الوحيد المتبقى عند الدفاعات، وقـــد امـــتلأ الخـــرق بالرجـــال الصارخين، رغم القتلى الذين يرقدون فيه، والجرحى الزاحفين به. كان لهب النيران الأحمر يضىء الليل ممتزجًـــا بالـــدخان وصيحات الحرب العالية. وقد أدرك هـــوك بعـــدها أن چـــون

(٢٢) ساڤوى (Savoy): منطقة فى أوروبا تقع فى غرب الألب برزت بعد انهيار مملكة بورجوندى، وقد أصبحت عائلة ســفويا أطـــول الأســـر المالكة حكمًا فى أوروبا حيث حكمت مقاطعة سافوى حتى عام١٤١٦ ، ثم دوقية سافوى من عام ١٤١٦ حتى ١٧١٤، ثم تـــم ضـــم مقاطعـــة ودوقية سافوى إلى تورينو، وظلت عاصمة دوقية سافوى هى شامبرى حتى عام ١٥٦٣ ثم انتقلت إلى تورينو وارتبطت بمملكة سردينيا فـــى القرن الثامن عشر ثم ضمت منطقة سافوى الأصلية إلى فرنـــسا عـــام ١٨٦٠، لكن أسرة سافوى ظلت محتفظة بأراضيها فى الجانب الإيطالى فيما أصبح رؤساء الأسرة ملوكًا على إيطاليا. (المترجم).

ويلكنسون قد صاح به ليهرب ولكن حماس اللحظة جعل هذا التحذير لا يصل إلى عقله.

لكن هذا التحذير وصله الآن فالتقط جعبة السهام وانطلق راكضًا.

عوى الرجال خلفه إذ انهار المتراس واندفع الفرنسيون بغزارةٍ خلال بقاياه إلى داخل المدينة.

فهم هوك عندها كيف يشعر الغزال حين تكون كلاب الصيد فى كل دغل، والرجال يقطعون الشجيرات والسهام تئز عبر أوراق الأشجار، كان غالبًا ما يتساءل: أيدرك الحيوان كينونة الموت. يعرفون الخوف، والمواجهة، وبعد الخوف والمواجهة يأتى الرعب الذى يُفرِغ الأحشاء، اللحظات الأخيرة من الحياة حين يقترب الصيادون وتتسارع دقات القلب ويهرب العقل بشكلٍ محموم؟ أحس هوك بهذا الرعب وركض فى بادئ الأمر، كان يركض فقط بينما ما زالت الأجراس تدق والكلاب تعوى والرجال يصيحون بصيحات الحرب والأبواق تصرخ، ركض إلى ميدانٍ صغير حيث كان تجار الجلود يعرضون بضاعتهم عادةً وقد كان مهجورًا بشكلٍ غريب، لكنه بعدها سمع صوت إطلاق سهام وأدرك أن أهل المدينة يختبئون فى منازلهم ويُغلِّقون أبوابهم.

انتشر الضجيج حيث كان الجنود يضربون أو يقتحمون الأبواب المُغلَّقة، ودار بخلده أن يذهب إلى القلعة وركض في هذا الاتجاه لكنه استدار فجأةً، وانعطف نحو زاوية ليرى المساحة الواسعة الموجودة أمام الكاتدرائية التى امتلأت برجالٍ يرتدون أزياء غريبة، وقد انعكست أضواء المشاعل على معاطفهم وتراجع وكأنه غزالٌ يتراجع بعيدًا عن كلاب الصيد. قرر أن يذهب إلى كنيسة القديس أنطوان الصغير، وجرى بأقصى سرعته عبر زقاقٍ وانعطف إلى آخر، وجرى عبر المساحة الواسعة أمام أكبر بيتٍ للراهبات بالمدينة ثم ذهب عبر الشارع الذى تقع به حانة (الإوزة)، ورأى هنالك أيضًا المزيد من هؤلاء الرجال الذين يرتدون الأزياء الغريبة يسدون طريقه إلى الكنيسة. وقد اكتشفوه وبدأت الدمدمة والهدير تتحول إلى عواءٍ منتصرٍ وهم يجرون تجاهه، ركض هوك إلى زقاقٍ مثل أى حيوانٍ يائسٍ أوشك على الهلاك، وقفز على الجدار الذى يسد نهايته وتسلقه إلى ساحة أخرى أنتنت من مياه المجارى، وتسلق حائطًا آخر وبعد ذلك أحس بالصيحات تحيطه وغمرته رعدة رعبٍ وغاب فى زاوية مظلمة منتظرًا النهاية.

إن الغزال المطارد ربما يفعل ذلك، إذا لم يجد مهربًا يتجمد فى مكانه مرتعدًا وينتظر الموت الذى يحسه يقينًا، والآن

يرتعد هوك. وقد قال له چون ويلكنسون أن من الأفضل أن يقتل نفسه خيرٌ له من أن يمسك به الفرنسيون، ولذا تحسس سكينه لكنه لم يتمكن من سحبه، لم يستطع قتل نفسه فانتظر أن يُقتَل.

وبعد ذلك أدرك بوضوح أن مطارديه تخلوا عن هذه المطاردة. كان لديهم الكثير لينهبوه فى سواسون، والكثير جدًا من الضحايا فلم يثر اهتمامهم هاربٌ واحدٌ وأدرك هوك وهو يستجمع ذاته ببطء أنه قد وجد مأوىً مؤقتًا، كان هوك فى أحد الفناءات الخلفية لحانة (الإوزة)؛ كان مكانًا واسعًا، حيث يغسلون براميل الجعة ويصلحونها، وفجأة فُتِح باب الحانة، وانعكس ضوء مشعلٍ مُوقَد على رفوف وبراميل الخمر. ودلف شخصٌ إلى الساحة وقال شيئًا غامضًا، ثم عاد إلى الحانة حيث تعالت صرخات امرأة.

بقى هوك فى موقعه، لم يجرؤ على الحركة، كانت المدينة تمتلئ الآن بصرخات النساء، والضحكات الخشنة للرجال، والأطفال الباكين، وعبرت قطةٌ ببطءٍ إلى جواره. وتوقفت أجراس الكنيسة عن ضجتها منذ أمدٍ بعيد. وأدرك أن عليه ألا يبقى حيث هو، سيفضحه ضوء الفجر، وصلى دون أن يدرك أنه يصلى:

- يا إلهى، يا إلهى، يا إلهى، كن معى الآن وفى ساعة موتى.

وارتجف. وتعالت دقات أرجل الخيل على الطريق خارج جدار ساحة الحانة، وتعالت ضحكات رجلٍ ما، ونشيج امرأة، ومرت سحبٌ كثيفة على وجه القمر ولسببٍ ما جال بخاطره عناق الأرض فوق تل بيجار[٢٣] وقد هدّأت هذه الذكرى القادمة من أرض الوطن من ذعره.

وقف. ربما كانت هناك فرصةٌ ليصل إلى الكنيسة، إنها أقرب بكثيرٍ من القلعة، وقد وعد السير روچر أن يقوم بمحاولةٍ لإنقاذ حياة الرماة، ورغم أن الأمل فى هذا يبدو ضئيلاً فإنه كان الشيء الوحيد الذى تمكن هوك من التفكير فيه، ولذا تسلق الجدار محاولاً الوصول إلى الأعلى. كانت إسطبلات حانة (الإوزة) هى المجاورة، ولم تكن تأتى منها أى ضوضاء ولذلك قفز على الحائط ومنه تمكن من السير فوق سطح الإسطبل الذى اهتز تحت ثقل وزنه لكنه بقى على السطح وجر قدميه فوق عارضةٍ خشبيةٍ حتى وصل إلى الزاوية المثلثة البعيدة للسطح

---

(٢٣) تل بيجار (Beggar's Hill): منطقة صغيرة فى مقاطعة إيسيكس فى إنجلترا. (المترجم).

ومن هناك قفز إلى زقاقٍ مظلم. ارتعد مجددًا مدركًا أنه هنا أكثر عرضةً للخطر وتحرك بهدوءٍ وبطء حيث اقترب من نهاية الزقاق حيث تقع الكنيسة.

ورأى أن ليس ثمة مهرب.

كان الأعداء يحرسون كنيسة القديس أنطوان الصغير. كان هناك أكثر من ثلاثين رجلاً مسلحًا ودزينة من الرماة في الساحة الواسعة أمام الكنيسة كلهم يرتدون نفس الزى الذى لم يره هوك من قبل. لو أن سميثيسون والرماة داخل الكنيسة فهم فى أمانٍ كاف، إذ يستطيعون الدفاع عن بابها، لكن بدا واضحًا لهوك أن العدو هناك بالتأكيد ليمنع أى رامٍ من الهرب، وافترض كذلك أنهم سيوقفون أى رامٍ تائه يحاول الاقتراب من الكنيسة، فكر فى الركض تجاه المدخل لكنه خمّن أنه سيكون مغلقًا وأن الرماة سيطلقون عليه سهامهم بينما يحاول طرق الباب الخشبى الثقيل.

لم يكن العدو يحرس الكنيسة فحسب بل كانوا أيضًا يجلبون براميل الجعة من إحدى الحانات ويشربون وقد مزقوا ثياب فتاتين حتى صارتا عاريتين وقيدوهما إلى برميلين وقد باعدوا بين أرجلهما وبدأ الرجال فى تعاقب يخلعون معاطفهم ذات

الدروع ويغتصبون الفتاتين اللتين ظلتا صامتتين وكأنهما قد أُفرِغَتَا من العويل والدموع، كانت المدينة تمتلئ بصراخ النساء، وقد اخترق هذا الصوت ضمير هوك كما يخترق رأس السهم درعًا، وربما كان هذا هو ما أبقاه بلا حراك، بقى بدلاً من ذلك واقفًا عند هذه الزاوية كحيوانٍ لا يجد مكانًا يفر إليه أو يختبئ به، وتساءل هوك إذا كانت الفتاتان قد لقيتا حتفهما فقد كانتا بلا حراك، لكن أقربهما إليه أدارت رأسها، وتذكر هوك وجه سارة وأجفل بالذنب، لم تكن الفتاة تجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وكانت تحدق ببلادةٍ فى الظلام بينما يمتطيها رجل وهو يضحك بصوتٍ كالخنازير.

ثم انفتح بابٌ على الزقاق ومرت دفقةٌ من الضوء على هوك الذى استدار فرأى جنديًا يترنح فى الوحل. كان الرجل يرتدى معطفًا مزينًا بشعارٍ عبارةٍ عن حزمة قمحٍ فضية اللون على أرضية خضراء، سقط الرجل على ركبتيه وتقيأ بينما أتى رجلٌ ثانٍ يرتدى نفس الزى العسكرى إلى الباب وهو يضحك، هذا الرجل الثانى هو من رأى هوك وعرف القوس الحربى الكبير فوضع يده على مقبض سيفه.

كانت ردة فعل هوك مرعوبة، وطعن بقوسه الرجل ذا السيف، كان يصرخ فى داخله غير قادر على التفكير لكن

الطعنة حملت كل قوة رامى السهام، واندفع الطـرف المـدبب لنهاية القوس طاعنًا حلق الجندى قبل حتى أن يسحب سيفه إلى منتصفه، وغطت غشاوة سوداء من الدم وجهه، ومازال هـوك يطعن الرجل حتى اخترق القوس قصبته الهوائية والعـضلات والجلد والأوتار مصطدمًا بإطار الباب. كان الرجل الراكع يقهقه بينما يقذف القيء وهو يخمش هوك بيديه والأخير لا يزال يملؤه الرعب، وأصدر أصواتًا كمواء القطة من اليأس التـام، وتـرك القوس وضرب بيديه بقوة مهاجمه الجديد. شعر بأن أصابعه قد سحقت مقلتى عينى الرجلِ الذى بدأ فى الصراخ، وانتاب هوك إدراكٌ بسيطٌ أن مغتصبى الفتاتين خارج الكنيسة سيأتون إليـه، وزحف عبر الباب حيث تعثر فى الرجل الأول الذى كان راقدًا يحاول انتزاع القوس من حنجرته المحطمة، وعبر هوك الغرفة راكضًا واندفع عبر بابٍ ثانٍ، ثم عبر ممرًا إلى باب ثالث، وهكـذا أصبح فى فناء، ومازالَ غيرَ قادر على التفكير، تسلق حائطًا ثم آخر وخلفه تنطلق الصيحات وحوله الكثير من الصراخ بينما هو فى رعب تامٍ. لقد أضاع قوسه الكبير المـصنوع مـن خـشب السرو وأسقطَ جعبة السهام، ورغم ذلك لا يزال معـه الـسيف الذى يُفتَرَض بكل رامٍ أن يعلقه. لم يكن قد استخدمه قط. كان لا يزال يرتدى شعار الصليب الأحمر المتعرج البورجوندى، فبـدأ

فى تمزيق معطفه محاولاً تخليص نفسه من هذا الشعار إذ يتطلع بشدة للبحث عن مهرب، أى مهربٍ، ثم تسلق حائطًا حجريًا إلى زقاقٍ مظلمٍ تظلله البيوت الناتئة عليه لكنه رأى بابًا مفتوحًا فى الظلمة فجرى إليه.

كان الباب يؤدى إلى حجرة فارغة واسعة يضيئها مصباحٌ صغيرٌ وبها رجلٌ ميتٌ ممددٌ على مقعدٍ خشبيٍ طويلٍ، كانت دماء الرجل تغطى الأحجار على الأرضية، وكان هناك نسيجٌ تزينه بعض الرسوم معلقٌ على الحائط، وبعض خزانات الملابس ومنضدةٌ طويلةٌ عليها بعض الأدوات وبعض المخطوطات الورقية مثبتةً بمسمارٍ طويلٍ وقدَّر هوك أن الرجل الميت كان بالتأكيد تاجرًا، وفى أحد الزوايا كان هناك سلمٌ خشبىٌ يصعد إلى الطابق الأعلى ارتقاه هوك بسرعة ليجد غرفة حوائطها مغطاة بالملاط وبها فراشٌ خشبى عليه حشية من القش وبعض الأغطية، تسلق سلمًا آخر يقود إلى العلية وسحبه إلى الفراغ الموجود تحت العوارض الخشبية، ولعن نفسه لأنه لم يفعل نفس الشىء مع السلم الأول ولكن الوقت تأخر كثيرًا الآن ليفعل هذا، لم يجسر أن يعود إلى الأسفل مرةً أخرى؛ ولذا جثم فى مكمنٍ تحت القش. كان لا يزال يرتعد بينما الرجال لا يزالون يتصايحون فى المنزل أسفله، ولبعض الوقت بدا أنهم سيكتشفونه

لا محالة، وبدا هذا وشيكًا عندما صعد شخص ما إلـــى الغرفـــة حيث يقبع السرير، لكن الرجل ألقى لمحةً سريعة قبل أن يغادر، أما بقية الباحثين عنه فقد بدأ الملل يصيبهم أو وجـــدوا فريـــسةً أخرى وبعدها بقليل انتهى صياحهم المتحمس.

استمر الصراخ، فى الحقيقة بدأ الـــصراخ يعلـــو، وبـــدا لـــهوك الذى كان يستمع بحيرة أن جماعة كاملة مـــن النـــساء كلهن خارج المنزل وكلهن يـــصرخن وأجفـــل لـــدى ســـماع أصواتهن، وتذكر سارة فى لندن، وتذكر القس مارتين وفكر فى الرجال الذين بدا عليهم الملل الشديد وهم يغتصبون ضـــحيتيهما الصامتتين.

تحول الصراخ إلى نشيج لا يقطعـــه ســـوى ضـــحكات الرجال، كان هوك يرتعد، ليس من البرد ولكن مـــن الخـــوف والشعور بالذنب وانضغط فى مساحة صغيرة تحت العـــوارض الخشبية المائلة، لأن الغرفة قد أضيئت فيها مشكاة فجأة. تسرب الضوء عبر ألواح الأرضية الخشنة الموضوعة دون تثبيت على العوارض غير المشذبة، تسلق رجل إلى الغرفة وصـــاح علـــى الرجال الآخرين أسفل السلم، ثم بكت امـــرأة وتعـــالى صـــوت صفعة.

قال الرجل:

- أنت جميلة.

وكان هوك خائفاً للغاية حتى أنه لم يلحظ أن الرجل تحدث بالإنجليزية.

قالت الفتاة وهى تبكى:

- لا.

- أنت أجمل من أن أشاركهم فيك، أنت كلك ملكى أنا أيتها الفتاة.

اختلس هوك النظر عبر شقٍ فى الألواح، استطاع أن يرى خوذة ذات حوافٍ واسعة حتى أنها كانت تحجب نصف كتفى الرجل ثم رأى الفتاة، كانت راهبةً ترتدى رداءً أبيض وتجلس القرفصاء فى ركن الغرفة، وتنشج وتبكى قائلة:

- يا عيسى، يا مريم، يا أم المسيح!

وتحولت الكلمة الأخيرة إلى صرخة إذ سحب الرجل خنجره فصرخت:

- لا! لا! لا! لا!

وصفعها الرجل ذو الخوذة بقسوة ليسكتها وشدّها لتقف. وضع الرجل السكين عند رقبتها وشدها إلى أسفل فتمزقت ملابسها من الأمام واستمر فى تمزيقها بالنصل ورغم مقاومتها، مزق ثيابها البيضاء عنها ثم مزق ثيابها التحتية وألقى ثيابها الممزقة إلى الطابق السفلى وعندما أصبحت عارية دفعها على الحشية القش فتكورت على ذاتها كالكرة وأخذت فى النشيج.

قال الصوت:

- أوه، أنا واثق أن الرب سعيد بعمل اليوم!

لم يكن أحد قد تحدث بصوتٍ عالٍ لكن هذا الصوت كان داخل عقل هوك. كانت هذه هى الكلمات التى استخدمها چون ويلكنسون فى حديثه إلى هوك فى الكاتدرائية، لكن هذا الصوت لم يكن صوت رامى الأسهم العجوز. كان الصوت أكثر ثراءً، وأعمق، مليئًا بالدفء، وقفزت فجأة أمامه رؤيا لرجل يرتدى رداءً أبيض، يبتسم وهو يحمل سلةً تمتلئ بالكمثرى والتفاح. كان هذا هو كريسبينيان، القديس الذى وجه له أغلب صلواته فى سواسون، والآن يجد هوك الاستجابة لهذه الصلوات فى رأسه، وفى مخيلته رأى هوك أن كريسبينيان ينظر إليه بحزنٍ، وفهم هوك أن السماء قد منحته فرصة ليضع الأمور فى نصابها

الصحيح، كانت الراهبة أسفله تبكى إلى أم المسيح ولابد أن العذراء تحدثت إلى قديسي سواسون، اللذين يتحدثان الآن إلى هوك لكن الأخير كان خائفًا. لقد عاد يسمع أصواتًا مرةً أخرى، ودون أن يدرك ركع على ركبتيه ولا عجب، فقد كان الرب يتحدث إليه من خلال القديس كريسبينيان.

ولم يكن نيكولاس هوك رامى السهام الخارج عن القانون يعلم ماذا يفعل حين يتحدث إليه الرب، لقد امتلأ بالرعب.

وفى الغرفة أسفله، ألقى الرجل بخوذته، وفك حزام غمد سيفه وألقاه جانبًا، ثم دمدم بشيءٍ ما للفتاة قبل أن يبدأ فى سحب معطفه المزود بالدروع من فوق رأسه. حدق هوك من بين ألواح الأرضية غير المشذبة وتعرف شعار مجموعة السير روچر بالليير على المعطف؛ ثلاثة صقور على أرضيةٍ خضراء. ماذا يفعل هذا الشعار هنا؟ إن المُحَاصِرِين المنتصرين هم من ينهبون المدينة ويغتصبون النساء وليس الحامية المهزومة، ولكن شعار الصقور الثلاثة واضحٌ بما لا يدع مجالاً للشك، إنه شعار جنود السير روچر.

قال القديس كريسبينيان:

- الآن.

ولم يتحرك هوك.

دمدم القديس كريسبين فى مخيلة هوك:

- الآن.

لم يكن القديس كريسبين ودودًا كالقديس كريسبينيان وأجفل هوك عندما ألقى القديس بهذه الكلمة.

لم يكن هوك متأكدًا إذا كان هذا هو السير روچر ذاته أو أحد جنوده، وكان الرجل يصارع معطفه الجلدى المحشو المزود بالدروع، والمعطف فوق رأسه ويقيد يديه.

وقال كريسبينيان مناشدًا هوك:

- من أجل الرب!

قال كريسبين بصوت أجش:

- افعلها أيها الفتى.

قال كريسبينيان بلطف:

- أنقذ روحك يا نيكولاس.

وأنقذ هوك روحه.

نزل من خلال فتحة فى أرضية العلية. نسى سيفه وبــدلاً من ذلك سحب خنجره ذا النصل السميك الذى اســتخدمه مــرة واحدةً لينزع أحشاء غزال اصطاده. سقط خلف الرجل بالضبط، لكن الأخير لم يستطع رؤيته إذ كان المعطف لا يــزال يغطــى رأسه لكنه أحس وصول هوك، فاستدار فى نفس اللحظة التــى كان خنجر هوك يشق طريقه فى بطنه، لقد طعنه نيكولاس هوك فى بطنه وفى طعنته كل قوة الذراع اليمنــى لرامــى ســهام، فغاصت إلى العمق وانزلقت أحشاؤه إلى الخارج كمــا ينزلــق السمك من الكيس إذا شققته طوليًا، وأطلق الرجل صيحة مختنقة كتمها معطفه الثقيل الذى يغطى رأسه، وصرخ مرة أخــرى إذ طعنه هوك ثانية دافعًا يده للأعلى فى بطن الرجــل المفتوحــة ذاهبًا بالنصل إلى القفص الصدرى للرجل، إلى قلب هذا الرجل الذى كان موشكًا على اغتصاب الفتاة.

سقط الرجل إلى الخلف على الفراش وكان قد مات قبــل أن يصطدم حتى بالحشية.

حدق هوك فى ضحيته وقد غطت الدماء يده حتى مرفقه.

وقد تيقن فيما بعد أن سقوط الرجل علــى الحــشية أنقــذ حياته، إذ امتصت الدماء وإلا كانــت ستتــسرب عبــر ألــواح الأرضية وقد تُنبه نقاط الدم المتساقطة الرجال بالأسفل.

كان هناك اثنان منهما يرتديان نفس زى جنــود الــسير روچر، لكن هوك، وقد وقف جوار ضحيته فى رعب، لاحظ أن معطف الرجل مصنوع من كتان ناعم محاك بشكل رفيع أفضل بكثير من المعاطف الرخيصة المعتادة. تحرك بعيدًا عن الفتحة الصغيرة الموجودة فى الأرضية. كان الرجلان ينهبان الخزانـــة وبدا كل منهما غافلاً عن القتل الذى حدث فوق رأسيهما.

كان معطف الرجل المزود بالدروع أنيقًا، وعليه أحزمـــة تثبت الدرع عليه، جثا هوك وجذب معطف الرجل كاشفًا رأسه، ورأى أنه قتل السير روچر بالبير، كان السير روچر فى الظاهر حليف البورجونديين، قد تُرك حيًا ليغتصب ويسرق، وهو مـــا يعنى أنه كان بالتأكيد فى جانب الفرنسيين سرًا، حاول هوك أن يفهم تلك الخيانة، بينما الفتاة العارية تحدق به وقد فغرت فاهــا وجحظت عيناها عن آخرهما، وبدت خائفة، وخشى هــوك أن تصرخ فوضع إصبعه على شفتيه في إشارة إليها لتصمت لكنها هزت رأسها أن لا. وبدأت فجأة فى إصدار أصـــوات بـــسيطة بائسة هى مزيج من العويل والشهقات، عبس هوك فـــى بـــادئ الأمر ثم أدرك أن الصمت أكثر إثارة للـــشك مـــن الـــضوضاء المتألمة التى تصدرها.

ودار فى خلد هوك أن هذا كان ذكاءً منهـا. أومـأ لهـا برأسه، ثم انتزع كيس النقود المشبع بالدماء المعلق فى حـزام السير روچر، وسحب أيضًا معطفه دون الدروع، وقـذف بـه وكيس النقود إلى العلية، ثم صعد وأمـسك إحـدى العـوارض الخشبية ثم سحب نفسه إلى فراغ السقف، ومد يده اليمنى إلـى الفتاة.

استدارت الفتاة مبتعدة، وهسهس هوك إليها لتأتى معـه، لكن الفتاة كانت تعرف ما تريد. بصقت على جثة السير روچر، ثم بصقت ثانية، قبل أن تعطى يدها لهوك. سحبها إلـى أعلـى بنفس السهولة التى يسحب بها وتر القوس، أشار إلى المعطـف وكيس النقود فالتقطتهما وتبعته عبر العلية. دفع بيديه الفاصـل الواهى الذى يقسم المساحة بما يسمح لها بالعبور إلى علية البيت المجاور. تحرك هوك بحرص، إذ قلّ الضوء، ذاهبًا إلى الطرف القصىّ حتى صار على بعد ثلاثة منازل من ذاك الذى قتل فيـه السير روچر ثم أشار إلى الفتاة مجددًا وأبعدها لتجثم جوار حائط السقف الهرمى، وبعد ذلك عمل ببطء ليصدر أقـل ضوضـاء ممكنة مهدمًا سقف القش.

ربما استغرق هذا حوالى الساعة، لم يكن قد شد القش فقط لكنه استخدم القوة ليهدم بعض العوارض الخشبية مـن خـشب

الحافة المثلثة وعندما انتهى قَدَّر أن السقف يبدو وكأنه منهـار، وزحف هو والفتاة تحت القش والعوارض الخشبية وكمنا هناك، لقد صنع مخبأً.

كان كل ما يستطيعه هو الانتظار، تحدثت الفتاة أحيانًـا، لكن هوك كان قد تعلم القليل من الفرنسية أثنـاء إقامتـه فـى سواسون ولم يفهم ما تقوله الفتاة. أسكتها وبعد قليل، اتكأت عليه ونامت، رغم أنها أحيانًا كانت تنشج، ويحاول هـوك برعونـة تهدئتها. كانت ترتدى معطف السير روچر الذى لا يزال رطبًـا بدمائه. حلّ هوك أربطة كيس النقود ورأى العمـلات الذهبيـة والفضية، وتوقع أن هذا هو ثمن الخيانة.

كان الفجر ضبابيًا ورماديًا، واكتُشِفَت جثة السير روچـر قبل شروق الشمس، وحدث هرجٌ عظيم والكثير من الـصياح، وسمع هوك الرجال ينهبون صف المنازل تحته لكن مخبأه كان قد صُنِع بمكر ولم يفكر أحد فى تفتيش كومة القش والعـوارض الخشبية، وبعد ذلك استيقظت الفتاة ووضع هوك إصبعه علـى شفتيها وارتعدت وقد تعلقت به، كان خوف هوك لا يزال كمـا هو لكنه بدأ يستقر إلى استسلام، وبشكل ما منحته صحبة الفتاة أملاً لم يكن فى روحه منه شىء الليلة الماضية، أو ربما اعتقـد أن قديسى سواسون التوءم يحميانه، ورسـم علامـة الـصليب

وصلى صلاة شكر لكريسبين وكريسبينيان. كانا صامتين الآن لكنه فعل ما طلبا منه أن يفعله، وتساءل بعدها: هل الذى تحدث إليه فى لندن هو كريسبينيان؟ بدا هذا احتمالاً بعيدًا، ولكن من كان؟ الرب؟ ورغم ذلك بدا هذا السؤال بلا أهمية فى مواجهة يقينه أنه فعل ما أخفق فى فعله فى لندن ولذا أومض الأمل فى داخله، الأمل فى الخلاص والبقاء، كان أملاً واهنًا كضوء شمعة فى الريح الشديدة، لكنه كان موجودًا.

صارت المدينة أهدأ مع اقتراب الفجر، ولكن ما أن ارتفعت الشمس فوق الكاتدرائية حتى بدأ الضجيج ثانية، كان هناك صراخ وعويل وصياح، ثمة فجوة فى قش السقف المهدم استطاع هوك أن يرى من خلالها الميدان الصغير الموجود أمام كنيسة القديس أنطوان الصغير. كانت الفتاتان المربوطتان إلى البرميلين قد ذهبتا، رغم أن الرماة والجنود ما زالوا هناك. يشتم كلب رمادى مرقش جثة راهبة ترقد ورأسها فى بركة من الدماء السوداء بينما رداء الراهبات مرفوع إلى ما فوق خصرهن،أخذ أحد الجنود فتاة على فرس أمامه فأنامها على السرج وقد عرّاها حتى البطن؛ وأخذ يصفعها على ردفيها بيديه الاثنتين وكأنه يقرع طبلة مما أثار ضحك الرجال الذين شاهدوه.

انتظر هوك، أراد أن يتبول بشدة لكنه خاف أن يتحـــرك، فبلل بنطاله، واشتمت الفتاة الرائحة وبدا عليها الاشمئزاز، لكنها اضطرت لتفعل الشيء ذاته بعد لحظات، بدأت تبكـــي بهـــدوء، فضمها هوك حتى توقفت دموعها وغمغمت بشيء له وغمغـــم لها، ولم يفهم أحدهما الآخر لكن كلاهما أحس بالراحة.

علا بعد ذلك وقع الكثير من حوافر الخيل مما جعل هوك يستدير لينظر عبر فجوة فى القش؛ استطاع أن يرى عشرين أو أكثر من الفرسان قد وصلوا أمام الكنيسة، كان أحـــدهم يحمـــل راية زرقاء عليها زنابق ذهبية وقد حفت الراية بإطـــار أحمـــر زُين بنقاط بيضاء، كان الفرسان يرتدون الدروع وإن كـــانوا لا يرتدون الخوذات وكان خلفهم جنود مسلحون يرتدون الـــدروع أتوا مشاة.

ارتدى أحد راكبى الخيول الذين وصلوا توًا معطفًا عليـــه شعار الثلاثة صقور على أرضية خضراء، وأيقـــن هـــوك أن الفارس بالتأكيد رجل إنجليزى ممن كانوا فـــى خدمـــة الـــسير روجر، وقاد هذا الرجل فرسه حتى الكنيسة ومال على الـــسرج وقرع الباب بعنف برمحٍ صغير، صاح بشيء ما لكن هوك كان على مسافة بعيدة لا تسمح له بسماع ما قيل لكنه بالتأكيد شـــيء على سبيل الطمأنة، لأن باب الكنيسة فُتِح بعد لحظة وأطل منـــه الرقيب سميثيسون.

تحدث الرجلان، ثم عاد سميثيسون إلى داخل الكنيسة ومرت لحظات انتظار طويلة، راقب هوك ما يجرى متسائلاً عما يحدث، ثم انفتح باب الكنيسة مرة أخرى وقد تأرجح مصراعاه، وخرج الرماة الإنجليز بحذر إلى ضوء الشمس. بدا أن السير روچر قد وفى بكلمته، وقد تساءل هوك وهو يراقب ما يحدث من مكمنه فى السقف المهدم، إذا كانت ثمة فرصة لينضم إلى الرماة الذين تجمعوا الآن أمام فرس الرجل الإنجليزى، لابد أن السير روچر حصل على موافقة بحماية الرماة فقد ظهر الفرنسيون للترحيب بهم، جمع رجال سميثيسون أقواسهم وجعاب سهامهم وسيوفهم فى كومة جوار باب الكنيسة ثم، واحدًا بعد الآخر، ركع كل منهم على ركبته أمام فارس على حصان مغطى بقماش أزرق عليه زنابق ذهبية. كان الفارس يرتدى إكليلاً ذهبيًا صغيرًا ودرعًا لامعة مصقولة ورفع يده وكأنه يمنحهم البركة بلطف. وحده چون ويلكنسون تخلف عن الآخرين وبقى قرب الكنيسة.

ودار بخلد هوك لو أنه استطاع الوصول إلى الشارع لاستطاع أن ينضم إلى بنى وطنه، همس القديس كريسبينيان فى عقل هوك:

- لا.

وقد جعله هذا يجفل بينما الفتاة تتشبث به بإحكام.

همس هوك بوضوح:

- لا؟

قال القديس كريسبينيان ثانية بحزمٍ شديد:

- لا.

سألت الفتاة هوك عن شيء ما لكنه أسكتها وهمس:

- لم أكن أتحدث إليك، يا فتاة.

رفع الفارس الذى تزين باللونين الأزرق والذهبى قبضة يده الممسكة بالدرع للحظات وأنزل يده فجأة!!

وبدأت المذبحة!

سحب الجنود المشاة سيوفهم وهاجموا الرماة الراكعين، مات الرماة الأوائل بسرعة إذ لم يكونوا مستعدين، لكن الآخرين كان لديهم الوقت ليسحبوا خناجرهم ويدافعوا عن أنفسهم لكن الفرنسيين كانوا يرتدون الدروع ويحملون الأسلحة ذات النصال الأطول وكانوا يأتون من كل جانب، كان جنود السير روچر يراقبون فقط ما يحدث؛ انتزع ويلكنسون سيفًا من الكومة الموضوعة جوار باب الكنيسة لكن جنديًا طعنه برمح قصير

وقطع رجل فرنسى آخر عنقه فتناثرت دماء ويلكنسون على مدخل الكنيسة الحجرى المزخرف بنقوش للملائكة والأسماك. أُخِذ بعض الرماة أحياء وضُرِبوا بالهراوات ليُكرَهُوا على الاستلقاء أرضًا يحرسهم الجنود العابسون. استدار الرجل ذو الأكليل الذهبى مبتعدًا يتبعه حماله وعتاله وحامل دروعه وغلامه وبقية أتباعه من الفرسان. تحرك معهم الرجل الإنجليزى الذى يرتدى شعار الصقور الثلاثة مديرًا ظهره لصرخات الرماة الأحياء الذين يطلبون الرحمة وليس ثمة رحمة هناك.

كان لدى الفرنسيين تاريخ طويل من الهزائم، وكانوا يكرهون هؤلاء الرجال الذين يسحبون قوس الحرب الطويل. فى كيرسى[(٢٤)]

---

(٢٤) معركة كريسى (The Battle of Crécy): هى إحدى أهم المعارك فى حرب المائة عام، وقعت فى ٢٦ أغسطس ١٣٤٦، بالقرب من كريسى فى شمال فرنسا. وقد جعلت مجموعة من الأسلحة والتكتيكات الجديدة التى استخدمت فى المعركة، العديد من المؤرخين ينظرون إلى هذه المعركة باعتبارها بداية نهاية الفروسية الكلاسيكية. وكان الجيش الأنجلو-ويلزى يتراوح بين ٩٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ (على خلاف بين المصادر)، بقيادة إدوارد الثالث ملك إنجلترا، وفاقتهم القوات الفرنسية بشكل كبير يقودها فيليب السادس وتراوحت من ٣٥,٠٠٠ إلى=

فاق الفرنسيون الإنجليز عددًا وحاصروهم وهـاجموهم عبـر الوادى المنخفض ليخلصوا العالم من هؤلاء المحتلين الـوقحين. ولكن الرماة هم من هزموهم إذ ملأوا السماء برسـل المـوت المريشة بريش الإوز والتى قتلت الفرسان برؤوسها الطويلة، ثم فى بواتييه[٢٥]، مزق الرماة فروسية فرنسا وفى نهاية اليوم كان

=١٠٠,٠٠٠ (على خلاف بين المصادر)، وكان النصر حليف الأسلحة والتكتيكات المتفوقة، ومات الكثير من النبلاء الفرنسيين، وربما حتـى الثلث (تقديرات الأرقام الفعلية فى كل جيش تختلف اختلافًا كبيـرًا، اعتمادًا على المصدر). وكان للرماة الإنجليز والويلزيين مـن حملـة القوس الحربى الطويل دور محورى فى اكتساح الجنـود والفرسـان المدرعين، إذ أمطروهم بوابل من السهام فقتل من قتل وأعاق البـاقين عن التقدم فأعمل الجنود فيهم القتل. (المترجم).

(٢٥) معركة بواتييه (Battle of Poitiers): هى إحدى أهم المعـارك فـى حرب المائة عام، دارت رحاها فى ١٩ سبتمبر ١٣٥٦ م، بالقرب من بواتييه، بين القوات الإنجليزية بقيادة الأمير إدوارد؛ الأميـر الأسـود (The Black Prince) وبلغ عددها على أرجح المصادر حـوالى سـتة آلاف رجل يمثل الرماة حوالى نصفهم، والقوات الفرنسية بقيادة چـان الثانى (Jean II of France) وبلغ عددها على أرجح المصادر حـوالى أحد عشر ألف رجل وانتهت بنصر عظيم للجيش الإنجليزى وهزيمة=

ملك فرنسا قد وقع أسيرًا، وكانت كل هذه الإهانات لا تزال توغر الصدور، ولذلك لم يكن ثمة رحمة.

استمع هوك والفتاة، كان هنالك ثلاثون أو أربعون من الرماة لا يزالون على قيد الحياة وبدأ الفرنسيون يقطعون إصبعين من اليد اليمنى لكل رجل فلا يستطيع شد القوس مرة أخرى أبدًا. قام رجل فرنسى ذو بطن مترهل على شفتيه ابتسامة عريضة بقطع الأصابع بمطرقة وإزميل. تحمل بعض الرماة الألم الشديد فى صمت بينما صارع البعض مما اضطر الفرنسيين إلى أن يفردوا أيدى الممتنعين على برميل. ظن هوك أن الانتقام سينتهى بهذا، لكن ذلك كانت البداية، فقط كان الفرنسيون يريدون ما هو أكثر من الأصابع، كانوا يريدون الألم والموت.

راقب رجلٌ طويل يمتطى حصانًا عاليًا موت الرماة. كان للرجل شعر أسود طويل ينسدل إلى ما بعد كتفيه اللتين تغطيهما الدروع، واستطاع هوك -الذى يمتلك بصر صقر- أن يرى بوضوح وسامة الرجل وسمرة وجهه الذى لوحته الشمس، قصبة

=ساحقة للجيش الفرنسى وأسر الملك الفرنسى وابنه، وكان للرماة الإنجليز من حملة القوس الحربى الطويل اليد العليا فى إحراز هذا النصر. (المترجم).

أنفه حادة كنصل السيف، ذو فم واسع وفك طويل تؤطره لحية صغيرة. كان يرتدى معطفًا لامعًا فوق دروعه وعليه شعار شمس ذهبية ساطعة تنبعث منها الأشعة والنار، فى وسطها رأس نسر. لم تر الفتاة الرجل؛ دفنت رأسها بين ذراعى هوك. كان بإمكانها سماع الصرخات لكنها لم تشاهد ما يحدث. كانت تنشج كلما صرخ رجل تحت وطأة الألم الحاد الذى يوقعه الفرنسيون بهم انتقامًا.

راقب هوك ما يحدث، وظن أن الرجل طويل القامة الذى يرتدى شعار النسر والشمس يمكن أن يوقف التعذيب والقتل، لكن الرجل لم يفعل شيئًا. جلس على السرج يراقب فى لامبالاة الفرنسيين يجردون الرماة الأحياء من ملابسهم، ويقتلعون أعينهم بسن خناجرهم الطويلة، ويسخر الجنود من الرماة الذين أصابهم العمى بينما يدخلون نصال خناجرهم فى المحاجر. وتظاهر رجلٌ فرنسى أنه يأكل مقلة عين فضحك الآخرون. لم يضحك الرجل ذو الشعر الطويل، كان يراقب فقط، ولم يبد على وجهه أى ردة فعل عندما مُدِّد الرجال على حصى الشوارع ليخصوهم. ملأ الصراخ المدينة التى كانت متخمة بالصراخ بالفعل. رحل الرجل الوسيم على حصانه الحربى الجميل عن الميدان عندما خصى آخر رجل إنجليزى، وتُرِك الرماة العميان ينزفون حتى

الموت تحت سماء الصيف، استغرق الموت وقتًا طويلاً. كـان هوك يرتجف رغم دفء الجو. كان القديس كريسبينيان صامتًا. انهارت امرأة عارية تبكى وسط الرماة المحتضرين وقد قُطِّع ثدياها وتخضب جسدها بالدم الأحمر، حتى ملّ رجل فرنسى من دموعها فضرب رأسها بفأس حربية. وأخذت الكلاب تشتم أجساد المحتضرين.

استمر نهب المدينة طوال اليوم؛ نهبت الكاتدرائية والأبرشية وديرا الراهبات والرهبان. اغتصبت النساء والأطفال المرة بعد الأخرى، وقُتِل رجالهم، وأدار الرب وجهه بعيدًا عن سواسون، وقد أفلت السير دى بورنفيه، فمن حسن حظه أن مات دون أن يُعَذَب. أما القلعة التى يُفترَض بها أن تكون المأوى فقد سقطت دون قتال، فقد دخل الفرنسيون بخيانة السير روچر ووجدوا بوابة القلعة مفتوحة، ومزلاجها الحديدى مرفوعًا. مات البورجونديون - ووحدهم رجال السير روچر - الذين اشتركوا فى الخيانة مع قائدهم الميت - من تُرِكوا ليعيشوا فى المدينة التى وضع فيها السيف. كان المواطنون من قبل مستائين من حامية بورجوندى، ولم يتركوا قط ولاءهم لملك فرنسا، ولكن الآن فى فوضى من الدم، والاغتصاب، والنهب كافأ الفرنسيون هذا الولاء بمذبحة.

قالت الفتاة بالفرنسية مرارًا وتكرارًا:

- أُدعى ميليساند.

لم يفهم هوك فى البداية لكنه تيقن فى النهاية أنها تقــول اسمها، تساءل:

- ميليساند؟

قالت بالفرنسية:

- نعم.

- نيكولاس.

كررت الفتاة:

- نيكولاس.

قال:

- فقط نيك.

- فقط نيك؟

- نيك.

- نيك.

كانا يتحدثان فى همس، انتظرا منصتين إلى صراخ المدينة ووصلت إلى أنفيهما رائحة الدم والجعة.

قال هوك لميليساند:

- لست أدرى كيف نخرج من هذا المكان.

لم تفهم ما قال، فأومأت برأسها على أى حال ثم نامت تحت القش ورأسها على كتفه، وأغلق هوك عينيه وصلى لكريسبينيان وتوسل إليه: ساعدنا لنخرج من هذه المدينة وساعدنى كى أصل إلى وطنى، لكن دار بخلده فى يأس مفاجئ أن الخارج عن القانون ليس له وطن.

قال له القديس كريسبينيان:

- ستصل إلى الوطن.

توقف هوك متسائلاً: كيف يمكن للقديس أن يتحدث إليه؟ هل يتخيل الصوت؟ لكنه بدا له حقيقيًا. حقيقى تمامًا كالصرخات التى ميزت موت الرماة. ثم تساءل: كيف يمكنه الهرب من المدينة وسيضع الفرنسيون بالتأكيد حرسًا على كل البوابات؟

اقترح عليه القديس كريسبينيان بلطف:

- وإذن، استخدم الخرق.

قال هوك لميليساند:

- سنخرج عبر الخرق.

لكنها كانت لا تزال نائمة.

عندما حل المساء شاهد هوك الخنازير وقد انطلقت من حظائرها خلف منازل المدينة تستمتع بولائمها حيث جثث الرماة. كانت سواسون أكثر هدوءًا الآن، فقد ارتوت شهوات المنتصرين بالأجساد والجعة والخمر. بزغ القمر الآن، لكن الرب أرسل غيومًا كثيفة عتمت وجهه الفضى فى البداية، ثم أخفته تمامًا، وبدأ هوك وميليساند فى الظلمة يهبطان الدرجات ثم أخذا طريقهما إلى الشارع المعبأ بالروائح. كان الليل قد بلغ منتصفه، والرجال يَغطُون فى البيوت المهدمة. لم يكن أحد يحرس الخرق. كانت ميليساند تسير وقد التفت بمعطف السير روچر الذى تغطيه الدماء ممسكة بيد هوك يتسلقان أنقاض السور. عبرا الجزء المنخفض من الأرض، وحفر الدباغة النتنة، ثم سارا صعودًا عبر مخيم المحاصِرِين المهجور، وبعدها دخلا إلى الغابة الكثيفة التى لا تملأها رائحة الدم ولا الجثث المتعفنة.

لقد ماتت سواسون.

لكن هوك، وميليساند عاشا.

قال لها في الفجر:

- إن القديسين يتحدثان إليّ، كريسبينيان يفعل ذلك على أى حال أما رفيقه فهو أكثر تجهمًا. يتحدث أحيانًا لكنه لا يقول الكثير.

كررت ميليساند كلمته:

- كريسبينيان.

وبدت مسرورة أنها فهمت شيئًا واحدًا قاله.

قال هوك:

- إنه يبدو لطيفًا، وهو يعتنى بى وأظنه يعتنى بك أنت أيضًا الآن!

وابتسم لها فجأة بثقة، واستطرد:

يجب أن نجد لك بعض الملابس المناسبة، يا فتاة، تبدين غريبة فى هذا المعطف.

ورغم أن ميليساند كانت تبدو غريبة فإنها كانت رائعة. لم يكن هوك قد لاحظ ذلك حتى أطل عليهما أول فجر فى الغابة عندما تلألأت رماح أشعة الشمس الذهبية عبر الأوراق والغصون الخضراء لتضىء وجهها النحيل المتوج بشعر أسود

كالليل، كان لها عينان رماديتان، شاحبتان كضوء القمر، ولها أنف طويل وذقن حادة جعلت شكلها يبدو عنيدًا بما يعكس شخصيتها، كما علِم هوك فيما بعد، كانت نحيلة بشكل يدعو إلى الرثاء ولكنها قوية كالوتر وتزدرى الضعف. فمها واسع ومعبر وثرثار. اكتشف هوك أخيرًا أنها كانت ترهبنت مؤخرًا فى بيت الراهبات حيث تُمنَع من الحديث، وفى الأيام الأولى بدا أن ميليساند تُعوِّض شهورًا من الصمت القسرى. لم يكن يفهم شيئًا مما تقول لكن كان ينصت إليها منتشيًا بثرثرتها.

مكثا فى الغابة فى اليوم الأول. ومن حينٍ إلى آخر كان الفرسان يظهرون فى الوادى أسفل أشجار الزان[٢٦]، كانوا الفئة المنتصرة فى حصار سواسون لكنهم لم يكونوا يرتدون زى

---

(٢٦) أشجار الزان (Beaches): جنس من الأشجار يتبع الفصيلة البلوطية ويستعمل خشبه القاسى لصناعة الأثاث الفاخر، وينمو فى المناطق المعتدلة فى أوروبا وآسيا ونادر الوجود فى الوطن العربى وهى ذات أوراق كثيفة ولحاء أملس وقد يصل طولها إلى ثلاثين مترًا، أوراقها بيضاوية الشكل والثمرة تشبه ثمرة البندق ذات لون بنى لامع وتخرج الأزهار متأخرة قليلاً عن الأوراق والأزهار المذكرة منفصلة عن المؤنثة. (المترجم).

الحرب، بعضهم يتفحص تلك المناطق، بينما آخرون يبدو أنهم يمتطون الخيول من أجل متعة الركوب، ولم يتعرض أحد للناجين القلائل الذين هربوا من سواسون على ما يبدو ويسيرون الآن باتجاه الجنوب، ولكن هوك لم يُرِد أن يخاطر بمواجهة رجل فرنسى فظل مختبئًا حتى حلول الليل. قرر التوجه غربًا، نحو إنجلترا، رغم أن كونه خارجًا عن القانون يعنى أن إنجلترا خطرة مثل فرنسا لكنه لم يكن يعرف أى مكان آخر يذهب إليه. كانا يسافران ليلاً والقمر يضىء طريقهما. يسرقان طعامهما، وقد سرق هوك حملاً فى الظلام. لقد خاف الكلاب التى كانت تحرس القطيع، لكن ربما كان القديس كريسبين الذى يحمل عصاة الرعاة هو من يحميه، فلم تنبح عليه الكلاب، ثم ذبح الحيوان. حمل جسد الذبيحة الصغيرة إلى الغابة حيث أشعل النيران وطبخ اللحم، قال لميليساند فى أحد الصباحات:

– يمكنك الذهاب بمفردك.

تساءلت فى عبوس إذ لم تفهمه:

– أذهب؟

– إذا ما شئتِ، يا فتاة، يمكنك الذهاب!

وأشار بشكل مبهم تجاه الجنوب لكنه وُوجه بالعبوس وانفجار من الكلمات الفرنسية غير المفهومة، التى فهمها هوك على أنها تعنى أن ميليساند ستبقى معه، وبقيت معه، وكان بقاؤها يمثل راحة وقلقًا فى ذات الآن، لم يكن متأكدًا إذا كان باستطاعته الهرب عبر الريف الفرنسى، وإذا تمكن من ذلك لا يرى لنفسه مستقبلاً. وصلى إلى القديس كريسبينيان متمنيًا أن يتمكن الشهيد من مساعدته عندما يصل إلى إنجلترا إذا وصل إلى إنجلترا، لكن القديس كريسبينيان كان صامتًا.

على الرغم من أن القديس كريسبينيان لم يقل شيئًا، فإنه أرسل إلى هوك وميليساند قسًا، هو كاهن الإبرشية بالقرب من نهر أويز[٢٧]، وجد القس الهاربين نائمين تحت شجرة صفصاف ساقطة بين جذوع أشجار الحور[٢٨] الكثيفة. اصطحبهما إلى منزله حيث أطعمتهما زوجته. كان الأب ميشيل كئيبًا نَكِد المزاج

---

(٢٧) نهر أويز (River Oise): هو الرافد الأيمن لنهر السين ويبلغ طوله ٣٠٢ كم وينبع فى هاينوات في بلجيكا إلى الجنوب من مدينة تشيماى ويصب فى نهر السين بالقرب من باريس ورافده الأساسى هو نهر آيسن. (المترجم).

(٢٨) أشجار الحور(Alders): وتسمى أيضًا جار الماء. (المترجم).

لكنه أشفق عليهما. كان يتحدث بعض الإنجليزية، التى تعلمها حين كان القس الملحق بقصر لورد فرنسى لديه سجين إنجليزى فى ضيعته الإقطاعية، وخبرة عمله كقس ملحق بذلك القصر تركت فى نفسه كراهية لكل منِ له سلطة، سواءٌ كان ملكًا أو أسقفًا أو لوردًا، وكانت هذه الكراهية كافيةً ليساعد رامى سهام إنجليزى، وقد قال لهوك:

- ستذهب إلى كاليه.

- أنا خارج عن القانون يا أبتى.

- خارج عن القانون؟

فهم القس فى الحال لكنه صرف الخوف عن نفسه، وقال بالفرنسية:

- منفىّ، هاه؟

ثم استطرد بالإنجليزية:

- لكن إنجلترا هى وطنك. وهى واسعة، أليس كذلك؟ فلتذهب إلى وطنك وتمكث فى مكان بعيد عن الذى ارتكبت فيه خطأك، ماذا كان ذنبك؟

- لقد ضربت قسيسًا.

ضحك الأب ميشيل وربت على ظهر هوك.

- أحسنت صنعًا! أرجو أن يكون كاهنًا!

- قسيس فقط.

- فى المرة القادمة اضرب كاهنًا، هاه!

كان هوك يدفع ثمن إقامته، كان يقطع حطـــب الوقـــود، وينظف قنوات الرى، ويساعد الأب ميشيل فى إعــادة تــسقيف حظيرة البقر بالقش، بينما ميليساند ساعدت ربة المنــزل فـــى الطبخ، والغسيل، والترتيب، وطمأن القسيس هوك قائلاً:

- لن يخونك القرويون.

- ولماذا لا يا أبتى؟

- لأنهم يخشوننى، أنا أستطيع إرسالهم إلى الجحيم.

أحب التحدث مع هوك كطريقة لتطوير لغته الإنجليزيـــة، وفى أحد الأيام بينما هوك يشذب شجر الكمثرى الموجود خلف المنزل، أنصت القسيس إلى هوك وهو يعترف له بتردد بسماعه للأصوات، رسم الأب ميشيل الصليب على نفسه واقترح:

- ألا يمكن أن تكون أصوات الشيطان؟

قال هوك معترفًا:

- هذا ما يقلقنى.

قال الأب ميشيل بلطف:

- لكننى لا أعتقد ذلك، أنت تأخذ الكثير من تلك الشجرة!

- هذه الشجرة متشابكة، أيها الأب، لابد أنك هذبتها الشتاء الماضى لكن هذا لم يجرحها. أتريد بعض الكمثرى؟ لا يمكن أن تتركها تنمو بطريقتها البرية. ثق بى. اقطع ثم اقطع! وعندما تظن أنك قطعت منها أكثر مما يجب، اقطع كمية مماثلة مرة أخرى!

- اقطع ثم اقطع! هاه؟ لو لم أحصل على كمثرى فى السنة القادمة فسأعلم أنك من أعوان الشيطان.

قال هوك وهو يشذب فرعًا آخر:

- إن القديس كريسبينيان هو من يتحدث إلى

قال القسيس وهو يرسم علامة الصليب:

- لكن فقط لو أن الرب سمح له، وهذا يعنى أن الرب يتحدث إليك، أنا سعيد لأن أحدًا من القديسين لا يتحدث إليّ.

- سعيد؟

- أنا أظن أن هؤلاء الذين يسمعون أصواتًا! إما أن يكونوا هم أنفسهم قديسين أو أنهم يجب أن يُحرَقوا.

قال هوك:

- أنا لست قديسًا.

قال الأب ميشيل:

- ولكن الرب اختارك، إن له اختيارات غريبة.

ثم ضحك.

تحدث الأب ميشيل مع ميليساند أيضًا، ومن ثم علم هوك بعض الأشياء عن الفتاة، قال القس أن والدها لورد يدعى (سيد الجحيم) ووالدتها كانت خادمة.

- ولذا فإن ميليساند لقيطة هى الأخرى، خُلِقَت للمتاعب.

وقد رتب والدها النبيل دخولها دير الراهبات فى سواسون بداية رهبنتها لتكون خادمة فى مطبخ الدير للراهبات، واستطرد الأب ميشيل شارحًا بمرارة:

- هكذا يخبئ النبلاء ذنوبهم بأن يضعوا أبناءهم من الزنا فى السجن.

- السجن؟

- إنها لم ترد أن تكون راهبة هل تعرف اسمها؟

- ميليساند.

قال الأب ميشيل مبتسمًا:

- كانت هناك ملكة للقدس بهذا الاسم، وميليساند هذه تحبك.

لم يجب هوك على هذا بشىء. وقال له الأب ميشيل بصرامة اليوم غادرا:

- اعتن بها.

انصرفا متنكرين، كان من الصعب إخفاء قامة هوك، لكن الأب ميشيل أعطاه رداء التائبين، ومصفقة المجذوم، وهى عبارة عن قطعة خشبية يثبت إليها قطعتان أخريان بأحزمة جلدية،

وميليساند هى الأخرى فى رداء التائبات وقد قُص شعرها الأسود بخشونة حتى أصبح قصيرًا. وأخذت هوك إلى الشمال والغرب، كان الأمر يبدو وكأنهما حاجين يبحثان عن علاج لمرض هوك. كانا يعيشان على الصدقات التى يلقى بها إليهما العامة الذين لم يرغبوا فى الاقتراب من هوك، الذى كان يعلن عن حضوره المُعدِى بهز المِصفقَة بقوة. كانا لا يزالان يتحركان بحذر، يلتفان ليتفاديا القرى الكبرى ودارا دورة واسعة ليتفاديا أعمدة الدخان المتصاعدة التى ميزت مدينة أماينز(٢٩)، ناما فى الغابات، أو فى حظائر الماشية، أو بين أكوام القش، وبللهما المطر، وأدفأتهما الشمس، وذات يوم بجوار نهر كانشى(٣٠) صارا عاشقين. كانت ميليساند صامتةً بعد ذلك لكنها تعلقت بهوك الذى صلى صلاةً شكر للقديس كريسبينيان الذى تجاهله.

---

(٢٩) مدينة أماينز (City of Amiens): مدينة فرنسية تقع فى شمال فرنسا بالقرب من نهر سوم، وتبعد عن العاصمة باريس حوالى ١٢٠ كم إلى الشمال وتعتبرِ عاصمة مقاطعة سوم وإقليم بيكاردى. (المترجم).

(٣٠) نهر كانشى (River Canche): أحد الأنهار التى تنبع من هضبة بولونيا الجنوبية وبيكاردى ويصب فى القنال الإنجليزى، تبلغ مساحة حوضه حوالى ١٢٧٤كيلومترًا مربعًا ويمتلئ بالمستنقعات والمروج والغابات الصغيرة. (المترجم).

سارا شمالاً فى اليوم التالى يتبعان الطريق الذى أدى بهما إلى حقلٍ واسعٍ بين غابتين، وإلى الغرب كانت هناك قلعةٌ صغيرةٌ مختبئةً قليلاً وراء صفٍ من الأشجار. استراحا فى الغابة الشرقية بالقرب من كوخ حارس غابة متداعٍ مكسو بالقش الكثيف، كان الشعير ينمو فى الحقل الواسع، ويشنف الآذان صوت مرور النسيم بين أعواده. رفرفت القبرات فوقهما تغنى هى الأخرى أغنياتها، وغفا هوك وميليساند فى دفء الصيف الذى أوشك على الرحيل.

تساءل صوت أجش:

- ماذا تفعلان هنا؟

راقبهما الفارس من حافة الغابة، كان يرتدى ملابس أنيقة وعلى رسغه طوى شعار صقر. ركعت ميليساند على ركبتها فى خضوع وخفضت رأسها قائلة:

-آخذ أخى إلى سانت أومير[٣١] يا سيدى اللورد.

---

(٣١) سانت-أومير (Saint-Omer): مدينة فرنسية صغيرة تقع فى منطقة كاليه تبعد ٦٨ كم عن ليلى وقد سميت باسم القديس أودومير الذى بشر بالمسيحية فى تلك الأنحاء. (المترجم).

لاحظ الفارس الذى ربما كان لوردًا أو لم يكن مِصفقَة هوك وتنحى بحصانه بعيدًا وسأل:

- وما الذى تبحثان عنه هناك؟

قالت ميليساند:

- بركة القديس أودومير[٣٢] يا سيدى اللورد.

كان الأب ميشيل قد أخبرهما أن مدينة سانت أومير بالقرب من كاليه، وأن العديد من العامة يطلبون العلاج من ضريح القديس أودومير فى المدينة، كما قال الأب ميشيل أيضًا إنه من الأكثر أمنًا أن يقولا إنهما يسافران إلى أومير من الاعتراف بأنهما يتجهان إلى الجيب الإنجليزى حول كاليه.

قال الفارس بتذمر:

- فليمنحكما الرب رحلة آمنة.

---

(٣٢) القديس أودومير (Saint Audomar): ويعرف أيضًا باسم القديس أومير وهو أسقف بورجوندى المولد لعائلة ثرية ولد فى نهايات القرن السادس أو بداية القرن السابع الميلادى ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ وفاته ويعتقد أنه توفى عام ٦٧٠م، ولا يعرف كذلك تحديدًا موضع دفنه ويحتفل بعيده فى التاسع من سبتمبر. (المترجم).

وألقى بعملة معدنية فوق كومة من الأوراق.

ونادت ميليساند:

- يا لورد!

استدار الراكب بفرسه.

- نعم؟

- أين نحن الآن يا سيدى اللورد؟ وكم نبعد عن سانت أومير؟

قال الرجل وهو يكبح جماح فرسه:

- أيامًا طويلة للغاية من السير على الأقدام، وماذا يهمك فى اسم المكان؟ ألم تسمعى عنه من قبل!

قالت ميليساند:

- لا، يا سيدى اللورد.

حدق الرجل بها للحظات، وهز كتفيه استهجانًا، وقال وهو يومئ برأسه إلى شرفات القلعة التى تظهر أعلى الأشجار:

- هذه القلعة؟ تدعى أزينكور، أتمنى الشفاء لأخيك.

وشد لجام فرسه ودفع به إلى حقل الشعير.

سارا أربعة أيام أخرى قبل أن يصلا إلـــى المـــستنقعات حول كاليه، كانا يتحركان بحذر تفاديًا للدوريات الفرنسية التـــى تدور حول المدينة الواقعة تحت السيطرة الإنجليزية. كان الليل قد حلّ عندما وصلا إلى جسر نيولاى الذى يقود إلى ممرٍ مرتفع يقترب من المدينة.

استوقفهما الحرس، فصاح هوك:

- أنا إنجليزى.

ثم أمسك بيد ميليساند، وتقدما خطوة بحـــذر إلـــى وهـــج المشعل الذى يضىء بوابة الجسر.

ســـأله رجـــل ذو لحيةٍ رمادية يرتدى خوذة مـــضبوطة عليه تمامًا:

- من أين أنت يا فتى؟

قال هوك:

- لقد قَدِمنَا من سواسوْن.

- أتيت من...

وخطا الرجل خطوة إلى الأمام ليحدق فى هوك ورفيقته.

واستطرد:

- أيها المسيح الرائع عيسى. اعبرا من هنا.

هكذا عبر هوك عبر البناء الصغير للبوابة إلى الآخر الأكبر، وهكذا عبر هو وميليساند إلى إنجلترا حيث يعتبر خارجًا على القانون.

لكن القديس كريسبينيان حافظ على وعده وعاد هوك إلى الوطن.

كانت قاعة قلعة كاليه باردة حتى فى الصيف. فالجدران الحجرية السميكة تصد الدفء ولذا طقطقت نارٌ كبيرة فى المدفأة، أمامها سجادة عريضة تقوم فوقها أريكتان وتنام ستة من كلاب الصيد، وتغطى بقية الجدران لوحات جدارية. ثمة سيوف معلقة على إحدى الحوائط ورماح ذات رؤوس حديدية تقف على حواملها. ترفرف العصافير بين العوارض الخشبية. كانت مصاريع النوافذ فى الجانب الغربى من القاعة مفتوحة وكان بإمكان هوك أن يسمع الهدير اللانهائى للبحر.

جلس قائد الموقع العسكرى وزوجته الأنيقة على إحدى الأرائك وقد قيلت أسماؤهما إلى هوك لكن الأسماء انزلقت من رأسه، ولذا فلم يعلم من هما. وقف ستة جنود خلف الأريكة يراقبون هوك وميليساند بعيون يملؤها الشك والعداء، على حين

وقف القسيس عند حافة السجادة ينظر إلى الأسفل، إلى اللاجئين الراكعين على ركبتيهما على الأرضية الحجرية.

قال القس بصوت كريه حاد يأتي من أنفه:

- لست أفهم، لماذا تركت خدمة اللورد سلايتون.

أوضح هوك:

- لأنني رفضت أن أقتل فتاة، يا أبتي.

- وأرادها اللورد سلايتون ميتة؟

- كان قسيسه يريدها كذلك، يا سيدي.

تدخل الرجل الجالس على الأريكة:

- ابن السير جايلز فالوبي.

وبدا من صوته أنه لا يحب السير مارتين.

تجاهل القس نبرة قائد الحامية وقال في صوت مفعمٍ بالخطر والتهديد:

- إذن أرادها رجل الرب ميتة فهل كنت تعرف أفضل منه؟

قال هوك:

- كانت مجرد فتاة.

انقض القس على إجابة هوك بعنف:

- لقد جاءت الخطيئة عبر امرأة.

وضعت السيدة الأنيقة يدها على فمها كما لو كانت تخفي تثاؤبا، كان على حجرها كلب صغير وعلى كتفيها فراء أبـيض مرصعٌ بعيون مشاكسة، مَسّدت رأسه، وقالت:

- لقد مللت.

ولم تكن توجه حديثها إلى شخص بعينه.

مَرّ صمت طويل، نشج أحد الكلاب أثناء نومه فانحنى قائد الحامية إلى الأمام ليربت على رأسه، كان رجلاً ممتلئ الجـسم ذا لحية سوداء، أومأ الآن تجاه هوك بصبرٍ نافدٍ وأمر القس:

- سله عن سواسون، أيها الأب.

قال القس:

- كنت سأتحدث عن هذا، يا سير ويليام.

قالت المرأة بفتور:

- إذن افعل هذا بسرعة.

تساءل القس بدلاً من ذلك:

- هل أنت خارج عن القانون؟

ولما لم يجبه الرامى، كرر القسيس السؤال بصوت أعلى، وظل هوك على صمته.

قال السير ويليام بتذمر:

- أجبه.

قالت السيدة:

- ظننت فى صمته بلاغة كافية، سله عن سواسون.

عبس القسيس للنبرة الآمرة فى صوتها، لكنه أطاع وسأل:

- أخبرنا عما حدث فى سواسون.

وحكى هوك الحكاية مرة أخرى، وكيف دخل الفرنسيون إلى المدينة عبر البوابة الجنوبية، وكيف اغتصبوا وقتلوا وكيف خان السير روچر باليير الرماة الإنجليز.

وتساءل القس بحدة:

- وأنت وحدك هربت؟

قال هوك:

- لقد ساعدنى القديس كريسبينيان.

سأل القس وقد رفع أحد حاجبيه:

- أوه! أحقًا فعل القديس كريسبينيان؟ يا لكرمه المتناهى!!

صدرت ضحكة نصف مكتومة من أحد الجنود، بينما حدق الآخرون بنفور فى الرامى الراكع.

كان هنالك شىء من التكذيب عالق فى القاعة الكبيرة للقلعة يشبه دخان الأخشاب المتسرب حول فتحة المدفأة الواسعة. حدق أحد الجنود بثبات إلى ميليساند، ومال قريبًا ممن بجواره، وهمس بشىء أضحكه. وتساءل القسيس بحدة:

- أو أن الفرنسيين هم من تركوك.

قال هوك:

- لا، يا سير!

- ربما تركوك تذهب لسبب ما!

- لا!

قال القس:

- حتى رامى السهام المتواضع يمكنه أن يحصى الرجال، وإذا جمع مولانا الملك جيشًا فسيرغب الفرنسيون إذن أن يعرفوا عدده.

قال هوك ثانية:

- لا، يا سير.

وأضاف القس مقترحًا:

- ولذا تركوك تذهب، وأعطوك هذه العاهرة رشوة؟

قال هوك محتجًا:

- ليست عاهرة!

وضحك الجنود ضحكة مكتومة.

ولم تكن ميليساند قد تحدثت حتى الآن، بدت خائفة من هؤلاء الضخام فى معاطفهم ذات الدروع، ومن هذا القس المتشامخ، ومن هذه المرأة المسترخية التى تستلقى على الأريكة المبطنة، لكنها الآن انطلقت تتحدث. ربما لم تفهم إهانة القس لها لكنها عرفت ذلك من نبرة صوته، واعتدل ظهرها فجأة، وأخذت تتحدث بسرعة وجرأة. كانت تتحدث الفرنسية، وتتحدثها بسرعة بالغة حتى أن هوك لم يكن ليفهم كلمة واحدة من كل مائة، لكن كل شخص غيره فى القاعة كان يتحدث هذه اللغة، وقد أنصتوا كلهم. كانت تتحدث بانفعال وسخط، ولم يقاطعها قائد الحامية ولا القس. علم هوك أنها تروى قصة سقوط سواسون وبعد برهة

بدأت عيناها تمتلآن بالدموع التى ما لبثت أن انحدرت كالشلال على وجنتيها، وعلا صوتها بينما هى تضرب القس بروايتها. فرغت من كلماتها، وأومأت إلى هوك وسقط رأسها على صدرها بينما بدأت فى النشيج.

ساد الصمت للحظات قليلة.

وفتح رقيب يرتدى معطفه ذا الدروع باب القاعة بصخب، ورأى أن القاعة مشغولة فانصرف بذات الصخب. ألقى السير ويليام نظرة حكيمة على هوك وسأل بخشونة:

- هل قتلت السير روچر بالبير؟

- لقد قتلته يا سيدى السير.

قالت زوجة السير ويليام بثبات:

- عملٌ جيد من خارج عن القانون، لو أن ما قالته الفتاة حقيقى.

قال القس:

- لو.

قالت المرأة:

- أنا أصدقها.

ثم نهضت من الأريكة وقد ضمت كلبها الصغير فى أحد ذراعيها، وسارت حتى حافة البساط حيــث توقفــت، ورفعــت ميليساند من مرفقها. تحدثت إليها بفرنسية ناعمة، وقادتها حتى الطرف القصى من القاعة ثم عبر فتحة مغطاة بستائر.

انتظر السير ويليام حتى ذهبت زوجته، ثم وقف، وقال بحزم:

- أنا على يقين أنه يقول الحقيقة أيها الأب.

قال القس:

- ربما.

قال السير ويليام بإصرار:

- أنا على يقين أنه كذلك.

اقترح القس وهو يحاول بالكاد إخفاء لهفته:

- يمكننا أن نضعه موضع الاختبار؟

قال السير ويليام وهو مصدوم:

- هل ستعذبه؟

قال القسيس وهو يحنى رأسه بعض الشىء:

- إن الحقيقة مقدسة يا سيدى اللورد.

واستطرد باللاتينية بانفعال:

- ستعرف الحقيقة، يا لورد، والحقيقة ستحررك.

ورسم علامة الصليب، ثم عاد وترجمها للإنجليزية.

زمجر الرجل ذو اللحية السوداء:

- أنا حرٌ فعلاً، وليس من واجبنا أن نعذب أحد الرماة المساكين لاستخراج الحقيقة، ربما نترك هذا للآخرين.

قال القس وهو يخفى خيبة أمله بالكاد:

- بالطبع، يا سيدى اللورد.

- وإذن، أنت تعرف أين يجب أن يذهب.

- بالفعل، يا سيدى اللورد.

قال السير ويليام:

- قم بالترتيب لذلك إذن.

ثم سار نحو هوك، وأشار إليه أن يقف، وسأل:

- هل قتلت أيًا منهم؟

قال هوك وهو يتذكر السهام التى طارت فى الفجوة نصف المضاءة:

- الكثيرين يا سيدى اللورد.

- هذا جيد، لكنك قتلت أيضًا السير روچر بالبير، وهـذا يجعلك بطلاً أو قاتلاً.

قال هوك بعناد:

- أنا رامى سهام.

قال السير ويليام:

- وقصة رامى السهام هذا يجب أن تُسمَع عبر البحار.

وأعطى هوك عملة فضية واستطرد بتجهم:

- لقد سمعنا حكايات عما حدث فى سواسون لكنك الدليل الأول عليها.

قال القس بلهجة مخادعة:

- لو كان هو هناك.

زمجر السير ويليام قائلاً للقس الذى تراجع أمـام النبـرة المحذرة:

- لقد سمعت الفتاة.

واستدار السير ويليام إلى هوك قائلاً:

- ارو قصتك فى إنجلترا.

قال هوك فى حيرة:

- أنا خارج عن القانون.

قاطعهِ السير ويليام بسرعة:

- ستفعل ما يُقالُ لك، وستذهب إلى إنجلترا.

وهكذا أُخِذَ هوك وميليساند على ظهر سفينة أبحرت إلـــى إنجلترا. وسافرا بعد ذلك مع رسول كان يحمل رسائل إلى لندن، وكان معه مال أيضًا ليدفع مقابل الجعة والطعام أثناء الرحلـــة. كانت ميليساند فى ذلك الوقت قد ارتدت ملابس محتشمة زودتها بها السيدة باردولف؛ زوجة السير ويليام، وتمتطى فرسًا صغيرًا طلبه الرسول من إسطبلات قلعة دوڤر[٣٣].

---

(٣٣) قلعة دوڤر(Dover Castle): هى قلعة من القرون الوسطى فى بلـــدة تحمل الاسم نفسه فى مقاطعة كنت الإنجليزية، وقد تأسست فى القـــرن الثانى عشر وتوصف بأنها مفتاح إنجلترا لما لها من أهمية دفاعية على مر التاريخ وتعد أكبر قلعة فى إنجلترا. (المترجم).

كانت قد أصيبت بقرحة السرج[٣٤] عندما وصلوا إلى لندن، حيث عبروا الجسر وسلموا خيولهم إلى سائسى البرج، وأمرهما الرسول:

- ستنتظران ها هنا.

ولم يخبر هوك أكثر من ذلك، ومن ثم وجد هوك وميليساند مكانًا ليناما فيه فى حظيرة البقر، وبدا أن ليس ثمة أحد فى القلعة العظيمة يعرف لماذا استدعى هذان إلى هنا.

وقد أخبرهما أحد رقباء الرماة:

- أنتما لستما سجينين.

قال هوك:

- لكننا لا يسمح لنا بالخروج.

اعترف الرقيب:

- لا، غير مسموح لكما بالخروج لكنكما لستما سجينين.

---

(٣٤) قرحة السرج (Saddle Sore): هى مرض جلدى يصيب الأرداف لكثرة امتطاء الخيل (أو ركوب الدراجات فى العصر الحديث) ويمر غالبا بثلاثة مراحل أولها كشط الجلد ثم التهاب يشبه حب الشباب ثم أخيرًا خراج وقرحة. (المترجم).

ثم ابتسم بسخرية مستطردًا:

- لو أنكما سجينان يا بنى لما استطعت أن تأخذ فتاتــك الصغيرة فى حضنك كل ليلة، أين قوسك؟

- أضعته فى فرنسا.

قال الرقيب:

- إذن لنجد لك واحدًا جديدًا.

كان يدعى ڤينابلز، وقد حارب من أجل الملك السابق فى شروزبرى حيث أصيب بسهم فى ساقه ترك به عَرَجًا. قاد هوك إلى سرداب القلعة الكبيرة حيث وضعت أرفف خشبية عريضة عليها العديد من الأقواس التى صنعت حديثًا، قال ڤينابلز:

- التقط واحدًا.

كان السرداب معتمًا والأقواس موضوعة بجانب بعــضها البعض، الواحد منها أطول من قامة رجل طويل، لم يكن بــأىٍ منها وتر وإن كانت كلها قد استدقت أطرافها جاهزة لاســتقباله. سحبها هوك واحدًا تلو الآخر، ومرر يده على قوائمها السميكة، وأقر بأن الأقواس جيدة الصنع، كان لبعضها مقبض مزخــرف حيث يترك القواس عقدة تعزز الخشب وكأنها نقطة فخر له، ولا

تضعفه، وكان لأكثرها ملمس زيتى ناعم لأنها كانـــت مطليـــة بخليط من الشمع والشحم. ثمة أقواس قليلة غير مطلية لا يزال خشبها فى مرحلة الإعداد لكن هذه الأقواس لم تكن قد جُهِــزت بعد لتُوَتَر وقد تجاهلها هوك، قال ڤينايلز:

– لقد صُنِع أغلبها فى كِنت لكن القليل منها أتى من لندن، إنهم ليسوا رماة جيدين فى هذا الجزء من العـــالم، يـــا بنى، لكنهم يصنعون أقواسًا جيدة.

وافقه هوك الرأى:

– بالفعل.

وسحب أحد أطول القوائم من الرف. كان الخشب ينسحب سميكًا إلى المنتصف حيث أمسكه بإحكام بيده اليـــسرى وثنـــى طرفه العلوى قليلاً. أخذ القوس إلى موضع تطاله الشمس عبـــر نافذة تغلقها شبكة من القضبان الصدئة.

ودار بخلده أن قامة القوس هى قطعة من الجمال. كـــان خشب السرو يقطع من المناطق للجنوبية من البلاد حيث تشرق الشمس ساطعة وكان هذا القوس منحوتًا من جذع الشجرة. كانت حبيبات الخشب كثيفة وليس بها عُقد، مرر هـــوك يـــده علـــى الخشب وشعر به يزداد سمكًا فـــى المنتـــصف ويـــستدق عنـــد

الأطراف وتحسس التموجات الصغيرة التـــى تركتهـــا ســكين القواس، السكين الذى شكّل السلاح، كانت قامة القوس جديدة إذ إن خشب النسغ الذى يشكل مؤخرة القوس كان تقريبًا أبـــيض، وعرف هوك أنه يتحول مع الوقت إلى اللـــون العـــسلى، لكـــن الجزء الذى سيكون على مبعدة منه حين يشد الوتر لا يزال إلى الآن بلون نهدى ميليساند، كان بطن القوس مصنوعًا من خشب قلب الجذع، وكان ذا لون بنى قاتم كلون وجه ميليساند ولذا بدا القوس مصنوعًا من قطعتين من الخشب تزاوجتا بأفضل طريقة، رغم أنه فى الحقيقة كان قصبة واحدة مـــن الخـــشب الأملـــس الجميل مقطوعة من مكان فى جذع شجرة السرو حيث يلتقـــى خشب النسغ وخشب القلب.

وقد قال أحد القساوسة ذات مرة فى كنيسة قرية هوك أن الرب خلق القوس كما خلق الربُ الرجلَ والمرأة. كـــان القـــس الزائر يعنى أن الرب زاوج خشب النسغ وخشب القلـــب وهـــذا الزواج هو ما يجعل القوس الحربى الكبير سلاحًا قاتلاً جدًا.

كان خشب القلب القاتم فى بطن القوس قاســـيًا وصـــلبًا. يقاوم الانحناء بينما خشب النسغ الفاتح فى عمود القوس لا يقاوم الشد حتى يشكل انحناءة هائلة. لكنه مثل خشب القلب يريـــد أن يستقيم ويقاوم الانحناءة القوية؛ فيتحرر مـــن الـــضغط ويـــدفع

عارضة القوس للعودة إلى شكلها الطبيعى، وهكذا فــإن عمــود القوس المرن يَشُد، بينما بطن القوس الصلب يَدفع وهكذا يطيــر السهم الطويل.

قال ڤينابلز بتشكك:

– يجب أن تكون قويًا لتستخدم هذا القوس، يعلم الــرب فيم كان يفكر ذلك القواس؟! ربما ظن أن جالوت يحتاج إلى قوس، هاه!

قال هوك مقترحًا:

– لم يكن يريد قطع العارضة، لأنها مثالية.

قال ڤينابلز:

– إذا كنت تظن أنك تستطيع استخدامه، يا بنى، فهو لك، أوجد لنفسك وقاءً للرسغ.

وأشار إلى كومة من الأوقية واستطرد:

– ووترًا.

وأشار إلى برميل يمتلئ بالأوتار.

كان للأوتار ملمس لزج بعض الشيء، لأن خيوط القنب كانت تُطلَى بصمغ حوافر الخيل لحمايتها من الرطوبة. وجد هوك زوجًا من الأوتار الطويلة فعقد عقدة أنشوطية في طرف أحدهما ثم علقه في النهاية المستدقة للطرف السفلي للقوس. ثم استخدم كل قوته ليثني القوس ليقدر كم يحتاج من طول الوتر، ثم صنع أنشوطة في النهاية الأخرى للوتر ثم استخدم كل ذرة في قوته العضلية ليثني القوس ثم يدفع العقدة الأخرى إلى الطرف العلوي للقوس، وفي منتصف الوتر حيث سترتكز قاعدته المعدنية زِيد الوتر متانة بالمزيد من خيوط القنب حيث ستلامسه الأسهم.

واقترح ڤينابلز:

- أتجرب إطلاقه.

كان رجلاً في منتصف العمر يعمل في خدمة أمن القلعة، ذا روح طيبة، يحب قضاء يومه في الثرثرة لأي شخص قد ينصت إلى قصصه عن المعارك الحربية التي خاضها منذ عهدٍ بعيد، حمل جعبة أسهم إلى المرج الممتد من الوحل والعشب خارج القلعة وألقاها بجلبة. وضع هوك الوقاء على ساعده

الأيسر وربط أوتاره على باطن رسغه لتحمى جلده من ارتداد وتر القوس. انطلقت صرخة وانقطعت. فقال ڤينابلز مفسرًا:

- إنه الأخ بيلى.

- الأخ بيلى؟

قال ڤينابلز:

- إن الأخ بيلى راهب بينديكتى[٣٥]، وهو رئيس جلادى الملك. إنه يستخرج الحقيقة من بعض أولاد الحرام المساكين.

قال هوك:

- لقد أرادوا تعذيبى فى كاليه.

- حقًا.

---

(٣٥) بينديكتى (Benedictine): البنيدكتى هو من يكرس حياته ويرتبط روحيا على نظام القديس بينديكت للرهبنة والتعليم الدينى والتى كتبها بينديكت من نورسيا فى القرن السادس لمجتمعات الرهبنة التى نشأت فى وسط إيطاليا وكان أهمها: (Monte Cassino) الذى أسسه بينديكت حوالى عام ٥٢٩، ثم انتشرت حول العالم. وتمثل الطاعة للرؤساء والكهنة الأكبر رتبة ركنًا مهمًا من أركان هذا النظام. (المترجم).

- لقد أراد أحد القساوسة ذلك.

- إنهم متلهفون دائمًا لتدوير المقلعة[٣٦]، أليس كذلك؟ لم أفهم هذا قط! يخبرونك أن الرب يحبك ثم يؤذونك حتى النخاع. حسنًا، إذا سألوك، يا فتى، فأخبرهم الحقيقة.

- لقد فعلت.

قال ڤينابلز:

- أذكرك أن هذا لن ينفع دائمًا.

ارتفعت الصرخة مرة أخرى، فأدار رأسه تجاه الصوت قائلاً:

- ربما قال ابن الحرام المسكين هذا الحقيقة لكن الأخ بيلى يُحِب أن يكون متأكدًا، إنه كذلك، لنرى كيف يطلق القوس ؟

---

(٣٦) المقلعة (The Rack): آلة تعذيب من القرون الوسطى تتكون عادة من طاولة خشبية أعلى من الأرض قليلا لها ملفين فى طرفيها تثبت إليهما يدا الضحية والقدمين ثم يبدأ التعذيب بإدارة الملفين عكس بعضهما حتى تتخلع المفاصل والعظام من بعضها ولا يزال أحد نماذجها موجودًا فى برج لندن. (المترجم).

غرس هوك مجموعة من الأسهم في التراب. كان هناك هدف مثقوب مهتز يستند إلى كومة قش فوق العشب الممتد. كان المدى قصيرًا، لا يبعد أكثر من مائة خطوة وكان حجم الهدف ضعف حجم الرجل، وتوقع هوك أن يصيب هذا الهدف السهل كل مرة، لكنه توقع أيضا أن أسهمه الأولى ستطيش.

كان القوس لا يزال متوترًا لكن عليه الآن أن يعلمه الانحناء. شده قليلاً في المرة الأولى ووصل السهم بالكاد إلى الهدف. وكان يشده أكثر المرة بعد الأخرى أقرب إلى وجهه لكنه لم يسحب القوس بعد إلى مداه الأقصى، أطلق سهمًا وراء الآخر، وطوال هذا الوقت كان لا يزال يتعلم خواص القوس ويعلم القوس أن يستسلم لضغطه، ومرت ساعة قبل أن يشد الوتر حتى يصل إلى أذنه ويطلق أول سهم بكامل قوة القوس.

تبسم، لكنه لم يدرك ذلك. كان هناك جمالٌ ما في ذلك، جمال خشب السرو وخيوط القنب، خيوط الحرير والريش، الصلب وخشب الدردار، الرجل والسلاح، جمال القوة الخالصة، جمال توتر القوس، الذي ينطلق عبر أصابعه الضاغطة على الوتر المصنوع من القنب القاسي، اندفاع السهم يهسهس في طيرانه حتى يصيب هدفه. طار السهم الأخير مباشرة إلى مركز الهدف وانغرس في القش حتى الريش. قال ڤينابلز بابتسامة:

- لقد فعلتَ ذلك من قبل.

وافقه هوك:

- نعم فعلته، لكن منذ فترة بعيدة، إن أصابعى تؤلمنى!

- ستزداد قساوة بسرعة، يا فتى، وإذا لم يعذبوك ويقتلوك ربما تفكر فى الانضمام إلينا! إن الحياة فى القلعة ليست سيئة. طعام جيد، ووفير وقليل من المهام.

قال هوك وهو شارد الذهن:

- سيعجبنى هذا.

كان تركيزه ينصب على القوس، كان قد اعتقد أن أسابيع السفر قد أضعفت قوته، وأن مهارته تتآكل لكنه كان يشد الوتر بسهولة ويطلق بنعومة ويصوب بدقة. كان هنالك ألم خفيف فى كتفه وظهره وطرفى إصبعيه اللذين يسحبان الوتر، لكن هذا كان كل الألم فقط. وأدرك فجأة أنه سعيد، وقد استوقفته تلك الفكرة وحدق فى الهدف متعجبًا، لقد قاده القديس كريسبينيان إلى مكان تحت الشمس وأعطاه ميليساند لكن سعادته ما لبثت أن تضاءلت إذ تذكر أنه لا يزال خارجًا على القانون، لو اكتشف السير

مارتين أو اللورد سلايتون أن نيكولاس هوك لا يزال حيًا وفى إنجلترا سيطلبانه وربما يشنقانه.

واقترح ڤينابلز:

– فلنرى مدى سرعتك.

دفع هوك ملء قبضة من السهام فى التربة، وتذكر ليلة الدخان والصراخ عندما أتى الرجال ذوو الدروع المعدنية التى تومض عبر الخرق فى سواسون، وأطلق مرة أخرى، وأخرى، لا يفكر، ولا يصوب فقط يترك القوس يؤدى عمله. كان القوس أقوى، أكثر قدرة على القتل، لكنه سريع مثله تمامًا. ما كان يفكر، فقط كان يطلق، يلتقط سهمًا جديدًا ويضعه فى القوس ويرفع قامة القوس ويشد الوتر ويطلق مرة أخرى. هسهست دزينة من السهام عبر الساحة وضربت الهدف واحدًا بعد الآخر ولو أن شخصًا بسط يده عند مركز الهدف لأصابتها السهام كلها.

قال صوت مرح خلفه:

– اثنا عشر، سهمٌ لكل حوارى.

والتفت هوك ليرى قسيسًا يراقبه، كان الرجل ذا وجه مستدير مرحًا يؤطره شعر أبيض خفيف، ويحمل فى إحدى يديه

حقيبة جلدية كبيرة، ويمسك فى الأخرى مرفق ميليساند بحــزم، قال القس:

- لابد أنك السيد هوك، بالطبع إنه أنت! أنا الأب رالف، هل لى أن أحاول؟

ووضع الحقيبة، وترك ذراع ميليساند، وتقدم نحو قــوس هوك واستأذنه:

- اسمح لى، لقد اعتدت الضرب بالقوس فى شبابى.

سلمه هوك القوس وراقب الأب رالف وهو يحاول سحب الوتر. كان القس رجلاً ذا بنية جيدة وقد نما وترعرع فى معيشة حسنة، لكنه رغم ذلك لم يستطع سحب الوتر إلى الخلف ســوى قدر يدٍ واحدة، ثم بدأت قامة القوس ترتجف من الجهد المبذول. هز الأب رالف رأسه، وقال:

- أنا لم أعد الرجل الذى كُنته.

ثم أعاد القوس إلى هوك وراقبه وهو يحنى قامة القــوس بسهولة بالغة لينزع الوتر، وقال الأب رالف بمرح شديد:

- حان الوقت كى نتحدث كلنا.

ثم استطرد:

- أتمنى لك يومًا رائعًا يا رقيب ڤينابلز، كيف حالك؟

- أنا بخير يا أبتى، بخير حال.

وابتسم ڤينابلز ابتسامة واسعة وهز رأسه ووضع قبضته على جبهته، واستطرد:

- قدمى لا تؤلمنى كثيرًا، يا أبتى، خصوصًا إذا لم تهب رياح من الشرق.

قال الأب رالف بسعادة:

- وإذن، سأدعو لك الرب ألا يرسل إليك أى شىء سوى الرياح الغربية! لا شىء سوى الغربية! تعال يا سيدى هوك، انشر الضوء على ظلمائى! أنرنى!

أخذ القس الحقيبة مجددًا وقاد هوك وميليساند إلى الحجرات المبنية أمام الحائط الساتر للبرج. كانت الحجرة التى اختارها صغيرة ومغطاة بألواح من الخشب المنحوت، وبها كرسيان وطاولة، وقد أصر الأب رالف أن يجد كرسيًا ثالثًا، وقال:

- اجلسا بنفسيكما، اجلسا، اجلسا!

كان يرغب فى معرفة قصة سواسون كاملة، ولـــذا روى هوك وميليساند بالإنجليزية والفرنسية قصتهما مـــرة أخـــرى، وصفا الاعتداء والاغتصاب والقتل، ولم يتوقف قلم الأب رالف عن الخمش، كان فى حقيبته رقاق كتابة وقارورة حبر وريشات، وكتب دون توقف ومن حين لآخـــر يرمـــى بـــسؤال، تحـــدثت ميليساند أكثر، وامتلأ صوتها بالسخط وهى تروى رعب الليل، قال الأب رالف:

- أخبرينى عن الراهبات.

ثم هز رأسه وكأنـــه ارتكـــب حماقـــة وكـــرر الـــسؤال بالفرنسية. احتقن صوت ميليساند بالغضب كما لم يمتلئ قـــط، وحدقت بعينين جاحظتين إلى الأب رالف، وانطلقت تتحدث حتى أشار إليها يستمهلها حتى يستطيع قلمه اللحاق بفيضان كلماتها.

دقت أصوات الحوافر بالخارج وبعد لحظات قليلة علـــت قعقعة اصطدام السيوف ببعضها. وبينما كانت ميليساند تقـــص قصتها، نظر هوك من النافذة المفتوحة، فرأى الجنود يتـــدربون فى الساحة التى كانت تطير فيها سهامه، كانوا جميعهم يرتدون زيهم المدرع بالكامل الذى يصدر صـــوتًا مكتومًـــا إذا ضـــربه نصل. كان أحد الرجال مميزًا فقد كانت دروعه سوداء اللـــون،

ويهاجمه رجلان بينما يدافع عن نفسه، بمهارة رغم أن هوك كان لديه انطباع أنهما لا يحاولان بأقصى جهدهما، كان عشرون من الرجال الآخرين يشاهدون الاقتتال مصفقين. أنهى الأب رالف كتابة جملة فقرأ بصوت جهورى وببطء باللاتينية:

- واندفع السيف الشيطانى.

ثم استطرد بالإنجليزية:

- جيد! أووه، إنه أكثر من رائع!

تساءل هوك:

- أهذه لغة لاتينية أيها الأب؟

- نعم إنها كذلك، فى الحقيقة نعم! اللغة اللاتينية! لغة الرب! أو ربما هو يتحدث العبرية؟ أنا أظن أن هذا أرجح وسيسبب ارتباكًا فى السماء، أليس كذلك؟ أعلينا جميعًا أن نتعلم العبرية؟ أم أننا سنجد أنفسنا نتحدثها بطلاقة عندما نصل إلى المراعى السماوية، كنت أقول كيف ارتوى سيف الشيطان بالدم؟!

وضحك ضحكة مكتومة لهذا التعبير، ثم أشار إلى ميليساند لتكمل؛ عاد يكتب مجددًا وقلمه يطير فوق الرق. علا

من الساحة بالخارج صوت ضحكة رجلٍ واثقة حيث كان اثنان من الجنود يصطرعان الآن بالسيوف بضربات سريعة. وسأل الأب رالف بعد أن أنهى كتابة ورقة أخرى:

- لعلك تتساءل: لماذا أنقل قصتكما إلى اللاتينية؟

- نعم يا أبتى.

- هكذا سيعلم العالم المسيحى كله أى شياطين سفاحين هم هؤلاء الفرنسيون! سننسخ هذه الرواية مئات المرات ونرسلها إلى كل أسقف، وكل رئيس دير، وكل ملك وأمير فى العالم المسيحى، دعهم يعرفون حقيقة ما حدث فى سواسون! دعهم يعرفون كيف يعامل الفرنسيون رعاياهم! دعهم يعرفون أن مأوى الشيطان فى فرنسا، هاه؟

وابتسم.

تحدث صوت أجش خلف هوك قائلاً:

- إن الشيطان يعيش هناك ويجب أن نطرده!

استدار هوك فى مقعده ليرى الرجل المسلح فى زيه ذى الدروع السوداء يقف عند المدخل، كان قد خلع خوذته وقد بلل

العرق شعره البنى الأملس الذى التصق بفعل العـــرق، وتـــرك حرف الخوذة علامات عليه. كان شابًا وبدا مألوفًا رغم أن هوك لم يستطع تحديد هويته، لكن بعد ذلك رأى هوك ندبـــة الجـــرح العميقة جوار أنفه الطويل، وأوقع هوك كرســـيه تقريبًـــا فـــى اندفاعه ليركع على ركبته أمام ملكه. كان قلبه يدق سريعًا وكان الرعب داخله كبيرًا، مثل ذلك الذى انتابه وهـــو ينتظـــر عنـــد الخرق فى سواسون، إنه الملك، هذا كل ما استطاع التفكير فيه، إن هذا كان الملك.

أشار الملك هنرى إشارة عـــصبية أن علـــى هـــوك أن ينهض، لكن هوك كان منفعلاً للغاية لدرجة أنه لم يقدر على أن يطيع الأمر. وقف الملك بين المنضدة والحائط وألقى نظرة على ما كتبه الأب رالف وقال:

- إن لغتى اللاتينية ليست كما ينبغى لها أن تكون، لكـــن فحواه واضحة بما يكفى.

قال الأب رالف:

- هذا يؤكد كل الشائعات التى سمعناها يا مولاى.

- والسير روچر بالليير؟

قال الأب رالف وهو يومئ إلى هوك:

- قتله هذا الشاب يا مولاى.

قال الملك بفتور:

- لقد كان خائناً، إن عملاءنا فى فرنسا أكدوا هذا.

قال الأب رالف:

- إنه يصرخ فى الجحيم الآن وصراخه دائم إلى الأبد.

قال الملك هنرى باقتضاب:

- حسناً.

وقلب بعض الصفحات.

- راهبات؟ بالتأكيد لا؟

قال الأب رالف:

- فى الحقيقة يا مولاى، إن عرائس المسيح انتهكن وقتلن، لقد سُحِبن من صلواتهن ليصرن دمى يُعبَث بهن يا مولاى، لقد سمعنا هذا وخشينا تصديقه لكن هذه السيدة الشابة أكدته.

استقر الملك بنظراته المحدقة على ميليساند التى نزلت على ركبتيها مثل هوك وكانت ترتجف انفعالاً مثله، قال الملك لها:

- انهضى.

ونظر إلى الصليب المعلق على الحائط وعبس وعض على شفته السفلى، وسأل بعد هنيهة:

- لماذا سمح الرب بهذا أيها الأب؟

وامتلأ صوته بالألم والارتباك واستطرد:

- راهبات؟ كان على الرب أن يحميهن، بالتأكيد؟ كان على الرب أن يرسل ملائكة لحراستهن!

قال الأب رالف مقترحًا:

- ربما أراد الرب قدرهن هذا ليصير علامة.

- علامة؟

- على شر الفرنسيين يا مولاى، وبالتالى حقك فى المطالبة بتاج ذلك العالم التعيس.

قال الملك هنرى:

- وإذن مهمتى أن آخذ بثأر الراهبات.

قال الأب رالف بتواضع:

– إن لديك العديد من المهام يا مـــولاى وهـــذا أحـــدها بالتأكيد.

نظر هنرى إلى هوك وميليساند وأصابعه المدرعة تنقــر على الطاولة. تجاسر هوك ورفع رأسه مرة فرأى القلق علـــى وجه الملك النحيل، أدهشه هذا، فقد كان يظن أن الملوك فوق أى قلق، وبمعزل عن التساؤل عن الصواب والخطأ. لكن كان مـــن الواضح أن هذا الملك يتألم لحاجته إلى معرفة إرادة الربّ، قال الملك هنرى وهو لا يزال ينظر إلى هوك وميليساند:

– وإذن، هل هذان الاثنان يقولان الحقيقة؟

قال الأب رالف بحرارة:

– يمكننى أن أقسم لك على هذا يا مولاى.

حدق الملك فى ميليساند دون أن يبدو علـــى وجهـــه أى شعـــور، ثـــم انزلقت نظراته الباردة إلى هوك وســـأل فجـــأة بصوت قاسٍ:

– لماذا كنت أنت الناجى الوحيد؟

قال هوك بتواضع:

– لقد كنت أصلى، يا مولاى.

تساءل الملك بحدة:

– ألم يكن الآخرون يصلون؟

– بعضهم كان يفعل يا مولاى.

– لكن الرب اختار أن يستجيب إلى صلواتك أنت؟

قال هوك:

– لقد صليت إلى القديس كريسبينيان يا مولاى.

وتوقف قليلاً ثم اندفع مستطردًا فى إجابته:

– وقد تحدث إلىّ.

وساد الصمت ثانية. نعق غرابٌ بالخارج، وتردد صليل السيوف؟ من برج القلعة. مد الملك يده المغطاة بالقفاز ورفع وجه هوك ليتمكن من التطلع إلى عينى رامى السهام، وتساءل الملك:

– تحدث إليك؟

تردد هوك. وأحس كأن قلبه يدق فى قاع حلقه، ثم قــرر أن يقول الحقيقة كاملة أيًا كان تأثيرها، وقال:

– لقد تحدث القديس كريسبينيان إلىّ يا مولاى، تحدث فى مخيلتى.

حدق الملك إلى هوك وحسب، وفتح الأب رالــف فمــه وكأنه على وشك الحديث، لكن اليد الملكيــة المغطــاة بالقفــاز أشارت إليه محذرة ليلتزم الصمت، واستمر الملك هنرى؛ ملــك إنجلترا، فى التحديق، ولذا شعر هوك بالخوف يزحــف علــى عموده الفقرى كثعبان بارد، وقال الملك فجأة:

– إن الجو حارٌ هنا، ستتحدث معى بالخارج.

ظن هوك للحظة أن عليه أن يتحدث إلى الأب رالف، لكن الملك كان يريد هوك، ولذا ذهب نيكولاس هوك تحــت شــمس الظهيرة الساطعة وسار جوار ملكه.

أصدر درع الملك هنرى صريرًا خافتًا لاحتكاكه بالجلــد المشحم تحته. اقترب جنوده غريزيًا عندما ظهر لكنه أشار إليهم بالابتعاد، وقال الملك هنرى:

– أخبرنى، كيف تحدث كريسبينيان إليك.

أخبره هوك كيف ظهر القديسان له وكيف تحدثا إليه، لكن كريسبينيان كان صاحب الصوت الودود. شعر بارتباك فى سرد المحادثة لكن الملك هنرى أخذ الأمر بجدية، وتوقف فى مواجهة هوك، كان أقصر من الرامى ويصل إلى منتصف رأسه ولـــذا كان عليه أن يتطلع للأعلى ليحكم على وجه هوك لكن بدا مقتنعًا بما شاهده، وقال بحزن:

- أنت مبارك، كم تمنيت أن يتحدث القديسون إلىّ.

ثم استطرد بحزم:

- لقد نجوتَ لغايةٍ ما.

قال هوك برعونة:

- أنا مجرد حارس غابة، يا مولاى.

وللحظة حاول أن يقول الحقيقة الأخرى، أنه خارج على القانون أيضًا لكن الحيطة ألجمت لسانه.

قال الملك بإصرار:

- لا، أنت رامى سهام، وقد عاونك القديسان فى مملكتنا فى فرنسا، أنت أداة الرب.

لم يدر هوك بماذا يجيب ولذا لم يقل شيئًا.

استطرد الملك قائلاً بخشونة:

- لقد منحنى الرب عرشى إنجلترا وفرنسا وإذا كانت هذه مشيئته فعلينا أن نسترجع عرش فرنسا مجددًا.

وأطبق قبضته المدرعة فجأة بإحكام واستطرد:

- وإذا أخذنا هذا القرار سأريد معى رجالاً يحبهم قديسو فرنسا، هل أنت رام جيد؟

قال هوك بخجل:

- أظن ذلك، يا مولاى.

نادى الملك:

- ڤينابلز!

سار الرقيب متعجلاً يعرج على التراب وسقط على ركبتيه، وسأله الملك هنرى:

- أيستطيع التصويب؟

ابتسم ڤينابلز ابتسامة عريضة، وقال:

- أفضل من أى شخص رأيته من قبل يا مولاى، بكفاءة ذلك الرجل الذى ضرب وجهك بالسهم.

بدا من الواضح أن الملك يحب ڤينابلز إذ ابتسم لهذه الوقاحة البسيطة ولمس بإصبعه المغطى بالدرع الحديدية الندبة العميقة بجانب أنفه.

- لو أن ضربته كانت أشد يا ڤينابلز لكان لك ملك آخر الآن.

- وإذن فقد فعل الرب الخير فى ذلك اليوم يا مولاى بالحفاظ عليك ونشكر الرب على هذه الرحمة العظيمة.

قال الملك هنرى:

- آمين.

وابتسم إلى هوك ابتسامة سريعة، وقال موضحًا:

- لقد اخترق السهم الخوذة مما خفف من قوته لكنه رغم ذلك جرح بعمق.

قال ڤينابلز باستنكار:

- يجب أن تكون مقدمة خوذتك مغلقة يا مولاى.

قال الملك هنرى بحزم:

- يجب أن يرى الرجال وجه الأمير فى المعركة.

والتفت إلى هوك قائلاً:

- فلنبحث لك عن لورد.

اعترف هوك دون تفكير، فلم يعد قادرًا على إخفاء الحقيقة أكثر من ذلك:

- أنا خارج عن القانون، يا سيدى، أنا آسف يا مولاى.

تساءل الملك بقسوة:

- خارج عن القانون؟ لأية جريمة؟.

سقط هوك راكعًا على ركبتيه مرة أخرى قائلاً:

- لضربى قسيسًا يا مولاى.

صمت الملك ولم يجسر هوك على رفع بصره. توقع العقاب ولكن حدث ما أدهشه إذ ضحك الملك ضحكة مكتومة.

- يبدو أن القديس كريسبينيان سامحك على هذا الخطأ الفظيع ولذا فمن أكون أنا لأدينك؟ وفى هذه المملكة.

واستطرد بصوت أقوى:

- فالرجل يكون ما أقولُ وأنا أقول أنك رامٍ وأن علينا أن نجد لك لوردًا.

ودون كلمة أخرى، عاد الملك هنرى إلى رجاله وتنهد هوك تنهيدة طويلة.

نهض الرقيب ڤينابلز على قدميه وهو يصرخ من ألم قدمه المصابة.

– لقد تحدث إليك، أليس كذلك؟

– بلى أيها الرقيب.

تحدث ڤينابلز بحميمية:

– إنه يحب أن يفعل هذا، لم يكن والده كذلك، دائم العبوس، لكن جلالته يتواضع فيتحدث أحياناً مع الوضعاء مثلك ومثلى، وإذن سيبحث لك عن لورد جديد.

– هكذا قال.

– حسناً، دعنا نأمل ألا يكون السير چون.

– سير چون؟

قال ڤينابلز:

– لقيطٌ مجنون، مجنون وسيئ. سيجعلك السير چون تصوب وتقتل فى لمح البصر.

وضحك ڤينابلز، ثم أومأ إلى المنـــازل المــشيدة بجـــوار الحائط الساتر قائلاً:

- إن الأب رالف يبحث عنك.

كان الأب رالف يشير إليه من المدخل، ولذا ذهب هــوك لينهى قصته.

زمجر السير چون كورنويل فى هوك قائلاً:

- يا للمسيح الباكى عيسى، أنت ضرطة مــن عرقــوب متورم! اعبره! لا تجعله يرفرف فى يـــدك كالقــضيب المرتخى! اعبره! ثم اقترب منى!

جاء السيف مرة أخرى ليضرب خصر هوك، وفى هـــذه المرة قرر هوك أن يدفع بسيفه ليتفادى الضربة، وقد فعل ذلـــك ودفعه إلى الأمام، لتعيده إلى الخلف قبضة السير چون المدرعة.

استحثه السير چون:

- استمر بالتقدم، اضغط علىّ، اطرحنى على الأرض ثم اقض علىّ!

وبدلاً من ذلك تقهقر هوك خطوة إلى الخلف، ورفع سيفه إلى الأعلى ليصد الضربة التالية من نصل السير چون، الــذى صاح فى غضب شديد:

- ماذا حلّ بك، المسيح؟ هل أضعفتك عاهرتك الفرنسية تلك؟ تلك المرأة النحيلة المسطحة النهدين، الوضــيعة الأشبه بالغضروف؟ أوجِد امرأة حقيقية يا رجل بحــق عظام المسيح! يا جودينجتون!

وحدق السير چون إلى قائد رماته، واستطرد:

- لم لا تباعد بين ساقى هذه العاهرة الحقيرة، وترى هل يمكن امتطاؤها؟

أحس هوك بغضبٍ فجائى، سحابة حمراء مــن الغــضب جعلته يندفع نحو سيف السير چون، لكن الرجل الأكبــر ســناً تنحى جانبًا برشاقة، وضرب جمجمة هوك بصفحة سيفه ضربةً سريعةً، استدار هوكً محاولاً الوصول إلى السير چون بــسيفه، لكن الأخير تفادى السيف بسهولة. كان السير چون يتحرك بخفة راقصٍ رغم أنه فى درعه كاملة، واندفع بقوةٍ إلى هوك الــذى تذكر النصيحة هذه المرة فتفادى اندفاعته، وألقى بنفــسه علــى خصمه مستخدمًا كل وزنه وطوله ليُفقِد الرجــل الأكبــر ســناً

توازنه، وكان يعرف أنه سيلقيه أرضًا حيث سيضربه حتى يحوله إلى عجين، ولكن بدلاً من ذلك شعر بضربةٍ عنيفةٍ على مؤخرة جمجمته، وأظلمت عيناه ودار العالم من حوله وألقته ضربة أخرى من رمانة مقبض سيف السير چون على وجهه فوق الأرض التى أوحلتها بدايات الشتاء.

لم يسمع الكثير مما قاله السير چون فى الدقائق القليلة التالية، كانت رأس هوك تؤلمه ويحس بدوار لكنه استعاد حواسه تدريجيًا فسمع خاتمة حديث السير چون الغاضب:

- يمكنك أن تحس بالغضب قبل القتال! لكن فى القتال! احتفظ بحواسك اللعينة معك. إن الغضب سيقتلك.

واستدار السير چون إلى هوك مستطردًا:

- إن درعك قذرة. قم بتنظيفها، وهناك صدأ على نصل سيفك، سأضربك بالسوط لو بقى كذلك حتى المغيب.

قال جودينجتون قائد الرماة لهوك فى المساء:

- لن يجلدك، سيطعنك ويجرحك وربما يكسر عظامك ولكن كل هذا فى قتالٍ نزيه.

قال هوك بلهجة حاقدة:

- سأدق عظامه.

ضحك جودينجتون.

- رجلٌ واحد، رجلٌ واحد فقط يا هوك استطاع التعادل معه فى منافسة قتاليةٍ فى العشر سنوات الأخيرة؛ لقد فاز فى كل بطولةٍ فى أوربا، لن تتمكن من ضربه، ولن تتمكن حتى من الاقتراب منه؛ إنه مقاتل.

قال هوك:

- إنه وضيع!

كانت مؤخرة رأسه مغطاة بالدم. جلس هوك يحك الصدأ الموجود على نصل سيفه بحجر بينما ميليساند تنظف درعه. وكان السير چون كورنويل قد أمده بالدرع والسيف.

قال جودينجتون لهوك:

- لقد كان يستفزك، يا فتى، لم يكن يعنى شيئًا، إنه يهين كل شخص، ولكن إذا كنت من رجاله، وستكون كذلك فإنه سيقاتل من أجلك أيضًا وسيقاتل من أجل امرأتك.

وقف هوك فى اليوم التالى يشاهد السير چون يطرح برامٍ تلو الآخر أرضًا، وعندما جاء دوره تلقى دزينة من الضربات

قبل أن يصاب بالدوار ويتعثر ويُطرَح أرضًا على وجهه. تراجع السير چون بعيدًا عنه وقد ارتسم الاحتقار على وجهه ذى الندوب، ودفع هذا الاحتقار هوك ليقف على قدميه فى محاولة لهجوم وحشى ضارٍ محاولاً أن يضرب السير چون بسيفه لكنه تفادى الضربة. وضرب هوك بازدراء مرة أخرى، وقال السير چون بتذمر:

- الغضب يا هوك، إذا لم تستطع التحكم به، فسيقتلك، ورماة الأسهم الموتى لن يفيدونى بشىء، قاتل ببرود، يا رجل، قاتل ببرود وبصلابة، قاتل بمهارة.

ولدهشة هوك، مَدّ له يده وشده ليقف على قدميه، وقال:

- لكنك سريع يا هوك، أنت سريع! وهذا جيد.

كان السير چون يبدو قرب الأربعين من العمر لكنه لا يزال أكثر محاربًا مهاب الجانب فى البطولات التى تقام فى أوربا. كان رجلاً رِبعَة، عريض الصدر تقوست ساقاه من السنين التى قضاها على صهوة الخيول، كانت له عينان زرقاوان لامعتان. لم ير هوك مثل زرقاوتهما اللامعة من قبل، ذا أنف معقوف وعلى وجهه المسطح ندوب المعارك التى خاضها سواء ضد الثوار أو الفرنسيين أو شجارات الحانات

أو خصوم بطولات الفروسية، والآن تحسبًا لاندلاع حرب مع فرنسا كان يجمع مجموعة من الرماة والجنود، وإن لم يكن هناك فارق كبير بين الاثنين فى رأى السير چون، كان يصيح فى الرماة:

- نحن مجموعة، الرماة والجنود معًا! نقاتل من أجل بعضنا البعض! لن يصيب أحدٌ شخصًا منا ويذهب دون أن يصاب!

واستدار إلى هوك، ودسّ إصبعًا مغطى بدرع معدنى فى صدره قائلاً:

- ستفعل ذلك يا هوك، أعطه معطفه يا جودينجتون.

أعطى بيتر جودينجتون إلى هوك معطفاً كتانيًا أبيض عليه شعار السير چون؛ أسدٌ أحمر منتش يقف على قائمتيه الخلفيتين ويبسط الأماميتين وعلى كتفه نجمة ذهبية وعلى رأسه المزمجر تاجٌ ذهبى.

قال السير چون:

- أهلا بك فى المجموعة، وأما عن واجباتك الجديدة، ما هى واجباتك الجديدة، يا هوك؟

- أن أقوم على خدمتك يا سير چون.

- لا! لدى خدم يفعلون هذا! مهمتك، يا هوك، أن تُخلِّص العالم من أى شخص لا أحبه! ما هى مهمتك؟

- أن أُخلِّص العالم من كل شخص لا تحبه، يا سير چون.

وربما كان هذا جزءًا كبيرًا من العالم. كان السير چون كورنويل يحب ملكه. يعشق زوجته الأكبر منه سنًا والتى كانت عمة الملك، ويحب النساء اللاتى ينجب منهن أبناء غير شرعيين وكان مخلصًا لرجاله، لكن بقية العالم كله تقريبًا حثالة لعينة تستحق الموت. كان يتسامح مع شركائه الإنجليز، لكن الويلزيون أقزام ضَرَّاطون بسبب الكرنب، والاسكتلنديون لعاقو أدبار جرباء والفرنسيون روث حقير.

- هل تعلم ماذا تفعل مع الروث الحقير، يا هوك؟

- نقتلهم، يا سير چون.

قال السير چون:

- تنهض قريبًا منهم وتقتلهم، دعهم يشتمون رائحة أنفاسك وهم يحتضرون، دعهم يرون ابتسامتك وأنت

تنزع أحشاءهم. تجرحهم ثم بعد ذلك تقتلهم، أليس هذا صحيحًا أيها الأب؟

قال الأب كريستوفر برقة:

- أنت تتحدث بلسان الملائكة يا سير چون.

كان قس اعتراف للسير چون، ويرتدى معطفًا مزودًا بالدروع وحذاء ذا رقبة طويلة وخوذة تناسب رأسه بالضبط، مثله مثل باقى الرماة المحتشدين فى الساحة، ولم يكن فى هيئته ما يوحى بأنه قسيس، ولكن لو كان هناك ما يوحى بذلك لما كان يعمل فى خدمة السير چون الذى كان يريد جنودًا.

قال السير چون بصوت هادر للرماة فى الساحة الشتائية:

- أنتم لستم رماة، أنتم تطلقون سهامكم على أولاد الحرام العفنين هؤلاء، حتى يقتربوا وبعد ذلك تقتلونهم كما يفعل الجنود! أنتم لستم ذوى نفع لو أن كل ما تفعلونه هو إطلاق السهام! أريدكم أن تقتربوا منهم حتى تشموا ضرطات احتضارهم! أقتلت من قبل يا هوك رجلاً عن قرب حتى أنه كان بإمكانك تقبيله؟

- نعم، يا سير چون.

ابتسم السير چون ابتسامة عريضة.

- أخبرنى عن آخر شخص قتلته؟ كيف فعلت ذلك؟

- بالخنجر، يا سير چون.

- كيف؟

قال هوك:

- شققت بطنه طوليًا، يا سير چون.

- وهل تبللت يدك يا هوك؟

- غرقت بالدم يا سير چون.

- تبللت بدماء رجل فرنسى، هاه؟

- لقد كان فارسًا إنجليزيًا، يا سير چون.

قال بقوة:

- فليلعن الرب تصرفاتك الحقيرة يا هوك، لكننى أحبك!

وصرخ السير چون فى الرماة مستطردًا:

- هكذا ستفعلون! تشقون بطونهم وتدفعون نصالكم فـــى أعينهم، وتقطعــون رقــابهم، تنتزعــون خـــصياتهم،

وتدفعون سيوفكم فى أدبـــارهم، تقتلعــون حنـــاجرهم، تنتزعون أكبادهم وتقطعون كلاهم، لست أبالى كيــف ستفعلون ذلك، ما دمتم ستقتلونهم! أليس هذا صـــحيحًا أيها الأب كريستوفر؟

- لم يكن ربنا ومخلصنا ليعبر بمثل تلك البلاغة يا ســير چون(٣٧).

قال السير چون وهو يحدق فى رماته:

- وفى العام القادم قد نذهب إلى الحرب، إن ملكنا باركه الرب هو الملك الشرعى لفرنـــسا لكـــن الفـــرنـــسيين ينكرون حقه فى العرش وإذا قام الرب بدوره، فسيدعنا نغزو فرنسا! وإذا حدث ذلك فـــسنكون علـــى أهبـــة الاستعداد.

---

(٣٧) هكذا وردت فى النص الإنجليزى:

'Our Lord and Saviour could not have expressed the sentiment more eloquently, Sir Joh'

وقد أثبتناها هنا لأمانة الترجمة ولكننا لا نقر أى اجتراء على الله تعالى ولا على السيد المسيح.

لم يكن أحد على يقين إذا كانت الحرب آتية أم لا. كان الفرنسيون قد بعثوا بالرسل إلى الملك هنرى الذى أرسل مبعوثيه إلى فرنسا واجتاحت الشائعات إنجلترا كأمطار الشتاء التى تنشرها الرياح الغربية.

كان السير چون رغم ذلك واثقًا أن الحرب قادمة، وعقد اتفاقًا مع الملك كما فعل العشرات من الرجال الآخرين. كان الاتفاق يُلزِم السير چون أن يجلب ثلاثين جنديًا وتسعين راميًا لخدمة الملك لاثنى عشر شهرًا، وتعهد الملك بدوره أن يدفع أجور السير چون وجنوده. كُتِب الاتفاق فى لندن وكان هوك أحد الرجال العشرة الذين ركبوا إلى ويستمنستر(٣٨). حين قام

---

(٣٨) ويستمنستر (Westminster): هى منطقة بوسط لندن، فى مدينة ويستمنستر. تقع على الضفة الشمالية لنهر التايمز، إلى الجنوب الغربى من مدينة لندن، بها الكثير من معالم لندن الشهيرة والتاريخية ومنها قصر باكنغهام، وكاتدرائية ويستمنستر، وقصر ويستمنستر وهو مقر البرلمان.استعمل الاسم من الناحية التاريخية لوصف المنطقة الواقعة حول (كنيسة ويستمنستر): (الكاتدرائية الغربية The West Minster، Church Monastery) وقد أخذت المنطقة اسمها منها، وكانت مقرًا لحكومة إنجلترا لمدة ألف سنة تقريبًا. ويستعمل الاسم أيضا للمدينة الأكبر؛ (ويستمنستر) التى تغطى مساحة جغرافية أوسع. (المترجم).

السير چون بالتوقيع ووضع خاتم الأسد على قطرة من الـــشمع. انتظر الكاتب حتى جف الشمع ثم قام بقطع الوثيقة بحرص إلى جزءين غير متساويين، ودون استقامة، كـــان يحـــرك ســـكينه بطريقة متعرجة عشوائية بطول الوثيقة. وضع أحد الجـــزءين المقطوعين بخشونة فى حقيبة من الكتان الأبيض وأعطى الآخر للسير چون. والآن، إذا شكَّك أى شخص فى أصل الوثيقة ستتم مطابقة هذين الجزءين غير المتساويين ولا يستطيع أى طـــرف من الطرفين المتعاقدين أن يزور فى الوثيقة ويتوقع ألا ينكشف التزوير، قال الكاتب:

- ستدفع لك خزانة الدولة أموالك يا سير چون.

كان الملك يجمع المال بفرض الضرائب، وعقد القروض، ويرهن مجوهراته. تلقى السير چون كيسًا من النقـــود وحقيبـــة أخرى بها مجوهرات حرة، ودبوس صدر ذهبى وصندوق فضة ثقيل، لم يكن هذا يكفى السير چون ليجمع ما يحتاج من الرجال ويشترى الأسلحة والخيل فاقترض المزيد من المال من مصرفى إيطالى فى لندن.

كان عليه أن يجمع الرجال ويشترى الدروع والأســـلحة، كان السير چون وغلمانه وحاملو دروعه وخدمه يحتاجون أكثر من خمسين حصانًا فيما بينهم. من المتوقع أن يكون لكل جندى

ثلاثة خيول على الأقل بينهم واحدٌ مدرب جيدًا على القتال، بينما تكفلَ السير چون بتزويد كل رام بحصان ركوب، وكان لزامًا أن يوفروا علفه الخيول حتى تسقط أمطار الربيع فتخضر المراعى، وقد قام السير چون بتزويد الجنود بدورعهم وأسلحتهم، رغم أنه أمر بتجهيز مائة من الرماح القصيرة ليستخدمها المقاتلون المشاة. وقد أمد رماته التسعين أيضًا بمعاطف مزودة بالدورع وخوذات وأحذية جيدة ذات رقبة طويلة وأسلحة يستخدمونها عند الالتحام فى القتال حين تصبح أقواسهم عديمة الفائدة، وقد أخبر الرماة:

– إن السيوف لن تعينكم كثيرًا فى المعركة فأعداؤكم سيكونون فى دروعهم المعدنية لن تستطيعوا اختراق الدروع بحد السيف ولذا استخدموا فأس الحرب! أسقطوا به أولاد الحرام أرضًا! ثم اجثموا على لعاقى الأدبار الجربى هؤلاء وارفعوا مقدمات خوذاتهم وادفعوا نصال خناجركم فى عيونهم القذرة.

تدخل الأب كريستوفر قائلاً بهدوء:

– ما لم يكونوا أثرياء.

كان القسيس هو أكبر الرجال سنًا فى مجموعة السير چون، يفوق عمره الأربعين سنة، له وجه مستدير مرح وابتسامة ملتوية وشعر رمادى وعينان تحملان نظرات فضولية وشريرة معًا.

قال السير چون موافقًا:

- ما لم يكن الجربان لعاق الدبر ثريًا، فى هذه الحال تأخذه أسيرًا، مما يجعلنى غنيًا!

وقد أمر السير چون بمائة من فؤوس الحرب لرماته. وقد ساعد هوك - الذى يعرف كيف يشكل الخشب- فى نحت المقابض الطويلة من خشب البلوط، بينما طرق الحدادون الرؤوس المعدنية. كان أحد جانبيها مطرقة ثقيلة، زيد وزنها بالرصاص وتستخدم لسحق الدرع، أو على أقل تقدير، تفقد الرجل المدرع توازنه. أما الجانب الآخر فهو نصل الفأس الذى يمكنه فى يد رامٍ أن يشق الخوذة كما لو كانت مصنوعة من الورق أما مقدمتها فمستدقة كمسمار يمكنه أن يخترق مفاصل مقدمة خوذة الفارس، وقد كسيت مقابضها بالحديد حتى لا يستطيع الخصم أن يكسر المقبض، وقد قال السير چون عندما تسلم أول الأسلحة:

- جميل.

وربت على المقبض الخشبى المكسو بالمعدن كأنه يربت على خصر امرأة.

- جميل جدًا.

جاءت الأخبار قرب نهايات الربيع أن الرب قام بواجبه بإلهام الملك لغزو فرنسا، ولذا زحف السير چون ومجموعته جنوبًا فى الطرق التى تسيجها أسيجة من زهور الزعرور البرى البيضاء(٣٩)، بدا السير چون مبتهجًا وقد أفعمه توقع الحرب بالنشاط. يمتطى حصانه فى المقدمة. يتبعه غلامه وحاملو دروعه وحامل رايته الرسمى الذى يرفع راية الأسد

---

(٣٩) الزعرور البرى (Hawthorn): وهناك عدة أنواع منه أشهرها الأوروبى ذو الاسم العلمى (Crataegus Oxyacantha). وهو نبات شجيرى معمر برى وبستانى من الفصيلة الوردية. يوجد فى البرية والأحراج وفى المرتفعات الجبلية ويزرع أيضًا. وشجيرة الزعرور ذات أوراق خضراء تشبه ورق السدر صغيرة الحجم وأزهارها بيضاء عذقية تتحول إلى ثمرات عنبية بيضاوية محمرة اللون أو سوداء أو صفراء حسب نوعها. تمتاز ثماره بحلاوة مذاقها ولها تاثير على اللسان، ولزهوره وثماره استخدامات طبية وعلاجية كثيرة. (المترجم).

الأحمر ذى النجمة الذهبية. حملت ثلاث عربات تجرها الأحصنة، المؤن والرماح القصيرة والدروع وأقواسًا إضافية وحزم السهام. كان الطريق إلى الجنوب يمر عبر الغابات التى غطتها أزهار الجُرَيس(٤٠) الزرقاء الفتانة والحقول التى جُمِع منها قش أول العام، وتُرِك ليجف فى صفوف طويلة. بدت قطعان الأغنام التى قُصَّ صوفها حديثًا عرايا ونحيلة فى المروج. التحق بهذا الطريق الكثير من الرجال، كلهم فرسان، وكلهم فى أزياء غريبة، وكلهم يذهبون تجاه الساحل الجنوبى، حيث استدعى الملك الرجال الذين وقعوا اتفاقياته التى قطعت بطريقة متعرجة؛ لاحظ هوك أن أغلب الخيالة كانوا رماة. يفوق عددهم الجنود بثلاثة أضعاف. كانت الأقواس الطويلة محفوظة فى حقائبها الجلدية المعلقة على أكتاف أصحابها.

كان هوك سعيدًا، إن رجال السير جون هم رفاقه الآن. كان بيتر جودينجتون قائد الرماة رجلاً عادلاً، قاسيًا مع المتخاذلين وحميميًا مع الرجال الذين شاركوه حلمه فى خلق أفضل مجموعة رماة فى إنجلترا، وكان الثانى فى ترتيب

---

(٤٠) أزهار الجُرَيس (Blue Bells): نبات ذو أزهار زرقاء تشبه الجرس تتفتح أزهاره عادة شهرى أبريل ومايو ومن عدة أنواع أهمها البريطانى والاسكتلندى والأسبانى. (المترجم).

القيادة هو توماس إيفل-جولد وهو يكبرهم سناً مثل جودينجتون إذ كان فى حوالى الثلاثين. كان رجلاً كئيبًا، وأبطأ تفكيرًا من قائد الرماة، لكنه كان يساعد بتذمر الرماة الأصغر سناً، الـــذين وجد هوك بينهم أصدقاءه المقربين. كان هناك التوءم توماس وماثيو سكارليت، وكلاهما أصغر من هوك بعام وويـــل مـــن دايل[٤١] الذى كان يغرق المجموعة كلها فى نوبات ضـــحكٍ لا

---

(٤١) كما ذكرنا من قبل، هذه طريقة قديمة فى الإشارة إلـــى الأشـــخاص بالإحالة إلى بلدانهم وفيما يلى هذا من الرواية سنشير إلى هذا الشخص باسم ويل فقط دون ذكر بلدته على سبيل التخفيف. ودايل (Dale) هـــى قرية صغيرة في بيميروكشاير، غرب ويلز، وتقع فى شبه جزيرة دايل الذى يشكل الجانب الشمالى من مدخل مصب ميلفوردهيفن. نزل هنرى تيودور (Henry Tudor) -الذى أصبح فيما بعد ملك إنجلتـــرا هنـــرى السابع- فى خليج ميل قرب دايل فى ١٤٨٥ م قبل معركة بوســـورث. وفى ١٥ فبراير ١٩٩٦ رست ناقلة الـــنفط امبراطـــورة البحـــر (Sea Empress) عند مدخل ميلفوردهيفن وتسرب منها ٧٢٠٠٠ طـــن مـــن النفط الخام مسببة كارثة بيئية. بالقرية قلعة من العصر الفيكتورى تقع على نتوء صخرى وتضم حاليا مركز دراسات ميدانية لدراســـة علـــم الأحياء البحريـــة، والبيولوجيـــا، والجيولوجيـــا، والجيومورفولوجيـــا، والميادين الأخرى ذات الصلة. (المترجم).

ينقطع بتقليده السير چون، كان الأربعة يشربون معًا ويـــأكلون معًا ويتنافسون فيما بينهم، رغم أنه بدا واضحًا لجميع الرماة أن أحدًا لا يستطيع منافسة نيكولاس هوك فى الرمايـــة. تـــدربوا بالسلاح طوال الشتاء وها هم أولاء يقتربون من فرنسا ويقف الرب فى جانبهم. لقد أكد لهم الأب كريستوفر ذلك فى خطبـــة ألقاها فيهم قبل أن يركبوا بيوم. قال الأب كريستوفر فى جدية غير عادية:

- إن الحق يقف فى جانـــب ملكنـــا فـــى نزاعـــه مـــع الفرنسيين، ولن يتخلى عنه الرب، إننا بسبيلنا لنصحح خطأً وستزحف قوات السماء معنا.

لم يفهم هوك من ماهية النزاع سوى أن هناك زواجًا فى مكان ما فى سلسلة نسب الملك هنرى قادته إلى عرش فرنسا، ربما هو الملك الشرعى وربما ليس كذلك، لكن هوك لم يكـــن يكترث. كان فقط سعيدًا بارتـــداء شـــعار كورنويـــل؛ الأســـد والنجمة.

كان سعيدًا لأن ميليساند كانت إحدى النـــساء التـــى تـــم اختيارهن ليرافقن المجموعة، كانت تمتطى فرسًا صغيرةً نحيلة ترجع إلى زوجة السير چون أخت الملك الراحل. وقد أوضـــح السير چون اختياره قائلاً:

- لابد أن نأخذ النساء معنا.

غمغم الأب كريستوفر:

- يا أيها الرب الرحيم.

قال السير چون:

- نحن لا نستطيع أن نغسل ملابسنا الشخصية! ولا نستطيع الحياكة! ولا نستطيع الطهى! لابد من النساء! إن النساء لأشياء مفيدة. نحن لا نريد أن نكون مثل الفرنسيين! نمتطى بعضنا بعضا حين لا تكون النعاج متاحة، ولذا سنأخذ النساء!

كان يحب أن تركب ميليساند إلى جواره ويتحدث معها بالفرنسية ويجعلها تضحك.

وقد قالت ميليساند لهوك فى ذلك المساء الذى اقتربوا فيه من مدينة ذات كنيسة كبيرة:

- إنه لا يكره الفرنسيين حقًا.

كان جرس الكنيسة يدق داعيًا المؤمنين للصلاة، لكن هوك لم يتحرك. كان يجلس مع ميليساند جوار نهر صغير يتدفق بهدوء عبر المروج المعشبة الخضراء. عبر النهر، على

بعد حقلين، كان هنالك مجموعة أخرى من الجنـــود والرمـــاة يُنشئون مخيمًا. كان رجال السير چون قد أوقدوا النيران بالفعل فألقت بضباب دخانها على الأشجار وبـــرج الكنيـــسة، قالـــت ميليساند:

- إنه فقط يحب أن يبدو فظًا بشأن الفرنسيين.

- بل مع كل شخص.

قالت ميليساند:

- إنه طيب فى أعماقه.

ثم مالت إلى الخلف لتريح رأسها على صدره. كانت إذا وقفت تصل بالكاد إلى كتفه. كان يحب الضعف الذى يطل من نظراتها، رغم علمه أن ضعفها الظاهر أمر خادع. فقد علم أن لديها تلك القوة الناعمة المطواعة للقوس، ومثل القوس الـــذى يتبع الوتر وينحنى له وإن كان غير مُوَتَّر. فهى تتشبث بآرائها بقوة. كان يحب هذا فيها ويخاف عليها أيضًا.

قال هوك:

- ربما لم يكن يجب أن تأتى.

- لماذا؟ ألأنه خطر؟

- نعم.

هزت ميليساند كتفيها فى لامبالاة.

- من الأكثر أمنًا أن تكون فرنسيًا فى فرنسا أكثر من أن تكون إنجليزيًا على ما أظن. لو أسروا أَلِيس أو ماتيلدا فستغتصبان.

كانت أليس وماتيلدا هما صديقتيها المقربتين.

تساءل هوك:

- وأما أنت فلا؟

لم تجب ميليساند بشىء لوهلة. ربما فكرت فيما حدث فى سواسون، وقالت فى النهاية:

- أريد أن آتى.

- لماذا؟

قالت ميليساند رغم أن الإجابة كانت واضحة:

- لأكون معك، ما هو قائد الرماة؟

- مثل بيتر جودينجتون؟ إنه فقط الرجل الذى يقود الرماة.

- والرقيب؟

- حسناً، القائد هو من يقود كل جموع الرماة، ربما مائة منهم؟ أما الرقيب فيقود ربما عشرين منهم، كلهم ضباط.

فكرت ميليساند فى ذلك لثوان قليلة.

- يجب أن تكون رقيبًا يا نيك.

ابتسم هوك لكنه لم يقل شيئًا. كان النهر صافيًا كالكريستال فى تدفقه على القاع الرملى حيث ينمو نبات قدم الغراب المائى[٤٢] وتتمايل نباتات الرشاد[٤٣] بضعف، وتتراقص

---

(٤٢) نبات قدم الغراب المائى (water crowsfoot): نبات ينمو فى المياه الراكدة أو الجارية له نوعان من الأوراق؛ أوراق خيطية تنمو تحت الماء وأوراق عريضة على سطح الماء وله زهور بيضاء أو صفراء. (المترجم).

(٤٣) الرشاد (cress): عائلة واسعة من النباتات تعد من أقدم الأنواع على وجه الأرض وينتمى الجرجير إلى هذه العائلة، لبعض أنواعها زهور بيضاء أو صفراء رباعية البتلات. (المترجم).

ذبابات مايو[٤٤] فى طيرانها وبين الحين والآخر يتحرك ظل سمك السلامون المرقط[٤٥] وهو يتغذى. سبحت بجعتان وأربعة من فراخ الإوز بجوار الضفة البعيدة، وبينما يراقبهم هوك رأى ظلا يتحرك فى الماء تحتهم، فقال منبهًا ميليساند:

---

(٤٤) ذبابة مايو (May fly): (واسمها العلمى: Ephemeroptera) هى رتبة من الحشرات المجنحة. يتراوح طولها ما بين ٤ ملليمترات إلى ٥٠ ملليمترًا، تتميز هذه الحشرات بزائدتين شرجيتين طويلتين متعددتا التعقل، بالإضافة إلى زائدة أخرى خيطية طويلة وعديدة التعقل أيضًا قد توجد أحيانًا ما بين الزائدتين الشرجيتين، وتعيش الحورية (الطور غير الناضج) حوالى سنة فى الماء بينما الحشرات البالغة قصيرة الأجل يتراوح عمرها بين بضع دقائق إلى بضعة أيام حسب النوع ويعرف منها حوالى ٢٥٠٠ نوع. (المترجم).

(٤٥) سمك السلامون المرقط أو التروت (Trout): هو اسم لعائلة تشمل العديد من الأنواع السمكية يعيش بعضها فى المياه العذبة والبعض فى المياه المالحة. تتميز بألوانها المرقطة التى تعد نوعًا من التمويه يساعدها على التخفى من أعدائها. زعانفها دون أشواك وجميعها لديها زعنفة شحمية على طول الظهر وتتغذى بشكل عام على الأسماك الأخرى واللافقاريات المائية والرخويات والعوالق الحيوانية. لحومها لذيذة وتحتوى نسبة عالية من الزيوت. (المترجم).

- لا تتحركى.

تحرك ببطء شديد. سحب القوس الموضوع فى جعبتـــه من على كتفه.

- إن السير چون يعرف والدى.

تساءل هوك بدهشة:

- حقًا؟

وفك جراب القوس الجلدى وسحب منه القوس بهدوء.

- جلبير.

قالت ميليساند الاسم ببطء وكأنها لم تعتد نطقه.

- سنيور دى لانفيريل.

لقد قال الأب ميشيل فى فرنسا إن اسم والد ميليساند هو سيد الجحيم؛ "سنيور لانفير"، هكذا قالها بالفرنسية، لكن هـــوك افترض أنه أخطأ السمع وأبدى ملاحظته:

- إنه لورد، هاه؟

قالت ميليساند:

- إن اللوردات لديهم العديد من الأبناء.

واستطردت بالفرنسية:

- وأنا ابنة غير شرعية.

لم يقل هوك شيئًا. أسند قامة القوس على جذع شجرة دردار وبدأ يثنيه ليعقد الوتر على طرفه العلوى.

قالت ميليساند بمرارة:

- أنا ابنة غير شرعية ولهذا السبب وضعنى فى دير الراهبات.

- ليخفيك.

قالت ميليساند:

- وليحمينى على ما أظن، لقد كان يدفع المال إلى رئيسة دير الراهبات. كان يدفع لطعامى ولإقامتى. قال أننى سأكون آمنة هناك.

- أمن الأمان أن تكونى فتاة خادمة؟

- كانت أمى فتاة خادمة، فلم لا أكون كذلك؟ ولربما أصبحت راهبة ذات يوم.

قال هوك:

- أنت لست فتاة خادمة. أنت ابنة لورد.

أخذ سهمًا من حقيبته منتقيًا ذا الرأس الطويـــل، الحـــاد، الثقيل. كان يمسك بالقوس أفقيًا على حجره ووضع السهم فـــى القوس شادًا مؤخرة السهم ذات الريش علـــى الـــوتر. تحـــرك الظل. سأل هوك:

– إلى أى مدى تعرفين أباك؟

قالت ميليساند:

– لقد قابلته مرتين فقط، إحداهما حين كنـــت صـــغيرة ولست أذكرها جيدًا، والأخرى قبل أن أذهب إلى الدير، لقد أحببته.

وتوقفت تبحث عن الكلمات الإنجليزية المناسبة.

– لقد أحببته فى البداية.

سأل هوك دون اهتمام:

– هل أحبكِ هو؟

كان تركيزه منصبًا على الظل أكثر من ميليـــساند. شـــد القوس الآن ولا يزال يمسك أفقيًا ولم يكن ينوى رفعه عموديًا فحركة كهذه قد تدفع الظل ليتحرك سريعًا ضد التيار.

– كان شديد...

وتوقفت باحثة عن الكلمة.

- الأناقة. كان طويلاً. وكان لديه شعارٌ جميل؛ شمس صفراء عظيمة ذات أشعة ذهبية وعلى قرص الشمس هنالك رأس....

قاطعها هوك:

- نسر.

قالت ميليساند بالفرنسية:

- صقر.

قال هوك:

- صقر إذن.

وتذكر الرجل ذا الشعر الطويل الذى ظل يراقب قتل الرماة أمام كنيسة القديس أنطوان الصغير وقال بفظاظة:

- لقد كان فى سواسون.

ثم توقف وقد سحب القوس جزئيًا. انحرف الظل مع التيار، وظن هوك أنها ستبتعد مختفية مع التيار لكنها ضربت الماء بذيلها وعادت عند الضفة البعيدة.

كانت ميليساند تحدق فى هوك.

- هل كان هناك؟

قال هوك:

- ذو شعر طويل أسود.

- لم أره!

قال هوك:

- لقد دفنت رأسك فى كتفى أغلب الوقت، لم تريدى أن تنظرى، كانوا يعذبون الرجال، يفقأون أعينهم، يُقطعونهم.

صمتت ميليساند لوقت طويل. رفع هوك القوس قليلاً. ثم تحدثت مرة أخرى لكن بصوتٍ أضعف قائلة:

- يدعى والدى بشىء آخر؛ سنيور دى انفير.

قال هوك:

- هذا هو الاسم الذى سمعته.

قالت ميليساند ثانية:

- سينيور دى انفير تعنى سيد الجحيم، ربما لأن لانفيريل تقارب (لانفير)، و(لانفير)[٤٦] هو الجحيم،

(٤٦) الكلمة الفرنسية هى: l'enfer. (المترجم).

ولكن ربما لأنه قاس فى المعارك لقد أرسل العديد من الرجال إلى الجحيم على ما أظن، والبعض إلى الجنة أيضًا.

كانت طيور السنونو ترفرف بسرعة فوق النهر ورأى هوك بطرف عينه الوميض الأزرق اللامع لسرب من طيور الرفراف[٤٧]. سكن الظل مرة أخرى؛ سحب الوتر إلى الخلف

---

(٤٧) طيور الرفراف (Kingfisher): وله فى اللغة العربية عدة أسماء القرلى والرفراف وأبو نقار هو من الطيور ذات المنقار الطويل يتغذى على الحشرات والضفادع والعظايات، بعد أن ينقض عليها من عشه العالى، ويبنى عشه فى حجر على ضفاف الجداول والأنهار حيث تكثر الأسماك التى يتغذى عليها، ويتراوح حجمه بين ١٠ سم – ٤٥ سم. من الرفراف فى أنحاء العالم ما يزيد على ٨٠ نوعًا، وهى تتراوح حجمًا من الرفراف الصغير الأحمر إلى الرفراف الإفريقى العملاق والكوكابورا الأسترالى الضاحك، ومع أن بعض أنواع الرفراف تلتقط الأسماك وتأكلها، فإن العديد من أنواعها يعيش بعيدًا عن الماء ويتغذى على فرائس أخرى، لطيور الرفراف أجسام ممتلئة، ولمعظم أنواعها مناقير كبيرة طويلة حادة الطرف وذيل قصير. تضع طيور الرفراف بين ٢-٧ بيضات. معظم أنواع طيور الرفراف تراقب فرائسها من مجثم، مثل غصن عار مشرف على نهر أو فى غابة، وعندما يلمح الطائر سمكة=

أكثر. لم يستطع أن يسحبه إلى مداه الأقصى، فقد كان جسد ميليساند الممشوق يعيقه، لكن حتى سحب الوتر إلى نصفه يجعل من القوس الحربى الكبير سلاحًا مريعًا.

قالت ميليساند:

- إنه ليس رجلاً سيئًا.

وبدت وكأنها تحاول إقناع نفسها بهذه الحقيقة.

قال هوك:

- لا تبدين متأكدة.

- إنه أبى.

- الذى وضعك فى دير الراهبات.

= فى الماء أو حشرة أو عظاءة على أرض الغابة، فإنه ينقض ليلتقط فريسته بمنقاره. أقدام هذا الطائر تكيفت للجُثوم بحيث تكون ثلاثة أصابع من القدم موجهة إلى الأمام والرابع موجه إلى الخلف، وهو ما يوفر له قوة مسك قوية. لأنواع عديدة من طيور الرفراف ريش زاه أشبه بالجواهر، وكثيرًا ما يكون بأنماط ذات بريق معدنى أزرق وأخضر وكستنائى وأبيض. (المترجم).

قالت بحدة:

- لم أكن أريد الذهاب! لقد أخبرته! لا! لا!

ابتسم هوك:

- لم تريدى أن تصبحى راهبة، هاه؟

- لقد عرفت الراهبات. كانت أمى تأخذنى لزيارتهن. لقد أعطيناهن...

وتوقفت بحثًا عن الكلمات الإنجليزية وعندما فشلت فـــى ذلك استطردت بالفرنسية:

- الخوخ والمشمش والسفرجل.

وهزت كتفيها استهجاناً.

- لست أدرى ماذا تسمى هذه الاشياء. فاكهة؟ لقد أعطينا الراهبات فاكهة. لكنهن لم يكن قط ودوداتٍ معنا. لقــد كن فظيعات.

قال هوك:

- لكن والدك أرسلك إلى هناك على أى حال.

قالت بحزن:

– لقد قال إن عليّ أن أصلى من أجله. هذا واجبى. لكن أتدرى ما صليت من أجله بدلاً من ذلك؟ لقد صليت داعيةً أن يأتى من أجلى يومًا ما، أن يأتى ممتطيًا صهوة حصانه الكبير عبر بوابة الدير ويأخذنى بعيدًا.

– ألهذا تريدين الذهاب إلى فرنسا؟

هزت رأسها نفيًا.

– أريد أن أكون معك.

– لن أروق لأبيكى.

نفت هذه الفكرة بأن هزت كتفيها.

– ولماذا يجب أن يرانا ثانيةً على الإطلاق.

صوب هوك تحت الظل رغم أنه لم يكن يفكر فى هدفه بل كان يفكر بدلاً من ذلك فى الرجل الطويل ذى الشعر الأسود الذى لم يفعل شيئًا ليوقف التعذيب والألم. كان يفكر فى سيد الجحيم وقال بصوت أجش:

– عشاء.

وأطلق القوس.

انطلق السهم من الوتر محلقًا يلمع ريشه الأبيض في ضوء الشمس الغاربة. اندفع إلى الماء الذى اضطرب فجأة. واضطربت أسماك السلمون مندفعةً ضد التيار واستمر الاضطراب، وقفز هوك إلى النهر.

لقد اشتبكت سمكة الكركى فى السهم الذى علق فى الضفة البعيدة للنهر، وكان على هوك أن يشد بقوة ليحرر السهم؛ حمل السمكة عائدًا. كانت تلتف على السهم وتحاول عضه لكنه ما أن وصل إلى الضفة الغربية للنهر حتى دق جمجمتها بمقبض خنجره. ماتت السمكة الضخمة فى الحال. كانت تقريبًا بطول قوسه. سمكة صيادة ضخمة قاتمة ذات أسنان متوحشة.

قالت ميليساند بالفرنسية فى بهجة:

– سمكة كركى!

قال هوك:

– سمكة كركى، وسنقيم وليمة جيدة على سمكة الكركى.

وبقر بطن السمكة على الضفة وألقى بالأحشاء إلى النهر.

قاد السير چون فى اليوم التالى فريقًا من الجنود والرماة غربًا ليشتروا الحبوب، والبازلاء المجففة، واللحم المدخن. أوكل السير چون إلى هوك المهمة السهلة؛ وهى أن يبقى فى القرية تحت التلال ويحرس الأجولة والبراميل التى كانت مكدسة على عربة وقفت خارج حانة تدعى (الفأر والجبن). كان حصانا جر العربة قد رُبِطَا فى إسطبل القرية. وضع هوك قوسه غير موتر على طاولة خارج الحانة جوار قدر من الجعة أعطاه له حارس الحانة، لكن هوك كان قائمًا فوق العربة يعبئ الطحين فى برميل. كان الأب كريستوفر يتجول دون هدف مرتديًا قميصًا وسروالاً قصيرًا وحذاء ذا رقبة طويلة، يحدق فى الأكواخ، ويداعب القطط، ويغازل النساء اللاتى يغسلن الملابس فى الجدول الذى يحد القرية من أحد جوانبها. وفى النهاية عاد إلى حانة (الفأر والجبن) وألقى حقيبة صغيرة من النقود الفضية على الطاولة. كانت وظيفة القس أن يدفع لقاء أى طعام قد يرغب فلاح أو قروى فى بيعه. تساءل القس:

– لماذا تكدس الدقيق مضغوطًا أيها الشاب هوك؟

– كنت أضغطه بشدة أيها الأب. ملح وبندق ودقيق!

عبس الأب كريستوفر باشمئزاز مبالغ فيه.

- هل تملح الدقيق؟

قال هوك مفسرًا:

- هناك طبقة من الملح فى قاع البرميل حتى لا يمتص الدقيق الرطوبة، ثم أضيف البندق حتى يبقى طازجًا.

ووضع هوك أمام الأب كريستوفر بعض فروع البندق التى جلبها من سياج الشجيرات وجردها من أوراقها.

تساءل القس:

- وهل ينجح هذا؟

- بالتأكيد ينجح! ألم تجلب قط دقيقًا من الطاحونة؟

قال القس محتجًا:

- هوك! أنا رجل الرب، نحن لا نعمل فى الواقع!

وضحك.

دفع هوك بزوجٍ من الفروع إلى الصندوق، ثم اعتدل واقفًا ونفض يديه وهو يومئ إلى الدقيق:

- نعم، حسنًا، هذا عمل جيد.

ابتسم الأب كريستوفر برقة، واتكأ إلى الخلف ليحدق فى الغابة التى ألقت الشمس بضوئها عليها تتسلق التلال فوق الأسطح المسقوفة بالقش وقال:

- يا رب، إنى أحب إنجلترا، والرب (وحده) يعلم لماذا يريد الملك الشاب فرنسا.

قال هوك:

- لأنه ملك فرنسا.

هز الأب كريستوفر كتفيه استهجانًا.

- إنه يطالب بعرش فرنسا، يا هوك، وكذلك آخرون. لو أننى ملك إنجلترا لظللت هنا. أهذه الجعة لك؟

- نعم، يا أبتى.

قال الأب كريستوفر:

- كن مسيحيًا طيبًا وأعطنى بعضها.

ثم رفع القدر تجاه هوك وشرب منه.

- لكننا ذاهبين إلى فرنسا وسننتصر بلا شك.

- حقا؟

قال الأب كريستوفر بمنطق مفاجئ:

- الرب وحده يعلم إجابة ذلك يا هوك، هناك الكثير من الرجال الفرنسيين الأقوياء! وإذا نحوا الخلافات التى بينهم جانبًا واستداروا إلينا؟ ما زال لدينا هذه الأشياء.

وسحب قوس هوك واستطرد:

- بينما ليس لديهم.

قال هوك وهو يقفز من العربة ويجلس جوار القس:

- هل لى أن أسأل عن شىءٍ أيها الأب؟

- أوه، لأجل المسيح المبارك لا تسألنى إلى أى جانبٍ يقف الرب.

- لقد أخبرتنا أنه إلى جانبنا!

- هذا صحيح يا هوك، لقد فعلت، وهناك الآلاف من القساوسة الفرنسيين يقولون الشىء ذاته للفرنسيين!

ابتسم الأب كريستوفر ابتسامة عريضة واستطرد:

- دعنى أعطك نصيحة من قسيس يا هوك، ضع ثقتك فى القوس المصنوع من خشب البلوط يا بنى وليس فى كلمات أى قسيس.

لمس هوك القوس وتحسس الشحم الأملس الذى دلَّك بـــه الخشب.

- ماذا تعرف عن القديس كريسبينيان يا أبتى؟

قال الأب كريستوفر:

- أوه، استفسار لاهوتى.

شرب بقية جعة هوك، ثم قرع الوعـــاء علـــى المنـــضدة إشارةً إلى أنه يريد المزيد.

- لست متأكدًا أننى أتذكر الكثير! لم أكن أستذكر حقًا كما ينبغى لى فى أكسفورد[٤٨]، كان هنـــاك الكثيـــر مـــن الفتيات اللاتى يعجبننى.

وابتسم للحظة واستطرد:

---

(٤٨) جامعة أوكسفورد (The University of Oxford): تعد أقدم جامعة فى العالم الغربى المتحدث بالإنجليزية ومن أفضل جامعات العالم وتقع فى مدينة أوكسفورد فى إنجلترا ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ إنـــشائها إلا أنها ترجع إلى أقل تقدير إلى القرن الحادى عـــشر وهـــى عـــضو مجموعة راسل للجامعات.. (المترجم).

- كان ثمة مبغى هناك يا هوك حيث ترتدى كل الفتيات كالراهبات. كنت تستطيع الدخول بصعوبة بسبب القساوسة! لقد قابلت أسقف أكسفورد هناك نصف دزينة من المرات على الأقل، كانت أيامًا سعيدة.

وتنهد وابتسم إلى هوك ابتسامة جانبية.

- وإذن، ماذا أعرف؟ حسنًا، كان لكريسبينيان أخ يدعى كريسبين، رغم أن البعض يقول إنهما لم يكونا أخوين. البعض يقول إنهما كانا من النبلاء، والبعض ينفى ذلك. ربما كانا إسكافيين وهو عمل لا يبدو مناسبًا للنبلاء، أليس كذلك؟ كانا بالتأكيد رومانيين. لقد عاشا منذ حوالى ألف سنة يا هوك وهما بالطبع شهداء.

قال هوك:

- ولذا، كريسبينيان فى الجنة.

قال الأب كريستوفر مؤكدًا:

- ويعيش هو وأخوه عند يد الرب اليمنى حيث أتمنى أن يحصلا على خدمة أسرع منى!

قرع المائدة ثانية. جاءت فتاة تركض من بـــاب الحانـــة ليستقبلها القس محييًا إياها بابتسامة واسعة قائلاً:

- المزيد من الجعة يا حبيبتى الجميلة.

وألقى بقطعة من نقود السير چون على المائدة.

- قدرين، يا حلوتى.

وابتسم ثانية ثم تنهد عندما انصرفت الفتاة .

- أوه! أتمنى لو عدت شابًا ثانيةً.

- أنت شاب أيها الأب.

- أيها الرب العزيز، أنا فى الثالثة والأربعين! ســأموت قريبا! سأموت كما مات كريسبينيان لكنه كان رجــلاً صعب القتل.

- أكان كذلك؟

عبس الأب كريستوفر.

- أنا أحاول أن أتذكر، لقد عُذِّب هو وأخوه لأنهما كانـــا مسيحيين. لقد شُدَّا على المقلعة ودفعــت المــســامير تحت أظافر أصابعهما، وقطعت شرائح من لحمهمــا،

ولكن أيًا من هذا لم يقتلهما! كانا يغنيان مدائح فى الرب لمعذبيهما طوال الوقت! لست متأكدًا أن باستطاعتى أن أكون بهذه الشجاعة.

رسم علامة الصليب، وابتسم إذ جاءت الفتاة تضع قدور الجعة. أشار إليها بيده لتحتفظ بباقى النقود، واستطرد وهو مستمتع بما يقصه:

- هكذا كانا، وقد قرر الرجل الذى كان يعذبهما أن يقضى عليهما سريعًا ربما لأنه تعب من سماع غنائهما ولذا ربط أحجار الرحى حول رقبتيهما وألقى بهما فى النهر. لكن هذا لم ينجح لأن أحجار الرحى طفت على الماء. ولذا سحبهما معذبهما خارج النهر وألقى بهما إلى النار! ولكن حتى هذا لم يقتلهما. استمرا فى الترتيل ولم تمسسهما النار وملأ الرب معذبهما باليأس وألقى الرجل البائس نفسه فى النار عوضًا عنهما فاحترق لكن القديسين عاشا.

ظهرت مجموعة صغيرة من راكبى الجياد عند نهاية طريق القرية. حدق بهم هوك لكن أحدًا منهم لم يكن يرتدى زى

السير چون كورنويل ولذا استدار إلى القس ثانيـــة. قـــال الأب كريستوفر:

- لقد حفظ الرب الأخين من التعذيب والغــرق والنـــار، لكن لسبب ما تركهما يموتان على أى حال. لقد حـــزّ الامبراطور رأسيهما وقد أوقف هذا غناءهما. هذا كفيل بوقف غنائهما، أليس كذلك؟

قال هوك فى انبهار:

- لكن كان هذا معجزة.

قال الأب كريستوفر مؤيدًا:

- لقد كانت معجزة أن أمكنهما البقاء طويلاً، ولكن لماذا تهتم بكريسبينيان؟ إنه حقًا قديس فرنسى، ليس منا. لقد ذهب هو وأخوه إلى فرنسا ليقوما بعملهما.

تردد هوك، لم يكن متأكدًا إذا كان يريد الاعتراف بأن هذا القديس مقطوع الرأس تحدث إليه ولكن قبـــل أن يقـــرر ســـمع صوتًا متهكمًا يقول:

- بحـــق الرب! انظروا من لدينا هنا، السيد نيكـــولاس هوك!

رفع هوك بصره ليرى السير مارتين ينظر شذرًا بانتصار من على حصانه. كان هناك ثمانية من راكبى الخيـول كلهـم باستثناء السير مارتين يرتدون شعار اللورد سلايتون؛ الهـلال والنجوم. كان بينهم توماس بيريل وأخوه روبرت، وكذلك قائـد رماة اللورد سلايتون؛ ويليام سنوبول. كان هوك يعرفهم جميعًا.

تساءل الأب كريستوفر:

- أهم أصدقاؤك؟

قال السير مارتين:

- لقد اعتقدت أنك مت يا هوك.

كان يرتدى رداء القساوسة الذى ارتفع إلى أعلى فبـدت ساقاه النَحيلتان تمتدان إلى جانبى الحصان، ورغم أن القُـسس ممنوعون من حمل الأسلحة ذات النصال فإنه كان يرتدى سيفًا عتيق الطراز على مقبضه العريض علامة الصليب، وأضاف:

- لقد تمنيت أن تكون قد لقيت حتفك، هلكت، ولُعِنـت، ومت.

وعبس وجهه الطويل فيما يبدو أنه ابتسامة.

قال هوك باقتضاب:

- أنا حىّ.

قالَ السير مارتين:

- وترتدى الزى العسكرى لرجلٍ آخر، وهذا ليس بشيءٍ صائبٍ يا هوك، ليس صوابًا على الإطلاق، هذا شيءٌ يتحدى القانون والكتاب المقدس، ولن يعجب هذا اللورد سلايتون. أهذه لك؟

وأشار إلى العربة.

قال الأب كريستوفر بلطف:

- هذه ملكنا.

وبدا أن السير مارتين لاحظ وجود الأب كريستوفر للمرة الأولى. حدَّق بشدة فى الرجل ذى الشعر الرمادى للحظات ثم هز رأسه وقال:

- أنا لا أعرفك ولا أحتاج أن أعرفك، أنا أحتاج الطعام، هذا ما جئنا من أجله، وها هوذا...

وأشار بإصبعه النحيل إلى العربة واستطرد:

- ها هوذا الطعام. مَنٌّ مِن السماء. لقد أرسل الرب إلينا هوك كما أرسل الغربان لتطعم إيليا التشيبى.

ووجد ما قاله مسليًا وضحك لنفسه على ما قاله، ووشت ضحكته بمسحة من الجنون.

قال الأب كريستوفر وكأنه يتحدث إلى طفل صغير:

- لكن هذا الطعام لنا.

قال السير مارتين باحتقار وهو يشير إلى هوك.

- لكنه، إنه، إنه، إنه.

ومع كل تكرار يدفع إصبعه تجاه هوك.

- قطعة الروث التى تقف إلى جانبك، هو من رجال اللورد سلايتون، وهو خارج عن القانون.

أدار الأب كريستوفر وجهًا مندهشًا إلى هوك وسأله:

- حقًا؟!

أومأ هوك برأسه ولم يقل شيئًا.

قال الأب كريستوفر بهدوء:

- حسنًا، حسنًا.

قال السير مارتين فى هياج:

- إن الخارج عن القانون لا يمكن أن يمتلك شيئًا، هذه وصية الكتاب المقدس، هذا الطعام لنا.

أجاب الأب كريستوفر بهدوء مبتسمًا:

- لا أظن ذلك.

قال السير مارتين فى عنف مفاجئ:

- يمكنك أن تظن كما تشاء. لأننا سنأخذه على أى حال، وسنأخذ هذا.

وأشار إلى هوك.

تساءل الأب كريستوفر بلطف وهو يومئ إلى معطف هوك.

- هل تعرف هذا الزى العسكرى؟

قال السير مارتين:

- إن الخارج على القانون لا يستطيع ارتداء أى زى عسكرى.

بدا سعيدًا وكأنه يتوقع الفرحة بموت هوك، والتفت على سرجه إلى الأخ بيريل الأكبر قائلاً:

- توم؟ انزع عنه هذا المعطف وقيد يديه بإحكام وأحضره.

وضع ويليام سنوبول سهمًا فى قوسه، وفعل باقى رماة السير مارتين مثله، وبهذا صارت نصف دزينة من السهام مصوبةً نحو هوك، بينما انزلق توم بيريل من على السرج، وقال:

- كم كنت أنتظر هذه اللحظة.

كان وجهه يشبه السير مارتين بأنفه الطويل وفكه البارز الطويل وقد امتلأ بابتسامة.

- هل نشنقه هنا يا سير مارتين؟

قال الفس:

- سيريح هذا اللورد سلايتون من عناء المحاكمة ومن إغراء الرحمة.

وضحك على نحو متقطع مرة أخرى.

رفع الأب كريستوفر يده النحيلة محذرًا، لكن توم بيريل تجاهل هذا التحذير، ودار حول المائدة، وما أن وصل إلى هوك حتى توقف إذ سمع صوت سيف يخرج من غمده.

استدار السير مارتين.

كان هنالك فارس وحيد يراقب المشهد من نهاية القرية. خلفه المزيد من الخيالة لكنهم على ما يبدو تلقوا أمرًا بالانتظار.

قال الأب كريستوفر بهدوء شديد:

- إننى أنصحكم حقًا، انزعوا هذه السهام من الأوتار.

لكن أحدًا من الرماة لم يستمع إلى نصيحته. نظروا بتوتر إلى السير مارتين، لكنه بدا لا يدرى ماذا يفعل. وعندها لمس الفارس بمهمازه بطن حصانه.

قال ويليام سنوبول طالبًا الأوامر:

- سير مارتين!

لكن السير مارتين لم يقل شيئًا. راقب الجنود المندفعين نحوه وحسب، أثارت حوافر الحصان القادم هبات من الغبار فى عدوه. سحب راكبه سيفه إلى الوراء. اندفع متجاوزًا المجموعة وهو يضرب أحدهم بسيفه.

ضربت صفحة السيف جمجمة روبرت بيريل بعنف؛ الرامى الذى وقع اختيار الفارس عليه عشوائيًا، سقط ببطء من على السرج ووقع على أرض الشارع بعنف؛ انطلق السهم من يده المرتخية وانغرس إلى نصفه فى جدار الحانة مخطئًا هوك

ببعض البوصات. تراجع توم بيريل ليساعد أخاه الذى تحــرك متقلبًا فى التراب، ثم ظل ساكنًا، بينما كبح السير چون جمـــاح حصانه. غمز السير چون حصانه بمهمازه ثانية وخبَّ ناحيتهم، وهنا قام رماة السير مارتين بخلع سهامهم من الأوتـــار علـــى عجل، فقام السير چون بالإبطاء من سرعة حصانه ثم شد لجامه فأوقفه.

قال الأب كريستوفر بسعادة.

- تحياتى يا سير چون.

تساءل السير چون بخشونة:

- ما الذى يحدث؟

نهض روبرت بيريل على قدميه مترنحًا وقد غطت الدماء الجانب الأيمن من رأسه. بقى توم بيريل ساكنًا الآن وقد ثبــت عينيه على السيف الذى ضرب أخاه.

شرب الأب كريستوفر بعض الجعة ثم مسح شفتيه، وأشار إلى السير مارتين ورماته قائلاً:

- هؤلاء الرجال يا سير چون أبدوا رغبـــة فـــى أخــذ طعامنا، وقد نصحتهم ألا يقوموا بتصرف كهذا لكــنهم

أصروا أن هذا الطعام لهم، لأنه تحت حماية الشاب هوك؛ وهو حسب قول هذا القس المبجل خارج على القانون.

تمكن السير مارتين من الحديث أخيرًا:

- نعم، إنه كذلك، مدانٌ قانونًا وملعون!

قال السير چون بشكل قاطع:

- أنا أعرف أنه خارج على القانون، وكان الملك أيضًا يعلم هذا عندما أعطى هوك لى، هل تعنى بقولك أن الملك ارتكب خطأً؟

تطلع السير مارتين إلى هوك بدهشة لكنه تمالك نفسه وقال:

- إنه خارج عن القانون.

واستطرد فى إصرار:

- إنه رجل اللورد سلايتون.

قال السير چون:

- إنه رجلى.

بدأ السير مارتين بالحديث:

- إنه...

ثم ارتج عليه تحت وطأة نظرات السير چون.

كرر السير چون وقد امتلأ صوته بالخطورة:

- إنه رجلى، يقاتل من أجلى وهذا يعنى أن أقاتل من أجله. هل تعرف من أنا؟

وانتظر السير چون اعترافًا من القس، لكن نظرات السير مارتين كانت قد هامت بغموض وصار الآن يحدق فى السماء وكأنه يتواصل مع الملائكة فاستطرد السير چون:

- أخبر سيده أن يناقش الأمر معى.

أجاب ويليام سنوبول بعد نظرة عابرة إلى السير مارتين:

- سنفعل، يا سير، سنفعل.

تحدث السير مارتين فجأة:

- لقد أكل إيليا التشيبى الخبز واللحم من غدير كريث، هل تعرف ذلك؟

كان السؤال موجهًا بجدية إلى السير چون الذى بدا متأملاً واستطرد السير مارتين، كأنه يفشى سرًا عظيمًا:

- فى غدير كريث بإمكان رجل أن يخبئ نفسه.

قال السير چون:

- يا عيسى الباكى.

تنهد الأب كريستوفر قائلاً:

- ولا عجب.

ثم رفع قوس هوك برفق، وضرب به بقوة على الطاولة، وجعلت الضجة الخيول تجفل، وأعادت عينى السير مارتين إلى أرض الواقع. قال الأب كريستوفر وهو يبتسم ابتسامة ملائكية تجاه السير چون:

- نسيت أن أخبرك أننى أنا الآخر قس، لذا دعنى أمنحك بركة.

سحب صليبًا ذهبيًا كان يخبئه تحت قميصه، وأمسك به تجاه رجال اللورد سلايتون، وقال:

- أرجو أن يريحكم سلام ومحبة سيدنا المسيح عيسى ويساعدكم بينما تأخذون أفواهكم المنتنة وحضوركم القذر بعيدًا عن مجال رؤيتنا.

ورسم علامة الصليب تجاه الفرسان واستطرد:

- وهكذا وداعًا.

حدق توم بيريل فى هوك، وبدا للحظة أن كراهيته قد تغلب حذره، لكنه بعد وهلة استدار وساعد أخاه ليمتطى حصانه ثانية بينما هَوَّم السير مارتين ثانية فى الأحلام، سامحًا لويليام سنوبول أن يقوده بعيدًا، وتبعهم بقية راكبى الخيول.

نزل السير چون من على سرجه، وأخذ جعة هوك وشربها.

- ذكرنى لم أنت خارج عن القانون يا هوك؟

اعترف هوك:

- لأننى ضربت قسيسًا يا سير چون.

تساءل السير چون:

- ذلك القس؟

وأشار بإبهامه إلى راكبى الخيل المنسحبين.

- نعم يا سير چون.

هز السير چون رأسه.

- لقد ارتكبت خطأ، يا هوك، لقد ارتكبت خطأً كبيرًا، لم يكن عليك أن تضربه.

قال هوك بتواضع:

- نعم يا سير چون.

قال السير چون:

- كان عليك أن تشق الأحشاء العفنة لهذا اللقيط الملعون وتنتزع قلبه عبر دبره النتن.

ونظر إلى الأب كريستوفر وكأنه يرجو أن تكون كلماته قد أغضبت القس، لكن الأب كريستوفر كان يبتسم فقط. تساءل السير چون:

- هل ابن الحرام هذا مجنون؟

قال الأب كريستوفر:

- جدًا، وهكذا كان نصف القديسين وأغلب الرسل. لست أظنك أتباع طريق أرميا، يا سير چون؟

قال السير چون:

- اللعنة على أرميا، واللعنة على لندن، لقد استدعيت إلى هناك ثانية أيها الأب. لقد طلب الملك هذا.

- فليبارك الرب ذهابك هناك يا سير چون، وعودتك.

قال السير چون:

– وإذا لم يعقد الملك هارى سلامًا، سأعود قريبًا، قريبًا جدًا.

قال الأب كريستوفر بثقة:

– لن يكون هناك أى سلام، لقد شُدَّ القوس واشتاق السهم للإطلاق.

– فلنأمل أن يحدث هذا. إننى أحتاج إلى المال وستجلبه حربٌ جيدةٌ.

قال الأب كريستوفر بلطف:

– سأصلى من أجل الحرب إذن.

قال السير چون:

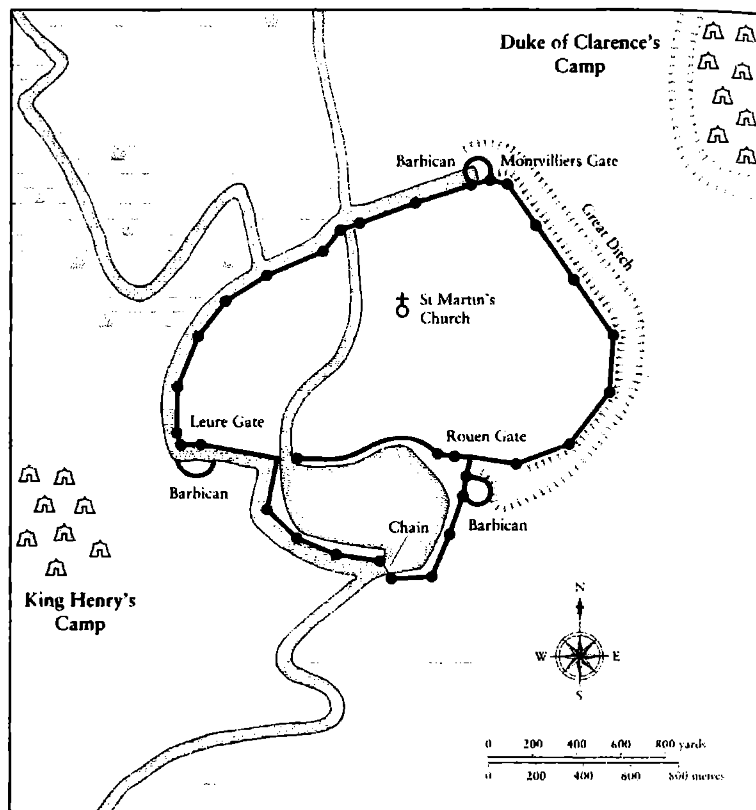
– إننى لا أصلى منذ شهور لشىء آخر.

ودار الآن بخلد هوك أن صلوات السير چون استجيبت، لأنهم قريبًا، قريبًا جدًا سيبحرون إلى الحرب، سيبحرون ليلعبوا لعبة الشيطان، سيبحرون إلى فرنسا، إنهم ذاهبون إلى الحرب.

الجزء الثانى

نورماندى(١)

(١) نورماندى (Normandy): منطقة جغرافية فى شمال فرنسا. تنقسم إلى منطقتين إداريتين هما: نورماندى العليا التى تتـألف مـن مقـاطعتين فرنسيتين: مَـصَبّ الـسين (Seine-Maritime) وأويـر (Eure)، أمـا نورماندى السفلى فتتألف من مقاطعـات أورن (Orne)، وكالفـادوس (Calvados)، ومانش (Manche) ودوقية نورماندى التاريخيـة كانـت دوقية مستقلة على امتداد مساحة نورماندى. (المترجم).



Duke of Clarence's Camp
Barbican
Monrvilliers Gate
Great Ditch
St Martin's Church
Leure Gate
Rouen Gate
Barbican
Chain
Barbican
King Henry's Camp
N
W
E
S
0 200 400 600 800 yards
0 200 400 600 800 metres

Harfleur

كان من الصعب بمكان على نيك هوك أن يصدق أن العالم به كل هذا العدد من السفن. كان قد رأى الأسطول لأول مرة عندما احتشد رجال السير چون على شاطىء ساوث- هامبتون[٢]، حتى يستطيع ضباط الملك عَدَّ المجموعة. لقد اتفق السير چون على تزويد الملك بتسعين راميًا وثلاثين جنديًا، ووافق الملك أن يدفع كامل المخصصات المالية التى يدين بها لهؤلاء الرجال عندما يصعد الجيش على السفن، ولكن يجب التأكد أولاً من عدد وحالة مجموعة السير چون. وقف هوك فى الصف مع رفاقه يحدق برهبة إلى هذا الأسطول. هنالك سفن راسيةٌ مَدَّ بصره، الكثير من السفن لدرجة أن هياكلها حجبت مرأى الماء. ادعى بيتر جودينجتون أن هناك ألفًا وخمسمائة

---

(٢) ساوث هامبتون (Southampton): هى مدينة ساحلية جنوب إنجلترا، من منطقة هامبشير وقد ورد ذكرها فى كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى ويبلغ تعدادها السكانى حاليًا نحو ٢٣٤٢٢٤. (المترجم).

سفينة تنتظر لتنقل الجيش، ولم يصدق هوك أن كل هذا العـــدد من السفن يمكن أن يوجد بالفعل، لكنها كانت هناك أمامه حقاً.

كان مفتش الملك وهو رجلٌ كهل، راهبًا، ذا وجه مستدير ويداه متسختان بالحبر، سار أمام صف الجنود ليتأكد أن الـــسير چون لم يستأجر معاقين ولا صبية، ولا عجائز. وبرفقته فارس متجهم الطلعة يرتدى الزى الملكى للجيش مهمته فحص أســـلحة المجموعة. لم يجد أى شىء معيب، ولم يكن يتوقع أن يكتـــشف أى تقصير فى إعدادات السير چون كورنويل، قال الراهب فـــى لهجة مؤنبة عندما وصل نهاية الصف:

- إن تعاقد السير چون ينص على تسعين رامى أسهم.

وافقه الأب كريستوفر بمرح قائلاً:

- إنه ينص على هذا فى الواقع.

كان السير چون مع الملك فى لندن، والأب كريستوفر هو المسئول عن قيادة المجموعة عوضًا عنه فى غيابه.

قال الراهب بشدةٍ مدعاة:

- ولكن هناك اثنين وتسعين راميًا.

قال الأب كريستوفر:

- سيلقى السير چون بأضعف اثنين من فوق ظهر المركب.

قال الراهب:

- سيفى هذا بالغرض! سيفى بالغرض!

ونظر إلى رفيقه المتجهم الذى أومأ بالموافقة على ما رأى، فقال الراهب مؤكدًا للأب كريستوفر:

- سيأتيك المال هذه الظهيرة.

وقال وهو يمتطى حصانه إلى حيث تنتظر بقية المجموعات نفس الفحص:

- فليبارككم الرب كافة.

وعدا كتبته خلفه فى عجلة وهم يقبضون بإحكام على حقائبهم الكتانية التى تملؤها الوثائق.

كانت سفينة هوك وتدعى (مالك الحزين)؛ سفينة تجارية قصيرة ذات قاع مستدير الشكل، شديد الانحدار، لها مؤخرة مربعة، ولها صارٍ سميك، ترفرف عليه راية السير چون كورنويل عليها شارة الأسد، لاحت فى الأفق بالقرب من (مالك

الحزين) سفينة الملك الخاصة التى تدعى (الثالوث المقدس الملكية). كانت بحجم دير وتزيدها القلاع الخشبية التى أضيفت إلى أقواسها ومؤخرتها حجمًا، طليت القلاع بالألوان؛ الأحمر والأزرق والذهبى. رفعت عليها الرايات الملكية مما جعل قمة (الثالوث المقدس الملكية) تبدو ثقيلة مثل عربة مزرعة حُمِّلت حتى أعلاها بحزم الحصاد. زُين سياجها بدروع بيضاء رسم عليها صلبان حمراء وارتفعت عاليًا ثلاثة أعلام ضخمة. وفى مقدمة السفينة المتبخترة ارتفع صارٍ صغير يحمل راية حمراء تزينها أربع دوائر بيضاء تتصل بخطوط سوداء. وقد شرح له الأب كريستوفر وهو يرسم علامة الصليب:

- هذا العلم فى مقدمة السفينة يا هوك هو راية (الثالوث المقدس).

حدّق هوك ولم يقل شيئًا.

استطرد الأب كريستوفر بمكر:

- ربما تظن أن (الثالوث المقدس) يحتاج إلى ثلاثة أعلام لكن التواضع هو الذى يسود السماء وبالتالى فواحدٌ فقط يفى بالغرض، هل تعرف دلالة هذه الراية يا هوك؟

- لا يا أبتى.

-إذن، دعنى أداوى جهلك، إن الدوائر الخارجية هى الآب والابن والروح القدس وتتصل بخطوط كتب عليها (non est) هل تعرف معنى هذه الكلمات (non est) يا هوك؟

قالت ميليساند بسرعة:

- ليس هو.

قال الأب كريستوفر بسعادة:

- يا إلهى، إن ذكاءها بقدر جمالها.

منح ميليساند نظرة بطيئة ومتفحصة بدأت بوجهها وانتهت عند قدميها، كانت ترتدى رداء من الكتان الرقيق زُيِّن بشعار السير چون؛ الأسد الأحمر، رغم أنه يصعب القول إن القسيس كان يتفحص الشعار. وقال ببطء وهو يرتفع بنظرة على جسدها:

- وهكذا، فالأب ليس هو الابن الذى ليس هو الروح القدس الذى ليس هو الأب، ولكن هذه الدوائر الخارجية تتصل بالداخل الذى يرمز إلى الرب، كلمة

(est) تعنى يكون، وإذن فالأب هو الرب والابن هو الرب والروح القدس هو الرب ولكن كلاً منهم ليس الآخر إن الأمر حقًا بسيط للغاية.

عبس هوك.

- لا أعتقد أن هذا بسيط.

ابتسم الأب كريستوفر ابتسامة عريضة.

-بالتأكيد هذا ليس بسيطًا! لست أظن أى شخص يفهم الثالوث المقدس ربما باستثناء البابا، ولكن أى بابا؟، هاه؟ إن لدينا اثنين منهما الآن، ومن المفترض أن يكون لدينا واحد فقط! جريجورى ليس بينيدكت وبينيدكت ليس جريجورى[٣] ولذا فلنأمل فقط أن الرب

---

(٣) هذه إشارة إلى صراع البابا جريجورى الثانى عشر مع البابا بينيدكت الثالث عشر: كان البابا جريجورى من البندقية، فهو لاهوتى متزمت، ولكن للأسف كان محيطه العائلى مسيطرًا عليه. إن المشكلة الرئيسية – كما يبدو لنا- بكل وضوح هى إنهاء الانشقاق. لكن الباباوين لم يظهرا أى استعداد للتضحية من أجل الكنيسة، إذ كل منهم مَن يرأسهم مِن الكرادلة (وهى طبقة كنسية عالية) ومجلسه الاستشارى. سيطر عليه المحيطون به، ورفض كل مقابلة مع "بينيدكت الثالث عشر". تفاقم إذ ذاك الوضع ولم يعد بالإمكان الحصول على قرار بالتنازل سواء أكان=

يعرف أيهما يكون البابا. يا إلهى أنت شىء جميل يا ميليساند وتضيعين نفسك على هوك.

عبست ميليساند فى وجه القس، الذى ضحك وقبَّل أطراف أصابعه ثم نفخ إليها بالقبلة وقال:

- اعتن بها يا هوك.

- أنا أفعل ذلك يا أبتى.

= من هذا أم من ذاك. أفلا يجب أن يأتى إقرار من جانب الشعب المسيحى؟ لذلك أخذت جامعة باريس المبادرة باستفتاء عام، فكان هناك ثلاثة حلول: تنازل البابوين؛ اتفاق بينهما، تنزيل الباباوين بقرار المجمع. ورأى الجميع أن الحل الثالث هو المرجح لاحتمالية الحدوث، لذلك عقدوا مجمعًا فى بيز، وأعلنوا بقرار مجمعى حط كل من بابا روما وبابا أفينيون. وقد انتخبوا بابا آخر هو الكاردينال بيار فيلادچى من أصل يونانى وذلك سنة ١٤٠٩، وتوفى بعد سنة من انتخابه، وقد انتخبوا بعد وفاة (بلتازار كويشا) باسم (يوحنا الثالث والعشرين). أخيرًا وبمبادرة الإمبراطور سيجس موند والبابا الدخيل (يوحنا الثالث والعشرين) عقد مجمع عام (١٤١٤-١٤١٨)، قبِل جوريجورى الثانى عشر فى سنة ١٤١٥ من جهته الدعوة إلى المجمع، أما بينيدكت الثالث عشر فقد رفض ذلك، ولكن أصبح من الواضح أنهم سوف يتخلون عنه، إن كان هذا ضروريًا لإنهاء الانشقاق. (المترجم).

أدار الأب كريستوفر نظره من ميليساند إلى سفينة (الثالوث المقدس الملكية) التى أحاطت بها دزينة من القوارب الصغيرة تدور حول جوانبها كخنازير صغيرة ترضع من الخنزيرة الأم. ثمة حزم كبيرة ترفع من القوارب الصغيرة إلى تلك الأكبر. وفى مؤخرة سفينة (الثالوث المقدس الملكية) على صارية قصيرة رفرف علم إنجلترا، صليب القديس چورچ الأحمر(٤)، على أرضية بيضاء. وقد أُعطى كل رجل فى جيش

---

(٤) صليب القديس چورچ (Cross of Saint George): هو صليب أحمر يحيطه خلفية بيضاء، وهو يستخدم كرمز للقديس چورچ. وقد ارتبط وجود الصليب بخلفيته البيضاء مع القديس چورچ من العصور الوسطى. ويبدو تاريخيًا أن الصليب ظهر على العديد من الأعلام المنقرضة الآن والشعارات والدروع، مثل تلك التى فى جامعة شفابن فى ألمانيا فى القرون الوسطى المتأخرة. فأثناء الحملة الصليبية الأولى، قرر البابا أنه يجب التمييز بين فرسان الجنسيات المختلفة بألوان مختلفة من الصليب فتم تخصيص الفرسان الجنسيات المختلفة بألوان مختلفة من الصليب فتم تخصيص الفرسان الفرنسية للصليب الأحمر على خلفية بيضاء. وفى حوالى عام ١٢٧٧، أصبح صليب سان چورچ العلم الوطنى لإنجلترا رسميًا. علم سان چورچ ومنذ أواخر القرن العشرين قد تمتع بشعبية مستمرة. اعتمد وجود صليب چورچ فى عدة بلدان لا سيما إنجلترا، چورچيا، اليونان، برشلونة. أما عن القديس=

الملك هنرى قطعتين كتانيتين، رسم عليهما الصليب الأحمر يجب أن تخاطا على واجهة وظهر معاطفهم مغطية شعارات لورداتهم. وقد أوضح السير چون السبب قائلاً إنه أثناء المعركة

= چورچ (٢٨٠-٣٠٣م) فقد ولد سنة ٢٨٠ فى مدينة اللد بفلسطين لأبوين مسيحيين من النبلاء، فاعتنت به والدته ونشأته فى جو عائلى مسيحى. ولما بلغ السابعة عشرة دخل فى سلك الجندية وترقى إلى رتبة قائد ألف فى حرس الإمبراطور الرومانى دقلديانوس. كان الرومان يضطهدون المسيحيين فى تلك الفترة، لكن مارجرجس لم يخف عقيدته المسيحية رغم انضمامه للجيش الرومانى. تعرض القديس للعديد من العذابات لكنه ظل صامدًا غائصًا فى بحر الدماء لا يئن ولا يتأوه، فأمر الملك بقطع رأسه وحينها نال إكليل الشهادة وارتفعت شهرة استشهاده فى الآفاق. تظهر أيقونة القديس مارجرجس وهو يتغلب على التنين ويقتله محررًا الأميرة. فالتنين هذا يرمز إلى الشيطان، وأما الأميرة التى تظهر فى الصورة فهى زوجة الإمبراطور دقلديانوس التى اعتنقت المسيحية وأمر دقلديانوس بقطع رأسها. القديس مارجرجس له العديد من الألقاب منها: مارجرجس الملطى نسبة إلى مدينة ملطية موطن آبائه، مارجرجس الكبادوكى نسبة إلى كبادكية، جيئورجيوس وترجمته فلاح فى الأرض وهى كناية كنسية لقب بها وتعنى أن القديس كان قد فلح فى حقل الملكوت واشتغل فى كرم الرب. يُحتفل به يوم ٢٣ ابريل (نيسان) من كل عام فى بريطانيا، أما فى مصر فيحتفل به فى الأول من مايو من كل عام. (المترجم).

يكون هناك الكثير من الشعارات، عليها رسوم الكثير من الحيوانات المتوحشة والطيور والألوان ولكن إذا كان الإنجليز يرتدون شعارًا واحدًا هو شعار القديس چورچ فسيتعرفون أبناء وطنهم فى فوضى القتل.

حملت الصارية الطويلة لسفينة (الثالوث المقدس الملكية) العلم الأكبر، راية الملك، الراية المربعة الكبيرة التى يرتسم عليها شعار إنجلترا، النمور الذهبية وشعار فرنسا أيضًا؛ زهور السوسن الذهبية. لقد ادعى الملك هنرى مُلْكَ كلا البلدين ولذا حملت رايته شعارهما معًا. والأسطول الذى يملأ مياه ساوث-هامبتون سيحمل هذا الجيش ليجعل تفاخر هذه الراية حقيقة. وقد أخبر السير چون رجاله فى الليلة السابقة على مغادرته إلى لندن أن هذا الجيش لم يبحر مثله من إنجلترا من قبل. قال بفخر:

- لقد فعلها ملكنا بطريقة صحيحة!

وابتسم ابتسامة وحشية عريضة واستطرد:

- إننا جيدون! لقد أنفق مولانا الملك المال! رهن مجوهراته الملكية! لقد اشترى أفضل جيش كما لم يحدث لدينا من قبل، ونحن جزء من هذا الجيش ولسنا فقط أى جزء، بل نحن الجزء الأفضل فيه ولن ندع

ملكنا يُهزم! إن الرب إلى جانبنا، أليس هذا صحيحًا أيها الأب؟

قال الأب كريستوفر بثقة وكأنه قريب من عقل الرب:

- بلى، إن الرب يكره الفرنسيين.

استطرد السير چون:

- هذا لأن الرب ليس أحمق، إن القدير على كل شىء يعرف أنه ارتكب خطأ حين خلق الفرنسيين(٥) !ولذا أرسلنا لنصححه! نحن جيش الرب وسنذهب لنبقر بطون نتاج الشيطان أولاد الحرام هؤلاء.

ستحمل ألف وخمسمائة سفينة اثنى عشر ألف رجل، وعلى الأقل ضعف هذا العدد من الخيول عبر القناة. كان معظم الرجال من الإنجليز، والبعض ويلزيين، وعشرات جاءوا من الأراضى الواقعة فى أملاك الملك هنرى فى أكواتين. استطاع هوك أن يتخيل اثنى عشر ألف رجل، كان الرقم كبيرًا جدًا لكن الأب كريستوفر وهو متكئ على حاجز السفينة (مالك الحزين)

---

(٥) هكذا وردت فى النص الأصلى: (But the Almighty knows He made a mistake when he created the French) ونقلناها هنا لأمانة الترجمة ولكننا ننزه الله عن أى خطأ.

كرر نفس الملاحظة التحذيرية التى ذكره
قبل المواجهة التى حدثت مع السير مارتيز

- يستطيع الفرنسيون أن يجمعوا ثا
وربما أكثر وإذا حدثت معركة يـ
سهامك.

قال أحد جنود السير چون وقد سمع

- لن يحاربونا إذن.

وافق الأب كريستوفر قائلاً:

- إنهم لا يحبون محاربتنا.

كان القس يرتدى درعًا ويعلق فى حـ

- هذا ليس كالأيام القديمة الرائعة.

ابتسم الجندى الشاب ذو الوجه المسـ

- كريسى وبواتييه؟

قال الأب كريستوفر بتوق:

- لقد كان شيئًا عظيمًا! هل تستطيع
بواتييه؟ تأسر ملك فرنسا، إن ذلك لـ

تساءل هوك:

- ألن يحدث يا أبتى؟

- لقد تعلموا الكثير عن رماتنا يا هوك. إنهم يبقون بعيدًا عنا، يغلقون مدنهم وحصونهم على أنفسهم وينتظرون حتى يصيبنا الملل. يمكننا أن نزحف حول فرنسا دزينة من المرات ولن يخرجوا ليحاربونا، ولكن إذا لم نتمكن من اقتحام حصونهم فماذا يفيد السير حول فرنسا؟

تساءل هوك:

- ولماذا ليس لديهم رماة سهام إذًا؟

لكنه كان يعرف الإجابة بالفعل فقد كان هو نفسه الإجابة.

لقد استغرق الأمر عشر سنوات ليتحول نيكولاس هوك إلى رامى سهام. لقد بدأ فى السابعة من عمره بقوس صغير، أصرّ والده أن يتدرب عليه كل يوم، وعامًا بعد عام حتى مات والده كان القوس يكبر والوتر يربط بإحكام أكثر وتعلم هوك الصغير سحب القوس بكل جسده وليس بذراعيه فقط، وكان والده يقول له مرارًا وتكرارًا وهو يضرب على ظهره بقامة قوسه الكبير:

- عِش داخل القوس أيها اللقيط الصغير.

وهكذا تعلم هوك أن يدخل إلى القوس وصار أقوى وأقوى. وبعد موت والده أخذ القوس الكبير وتمرن عليه. كان يطلق السهم وراء السهم على أهداف في مزرعة الكنيسة. كانت رؤوس السهام تسن في عمود عند مدخل الكنيسة المسقوف وقد ترك الاحتكاك المستمر أخاديد عميقة في الحجر، كان نيك هوك يصب جام غضبه في هذه السهام وأحيانًا يظل يتمرن على الإطلاق حتى يحل الظلام فتصعب الرؤية. وقد أخبره بيرس الحداد مرارًا وتكرارًا:

- لا تنتش القوس هكذا.

وتعلم هوك الإطلاق الهامس، حيث يدع الوتر ينساب من بين أصابعه، مما جعل أصابعه تزداد قوة، ويزداد جلدها سمكًا، حتى يصبح كوسادة جلدية. وقد نمت عضلات ظهره وصدره وذراعيه نموًا هائلاً مع تكرار السحب والإطلاق والسحب والإطلاق عامًا تلو الآخر. كان هذا ضرورة، فبعض العضلات الكبيرة ضرورية لسحب القوس بينما الأخرى وهي الأصعب اكتسابًا أن يتناسى عينيه.

عندما بدأ هوك صبيًا كان يسحب الوتر حتى وجنته وهو ينظر بطول السهم إلى هدفه لكن هذا لم يكن ليعطي القوس كامل

قوته، وإذا كان على رأس السهم أن يخترق درعًا فإنه يحتاج إلى كامل قوة خشب السرو، وهذا يعنى أن يسحب الوتر إلى أذنه مما يجعل السهم مائلاً عن العين، ولقد استغرق الأمر سنوات من هوك ليتعلم كيف يقود السهم إلى الهدف بعقله. لا يمكنه شرح ذلك وليس ثمة رامٍ يستطيع. كان يعلم فقط أنه عندما يسحب الوتر يتطلع إلى الهدف، ويطير السهم هناك لأنه يريده أن يفعل، وليس لأنه وضع عينه والسهم والهدف على خط واحد. ولهذا السبب ليس لدى الفرنسيين رماة باستثناء بعض الصيادين القلائل، فليس لديهم رجال ينفقون سنوات ليتعلموا أن تكون قامة القوس المصنوعة من خشب الدردار والوتر المصنوع من القنب جزءًا من نفوسهم.

احترقت سفينة إلى الشمال من سفينة (مالك الحزين) في مكان ما بين كومة السفن الراسية، مرسلة عمودًا كثيفًا من الدخان عبر سماء الصيف، وقد سرت شائعة أن هناك تمردًا ضد الملك، وأن المتمردين كانوا قد خططوا لحرق الأسطول، وقد اعترف الأب كريستوفر باقتضاب بأنه كان ثمة بعض المتمردين بالفعل، كلهم من اللوردات لكنهم الآن أموات قال:

- لقد حُزَّت رؤوسهم.

وقال إنه يظن أن احتراق السفينة لا يعدو كونه مجرد حادث وقد طمأن الرماة بقوله:

- لن يحرق أحد سفينة (مالك الحزين).

ولم يفعل أحد ذلك. وإلى الشمال من السفينة أيضًا كانت هناك سفينة تدعى (السيدة فالماوث)، التى جرى تحميلها بالخيول التى كانت تسبح إلى جانب السفينة ثم يجرى رفعها برافعات جلدية. كانت الخيل ترتفع والماء يقطر من أجسادها وتنثنى أرجلها وتدور أعينها من الخوف، ثم تُنزل ببطء إلى الأكشاك المبطنة على متن السفينة (السيدة فالماوث)، رأى هوك حصانه المخصى الأسود المسمى (راكر) وهو يُرفَع ويقطر من ماء البحر، ثم رأى فرس ميليساند الصغير المرقش المدعوة (ديل)، كان الرجال يسبحون بين الخيول ليثبتوا السيور الجلدية جيدًا، وتوهج حصان السير چون الأسود العظيم والمسمى (لوسيفر) وهو يُرفَع من البحر.

وصل السير چون كورنويل، فى اليوم التالى من لندن مع الملك. يبدو أن الفرنسيين أرسلوا آخر سفرائهم، لكن شروطهم رُفِضَت، ولذا سيبحر الأسطول. جدف السير چون إلى السفينة (مالك الحزين) فى قارب صغير، وهدر ببعض الأوامر

والتحيات وهو يتسلق جانبها. بعد لحظة ارتفع صوت الأبــواق من سفينة (الثالوث المقدس الملكية) بينما بارجة مطلية باللونين الأزرق والذهبى ذات مجاديف بيضاء تحمل الملك إلى جانــب السفينة الكبيرة. كان الملك هنرى قد ارتدى دروعه كاملة وقــد جُلِيَت وصُقِلَت ولُمِّعَت حتى عكست أشعة الشمس فى ومــيض أبيض يخطف البصر. صعد السلم إلى غرفة الــسفينة برشــاقة صبى، ورفع نافخو الأبواق الموجودون على الــسفينة آلاتهــم، وعزفوا لحنًا عسكريًا آخر. علا الهتاف من ســفينة (الثــالوث المقدس الملكية) وأخذ فى الانتشار إلى السفن الأخرى، حتى عم الأسطول المكون من ألف وخمسمائة سفينة.

وبعد تلك الظهيرة، هبت الريح الغربية ثابتة، وطار فوق الأسطول زوج من البجع، ورفرفت أجنحتهما بصوت عال فــى الهواء الدافئ. طارت البجعتان تجاه الجنوب، ورآهمــا الــسير چون فدق على حاجز السفينة وأخذ فى الصياح.

قال الأب كريستوفر للرماة المندهشين:

- إن البجع هو شعار ملكنا الخاص! سيقودنا البجع إلــى النصر!

ولا بد أن الملك رأى فأله بنفسه، إذ بعد أن طار البجع فى طريقه مرورًا بسفينته، رفعت (الثالوث المقدس الملكيـــة) أحــد أشرعتها. كان الشراع مطليًا بألوان الجيش الملكـــى؛ الأحمــر والذهبى والأزرق. وصل الشراع الى منتصف السارية، وبـــدأ يصطفق بالريح من جانبه البعيد، ووصل صوت اصطفاقه إلـــى السفينة (مالك الحزين) ثم هبط ثانية فجأة. كانت هـــذه إشـــارة المغادرة، وبدأت السفن واحدة بعد الأخرى تـــسحب مراســـيها وترفع أشرعتها. كانت الريح مواتية للذهاب إلى فرنسا.

ريح تحمل إنجلترا إلى الحرب.

لم يكن أحد يدرى إلى أى مكان فى فرنسا هـــم ذاهبـــون للحرب. خمن بعض الرجال أن الأسطول سيذهب جنوبًـــا إلـــى أكواتين بينما اعتقد آخرون أنهم قد يذهبون إلـــى كاليـــه، لكـــن الأغلبية لم يكن لديهم أدنى فكرة، القليل منهم لم يكـــن يبـــالى، كانوا فقط يتكئون على حاجز السفينة ويتقيأون.

أبحر الأسطول يومين وليلتين، تحت سماء تحتشد بسحب بيضاء صغيرة تتراكض مسرعة تجاه الشرق، ونجـــوم تلمـــع كالجواهر، كان الأب كريستوفر يروى القـــصص علـــى مـــتن

السفينة (مالك الحزين) وقد فُتِن هوك بقصة النبي يونس والحوت، وبحث في البحر المتلألأ بأشعة الشمس عن وحش آخر من هذا القبيل، لكنه لم ير شيئًا. رأى فقط هذا العدد اللانهائي من السفن المتناثرة في المياه المتلاطمة، كقطيع ينطلق في المراعي الصيفية.

وقف هوك في الفجر الثاني، في أقصى موقع تسمح به مقدمة السفينة الضيقة يراقب البحر، يتمنى أن يجد سمكة من النوع القادر على ابتلاع البشر، حين انضم إليه السير چون في صمت. لمس هوك جبهته بقبضته في عجالة، وأومأ إليه السير چون في حميمية. كانت ميليساند نائمة على سطح المركب، محتمية بأكوام البراميل، وملتحفةً بمعطف هوك الفضفاض، وابتسم السير چون تجاهها، وقال:

– فتاة جيدة، يا هوك.

– نعم يا سير چون.

– سنجلب بلا شك عشرين من الفتيات الفرنسيات الجيدات الأخريات إلى الوطن! زوجات جديدات. هل ترى هذه السحب؟

كان يحدق أمامه إلى الأفق المغطى بالسحاب.

- إنها نورماندى يا هوك.

حدق هوك، لكنه لم ير شيئًا تحت السحاب باستثناء السفن الموجودة فى مقدمة الأسطول وتساءل بتردد:

- سير چون؟

ومنحه السير چون نظرة مشجعة فاستطرد:

- ماذا تعرف عن...

وتوقف لبرهة ثم استطرد:

- سنيور دى انفير؛ سيد الجحيم؟

كان يعانى مع نطق الكلمات الفرنسية.

سأله السير چون:

- لانفيريل؟ والد ميليساند؟

تساءل هوك بدهشة:

- هل أخبرتك بشأنه؟

قال السير چون بابتسامة:

- أوه، لقد فعلت حقًا. لماذا تستفسر عنه؟

قال هوك:

- الفضول.

سأله السير چون بدهاء:

- أنت قلق لأنها ابنة لورد؟

اعترف هوك:

- نعم.

ابتسم السير چون، وأشار إلى ما يلى مقدمة السفينة (مالك الحزين) وقال:

- انظر إلى تلك المراكب الشراعية الصغيرة؟

كان هنالك على البعد أمام الأسطول الإنجليزى مراكب أخرى منتشرة، بعيدة قليلاً وأصغر كثيرًا، ليست أكثر من مراكب شراعية متناثرة صغيرة بنية اللون. قال السير چون بتجهم:

- صيادون فرنسيون يأخذون أخبارنا إلى موانئ وطنهم، فَلْنُصَلِّ ألا يخمن أولاد الحرام أين سنرسو لأن هذه هى فرصتهم لقتلنا يا هوك! عندما نرسو. إنهم يعلمون

أننا قادمون! وكل ما يحتاجونـــه هـــو مـــائتى جنـــدى ينتظروننا ولن نتمكن أبدًا من الإنزال.

شاهد هوك المراكب الشراعية الصغيرة جدًا، التى لا يبدو أنها تتحرك فى عرض البحر. كان الأفق الغربى لايزال معتمًا، بينما الشرقى يتلألأ. تعجب كيف يستطيع بحارة الأسطول الإنجليزى أن يعرفوا إلى أين هم ذاهبون.

وتساءل إذا كان القديس كريسبينيان سيتحدث إليه مرة أخرى.

قال السير چون برقة:

– هناك.

بدا أنه قرر أن يتجاهل سؤال هوك عن السير لانفيريل، وأشار بدلاً من هذا إلى الأمام مباشرةً. وهناك كان شاطىء نورماندى، لم يكن يظهر سوى بقعة مظلمة ضئيلة جدًا، قطعة من الظلام الصلب حيث تلتقى الغيوم والبحر.

قال السير چون:

– لقد تحدثت إلى اللوردِ سلايتون.

بقى هوك صامتًا.

- إنه لا يستطيع السفر إلى فرنسا بالطبع نظرًا لإصـــابته لكنه كان فى لندن ليتمنى التوفيق للملك، وقد قال إنـــك رجلٌ جيد فى القتال.

لم يقل هوك شيئًا. إن المعارك الوحيدة التى يعرفها اللورد سلايتون عنه هى شجارات الحانة التى ربما تكون مهلكة لكنها ليست كالمعارك الحربية.

قال السير چون:

- لقد كان اللورد سلايتون مقاتلاً جيدًا هو الآخر قبل أن يصاب فى ظهره. أذكر أنه كان بطيئًا شيئًا ما فى تفادى الضربة، إنه لمن الخطر دومًا أن ترفع الـسيف فـوق كتفك يا هوك.

قال هوك فى إذعان:

- نعم، سير چون.

استطرد السير چون:

- وقد صرح بأنك خارج على القانون، لكن هذا لا يهـم الآن. أنت ذاهب إلى فرنسا يا هوك وأنت لست خارجًا على القانون هناك. أيًا كانت الجرائم التى ارتكبتها فـى

إنجلترا فلا يعتد بها فى فرنسا وحتى ذلك لا يهم لأنـــك أصبحت من رجالى الآن.

قال هوك ثانيةً:

- نعم يا سير چون.

قال السير چون بحزم:

- أنت رجلى، وقد وافق اللورد سلايتون على ذلك، لكن ما زالت لديك مشكلة، فالقس يريدك ميتًا وقد قال اللورد سلايتون إن ثمة آخرين سيسعدهم أن يقطعـوك إلـــى شرائح.

وافقه هوك، وذهنه ينصرف إلى الأخوين بيريل:

- هذا صحيح.

استطرد السير چون:

- وقد أخبرنى اللورد سلايتون أشياء أخرى عنك، قـــال أنك قاتل، ولص، وكاذب.

أحس هوك فورة الغضب القديمة، لكن هذا الإحساس مات من فوره كزبد البحر، وقال مدافعًا:

- لقد كنت كل هذه الأشياء.

قال السير چون:

- وأنت كفء وما أنت عليه هو حال سيد الجحيم؛ جيلبير؛ لورد لانفيريل، إنه كفء، إنه غشاش وأيضًا ساحرٌ وماهر وماكر. إنه يتحدث الإنجليزية.

نطق الكلمات الثلاثة الأخيرة كما لو كانت إنجازًا غريبًا جدًا.

واستطرد موضحًا:

-لقد أُخِذ أسيرًا فى أكواتين وسُجِن فى سافولك[٦] حتى دُفِعَت فديته وقد استغرق هذا ثلاث سنوات. أطلق

---

(٦) سافولك (Suffolk): مقاطعة إنجليزية كبيرة تقع فى شرق إنجلترا يحدها شمالاً مقاطعة نورفولك، ومن الغرب كامبريدجشير ومن الجنوب اسكس وهى تطل على بحر الشمال من الشرق. مركز المقاطعة بلدة ايبسويتش. يقع فى المقاطعة ميناء فيلكستاو وهو أكبر موانئ الحاويات في أوروبا. طبيعة المقاطعة منخفضة ويوجد بها القليل من التلال وأراضيها بشكل عام رطبة، يتميز ساحل سوفولك بجماله الطبيعي المميز. ويعتمد اقتصاد المقاطعة بشكل كبير على الزراعة وتتفاوت أحجام المزارع فيها من نحو ٨٠ إلى أكثر من ٨,٠٠٠ هكتار. وتشمل المحاصيل التى تزرع فى المقاطعة القمح الشتوى ،الشعير وبنجر السكر، الفول وبذور الكتان والشوفان وتزرع أيضا مجموعة متنوعة من الخضار فى بعض مناطقها. (المترجم).

سراحه منذ عشر سنوات مضت، وبإمكانى القـول إن هناك العديد من الأطفـال لهـم نفـس أنفـه الطويـل يترعرعون فى سافولك. إنه الرجل الوحيد الـذى لـم أهزمه قط فى البطولات.

قال هوك بقوة:

– لقد قالوا إنك لم تخسر قط!

قال السير چون مبتسمًا:

– إنه لم يهزمنى هو الآخر، لقد تقاتلنا حتى لم تبق فينـا قوة لمزيد من القتال. لقد أخبرتك أنه جيد، ورغم هـذا طرحته أرضًا.

تساءل هوك فى افتتان:

– أفعلت هذا حقًا؟

– اعتقدت أنه انزلق، ولذا تراجعت إلى الخلف ومنحتـه الوقت لينهض.

تساءل هوك:

– لماذا؟

ضحك السير چون:

- فى البطولات والمبارزات يا هوك عليك أن تبدى الفروسية. إن الأخلاق الحميدة لها نفس أهمية مهارة القتال فى المنافسات. ولكن الأمر ليس كذلك فى المعارك الحربية. ولذا إذا رأيت لانفيريل فى المعركة فاتركه لى.

قال هوك:

- أو إلى سهم.

- إن بإمكانه شراء أفضل الدروع يا هوك. ستجده يرتدى درع ميلانى(٧)، وسينثلم سهمك عليه، وبعد ذلك سيقتلك دون أن تدرك حتى أنه قاتلك. اتركه لى.

أحس هوك شيئًا أشبه بالإعجاب فى نبرة السير چون

- هل تكن له إعجابًا؟

---

(٧) الدروع الميلانى (Milanese Plate): أوجد الأوروبيون تقنيات حديثة فى صناعة الدروع، فهم كانوا من الإيطاليين الذين يقطنون فى الشمال وأيضًا من الألمان الذين يقطنون فى الجنوب، وهذا أدى بدوره إلى صناعة دروع حربية فى ميلان عُرفت فيما بعد باسم "الدروع الميلانية". فهذه الدروع تحمى مرتديها جيدًا من الضربات المفاجئة سواء بالرمح أو بالحربة، فهى تعطى دفاعًا رائعًا ضد الإصابات البالغة التى تصيب الجسم. (المترجم).

أومأ السير چون برأسه موافقًا.

- نعم، ولكن هذا لن يمنعنى عن قتله، وكذا كونه والد ميليساند، وإذن ماذا؟ إنه ولابد ملأ نصف فرنسا بأبنائه غير الشرعيين. إن أبنائى غير الشرعيين ليسوا لوردات يا هوك وكذلك الحال معه.

أومأ هوك برأسه موافقًا وهو مقطب وبدأ الحديث:

- فى سواسون، لقد...

وتوقف.

- استمر.

قال هوك بسخط:

- لقد ظل فقط يشاهد الرماة وهم يُعَذَّبون.

اتكأ السير چون على سياج السفينة وقال بامتعاض:

- نحن نتحدث عن الفروسية يا هوك. نحن حتى نــبلاء! نحن نحيى أعداءنا التحية العسكرية، ونأخذ من يستسلم منهم بأناقة ونُلبِس أعداءنا الحرير والكتان الرقيق. نحن نبلاء المسيحية.

وأدار عينيه الزرقاوين اللامعتين الرائعتين إلى هوك واستطرد:

- ولكن فى المعركة يا هوك هناك الدم والغضب والهمجية والقتل. إن الرب ليخفى وجهه فى المعركة.

قال هوك:

- كان هذا بعد المعركة.

- إن غضب المعركة يشبه السُكْر. لا يزول أثره بسرعة. إن والد فتاتك عدو، عدو ساحر، لكنه خطر مثلى تمامًا.

ابتسم السير چون ابتسامة عريضة، وضرب هوك على كتفه ضربة خفيفة واستطرد:

- اتركه لى يا هوك، سأقتله، سأعلق جمجمته فى بهو قصرى.

أشرقت الشمس فى بهاء، تلاشت الظلمة. بدا شاطئ نورماندى كخط أبيض من المنحدرات تكسو قمتها الطحالب الخضراء. اتجه الأسطول طوال اليوم جنوبًا، يساعده اتجاه الرياح التى تضرب قمم الموج البيضاء وتملأ الأشرعة. كان السير چون متعجلاً. قضى اليوم يحدق فى الساحل البعيد، ويصر أن على ربان السفينة الاقتراب أكثر.

قال الربان باقتضاب:

- الصخور يا سيدى اللورد.

- لا صخور هناك! اقترب! اقترب!

كان يبحث عن دليل أن الأعداء يستطلعون أمر الأسطول من على قمم الصخور. ولكن لم تكن هناك أى دلائل على فرسان يركبون جنوبًا ليقتفوا التقدم البطيء للأسطول. لا تزال مراكب الصيد متناثرة أمام السفن الإنجليزية التى دارت واحدة تلو الأخرى حول لسان من الصخور الطباشيرية البيضاء، ودخلت خليجًا حيث تهدأ الرياح، ورست.

كان الخليج واسعًا ولا تحميه الصخور جيدًا. كانت الأمواج العالية تضرب السفينة (مالك الحزين) من الغرب فتجعلها تتمايل وتشد حبال مرساتها. كان الشاطئ قريبًا هنا، بالكاد ضعف مرمى السهم لكن ما يمكن مشاهدته كان قليلاً، فقط شاطئ تتكسر عليه الأمواج البيضاء، ومستنقع ممتد خلفه تل شديد الانحدار تكسوه الأشجار بكثافة. قال أحدهم إنهم عند مصب نهر السين(٨)؛ النهر الذى يشق طريقه فى فرنسا، لكن

---

(٨) نهر السين (The Seine): هو نهر رئيسى فى شمال فرنسا، وأحد طرق النقل المائية التجارية كما أنه مصدر جذب سياحى، وبالذات فى=

هوك لم يستطع أن يرى أى شيء يدل على أى نهر. وبعيدًا نحو الجنوب كان هناك شاطئ آخر، بعيد جدًا تصعب رؤيته بوضوح. استدارت المزيد من السفن ببطء حول اللسانين Vao day nghe bai nay di ban http://nhatquanglan1.0catch.com الكبيرين، وتدريجيًا صار الخليج مزدحمًا بالسفن الراسية.

قالت ميليساند وهى تحدق فى الأرض:

– نورماندى.

= مدينة باريس التى يمر عبرها. فهو يعتبر ممرًا مائيًا تجاريًا أساسيًا لفرنسا، يمتد لمسافة ٢٩ كم شمال غرب ديكون ويجرى من هناك فى مسار ملتو لحوالى ٧٦٤ كم فى اتجاه الشمال الغربى إلى مصبه فى القنال الإنجليزى، حيث يمر تحته حوالى ٣٧ جسرًا بعضها يتجاوز عمر ٣٠٠ سنة. أغرق نهر السين ضفتيه مرارًا، وتسبب فى أضرار جسيمة للمحاصيل الزراعية والممتلكات عندما ارتفع لأكثر من ٧ أمتار أثناء فيضان عام ١٩١٠ م، ونهر السين مهم تجاريًا، ويرتبط بأنهار أوب ومارن ويون وأواس وتربط القنوات المائية نهر السين بأنهار اللورد والرون والراين والميوز وشيلدى، ويمكن للقوارب أن تبحر فيه لمسافة ٥٤٧ كم. وللسنة العاشرة على التوالى تتحول ضفاف نهر السين فى العاصمة الفرنسية باريس إلى منتجع سياحى فيما بات يعرف بـ(بارى بلاج). يرتدى نهر السين حُلة جديدة كل صيف تقربه إلى مصاف شواطئ البحار برمالها الذهبية وصخبها. (المترجم).

قال هوك:

- فرنسا.

قالت ميليساند فى إصرار:

- نورماندى.

كأن التمييز بينهما مهم.

كان هوك يراقب الأشجار متسائلاً متى تظهر القوات الفرنسية هناك؟ بدا من الواضح أن الجيش الإنجليزى سيهبط فى هذا الخليج، الذى يزيد قليلاً فى حجمه على كهف مسقوف. لماذا إذًا لا يحاول الفرنسيون وقف الغزو على الشاطئ؟ حتى الآن، لم يظهر بعد رجال ولا خيول عند خط الأشجار. ثمة صقر يحوم فوق التل، بينما ترفرف النوارس فوق الأمواج المتكسرة. شاهد هوك السير چون يجدف بقارب صغير نحو سفينة (الثالوث المقدس الملكية) حيث انهمك بحارتها فى تزيين السياج بالدروع البيضاء التى رسم عليها صليب القديس چورچ. اقتربت قوارب أخرى من سفينة الملك، تحمل اللوردات الكبار إلى مجلس الحرب.

تساءلت ميليساند:

- ماذا سيحدث لنا؟

قال هوك:

- لا أدرى.

ولم يكن يبالى كثيرًا بهذا. كان ذاهبًا إلى الحرب وسط مجموعة أحبها، ولديه ميليساند التى أحبها، رغم أنه تساءل إن كانت ستتركه الآن وقد عادت إلى بلدها.

قال هوك:

- أنت عائدة إلى الوطن.

وكان يريدها أن تنكر ذلك.

لم تقل شيئًا لفترة طويلة، ظلت فقط تحدق فى الأشجار، والشاطئ، والمستنقع، وقالت فى نهاية المطاف:

- كانت أمى هى الوطن، ولست أدرى أين يكون الوطن الآن.

قال هوك برعونة:

- معى.

قالت ميليساند:

- الوطن حيث تشعر بالأمان.

كانتِ عيناها رماديتين مثل السفينة (مالك الحزين) التى انحدرت على الألواح الخشبية لترسو على الأرض المنخفضة. ركع حاملو الدروع على سطح السفينة (مالك الحزين) ينظفون دروع الجنود. كانت كل قطعة تفرك بالرمال والخل لتلميع الصلب، وإزالة الصدأ عنه، ثم تدهن بدهن اللانولين[٩] وقد أمر بيتر جودينجتون بفتح قدر من شمع النحل، ومسحوا به ملابسهم الصوفية وكسوا به أقواسهم.

سأل هوك ميليساند وهو يكسو القوس الضخم بالشمع:

- هل كانت أمك قاسية معك؟

بدت ميليساند مرتبكة.

- قاسية؟ ولماذا تكون قاسية؟

قال هوك وهو يفكر فى جدته:

- بعض الأمهات كذلك.

قالت ميليساند:

- لقد كانت ودودة.

---

(٩) دهن اللانولين (Lanolin): مادة دهنية تستخرج من الصوف وتستعمل فى إعداد المراهم. (المترجم).

قال:

- لقد كان والدى قاسيًا.

قالت ميليساند:

- إذن عليك ألا تكون كذلك.

وعبست وظهر عليها التفكير بوضوح.

- ماذا؟

هزت كتفيها استهجانًا.

- عندما ذهبت إلى دير الراهبات، قبل...

وتوقفت.

قال هوك:

- استمرى.

- والدى، استدعانى إليه. كنت فى الثالثة عشرة، ربما الرابعة عشرة.

وخفضت صوتها، وأخذت تحدق فى هوك أثناء حديثها، واستطردت:

- جعلنى أنزع كل ملابسى ووقفت أمامه عارية؛ دار حولى، وقال إنه لن يمتلكنى أى رجل.

وتوقفت

- لقد ظننت أنه سوف...

- لكنه لم يفعل؟

قالت بسرعة:

- لا لقد ضرب على...

ثم قالت كلمة:

- كتفى.

بالفرنسية، وترددت باحثة عن الكلمة بالإنجليزية وكررتها بالإنجليزية، ثم استطردت:

- لقد كان، كيف تقولها؟

وقالت بالفرنسية:

- يرتعد.

وعقدت يديها وأخذت تهزهما.

قال هوك مقترحًا الكلمة الإنجليزية:

- يرتعد.

أومأت فجأة برأسها موافقة.

- بعد ذلك أرسلنى إلى دير الراهبات. توسلت إليه ألا يفعل. قلت إننى أكره الراهبات لكنه قال إن على أن أصلى من أجله. هذا واجبى. أن أعمل بجد وأن أصلى من أجله.

- وهل فعلتِ؟

قالت:

- صليت كل يوم أن يأتى من أجلى لكنه لم يفعل قط.

كانت الشمس فى طريقها للغروب حين عاد السير چون إلى السفينة (مالك الحزين). لم يكن ثمة دليل بعد على وجود أى جنود فرنسيين على الشاطئ، لكن الأشجار وراء الشاطئ قد تخفى جيشًا. تصاعد دخان من التل إلى الشرق من الخليج دليلاً على أن شخصًا ما على ذلك المرتفع، لكن مَن أو كم عددهم؟ من المستحيل تخمين ذلك. تسلق السير چون إلى سطح السفينة، وسار وهو يشير بإصبعه أحيانًا إلى أحد الجنود أو الرماة. أشار إلى هوك وقال:

- أنت.

واستمر فى سيره ثم استدار وصاح:

- كل شخص أشرت إليه سيذهب معى إلــى الــشاطئ. سنذهب الليلة! بعد حلول الظلام. وبقيــتكم.. فليكونــوا على استعداد عند الفجر. سيلحقون بنا إذا بقينا على قيد الحياة. أما من سيذهب منكم إلى الــشاطئ؟ الــدروع! الأسلحة! لسنا ذاهبين لنراقص أولاد الحــرام هــؤلاء! نحن ذاهبون لنقتلهم!

فى هذه الليلة كان القمر ثلاثة أرباع بدر يحيل البحر إلى فضة. كان الظلام على الأرض حالكًا، وارتدى هوك لباس الحرب؛ حذاءه ذا الرقبة الطويلة وبنطاله الجلدى القصير ومعطفه الجلدى والمعطف ذا الدروع والخوذة.

وارتدى وقاء الرماة على ساعده الأيسر، لا ليحمى ذراعه من ارتداد الوتر، فالدرع سيقوم بذلك بل ليحمى الوتر من أن يتأذى على وصلات الدرع، علق فى حزامه سيفًا قصيرًا، وعلى ظهره فأسًا حربية وعلى جانبه الأيمن جعبة سهام كتانية يبرز من فتحتها ريش أربعة وعشرين سهمًا. كانوا خمسة جنود واثنى عشر راميًا ذاهبين إلى الشاطئ مع السير چون، قفزوا كلهم إلى قارب مفتوح، جدف به البحارة تجاه الأمواج المتكسرة، اتجهت

قوارب أخرى من السفن الأخرى تجاه الشاطئ أيضًا. لم يتحدث أحد رغم انطلاق صوت لطيف بين الحين والآخر من سفينة راسية يتمنى لهم الحظ الطيب. ودار بخلد هوك: لو أن الفرنسيين بين الأشجار فسيمكنهم إذن أن يروا القوارب قادمة. ربما هم الآن يجردون سيوفهم، ويسحبون الأوتار السميكة لأقواسهم ذات القامات المكسوة بالمعدن. بدأ القارب يتمايل فى اهتزازات حادة مع تكسر الأمواج على الشاطئ وأصبح صوت الأمواج أكثر ارتفاعًا وأكثر شؤمًا. كان البحارة يضربون الماء بمجاديفهم بعمق، يحاولون مقاومة التفاف القارب مع الأمواج المتكسرة والدوامات، ولكن فجأة بدا القارب وكأنه يندفع مع التيار، وكان ضوء القمر قد أحال البحر إلى اللون الأبيض وبدا البحر عنيفًا جدًا تجاههم، وكأنه يرغب فى تحطيمهم وهوى القارب كصخرة وعلا صوت احتكاك شىء بقعر القارب الذى دار حول نفسه، واضطرب الماء حول بدنه قبل أن يهدأ الموج حوله مرة أخرى، وهمس السير چون:

- انزلوا! اهبطوا!

اندفعت القوارب الأخرى بقوة إلى الشاطئ، وقفز منها الرجال وساروا على العارضة الخشبية وقد جردوا سيوفهم. تجمعوا عند الخط الكثيف من الطحالب والأخشاب الطافية الذى

يميز خط المد العالى. تناثرت الصخور الضخمة على الشاطئ وقد تغطت جوانبها بالظلال السوداء التى يتركها ضوء القمر. توقع هوك أن يكون السير چون قائد هذا الإنزال الأول، لكنه وجد بدلاً منه شابًا أصغر بكثير. انتظر حتى أنزلت القوارب كل مستقليها؛ سحب البحارة قواربهم إلى الشاطئ وربطوها قبل خط تكسر الأمواج بالضبط. إذا كان الفرنسيون ينتظرون يقظين فيمكن للقوارب إذن أن تأتى لتلتقط مجموعة الإنزال، ولكن هوك راوده الشك أن يتمكن الكثيرون من الهرب، ولكن ستجرى الدماء على العارضة الخشبية بدلاً من ذلك. قال الرجل الشاب فى صوت منخفض:

- سنبقى معًا، الرماة إلى اليمين!

همس السير چون كورنويل :

- هل سمعت السير چون يا جودينجتون؟

كان الشاب هو السير چون هولاند ابن أخى الملك وربيب السير چون كورنويل.

- سير چون؟

- خذ رماتك بعيدًا مسافة كافية لتمنحنا غطاءً جيدًا!

بدا السير چون الأكبر سناً هو القائد الحقيقى، تاركاً القيادة الظاهرية لربيبه. صاح السير چون الأصغر:

- إلى الأمام!

وبدأ صف الرجال؛ أربعين جنديًا إلى اليسار، وأربعين راميًا إلى اليمين، يتقدم عبر الشاطئ.

بحثًا عن المدافعين.

ظن هوك فى البداية أنه يقترب من حافة أرضية عظيمة عند قمة العارضة الخشبية، لكنه مع اقترابه رأى هذه الحافة من صنع البشر وأن أمامها خندقًا. لقد أُنشِأت هذه الحافة على عجل لتعمل كمتراس، ولم تطوق فقط بخندق، ولكنها أيضًا أضيف إليها معاقل محصنة نتأت من العارضة الخشبية، يمكن للرماة أن يطلقوا منها على أجنحة أى هجوم يتقدم عبر الشاطئ. لم يكن المتراس قد تآكل تمامًا بعد بفعل الرياح أو المطر وقد امتد بعرض الخليج، وتخيل هوك صعوبة القتال بالنسبة لجنودهم الأماميين، لو أن الجنود المدافعين قد هاجموهم من المرتفع بينما السهام تضربهم من الجانبين لكنه كان يتخيل فقط فقد كان المتراس -الذى استغرق بالتأكيد أيامًا لبنائه- مهجورًا تمامًا.

قال السير چون كورنويل بسخرية، وهو يركل قمة المتراس بقدمه:

- لقد كانوا مشغولين، أولئك الضرطات الصغار، ألــيس كذلك؟ ما أهمية أن تبنى الدفاعات ثم تهجرها؟

قال السير چون هولاند مقترحًا بحذر:

- لقد علموا أننا سنهبط هنا؟

تساءل السير چون:

- إذن لماذا لا يرحبون بنا، ربما بنوا متاريس كهذه على كل شاطئ فى نورماندى، أولاد الحرام يبولــون فـــى سراويلهم ويبنون المتاريس، أيها الرماة كلكم يــستطيع الصفير، أليس كذلك؟

لم يقل الرماة شيئًا. وقد أدهش السؤال أكثرهم حتى أنهم لم يجيبوه.

تساءل السير چون ثانية:

- كلكم يستطيع الصفير؟ حسنًا! وكلكم تعرفون لحن (مرثية روبين هود[١٠])؟

يعرف كل رامٍ هذا اللحن، وسيكون غريبًا ألا يعرفوه، فقد كان البطل لكل رامى سهام، الرامى الذى وقف ضد اللوردات والأمراء والنبلاء فى إنجلترا. قال السير چون:

---

(١٠) روبين هود (Robin Hood): هو شخصية إنجليزية تبرز فى الفلكلور الإنجليزى، فهو فارس شجاع، مهذب، طائش وخارج عن القانون، عاش فى العصور الوسطى وكان يتمتع ببراعة مذهلة فى رشق السهام. تمثل أسطورة روبين هود فى العصر الحديث شخصًا نشأ على سلب وسرقة الأغنياء لأجل إطعام الفقراء، بالإضافة إلى ذلك حارب روبين هود الظلم والطغيان. تعكس قصص روبين هود الأفكار والعادات والتقاليد التى كانت سائدة فى إنجلترا فى القرون الوسطى. كان المجتمع الإنجليزى يضم آنذاك فئة قليلة من الأسياد الأثرياء وفئة كبيرة من الفقراء. اشتهر روبين هود بإسراعه إلى مساعدة المحتاجين ومناصرة المظلومين عندما يكونون فى حال خصام مع الأسياد الذين يستخدمون السلطة بطريقة غير شرعية. ظهر اسم روبين هود فى العديد من المحاكم الإنجليزية على لسان القضاة منذ عام ١٢٢٨، وقد استخدم الاسم أيضًا فى عريضة قدمت للبرلمان الإنجليزى ليصف مجرمًا متجولاً فى عام ١٤٣٩. أشار الكاتب الإنجليزى ويليام شكسبير إلى روبين هود فى مسرحية "سيدى فيرونا" فى أواخر القرن السادس عشر. (المترجم).

- حسنًا! سنصعد التل! الجنود على الطريق والرماة إلى الغابة! إذا سمعت أو رأيت شخصًا ما فتعالى وجدنى! ولكن فلتصفر لحن (مرثية روبين هود) لأعرف أنك رجل إنجليزى ولست بعض القمامة الفرنسية! هيا بنا!

اضطروا قبل أن تسلق التل أن يعبروا مستنقعًا جهمًا يلتمع بضوء القمر، كان المستنقع يلى الشاطئ والمتراس مباشرة. وهناك طريق يبدو كأنه يشق المستنقع يتلوى عبر الأرض الزلقة، لكن السير چون كورنويل أصر أن ينتشر الرماة على جانبى الطريق، ليتمكنوا من إطلاق سهامهم من الجوانب إذا انقض كمين ما على المتقدمين. أخذ بيتر جودينجتون يردد السباب وهو يتقدم بصعوبة مخوضًا بين كتل الطحالب، وقال متذمرًا عندما صرخت بعض الطيور التى أيقظها زحف العسكر:

- إنه يريدنا أن نُقتَل.

ورفرفت أجنحتها فجأة فى هدوء الليل بصخب. كانت الأمواج المتكسرة تضرب الشاطئ ثم تذوب عليه.

كان خط الزحف بعرض رمية السهم، أكثر قليلاً من مائتى قدم. يستطيع هوك أن يطلق أبعد من هذا، لكن كل رامٍ فى

فرنسا يمكنه نفس الشيء وهكذا تقدم نحو الغابة المظلمة التى وصلت إلى حافة المستنقع. راقب الظلال المعتمة يراوده الخوف من ضوضاء مباغتة ربما تشى بإطلاق سهم. لقد علم الفرنسيون أن الإنجليز قادمون. ربما كان لديهم جواسيس، رصدوا إعداد السفن فى مياه ساوث–هامبتون وربما حمل الصيادون الأخبار أن الأسطول الكبير كان قبالة الشاطئ، وقد اهتم الفرنسيون بأمر دفاعاتهم حتى عن هذا الخليج الصغير بمتراس متقن، فلماذا إذن لم يأتوا ليواجهوهم؟ حسب هوك أن السبب أنهم ينتظرون فى الغابة لأنهم أرادوا قتل هذه المجموعة المتقدمة أثناء عبور المستنقع.

– هوك! توم ومات! ويل! اذهبوا إلى اليمين!

أشار جودينجتون إلى الرجال الأربعة تجاه الجانب الشرقى من المستنقع.

– اصعدوا التل!

اتجه هوك يمينًا يتبعه التوأم ثم ويليام، كان الرماة يتجمعون على الطريق خلفهم. يرتدى كل رجل سواء كان لوردًا أو راميًا شعار القديس چورچ على معطفه. كانت أرجل الجنود مغطاة بالدروع التى تعكس ضوء القمر الأبيض اللامع، بينما

سيوفهم تبدو كخيوط من الفضة الخالصة، لم ينطلق أى سهم من بين الأشجار. لو أن الفرنسيين ينتظرون لعليهم أن يكونوا فى أعلى المنحدر.

قفز هوك فوق مساحة صغيرة من أرض متداعية عند الحافة الشمالية للمستنقع. استدار ليرى الأسطول فى البحر المتلألئ بضوء القمر وقد أضيئت بعض المشاعل القليلة بضوء أحمر باهت، وبدت صوارى الأسطول كالغابة. كانت النجوم رائعة. التفت مرة أخرى إلى حافة الغابة التى بدت معتمة كحفرة، وأخبر رفاقه:

- إن الأقواس لا تنفع بين الأشجار.

حل وتر القوس، ودسه فى الحقيبة المصنوعة من جلد الخيل التى كانت مطوية ومدسوسة فى حزامه. إن ترك الوتر فى القوس لفترة طويلة يجعله يأخذ انحناءته على الدوام، فيفقد قوته. من الأفضل حفظ القوس مستقيمًا وهكذا علق الحقيبة الجلدية على كتفه، وجرد سيفه القصير. فعل رفاقه الثلاثة مثله ثم تبعوا هوك إلى الأشجار.

ليس ثمة فرنسيون منتظرون. لم يهب سيف فجأة ليرحب بـــهوك، لم ينطلق سهم يهسهس فى الظلمة، ليس ثمة شىء

سوى صوت البحر، والعتمة تحت أوراق الأشجار، وأصوات ضئيلة للأشجار فى الليل.

كان هوك يحس نفسه فى وطنه بين الأشجار، حتى وسط هذه الأشجار الأجنبية. كان توماس وماثيو سكارليت ابنى طحان، تربيا فى طاحونة حيث تدير المياه الأعمدة الخشبية الكبيرة بالطين فوق القماش لتنزع عنه الشحوم والأوساخ. كان ويليام نجارًا، لكن هوك كان حارس غابة وصيادًا وأخذ مركز القيادة غريزيًا. كان بإمكانه سماع الرجال على يساره ولم يرغب أن يخطئوا فيحسبونه رجلاً فرنسيًا، فتوجه يمينًا أكثر. استطاع أن يشم رائحة خنزير برى، وتذكر فجرًا شتائيًا حين أطلق خمسة سهام، كل منها قادر على قتل رجل، أطلقها على ذكرٍ كبير ذى نابين بارزين فانغرست فى جانبيه وامتلأت عيناه الصغيرتان بغضب عنيف، وتمكن هوك من النجاة فقط بتسلق شجرة بلوط مات الخنزير فى النهاية وهو يضرب بحوافره الأوراق المتساقطة التى تشربت بالدم بينما حياته تنسحب منه.

تساءل توماس سكارليت:

- إلى أين نحن ذاهبون؟

أجاب هوك باقتضاب:

- إلى أعلى التل.

- ماذا سنفعل هناك؟

قال هوك:

- ننتظر.

لم يكن يعرف الإجابة. يمكنه أن يشم رائحة دخان خشب الوقود الآن، إن الرائحة اللاذعة لتشى أن القوم بالجوار. وتعجب إذا كان هناك معسكر لصناعة الفحم فى الغابة لأن هذا يفسر الرائحة، أو ربما النيران الخفية تدفئ الرماة الذين ينتظرون أهدافهم أن يظهروا فى قمة التل.

قال ويليام بطريقته الساخرة فى تقليد السير چون:

- إننا سنقتل أولاد الحرام لعاقى الروث هؤلاء.

ضحك مات سكارليت.

قال هوك بحدة:

- هدوء، وتحركوا أسرع!

إذا كان ثمة رماة ينتظرون، فمن الأفضل التحرك بسرعة، خيرٌ من أن نقدم لهم هدفًا سهلاً، لكن غريزته كانت تخبره أن ليس ثمة أعداء بين هذه الأشجار. بدت الغابة مهجورة. عندما كان يصطاد لصوص الصيد من الصيادين غير الشرعيين فى أراضى اللورد سلايتون، كان يشعر بوجودهم، معرفة تتجاوز الرؤية والرائحة والسماع، إنها غريزة. افترض هوك أن الغابة فارغة، لكن رائحة الدخان لا تزال موجودة، قد تخطئ الغريزة.

صار المنحدر أكثر استواءً، والأشجار أكثر تناثرًا، ولا يزال هوك يقود رفاقه نحو الشرق حريصًا على البقاء بعيدًا عن رامٍ إنجليزى عصبى. ثم وصل فجأة إلى القمة وانتهت الأشجار ليظهر طريق غائر على طول الحافة. قال لرفاقه:

– الأقواس.

رغم أنه لم يسحب قوسه، سمع صوتًا ما إلى يساره. بعض الضجة التى لا يمكن أن تصدر عن أى من رجال السير چون؛ وقع حوافر.

كمن الرماة الأربعة بين الأشجار فوق الطريق، صار وقع الحوافر أعلى، ولكنهم لم يروا شيئًا، وخمن هوك من تقديره

للصوت أنه حصان واحد. ثم ظهر الحصان وراكبه للعيان متجهًا شرقًا. كان راكب الحصان ملتحفًا بالظلام، كما لو أنه يرتدى عباءة. لكن هوك لم ير أى أسلحة وقال لرفاقه:

- لا تطلقوا، إنه لى.

انتظر هوك حتى صار راكب الفرس قبالة مخبئه، ثم قفز عبر الحافة برشاقة واختطف اللجام. دار الحصان، وشب على ساقيه الخلفيتين؛ مدّ هوك يده الحرة وجذب الراكب من طوق عباءته أرضًا. صهل الفرس، لكنه استجاب لقبضة هوك، بينما شهق راكبه وهو يسقط على أرض الطريق بقوة. حاول الرجل الاندفاع بعيدًا، لكن هوك ضربه بقدمه فى بطنه وبعد ذلك جاء توماس وماثيو وويليام إلى جانبه وأوقفوا الأسير على قدميه.

قال ويليام:

- إنه راهب!

قال هوك:

- لقد كان ذاهبًا ليجلب مساعدة.

كان هذا تخمينًا لكنه كان احتمالاً صعبًا.

بدأ الراهب بالاحتجاج متحدثًا بسرعة كبيرة جدًا تفوق هوك على أن يفهم كلماته، كان أيضًا يتحدث بصوت مرتفع.

قال هوك:

- اخرس.

وعاد الراهب يصيح باحتجاجاته كأنه يرد على هوك، ولذا ضربه هوك ضربة فتأرجحت رأسه للخلف وانبثق الدم من أنفه وهدأ على الفور، كان شابًا وبدا الآن مذعورًا جدًا.

قال هوك:

- لقد أخبرتك أن تغلق فمك، أنتم الثلاثة صفروا! صفروا بصوت عالٍ.

أخذ ويليام وماثيو وتوماس فى الصفير بلحن (مرثية روبين هود)، بينما قاد هوك الأسير والفرس عبر الطريق الذى تحجبه الأشجار على حافتيه عن الأنظار.

انحرف الطريق يسارًا ليظهر مبنى كبير من الحجارة ذا برج، كان يبدو ككنيسة وسأل هوك الراهب بالفرنسية:

- كنيسة؟

قال الراهب بالفرنسية بتجهم:

- دير.

قال هوك:

- استمروا بالصفير.

تساءل توم سكارليت:

- ماذا قال؟

- قال إن هذا دير. صفر الآن!

كان الدخان يتصاعد من مدخنة الدير، وهذا يفسر الرائحة التى طاردت هوك وهم يتسلقون التل. لم يظهر أحدٌ من مجموعة الإنزال حتى الآن، لكن بينما يقود هوك مجموعته الصغيرة تجاه المبنى انفتحت البوابة وانبعث ضوء فانوس فجأة لتظهر مجموعة من الرهبان يقفون عند المدخل.

قال هوك:

- الأسهم على الأوتار، واستمروا فى الصفير اللعين، لأجل الرب.

تقدم رجلٌ طويل، رمادى الشعر، يرتدى رداء أسود، عبر الطريق وقدم نفسه قائلاً بالفرنسية:

- أنا رئيس الدير.

تساءل توم سكارليت:

- ماذا قال؟

قال هوك:

- يقول إنه رئيس دير الرهبان، استمر فقط بالصفير.

مدّ رئيس دير الرهبان يده وكأنه يريد أخذ الراهب الدامى لكن هوك التفت إليه، فتراجع الرجل إلى الخلف خطوة بسرعة. بدأ الرهبان الآخرون فى الاحتجاج، لكن بعد ذلك بدأ المزيد من الرماة يأتون من الغابة، وظهر السير چون هولاند وزوج أمه عند حافة دير الرهبان مع الجنود.

صاح السير چون كورنويل:

- أحسنت صنعًا يا هوك، حصلت لنفسك على حصان!

قال هوك:

- وراهب يا سير چون، لقد كان ممتطيًا فرسه طلبًا للمساعدة، على الأقل أنا أظن هذا.

خطا السير چون خطوة واسعة، فصار بجانب هوك ورسم رئيس الدير علامة الصليب عندما رأى الجنود يملأون الطريق المواجه للدير، ثم خطا تجاه السير چون وقال شكوى فصيحة

احتوت إشارات كثيرة إلى هوك وإلى الراهب النازف. رفع السير چون وجه الرجل الجريح ليفحص أنفه المكسور فى ضوء القمر، وقال:

- لابد أنهم أرسلوا تحذيرًا بوصولنا بالأمس ولذا فمن الواضح أن هذا الرجل أُرسِل ليبلغ شخصًا ما أننا نزلنا. هل ضربته يا هوك؟

تساءل هوك:

- ماذا يا سير چون؟

محاولاً أخذ برهة من الوقت ليفكر فى أفضل إجابة يقولها، قال السير چون بلهجة اتهام:

- يقول رئيس الدير إنك ضربته.

كانت غريزته تدفعه ليكذب، كما كان يكذب دائمًا عندما يواجه بمثل هذه الاتهامات، لكنه لم يرد أن يفسد خدمته مع السير چون بالأكاذيب، ولذلك أومأ، وقال:

- لقد فعلت يا سير چون.

بدت على وجه السير چون لمحة من الابتسام.

- شىء يدعو للأسف يا هوك. لقد قال ملكنا أنه سيشنق أى رجل يؤذى قسيسًا أو راهبة أو كاهنًا، إن ملكنا هنرى رجل وَرِع جدًا ولذا أريدك أن تفكر بحرص فى إجابتك. هل ضربته يا هوك؟

قال هوك:

- أوه لا! يا سير چون، لم يكن هذا حتى ليدور فى خيالى.

قال السير چون:

- بالتاكيد لم تفعل، لقد سقط فقط من على سرجه، أليس كذلك؟ وسقط على أنفه.

قدم هذا التفسير برقة إلى رئيس الدير، قبل أن يدفع بالراهب ذى الأنف المكسور نحو إخوانه، وقال السير چون وهو يلتفت إلى رجاله ويشير إلى الشرفة:

- أيها الرماة، أريدكم جميعًا عند الأفق هناك وابقوا على الطريق، أنا سآخذ الفرس يا هوك.

بقى الرماة على الطريق الذى يمتد أمامهم ثم يرتفع إلى قمة أخرى مغطاة بالأشجار بدأت النجوم تتلاشى مع الشروق

الذى يلون الأفق. سمح بيتر جودينجتون لبعض الرجال بـــالنوم بينما بقى الآخرون للمراقبة؛ صنع هوك لنفسه فراشًا على حافة مكسوة بالطحالب، ولابد أنه نام ساعة على الأقل قبل أن يوقظه وقع المزيد من الحوافر. أشرقت الشمس الآن تمامًا وتدفقت عبر الأوراق الخضراء. ثمة دزينة من الفرسان على الطريق. أحدهم كان السير چون كورنويل. كانت الخيل ترتجف وتجفل، وخمن هوك أنها سبحت للتو إلى الشاطئ ولا تزال قلقة مـــن مـــواطئ أقدامها. صاح السير چون فى الرماة:

- إلى الحافة التالية!

والتقط هوك بسرعة جعبة أسهمه وحقيبة قوســـه، تبـــع الرماة تجاه الشرق وسار الجنود بخيولهم خلفهـــم دون عجلـــة ظاهرة.

كان المشهد من الحافة الأخرى مذهلاً، كان البحـــر إلـــى يمين هوك يضيق تجاه مصب الـــسين وتغطـــى ضـــفة النهـــر الجنوبية التلال المكسوة كلها بالشجيرات، وإلى الغرب أيـــضًا، كان هناك المزيد من التلال، وكانت فى نظر هوك تتلألأ تحـــت الشمس الصباحية بينما الطريق يمتد عبر الغابة والحقول إلـــى مدينةٍ ومرفأ ملحق بها، كان المرفأ صغيرًا تحميه أسوار المدينة

التى بنيت حول الميناء، تاركة فقط مدخلاً صغيرًا يؤدى إلى قناة ضيقة تلتف إلى البحر، توجد المدينة نفسها خلف الميناء يحيط بمنازلها كلها وكنائسها سور حجرى كبير يعزلها عن المنازل التى أنشئت خارج محيطه. لم تستطع المنازل التى تنتشر حول كل أرجاء المدينة أن تخفى الأبراج الكبيرة التى ترصع السور. عَدّ هوك الأبراج. أربعة وعشرون. ترفرف بينها الرايات التى علقت عليها وعلى الأسوار. كان الرماة بعيدين جدًا أن يروا تفاصيل الأعلام، لكن الرسالة التى تقولها كانت واضحة. لقد علمت المدينة بنزول الإنجليز وتعلن تحديها لهم.

أعلن السير چون للرماة:

-هارفليه[١١]، عش القراصنة الملاعين! إن من يعيشون هنا هم أوغاد، ياشباب! إنهم يغيرون على سفننا

---

(١١) هارفليه (Harfleur): هى كوميون يوجد فى إقليم هوت نورماندى (نورماندى العليا) فى شمال فرنسا لستة قرون. عُرفت هارفليه فى العصور الرومانية على أنها الميناء الرئيس. ربط طريق رومانى بين هارفليه وطروادة. فى عام ١٤١٥، احتلها الملك هنرى الخامس ملك إنجلترا. من أشهر الأماكن كنيسة القديس مارتين ويعود تاريخ بنائها إلى القرن ١٤، ومتاحف القرن الخامس عشر للصيد والأثريات والتاريخ. (المترجم).

ويغيرون على شاطئنا وسنطردهم من المدينة كما تُطرَد الفئران من صومعة!

تمكن هوك من رؤية المزيد الآن. أمكنه أن يرى النهـــر يتدفق إلى المدينة ويدخلها من تحت قنطرة عظيمة، ويجرى عبر المنازل ليصب عند المرفأ المحاط بالـــسور. ولكـــن مـــواطنى هارفليه قد حُذِّروا فى اليوم السابق من قدوم الإنجليـــز، فـــسدوا مدخل القنطرة ولذا يفيض النهر الآن ليمتد إلى بحيـــرة كبيـــرة على الجانبين الشمالى والغربى من المدينة. بدت هارفليه تحـــت شمس الصباح كجزيرة محاطة بسور.

مرق سهم من فوق رؤوسهم. رأى هوك رفرفة انطلاقـــه بالأسفل إلى يساره، وهو ما يعنى أن من أطلقه موجود فى الغابة شمال الطريق. هبط السهم فى مكان ما بين الأشجار خلفه.

قال أحد الجنود الممتطين الخيول باستخفاف:

- أحدهم لا يحبنا.

قال آخر بحدة:

- هل رأى أحدٌ من أين انطلق؟

أشار هوك ونصف دزينة من الرماة الآخرين إلى نفس البقعة من الأشجار الكثيفة والشجيرات النامية.

كان الطريق يمتد أمامهم، ثم يسير مستقيمًا مائة خطوة حتى حافة منحدر، قبل أن يعاود الهبوط نحو المدينة التى يلفها الفيضان. ورامى السهام هذا فى مكان ما على الحافة الواسعة المغطاة بالأشجار.

قال السير جون بهدوء:

- أظنه سيذهب بعيدًا.

قال شخصٌ آخر مقترحًا:

- ربما كان هناك أكثر من واحد.

قال السير جون:

- أظن أنه شخص واحد فقط، هوك؟ هل تريد أن تجلب هذا الرجل البائس من أجلى؟

جرى هوك إلى اليسار، واندفع إلى الأشجار ثم انعطف فى المنحدر القصير. وصل إلى الحافة العريضة وهناك بدأ يتحرك ببطء أكبر آخذاً طريقه بحرص حتى لا يصدر ضجة. أوتر القوس. إن جدوى القوس مشكوك فى أمرها بين الأشجار

الكثيفة لكنه لا يريد أن يواجه راميًا دون أن يكون لديه سهم فى قوسه.

كانت الغابة من أشجار البلوط والدردار والقليل من القيقب[١٢]، أما الشجيرات فكانت من الزعرور البرى والبهشية

---

(١٢) القيقب (Maple): جنس نباتى يوجد منه حوالى ١٢٥ نوعًا. أغلب أنواع القيقب من الأشجار النفضية، وأنواع قليلة منها دائمة الخضرة تنمو غالبًا فى أسيا. بعض أنواعها صغيرة ولا يزيد ارتفاعها على ١٢ مترًا، ولكن بعض الأنواع يكسر تلك القاعدة ويصل ارتفاعه إلى ٣٠ مترًا. تنمو أوراق القيقب فى أزواج، كل ورقة فى عكس اتجاه الأخرى. وهى ذات فلقتين ولها ألوان جذابة فى الخريف. تسمى ثمار القيقب بالثمار المجنحة أو الجناحية حيث يمتد غلافها على شكل جناح طويل. نبات القيقب له العديد من الأنواع منها: القيقب الأحمر الذى ينمو فى أمريكا الشمالية، القيقب الإيطالى، القيقب البنسلفانى، القيقب الدائرى، القيقب الفضى سريع النمو، القيقب العريض الأوراق، القيقب السكرى. يستخرج من القيقب السكرى شراب الإسفندان وهو نسغ (عصارة) سكرى ذو لون بنى ذهبى. يستخدم هذا الشراب فى صناعة الحلوى، وفى إكساب الأطعمة والمشروبات نكهة طيبة. قد تزرع أشجار القيقب للاستفادة من أخشابها فى أوروبا واليابان وأمريكا الشمالية، فتعد أشجارها ثمينة القيمة بسبب الطلب عليها. (المترجم).

وكان هناك نبات الهدال[١٣] الطفيلى الذى تصاعد عاليًا على أشجار البلوط وهو ما رآه هوك نادرًا فى إنجلترا. كانت جدته تُقَدِّر هدال البلوط الطفيلى وتستخدمه فى العديد من الأدوية التى كانت تصنعها للقرويين وحتى من أجل اللورد سلايتون عندما ضربته حمى المستنقعات. كان استخدامها الرئيس للهدال فى

---

(١٣) الهدال (Mistletoe): نبات طفيلى يلتصق بأغصان الأشجار ويتغذى عليها، دائم الخضرة وله أوراق جلدية رقيقة وسميكة تتكاثف ملتفة حول بعضها. يغلب على أوراقه اللون الأخضر الشاحب. ثمارة كروية الشكل أحادية البذرة، شفافة مما يُظهر محتواها. يزهر النبات ما بين أذار وينسان، فهو يستوطن فى أوروبا وبعض بلدان حوض البحر المتوسط وغرب وجنوب أسيا. وهذا النبات مغطى بالألاف من الغدد الزيتية، التى تحتوى على العديد من الزيوت الطيارة. قصة نبات الهدال موغلة فى القدم منذ مهد الرسالات، فهو نبات ذو رائحة عطرية أخاذة. كان الزيت الأساسى المستخرج منه يستخدم فى علاج العلل والأسقام، وذلك بالدهان الخارجى للجسم بهذا الزيت. وعندما تطحن جذور هذا النبات، وتغلى مع الماء فإنها تصبح دواءً ناجحًا لعلاج الأمراض التالية: تنقية الشرايين، علاج الأورام، تخفيف سرعة ضربات القلب، تشققات الجلد، مفيد فى حالات الصداع، توقف النزيف، كما يساعد فى حالات القلق والاكتئاب، حالات الصرع. يستخدم هذا النبات فى صناعة دواء طبيعى فى أوروبا من أجل زيادة المناعة ضد مرض الإيدز. (المترجم).

علاج النساء العاقرات، حيث كانت تسحق معه ثمار التوت الصغيرة مع جذور المانجروف[١٤] ويُرَطَّب الخليط كله ببول أحد الأمهات؛ كان فى القرية امرأة خصيبة تدعى مارى كارتر، أنجبت خمسة عشر طفلاً من الأبناء الأصحاء وعادة ما كان هوك يُرسِل بوعاء يطلب بولها، وقد ضربته جدته ذات مرة حين عاد بالوعاء فارغًا إذ رفضت أن تصدق أن مارى كارتر لم تكن بالمنزل؛ تبول هوك فى الإناء بنفسه فى المرة التالية ولم

---

(١٤) المانجروف (Mangrove): أشجار تعيش فى البيئات الشاطئية المالحة، تتكون الكلمة الأجنبية "Mangrove" من كلمتين الأولى برتغالية "Mangve" وتعنى شجرة، والثانية إنجليزية "Grove" وتعنى مكان الأشجار. ومصطلح المانجروف يُستخدم ليشمل كلا من الشجيرات والأشجار من ذوات الفلقتين والفلقة الواحدة، وقد اقترح بعض العلماء اقتصار هذه الكلمة لتشير إلى النباتات المكونة لغابات هذه النباتات. يُعد المانجروف من أهم النباتات التى تساعد على عملية التوازن البيئى، فأشجار المانجروف تعتبر ملاذًا للعديد من القشريات مثل السرطان والجمبرى. تتغذى أشجار المانجروف عن طريق جذورها الهوائية والتى تقوم بامتصاص المواد العضوية من التربة الطينية. تعد مناطق أشجار المانجروف من أجمل المناطق التى يمكن للسائح زيارتها لما تتمتع به من جمال خلاب وما تحتوى عليه هذه الأشجار من أشكال متعددة. وعندما تقع أغصان هذه النباتات فى البحر فإنها تُخرج شجرة مانجروف جديدة. (المترجم).

تلاحظ جدته الفارق أبدًا. كان يفكر فى هذا ويتساءل إذا كانت ميليساند ستصير حاملاً، حين سمع الصوت العنيف، صوت سريع لإطلاق قوس. كانت الضجة قريبة، جثا وزحف إلى الأمام، وفجأة رأى مُطلِق السهام. كان صبيًا ربما فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر. وكان تنفسه مسموعًا وهو يعمل على إعداد سلاحه. كان لرأس القوس ركاب، وضع الصبى قدمه عليه وفى عقبه مقبض سحب الصبى منه الوتر بيديه للخلف. كان عملاً شاقًا، والصبى يعبس مع المجهود الذى يبذله ليشد الوتر الغليظ من قامة سلاحه. كان يستجمع تركيزه بشدة، حتى أنه لم يلحظ هوك حتى أمسك به الأخير من ياقة معطفه من الخلف. ضرب الصبى هوك ثم أخذ فى الصياح، وهوك يصفعه على رأسه.

قال هوك:

- أنت غنى، أليس كذلك؟

كان معطف الصبى الذى يمسكه هوك من ياقته مصنوعًا من قماش صوفى منسوج بدقة. سرواله وحذاؤه باهظا الثمن، وبدا قوسه الذى أمسكه هوك بيده اليمنى وكأنه قد صنع خصيصًا من أجل الصبى فقد كان أصغر كثيرًا من قوس

الرجال والمقبض من جوز الهند ورصع بجمال بالفضة والعاج بنقوش تصور صيد غزال فى الغابة. قال هوك بمرح:

- ربما يشنقونك يافتى.

وخرج إلى الطريق، وهو يدس الصبى تحت ذراعه الأيسر وقوسه والقوس الثمين فى ذراعه الأيمن. تسلق التل عائدًا حيث يصطف الرماة على الحافة والجنود على خيولهم يسدون الطريق. قال هوك بمرح وهو يلقى بالصبى جوار حصان السير چون:

- ها هو ذا العدو يا سير چون!

قال فارسٌ بإعجاب:

- عدو شجاع.

ورفع هوك بصره ليرى الملك. كان الملك هنرى يرتدى دروعه المعدنية، ومعطفًا عليه شعاره الملكى، وخوذة يحيطها تاج ذهبى، رغم أن مقدمة الخودة كانت مرفوعة ليبدو منها وجهه ذو الأنف الطويل والندبة الغائرة القاتمة. نزل هوك على ركبتيه وجر الصبى معه للأسفل.

سأل الملك الصبى بالفرنسية:

- اسمك؟

لم يجب الصبى، وحدق فقط إلى الملك هنـــرى. صـــفعه هوك على رأسه ثانية.

قال الصبى بتجهم:

- فيليب.

سأله الملك هنرى:

- فيليب، فقط فيليب؟

أجاب الصبى بجرأة:

- فيليب دى رُوِّيل.

قال الملك بصوت مرتفع كفاية ليسمعه كل من فوق التل:

- يبدو أن السيد فيليب هو الرجل الوحيد فى فرنسا الذى يجرؤ على مواجهتنا لقد أطلق سهمين علينا.

ثم استطرد بالفرنسية ثانية:

- تحاول قتل ملكك أيها الصبى، وأنا الملك هنا. أنا ملك نورماندى وملك أكواتين وملك بيكاردى وملك فرنسا، أنا ملكك.

وأرجح ساقه من فوق السرج ونزل على العشب. انـــدفع أحد الأتباع ليمسك بلجام حصان الملك، وخطا الملـــك هنـــرى خطوتين إلى الأمام ليقف عند رأس فيليب دى رُوِّيل، وقال:

- لقد حاولت قتل ملكك.

وسحب سيفه فأصدر النصل صليلاً وهو يغـــادر غمـــده، وتساءل الملك هنرى بصوت جهورى:

- ماذا نفعل مع صبى حاول قتل ملك؟

قال أحد الخيالة بصوت هادر:

- تقتله يا مولاى.

رفع الملك سيفه. ارتعد فيليب، لمعت عيناه بدموع الخوف لكن وجهه لايزال يحمل التحدى والعناد، ثم أجفل عندما انـــدفع النصل هابطًا.

توقف السيف فوق كتفه بمسافة بوصة. ابتسم هنرى ونقر بالسيف مرة ثم نقر به أخرى على كتف الصبى الآخر، وقـــال بهدوء:

- أنت شخص شجاع. انهض يا سير فيليب.

ضحك الفرسان، إذ سحب هوك الصبى الجاحظ العينين موقفًا إياه على قدميه.

كان الملك هنرى يرتدى قلادة ذهبية يتدلى منها نحت عاجىّ لظبى طائر، كان الظبى رمزًا آخر من رموزه الشخصية لكن هوك عندما رأى الشعار لم يكن يعلم ماهية الحيوان ولا كان يعلم أنه شارة الملك الشخصية. خلع الملك هنرى القلادة من رقبته ووضعها حول رقبة فيليب، وقال:

- تذكار ليوم كان يجب أن تموت فيه يا فتى.

لم يجب فيليب. فقط نقل بصره من الهدية الثمينة إلى الرجل الذى منحها له، سأله الملك:

- والدك هو السير دى رُوِّيل؟

قال فيليب فى صوت أعلى قليلاً من الهمس:

- نعم، يا سيدى اللورد.

- إذن، أخبر والدك أن ملكه الشرعى قد أتى وأن ملكه رحيم، والآن اذهب يا سير فيليب.

أعاد الملك هنرى سيفه إلى غمده الأسود، نظر الصبى إلى قوسه فى يد هوك، فقال الملك:

– لا، لا، سنحتفظ بقوسك، عقابك سـيكون مـا سـيفعله والدك لفقدانه.

وأمر الملك هوك:

– دعه يذهب.

وبدا أنه لم يتعرف الرامى الذى تحدث معه فى البـرج. راقب الملك هنرى الصبى وهو يركض عبر المنحدر ثـم قفـز عائدًا على سرجه، وقال بحدة:

– لقد أرسل الفرنسيون صبيًا ليقوم بعملهم.

قال السير چون بحدة مماثلة:

– وعندما يكبر يا مولاى سنقتله.

قال الملك بصوت عال:

– إنه لنا، وهذه أرضنا! هؤلاء الناس رعيتنا!

حدق تجاه هارفليه لوقت طويل. ربما تكون المدينة مـن حقه ولكن للقوم داخلها رأيًا مختلفًا. غُلِّقَت أبوابها، ورفعت على أسوارها رايات المدافعين، وأغرق واديها بالماء. لقـد عقـدت هارفليه العزم على ما يبدو على أن تحارب.

قال الملك هنرى:

- دعونا ننزل الجيش على الشاطئ.

وبدأت الحرب مع فرنسا.

بدأ الجيش بالنزول على الشاطئ يوم الخميس، الخامس عشر من أغسطس عيد القديس أليبيوس(١٥) واستغرق الأمر

(١٥) القديس أليبيوس (Saint Alipius): ولد فى تاجت بنوميديا شمال إفريقيا، موطن صديقه القديس أجسطينوس الذى كان يكبره بسنوات قليلة. درس النحو مع أجسطينوس فى تاجت وعندما رحل أجسطينوس إلى قرطاجنة وفتح مدرسة النحو تبعه أليبيوس، غير أن خلافًا دبّ بين أجسطينوس ووالد أليبيوس، أدى هذا إلى منع أليبيوس من الحضور فى مدرسة أغطنيوس. على أى حال استغرق أليبيوس فى قرطاجنة فى مشاهدة الملاعب والمسارح. فيما بعد سمح له والده بالانضمام إلى مدرسة أجسطينوس لما عرف أنه السبب فى تغيير سلوك ابنه، حيث تغلّب أليبيوس على عادة الذهاب للمسارح. أراد أليبيوس اتباعًا لنصيحة والديه أن يبلغ مركزًا مرموقًا فى العالم. ذهب إلى روما ليدرس القانون وكان قد بدأ خطوات جادة نحو التحول إلى المسيحية، لكنه وجد ما قد عقله عن ذلك. لقد ضغط عليه أصدقاؤه ليذهب إلى المسرح فاعتذر لهم. وإذ ألحوا عليه قال لهم أنه وإن ذهب فسيبقى غائبًا بفكره، لكنهم لم يتوقفوا حتى حملوه معهم. إذ أخذ الكل أماكنهم أغلق أليبيوس عينيه=

حتى يوم السبت. عيد القديس أجابيتوس[١٦]، حتى تم إنزال آخر

=كى لايرى. فجأة صرخة دوت بين كل المشاهدين ففتح عينيه بدافع حب الاستطلاع ليرى أحد المصارعين قد جرح والدماء تنزف منه. إذ جاء أجسطينوس إلى روما صار أليبيوس ملاصقًا له، وذهب معه إلى ميلان عام ٣٨٤ م، وشاركه تحوله إلى المسيحية. عاشا هكذا ثلاث سنوات حتى سيم أجسطينوس كاهنًا على مدينة هيبو، ثم سيم إليبيوس كاهنًا، وقام برحلة تقوية إلى فلسطين التقى فيها بالقديس چيروم. وعند عودته إلى إفريقيا سيم أسقفًا على تاجت حوالى ٣٩٣م. يُحتفل بعيده فى يوم ١٥ أغسطس من كل عام. (المترجم).

(١٦) القديس أجابيتوس (Saint Agapetus): وُلد القديس أجابيتوس فى القرن الثالث من أبوين مسيحيين فى زمان الملكين الوثنيين دقلديانوس ومكسيميانوس، فربياه تربية مسيحية، يُذكر أنه عندما كان شابًا حكم عليه بالإعدام لأنه كان مسيحيًا، وقد أُلقى به مع الحيوانات البرية، ولكن يحكى أن هذه الوحوش رفضت أن تضره. أجرى الله على يديه آيات كثيرة منها أنه شفى صبية أضناها المرض وعجز الأطباء عن علاجها. وسمع بذلك ليكينيوس الولى فأستحضره كرهًا وعيّنه جنديًا فلم يمنعه هذا من مداومة النسك والعبادة، بل ازداد فى الفضيلة. وبعد قليل أهلك الله دقلديانوس وتولى بعده الملك قسطنطين الكبير وكان القديس يتمنى لو يُطلق سراحه، وقد أجاب الله أمنيته بعدما شفى ابنه. عاد القديس حيث كان أولاً وبقى فى موضع منفرد وبعد زمن رُسم قسًا، وبعد نياحة أسقف بلده طلبوا هذا القديس من رئيس الدير فسمح لهم=

رجل وحصان ومدفع وعربة إلى الشاطئ الذى تتناثر عليه الصخور. ترنحت الخيول وهى تسبح إلى الشاطئ. كانت تصهل وتثب وتبيض أعينها حتى هدأها السائسون. شق الرماة طريقًا أعرض من الشاطئ حتى الدير حيث نصب الملك خيامه، قضى الملك هنرى ساعات على الشاطئ يشجع العمل ويستحثه، وفى غير تلك الأوقات يركب إلى الحافة حيث حاول فيليب دى رُوِّيل قتله، ويحدق من هناك شرقًا إلى هارفليه. حرس رجال السير چون كورنويل الحافة، ولم يأت الفرنسيون ليحاولوا دفع الإنجليز للتقهقر إلى البحر. خرج بعض الفرسان من المدينة، لكنهم ظلوا بعيدين عن مدى سهام الرماة، يحدقون فقط إلى أعدائهم القابعين عند خط الأفق.

امتدت مياه الفيضان حول هارفليه. غمرت المياه بعض المنازل المبنية خارج الأسوار حتى لم يبق منها ظاهرًا سوى أسقفها لكن منطقتان متسعتان ممتدتان عند قاعدة البركة ظلتا جافتين هناك حيث تقع المدينة. تقود المنطقة الأقرب منهما إلى بوابة من بوابات هارفليه الثلاث استطاع هوك من مكمنه فوق التل أن يرى العدو يضع لمساته الأخيرة للحصن الضخم الذى

=به فرُسم أسقفًا. وتزايدت فضائله إلى أن تُوفى فى ١٨ أغسطس ٢٧٤م. يُحتفل بعيده فى ١٨ أغسطس من كل عام. (المترجم).

يحمى تلك البوابة. كان الحصن كقلعة ضخمة تسد الطريق، لذا فإن أى هجوم على البوابة سيكون عليه أولاً أن يتغلب على هذه التحصينات الجديدة الهائلة.

فى ظهيرة يوم الجمعة؛ عيد القديس هياكينث[١٧]، أُرسِل هوك ودزينة من الرجال ليجلبوا آخر خيول السير چون، والتى سبحت إلى الشاطىء نزولاً من السفينة (السيدة فالماوث)، تخبطت الحيوانات على العارضات الخشبية وقد ربط الرماة ألجمتها بحبل ليبقوها معًا. أتت ميليساند مع هوك، وربتت على أنف فرسها الأرقط الصغير (ديل) التى كانت هدية من زوجة

---

(١٧) القديس هياكينث (Saint Hyacinth): وُلد عام ١١٨٥، فى بلدة كامين سلاسكى ويُعرف باسم سان چاسينتو فى اللغة الأسبانية، وهو اسم لعدة بلدان ومواقع فى البلدان الناطقة بالأسبانية. ذهب فى جميع أنحاء أوروبا الشمالية لينشر الإيمان المسيحى. يُحكى فى أسطورته أنه كان عبدًا للقديسة أوچينى، الابنة المسيحية لحاكم مصر، التى هربت من بيت أبيها مع عبدها بسبب إيمانها. استطاعت أوچينى بعد مغامرات كثيرة تحويل عائلتها بالإضافة إلى مجموعة أخرى كبيرة إلى المسيحية، وكان من ضمن هؤلاء باسيللا السيدة الرومانية التى آمنت بسبب جهود هياكينث، فقُطعت رأسها معه وذلك فى منتصف القرن الرابع الميلادى. تحتفل به الكنيسة فى يوم ٩/١١ من كل عام. (المترجم).

السير چون، وغمغمت ببعض الكلمات تلاطف فرسها فقال ماثيو سكارليت:

- هذه الفرس لا تتحدث الفرنسية يا ميليساند! إنها فـــرس إنجليزية!

قالت ميليساند:

- إنها تتعلم الفرنسية.

قال ويليام بطريقته فى تقليد السير چون:

- لغة الشيطان.

وضحك الرماة الآخرون.

كان ماثيو سكارليت أحد التوأم، يقود (لوسيفر) حـــصان القتال الكبير الذى يخص السير چون، وقد جمح منه الحـــصان الآن، جرى أحد سائسى السير چون لمساعدته. كان هوك يمسك بزمام ثمانية أحصنة ويجرها نحو ميليساند ليضم الفرس (ديل) إليها وناداها باسمها، لكن ميليساند كانت تحملق فى الشاطئ وقد عبست. نظر هوك ليرى إلى أين تحدق؟

ركعت مجموعة من الجنود على الصخور، بينما يـــصلى قسيس، وللحظة ظن هوك، أن هذا هو ما استرعى انتباهها، لكنه

رأى قسًا ثانيًا خلف أحد الصخور الكبيرة مباشرة، ومعه الأخوان بيريل، وتطلع الرجال الثلاثة إلى ميليساند، وأحس هوك انطباعًا، ليس أكثر، أنهم قاموا بإشارات بذيئة. قال:

– ميليساند.

واستدارت إليه.

عبس السير مارتين. كان يحدق فى هوك الآن. وببطء رفع يده اليمنى وثنى أصابعه فلم يبق سوى إصبعه الأطول مفرودًا، ثم ببطء أيضًا انزلقت قبضته اليسرى على ذلك الإصبع الواحد، ورسم علامة الصليب بقبضتيه المشتبكتين تجاه هوك وميليساند، فقال هوك بهدوء:

– ابن الحرام.

تساءلت ميليساند:

– من هذا؟

قال هوك:

– إنهم أعداء.

كان الأخوان بيريل يضحكان.

قَدِم توم وماثيو سكارليت ليقفا مع هـوك وتـساءل تـوم سكارليت:

– هل تعرفهم؟

– أعرفهم.

رسم السير مارتين علامة الصليب قبل أن يستدير مجيبًا نداء أتاه. تساءل توم سكارلبت فى نبرة من عدم التصديق:

– إنه قس؟

قال هوك:

– قس، ومغتصب ومن الطبقة الارستقراطية لكن مـسه الشيطان، وهو شخص خطير.

– وتعرفه؟

قال هوك:

– أعرفه.

واستدار إلى الأخوين مستطردًا بعنف:

– عليكم جميعًا أن تعتنوا بميليساند.

قال ماثيو سكارليت:

- نحن نفعل هذا وأنت تعلم ذلك.

تساءلت ميليساند:

- ماذا يريد؟

قال هوك:

- يريدك أنت.

وفى تلك الليلة أعطاها القوس الصغير وجعبة أسهمه وقال:

- تدربى به.

فى اليوم التالى؛ عيد القديس أجابيتوس جُلِبَت المدافع الثمانية من الشاطىء. احتاج أحد المدافع، ويدعى (ابنة الملك)، إلى عربتين لنقل ماسورته الضخمة، التى كانت أطول من قامة ثلاثة أقواس، وفوهتها واسعة حتى أنها تسع برميل جعة. كان الآخر أصغر لكن كل واحد منها احتاج مجموعة أكثر من عشرين حصاناً لتجره إلى قمة التل.

ذهبت الدوريات شمالاً تجلب المؤن، وتستولى على عربات المزارع لتحمل المؤن والخيام والأسهم. وأشجار البلوط

المقطوعة حديثًا التي ستُهذب وتُشكَّل لبناء المجانيق وقذائفها التي ستضاف إلى أحجار المدافع، وجميعها يجب أن تُحمَل إلى أعلى التل، مما فرض احتياجًا للمزيد من العربات. ولكن في النهاية، تواجد كل الجيش وكل خيوله وكل امداداته على الشاطئ. اصطفت العربات المرهقة تحت شمس الظهيرة الساطعة على الطريق جوار الدير واحتشد الجيش الإنجليزي براياته المرفرفة حولها. ثمة تسعة آلاف رام، وثلاثة آلاف جندي، كلهم يمتطون الخيول.

هنالك غلمان الفرسان، وحاملو الدروع، والنساء، والخدم، والقساوسة، والمزيد من الخيول الاحتياطية ورفرفت الأعلام لامعة في رياح منتصف النهار، بينما امتطى الملك حصانًا بلون بياض الثلج جوار جيشه الذي يكسوه شعار الصليب الأحمر. كانت الشمس تتلألأ على التاج الذي يحيط بخوذته. وصل إلى خط الأفق، أعلى المدينة، وحدق لدقائق قليلة، ثم أومأ الى السير چون هولاند الذي سيكون له شرف قيادة المقدمة، وصاح الملك:

– ببركة الرب ياسير چون، إلى هارفليه!

نُفِخَت الأبواق ودُقَّت الطبول واندفع فرسان إنجلترا من حافة التل مرتدين صليب القديس چورچ وفوق رؤوسهم التي

تكسوها الخوذات ترفرف رايات ملكهم بألوانها الذهبية والحمراء والزرقاء والخضراء، وإذا نظر أى شخص من أسوار هارفليه فمن المؤكد أنه سيحسب التل يسكب كتلة مدرعة إلى مدينتهم.

وجهت ميليساند تساؤلاً إلى هوك قائلة:

- كم عدد الأشخاص الذين يعيشون فى المدينة؟

كانت تركب إلى جواره ويتدلى من سرجها القوس المرصع بالعاج والفضة الذى أعطاه إياها هوك، قال هوك:

- يظن السير چون أن لديهم مائة جندى فقط فى المدينة.

- فقط؟

قال هوك:

- ولكن هناك أهل المدينة أيضًا، وهم بالتأكيد ألفان وربما ثلاثة آلاف!

استدارت على سرجها إلى الصفوف الطويلة من راكبى الخيل التى ملأت الفراغ على جانبى الطريق، وقالت:

- ولكن كل هؤلاء الرجال!

كان قارعو الطبول فوق خيولهم يصنعون ضجة ليحذورا مواطنى هارفليه أن ملكهم الشرعى قد أتى غاضبًا.

ولكن الملك هنرى لم يكن هو الشخص الوحيد الذى يقترب من المدينة، فبينما كان الطوفان الإنجليزى يندفع من المنحدر تجاه الأرض الجافة غرب هارفليه كان هناك موكب آخر آت من الشرق. كانوا بعيدين جدًا لكن كان بالإمكان رؤيتهم. صف من الجنود والعربات. صف من الإمداد العسكرى يسير تجاه التحصينات. قال السير چون كورنويل وهو يشاهد الرجال البعيدين:

- هذا شيء يدعو للأسف.

أبدى بيتر جودينجتون ملاحظة:

- إنهم يجلبون المدافع.

قال السير چون بشيء من الدهشة:

- كما قلت، هذا شيء يدعو للأسف.

وغمز (لوسيفر) ذاهبًا إلى مقدمة الصف وتبعه اللوردات الآخرين بسرعة، كلهم يريد شرف أن يكون أول من يواجه المدينة المدافعة. شاهد هوك اندفاع الخيالة على التل، ثم الأرض

المسطحة، ثم رأى كتلة كبيرة من الدخان الأسود تنبت وتتصاعد من سور هارفليه. وبعد ثوان قليلة شق صوت المـــدفع هـــدوء الصيف، كأنه قد أحدث صدعًا عرضيًا بطيئًا فى بطـــن الـــتلال حيث أنشأ الميناء. ضرب حجر المدفع المروج حيـــث يتحـــرك الفرسان وقفز إلى الأعلى فى موجة على المرج ثم هبط نحـــو الأشجار خلفهم دون أن يحدث ضررًا.

وهكذا صارت هارفليه تحت الحصار.

بدا لـــهوك أنه لن يتوقف عن الحفر فى الأيام القليلة الأولى من الحصار. فى البدء كانت الخنادق من أكوام القاذورات والروث، قال توم سكارليت:

- لقد سقطت أمنا فى حفرة ملأى بالغائط ذات مرة، كانت سكرانة. وأسقطت بعض قطع النقود فى الحفرة وبعـــد ذلك حاولت البحث عنها بمشط الحدائق.

قاطعه ماثيو سكارليت:

- كانت خرزًا جميلاً، قطعًا من الفضة القديمـــة، ألـــيس كذلك؟

قال توعمه:

- قطع عملة، وجدها والدنا فى جـــرة مدفونــــة، فثقبهـــا وعلقها فى قطعة من وتر قوس قديم.

قال مات:

- الذى انكسر.

أكمل توم الحكاية:

- ولذا، حاولت الأم أن تبحث عنهـا بمـشط الحـدائق وسقطت ورأسها للأسفل.

قال مات:

- لقد استعادت النقود.

استطرد توم سكارليت:

- لقد استفاقت بسرعة كافية لكنها لم تستطع أن تتوقـف عن الضحك. أخذها والدنا إلى بركة البط ودفعها إليهـا جعلها تنزع كل ملابسها وبعد ذلك طارت كل البطـات بعيدًا، لقد فعلوا، أليس كذلك؟ امرأة فى كامـل عريهـا تنثر الماء وتضحك، كل القرية كانت تضحك.

كان أول أمر أعطاه الملك هو إحراق المنازل الواقعة خارج أسوار المدينة، لكى لا يقف شىء بين مدافعه والتحصينات، أُدِّيَت المهمة فى الليل فتدفقت ألسنة اللهب فى الظلام تضىء رايات المدافعين فوق أسوار هارفليه الشاحبة،

وطوال النهار التالى تصاعد دخان المبانى المحترقة بعد أن هدأت فورة النيران وغمر أرض التلال التى تحتضن الميناء، مما ذكر هوك بالدخان الذى غطى الأرض فى سواسون.

أكمل ماثيو سكارليت قصة أخيه:

- لم يكن القسيس سعيدًا، بالطبع لكن قسيس أبرشيتنا كان دائمًا قطعة من الغائط النتن. فأخذ أمنا إلى محكمة الضيعة الإقطاعية، لخرقها الأمن حسبما قال لكن سيده اللورد أعطاها ثلاثة شلنات لتشترى قماشًا وتحيك ملابس جديدة، وأعطاها قُبلَة لأنها سعيدة. وقال إن بإمكانها أن تسبح فى غائطه فى أى وقت تشاء.

تساءل بيتر سكويل:

- وهل فعلت؟

كان سكويل حالة نادرة، فهو رامى سهام ولد وترعرع فى لندن. كان صانع خلايا نحل، وأدين بالتسبب فى شجار قاتل، وحصل على عفو مشروط بالخدمة فى جيش الملك.

قال توم سكارليت:

- لم تفعل أبدًا. كانت تقول دائمًا أن حمامًا واحـدًا فـي الغائط يكفى طوال العمر.

قال الأب كريستوفر وقد سمع التوءم بوضوح وهما يقُصَّان روايتهما:

- حمام واحد كاف طوال العمر، احذروا من النظافة يـا فتية! لقد حذرنا القديس چيروم(١٨) المبارك أن الجـسد

---

(١٨) القديس چيروم (Saint Jerome): وُلد فى عام ٣٤٧ م فى مدينة ستريدون على حدود مالطيا من أسرة رومانية غنية وتقية. برع فى الفصاحة والبيان، فاهتم بنسخ الكثير من الكتب كنواة لإنشاء مكتبة خاصة به. كلفه البابا بإنجاز ترجمة للأناجيل من الآرمية والعبرية إلى اللاتينية، فقام بترجمة العهد القديم عن العبرية مباشرة والعهد الجديد عن اليونانية مباشرة ودُعيت ترجمته هذه بالفولجاتا أى العامة والتى صارت الترجمة المعتمدة للكنيسة الكاثوليكية على مدى عشرة قرون. أمضى القديس چيروم سنوات طويلة من عمره فى المغاور والاقبية تحت كنيسة المهد معتكفًا على كتبه، ليقدم أول ترجمة شاملة للكتاب المقدس بمنهجية واضحة. يكمن عمل چيروم الرئيسى فى إعادة ترجمة الكتاب المقدس من العبرية إلى اللاتينية، كانت هناك أعمال لچيروم منها قاموس الأسماء الكتابية والأصول اللغوية وتفسيرات كتابية. لم يستطع چيروم أن يدخل ترجمة جديدة لكتاب المزامير، فكل ما فعله هو إعادة تصحيح بعض الأمور فيه. كتب چيروم أيضًا سيرة بعض القديسين المتوحدين وبعض الكتب الدفاعية ضد من كان ينتقد حياة التوحد، يُحتفل بذكراه فى التقويم الغربى يوم ٣٠ سبتمبر. (المترجم).

النظيف يعنى روحًا غير نظيفة. وكانت القديسة آجنس[١٩] المعظمة تفخر أنها لم تستحم فى حياتها قط.

---

(١٩) القديسة آجنس (Saint Agnes): من أشهر شهيدات روما، قدمت حياتها ذبيحة حب وهى فى الثانية عشرة من عمرها، ذبيحة لله طاهرة وعفيفة لذا يُرمز إليها فى الغرب بأيقونتنا بالحمل، خصوصًا أن اسم آجنس يعنى حملاً. نشأت فى روما وقد اتسمت بالجمال البارع مع الغنى فتشاحن أبناء الأشراف عليها، وتقدم لها بروكبيوس ابن حاكم مدينة روما يطلب يدها مقدمًا هدايا ثمينة للغاية، فصارحته بأنها مخطوبة لعريسها السماوى. وإذ ظن أنها تحب غيره مرض، فقلق عليه والده وعرف سر مرضه. فاستدعى الفتاة وصار يلاطفها وإذ رفضت الملاطفة كبلها بالقيود بعد تعذيبها وسحبها إلى هيكل للأوثان لتسجد هناك فرفضت. إذ فشلت كل وسائل الحاكم من ملاطفة وتعذيب، أمر بسحبها إلى أحد بيوت الدعارة، أما هى فأجابت بأن يسوع المسيح غيور على مختاريه، لن يسمح لهم بالدنس. وإذ تجاسر أحدهم بوقاحة أصيب بعمى. وعندما شعر الوالى بالفشل أمر بقطع رأسها. انطلقت إلى مكان الاستشهاد فرحة أكثر من فرح كثيرات عند ذهابهن للعرس. ذرف من شهدوها الدموع إذ رأوا صبية جميلة تقدم حياتها للسيف بلا خوف، بقى الكل يبكون وبقيت هى وحدها متهللة! دُفن جثمانها بجوار طريق نومنتهان قريبًا من روما، حيث بنيت هناك كنيسة على اسمها فى السنة التالية لاستشهادها، تتميز أيقونتها برسم صورة حمل بجوارها إشارة إلى طهارتها، وأحيانًا يُرسم لهيب نار تحت قدميها إشارة إلى =

قال هوك:

- إن ميليساند لن تستحسن هذا، إنهـــا تحـــب أن تكـــون نظيفة.

قال الأب كريستوفر بجدية:

- حذرها، إن الأطباء كلهم يجمعون يا هـــوك أن غـــسل الجلد يضعفه ويسمح بدخول الأمراض!

وبعد ذلك عندما تم حَفرُ الحُفَرِ، انطلق هوك ومائة من الرماة الآخرين ممتطين الخيول شمالاً عبر وادى نهر ليزارد[٢٠]، وعادوا يحفرون ثانية، ليصنعوا هذه المرة سدًا عبر الوادى، هدموا دزينة من المنازل نصف الخشبية فى إحدى

= قبولها الاستشهاد بحب كذبيحة حية للرب، كما ترسم بشعر طويل ورداء للرجلين تذكارًا لعمل الله معها فى بيت الخطية حيث ستر عليها وحفظ جسدها من الدنس يُحتفل بعيدها يومى ٢١ و٢٨ يناير من كل عام. (المترجم).

(٢٠) نهر ليزارد (River Lézarde): هو واحد من الأنهار التى تنبع من الهضبة الجنوبية، فهو يصب فى نهر السين. يُقدّر طول هذا النهر بحوالى ١٤,٢ كم. يبلغ ارتفاع هذا المنبع ١٠٦ أمتار تقريبًا، أما مساحة المسطح المائى تُقدّر بحوالى ١١٦كم^2. يعمل هذا النهر بمكينات تعمل على معالجة كل من العجلات والنفط. المترجم.

القرى، واستعملوا العارضات الخشبية فى تقوية الحواف الأرضية الكبيرة التى ستوقف النهر. كان ليزارد صغيرًا وقد جففه الصيف لكن رغم ذلك استغرق الأمر أربعة أيام من الحفر الشاق لصنع حاجز مرتفع بما يكفى لتحويل أغلب مياه النهر إلى جهة الغرب. وعند عودة هوك ورفاقه إلى هارفليه كان ماء الفيضان قد انحسر جزئيًا رغم أن الأرض حول المدينة كانت لا تزال مشبعة بالمياه، والنهر نفسه لا يزال يسكب الماء على ضفتيه ليصنع بحيرة واسعة شمال المدينة.

ثم حفروا خنادق للمدافع. كان هنالك مدفعان قد أقيما بالفعل فى أماكنهما، أحدهما يدعى (اللندنى)، لأن أهالى لندن هم من دفعوا من أجله، وكانت قذائفهما الحجرية تضرب الحصن الذى بناه المدافعون خارج بوابة ليور. كان دوق كلارينس وهو أخو الملك قد زحف بوضوح حول المدينة، وقواته التى تمثل ثلث الجيش الإنجليزى تهاجم هارفليه من الجانب الشرقى. كان لديهم مدافعهم الخاصة التى أخذوها مصادفة من قافلة إمداد كانت آتية إلى هارفليه، أخذ المدفعيون الهولنديون بسعادة المال الإنجليزى وهم الذين استُأجِرُوا ليدافعوا عن هارفليه، فأداروا مدافعهم إلى دفاعات المدينة. كانت هارفليه محاطة الآن. لا يمكن أن تصلها أى إمدادات دون أن تقاتل لتعبر الجيش

الإنجليزى أو تبحر عبر الأسطول الملكى الحربى الذى يحرس مدخل الميناء.

وقد تسلق هوك وأربعون من الرماة الآخرين التل إلى الغرب من المخيم فى اليوم الذى تمت فيه أعمال حفر خنادق المدافع، سالكين الطريق الذى اتبعه الجيش فى اقترابه من هارفليه.

حفت أشجار البلوط الضخمة الحافة الأقرب، تلقى الرماة الأمر بقطع تلك الأشجار وتهذيب أغصانها الكبيرة المستقيمة، وبعد تقطيعها بطول قامة القوس، تُحمّل على العربات. كان اليوم حارًا. بقيت نصف دزينة من الرجال بطول الطريق، معهم المناشير الضخمة ذات المقبضين، بينما انتشر الباقون على الحافة. حدد بيتر جودينجتون الأشجار التى يريد إسقاطها وخصص اثنين من الرماة لكل شجرة. كان هوك و ويل هما تقريبًا الأبعد جهة الجنوب، ولم يكن أقرب منهما إلى البحر سوى التوءم سكارليت. كانت ميليساند مع هوك. كانت يداها مهترئتين من غسيل الملابس ومازال هناك المزيد من الملابس التى يجب أن تُغلى وتنظف فى المعسكر، لكن وكيل السير چون سمح لها أن تصحب هوك. كانت تحمل القوس الصغير على ظهرها ولم تكن تترك مجموعة السير چون دون السلاح. وقد قالت لهوك:

- سأقتل ذلك القسيس إذا لمسني وسأقتل أصدقاءه.

أومأ هوك ولم يقل شيئًا. وقد دار بخلده أنها قد تصيب واحدًا منهم، لكن السلاح يحتاج وقتًا طويلاً لوضع سهم آخر به، ولن يكون لديها فرصة لتدافع عن نفسها سوى ضد شخص واحد.

كانت الأشجار تكتم صوت انطلاق المدفع، وتكتم صوت اصطدام القذائف الحجرية بأسوار هارفليه. كان صوت الفؤوس عاليًا، وتساءلت ميليساند:

- لماذا ابتعدنا كثيرًا عن المعسكر.

قال هوك:

- لأننا قطعنا كل الأشجار الكبيرة القريبة.

كان قد تجرد من ملابسه حتى خصره، وعضلاته الضخمة تدفع بالفأس إلى عمق جذع شجرة البلوط فتتطاير رقائق الخشب.

أضاف ويل:

- ونحن لسنا على ذلك البعد الكبير من المعسكر.

كان قد تراجع للخلف، ووقف تاركًا هوك يقوم بالعمل ولم يمانع الأخير فى ذلك. كان معتادًا على استخدام فأس حارس الغابة.

فردت ميليساند القوس، ووجدت ذلك شاقًا، ولم تدع هوك ولا ويل يساعدانها فى سحب مقبضه المزدوج. وكانت تتصبب عرقًا عندما استطاعت أن تسحب القوس إلى مداه الكامل. وضعت سهمًا ثم صوبت على شجرة لا تبعد أكثر من عشر خطوات. قطبت، وعضت على شفتها السفلى، ثم سحبت الزناد، وشاهدت السهم وهو يطير على بعد قدم، وينزلق عبر الشجيرات النامية خلفها. قالت قبل أن يتسنى لأى رجل منهم الضحك:

- لا تضحكوا.

قال هوك وهو يبتسم ابتسامة عريضة تجاه ويل:

- أنا لا أضحك.

قال ويل:

- وأنا لا أجرؤ.

قالت ميليساند:

- سأتعلم.

قال هوك:

- ستتعلمين أفضل لو أنك أبقيت عينيك مفتوحتين.

قالت:

- إنه أمر صعب.

نصحها ويل:

- انظرى عبر السهم، امسكى القوس بإحكـــام واســـحبى الزناد بلطفٍ وبطء، وليباركك الرب عندما تطلقينه.

وأضاف كلماته الأخيرة تلك بصوت الأب كريستوفر الخبيث.

أومأت، ثم شدت القوس مرة أخرى. واستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى يصدر نقرة تدل على وصوله إلى مداه الأقصى، وبدلاً من أن تطلقه وضعته على أوراق الشجر المتربة. وبقيت تراقب هوك فقط، وتفكر كيف يجعل إسقاط شجرة بلوط ضخمة يبدو سهلاً، بالضبط كما يجعل إطلاق القوس يبدو سهلاً.

قال ويل:

- سأرى إن كان التوءم يحتاجان إلى مـــساعدة لأنـــك لا تحتاجها يا نيك.

وافقه هوك:

- لا أحتاج، لذا اذهب وساعدهما. إنهما ابنا طحان مما يعنى أنهما لم يقوما بالأعمال اليومية الشاقة قط فى حياتهما.

التقط فأسه وجعبة سهامه وقوسه المحفوظ فى جرابه، واختفى بين الأشجار الجنوبية. راقبته ميليساند يمضى ونظرت إلى الأسفل نحو القوس المشدود وكأنها لم تر شيئًا كهذا من قبل، قالت بهدوء:

- لقد تحدث الأب كريستوفر إلىّ.

سألها هوك:

- حقًا؟

وتطلع إلى الأعلى، إلى الشجرة ثم ألقى نظرة على القطع الذى أحدثه بها وقال يحذرها:

- هذا الشيء الضخم سيسقط خلال دقيقة.

وذهب إلى الجهة الخلفية من الجذع وضرب الخشب بالفأس. ثم سحب الفأس.

- إذن ماذا يريد الأب كريستوفر.

– كان يريد أن يعرف إذا كنا سنتزوج.

– نحن؟ نتزوج؟

ضُرِبَت الفأس مرة أخرى وسقطت بضربتها رقاقة من الخشب حين سحب هوك النصل. ودار بخلد هوك أن الأمر قد يحدث فى أى لحظة الآن.

بإمكانه أن يحس التوتر فى شجرة البلوط، التمزق الصامت للخشب الذى يسبق موت الشجرة. تراجع إلى الخلف، ليقف جوار ميليساند التى كانت تقف بعيدة كفاية عن الجذع. لاحظ أن القوس لا يزال مشدودًا وكان على وشك إخبارها أنها تُضعف القوس إذا تركته مشدودًا، ثم قرر أن هذا ربما لا يبدو شيئًا سيئًا. إن قوسًا ضعيفًا سيساعدها على جذبه بسهولة وتساءل ثانية:

– نتزوج؟

– هذا ما قاله.

– وماذا قلت؟

قالت وهى تحدق إلى الأرض:

– لست أدرى، ربما؟

كرر هوك:

- ربما.

وعندها تشقق الخشب وتمزق؛ سقطت شجرة البلوط الضخمة فى البداية ببطء ثم تسارع ذلك مع تحطم الفروع والأوراق لترتطم بالأرض. صرخت الطيور، ولوهلة أصاب الذعر الغابة ثم تراجع مخلّفًا تردد أصوات الفؤوس الأخرى، قال هوك ببطء:

- أظن، ربما هذه فكرة جيدة.

- حقًا.

أومأ قائلاً:

- أظن ذلك.

نظرت إليه ولم تقل شيئًا لوهلة ثم التقطت القوس، وقالت:

- أَنظُر عبر السهم وأمسك القوس بإحكام؟

قال هوك:

- وتطلقين بلطف، واحبسى أنفاسك عنــدما تطلقــين ولا تتطلعى إلى السهم. انظرى فقط إلى المكان الذى تريدين للسهم أن يذهب إليه.

أومأت بالموافقة، ووضعت السهم فى الوتر، وصوبت إلى نفس الشجرة التى أخطأتها من قبل. كانت أقرب إليها بمسافة قدمين الآن. راقبها هوك، ورأى التركيز على وجهها، ورأى ارتعادتها وهى تتوقع انطلاقة السلاح؛ حبست أنفسها، وأغلقت عينيها، وسحبت الزناد، وانطلق السهم أمام حافة الشجرة، ليختفى عند المنحدر البعيد. تطلعت ميليساند يائسة إلى حيث ذهب.

قال هوك:

- ليس لديك الكثير من السهام، وهذه أسهم خاصة.

- خاصة؟

قال:

- إنها أصغر من أغلب السهام، لقد صنعت خصيصًا لتلائم ذلك القوس.

- أعلىّ أن أجد تلكما اللذين أطلقتهما؟

ابتسم ابتسامة عريضة.

- سأقطع اثنين من هذه الأغصان الصغيرة وعليكِ أن تجدى هذين الاثنين.

- بقى لدى تسعة.

- أحد عشر ستكون أفضل.

وضعت القوس على الأرض، وأخذت طريقها نزولاً على المنحدر لتختفى فى الشجيرات التى اكتست بضوء الشمس. سحب هوك القوس وشد وتره بسهولة آملاً أن يضعف الضغط المستمر قامة القوس. وقد يساعد هذا ميليساند ثم عاد إلى تشذيب الفروع، وتساءل: لماذا طلب الملك كل هذه القطع المستقيمة من الخشب بطول قامة القوس؟ وقرر أن هذا ليس من شأنه، وقام بعمل قصير، فأتم الفرع الثانى، ثم الثالث. سيُنشَر هذا الجذع الهائل فى نهاية المطاف ولكن فى هذه اللحظة سيتركه حيث سقط. شذب المزيد من الفروع الأصغر، وسمع صوت الانهيار الطويل لشجرة أخرى فى مكان ما على الحافة؛ تطايرت الحمائم من بين الأوراق. فكر أن يذهب ويساعد ميليساند لإيجاد السهام لأنها قد ذهبت بعيدًا للغاية. ولكن ما أن دارت الفكرة بخلده، حتى رآها تعود راكضة، وقد ارتسم القلق على وجهها، وجحظت عيناها عن آخرهما، وأشارت إلى أسفل المنحدر غربًا وقالت:

- هناك رجال.

قال هوك:

- بالطبع هناك رجال.

وقطع فرعًا بطول ذراع رجل بضربة فأسٍ بيد واحدة.

- نحن فى كل أرجاء المكان.

همست ميليساند:

- رجال مسلحون.

ثم استطردت بالفرنسية:

- فرسان.

قال هوك:

- ربما رفاقنا.

فالجنود يقومون بدوريات على الخيول فى المناطق الريفية المجاورة كل يوم بحثًا عن إمدادات ويترقبون الجيش الفرنسى الذى يظن كل شخص أنه سيأتى لنجدة هارفليه.

همست ميليساند:

- إنهم فرنسيون.

راود هوك الشك بشأن ذلك لكنه طوح بالفأس ليغرس نصلها فى جذع الشجرة الساقط، وقفز إلى الأسفل وأخذ ذراعها قائلاً:

- دعينا نلق نظرة.

ثمة رجال بالفعل. فرسان فى حقل السرخس الكثيف الذى يتلوى عبر الأشجار العالية. تمكن هوك من رؤية دزينة منهم فى صف منفرد يتبعون الطريق عبر الأشجار، لكنه شعر بأن هناك المزيد من راكبى الخيول خلفهم، ورأى أيضًا أن ميليساند كانت محقة. لم يكن الفرسان يرتدون صليب القديس چورچ. كانوا يرتدون معاطف، لكن أيًا من شعارتها لم يبد مألوفاً وكان الخيالة يرتدون دروعهم المعدنية، وكلهم يرتدى الخوذات. كانت مقدمة خوذاتهم مرفوعة، واستطاع هوك أن يرى تألق عينى الفارس الذى يقودهم تحت ظل الفولاذ. رفع الرجل يده ليوقف الصف، ثم نظر بإمعان إلى أعلى المنحدر محاولاً أن يستكشف من أين يأتى صوت ضربات الفؤوس بالضبط. وبينما هو يحدق ظهر المزيد من الفرسان من بين الأشجار البعيدة.

همست ميليساند:

- فرنسيون.

قال هوك بهدوء:

- هم كذلك.

كان أغلب الرجال يحملون سيوفهم مجردة من أغمادها.

تساءلت ميليساند وهى لا تزال تهمس:

- ماذا نفعل، نختبىء؟

قال هوك:

- لا.

لأنه كان يعلم ما يجب عليه فعله، كانت معرفة غريزية ولم يراوده الشك بشأنها وكذا لم يتردد. قادها عائدين إلى الشجرة الساقطة، والتقط القوس المشدود ثم ركض عبر الحافة، وصاح:

- الفـــرنسيون! إنهم قادمون! عـــودوا إلـــى العربـــات! بسرعة!

وظل يصيح بها المرة بعد الأخرى.

- عودوا إلى العربات!

ركض فى البدء إلى يمينه بعيدًا عن العربات بحثًا عن توم سكارليت و ويل واقفين يحدقان.

قال هوك:

- ويل، استعمل صوت السير چون. أخبرهم أن الفرنسيين هنا، وأعدهم كلهم إلى العربات.

وقف ويل فاغرًا فاه.

قال هوك بخشونة وهو يهز كتفى النجار:

- استخدم صوت السير چون، إن الفرنسيين الملاعين قادمون! اذهب الآن! أين مات؟

وجه السؤال الأخير إلى توم سكارليت الذى أشار فى صمت إلى جهة الجنوب.

أطاع ويل أمر هوك. أسرع عائدًا إلى القمة واستخدم تقليده لصوت السير چون الأجش ليجذب الرماة إلى حيث تنتظر العربات الكبيرة على الطريق. كان بيتر جودينجتون فى حيرة من هذا التقليد يبحث عن السير چون لكنه وجد هوك وميليساند وتوم سكارليت بدلاً منه، وتساءل جودينجتون فى غضب:

- ماذا يحدث بحق اسم الرب؟

قال هوك مشيرًا إلى المنحدر الغربى:

- الفرنسيون، أيها الرقيب.

قال جودينجتون:

- لا تكن سخيفًا يا هوك، ليس ثمة أى من الفرنسيين الملاعين هنا.

قال هوك:

- لقد رأيتهم، رجال مسلحون. كانوا يرتدون دروعهم ويحملون سيوفهم.

قال جودينجتون فى إصرار:

- إنهم رجالنا أيها الأحمق، ربما مجموعة من الرعاة.

كان رقيب الرماة واثقًا جدًا من نفسه، مما جعل هوك يبدأ فى الشك فيما رأى، وزاد من شكه أن الفرسان وهم بالتأكيد قد سمعوا الصياح على القمة، لم يُبدُوا أى ردة فعل. لقد توقع أن يندفع الجنود فوق المنحدر، وينبثقوا من خلال الأشجار لكنه رغم ذلك تمسك بقصته، وقال لجودينجتون:

- هناك نحو عشرين منهم، فى دروعهم وبأزياء غريبة، لقد رأتهم ميليساند كذلك.

نظر الرقيب إلى ميليساند وقرر أن رأيها غير ذى قيمة وقال بتذمر:

- سألقى نظرة، أين قلت إنهم موجودون؟

قال هوك وهو يشير بيده:

- فى الأشجار أسفل المنحدر، إنهم ليسوا على الطريــق، إنهم بين الأشجار. يبدو أنهم لا يريدون أن يراهم أحد.

قال الرقيب على مضض:

- من الأفضل ألا تكون متوهمًا.

ونزل على المنحدر.

وجه هوك سؤاله إلى توم سكارليت ثانية:

- أين مات؟

أجاب توم سكارليت:

- لقد ذهب إلى البحر.

نادى هوك بصوت عال وهو يضم يديه أمام فمه:

- (مااااات).

لكنه لم يتلق أى إجابة. تنهدت الرياح بين الفروع وغردت طيور الشرشور[٢١] بكثافة فى مكان ما على المنحدر الشرقى. صدر صوت انطلاق مدفع من خطوط الحصار، وتردد صداه فى أرض التلال واختلط بصوت ارتطام الصخرة بالسور. لم يستطع هوك سماع صلصلة ألجمة الخيول، ولا قعقعة الحوافر، وتساءل هل كان قد توهم رؤية الفرسان؟ توقف الصياح فوق القمة. مما يوحى أن الرماة المرتبكين احتشدوا بالتأكيد عائدين عند العربات.

قال توم سكارليت بعصبية:

– نحن لم نر البحر قط من قبل، ليس قبل أن نبحر إلـــى هنا، لقد أراد أن يلقى النظر عليه ثانية.

---

(٢١) طيور الشرشور (chaffinches): وتسمى أيضًا الحسون الظالم أو الصغنج (واسمه العلمى: Fringilla coelebs) وهو طائر صغير من الجواثم، مألوف جدًا فى جميع أنحاء أوروبا. يتواجد فى غرب آسيا، شمال غرب أفريقيا، جزر الكنارى وجزر ماديرا. على الرغم من أنه شائع فى الحدائق وعلى الأراضى الزراعية، فإنه يفضل الغابات المفتوحة، يبنى العش فى الأشجار ويزين خارجه بشكل يجعله أقل ظهورًا، يضع نحو ست بيضات. يخلى المناطق الباردة فى فصل الشتاء، حيث تغادر بعض الإناث، ويبقى الكثير من الذكور. (المترجم).

صاح هوك مرة أخرى:

- ماااات.

ومن جديد لم يتلق أى رد.

اختفى بيتر جودينجتون عند حافة القمة. أعطى هوك القوس إلى ميليساند. أخرج قوسه من جرابه وأوتره ووضع به سهمًا. سار إلى حافة التل، وحدق إلى الأسفل إلى نباتات السرخس. كان بيتر جودينجتون وحده فى الأخدود. لم يكن ثمة فرسان على مرمى البصر ونظر رقيب الرماة إلى الأعلى، وأعطى هوك نظرة اشمئزاز صرفة، وصاح:

- لا شىء هنا يا أحمق.

رأى هوك حينها فارسين يأتيان من الأشجار على اليمين فصاح:

- خلفك!

بدأ جودينجتون يركض متسلقًا المنحدر بينما رفع القوس وشد الوتر إلى الخلف وأطلق. حينها انحرف الجندى الأقرب لرقيب الرماة يسارًا. طاش السهم الحاد الرأس فضرب الدرع الذى يحمى كتف الرجل، نزل السيف، وبينما كان هوك يسحب سهمًا

ثانيًا من جعبته، رأى الدم ينبثق على أرض الغابة الخضراء فجأة، ورأى رأس بيتر جودينجتون تصطبغ باللون الأحمر، رآه يتعثر إذ ضربه الرجل الفرنسى الثانى بسيفه الذى كان يمسكه بإحكام كالرمح فى ظهره؛ سقط جودينجتون رقيب الرماة.

أطلق هوك ثانية؛ اندفع السهم ذو الريش الأبيض عبر الظل وضوء الشمس برأسه الخنجرية الشكل وقامته المصنوعة من البلوط، واخترق درع الرجل الثانى عند صدره، وألقاه خلفًا على سرجه الطويل، أتى المزيد من الفرسان الآن، واندفعوا من الأشجار الكثيفة بخيولهم تجاه المنحدر وأمسك توم سكارليت بذراع هوك بقوة وقال:

– نيك! نيك!

وفجأة حلّ الذعر، إذ كان هناك المزيد من الفرسان إلى يسارهم، بينهم وبين البحر، وأمسك هوك بكم ميليساند وجرّها إلى الخلف. لم يكن هوك قد رأى الصف الواقع إلى أقصى الجنوب، وأيقن هوك أن الفرنسيين قد أتوا فى مجموعتين على الأقل، ورأى هو واحدة فقط. وجرى بيأس وهو يسمع أصوات الحوافر تتصاعد أكثر وأكثر، وشد ميليساند بسرعة إلى أحد الجوانب. كان يراوغ كأرنب برى تطارده كلاب الصيد لكن بعد ذلك اندفع

أحد الفرسان أمامه وفى اندفاعه انزلق فوقع، استدار هوك إلى يساره بحثًا عن مأوى فى جذع شجرة بلوط عظيمة مجوفة. لم يكن ثمة مأوى على الإطلاق، لقد حوصر الآن. وما زال المزيد من الفرسان يأتون. ضحك أحد الراكبين من فوق سرجه إذ أحاط الجنود بميليساند والراميين.

قال توم:

- مات!

ورأى هوك أن ماثيو سكارليت قد أُخذ أسيرًا بالفعل. كان أحد الرجال الفرنسيين فى زيه الأزرق والأخضر يمسك به من ياقة معطفه، يجره جوار حصانه.

قال أحد الفرسان:

- رماة.

كانت الكلمة واحدة فى الفرنسية والإنجليزية ولم يكن أحد ليخطئ السعادة التى تحدث بها الرجل.

قالت ميليساند بالفرنسية وهى تلهث:

- أبى! أبى؟

ورأى هوك شعار الصقر الواقف أمام الشمس، كان الزى العسكرى مطرزًا حديثًا، ولامعًا، ربما كسطوع نصل السيف الذى امتد أمامه. وصل النصل إلى بعد راحة اليد من حلقه، ثم توقف فجأة. جلس الرجل مستقيمَ الأرجل على صهوة حصانه يحدق للأسفل إلى هوك. كان هناك فخذ ظبى ذبح حديثًا معلقًا فى مقبض سرجه، يقطر دمه على ساق الفارس المغطاة بالدروع. كان هذا جيلبير؛ سنيور دى لانفريل؛ سيد الجحيم.

كان اللورد ذا بهاء، يركب حصانًا رائعًا، ويرتدى درعًا معدنية يلمع كالشمس. كان وحده بين الفرسان حسير الرأس، ولذا بدا شعره الأسود الطويل منسدلاً تقريبًا حتى خصره. كان وجهه يلمع كالمعدن المصقول، ذى ملامح حادة، ولونه برونزى داكن، وأنفه كمنقار الصقر وعيناه المغطاتين تظهران المتعة، إذ حدق أولاً إلى هوك الذى يستوقفه نصل السيف ثم إلى ميليساند التى رفعت القوس المشدود. وإن كان لانفيريل أدهشه وجود ابنته فى غابة نورماندية فإنه لم يُظهِر ذلك. منحها ومضة من ابتسامة ساخرة ثم قال شيئًا بالفرنسية فتلمست الفتاة حقيبتها بارتباك وأخذت سهمًا ووضعته فى مجراه على السلاح. كان باستطاعة جيلبير؛ لورد لانفريل أن يوقفها بسهولة، لكنه ابتسم فحسب مرة أخرى إذ ارتفع السلاح الجاهز للإطلاق ثانية

مُصَوّبًا فى وجهه، تحدث بسرعة كبيرة للغاية أكثر من أن يفهمها هوك، وأجابته ميليساند بنفس السرعة، لكن بانفعال.

أتت صيحة من خلف هوك، من بعيد حيث ينحدر الطريق نحو المعسكر الإنجليزى. أشار اللورد لانفيريل إلى رجاله وأعطى أمرًا فاتجهوا إلى مكان الصياح. كانوا ثمانية عشر رجلاً نصفهم يرتدى الزى ذا الصقر والشمس، والبقية يرتدون الزى الأزرق والأخضر مثل الرجل الذى يمسك مات سكارليت أسيرًا، وكان هذا الرجل مع حامل الدروع الذى يرتدى شعار لانفيريل هما الوحيدين اللذين بقيا مع سيد الجحيم.

تحدث لانفيريل بالإنجليزية فجأة:

- ثلاثة رماة إنجليز.

وتذكر هوك كيف تعلم هذا الرجل الفرنسى اللغة الإنجليزية عندما كان أسيرًا ينتظر أن تُجمَع فديته.

- ثلاثة رماة ملاعين وأنا أعطى الذهب لرجالى ليجلبوا لى أصابع الرماة الملاعين.

ابتسم لانفيريل ابتسامة عريضة فجأة؛ فبدت أسنانه شديدة البياض فى مواجهة بشرته التى صبغتها الشمس بلون داكن.

- هنالك فلاحون بلا أصابع فى جميع أنحاء نورمانـــدى وبيكاردى لأن رجالى يغشون.

بدا فخورًا بذلك لأنه ضحك ضحكة مفاجئة كالنهيق.

- أتعلم أنها ابنتى؟

قال هوك:

- أعلم.

- إنها أجملهم! لدى تسعة، هؤلاء الذين أعرفهم، واحـــدة فقط من زوجتى، لكن هذه...

تطلع إلى ميليساند التى كانت لا تزال تمسك بالقوس مصوبًا إليه.

- هذه هى التى ظننت أننى أحميها من العالم.

قال هوك مرة أخرى:

- أعلم.

قال لانفيريل:

- كان يُفتَرض بها أن تصلى من أجل روحى لكن يبـــدو أن على أن أنجب بنات أخريات لو أردت نجاة روحى.

بصقت ميليساند بعض الكلمات التى لم تزد على أن جعلت ابتسامة لانفيريل تتسع. وقال وهو لا يزال يتحدث بالإنجليزية:

- لقد وضعتك فى الدير لأنك أجمل من أن يمتطيك أحد الفلاحين المبللين بالعرق، وأقل نسبيًا من أن يتزوجك رجل نبيل، ولكنك على ما يبدو قد وجدت الفلاح على أى حال.

وألقى نظرة ساخرة على هوك، واستطرد:

- وقد اقتُطِفَت الفاكهة، هاه، ولكن سواء اقتُطِفت أم لا فأنت مازلت لى.

قال هوك:

- إنها لى.

لكن لانفيريل تجاهله وتساءل:

- إذن ماذا على أن أفعل؟ أعيدك إلى دير الراهبات؟

ثم ابتسم ابتسامة عريضة، عندما رفعت ميليساند القوس إلى أعلى بوصة أخرى، وقال:

- أنتِ لن تطلقى.

قال هوك:

- سأفعل أنا.

لكنه كان تهديدًا عقيمًا فليس لديه سهم على قوسه ويعلم أنه لن يُمنَح الوقت الكافى ليجذب وترًا من الجعبة.

تساءل لانفيريل:

- من تخدم؟

قال هوك بفخر:

- السير چون كورنويل.

بدا لانفيريل سعيدًا:

- سير چون! آه! إنه رجل. لابد أن أمه قد ضاجعت رجلاً فرنسيًا! سير چون! أنا أحب السير چون.

وابتسم ثم استطرد:

- ولكن ماذا عن ميليساند هاه؟ ماذا عن صغيرتى المترهبنة؟

انفجرت ميليساند فيه قائلة بالإنجليزية:

- لقد كرهت الدير.

عبس لانفيريل وكأن غضبتها أربكته وقال:

- لقد كنت فى أمان هنا، وكانت روحك آمنة.

اعترضت ميليساند:

- آمنة! فى سواسون؟ لقد اُغتصِبت كل راهبة أو قُتلت.

قال لانفيريل وقد بدت الخطورة فى صوته:

- هل اغتُصبت؟

قالت وهى تشير إلى هوك:

- لقد أوقفه نيكولاس، لقد قتله أولاً.

تحولت عيناه القاتمتان إلى هوك فى تفكير لوهلة ثم عاد إلى ميليساند يسألها بغضب:

- إذن ماذا تريدين؟ تريدين زوجًا؟ شخصًا يعتنى بك؟ ماذا عن هذا؟

وأومأ برأسه تجاه حامل دروعه.

- ربما عليك أن تتزوجيه، إنه نبيل المحتد، لكنه ليس نبيلاً جدًا، كانت أمه ابنة صانع سروج.

كان حامل الدروع يحدق بصمت فى ميليساند، وبدا واضحًا أنه لم يفهم كلمة مما قيل. لم يكن يرتدى خوذة لكنه يرتدى عوضًا عنها غطاء للوجه يلف وجهه المتعرق حتى ذقنه وعلى وجهه آثار ندوب مرض الجدرى الذى أصابه فى طفولته. أنفه مجدوع فى معركة ما وله شفتان غليظتان شبقتان، قطبت ميليساند وتحدثت بالفرنسية فى الحال بسرعة كبيرة، مما جعل هوك لا يفهم سوى جزءٍ مما قالت، تحدثت باحتقار وسط دموعها، وبدا فى حديثها تسلية لأبيها لانفيريل، الذى ترجم لهوك ما قالت:

- إنها تقول إنها ستبقى معك، ولكن هــذا يعتمــد علــى رغباتى. يتوقف على تركى لك لتحيا أم لا.

فكر هوك أن بإمكانه الاندفاع إلى الأعلى دافعًا برأس قامة القوس المدببة إلى حنجرة لانفيريل، أو حتى إلى الأنسجة الرخوة تحت ذقنه ويظل يدفع حتى يخترق مخ الرجل الفرنسى.

تحدث الصوت فى رأسه:

- لا.

كانت بالكاد همسة لكنه صوت القديس كريسبينيان الذى لا يُخطأ وهو الذى ظل صامتًا لأمد طويل، قال القديس ثانية:

- لا.

نزل هوك تقريبًا إلى ركبتيه راكعًا فى امتنان. لقد عاد قديسه. ابتسم لانفيريل.

- هل فكرت فى مهاجمتى أيها الرجل الإنجليزى؟

اعترف هوك:

- نعم.

قال لانفيريل:

- وربما كنت قتلتك، وربما أفعل على أى حال؟

وحدق إلى المكان الذى تنتظر فيه العربات جوار الطريق. كانت العربات مخبأة بأوراق النباتات الصيفية الكثيفة، لكن الصيحات كانت مرتفعة، وتمكن هوك من سماع الصوت الحاد لانطلاق أوتار الأقواس، تساءل لانفيريل:

- كم عددكم هناك؟

فكر هوك فى الكذب، ولكنه قرر أن لانفيريل سيكتشف الحقيقة بسرعة كافية فاعترف:

- أربعون راميًا.

– لا يوجد جنود؟

– ولا واحد.

هز لانفيريل كتفيه فى مبالاة، وكأن المعلومة ليست ذات أهمية كبيرة.

– إذن ستستولون على هارفليه، وماذا بعد؟ هـل سـتزحفون إلى باريس؟إلى روون؟ أنت لا تـدرى. لكننـى أعـرف. ستزحفون إلى مكان ما. إن ملككم هنرى لم ينفق كل هـذه الأموال ليستولى على ميناءٍ صغيرٍ كهذا! إنه يريد المزيـد. وعندما تزحفون أيها الرجل الإنجليزى، سـنكون حـولكم ومن أمامكم ومن خلفكم وستموتون فرادى وأزواجًا حتى لا يتبقى منكم سوى القليل، وبعد ذلك سنطبق عليكم كما تنقض الذئاب على القطيع؛ وستموت ابنتى لأنك ستكون أضـعف من أن تحميها؟

قال هوك:

– لقد حميتها فى سواسون ولم تفعل أنت.

ارتعد وجه لانفيريل بالغضب واهتزت ذؤابة السيف لكن هناك أيضًا فى عينيه بعض الشك وقال فى لهجة دفاعية:

– لقد بحثت عنها.

أجاب هوك بعنف:

- ليس بشكل كاف، وقد وجدتها أنا.

تحدثت ميليساند بالإنجليزية لأول مرة:

- لقد قاده الرب إلىّ.

استعاد لانفيريل اتزانه وابتسامته:

- أوه! الرب؟ أتعتقد أن الرب يقف إلى جانبك أيها الرجل الإنجليزى؟

قال هوك بجرأة :

- أنا أعلم أنه كذلك.

- وهل تعلم ماذا يسموننى؟

قال هوك:

- سيد الجحيم.

أومأ لانفيريل.

- إنه مجرد اسم أيها الرجل الإنجليزى، مجرد اسم ليخيف الجهلة. لكننى رغم هذا الاسم أريد روحى فى الجنة عندما أموت، ولهذا أحتاج أناسًا يصلون من

أجلى. جموعًا من المصلين، أريد مصلين يرتلون وأحتاج راهبات وقساوسة راكعين من أجلى.

وأشار برأسه إلى ميليساند.

- ولماذا لا تصلى هى من أجلى؟

قالت ميليساند:

- أنا أفعل.

تساءل لانفيريل:

- لكن هل يسمع الرب لصلواتها، لقد هجرت الرب من أجلك وهذا هو اختيارها ولكن دعنا نرى ماذا يريد الرب أيها الرجل الإنجليزى، ارفع يدك.

توقف عن الحديث، ولم يتحرك هوك فقال لانفيريل مزمجرًا:

- أتريد أن تعيش؟ ارفع يدك! ليست هذه اليد!

كان يريد يد هوك التى قست أطراف أصابعها من احتكاكها بوتر القوس.

رفع هوك يده اليمنى.

أمره لانفيريل:

- باعد بين أصابعك.

وحرك سيفه ببطء، فلمست ذؤابة السيف بالكاد راحة هوك واستطرد لانفيريل:

- أنا أستطيع أن أقتلك، لكن ابنتى تحبك وانا أحمل عاطفة تجاهها لكنك أخذت دم عذريتها دون إذنى، والدم يطلب الدم.

حرك رسغه، فقط رسغه، ولكن بحذق بالغ وقوة شديدة فتحركت ذؤابة السيف طول سهم فى الهواء، تحركت بسرعة بالغة فلم تكن لدى هوك أى فرصة ليتفادى الضربة قبل أن يقطع النصل خنصره، انبثق الدم وسال.

صرخت ميليساند لكنها لم تطلق زناد القوس. لم يشعر هوك بالألم للوهلة الأولى ثم سرى العذاب فى ذراعه.

قال لانفيريل فى استمتاع:

- هكذا، تركت لك الأصابع التى تشد بها الوتر، أليس كذلك؟ من أجلها، ولكن عندما تطبق عليك الذئاب أيها الرجل الإنجليزى سنلعب أنا وأنت لعبتنا. لو ربحت

ستحتفظ بها وإن خسرت فستذهب هـــى إلـــى فــراش زواجه.

وأشار إلى حامل دروعه ذى الفم الشبق.

- ذلك الفراش النتن الذى ينزوى عليه كالخنزير البرى، كما أنه يصدر أصواتًا كالخنازير. هــل توافــق علـــى لعبتنا؟

قال هوك:

- سيمنحنا الرب النصر.

كانت يده كلها تصرخ بالألم لكنه لم يظهر دلائله على وجهه.

قال لانفيريل وهو ينحنى على سرجه:

- دعنى أخبرك شيئًا، ليس لدى الرب ذرة اهتمام بملكك ولا ملكى. هل توافق على مقامرتنا؟ سنحارب من أجل ميليساند، حسنًا؟

قال هوك:

- نعم.

قال لانفيريل:

- إذن ضع سهامك أرضًا وألق أقواسك بعيدًا.

فهم هوك أن الرجل الفرنسى لا يريد سهمًا فى ظهره وهو ينطلق مبتعدًا بفرسه، ولذا ألقى هو وتوم سكارليت قوسيهما فى أوراق أشجار البلوط الساقطة المتشابكة، وأسقطا جعبتى سهامهما.

ابتسم لانفيريل:

- لقد عقدنا اتفاقًا أيها الرجل الإنجليزى! الجائزة هى ميليساند، لكننا لابد أن نوثقه بالدم، أليس كذلك؟

قال هوك:

- لقد أريق الدم.

ورفع يده التى أغرقتها الدماء.

قال لانفيريل:

- نحن نتقامر على الحياة وليس الدم.

ومع قولته لكز حصانه بركبته فاستدار الحصان مطيعًا راكبه وطوح سيد الجحيم بسيفه مع استدارة حصانه، فمرقت

ذؤابة السيف فى حلق مات سكارليت لتمتلأ أرض الغابة الخضراء بالرذاذ الأحمر وفيض الدم. وصرخ توم سكارليت عاليًا وضحك لانفيريل وهو يستحث حصانه راكضًا به جهة الشرق يتبعه رجلاه الاثنان.

- مااات.

سقط توم سكارليت على ركبتيه جوار توءمه لكن ماثيو سكارليت كان يحتضر سريعًا مع تدفق الدم وفقاعات الهواء من حلقه، تلاشت قعقعة الحوافر، لم يعد هناك صياح يأتى من حيث تقف العربات. كانت ميليساند تبكى.

التقط هوك أقواسه. كان الفرنسيون قد ولوا؛ استخدم فأسًا ليصنع قبرًا تحت شجرة بلوط، قبرًا متسعًا، متسعًا بما يكفى مات سكارليت وبيتر جودينجتون ليرقدا معًا على الحافة فوق البحر. فوق هارفليه، هارفليه التى لا تزال المافع تحول أسوارها إلى حطام.

كان عملاً شاقًا ومتواصلاً لهوك والرماة؛ تقطيع الأخشاب، وتشذيبها، ونشرها، لدعم خنادق المدافع وخنادق الرجال، حفرت خنادق جديده للمدافع أقرب إلى المدينة ولكن

الأسلحة الثمينة كانت بحاجة إلى الحماية ضد من يدافعون عن هارفليه، ولذا شيد الرماة ستائر من الكتل الخشبية تقف أمام فوهات المدافع. صنعت كل ستارة من جذوع البلوط السميكة كما خصر فتاة. وتقف الستارة مائلة للخلف لتطيش عليها قذائف العدو التى تأتى من الأعلى. أما اللمحة الأذكى فى هذه الستائر، حسبما فكر هوك، فهى أنها مثبتة على أطر تسمح بتحريكها. يعطى الأمر عندما يكون المدفع جاهزا للإطلاق فى النهاية فيدير الرجل رافعة كبيرة، تخفض قمة الستارة، فترتفع حافتها السفلى، كاشفة عن فوهة المدفع السوداء؛ عندها سينطلق المدفع ويختفى العالم فى غيمة كثيفة مقرفة عفنة من الدخان، رائحتها تشبه بالضبط البيض الفاسد، ويضيع صدى اصطدام القذيفة الحجرية بالسور فى صدى صوت المدفع الهائل. وتنزل الرافعة بعدها، فتهبط الستارة لتحمى المدفع ورجاله من المدفعيين الهولنديين ثانية.

وقـــد تعلم العدو مراقبة فتح الستائر، منتظرًا تلك اللحظة ليطلق مدافعه وقذائفه ولذا كانت المدافع الإنجليزية محمية أيضًا بسلال مجدولة ضخمة مليئة بالتراب، وبالمزيد من العارضات الخشبية، وقد ترفع إحدى الستائر أحيانًا، رغم أن مدفعها لا يكون جاهزًا للاطلاق، لمجرد خداع العدو، فيدفعه ذلك ليخسر

قذائفه التى تطيش دون ضرر، مصطدمة بالسلال وجذوع البلوط. وعندما يكون المدفع جاهزًا للاطلاق تفرغ السلة الموجودة أمام الفوهة بالضبط، وترفع الستارة، وتسمع الضجة على طول وادى ليزارد الذى تغمره المياه.

كان العدو أيضًا يمتلك مدفعًا، لكنه أصغر كثيرًا، يطلق قذيفة حجرية لا تزيد على حجم تفاحة، وتفتقر إلى الوزن القادر على تحطيم الستائر الثقيلة. حتى قذائفهم وأقواسهم الحربية الضخمة التى تطلق السهام العريضة كانت تفتقر إلى القوة، وقد تعرض هوك وهو يوصل عربة محملة بالأخشاب لتدعيم الخنادق إلى إحدى القذائف التى ضربت أحد أحصنته فى صدره؛ غرست القذيفة نفسها فى جسد الحصان ممزقة الرئتين، والقلب، والأحشاء، ولذا انهار الحيوان ببساطة، وتمددت أقدامه فى بركة الدم الفجائية. وتراجعت الحرارة من الدم، ومن الأرض المغمورة بالفيضان، ومن المستنقعات المجاورة للبحر الواسع المتلألئ.

كانت الخنادق تحمى المُحَاصِرين من مدافع العدو وقذائفه رغم أنها تمثل حماية ضعيفة أمام المنجنيق الذى يلقى بالحجارة عاليًا فى الهواء، مما يجعلها تسقط عموديًا تقريبًا. كان لدى الانجليز أيضًا مجانيقهم؛ صنعت من الأخشاب التى قطعت من

المنحدر أعلى الميناء، وهذه الآلات تمطر هارفليه بالحجارة وجثث الحيوانات العفنة. كان بإمكان هوك أن يرى الأسطح المهشمة وبرجين محطمين من أبراج الكنيسة. وأمكنه رؤية السور الذى أحدثت به القذائف فتحة يتساقط منها الحطام فى الخندق، واستطاع رؤية الحصن العملاق الذى يدافع عن البوابة وقد تمزق، وتحطم وانسحق. كان الحصن مبنيًا من الطين والخشب، وقد حطمت قذائف المدافع الحجرية برجيه، اللذين كانا محاطين بستائر قصيرة سميكة.

قال السير چون لرماته:

- سنحتاج إلى صناعة ترس بعد ذلك، إن مولانا الملـــك على عجلة من أمره.

وأبدى توماس إيڤل-جولد:

- يوجد خرق كبير فى سور مدينتهم يا سير چون.

كان هو من حل محل بيتر جودينجتون كرقيب للرماة.

قال السير چون:

- وخلف تلك الفجوة جدار جديد ولكى نهاجمه؛ علينا أن نستولى على حصنهم الدفاعى.

كان الحصن الدفاعى يتكون من برج مزدوج يحمى بوابه ليور

- أتريد لأولاد الحرام من رماتهم أن يطلقوا علينا من الجانب؟ علينا أن نقضى على هذا الحصن ولذلك سنصنع ترسًا. علينا قطع المزيد من الأشجار! هوك، أريدك.

راقب رماة الأسهم الآخرين السير چون يأخذ هوك جانبًا. قال السير چون:

- لن يكون هناك المزيد من الجنود الفرنسيين فى التلال، إن لدينا رجالنا المنتشرين هناك الآن، والمزيد من الرجال يترقبون قوة الإمداد لكنهم لم يروا شيئاً.

كان هذا شيئًا مربكًا. لقد أوشك أغسطس على الانتهاء ولم يرسل الفرنسيون أى جيش لإنقاذ المدينة المحاصرة. يركب الفرسان الإنجليز خيولهم كل يوم ليستطلعوا الطرق من الشمال ومن الشرق لكن الريف لا يزال خاويًا. تخرج أحياناً قوة صغيرة من الجنود الفرنسيين لتناوش الدوريات، ولكن ليس ثمة سحب ترابية تشى بجيش زاحف. قال السيرچون:

- حسنًا، أخبرنى بما فعلت على الحافة يوم مات المسكين جودينجتون.

قال هوك:

- لقد حذرت رفاقنا فقط.

- لا، لم تفعل، لقد طلبت منهم التراجع إلى العربات، أهذا صحيح؟

- نعم يا سير چون.

سأل السير چون بعدائية:

- لماذا؟

عبس هوك إذ تذكر ما حدث، لقد بدا له ذلك فى وقته إجراءً وقائيًا واضحًا، لكنه لم يفكر لماذا كان بهذا الوضوح، فقال ببطء:

- إن سهامنا ليست ذات نفع كبير بين الأشجار ولكن إذا تراجعوا إلى العربات فسيمكنهم الإطلاق. إنهم يحتاجون مساحة للإطلاق.

قال السير چون:

- وهذا ماحدث بالضبط.

لقد شتت الرماة الذين تجمعوا عند العربات مهاجميهم بوَابِلَين من السهام.

- إذن لقد فعلت الشيء الصحيح يا هوك. إن أولاد الحرام أتوا فقط لإحداث بعض الأذى. أرادوا أن يقتلوا عددًا قليلاً من الرجال ويلقوا نظرة على مدى التقدم الذى أحرزناه وقد شيعتهم أنت بالسهام.

قال هوك:

- أنا لم أكن هناك يا سير جون، إن بقية الرماة هم من طردوهم.

- لقد كنت مع سير لانفيريل، أعلم. ولقد تركك تحيا.

ونظر السير جون إلى هوك نظرة تقدير واستطرد:

- لماذا؟

قال هوك وهو يشك أن ما يقوله هو الإجابة الصحيحة:

- إنه يريد أن يقتلنى فيما بعد، أو ربما بسبب ميليساند؟

قال السير جون:

- إنه قط وأنت فأره. فأر جريح.

وتطلع إلى يد هوك اليمنى التى لا تزال فى الضمادات.

- ألا زلت تستطيع الإطلاق؟

- بالجودة التى كنتها فى أى وقت مضى يا سير چون.

- إذن أنا أجعلك قائد رماة وهو ما يعنى أننى أضاعف راتبك.

حدق هوك إلى چون:

- أنا!

لم يجبه السير چون على الفور، أدار عينيه المنتقدتين إلى جنوده الذين كانوا يتمرنون على الضرب بالسيف فى جذوع الأشجار. كانت إحدى عبارات السير چون الدائمة هى التمرين، التمرين، التمرين. واعتاد أن يقول بأنه يتمرن بألف ضربةٍ يوميًا فى تدريبٍ لا ينتهى ويطلب المثل من رجاله، صاح فى أحد رجاله:

- ضع بعض القوة فى ضرباتك يا رالف.

واستدار إلى هوك قائلاً:

- هل فكرت فيما يجب أن تفعله حين رأيت الفرنسيين.

- لا.

- لهذا السبب أجعلك قائدًا. أنا لا أريد رجالاً يفكرون فيما يجب فعله بل أريد من يفعله وحسب. إن توم إيقل-جولد هو رقيبك الآن ولذا يمكنك أن ترافقه. سأخبره بما يجب فعله، ويخبرك بما يجب فعله وتخبر أنت رماتك بما يجب فعله. إذا لم يفعلوه فاضرب أولاد الحرام بالسياط وإذا استمروا فى عدم فعله فسأجلدك.

- نعم يا سير چون.

ملأت ابتسامة عريضة وجه السير چون الذى يحمل ندوب ضربات الزمن.

- أنت جيد أيها الشاب هوك وأنت أيضًا شيءٌ آخر.

وأشار إلى يد هوك المضمدة قائلاً:

- أنت محظوظ، خذ.

التقط سلسلة فضية رقيقة من جعبته، وأسقطها فى يد هوك.

- هذه شارة وظيفتك. وغدا ستبنى ترسًا.

- ما هو الترس يا سير چون؟

قال السير چون:

- هو كتلة مستطيلة علينا أن نبنيها، سأخبرك بالمزيد عن ذلك، كتلة مستطيلة لعينة.

بدأ المطر فى الهطول تلك الليلة. كان آتيًا من البحر تحمله رياح غربية باردة. بدأ خفيفًا ينقر على خيام المُحاصِرين ثم زاد هبوب الريحِ حتى تقطّعت الرايات على صواريها، واشتد المطر متساقطًا بميل، وتسرب إلى الأرض محيلاً إياها إلى مستنقع من الوحل .

عاد ماء الفيضان -الذى كان قد غاض بشكل كبير- ليبدأ بالارتفاع ثانية وأفاض على الرابية. بدأ المدفعيون بالسباب وهم يرفعون المظلات على أسلحتهم، بينما خبّأ كل رامٍ أوتار قوسه بحرص من بلل المطر.

لم يكن ثمة داعٍ ليحمل هوك قوسًا فقد كانت مهمته تشييد المتراس، وهو كما وعده السير چون بناء مستطيل عليه إنشاؤه. لم يكن عملاً معقدًا، ولا يحتاج حتى إلى مهارة، لكنه يحتاج إلى القوة. كان علٰيه القيام به على مرأى من المدافعين، وضمن مرمى مدافعهم وقذائفهم ومجانيقهم وأقواسهم.

كان الترس درعًا عملاقة، يشبه فى شكله مقدمة الحذاء، حيث يمكن للرجال خلفه وتحته أن يعملوا فى أمان من قذائف العدو، ويجب أن يُشيد قويًا بما يكفى ليصمد أمام القذائف الحجرية المتكررة التى ترميها المدافع.

أشرف على العمل رجل ويلزى أبيض الشعر، يدعى دافيد آب تراهارن، وقد قال للرماة:

- لقد جئت من بونتجويث[٢٢] وفى بونتجويث نعرف أكثر منكم كلكم أيها الإنجليز الملاعين بشأن أعمال البناء والتشييد.

كان قد خطط لنقل عربتين محملتين بالتراب والأحجار إلى المكان الذى يُفترض أن يُبنى فيه المتراس، ويستخدم العربات لحماية الرماة من قذائف العدو. ولكن المطر بلل الأرض فانغرست العربات فى الوحل، قال باستمتاع من يعرف أنه لن يستخدم مجراف الحفر بنفسه:

---

(٢٢) بونتجويث (Pontygwaith): قرية تقع جنوب ويلز فى وادى ميرثر ويعرف الآن باسم وادى تاف. تم تصوير الكوبرى الموجود فى بونتجويث الذى يمر فوق نهر تاف فى المسلسل التليفزيونى الجميلة والوحش الذى عرض على قناة (بى. بى. سى). (المترجم).

- علينا أن نحفر، نحن نعرف فى بونتجويث أكثر منكم كلكم أيها الإنجليز المضرطون.

أجاب ويل:

- هذا لأنكم تحفرون قبورًا لكل من نقتلهم من الويلزيين.

رد دافيد آب تراهارن بسعادة:

- نحن ندفنكم كذلك.

وقص على هوك فى وقت لاحق -معترفًا بمرح- أنه كان متمردًا ضد الملك الإنجليزى، قبل خمس عشرة سنة فقط، قال فى حميمية:

- والآن، أوه يا هذا الـ أوين جلين دور(٢٣)، يا له من رجل.

---

(٢٣) أوين جلين دور (Owain Glyn Dwr): (١٣٤٩ أو ١٣٥٩: ١٤١٦) آخر رجل من أصل ويلزى يحصل على لقب أمير ويلز. انحدر من سلالة أمراء من جانبى أبيه وأمه. حرض على اندلاع الثورة الويلزية ضد حكم هنرى الرابع ملك إنجلترا. شوهد آخر مرة عام ١٤١٢ أثناء تعقب الجيش الإنجليزى وصولاً إلى لندن ولم يؤسر أو تغريه مراسيم العفو الملكية ولم يخن قط. سنوات حياته الأخيرة لغز =

- ماذا حدث له؟

قال دافيد آب تراهارن:

- أنه لا يزال حيًا، أيها الصبى! لا يزال حيًا!

لقد اشتعلت ثورة جلين دور لأكثر من عقد عندما أعطى هنرى الشاب؛ أمير ويلز وقتها، وملك إنجلترا الآن درسًا طويلاً فى فن الحرب. لقد اندحرت الثورة وعرض بعض القادة الويلزيين فى شوارع لندن فى أغلالهم قبل إعدامهم لكن أوين جلين دور نفسه لم يُأسر أبدًا، خفض دافيد آب تراهارن صوته ومال قريبًا من هوك أثناء حديثه قائلاً:

- لدينا سحرة فى ويلز يمكنهم أن يجعلوا الشخص خفيًا!

=لا يعرف أحد قطعًا كيف انتهت. صوره شكسبير فى مسرحية هنرى الرابع الجزء الأول على أنه رجل وحشى وغريب تحكمه عواطفه والقوى السحرية. أعلنته حركة سيمروفيد فى أواخر القرن التاسع عشر بأنه أبو القومية الويلزية وأحيا ذكراه كبطل قومى الملك آرثر. أقيمت الاحتفالات عام ٢٠٠٠ فى كل أرجاء ويلز احتفالاً بالمئوية السادسة على ثورة جلين درو. وفى عام ٢٠٠٢ حصل أوين على المركز الثالث والعشرين فى سحبٍ أُجرى على أعظم مائة بريطانى. (المترجم).

قال هوك بلهفة:

- أود أن أرى ذلك.

- حسنًا، لا يمكنك ذلك، أيمكنك؟ إن لب الأمـــر فـــى أن تكون خفيًا ألا تتمكن من رؤيتهم! لماذا، قد يكون أوين جلين دور هنا الآن ولا تستطيع رؤيته! إنه يعيش فـــى رغد يا بنى، مع النساء والتفاح ولكن إذا اقتـــرب منـــه رجل إنجليزى من مسافة ميل يستحيل غير مرئى!

تساءل هوك:

- إذن ماذا يفعل رجل ويلزي متمرد مع هذا الجيش؟

قال دافيد آب تراهارن:

- على الرجل أن يعيش، ولأن تأكل خبز العدو خير لـــك من أن تحدق إلى تنور خاو، هناك دزينة مـــن رجـــال جلين دور فى هذا الجيش يا بنى، وسنقاتل مع الملـــك هنرى بنفس القوة التى قاتلنا بها دائمًا مع أوين.

وابتسم ابتسامة عريضة واستطرد:

- أتدرى، هناك القليل من رجال أوين جلـــين دور فـــى فرنسا أيضًا وسيحاربون ضدنا.

- رماة؟

- فلنحمد الرب، لا، إن الرماة لا يتحملون الهرب إلى فرنسا، أيستطيعون الآن؟ لا، إن النبلاء الذين فقدوا أرضهم هم من ذهبوا إلى فرنسا وليس الرماة. هل راقبت راميًا فى معركة؟

قال هوك:

- الشكر للرب، لا.

قال دافيد آب تراهارن بتجهم:

- إنها ما لا يمكن أن أطلق عليه تجربة سعيدة، يا إلهى، أيها الفتى، لكننا نحن الويلزيين لا نخاف بسهولة، لكن عندما أطلق رماة هنرى سهامهم فى شروزبرى كان ذلك هو الموت الذى يتساقط من السماء. كان كالنداء. فقط نداء ذو رؤوس فولاذية، نداء لا يتوقف أبدًا، كان الرجال يموتون فى كل مكان حولى وصرخاتهم مثل النوارس المعذبة على شاطئ طينى. إن رامى السهام شىء فظيع.

- أنا رامى سهام.

عبس دافيد آب تراهارن وقال:

- أنت الآن حفار، يا بنى، ولذا احفر.

كانوا يحفرون خندقًا بعيدًا عن خندق المدفع، يحفرون تجاه أسوار هارفليه، ورأى المدافعون الخندق وقد بدأ يُحفَر، وأمطروا العمل بوابل من السهام والطلقات الحجرية لمدافعهم، كانت مجانيقهم تحاول قذف الحجارة على الخندق الجديد ولكن القذائف طاشت بعيدًا واستقرت فى مستنقعات الوحل. وبعد ثلاثين قدمًا من الخندق الجديد، أبدى دافيد آب تراهارن رضاه وأمر بحفر حفرة جديدة. يجب أن تكون كبيرة ومربعة وعميقة، ولذا قام الرماة بالحفر والتجريف حتى وصلوا إلى طبقة طباشيرية. كان جانب الحفرة، الجديدة يُسَرِّب المياه، ولذا كانوا ينزلقون فى الوحل وهم يرفعون حاجزًا من جذوع الأشجار على ثلاثة من جوانب الحفرة، تاركين المؤخرة التى تقود إلى المعسكر الإنجليزى بلا حماية. وضعوا الجذوع مسطحة، كل أربعة جنبًا إلى جنب، ووضعوا المزيد على القمة، فصار الرجل يستطيع أن يقف منتصبًا فى الحفرة دون أن يراه العدو على أسوار هارفليه. قال دافيد آب تراهارن:

- الليلة، سنصنع سقفًا ويتم بهذا متراسنا الحبيب.

صنعوا السقف ليلاً، لأن الحفرة كانت قريبة كفاية من الأسوار مما يجعلها ضمن مدى القوس الحربى، ولكن العدو – ولا بد– قد خمن ما يحدث فأطلق عشوائيًا فى ظلمة الليل المشبعة بالمطر وقد أصيب ثلاثة من الرجال بالسهام القصيرة التى يبصقها الليل. استغرق الأمر الليل كله ليضعوا الجذوع الطويلة على الحفرة ثم يغطوا هذه الأخشاب بطبقة سميكة من التراب وحطام الطباشير، قبل أن يضيفوا غطاء أخيرًا من المزيد من جذوع الأشجار. قال دافيد آب تراهارن:

– والآن يبدأ العمل الحقيقى مما يعنى أن علينا أن نستخدم الرجال الويلزيين.

تساءل هوك:

– العمل الحقيقى!

– سنحفر نفقًا، يا فتى، سنحفر أعمق.

توقف المطر عند الفجر. جاءت رياح باردة من الشرق ورحل المطر بعيدًا عبر فرنسا. حاربت الشمس الغيوم بينما ضرب مدفعيو العدو الترس المبنى حديثًا؛ ضربوه بأحجار مدافعهم التى ضاعت قوتها على الحاجز السميك المرتفع. نام هوك ورماته، تحت عشش بسيطة صنعوها من أغصان

الأشجار والتراب ونبات السرخس. عندما استيقظ هوك وجد ميليساند تفرك معطفه المدرع بالرمل والخل. قالت بالفرنسية تفسر له:

- صدأ.

أجاب بالإنجليزية:

- صدأ؟

- هذا ما قلته.

قال ويل وهو يزحف خارجًا من عشته:

- هل يمكن أن تلمعى معطفى يا عزيزتى.

قالت ميليساند:

- افعل ذلك لنفسك، فأنا نظفت معطف توم.

قال هوك:

- أحسنت صنعًا.

كان كل الرماة قلقين بشأن توماس سكارليت، الذى دفنت ضحكته ومرحه الدائم مع أخيه التوءم. صار سكارليت عبوسًا هذه الأيام، أو يجلس وحده مكتئبًا. قال هوك بهدوء:

- كل ما يريده أن يقابل والدك مرة أخرى.

قالت ميليساند بكآبة:

- إذن سيموت توماس.

قال هوك:

- إنه يحبك.

- أبى؟

- لقد تركك تعيشين، وتركك تبقين معى.

قالت ميليساند تقريبًا بامتعاض:

- لقد تركك تعيش أيضًا.

- أعلم.

توقفت عن الحديث. راقبت عيناها الرماديتان هارفليه التى أحيطت بدخان المدافع مثل ضباب البحر حين يكتنف جرفًا صخريًا، وضع هوك حذاءه المبلل ذا الرقبة ليجف قرب نيران المعسكر. كان الخشب المحترق ينثر الشرر، إنه خشب صفصاف، وخشب الصفصاف دائما يقاوم الاحتراق. قالت ميليساند بحزن:

- لقد أحب أمى على ما أظن.

- حقًا.

قالت ميليساند:

- كانت جميلة وكانت تحبه. قالت إنه كان جميلاً أيــضًا، رجلٌ جميل.

قال هوك:

- رجل وسيم.

قالت ميليساند فى إصرار:

- جميل.

تساءل هوك:

- عندما قابلتِه بين الأشجار، هل أردتِ أن يأخذكِ بعيدًا.

هزت رأسها نافية فجأة، وقالت:

- لا، أظن أنه من ملائكة الشر وأظن أنه فى رأسى مثل القديس الذى فى مخيلتك.

واستدارت لتنظر إليه واستطردت:

- وأتمنى أن يذهب بعيدًا.

- تفكرين به؟ أهذا هو الأمر؟

قالت بحدة:

- لقد أردته دائمًا أن يحبنى.

وعادت تحك المعطف المدرع من جديد.

- كما كان يحب والدتك؟

- لا! لا.

كانت غاضبة ولم تقل شيئًا للحظات ثم لانت، واستطردت:

- إن الحياة صعبة يا نيكولاس، أنت تعرف ذلـك. إنهـا عمل، وعمل، وعمل، وقلق من أين يأتى الطعـام، ثـم المزيد من العمل، واللورد؛ أى لورد، يمكنه أن يوقـف كل ذلك، يشيرون فقط بأيديهم فلا يبقى هناك المزيد من العمل، ولا المزيد من القلق، فقط تكون الراحة.

قالت الكلمة الأخيرة بالفرنسية فتساءل هوك:

- سهلة؟

- وأنا أردت ذلك.

- أخبريه أنكِ تريدين ذلك.

قالت ميليساند:

- إنه جميل لكنه ليس طيبًا. أنا أعلم ذلك، وأنا أحبك.

وأضافت بالفرنسية:

- أنا أحبك.

قالت كلماتها الأخيرة بلهجة تقريرية، دون عاطفة ظاهرة، لكن هذه الكلمات ضربت هوك بالسكوت، راقب الرماة وهم يجلبون حطب الوقود إلى المخيم. تجمهت ميليساند لمجهودها فى حك الرمل على المعطف المدرع وسألت فجأة:

- هل تعرف السير روبرت نولز؟

قال هوك:

- بالطبع أعرفه.

يعرف كل رامٍ السير روبرت الذى مات غنيًا منذ سنوات ليست ببعيدة.

قالت ميليساند:

- كان رامى سهام.

قال هوك:

- هكذا بدأ.

وتعجب كيف علمت ميليساند أسطورة السير روبرت.

قالت ميليساند:

- وقد أصبح فارسًا، لقد قاد الجيوش! وقد جعلك السير چون قائد رماة.

قال هوك وهو يبتسم:

- قائد الرماة ليس فارسًا.

قالت ميليساند بحدة:

- لكن السير روبرت كان قائد رماة ذات مرة! ثم أصبح رقيبًا، ثم جنديًا، وبعد ذلك فارسا! لقد أخبرتنى أليس، وإذا كان قد استطاع فعل ذلك، فلم لا تستطيع ذلك؟

كانت هذه الرؤية مدهشة لهوك فظل لوهلة لا يستطيع إلا أن يحدق فيها وقال فى نهاية الأمر:

- أنا؟ جندى؟

- ولم لا؟

- لم أولد لذلك!

- وكذلك لم يكن السير روبرت.

قال هوك بغموض:

- حسنا، هذا يحدث.

كان يعرف رماة آخرين قادوا مجموعات وأصبحوا أغنياء، كان السير روبرت أكثرهم شهرة، لكن الرماة يذكرون أيضًا توماس من هوكتون الذى توفى وهو لورد على ألف هكتار، واستطرد هوك:

- لكن هذا لا يحدث غالبا ويكلف أموالاً.

- وماذا تعنى الحرب لكم أيها الرجال سوى المال؟ إنهم يتحدثون بلا انقطاع عن الأسرى؟ عن الفديات؟

وأشارت بفرشاتها إليه، وابتسمت بخبث.

- خذ أبى أسيرا. سنأخذ منه فدية. سنأخذ أمواله.

سأل هوك:

- سيعجبك ذلك، أليس ذلك؟

قالت بحقد:

- نعم سيعجبنى ذلك.

حاول هوك أن يتخيل نفسه ثريًا، أنه تلقى فدية قد تتجاوز ما يستطيع أغلب الرجال أن يكسبوه طول حياتهم، ثم نسى ذلك الحلم عندما جفل چون فليتشر فجأة وجرى تجاه حفرة الصرف الصحى، كان فليتشر واحدا من أكبر الرماة سنًا وقد أظهر بعض الاستياء من ترقية هوك. كان وجه فليتش شاحبًا، قال هوك:

- إن فليتش مريض.

قالت ميليساند:

- وأليس المسكينة كانت مريضة جدًا هذا الصباح.

جعدت أنفها فى اشمئزاز وهى تكمل بالفرنسية:

- الإسهال!

قرر هوك أنه لا يرغب فى معرفة المزيد عن مرض أليس جودواين، وأنقذه من المزيد من التفاصيل وصول السير چون كورنويل، وجأر الفارس:

- هل نحن مستيقظون؟ هل نحن متيقظون ونتنفس؟

أجاب هوك عن الرماة:

- نحن كذلك الآن يا سير چون.

- إذن انزلوا إلى الخنادق! انزلوا إلى الخنادق! فلنقم بهذا الحصار اللعين!

ارتدى هوك حذاءه الرطب، ودرعه النصف الملمع، وشد خوذته، ومعطفه، وذهب إلى الخنادق، واستمر الحصار.

كان الترس يهتز فى كل مرة يضرب حجر إحدى المدافع واجهته المائلة، كانت جذوع الأشجـــار التى تشكـل الواجهة تضربها سهام العدو وقذائفه التى تتشتت عليها، فتخفق فى تحطيم الحاجز الثقيل، أو حتى إضعافه، وتحت طبقات الخشب والتراب كان عمال المناجم الويلزيون يعملون.

ثمة أسهم أخرى تطلق على الجانب الشرقى من هارفليه، حيث تعسكر قوات دوق كلارينس(٢٤)، ومن الشرق والغرب تزأر المدافع، وتصطك الأحجار بالأسوار، وتلقيها المجانيق فى المدينة، ويهب الدخان والتراب، ويرتفع فى الشوارع الضيقة،

---

(٢٤) دوق كلارينس (Duke of clarence): لقب تم منحه للأعضاء الأصغر فى العائلات الملكية الإنجليزية والبريطانية. مُنح هذا اللقب إلى خمسة أشخاص: أول ثلاثة من نبلاء إنجلترا، والرابع من نبلاء بريطانيا العظمى، والخامس من نبلاء المملكة المتحدة. (المترجم).

بينما تتقدم الأنفاق خلسة تجاه الأسوار؛ كانت تتجه شرقًا تحت الأسوار، حيث يجب أن تُخلَى الكهوف الكبيرة المدعمة بالأخشاب من الحجر الطباشيرى، وعندما يحين الوقت تُحرَق الأخشاب التى تدعمها، فتتهدم، وتنهار الأسوار التى فوقها. أما الأنفاق الغربية التى يحمى المتراس مدخلها الذى ساهم هوك فى صنعه فكان يمتد إلى نفق تحت الحصن الدفاعى الكبير، الذى يحمى بوابة ليور. وإذا تهدم هذا البرج الدفاعى يستطيع الجيش الإنجليزى أن يهاجم الخرق بجوار البوابة دون أى خطر من هجوم على جناحى الجيش عبر حامية الحصن، ولذا ظل الرجال الويلزيون يحفرون والرماة يحمون متراسهم بينما المدفعية تعانى.

كان البرج الدفاعى مصنوعًا من جذوع البلوط الكبيرة التى غرست فى الأرض، وثبتت بأطواق الحديد، كانت جذوع الأشجار تشكل الإطار الخارجى لبرجين مستديرين قصيرين، يربطهما حائط صغير منيع تم حشوه بالتراب والحجارة وكل هذا يحميه خندق يفيض بالمياه فى مواجهة المُحَاصِرِين.

كانت المدافع الإنجليزية قد حطمت الأخشاب القريبة فاندفع التراب ليصنع منحدرًا غير مستقر ملأ أحد جوانب الخندق ولكن الحصن كان لا يزال يقاوم، كان الجنود والرماة

يحرسونه وقد رفعت راياته بتحد على ما تبقى من متاريسه الخشبية. وكـل ليلة عندما تتوقـف المـدافع الإنجليزية عن الضرب، كان المدافعون يقومون بإصلاحات، ويطلع الفجر كاشفًا عن سياج جديد من الأوتاد الخشبية، ويكون على المدافع أن تبدأ عملها البطيء فى الهدم مرة أخرى، أما بقية المدافع فكانت تطلق على المدينة نفسها.

عندما رأى هوك هارفليه لأول مرة، بدت له غالبًا تشع بالسحر؛ مدينة ذات أسطح ضيقة، طليت أبراج كنيستها وأسقفها باللون الأبيض، لها سور مزود بالأبراج التى تتألق فى شمس أغسطس. بدت مثل المدينة المرسومة فى لوحة القديس كريسبين والقديس كريسبينيان فى كاتدرائية سواسون، اللوحة التى حدق فيها طويلاً وهو يتلو صلواته.

والآن صارت المدينة الملونة كومة من الحجارة المضروبة، والوحل، والدخان، والمنازل المحطمة. ما زالت مسافات طويلة من الأسوار صامدة، ولا تزال فى كبرياء ترفع راياتها المرفرفة المثيرة للسخرية التى ترتسم عليها شارات قادة حاميتها، وصور القديسين، والابتهالات للرب، لكن ثمانية من الأبراج قد انهارت فى خندق المدينة، وأحد جدران المتاريس قد ضُرب وتحطم بالقرب من بوابة ليور. تساقطت قذائف هائلة من

المجانيق على المدينة، فحطمت المنازل، واشتعلت النيران مما جعل سحابة من الدخان تقف عالقة فوق المدينة المُحَاصَرَة. سقط أحد أبراج الكنيسة، وسقطت معه أجراسه فى أنغام غير متناسقة، ولا تزال القذائف والأحجار تضرب المدينة المحطمة بالفعل.

ولا يزال المدافعون يقاومون، ويقود هوك رجاله كل فجر إلى الخنادق التى تحمى المدافع الإنجليزية، ومع كل فجر كان يتتبع مكان عمل الحامية، يراهم يبنون حائطًا جديدًا خلف الحصن المتهدم، ويدعمون البرج الدفاعى المنهار بأخشاب جديدة. ركب الرسل الإنجليز خيولهم ممسكين صولجاناتهم البيضاء، وهم فى رونق زاه بمعاطفهم الملونة حتى وصلوا إلى أسوار العدو يعرضون الشروط لكن قادة العدو كانوا يرفضون ويردون الرسل كل مرة. وقد قال الأب كريستوفر فى صباح مبكر في سبتمبر لهوك:

- إن ما يروجونه هو أن يقود ملكهم جيشًا لإنقاذهم.

- لقد حسبت الملك الفرنسى مجنونًا.

قال الأب كريستوفر باستهزاء:

- أوه! إنه كذلك! إنه يعتقد أنه مصنوع من الزجاج!

كان القسيس يزور الخنادق كل صباح، يقدم مباركته للرماة ويداعبهم.

- هذا حقيقى! إنه يظن أنه مصنوع من الزجاج وأنه سيتحطم إذا سقط. ويحكى مشاكله إلى القمر.

قال هوك مبتسمًا:

- إذن لن يقود أى جيش إلى هنا يا أبتى؟

- ولكن للملك المجنون أبناء يا هوك، وهم كلهم شباب حثالة عطشى للدماء. وأى واحد منهم سيتمنى أن يطحن عظامنا إلى مسحوق.

- وهل سيحاولون؟

- الرب يعلم يا هوك، وحده الرب يعلم وهو لم يخبرنى، ولكن أنا أعلم أن هناك جيشًا يتجمع فى روون[٢٥].

- أهى بعيدة؟

- هل ترى هذا الطريق؟

---

(٢٥) روون (Rouen): تقع فى شمال فرنسا على نهر السين. كانت العاصمة التاريخية لنورماندى، أما الآن فهى عاصمة نورماندى العليا (Haute-Normandy). أهم معالمها السياحية هى كاتدرائية نوتردام وهناك عدة لوحات لها فقد رسمها الفنان كلادومنت وبعضها معروض فى باريس فى متحف الأورساى، والساعة الفلكية (Gros Harlog) وقصر العدالة (Palais de Justice) وقد كان مقرًا لبرلمان نورماندى سابقًا. (المترجم).

أشار القسيس إلى البقايا الباهتة للطريق الذى كان من قبل ينطلق من بوابة ليور، ويبدو الآن كندبة فى الأرض الموحلة التى تتناثر فيها القذائف، قال الأب كريستوفر:

- اتبعه، واستدر يمينا عندما يصل إلى التل، واستمر كذلك، بعد خمسين ميلاً ستجد جسرًا كبيرًا ومدينة ضخمة. هذه روون يا هوك. خمسون ميلاً؟ إن أى جيش يستطيع اجتياز ذلك فى ثلاثة أيام!

قال هوك:

- إذن هم قادمون وسنقتلهم.

قال الأب كريستوفر بلطف:

- لقد قال الملك هارولد[٢٦] الشىء ذاته قبل هاستنجز[٢٧].

---

(٢٦) الملك هارولد (King Harold): هو الملك هارولد الثانى (١٠٢٢: ١٤أكتوبر ١٠٦٦) آخر ملوك الأنجلو-ساكسون الذين حكموا إنجلترا. حكم من الفترة ٦ يناير ١٠٦٦ إلى ١٤ أكتوبر ١٠٦٦، حيث مات فى معركة هاستنجز ضد النورمانديين لإنجلترا. هارولد هو أول ثلاثة ملوك على إنجلترا يموتون فى الحرب والملكان الآخران هما ريتشارد الأول وريتشارد الثانى. (المترجم).

(٢٧) هاستنجز (Hastings): هى مدينة فى مقاطعة إيست سوسكس (East Sussex) تقع على الساحل الجنوبى لإنجلترا، حازت على شهرة=

تساءل هوك:

-هل كان لدى هارولد رماة؟

-جنود فقط حسبما أعتقد.

قال هوك وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

-حسنًا إذن.

=واسعة فى الحقب التاريخية بسبب اتصالها بالغزو النورماندى لإنجلترا، وبسبب أنها أصبحت واحدة من الموانئ الخمسة فى العصور. حدث فى عام ٦٩٤، نزاع على فرض القوة بين أقوى مملكتين متجاورتين: الملك ويهتريد حاكم كنت والملك ابن حاكم الساكسون الشرقية والغربية آلت إلى تسليم حكم هاستنجز إلى الملك إين طبقًا لشروط المعاهدة. وفى عام ٧٧١، دارت معركة فى منطقة غير محددة بالقرب من هاستنجز، حيث هزمت قبائل الهاستنجز وانتهى بقاؤها كمملكة مستقلة. أما المعركة التى سميت بهذا الاسم والتى قتل فيها الملك هارولد فى ١٤ أكتوبر ١٠٦٦، فتعد هذه المعركة نصرًا حاسمًا للنورمـــــان فى حملتهم لغـــــزو إنجلترا، دارت المعـــركة بين الجيش النورمانى بقيادة وليام الفاتح والجيش الإنجليزى بقيادة هارولد جادوينسون عند تل سينلاك على بعد ما يقرب من ١٠ كم شمال غرب هاستنجز. (المترجم).

رفع القسيس رأسه ليلقى نظرة على هارفليه، وقال بحكمة:

- يجب أن نستولى على هذا المكان الآن، لقد اســتغرق وقتًا أكثر مما ينبغى.

واستدار لأن أحد الجنود حياه بمرح. رد الأب كريستوفر التحية ورسم علامة المباركة تجاه الرجل المتعجل.

- هل تعرف من كان هذا يا هوك؟

تطلع هوك إلى الرجل المبتعد الذى كان يرتدى معطفًا زاهيًا بلونيه الأحمر والأبيض.

- كلا أيها الأب، ليس لدى أدنى فكرة.

قال القسيس بفخر:

- ابن چيوفرى تشوسر(٢٨).

---

(٢٨) چيوفرى تشوسر (Geoffry Chaucer): (١٣٤٣ - ٢٥ أكتوبر ١٤٠٠) هو شاعر إنجليزى عاش فى العصور الوسطى. لقب بأبى الأدب الإنجليزى ويعتبر أعظم شاعر إنجليزى فى العصور الوسطى وأول شاعر يدفن فى مقبرة الشعراء فى ويستمنستر (Westminster)،=

- من؟

تساءل الأب كريستوفر:

- ألم تسمع عن چيوفرى تشوسر الشاعر؟

قال هوك:

- لقد ظننت أنه ربما يكون شخصًا مفيدًا.

ثم وضع يده بعنف على كتف القسيس مما أجبره أن يقرفص وبعدها بلحظة ارتطم سهم فى مؤخرة الخندق الموحلة حيث كان الأب كريستوفر يقف، وأوضح هوك:

- وجه الهرة هذا، إنه مفيد.

- وجه الهرة؟

- أحد أولاد الحرام فوق البرج الدفاعى يا أبتى. إن له وجها يشبه الظربان، أستطيع أن أراه وهو يرفع قوسه.

- ألا تستطيع إصابته؟

=عمل مؤلفًا وشاعرًا وفيلسوفًا وعالمًا فلكيًا وكيميائيًا. يعرف باسم كاتب حكايات كانتربرى (The Canterbury Tales). (المترجم).

قال هوك:

- إنه أبعد من مدى رميتى بعشرين خطوة يا أبتى.

وأطل هوك من بين اثنتين من السلال المجدولة المملوءة بالتراب التى تشكل حاجزًا، ولَوَّح، فَلَوَّح له الرجل فوق السور.

-أنا أدعه دائمًا يعرف أننى لا أزال حيًا.

قال الأب كريستوفر بترو:

- ظربان! هل تعلم أن روب بُوول مريض؟

- وكذلك فليتش وزوجة ديك جودواين.

- وأليس؟ أهى مريضة هى الأخرى؟

- لقد سمعت أنها مريضة بحال مريعة.

قال القس:

- إن روب بوول لا يستطيع التوقف عن التبرز، ولا يخرج سوى دماء وماء قذر.

قال هوك:

- فليساعدنا الرب، إن فليتش بنفس الحال.

قال الأب كريستوفر بجدية:

- من الأفضل أن أبدأ فى الصلاة، لا يمكن أن نفقد رجالنا بالمرض، هل تحس أنك بخير؟

- نعم.

- نشكر الرب على ذلك. ويدك؟ كيف حال يدك؟

قال هوك:

- تخفق بالألم يا أبتى.

ورفع يده اليمنى التى لا تزال مضمدة. كانت ميليساند قد غطت الجرح بالعسل ثم غطته.

قال القس:

- إن الخفقان علامة جيدة.

ومال إلى الأمام وتشمم الضمادة.

- تبدو رائحتها جيدة! حسناً، إنها تتعفن من الوحل والعرق والبراز ولكن كلنا كذلك. إن رائحتها ليست عفنة وهذا هو الشيء المهم. كيف هو بولك؟ أهو عَكِر؟ قاتم اللون؟ ضعيف؟

- إنه طبيعى وحسب، أيها الأب.

- هذا عظيم يا هوك، لا يمكن أن نفقدك!

وقد فكر هوك فى قولة القس معتبرًا إياها شيئًا غريبًا لكنه افترض أن القسيس يقول الحقيقة، لأنه يعرف أنه يقوم بوظيفة قائد الرماة جيدًا. لقد توقع أن يرتبك بهذه السلطة البسيطة، وخشى أن يتجاهل بعض الرجال الأكبر سنًا أوامره، ولكن لو تولد أى استياء لدى أحدهم، فقد أُخمِد، وأطيعت أوامره بسلاسة كافية. ارتدى السلسلة الفضية بفخر. عاد الطقس حارًا الآن، يحيل الوحل إلى قشور تنهار إلى غبار ناعم مع كل وطأة قدم. تفتتت هارفليه أيضًا، لكن ما تزال الحامية تتحدى المُحاصِرين. كان الملك يأتى إلى خندق الرماة أربع أو خمس مرات يوميًا، ويحدق فى الأسوار. فى بدايات الحصار تحدث مع الرماة، أما الآن فقد نحل وجهه، ورقَّت شفتاه، وأفسح الرماة ساحة له، ولحاشيته الصغيرة. رأوه يحدق وقرأوا فى وجهه ذى الندبة أنه لا يظن أنه يمكن لهجوم أن يخترق الأسوار الداخلية الجديدة. سيتعثر أى هجوم كهذا فى بقايا المنازل المحروقة ويعانى من السهام التى يبصقها الحصن الدفاعى، ثم يعبر خندق المدينة الكبير قبل حطام السور الذى مزقته المدافع، وطوال الوقت ستضربه أسهم الأقواس الحربية من الجانبين، وعندما يعبر

المهاجمون حطام السور، سيكونون فى مواجهة السور الداخلى الجديد، الذى صنع من سلال سميكة مجدولة مملوءة بالتراب وجذوع الأشجار والأحجار المجلوبة من المبانى المنهارة داخل المدينة، وقد سمع هوك بطريق الصدفة الملك يقول:

- نحتاج إلى إسقاط مسافة أخرى من السور. وبعد ذلك نهجم فورًا على الخرق الجديد.

قال السير چون كورنويل:

- لا يمكننا فعل ذلك يا مولاى، هذا هو الطريق الجاف الوحيد لدينا.

لقد انحسرت مياه الفيضان، لكنها لا تزال تحيط بأغلب المدينة، مقيدة الهجوم الإنجليزى فى مكانين فقط هما اللذان تمتد فيهما الأنفاق تجاه المدينة.

قال الملك فى إصرار:

- ثم نحطم البرج الدفاعى ونحطم البوابة خلفه إلى شظايا.

وحدق بوجهه الغاضب ذى الأنف الطويل إلى الحصن العنيد، ثم أدرك فجأة أن الرماة والجنود القلقين يشاهدونه، فصاح بثقة:

- لم يأت بنا الرب كل هذه المسافة لكى نفشل، ستصبح المدينة لنا، أيها الرفاق، وقريبًا! سيكون هناك جعة وطعام جيد! سيكون كل هذا ملكنا قريبًا.

سُحِب التراب والطباشير من النفق طوال اليوم بينما الأخشاب التى قطعت بطول قامة القوس تحمل إلى الداخل لتدعم النفق. ظلت المدافع تطلق نيرانها، وتغطى خطوط المُحَاصِرِين بالدخان. تضرب طبول آذانهم بالضوضاء، وتقصف الدفاعات المقصوفة بالفعل.

قال السير چون لهوك فى وقت مبكر من صباح أحد أيام سبتمبر:

- كيف حال أذنيك؟

- أذنى، يا سير چون؟

- هذان الشيئان القبيحان على جانبى رأسك.

- ليست بهما مشكلة يا سير چون.

- إذن تعال معى.

كان السير چون يرتدى درعه الجيدة، ومعطفه اللذين يغطيهما التراب. قاد هوك إلى الخلف عبر خندق، ثم إلى مدخل النفق تحت المتراس. كان النفق ينحدر بحدة مسافة خمسة عشر قدمًا، ثم يستوى، كان عرضه خطوتين، وارتفاعه كارتفاع قامة القوس. وكان مضاء بشموع شجر الأسل الصغيرة المثبتة على الدعائم الخشبية. لكن هوك لاحظ -وهو يتبع السير چون- أن النيران الصغيرة تضعف كلما ذهبا إلى عمق أبعد. كان السير چون يلتصق بجانب النفق كل بضع خطوات، ويفعل هوك مثله، ليسمحا لأحد عمال المناجم بالمرور حاملاً معه الطِباشير المستخرج. علِق التراب بالهواء، بينما ابتلت الأرضية، فصارت خليطًا من طين رقيق وتراب طباشيرى، قال السير چون عندما وصل نهاية النفق:

- حسنًا، يا شباب، وقت الراحة، فليبق كل واحد ساكنًا وصامتًا.

كانت نهاية النفق البعيدة مضاءة بفوانيس معلقة على آخر عارضة خشبية تدعم المكان. وضع اثنان من عمال المناجم أدواتهما بامتنان، فقد كانا يستخدمانها فى الحفر فى واجهة النفق

وجلسا على الأرض بينما أومأ دافيد آب تراهارن الذى يشرف على العمل برأسه محييًا هوك، جلس السير چون القرفصاء بالقرب من الرجل الويلزى ذى الشعر الرمادى وأشار إلى هوك ليفعل مثله، وهمس السير چون:

- أنصت.

أنصت هوك، سعل أحد الحفارين فقال السير چون:

- صهٍ.

كان هوك يقف أحيانًا هادئًا بلا حركة منصتًا فقط فى الأشجار التى تسقط فى مراعى اللورد سلايتون قرب النهر. عرف كل صوت لهذه الأشجار؛ سواء كان وقع أقدام غزال، أو شخير خنزير، أو نعيق غراب يسوى ريشه بمنقاره، أو دقات نقار الخشب، أو مجرد صوت الرياح بين الأوراق، ومن بين هذه الأصوات تلتقط أذنه الصوت النشاز؛ العلامة التى تخبره أن دخيلاً يطوف خلسة بين الشجيرات. أنصت الآن بنفس الطريقة. تجاهل صوت أنفاس النصف دزينة من الجنود تاركًا خياله ينطلق، سامحًا فقط للصمت أن يملأ رأسه وينبهه لأقل اضطراب، أنصت لوقت طويل.

همس السير چون:

- فى أذنىّ رنين طوال الوقت، أظن أننى ضربت على خوذتى بنصال السيوف كثيرًا و...

رفع هوك يدًا غير صبورة، غير مدرك أنه يأمر فارسًا مرابطًا بالصمت. أطاعه السير چون على أى حال. أنصت هوك، سمع شيئًا ما ثم سمعه مرة ثانية، وقال:

- شخص ما يحفر.

قال السير چون بهدوء:

- أوه، أولاد الحرام، هل أنت متأكد؟

الآن وقد مَيّز هوك الصوت، أدهشه أن أحدًا غيره لم يتمكن من سماع الصوت المنتظم لدقات الفؤوس تضرب الطباشير. إن الحامية تصنع نفقًا معاكسًا. يصنعون نفقهم الخاص تجاه المُحاصِرين، آملين أن يقطعوا النفق الإنجليزى قبل أن يكتمل، قال هوك:

- ربما اثنان.

كان الصوت غير منتظم بعض الشىء كما لو أن إيقاعين غير منتظمين يختلطان.

قال دافيد آب تراهارن:

- هذا ما ظننته لكننى لم أكن متأكدًا. إن الأذن تمــارس خداعها فى أماكن كهذه تحت الأرض، أليس كذلك؟

قال السير چون بحقد:

- إن أولاد الحرام نشطون، أليس كذلك؟

ونظر إلى دافيد آب تراهارن واستطرد:

- كم يلزمنا لننتهى؟

- عشرون قدمًا يا سير چون، فلنقل يومين، واثنان آخران لصنع الحجرة، وواحد لنملأها بالمحروقات.

قال السير چون:

- ما زال أمامنا الكثير، ربما لن يجدوا هذا النفق.

- إنهم سينصتون أيضًا يا ســير چون وكلمــا اقتربــوا سمعونا بوضوح أكثر.

قال السير چون دون أن يوجه حديثه إلى شخص بعينه:

- أولاد الحرام العفنون الجربانين كريهو الرائحة.

وأومأ إلى هوك قائلاً:

- أنا لا زلت لا أستطيع سماعهم.

قال هوك بثقة:

- إنهم هناك.

كانا يتحدثان همسًا، يحيطهما الظلام المرعب الذى تحاول أشعة الضوء الشاحبة المتراقصة للمصابيح فى الهواء المتكدر التغلب عليه.

تحدث أحد الحفارين بالويلزية، فأوقفه دافيد آب تراهارن بإشارة تحذيرية من يده.

- أنه قلق مما سيحدث لو أن العدو قطع النفق يا سير چون.

قال السير چون:

- اصنعوا غرفة هنا، كبيرة بما يكفى لستة أو سبعة رجال. سيكون لدينا هنا رماة وجنود يقفون للحراسة. فلتكن أسلحتكم فى أيديكم ولكن استمروا فى الحفر الآن فلنحطم برجهم الدفاعى الحقير هذا.

كان النفق يتجه إلى البرج الشمالى من الحامية العنيدة علي أمل دفعها للانهيار فى الخندق الملىء بالمياه. سيصنعون كهفاً تحت البرج، كهف مدعوم بالعارضات الخشبية التى ستحرق، فينهار السقف، وينهار معه البرج. ربت السير چون على أكتاف الحفارين، وقال:

- أحسنتم صنعًا يا شباب، الرب معكم.

وأشار إلى هوك واثنين منهم ليعودوا إلى المتراس، وغمغم:

- لقد دعوت الرب أن يكون معنا.

ثم توقف وعبس وهو يتأمل مدخل النفق، وقال:

- سيكون علينا أن نضع بعض الدفاعات هنا.

- فى المتراس؟

- لو قطع أولاد الحرام نفقنا يا هوك فسيندفعون خارجين من هذه الفتحة مثل الفئران التى اشتمت إفطارًا مجانيًا، سنضع هنا حائطًا ونحميه بالرماة.

رأى هوك رجلين يحملان دواعم للحفرة إلى داخل النفق، وقال:

- إن حائطًا هنا سيبطئ العمل يا سير چون.

وبخه السير چون قائلاً:

- فليلعنك الرب يا هوك، أعلم ذلك!

وحدق فى فوهة النفق وأضاف:

- نحتاج إلى إنهاء هذا الحصار! لقد استمر أكثـــر ممـــا يجب كثيرًا، لقد مرض الرجال. نريد أن نبتعد عن هذا المكان العفن.

قال هوك مقترحًا:

- براميل!!

كرر السير چون الكلمة بزمجرة:

- براميل؟

قال هوك بصبر:

- فلنملأ ثلاثة أو أربعة براميل بالأحجار والتـــراب، وإذا جاء الفرنسيون ندحرج البراميل فقـــط إلـــى المـــدخل ونوقفها منتصبة. أن نصف دزينة من الرماة يمكنها أن تهتم بأمر أى ابن زنا يحاول تخطيهما.

حدق السير چون فى المدخل للحظات قليلة، وأومأ قائلاً:

- إن أمك لم تكن تضيع وقتها عندما كانت تباعـد بـين فخذيها يا هوك. أنت رائع. أريد البراميـل فـى هـذا المكان عند الغروب.

كانت البراميل موجودة فى مكانها عند الغسق. وبينما هوك ينتظر نوبة راحته ذهب إلى الخندق بجوار المتراس. شاهد الحوائط المحطمة التى اصطبغت باللون الأحمر للشمس الغاربة بين التلال التى جُرِّدت من أشجارها. عزف رجلٌ الناى بحزن من خلفه فى المعسكر الإنجليزى، أخذ يعيد المقطوعة نفسها مرارًا وتكرارًا، كأنه يحاول عزفها بشكل صحيح. كان هوك متعبًا، يريد أن يأكل وينام، لا أكثر، ولم يعط إلا انتباهًا قليلاً لرجل يرتدى أسلحته جاء ليقف إلى جواره عند الحاجز. كان الرجل يرتدى خوذة محكمة تغطى نصف وجهه، لكن سواها لم يكن يرتدى دروعًا، كان يرتدى معطفًا جلديًا فقط ولكن حذاءه ذا الرقبة الطويلة الموحل بدا جيد الصنع، وأشارت سلسلة ذهبية فى عنقه على مكانته الرفيعة.

تساءل الرجل:

- أذلك كلب ميت؟

وأومأ إلى جثة فروية ترقد فى منتصف المسافة بين الخندق الإنجليزى المتقدم والبرج الفرنسي. وقفت ثلاثة غربان تنقر فى الحيوان الميت.

قال هوك:

- الفرنسيون يضربونهم، إن الكلاب تفر مـن خطوطنـا فيطلق عليها رماتهم السهام. ثم تختفى فى الليل.

- الكلاب؟

أوضح هوك باقتضاب:

- إنها طعام للفرنسيين، لحمٌ طازج.

قال الرجل:

- آه، بالتأكيد.

وراقب الغربان لوهلة ثم استطرد:

- أنا لم آكل كلبًا من قبل.

قال هوك:

- يشبه قليلاً مذاق الأرنب البرى ولكن أليافه أقسى.

ثم حملق بالرجل فرأى الندبة الغائرة جوار أنفه الطويل، فقال بعجلة:

- مولاى.

وخر راكعًا على إحدى ركبتيه.

قال الملك:

- انهض، انهض.

وحدق فى البرج الدفاعى الذى يشبه الآن كومة من التراب مع حائط من جذوع الأشجار المغروسة فى منحدر من الحطام.

وقال دون انتباه متحدثًا إلى نفسه:

- يجب أن نأخذ هذا البرج الدفاعى.

راقب هوك البرج فى زاوية الحصن باحثًا عن أى رجفة حركة تحذره من رامٍ يستعد للتصويب، لكنه افترض أن الملك فى أمان، لأن الفرنسيين يبقون هادئين عادة حين تغرب الشمس تحت الأفق الغربى ولم يكن هذا المساء مختلفًا، كانت المدافع والمجانيق صامتة فى كلا الجانبين، قال الملك وفى صوته حيرة:

- أَتَذَكَر أول أيام الحصار، كانت أجراس الكنيسة تـــدق عادة فى المدينة، كنت أظنها تتحدانا، ثم أيقنـــت أنهـــم كانوا يدفنون موتاهم لكنها لم تعد تدق ثانية.

قال هوك بارتباك:

- هناك الكثير من الموتى يا مولاى، أو ربما لم يعد هناك أجراس.

ثمة شىء فى التحدث إلى الملك يجعل أفكاره ترتبك.

قال الملك بجدية:

- يجب أن ينتهى هذا سريعًا.

وتراجع خطوة إلى الخلف، وتساءل:

- ألا يزال القديس يتحدث إليك؟

وانتابت الدهشة هوك أن الملك يتذكره حتى أنه لـــم يقـــل شيئًا بل أومأ برأسه بسرعة، قال الملك هنرى:

- هذا جيد، لأن الرب إذا كان إلى جانبنا فلـــن يـــستطيع شىء الانتصار علينا. تذكر هذا!

وابتسم ابتسامة بسيطة إلى هوك، وأضاف برقة، وبدا وكأنه غالبًا يتحدث إلى نفسه:

- وسننتصر.

ثم سار جوار الخندق عائدًا نحو المتراس حيث تنتظره دزينة من الرجال.

ذهب هوك لينام.

اهتزت الأرض في اليوم التالي عندما أُطلِق المدفع. كان هوك في المنجم؛ هناك في أكثر أجزائه انخفاضًا، حيث أخذه السير چون لينصت ثانية. ارتجفت الأرض فجأة بعنف. ارتجفت الأضواء واعتمت.

جثا كل شخص في هذا الظلام الجزئي منصتًا. بدأ أحد الحفارين في سعال ذي إفرازات. انتظر هوك حتى انقضى صدى السعال. إنصات، إنصات، إنصات للموت، إنصات. انطلق مدفع آخر وبدت الأرض كأنها ترتعد وارتجفت الأضواء الخافتة ثانية، وتساقط التراب من السقف إلى طين أرضية النفق. بدا ضجيج المدفع كأنه سيستمر للأبد. وترددت أصوات ضرير وأنين وكأن الدعائم البلوطية تنحني تحت وطأة الأرض فوقها.

ونادى السير چون:

- هوك

ثمة صوت شيء ما يخمش، صوت خافت لدرجة أن هوك تساءل هل كان قد تخيله؟ لكن بعد ذلك، تردد صوت دقة مكتومة ثم ساد الصمت. بدأت أصوات الخدش ثانية بعد فترة، وهذه المرة كان هوك متأكدًا أنه سمعه. راقبه الرجال فى النفق بقلق. ذهب إلى الجدار الآخر وألصق أذنه على الحائط الطباشيرى.

خدش. تطلع هوك إلى دافيد آب تراهارن. وتساءل:

- كيف تحفر الآن يا سيدى؟

قال الرجل الويلزى بارتباك:

- كما نفعل ذلك دائمًا.

- أرنى يا سيدى.

أخذ الرجل الويلزى فأسًا، وذهب لواجهة النفق، وبدلاً من أن يأرجحه ليغرس نصله فى الصخر الرطب، دفع به فى شق طبيعى، سحبه ثانية ليعمق الشق، ثم دفع نصله فى الفتحة محاولاً إخراج كتلة من الحجارة لكن الفتحة لم تكن عميقة بما

فيه الكفاية ومن ثم سحب حافة النصل الفولاذى عبر الشق ثانية مصدرًا صوت كالخدش. لقد عمل بهـــدوء محـــاولاً ألا ينبــه الفرنسيين مع اقتراب النفق من الأسوار المحطمة وأيقن هوك أن هذا هو الصوت الذى سمعه. إن كلا الفريقين فى النفقين يحاول أن يعمل فى صمت.

غمغم أحد الحفارين وهو يرسم الصليب على نفسه:

- يا إلهى الرحيم.

تساءل السير چون متجاهلاً دعاء الرجل لطلب معونة الرب:

- إلى أى مدى هم قريبون؟

- لا أعرف يا سير چون.

بصق السير چون.

- لعن الرب أولاد الحرام الملاعين هؤلاء.

قال دافيد آب تراهارن مقترحًا:

- ربما يكونون فوقنا أو تحتنا.

قال هوك:

- ستعلم عندما يكونون قريبين حقًـــا، ستــسمع صــوت الخدش عاليًا.

تساءل الرجل الويلزى:

- خدش؟

- هذا ما سمعته يا سيدى.

قال دافيد آب تراهارن بتجهم:

- إنهم سيشقون طريقهم خلال الأقدام القليلة الأخيرة ثـم يهاجموننا كالشياطين.

قال السير چون:

- إن لدينا شياطيننا الذين ينتظرونهم، لن نتخلى عن هذا النفق! نحن نحتاجه! سنقاتل أولاد الحرام تحت الأرض. هذا يوفر مشقة حفر قبور لهم، أليس كذلك؟

كانت الأقواس الحربية كبيرة جدًا على الاستخدام داخـل النفق ولذا أحضر السير چون فى وسط النهار نصف دزينة من الأقواس العادية، وقال لهوك:

- إذا اقتحموا فاستقبلوهم بهذه ثم استخدموا فؤوسكم.

صار صوت الخدش أعلى، أعلى بكثير، حتى أن دافيـد آب تراهارن رأى أن ليس ثمة فائدة من محاولـة العمـل فـى صمت بعد الآن، فبدأ الرجال يطوحون بفؤوسهم. يملأون نهاية

النفق بالضوضاء وغبار الطباشير. وبين الحين والآخر كان أحد النصال يصطك بقطعة من حجر الصوان، فتطير شرارة رهيبة تلمع فى عتمة النفق. كانت الشرارات مثل الشهب. تذكر هوك جدته وهى ترسم الصليب على نفسها إذا شاهدت نجمًا كهذا ثم تتلو صلاة وتصيح أن الصلاة المحمولة على نجم مسرع تكون أكثر تأثيرًا. كان يغلق عينيه عند انطلاق الشرر ويصلى من أجل ميليساند والأب كريستوفر وأخيه مايكل. ومايكل على الأقل فى إنجلترا بعيد عن الإخوة بيريل وأبيهم القسيس المجنون. قاطع دافيد آب تراهارن أفكاره بشأن الوطن بقوله:

- عمل يوم آخر ويمكننا البدء فى عمل الكهف ثم نهدم برجهم مثل أسوار أريحا!

جلس الجنود والرماة عند حافة النفق ضامين أقدامهم ليسمحوا للعمال بنقل التراب المستخرج، وجلب العوارض الخشبية الجديدة لتدعيم السقف. كانوا ينصتون إلى عمال الحفر الفرنسيين. كانت ضوضاؤهم أكثر ارتفاعًا، ومُنذِرة بالسوء، وتأتى من جهة الشمال حيث يقوم العدو بحفر نفق معاكس ليوقف العمل الإنجليزى، وفى الأضواء الخافتة المهتزة التى يعفرها الغبار، راقب هوك بثبات الحائط البعيد وتوقع أن يرى فتحة هائلة يندفع منها الأعداء فى دروعهم. قضى السير چون

أغلب ظهيرة ذلك اليوم فى النفق مجردًا سيفه، وعلى وجهه قتامة، وقال:

- يجب أن نقاتلهم وندفعهم ليعودوا إلى حفرتهم ثم نهدم عملهم، يا عيسى، إن الرائحة هنا مثل البالوعة!

قال دافيد آب تراهارن:

- إنها بالوعة، لقد سقط بعض العمال فريسة للمرض وهم يتغوطون برازهم السائل تحت الأقدام.

غادر السير چون فى وقت متأخر من النهار وأرسل بعد ساعة رجالاً آخرين ليحلوا محل حراس النفق. نزل الرجال الجدد منحنين إلى النفق تتراقص ظلالهم كالوحوش، وقال أحدهم بتذمر:

- يا أيها المسيح على صليبه، لا أستطيع تنفس هذا الهواء.

تساءل صوت آخر:

- ألديكم أقواس لنا؟

قال هوك:

- لدينا أقواس، وهى موضوعة فى كومة.

قال الرجل:

- اتركهم لنا.

ثم نظر إلى الرماة الذين جاء ليحل محلهم:

- هوك؟ أهذا أنت؟

قال هوك:

- سير إدوارد!

ووضع القوس على الأرض ووقف مبتسمًا.

قال السير إدوارد ديروينت:

- إنه أنت!

كان هذا السير إدوارد؛ رجل اللورد سلايتون الذى أنقذ هوك فى لندن من محكمة الضيعة الإقطاعية، ومن عقابه المحتوم، ابتسم فى الضوء المغبر إلى هوك، قائلاً:

- لقد سمعت أنك هنا، كيف حالك؟

قال هوك بابتسامة عريضة:

- ما زلت حيًا يا سير إدوارد.

- نشكر الرب على هذا، رغم أن الرب وحده يعلم كيف يبقى أى شخص حيًا بالأسفل هنا.

وأنصت السير إدوارد إلى الضجيج المشؤوم بوجهه ذى الندبة الكبيرة الذى يختبىء نصفه خلف خوذة.

- يبدون قريبين!

قال هوك:

- نحن نظن هذا.

قال دافيد آب تراهارن:

- هذا أمر مخادع، ربما لا يزالون على بعد عشرة أقدام، من الصعب أن تقدر الأصوات تحت الأرض.

تساءل السير إدوارد بحدة:

- إذن ربما يكونون على بعد قبضة يد.

قال الرجل الويلزى بقسوة:

- أوه، ربما يكونون كذلك!

نظر السير إدوارد إلى الأقواس المشدودة وتساءل:

- والفكرة، أهى أن نستقبلهم بالسهام ثم نقتل أولاد الحرام؟

قال دافيد آب تراهارن:

– الفكرة هى إبقائى حيًا، وتسدون أنتم النفق، أليس كذلك! هناك العديد منكم! وهناك عمل يجب القيام به.

ذهب جنود السير چون بالفعل وأرسل هوك رماته خلفهم. تمهل للحظة ثم قال للسير إدوارد:

– أتمنى لكم ليلة هادئة.

قال السير إدوارد:

– يا ربنا العزيز، وأنا أؤمن على هذا الدعاء.

وابتسم ابتسامة عريضة:

– من الجيد أن أراك يا هوك.

قال هوك:

– إنه لمن دواعى سعادتى أن أراك يا سيدى، وشكرًا لك.

قال السير إدوارد:

– اذهب واسترح يا رجل.

أومأ هوك برأسه، ورفع فأسه الحربى، وأومأ مودعًا إلى دافيد آب تراهارن وهو يمر جوار رجال السير إدوارد وقد

حاول أحدهم عرقلته، ورأى هوك الفك البارز والعيون الغـائرة ولوهلة فى الإضاءة الخافتة ظن أنه السير مارتين ثم أدرك أنـه الابن الأكبر للقس؛ توم بيريل. كان كلا الرجلين يقفـان هنـاك منحنيين تحت العوارض الخشبية. لكن هوك تجاهلهما مدركًا أن أيًا منهما لن يهاجمه فى وجود السير إدوارد. سار فـى النفـق متقدمًا نحو ضوء النهار المتلاشى الذى يبدو فى نهاية النفـق. كان يفكر فى ميليساند، وفى الحساء الذى أعدته وفى الأغـانى حول نار المعسكر عندما يتبعثر كل العالم فلا يبقى غيرها.

ضربت الضوضاء أذنيه. بدأت كهدير مدوٍ يتصاعد خلفه بالضبط ثم ارتفع الضجيج كأن الأرض نفسها تتمزق. واستدار ليرى سحابة من الغبار تندفع نحوه، سحابة مظلمة تنـدفع فـى ظلمة النفق، وظلال الرجال المندفعين تبدو كالوحوش فى تلـك الظلمة. تعالت أصوات صياح، صوت ضربات الفـولاذ علـى الدروع، وصرخة؛ الصرخة الأولى.

لقد اخترق الفرنسيون النفق.

بدأ هوك يعود للقتال بشكل غريزى، ثم تذكر البراميـل. تساءل: أعليه أن يسد مدخل النفق. لكنه تردد. كان هناك رجـل يصرخ فى الظلمة، ضوضاء مريعة كحيوان يخـصى بقـسوة.

صرخ رجل آخر. لمح هوك المزيد من الرجال ينزلون من سقف النفق، ولذا اندفع المزيد من التراب نحوه يسد عليه الرؤية، وفى الغبار، اندفع أحدهم نحوه. كان جنديًا مجردًا سيفه. كانت مقدمة خوذته مغلقة، ويمسك سيفه بكلتا يديه، وقد جعله الضوء الخافت يبدو كعملاق أرضى هائل أتى من قلب كابوس. غطى التراب والطباشير دروعه المعدنية. حدق هوك وقد أذهلته الرؤية غير الطبيعية ثم جأر الرجل بالصياح وأعاد هذا الصوت هوك إلى عالم الواقع فى اللحظة التى حاول الجندى أن يطعنه بسيفه فى بطنه. مال هوك جانبًا وضرب بفأسه الحربى الوجه المغطى بالدرع الصلب. انزلقت حافة الفأس على مقدمة الخوذة ذات البروز التى تبدو كأنف خنزير. لكن قمة حافة المطرقة الثقيلة شقت الخوذة محطمة المعدن. وضع هوك كل قوته - بوصفه رامى سهام- فى تلك الضربة، ولف العملاق الأرضى للوراء، تدفق الدم من فتحات مقدمة الخوذة، وتذكر هوك كل الدروس التي تلقاها فى ساحات السير چون. اقترب من الرجل بسرعة مقتربًا من مدى السيف، فلا يستطيع الرجل التطويح بنصله، وطوح بفأسه كالنبوت مسقطًا الرجل على الأرض، لم يكن لدى هوك مساحة تكفى ليطوح فأسه، لكنه استعاض بقوته ودفع نصل الفأس على مرفق الرجل الممسك بالسيف فكسره ثم

دفع قمة النصل فى الفجوة بين خوذة العدو ودرع صدره، كـان الرجل الفرنسى يرتدى واقيًا من سلاسل متراكبـة والقلنسوة تحمى تلك الفجوة لكن القمة الفولاذية مزقت ذلك بسهولة مندفعة فى حلق الرجل، وبعد ذلك جاء المزيد من الرجال تجاه هـوك مثل العملاق الأرضى، وكلما اقتربوا بدوا فى حجمهم الطبيعى، وظلالهم تتلوى على أرض النفق وتسرب دمـه إلـى الأرض الطباشيرية وانسكب اللون الأسود على الأبيض.

كان الرجال الآتون من عمق النفق يحارب بعضهم بعضًا، سحب هوك النصل من العملاق الأرضى المحتضر، وضـرب بقمته رجلاً يرتدى درعًا غريبة، انزلق النـصل علـى الـدرع المعدنية ممزقًا المعطف فالتفت الرجل؛ وحش تغطـى وجهـه مقدمة الخوذة، يواجه هوك. طوّح الرجل بسيفه لكـن الـسيف انغرس فى إحدى العوارض الخشبية التى تدعم النفـق. انـدفع هوك ثانية بفأسه الحربية، واضعًا الفأس حول عقُب الرجل، ثم شدها بقوة فأفقد الرجل الفرنسى توازنه. تمايل حفار ويلزى نحو هوك وقد خرجت أحشاؤه من بطنه المبقورة، دفعه هـوك مـن كتفيه جانبًا، ودفع بقمة الفأس تحت دروع صدر الرجل الواقـع على الأرض. كانت الفجوة تُرَى بالكـاد مـن خـلال الكتّـان الممزق، دفع المقبض الطويل وأداره محاولاً دفع النـصل إلـى

معدة الرجل وصدره لكن شيئًا ما أوقف النصل وبعد ذلك أتـــت مجموعة أخرى من الرجال دفعته للوراء. كان رجـــال اللـــورد سلايتون يتراجعون أمام الفرنسيين رغم أن حفنة من العدو كانت بينهم. تصارع الرجال فـــى الظـــلام وتعثـــروا فـــى المـــوتى والمحتضرين وانزلقوا على الغائط. دفع اثنان من الجنود هـــوك إلى الخلف ليلتصق على جانب النفق فدفع فأسه مرة أخرى مثل النبوت ممسكًا إياها بكلتا يديه، لكن بعض الرجـــال المنـــدفعين أزاحوا عَدُويّه جانبًا إذ اندفع الرماة والحفارون هـــاربين إلـــى المتراس.

علا صوت السير إدوارد هادرًا من أسفل النفق قائلاً:

- أوقفوهم!

البراميل. استدار هوك وقد تحرر مؤقتًا مـــن مهاجميـــه وركض تجاه مدخل النفق، ووصل إلى حيث يبدأ النفق بالميـــل إلى أعلى تجاه السطح لكن قدمًا عرقلته فسقط مصطدمًا بـــشدة بالأرض الطباشيرية، لف على جانبه وحاول النهـــوض علـــى قدميه ولكن حذاء ذا رقبة ركلة فى بطنه، لف هوك ثانية، ليرى توم و روبرت بيريل يقفان فوق رأسه. صاح توم بيريـــل فـــى أخيه:

- بسرعة.

رفع روبرت سيفًا تتجه ذؤابته إلى حلق هوك، قال تـــوم بيريل:

- سآخذ امرأتك.

لكن هوك سمعه بصعوبة، إذ كانت الصرخات والصيحات تتردد في النفق. تصاعدت المزيد مـــن الـــصيحات مـــن عنـــد المتراس، حيث يخوض المهاجمون معركة مريرة مفاجئة ضـــد المدافعين المذهولين. أنزل روبرت سيفه، وتدحرج هوك مـــرة أخرى دافعًا بجسده على أقدام أعدائه. شـــدهما بقـــوة، فـــسقط روبرت بيريل مندفعًا تجاه الحائط البعيد. اندفع هوك واقفًا على قدميه بينما الفأس الحربية لا تزال في يده، والتفت إلى تومـــاس بيريل الذى هرب ببساطة.

صاح هوك:

- جبان!

ونظر إلى أسفل إلى روبرت الذى كان يطوح بالسيف بلا فائدة، وهو يصرخ، ويصرخ، وفهم هوك فجأة سبب صـــراخه. كانت الأرض تتزلزل كصيحة أخرى حادة كالنصل تدوى فـــي أذني هوك.

قال القديس كريسبينيان:

- انزل!

كانت الأرض تهتز الآن وضاعت الصيحة الحادة في صوت الرعد، ذلك الرعد الذى لم يأت من السماء ولكن من الأرض، وأطاع هوك القديس، وجثم جوار روبرت بيريل إذ ينهار سقف النفق.

بدا أن ما يحدث سيستمر للأبد. تصدعت الأخشاب وهى تصدر أنينها الذى يتصاعد وسقطت الأرض.

أغلق هوك عينيه. عادت الصرخات الحادة، لكنها كانت داخل رأسه، إنه الخوف، صرخته هو، خوفه من الموت، كان يتنفس الغبار. لقد عرف فى اليوم الأخير أن الموتى سينهضون من الأرض، يجيئون من قبورهم، ستفسح الأرض مجالاً للحمهم وعظامهم، وسيتجهون شرقًا نحو المدينة المقدسة المشرقة، نحو القدس، وستكون السماء فى الشرق أكثر إشراقًا من الشمس، وسَيُغرِق رعب عظيم الموتى الذين نُشِروا من توهم وهم يقفون فى أكفانهم، سيكون هناك صراخ وبكاء. سيجفل القوم من انبهار أبصارهم بالضوء الجديد، ولكن كل كهنة الإبرشية الموتى يدفنون وأقدامهم جهة الغرب، ولذا فعندما يبعثون من قبورهم

سيكونون فى مواجهة شعوبهم الخائفة، فينادون فيهم بالطمأنينة. ولسبب ما عندما انهارت الأرض صانعة قبرًا لهوك، فكر بالسير مارتين، وتساءل: هل كان ذلك الوجه الملتوى الكريه ذو الفك الطويل سيكون أول من يراه عندما يملأ صوت الأبواق السماوات، ويأتى الرب فى مجده ليأخذ شعبه؟

سقطت إحدى عارضات السقف الخشبية وتهاوت الأرض. كان هوك لا يزال جالسًا القرفصاء، ويتعالى صوت كالرعد من كل مكان حوله، واستحال الصراخ فى رأسه نشيجًا، ثم ساد الصمت.

صمت مفاجىء، ومطلق، وأسود.

تنفس هوك.

تأوه روبرت بيريل:

- أوه، يا إلهى.

ضغط شىء ما على ظهر هوك، كان ثقيلاً وبدا ثابتًا لكنه لم يكن يسحقه. كان الظلام مطلقًا.

قال بيريل:

- أوه، أرجوك يا إلهى.

ارتعدت الأرض ثانية وكان هناك دوى مكتوم. دار بخلد هوك أنه مدفع وصار باستطاعته الآن سماع بعض الأصـــوات لكنها كانت بعيدة للغاية. امتلأ فمه بالحصى. بصق.

لا تزال الفأس الحربية فى يده اليمنى، لكنـــه لا يـــستطيع تحريكها، كان السلاح محصورًا فى شىء ما، تركها، وتحـــسس حوله، فأدرك أنه فى فراغ صغير ضيق. تلمست أصابعه رأس بيريل الذى قال:

- ساعدنى.

لم يقل هوك شيئًا.

تحسس خلفه، وأدرك أن إحدى أخشاب الـــسقف ســقطت بشكل جزئى، وبطريقة ما تركت هذا الفـــراغ الـــصغير حيـــث يجلس القرفصاء ويتنفس. كان الخشب مـــائلاً نحـــو الأســـفل، وخشب البلوط الخام هو ما يضغط على عموده الفقرى. تساءل بصوت عال:

- ماذا أفعل؟

قال القديس كريسبينيان:

- أنت لست بعيدًا عن السطح.

قال بيريل:

- يجب عليك أن تساعدنى.

دار بخلد هوك: لو تحركت أموت.

قال بيريل:

- نيك! ساعدنى رجاءً!

قال القديس كريسبينيان:

- ادفع إلى أعلى.

قال القديس كريسبين فى صوت أكثر خشونة:

- أظهر بعض الشجاعة.

غمغم بيريل متأوهًا:

- من أجل الرب، ساعدنى.

قال القديس كريسبينيان:

- تحرك إلى جهة اليمين ولا تخف.

تحرك هوك ببطء فتساقط التراب.

قال القديس كريسبينيان:

- والآن احفر طريقك للخروج مثل حيوان الخُلد[٢٩].

قال هوك:

- إن الخلد يموت.

وأراد أن يشرح كيف كانوا يحاصرون حيوانات الخلد بسد أنفاقها ثم يستخرجون الحيوانات الخائفة، لكن القديس لم يُرِد الاستماع.

قال القديس بصبر نافد:

- أنت لن تموت إذا حفرت.

ولذا دفع هوك للأعلى، يخمش الأرض بكلتا يديه، فتنهار التربة، وتملأ فمه، أراد الصراخ، لكنه لم يستطع، دفع بقدميه

---

(٢٩) الخلد (Mole): من فصيلة الثدييات أسطوانية الشكل تتأقلم على الحياة داخل جحور تحت سطح الأرض وتستطيع التنفس فى هذه الأماكن التى تقل فيها نسبة الأوكسجين عن طريق إعادة استخدام الأوكسجين الذى تنفسته فوق سطح الأرض. فراؤها ناعم، لديها عينان وأذنان شديدتا الصغر حتى لا تكاد تُرى، أوصالها قصيرة وقوية بها براثن كبيرة للحفر. (المترجم).

مستخدمًا قوة جسده كلها وأطبقت الأرض حوله وكان متأكدًا أنه سيموت هنا إلا أنه على حين غرة وجد نفسه يتنفس هواءً نقيًا. لقد كان قبره ضحلاً جدًا، ليس سوى كفن من التراب المتساقط ووجد نصفه الأعلى فى الهواء الطلق وأدهشه أن الليل لم يُغطِ العالم بالكامل بعد. بدا أنها تمطر. لكن السماء صافية ثم أدرك أن الفرنسيين يطلقون سهامهم من البرج الدفاعى ومن الأسوار النصف المحطمة. لم يكونوا يصوبون عليه، لكن على الرجال الذين يطلون من الخنادق الإنجليزية وحول حواف المتراس.

كان هوك فى التراب حتى خصره. مد يده إلى الأسفل جوار ساقه اليمنى وأمسك بمعطف روبرت بيريل الجلدى، وشده. كانت التربة مخلخلة للدرجة التى سمحت له أن يسحب رامى السهام إلى ضوء آخر النهار. انغرس سهم فى التراب، على بعد بضع بوصات قلائل من هوك، وبقى هو ثابتًا تمامًا. كان واقفًا فيما يشبه خندقًا عشوائيًا منحته جوانبه المرتفعة بعض الحماية من السهام الفرنسية، كان المدافعون عن البلدة يهتفون، فقد رأوا النفق ينهار، ورأوا الإنجليز يحاولون إنقاذ أى شخص نجا من الكارثة، ولذا ملأوا الشفق بسهامهم ليدفعوا عمال الإنقاذ إلى التراجع.

تنهد روبرت بيريل قائلاً:

- أوه، يا إلهى.

قال هوك:

- أنت لا تزال حيًا.

- نيك؟

قال هوك:

- علينا أن ننتظر.

سعل روبرت بيريل مختنقًا وبصق بعض التراب وقال:

- ننتظر؟

قال هوك:

- لا نستطيع التحرك حتى يحل الظلام، إنهم يصوبون علينا.

- وأخى؟!

قال هوك:

- لقد هرب.

وتساءل عما حلّ بالسير إدوارد، هل انهار الجزء الأعمق من النفق؟ أم قتل الفرنسيون كل الرجال الذين كانوا هناك؟ لقد حفر العدو نفقه فوق الحفر الإنجليزى، ثم نزلوا إلى النفق، وتخيل هوك المعركة الفجائية، والموت فى الظلمة، وألم الاحتضار فى قبر أُعِدّ بالفعل، وقال لروبرت بيريل:

– لقد كنت بصدد قتلى.

لم يقل بيريل شيئًا، كان نصف مستلقٍ على أرضية الخندق لكن ساقيه كانتا لا تزالان مدفونتين وقد فقد سيفه.

قال هوك ثانية:

– لقد كنت بصدد قتلى.

– بل أخى.

قال هوك:

– لقد كنت تحمل السيف.

مسح بيريل التراب من على وجهه وقال:

– أنا آسف، نيك.

نخر هوك ولم يقل شيئًا.

قال بيريل معترفاً:

- لقد قال السير مارتين أنه سيدفع لنا.

قال هوك باحتقار:

- أبوك؟

تردد بيريل ثم أومأ برأسه.

- نعم.

- ألأنه يكرهنى؟

قال بيريل:

- لقد رفضته أمك.

ضحك هوك وقال بصراحة:

- وأمك جعلت من نفسها عاهرة.

قال بيريل:

- لقد أخبرها أنها ستذهب إلى الجنة، إنها إذا فعلت ذلك مع قس تذهب إلى الجنة، هذا هو ما قاله.

قال هوك:

- إنه مجنون، ممسوس.

تجاهل بيريل ذلك.

- لقد أعطاها المال، ولا يزال يعطيها، وسيعطينا مالاً.

تساءل هوك:

- لقتلى؟

رغم أن الفرنسيين كانوا يحاولون بجدية أن يكفوا السير مارتين العناء. كانت السهام تطير وتتساقط يقع بعضها قبل الخندق العشوائى الذى نتج عن انهيار النفق.

قال روبرت بيريل:

- إنه يريد امرأتك.

- كم سيدفع لكما؟

قال بيريل وهو حريص على مساعدة هوك الآن:

- مارك واحد لكل منا.

مارك واحد. مائة وستون من البنسات(٣٠) أو ثلاثمائة وعشرون بنسًا إذا جمعنا حصة الأخوين معًا. إنه أجر رامى

---

(٣٠) البنسات (Pennies): هو أصغر عملة متداولة فى البلدان التى تتحدث الإنجليزية. تبلغ قيمة البنس الواحد فى الولايات المتحدة وكندا=

سهام لثلاثة وخمسين يومًا. ثمن موت هوك وتعاسة ميليـــساند.
وتساءل هوك:

- إذن كان عليكما قتلى؟ ثم أخذ فتاتى؟

- إنه يريد هذا.

قال هوك:

- إنه شيطان لقيط مجنون.

قال بيريل بشكل مثير للشفقة:

- يمكنه أن يكون طيبًا، هل تذكر ابنة چون لوتوك؟

- بالطبع أذكرها.

- لقد أخذها بعيدًا، لكنه دفع لچون فى نهايـــة المطـــاف. أعطاه مهر الفتاة.

- مائة وستون من البنسات لاغتصابها.

= ١/١٠٠ من الدولار. صك أول مرة من الفضة عام ٦٨٠، وصك عام ١٧٩٣ من النحاس فى الولايات المتحدة الأمريكية، وصك من البرونز عام ١٨٦٠ فى بريطانيا. (المترجم).

قال بيريل وقد أربكه السؤال:

- لا! أظنه كان جنيهين وربما أكثر، لقد كان چون سعيدًا.

بدأ الضوء يتلاشى بسرعة كبيرة الآن. لقد حافظ الفرنسيون على مدافعهم جاهزة من أجل اللحظة التى يخترق فيها نفقهم العكسى النفق الإنجليزى، وها هم أولاء الآن يطلقون القذيفة تلو الأخرى من أسوار هارفليه وتصاعد الدخان مثل السحاب المرعد ليزيد السماء المظلمة قتامة بينما تثب أحجار المدافع، وترتطم بجوانب المتراس الصامد.

صاح صوت من المتراس:

- روبرت!

قال روبرت بيريل وقد تعرف صوت أخيه:

- إنه توم!

وأخذ شهيقًا ليجيب الصيحة، لكن هوك أغلق فمه بيده.

زمجر هوك:

- ابق صامتًا.

سقط سهم داخل الخندق وارتطم بدرع هوك. كان قد فقد قوته فطاش بعيدًا عن الدرع وارتطم سهم آخر بحجر صوان قريب جدًا مصدرًا بعض الشرر. تساءل هوك وهو يرفع يده عن فم روبرت بيريل:

- ماذا يحدث الآن؟

- ماذا تعنى؟

- سأعيدك وتحاول قتلى ثانية!

قال بيريل:

- لا! أخرجنى من هنا يا نيك! أنا لا أستطيع الحركة!

تساءل هوك ثانية:

- إذن ماذا يحدث الآن؟

تساقطت السهام على المتراس بكثافة، فبدا صوتها كالبَرَدِ المتساقط على سقف خشبى.

قال بيريل:

- أنا لن أقتلك.

تساءل هوك:

- ماذا علي أن أفعل؟

قال بيريل:

– أخرجنى من هنا يا نيك أرجوك.

– أنا لم أكن أتحدث إليك. ماذا على أن أفعل؟

قال القديس كريسبين؛ الأخ الأكثر شـــدة، فـــى صـــوت هازىء:

– ما رأيك؟

قال هوك:

– إنها جريمة قتل.

قال بيريل فى إصرار:

– أنا لن أقتلك!

تساءل القديس كريسبينيان:

– أتظن أننا أنقذنا الفتاة لتُغتَصَب؟

قال بيريل:

- أخرجني من هذا الوحل أرجوك!

وبدلاً من ذلك مد هوك يده، فوجد أحد السهام الساقطة. كان طول السهم قدر ساعده، وسُمكه قدر إبهامين، ومُرَّيَش بدوارات جلدية صلبة كانت رأسه صدئة لكنها لا تزال حادة.

وقتل بيريل بأسهل طريقة. ضربه بشدة على رأسه، وبينما كان رامى السهام يحاول أن يفيق من الضربة دفع هو بالسهم عبر إحدى عينيه، اخترقها السهم بسهولة وعبر محجرها، وظل هوك يدفع قامة السهم السميكة فى مخ بيريل حتى ارتطم السهم بمؤخرة جمجمته. تلوى رامى السهام، وارتجف، واختنق، وارتعد، لكنه مات بسرعة كافية.

صاح توم بيريل من المتراس:

- روبرت!

ضرب سهم صدر مدخنة حجرية لا تزال واقفة فى رماد بقايا منزل محروق. تسارع تساقط السهام فى الظلام الآخذ فى الهبوط وتطايرت واحدًا تلو الآخر، أخذت ترتفع فوق الخنادق الإنجليزية وتسقط بعدها بكثير. مسح هوك يده اليمنى المجروحة فى سترة روبرت بيريل منظفًا الوحل الذى تدفق من عين الميت، ثم شد نفسه ليتحرر من التربة. كان الليل قد هبط تقريبًا ودخان طلقات المدافع يغطى الضوء القليل المتبقى. خطا على

بيريل وسار مترنحًا نحو المتراس. استعادت ساقاه قوتهما ببطء مرة أخرى. طاشت حوله السهام، لكن هدفها كان قد استعاد قوته الآن. وصل هوك إلى المتراس فى أمان. استند إلى جانب المتراس فى سيره، ورمى بنفسه داخل الخندق الآمن، أضاءت المصابيح وجهه المتقشر المترب. حدق الرجال إليه.

تساءل أحد الجنود:

- كم نجا من الآخرين؟

قال هوك:

- لا أدرى.

قدم قسيس إليه قدرًا قائلاً:

- خذ.

وشرب هوك، ولم يدرك إلى أى حد كان عطشانًا إلا حين ذاق الجعة.

كان توماس بيريل بين الرجال الذين يحدقون فى هوك.

- أخى؟

قال هوك باقتضاب وهو يحدق فى وجه بيريل الطويل:

- قتل بسهم.

وأضاف بوحشية:

- أصابه مباشرة فى عينه.

حدق بيريل إليه، وبعد ذلك اخترق السير چون كورنويل الجمع الصغير الذى يحيط به فى حفرة المتراس.

- هوك!

- أنا حى يا سير چون.

- أنت لا تبدو كذلك. تعال.

أمسك السير چون بذراع هوك وقاده نحو المعسكر.

- ماذا حدث؟

قال هوك:

- لقد جاءوا من الأعلى، كنت فى طريقى للخروج حين انهار السقف.

- سقط عليك؟

- نعم يا سير چون.

- إن أحدهم يحبك يا هوك.

قال هوك:

- القديس كريسبينيان يحبنى.

ثم رأى ميليساند على ضوء نار المعسكر فـذهب إليهـا يعانقها. وبعد ذلك هاجمته الكوابيس فى الظلام.

بدأ رجال السير چون يحتضرون فى الـصباح التـالى. ضرب المرض أحد الجنود واثنين من الرماة، مما حول أمعـاء الثلاثة إلى بالوعات من الماء القذر. ماتت ألِـيس جـودواين. أصاب المرض دزينة أخرى من الجنود، كما أصاب عـشرين راميًا على الأقل. لقد هاجم الطاعون الجـيش. خيمـت علـى المعسكر رائحة الغائط. زاد الفرنسيون من ارتفاع أسوارهم كل ليلة، وفى الفجر يكافح الرجال ليـصلوا إلـى حفـر المـدافع والخنادق، حيث يتقيأون ويتغوطون أمعاءهم.

التقط الأب كريستوفر عدوى المرض. وجدته ميليـساند يرتعد في خيمته. ووجهه شاحب يرقد وسط برازه وقد أصـابه الوهن فأقعده عن الحركة وقد قال لها:

- لقد أكلت بعض البندق.

- بندق؟

كرر الكلمة بالفرنسية ليوضح لها الأمر فى صوت بــدا مثل آهة متقطعة الأنفاس.

- لم أكن أعلم.

- لم تكن تعلم؟!

- لقد أخبرنى الأطباء الآن أنه يجــب عـــلى ألاّ آكــل البندق أو الكرنب والمرض منتشر فى هذه الأنحاء. لقد أكلت البندق.

حممته ميليساند. قال معترضًا:

- أنتِ تزيدين مرضى.

لكنه كان أضعف من أن يمنعها من تنظيفه. وجــدت لــه غطاء رغم أن الأب كريستوفر رمى به عندما أصبح حر النهار لا يطاق. كانت معظم الأراضى المنخفضة التـــى تقــف فيهــا هارفليه لا تزال مغمورة بالمياه، وبدت الحرارة تــتلألأ علـــى المياه الضحلة، فتجعل الهواء كثيفًا كالبخار. لا تــزال المــدافع تطلق قذائفها ولكن بمعدل أقل، فقد ضرب طـــاعون البقــر(٣١)

---

(٣١) طاعون البقر (Murrain): هو مرض معدٍ بشدة يصيب الماشية، معناه الحرفى هو الموت واستخدمت الكلمة فى العصور الوسطى بهذا=

المدفعيين الهولنديين أيضًا. لم يُستَثن أحد. سقط بعض الرجـــال فى منزل الملك مرضى، قضى لوردات عظام، وحومت ملائكة الموت على أجنحة الظلام فوق المعسكر الإنجليزى.

وجدت ميليساند ثمار التوت البرى الأسود[٣٢] واســتجدت بعض الشعير من طهاة السير چون، وغلت التوت والشعير لتقلل كمية السائل، ثم حلَّتهما بالعسل، وأعطت المزيج بالملعقة للأب كريستوفر فى فمه، وقد قال لها فى ضعف:

=المعنى، أصيبت الماشية فى أوروبا فى القرن ١٤ بهذا الطاعون. ذكر طاعون البقر فى الكتاب المقدس فى الحديث عن الطاعون الخامس الذى تفشى فى مصر.(المترجم).

(٣٢) التوت البرى الأسود (Black Berry): يسمى أيضًا العليق الشجرى أو توت العليق وهو نوع نباتى يتبع جنس التوت البرى من الفصيلة الوردية. فاكهته تصلح للأكل وهى ليست توتًا حقيقيًا ، طرية وغير مسكرة تستخدم فى صناعة الحلويات والمربى، وتتغذى بعض أنواع الديدان على الأوراق. تعتبر ولاية أورجون أكثر ولاية تزرع هذه الفاكهة. تحتوى على عناصر غذائية كثيرة مثل فيتامين (س) و(ك) و(ب) وتحتوى على حمض الفوليك. من الفولكلور الشعبى فى المملكة المتحدة ألا يقطفوا من ثمارها بعد الاحتفال بيوم عيد القديس مايكل فى الحادى عشر من أكتوبر لأن الشيطان يبول على أوراقها، وقد يرجع أصل الأسطورة إلى أن الرطوبة تؤثر على ثمارها وقد تجعلها سامة. (المترجم).

- أنا سأموت.

قالت بحزم:

- لا، أنت لن تموت.

أتى طبيب الملك الخاص؛ السيد كولنيت إلى خيمة الأب كريستوفر، كان رجلاً شابًا، جادًا، ذا وجه شاحب، وأنف صغير، اشتم بالأب كريستوفر برازًا. ولم يقدم أى شرح لما استنبطه من الرائحة، وبدلاً من ذلك شق بسرعة وريدًا فى ذراع القس واستنزفه بغزارة، وقال:

- إن خدمات الفتاة لن تسبب أى ضرر.

قال الأب كريستوفر فى ضعف:

- فليباركها الرب.

قال السيد كولنيت:

- لقد أرسل الملك نبيذًا من أجلك.

- اشكر جلالته نيابة عنى.

قال كولنيت وهو يربط الذراع المجروحة بمهارة متمرسة:

- إنه نبيذ ممتاز، رغم أنه لم يساعد الأسقف.

- هل مات أسقف بانجور[٣٣]؟

- ليس أسقف بانجور بل أسقف نورويش[٣٤]، لقد مات بالأمس.

قال الأب كريستوفر:

- يا إلهى العزيز.

---

(٣٣) بانجور (Bangor): مدينة تقع فى شمال غرب ويلز وهى واحدة من أصغر المدن فى المملكة المتحدة، ٤٦,٧ من السكان يتكلمون الويلزية. رصيف بانجور هو تانى أطول رصيف فى ويلز وتاسع أطول رصيف فى الجزر البريطانية وطوله ١٥٠٠ قدم، تعود جذور المدينة إلى تأسيس كاتدرائية بانجور فى أوائل القرن السادس الميلادى. المترجم.

(٣٤) نورويش (Nourwich): هى مدينة تقع شرق إنجلترا، كانت فى القرن الحادى عشر ثانى أكبر مدينة فى إنجلترا بعد لندن. أهم الصناعات بها هى صناعة الأحذية والملابس والشوكولاتة. مناخها بحرى معتدل، وبها العديد من المتاحف المهمة أكبرها متحف قصر نورويش الذى يضم مجموعة قيمة من الاكتشافات الأثرية من مقاطعة نورفولك، والأعمال الفنية. من أعلامها الرسام الإنجليزى ميشيل آندرو (١٩٢٨-١٩٩٠)، والمؤلفة إليزابيث بنتلى (١٧٦٧-١٨٣٩) التى كتبت حكايات شعرية للأطفال. (المترجم).

قال السيد كولنيت:

– لقد فصدت دمه هو الآخر وظننت أنه سيعيش لكن الرب قضى خلاف ذلك. سأمر عليك غدًا.

قُطِّع جسد أسقف نورويش إلى أرباع، ثم غُلِي فى قدر عملاق لفصل اللحم عن العظام، سكب السائل القذر الساخن بعيدًا، ولُفت العظام فى الكتان ووضعت فى تابوت حُمِل إلى الشاطئ، وبالتالى يمكن أن يُأخذ الأسقف إلى الوطن، ليُدْفَن فى الإبرشية التى كان يرعاها فى حياته. كان أغلب الموتى يُلقون ببساطة فى حفر تُحفَر فى أى مكان به قطعة أرض مرتفعة، كافية لتحمى القبر من مياه الفيضان، ولكن مع تزايد الموتى تم التخلى عن حفر القبور، وحُمِلت الجثث إلى السهول التى يخلفها المد وألقيت فى الجداول الضحلة، حيث كانت تحت رحمة الكلاب البرية والنوارس والخلود للأبد. امتلأ المخيم برائحة نتن الموتى، والغائط العفن، ودخان احتراق النيران.

بعد يومين من نجاة هوك من النفق المتهاوى كانت هناك موجة مفاجئة من طلقات المدافع من أسوار هارفليه. لقد عبأت الحامية مدافعها وأطلقتها كلها الآن فى وقت واحد، وحف الدخان المدينة المقصوفة، هلل المدافعون من الأسوار ولوحوا بأعلامهم ساخرين.

أوضح السير چون:

- لقد تمكنت سفينة من الوصول إليهم.

تساءل هوك:

- سفينة؟

- بالله عليك، أنت تعرف ما هى السفينة؟!

- ولكن كيف؟

- كان أسطولنا اللعين نائمًا، هذا هو السبب! والآن حصل أولاد الحرام الملاعين على الطعام. فليلعن الرب أولاد الحرام هؤلاء.

بدا الأمر كأن الرب غير اتجاهه، فصار إلى جانب المدافعين عن هارفليه التى تتجدد باستمرار ويعاد بناؤها رغم القصف والتحطيم. تدعم الأسوار الجديدة تلك القديمة المحطمة، وتعمق الحامية الخندق الدفاعى كل ليلة، وتضيف دفاعات جديدة للخروقات المحطمة.

لم تهدأ كثافة السهام وهو ما أكد أن المدينة كانت قد جُهِزت جيدًا، أو ربما السفينة التى أفلتت من الحصار جلبت معها إمدادات جديدة، وفى الوقت نفسه، ازدادت حدة المرض

بين الإنجليز. دلف السير چون منحنيًا إلى خيمة الأب كريستوفر، وحدق إلى القسيس، وسأل ميليساند:

- كيف حاله؟

هزت كتفيها، وبقدر ما، كان هوك يمكن أن يقول أن القس مات بالفعل فهو يرقد بلا حراك، فمه مفتوح قليلاً ولون جلده قد استحال إلى الرمادى الشاحب.

تساءل السير چون:

- أمازال يتنفس؟

أومأت ميليساند برأسها.

قال السير چون:

- فليساعدنا الرب.

وخرج بظهره من الخيمة، وقال ثانية:

- فليساعدنا الرب.

وحدق إلى المدينة. كان من المفترض أن تسقط منذ أسبوعين. لكنها ما زالت هناك تقاوم، حطام أسوارها وأبراجها توفر الحماية للحواجز الجديدة التى بنيت خلفها.

كانت هناك بعض الأخبار الجيدة، إن السير إدوارد سجين فى هارفليه، وكذلك دافيد آب تراهارن، يعود الرسل من محاولة يائسة أخرى لإقناع الحامية بالاستسلام، ويقصون كيف استسلم الرجال الذين حُوصِروا فى نهاية النفقا البعيدة. تم التخلى عن النفق المنهار، رغم أن هناك أنفاقًا أخرى لا تزال تُحفر فى الجانب الشرقى من هارفليه، حيث يقود أخو الملك الحصار هناك. أما أفضل الأخبار، فهى أن الفرنسيين لم يبذلوا أى جهد للتخفيف عن المدينة. كانت دوريات الإنجليز تركب إلى مسافات بعيدة فى الريف بحثًا عن الحبوب، ولم يكن هناك ما يدل على جيش للعدو قادم ليضرب الجيش الإنجليزى المريض الضعيف.

إن هارفليه على ما يبدو قد تُرِكت لتتعفن، رغم أنه يبدو الآن أن نهاية المُحَاصِرِين ستأتى أولاً.

قال السير چون باكتئاب:

- كل هذه الأموال وكل ما فعلناه هو الزحف لميلين لنصبح لوردات القبور وحفر الغائط.

تساءل هوك:

- ولماذا لا نغادرها فقط، نسير بعيدًا وحسب؟

قال السير چون:

- يا له من سؤال لعين غبى، قد يستسلم هذا المكان غدًا! وكل العالم المسيحى يراقبنا. لو أننا تركنا الحصار سنبدو ضعفاء. وعلاوة على ذلك، حتى لو تقدمنا إلى داخل البلاد فليس من الضرورى أن نجد الفرنسيين، لقد تعلموا الخوف من الجيوش الإنجليزية ويعلمون أن أفضل طريقة للتخلص منا هى أن يختفوا داخل القلاع، وإذن فقد نترك هذا الحصار لنبدأ واحدًا غيره. لا، يجب علينا أن نستولى على هذه المدينة اللعينة.

تساءل هوك:

- إذن لماذا لا نهاجم؟

قال السير چون:

- لأننا فقدنا الكثير من الرجال، تخيل ذلك يا هوك، وسيقذفوننا بالسهام والمدافع إذا تقدمنا، فيقتلوننا عند عبور الخندق ثم نجتاز حطام الأسوار، لنجد خندقًا جديدًا وسورًا جديدًا والمزيد من السهام والمزيد من المدافع، والمزيد من المجانيق، لن يمكننا تحمل مائة

قتيل وأربعمائة مصاب. لقد جئنا هنا لنفـتح فرنـسا لا لكى نموت فى حفرة الغائط النتنة هذه.

وركل الأرض الصلبة ثم حدق إلى البحر حيث تقف ست سفن إنجليزية عند مدخل الميناء، وقال بأسى:

– لو أننى أرأس حامية هارفليه فإننى أعرف بالضبط ما ينبغى لى فعله الآن.

– وما هو؟

قال السير چون:

– الهجوم، يركلوننا ونحن نصف مشلولين. نحن نتحدث عن النبل يا هوك ونحن نبلاء. نحن نحارب بطريقـة مهذبة جدًا! ولكنك تعرف كيف تربح معركة؟

– نقاتل بقذارة يا سير چون؟

– نقاتل بسفالة يا هوك. قاتل مثل الشيطان وأرسل النبلاء إلى الجحيم. إنه ليس أحمق.

– الشيطان؟

هز السير چون رأسه نفيًا.

- لا، راؤول دى جاكورت، إنه يرأس الحامية.

وأشار برأسه إلى هارفليه.

- إنه رجل نبيل يا هوك، لكنه أيضًا مقاتل وهو ليس أحمق ولو أننى راؤول دى جاكورت لكنت دمرتنا الآن.

وقد فعل راؤول دى جاكورت ذلك فى اليوم التالى.

- استيقظ يا نيك.

كان هذا توماس إيڤل-جولد ينادى عليه زاعقًا. هز رقيب الرماة مأوى هوك، هزه بعنف، مما كسر الفروع الميتة وبعض أوراق الشجر وتساقطت على هوك وميليساند وصاح مرة أخرى:

- فليلعنك الرب، استيقظ!

فتح هوك عينيه فى الظلمة ونادى:

- توم؟

لكن إيڤل-جولد كان قد تحركِ بالفعل لإيقاظ الرماة الآخرين.

كان هناك صوت آخر يصيح فى الرماة ليتجمعوا.

- الدروع! الأسلحة! أسرعوا! الآن عليكم اللعنة! أريدكم كلكم هنا، الآن، الآن!

تساءلت ميليساند:

- ما الأمر؟

قال هوك:

- لست أدرى.

وتحسس حوله بارتباك باحثًا عن معطفه المدرع. كانت رائحة البطانة الجلدية كريهة لا تقاوم حين سحبه فوق رأسه، شد المعطف الثقيل بصعوبة إلى صدره.

- حزام السيف.

- ها هو ذا.

كانت ميليساند الآن جاثية على ركبتيها. انتعشت نيران المعسكر وانعكس لهيبها الأحمر على عينيها المحملقتين.

ارتدى هوك المعطف القصير المثبت عليه شعار صليب القديس چورج، الشعار الذى طُلِب من كل رجل يشارك فى أعمال الحصار أن يرتديه. شد حذاءه ذا الرقبة الطويلة؛ ذاك الحذاء الجيد الذى اشتراه فى سواسون والذى بدأت خياطته تتفكك الآن؛ شد حزامه وسحب القوس من حافظته، والتقط جعبة سهام، ربط فأسه الحربية فى حزام جلدى طويل وعلقه على كتفه، واختفى فى ظلمة الليل، وصاح قائلاً لميليساند:

- سأعود.

صاحت من خلفه بالفرنسية:

- الخوذة! الخوذة!

عاد إليها وأخذ الخوذة منها وأحس برغبة جامحة مفاجئة أن يخبرها أنه يحبها، لكن ميليساند قد اختفت عائدة إلى المأوى، ولم يقل هوك شيئًا، وأحس أن الليلة تنتهى. كانت النجوم باهتة مما يعنى أن الفجر يوشك أن يلون السماء فوق المدينة العنيدة لكن هناك ضوضاء فى مواجهته. علت ألسنة النيران فى أعمال الحصار ترسم ظلالاً بشعة على الأرض المحطمة.

وقف السير چون يصيح جوار أكبر نيران المعسكر:

- تعالوا إلىّ! تعالوا إلىّ.

كان الرماة يتجمعون بسرعة، لكن الجنود كانوا أبطأ فى الوصول، فهم يحتاجون مزيدًا من الوقت ليرتدوا دروعهم المعدنية. كان السير چون يرتدى ملابس الرماة؛ المعطف المدرع والمعطف الجلدى القصير متخليًا بإرادته عن درعه المعدنى الثمين. صاح السير چون:

- إيڤل-جولد! هوك! ماجوت! كاندلير! برو!

والتر ماجوت! وبيرس كاندلير وتوماس برو هم قـادة الرماة الثلاثة الآخرين وأجاب إيڤل-جولد:

- نحن هنا يا سير چون.

قال السير چون بغضب:

- لقد قام أولاد الحرام بهجوم مضاد.

وهذا يفسر الصياح وأصوات اصطكاك الفولاذ ببعضه التى تأتى من الخنادق الأمامية. لقد قامت حامية هارفليه بهجوم مضاد لتضرب المتراس وحفر المدافع. قال السير چون:

- علينا أن نقتل أولاد الحرام، سنهاجم إلى الأمام مباشرة إلى المتراس، بعضنا يقوم بهذا ولكن ليس أنت يا هوك، هل تعرف (الوحشى)؟

قال هوك وهو يضبط إبزيم حزام سيفه:

- نعم سير چون.

كان (الوحشى) المنجنيق، وحشًا خشبيًا ضخمًا يقذف بالحجارة إلى هارفليه ومن بين كل آلات الحصار كان هو الأقرب إلى البحر على الجانب الأيمن من مؤخرة الخطوط الإنجليزية.

قال السير چون:

- خذ رجالك إلى هناك وشق طريقك من هناك إلى المتراس هل فهمت هذا؟

قال هوك ثانية:

- نعم، سير چون.

أوتر القوس بأن ضغط أحد طرفيه على الأرض وربط الوتر فى العقدة على طرفه الآخر.

زمجر السير چون:

- إذن اذهب! اذهب الآن! واقتل أولاد الحرام.

واستدار قائلاً:

- أين رايتى! أريد رايتى! أحضروا لى رايتى اللعينة!

قاد هوك ستة عشر رجلاً الآن. كان من المفترض أن يكونوا ثلاثة وعشرين، لكن سبعة منهم إما ماتوا وإما مرضى، كان يتساءل: كيف يفترض بسبعة عشر رجلاً أن يشقوا طريقهم مقاتلين على طول الخنادق وحفر المدافع التى تمتلئ بالعدو، الذى يقوم بهجومه المضاد من بوابة ليور. كان من الواضح أن الفرنسيين قد سيطروا على مساحات كبيرة من الخنادق وأعمال

الحصار، فبينما هوك يقود رجاله عبر الممـــر المتجـــه شـــمالاً استطاع أن يرى المزيد من النيران تتصاعد من حفر المـــدافع الإنجليزية، وهيئات رجال ينطلقون عدوًا أمام ألـــسنة النيـــران. عبرت مجموعات من الجنود والرماة طريق هوك، كلهم يتجـــه إلى القتال، استطاع هوك أن يسمع صليل الأسلحة الآن.

تساءل ويل:

- ماذا سنفعل يا نيك؟

قال هوك:

- لقد سمعت السير چون، سننطلق من عند (الوحـــشى) ونشق طريقنا من هناك.

وأدهشته نبرة الثقة في صوته، كانت أوامر الـــسير چون غامضة، وَأُعطِيَت على عجل، وأطاع هوك ببساطة بـــأن قـــاد رجاله إلى الوحشى لكنه الآن فقط يحاول معرفة ما يفترض به أن يفعله. كان السير چون يجمع جنوده، واستبقى أغلب الرمـــاة ليقوم بهجوم على المتراس الذى يبدو أنه سقط في قبضة العدو، ولكن لماذا فصل هوك؟ وقرر هوك أن السبب هـــو أن الـــسير چون يحتاج حماية من الجناح، سيلعب السير چون ورجاله دور الطعم للطريدة، فيجذبهم أمام هـــوك حيـــث يمكـــن للرمـــاة أن

يصرعوهم. شعر هوك بموجة من الفخر إذ فهم الخطة ببساطة. كان بإمكان السير چون أن يرسل توم إيڤل-جولد أو أيًا من قادة الرماة الآخرين، وكلهم أكبر منه سناً وأعلى رتبة لكن السير چون اختار هوك.

كانت النيران مشتعلة عند (الوحشى) لكن لم يوقدها الفرنسيون. كانت نيران معسكر الرجال الذين يحرسون الحفرة التى يقبع بها المنجنيق وتضىء ألسنة نيرانهم العوارض الخشبية الكئيبة للآلة الوحشية العملاقة. كانت دزينة من الرماة والحراس ينتظرون وقد أوتروا أقواسهم، كانوا حراس تلك الآلة أثناء الليل، وعندما شاهدوا الرجال قادمين على المنحدر أداروا أقواسهم تجاه هوك، الذى صاح:

- القديس چورج! القديس چورج!

أُنزِلت الأقواس، كان الحراس متوترين، وسأل أحدهم هوك:

- ماذا يحدث؟

- الفرنسيون بالخارج.

- أعلم ذلك ولكن ماذا يحدث؟

غمغم هوك:

- لا أدرى!

ثم استدار ليعد رجاله، قام بهذا بالطريقة الريفية القديمة كالراعى يعد قطيعه، بالضبط كما علمه والده. واحد، اثنان، ثلاثة[٣٥]، واستمر فى العد حتى خمسة عشر[٣٦] وبحث عن الرجل المتبقى فرأى اثنين. اثنان وخمسة عشر[٣٧]؟ ثم رأى أن الرجل السابع عشر قصير ونحيل ويحمل قوسًا صغيرًا، فصاح:

- من أجل الرب، ارجعى يا فتاة.

ثم نسى ميليساند، لأن توم سكارليت أطلق صيحة تحذير، فاندفع هوك بسرعة، ليرى مجموعة من الرجال يركضون تجاه (الوحشى) عبر الخندق الواسع الذى يشق طريقه متلويًا تجاه المنجنيق آتيًا من أقرب حفرة مدفع. حمل بعض الرجال الآتين

---

(٣٥) واحد (yain)، اثنان (tain)، ثلاثة (eddero): هى طريقة عد قديمة مندثرة كان الرعاة يستعملونها فى بريطانيا. (المترجم).

(٣٦) خمسة عشر(bumfit): الرقم خمسة عشر بنفس الطريقة السابقة. (المترجم).

(٣٧) اثنان وخمسة عشر (Tain-o-bumfit): تعنى سبعة عشر بنفس طريقة العد السابقة. (المترجم).

مشاعل ينطلق منها الشرر وألسنة اللهب المتلألئة، التى تنعكس على الخوذات والسيوف والفؤوس.

قال توم سكارليت محذرًا:

- ليس ثمة صلبان!

مما يعنى أن أيًا من الرجال فى الخندق لم يكـن يرتـدى صليب القديس چورچ. كانوا فرنسيين. بدأوا يـصيحون بتحـد عندما رأوا الرماة المصطفين عند النيران الموقدة فـى حفـرة (الوحشى).

- القديس دانى! هارفليه!

صاح هوك:

- الأقواس!

وانتشر رجاله بشكل غريزى، وصاح:

- اقتلوهم!

كانت المسافة قصيرة، أقل من خمسين خطوة وقد جعـل المهاجمون من ذواتهم أهدافًا سهلة، بأن حصروا أنفسهم داخـل جدران الخندق، اخترقتهم الأسهم الأولى، وأسكت صوت رؤوس السهام الضاربة صياح العدو فورًا. كان صوت الأقواس حـادًا،

ويتلو صوت إطلاق الوتر صوت رفرفة قصيرة إذ يشق الريش الهواء. يرسل ذلك الريش ومضات بيضاء قصيرة فى الظلمة تنتهى فجأة حين يستقر السهم فى هدفه. بدا الوقت كأنه تباطأ بالنسبة إلى هوك. كان يلتقط الأسهم من جعبته. يضعها على قامة القوس. يرفعه، ويسحب الوتر، ويطلق، ولم يشعر بأى إثارة، ولا خوف، ولا فرحة. عرف بالضبط أين سيذهب كل سهم حتى قبل أن يسحبه من الجعبة. صَوّب إلى بطون الرجال الآتين ورأى هؤلاء الرجال فى وهج النيران ينثنون على ذواتهم مع ضربات سهامه.

انتهت هجمة الأعداء وكأنها اصطدمت بحائط حجرى. كان الخندق واسعًا بما يكفى ستة رجال ليسيروا جنبًا إلى جنب، وقد سقط كل الرجال الفرنسيين الذين كانوا فى المقدمة على الأرض وقد ضربتهم السهام، وسقط من خلفهم من الرجال فوقهم وقد ضربتهم السهام بدورهم. طاشت بعض السهام على الدروع المعدنية، لكن البقية اخترقت المعدن مباشرة وحتى السهم الذى كان يخفق فى اختراق الدرع كان به من القوة ما يلقى الرجل للخلف. لو تمكن العدو من الانتشار لربما وصل إلى (الوحشى) لكن جدران الخندق حصرتهم، واندفعت السهام المريشة من الظلام، ولذا استدارت المجموعة المهاجمة، وهربت

إلى الخلف تاركة كتلة مظلمة خلفها، بعضهم لا يزال يتحـــرك. صاح هوك:

- دنتون! فورنايز! كوبولد! تأكدوا أن أولاد الحرام هؤلاء قد ماتوا حقًا. بقيتكم، اتبعونى!

قفز الرجال الثلاثة إلى الخندق وقــد جــردوا ســيوفهم، واقتربوا من الأعداء الجرحى. بقى هوك فى تلك الأثناء أعلـــى الخندق يتقدم بجوارهم وقد وضع سهمًا على وتره. كان بإمكانه أن يرى الرجال يقاتلون عند المتراس البعيــد، وفـــى الحفـــرة الواسعة التى يقبع فيها أضخم المدافع؛ القاذفة الهائلـــة المـــسماة (ابنة الملك)، كانت النيران مشتعلة هناك لكن هذا ليس من شأن هوك. مهمته أن يكون على جناح السير چون.

كانت الأرض وعرة وقد ازدادت وعـــورة مـــن الحفـــر والقذائف التى يلقيها الفرنسيون، والأحجار التى تلقيها المجانيق الكبيرة والمبعثرة فى الممر، وكذلك آثار المنازل التى أُحرِقـــت فى بداية الحصار. لكن الفجر كان يتسلل الآن بضوء خافت من الشرق، يكفى بالكاد لتمييز البشر من العقبات، انطلق سهم يئـــز كالسوط جوار رأس هوك الذى انتابه إحساس أن السهم أتى من أقرب حفرة مدفع حيث يقبع المدفع الذى يدعى (المخلص).

- ويل، اشغل أولاد الحرام هؤلاء.

- أى أبناء زنا؟

قال هوك:

- هؤلاء الذين استولوا على (المخلص).

ثم شد ذراع ويل مديرًا إياه تجاه حفرة المدفع، التي كانت تبدو كظل أسود يبعد عشرين خطوة من الخندق. كانت الحفرة محمية بحواجز خشبية بارعة من الأسهم وطلقات مدافع هارفليه، التى ترتفع ظلالها فى الظلمة، ولكن الحواجز المائلة لم تمنع العدو من الاستيلاء على المدفع.

قال هوك لويل:

- صوب من السهام قدر ما تستطيع إلى الحفرة، ولكن توقف عن الإطلاق عندما نصل إلى المدفع.

دفع هوك ستة رجال تجاه ويل، وقال لهم:

- أطيعوا ويل.

وأضاف قائلاً لويل:

- واعتن بميليساند.

إذ كانت لا تزال مع المجموعة.

- أما بقيتكم، فاتبعونى.

مر سهم آخر يهسهس بالقرب منهم، لكن رجال هوك بدأوا فى التحرك الآن بسرعة.

تحرك ويل ومعه نصف دزينة من الرجال شرقًا، ليطلقوا سهامهم عبر الفتحة فى خلفية الحفرة بينما هوك يجرى على جانب (المخلص)، قفز إلى الخندق الواسع وانتظر رجاله الستة لينضموا إليه وقال لهم:

- لا تستخدموا الأقواس من الآن فصاعدًا.

غمغم ويل سكلايت بتذمر:

- لا أقواس؟ نحن رماة!

كان ويل سكلايت دائم التذمر ، لم يكن رجلاً اجتماعيًا؛ كان نكد المزاج حتى أن رفقته لم تكن بالأمر السهل، وبطىء الفهم فلم يكن يقدر على الإشتراك فى ثرثرة الرماة المتواصلة لكنه كان ضخمًا وشديد القوة. تربى فى إحدى ضيعات السير چون، كان ابنًا لعامل ولربما توقع أن يعمل فى الحقول طيلة حياته، لكن السير چون رأى قوة الصبى وأصر على أن يتعلم

القوس الطويل، وهو يكسب الآن كراماً للسهام أكثر من أى عامل، لكنه ظل على نفس البطء والعناد الذى كان عليه كطفل فى المزرعة التى عمل بها بالفأس والمدقة.

زمجر هوك به قائلاً:

- أنت جندى، وستستخدم الأسلحة اليدوية.

تساءل چيوفرى هورروكس:

- ماذا سنفعل؟

كان أصغر رماة السير چون، يبلغ السابعة عشرة من عمره فقط، وهو ابن صياد.

قال هوك:

- سنقتل بعض أولاد الحرام.

وعلق القوس على جذعه ورفع الفأس بدلاً منه واستطرد:

- وسنتحرك بسرعة! اتبعونى الآن!

تسلق واجهة الخندق، وحطام السلال المملوءة بالتراب التى تشكل متراس الخندق، واستطاع أن يرى الضوء المتوهج فى حفرة (المخلص) واستطاع أيضًا أن يسمع الضوضاء الحادة

لانطلاق أوتار الأقواس من على يساره، حيث يصطف رجال ويل جوار حطام أحجار مدخنة محطمة. أتت صيحة من الحفرة ثم أخرى ثم صيحة أخرى إذ ضرب سهم آخر جناح المدفع. كان سبعة رماة يطلقون على الحفرة، يمكنهم بسهولة أن يطلقوا ستين أو سبعين سهمًا فى دقيقة واحدة، وترفرف هذه السهام الآن، فى الضوء الخافت، لتملأ حفرة المدفع بالموت المهسهس وتجبر الفرنسيين أن يجلسوا القرفصاء احتماء منها. ثم أتى هوك ورجاله من الجانب. لم يره الفرنسيون لأن الأسهم كانت تصفر فوقهم وتَسَّاقَط حولهم، وكانوا جاثمين سعيًا إلى الحماية البسيطة التي تقدمها لهم الحفرة. كان الحاجز الخشبى يعطى حمايةً رائعةً من جهة المقدمة التى تواجه هارفليه، لكن الحفرة لم تصمم أبدًا لتوفر حماية للرجال من هجوم يأتى من المؤخرة، وكانت أسهم ويل تضرب عبر الخندق وعبر الفتحة الواسعة، ثم قفز هوك من المتراس إلى جانب الحفرة ودعا أن تتوقف الأسهم.

يجب أن تتوقف حتى لا يصاب أى من رجاله بسهم. صاح الرجال بتحدٍ وهم يتبعون هوك فوق السلال المجدولة، واستمروا بالصياحِ عندما بدأوا القتل، طوح هوك فأسه وهو ينزل إلى أرضية الحفرة وأحس دون أن تؤكد إحساسه الرؤية،

أن مطرقة الفأس الفولاذية الثقيلة حطمت خوذة فرنسى جاث، أحسها حطمت المعدن تحت ضربته القوية وحطمت جمجمة الرجل ومخه. نهض رجل إلى يمينه لكن سكلايت دفعه بسهولة وازدراء على ظهره، بينما قفز هوك إلى الجانب البعيد من أنبوبة المدفع المسمى (المخلص).

ضرب (هوك) الجانب البعيد من الحفرة بقوة، وفقد اتزانه وسقط بعنف، سرت موجة من البرودة فى عروقه. كان خوفه الأكبر أنه على الأرض وعرضة للإصابة، وخشى أيضًا أن يتحطم القوس المعلق على ظهره ولكن فيما بعد عندما تذكر المعركة، أدرك أنه قد أحس بالغرور أيضًا. بدا الأمر فى ذاكرته كتلة من الرجال الصارخين، والنصال اللامعة، ورنين اصطكاك المعادن، ولكن وسط هذه الانطباعات المتدافعة كان هناك مركز صلب هادىء لهذا المشهد، حيث استعاد توازنه ووقف على قدميه ورأى جنديًا فى مقدمة الحفرة، كان الرجل يرتدى درعًا معدنية يغطيها جزئيًا معطف جلدى ظهر الدم عليه عند قلبه حيث انغرس سهم مشتعل. كان يحمل سيفًا، كانت مقدمة خوذته مرفوعة، وانعكست على عينيه ألسنة اللهب الصغيرة من المشاعل المتساقطة، ورأى هوك الخوف من هاتين العينين، ولم يشعر هوك بأى شفقة تجاه هذا الخوف. اقتُل أو تُقتَل، هكذا كان

السير چون يقول دائمًا، وركض هوك تجاه الرجل ورفع الفأس وقد أمسك مقبضها بكلتا يديه، وتجاهل الحركة الدفاعية البسيطة التى قام بها الرجل بسيفه، وسدد قمة النصل إلى الجزء الأوسط من جذع الرجل الفرنسى؛ اخترق النصل الحافة السفلى لـــدروع صدر الرجل واخترق حلقاته، كانت شرائط الدرع فوق التنورة الجلدية مصممة لتوقف ضربة السيف إلى أسفل البطن، ولكنهـا أبدًا لا تستطيع أن تقاوم ضربة الفــأس، ورأى هــوك عينــى الرجل الخائفتين تنفتحان عن آخرهما وفمه ينفغر على اتــساعه إذ اخترقت قمة النصل المعدن والجلد والمعطف التحتى، وجلـد الرجل والعضلات وأحشاء الرجل الفرنسى لتــصطدم بعمــوده الفقرى، صرخ الرجل فى صوت كالمواء، وصرخ هوك بتحدٍ إذ دفعت الضربة ضحيته إلى الخلف فى مواجهة مقدمة حفرة المدفع. سحب هوك فأسه وجاء معها الرجل المصاب كان لحمه ملتفًـا على قمة النصل، ووضع هوك حذاءه ذا الرقبة فى بركة الـــدم والدروع، ودفع بقدمه حتى حرر النصل. ودفعه إلى الأمام ثانيــة، ثم توقف عن الطعن إذ سقط الرجل على ركبتيـــه، دار هــوك حوله بخفة، على استعداد ليدافع عن نفسه، لكن المعركة كانـــت قد انتهت بالفعل. لم يكن بالحفرة سوى ثمانية رجال فقط. لا بد أن المجموعة الفرنسية الأكبر تركتهم هناك وهى تتجــه إلـــى

(الوحشى) وعندما اضطروا إلى التراجع أمـــام الـــسهام نـــسوا هؤلاء. كانت مهمتهم أن يحطموا المدفع وهو مـــا حـــاولوا أن يفعلوه بفأس ضخمة ملقاة الآن مهملة جوار الرافعـــة الكبيـــرة للحاجز الدفاعى الضخم، لقد استطاعوا تحطيم الرافعـــة قطعًـــا لكنهم ماتوا الآن جميعًا باستثناء أحدهم.

قال توم سكارليت بسخرية:

- لا يمكن تحطيم مدفع بالفأس!

وأنَّ الرجل الفرنسى الذى بقى على قيد الحياة.

تساءل هوك:

- هل جرح أحد؟

قال هوروكس:

- لقد التوى كاحلى.

كان يلهث وقد اتسعت عيناه بالدهشة أو الخوف.

قال هوك فجأة:

- ستتحسن، هل كلنا هنا؟

كان كل رجاله موجودين، وويل يـصعد الخنـدق مـع ميليساند ورماته الستة. أنَّ الرجل الفرنسى الجريح ورفع قدميه. لم يكن يرتدى أى دروع سوى درع مبطن، وقـد دفـع ويـل سكلايت الفأس بعمق فى صدره ولذا تشبعت البطانـة الكتانيـة التى شُقَّت بالدم الآن. كان بإمكان هوك أن يرى خليطًـا مـن الرئتين، والضلوع المحطمة، وتدفق الدم الأسود من فم الرجـل وهو يئن ثانية، وقال هوك:

– ضعوا نهاية لمعاناته.

لكن رماته حدقوا به فقط.

قال هوك:

– أوه، من أجل المسيح.

تخطى جثة ووضع نصل الفأس على عنق الرجل ودفعه مرة واحدة وهكذا قام بالمهمة بنفسه.

حدق ويل فى المذبحة التى تمت بـالحفرة، وحـاول أن يتحدث بخفة مقلدًا السير چون، ولكن كان فى صوته حدة وفـى عينيه رعب وهو يقول:

– هذه آخر مرة يفعل فيها أولاد الحرام السخفاء هذا.

كانت ميليساند بالقرب، خلف ويل وحدقت في الرجال الفرنسيين الموتى، ثم في الدم الذى يتساقط كثيفًا من فأس هوك الحربية، ثم إلى عينيه، فقال لها بخشونة:

- يجب ألا تكونى هنا.

قالت:

- لا أستطيع البقاء فى المعسكر، قد يأتى القس.

قال ويل ولا يزال صوته متوترًا:

- نحن سنعتنى بها يا نيك.

خطا خطوة إلى الأمام والتقط أحد المشاعل الساقطة، رغم أن الضوء المتصاعد من جهة الشرق قد أصبح كافيًا الآن، مما يجعل المشاعل غير ذات قيمة، وقال:

- انظرِ ماذا فعلوا.

لقد استخدم الفرنسيون فأسهم الكبير ليكسروا الدعامات المعدنية التى تطوق ماسورة (المخلص). لم يكن هوك قد لاحظ هذا الدمار من قبل لكنه رأى الآن أن اثنين من الحلقات المعدنية قد خُرِّبَتا تمامًا مما يعنى أن المدفع بلا فائدة الآن، لأنه إذا أُطلِق

ستنفجر أنبوبته إلى شظايا وتقتل كل رجل فى الحفرة. لم يكن كل هذا من شأنه، أمر رجاله قائلاً:

- فتشوا أولاد الحرام.

ووجد الرماة الثلاثة الذين نهبوا قتلى المجموعة الأولى من الفرنسيين قلادات فضية وعملات ودبابيس وخنجرًا رصع مقبضه بالمجوهرات. كانت الغنائم القيمة كلها الآن فى جعبة سهام وقد أضيف إليها كل شىء ذى قيمة وجدوه، وقال هوك مقررًا:

- سنتقاسم هذا فيما بعد، والآن هيا بنا، فلنخرج من هنا! الأقواس!

لم يتحطم قوسه أثناء سقوطه، أمسكه بيده اليسرى وعلق الفأس على كتفه، ووضع سهمًا على الوتر وقفز إلى جانب الحفرة، إلى الفجر الذى يلونه الدخان القائم.

وأمامه دارت معركة حول المتراس والحفرة التى يقبع فيها المدفع المسمى بـ(ابنة الملك). لقد سيطر عليهما الفرنسيون ولكن الإنجليز أخذوا يندفعون من مخيمهم، وقد فاقوا المهاجمين عددًا الآن، واضطروهم إلى التراجع بلا هوادة. علا صوت الأبواق، إشارة إلى الفرنسيين لإيقاف هجمتهم. والتراجع إلى هارفليه. اندلعت

النيران فى أخشاب المتراس الثقيلة وفى الحاجز المتحرك الذى يحمى القنابل. كان الجنود يعتركون مع بعضهم البعض، بينما تومض النصال فى اصطكاكها وضرباتها. بحث هوك عن راية السير چون التى تحمل شعار الأسد ورآها على يساره، ورأى أيضًا رجال السير چون يقاتلون عند الخندق الرئيس مجبرين مجموعة كبيرة من الفرنسيين على التراجع، وهى المجموعة التى تمثل الجناح الأيسر للمهاجمين الآن. نادى هوك:

- الأقواس!

وجذب الوتر إلى الخلف حتى أذنه اليمينى. لقد تقهقر الفرنسيون إلى المدينة، ولم يجرؤوا أن يستديروا ويركضوا خوفًا من ملاحقة الإنجليز القريبين منهم، ولذا كانوا يقاتلون بشدة محاولين دفع رجال السير چون للعودة إلى الخندق، كانوا على زاوية من هوك ولم يدركوا بحال أنه إلى الجانب منهم. صاح هوك:

- صوبوا بدقة.

لم يكن يريد أن يقع أى من سهامه على الرجال الإنجليز ثم أطلق سهمًا، وأخذ سهمًا آخر حادًا ولم يكن قد جذب الوتر حتى نصفه حتى ضرب السهم الأول خلفية الأعداء. جذب هوك

الوتر لآخره ثانيةً، ورأى رجلاً فرنسيًا يستدير ناحيــة التهديــد الجديد، وأطلق، وضرب السهم وجه الرجل، وفجأة بــدأ العــدو يركض، وقد هزمهم هذا الهجوم غير المتوقع من الجناح.

طار سهم أمام هوك، سهم كبير انطلق من الأرض عندما انطلق مدفع من على سور هارفليه. سقط الحجر علــى الأرض بالضبط خلف الرماة كما انطلقت المزيد من السهام عبر الدخان. كانت الأسهم تصدر ضجيجًا فى رفرفتها، وافترض هــوك أن الريش الذى عليها قد تلوى ربما لسوء طريقة تخزينها. لم تكن تطير نحو أهدافها لكنها كانت لا تزال تسقط بــالجوار. حــدق هوك فى البرج ورأى رماة العدو يصوبون مــن علــى قمتــه. استدار وأطلق سهمًا بسرعة تجاههم، وصاح فى رجاله:

-أوقفوا الإطلاق! اذهبوا إلى الخندق!

كان الفرنسيون يتقهقرون بــسرعة الآن لكــنهم نفــذوا خطتهم؛ أن يحطموا آلات الحصار. إن ثلاثة من المدافع؛ أحدها مدعو (ابنة الملك) لن تطلق قذائفها ثانية أبدًا، وطرحــت كــل متاريس الخنادق أرضًا وقتل بعــض الرجــال. والآن يــسخر المدافعون من مواقعهم على البرج الدفاعى المحطم من الإنجليز، بينما تعبر المجموعة المهاجمة الخندق العميق الذى يقف أمــام

البرج الدفاعى المتهدم، لا تزال السهام تتبع الفرنسيين، وقد أصابت بعض الرجال وسقط بعضها فى قاع الخندق لكن هجمتهم قد نجحت، لقد احترقت الآلات الإنجليزية وكانت إهانات الحامية موجعة.

قال السير چون مرارًا وتكرارًا:

- أولاد الحرام لقد غافلونا ونحن نيام، أولاد الحرام!

قدم هوك تقريره برزانة:

- إن (الوحشى) لم يمس، لكنهم كسروا (المخلص).

قال السير چون:

- سوف نحطم أولاد الحرام الملاعين!

وأضاف هوك:

- ولم يصب أحد منا.

قال السير چون مقسمًا:

- سنصيبهم جميعًا بحق المسيح.

كان وجهه مربدًا غضبًا، كان الحصار قد تأثر بالفعل الآن ووجه العدو ضربة قاسية لآمال الإنجليز. كان بدن السير چون

يرتجف غضبًا إذ قبضوا على أسير من جنود العدو فى الخندق وللحظة بدا أن السير چون سيصب جام غضبه علـــى الرجـــل التعيس، لكنه رأى ميليساند، وصب إحباطه عليها بدلاً من ذلك، وسأل هوك:

- ماذا تفعل هذه هنا بحق المسيح المعذب؟ بحق عيـــسى على الصليب، هل جننت؟ ألا تـــستطيع البقـــاء بـــدون امرأتك لدقيقة لعينة؟

قالت ميليساند بتحد:

- لم تكن هذه رغبة نيك!

كانت تحمل القوس رغم أنها لم تطلقه وقالت مرة أخرى:

- لم تكن هذه رغبة نيك، ولقد قال لى أن أذهب بعيدًا.

تغلب لطف السير چون تجاه النساء على غضبه، وغمغم بما يبدو أنه اعتذار، وبعد ذلك، أوضحت ميليساند مـــا تقـــصده متحدثة بلغة فرنسية سريعة وهى تشير ناحية المعسكر، وكلمـــا مضت فى حديثها، عاد الغضب يرتسم على وجه الـــسير چون مجددًا، واستدار إلى هوك قائلاً:

- لماذا لم تخبرنى؟

- أخبرك بماذا سير چون؟

- أن هذا القس ابن الحرام، هددها؟

قال هوك بتجهم:

- أنا أحارب معاركى بنفسى.

دفع السير چون يده المغطاة بالقفاز، وضرب بها كتف هوك.

- لا! أنت تخوض معاركى يا هوك.

وضرب على كتف هوك ثانية.

- وهذا ما أدفع لك من أجله. ولكن إذا حاربت من أجلى فسأحارب من أجلك، هل تفهم؟ نحن مجموعة!

كان السير چون يصرخ عاليًا وهو يقول الكلمتين الأخيرتين حتى أن الرجال على مدى خمسين خطوة بطول الخندق استداروا ينظرون إليه.

-نحن جماعة! لن يهدد شخص أيَّ واحد منا دون أن يهددنا جميعًا! يجب أن تتمكن فتاتك حتى من السير عارية وسط الجيش كله لو شاءت دون أن يجرؤ رجل

على لمسها لأنها تنتمى إلينا! إنها تنتمى إلى مجموعتنا! بحق المسيح لأقتلن القس ابن الحرام من أجل ذلك! سأخرج عموده الفقرى من حلقه اللعين وأطعم لحمه للكلاب! لن يستطيع أحد تهديدنا، أى أحد!

كان السير چون يبحث عن معركة، وقد أصبح أعداؤه الحقيقيون فى أمان خلف أسوارهم التى يغطيها الدخان، وقد أعطاه هوك فرصة لمعركة.

كان هوك يراقب ميليساند وهى تسكب العسل بملعقة فى فم الأب كريستوفر. جلس القس وقد استند ظهره إلى أحد البراميل التى كانت قد أتت من إنجلترا ممتلئة بأسماك الرنجة المدخنة. كان نحيفًا جدًا، ووجهه شاحبًا، ومتعبًا، وقد صار الرجل ضعيفًا كالريشة، لكنه لا يزال حيًا.

قال هوك:

- لقد مات كوبيت وروبرت فليتشر.

قال الأب كريستوفر:

- المسكين روبرت، وكيف حال أخيه؟

قال هونك:

- لا يزال حيا لكنه مريض.

- ومن أيضًا؟

- لقد مات بيرسون وهول وبورو وچون تايلور.

قال القس وهو يرسم علامة الصليب:

- فليرحمهم الرب جميعًا، وماذا عن الجنود؟

قال هوك:

- لقد مات كل من چون جافنى وبيتر دانسى والسير توماس بيترس.

قال الأب كريستوفر بكآبة:

- لقد أدار الرب وجهه عنا، ألايزال قديسك يتحدث إليك؟

اعترف هوك:

- ليس الآن.

تنهد الأب كريستوفر وأغلق عينيه للحظات وقال بتجهم:

- لقد أثمنا.

قال هوك في عناد:

- لقد قيل لنا بأن الرب إلى جانبنا.

قال القسيس:

- لقد اعتقدنا ذلك، لقد صدقنا ذلك بالفعل وأتينا إلى هنا وهذا اليقين في قلوبنا لكن الفرنسيين يؤمنون بالشيء ذاته والآن يعلن الرب عن نفسه، كان من الخطأ أن نأتي إلى هنا.

قالت ميليساند بحزم:

- كان خطأ بالفعل.

قال هوك بإصرار:

- ستسقط هارفليه.

قال الأب كريستوفر:

- ربما تسقط.

وتوقف عن الحديث إذ كانت ميليساند تمسح قطرة عسل من على ذقنه.

- إذا لم يزحف الفرنسيون لرفع الحصار عنهـا، نعـم، ستسقط فى الحال، ولكن ماذا بعد؟ كم تبقى من الجيش؟

قال هوك:

- ما يكفى.

ابتسم الأب كريستوفر ابتسامة متعبة.

- يكفى ليفعل ماذا؟ ليزحف إلى روون ويقوم بحـصار آخر؟ ليستولى على باريس؟ نحن نستطيع بالكاد الدفاع عن أنفسنا لو أتى الفرنسيون إلـى هنـا! وإذن مـاذا سنفعل؟ سندخل إلى هارفليه ونعيد بناء أسـوارها، ثـم نبحر إلى الوطن. لقد أخفقنا يا هوك، لقد أخفقنا.

جلس هوك صامتًا. أطلق أحد المدافع الإنجليزية المتبقيـة نيرانه، تردد الصوت واضحًا فى الهواء الدافئ. بـدأ شـخص بالغناء فى مكان ما فى المعسكر وقال هوك بعد برهة:

- لا نستطيع سوى الذهاب إلى الوطن.

قال الأب كريستوفر:

- نستطيع ذلك، وهو ما سنفعله فى أغلب الأحوال، كـل هذه الأموال ضاعت هباءً! من أجل هارفليه، ربما. وكم سيكلف بناء هذه الأسوار؟

وهز كتفيه باستهجان.

قال هوك مقترحًا فى اكتئاب:

- ربما يجب أن نتخلى عن الحصار.

هز القس رأسه نفيًا.

- لن يفعل الملك هنرى هذا أبدًا. عليه أن ينتصر! إن هذا يبرهن على حب الرب له، وبجانب هذا فإن التخلى عن الحصار يجعله يبدو ضعيفاً.

وصمت لفترة وجيزة ثم عبس.

- لقد أخذ والده العرش بالقوة ويخشى الملك هنرى أن يفعل الآخرون الشيء ذاته إذا أظهر بعض الضعف.

قالت ميليساند بحماس:

- كل ولا تتحدث.

قال الأب كريستوفر:

- لقد أكلت بما فيه الكفاية، يا عزيزتى.

- يجب أن تأكل المزيد.

- سأفعل فى المساء، شكرًا.

قال هوك:

- لقد حفظك الرب يا أبتى.

قال الأب كريستوفر بابتسامة شاحبة:

- ربما لا يريدنى فى الجنة أو لعله يمنحنى الوقت لأكون قسًا جيدًا.

قال هوك بحرارة:

- أنت قسيس جيد.

- إذا سألنى القديس بيتر أأستحق أن أكون فى الجنة سأخبره هذا. وأقول له سل نيك هوك وسيسألنى القديس بيتر، من نيك هوك؟ أوه، سأقول له، إنه لص، متشرد وربما قاتل ولكن سله على أى حال.

عبس هوك:

- أنا صادق الآن أيها الأب.

- أنت لست بعيدًا عن مملكة السماء أيها الشاب هوك ولكن فلنتمنَ أن يطول الوقت قبل أن نلتقى هناك وعلى الأقل فسنعفى من صحبة السير مارتين.

قالت ميليساند باستهزاء:

- إنه جبان.

واستطردت بالفرنسية:

- شخصٌ جبان.

قال الأب كريستوفر بلطف:

- أغلب الرجال يصبحون جبناء إذا قابلوا السير چون.

قالت ميليساند:

- ليس لديه شىء ليقوله!

ذهب السير چون إلى حيث يخيم رجال اللورد سلايتون مصطحبًا هوك وميليساند، وصاح فيهم: إن أى شخص يتمنى قتل هوك يمكنه أن يفعل ذلك بسهولة فورًا وفى المكان ذاته. وصاح السير چون:

- تعالوا وخذوا امرأته، من يريدها؟

كان رماة اللورد سلايتون وجنوده وعمال المعسكر ينظفون الدروع، ويعدون الطعام، وبعضهم يأخذ قسطًا من الراحة، لكن الجميع استداروا ليشاهدوا ما يحدث فى صمت.

صاح السير چون:

- تعالوا وخذوها، إنها لكم! يمكنكم أن تأخذوها واحدًا تلو الآخر كالكلاب تنزو على أنثى شبقة! تعالوا! إنها شيء جميل! تريدون أن تمتطوها؟ إنها لكم!

وانتظر لكن أحدًا من رجال اللورد سلايتون لم يتحرك ثم أشار السير چون إلى هوك قائلاً:

- يمكنكم جميعًا أن تحصلوا عليها! ولكن عليكم أن تقتلوا قائد رماتي أولاً!

لم يتحرك أحد بعد، بل لم يرفع أحد عينيه إلى عيني السير چون، الذي سأل هوك:

- من استُأجِر لقتلك من هؤلاء الرجال؟

قال هوك وهو يشير إلى توم بيريل:

- هذا الرجل.

نادى السير چون على بيريل:

- إذاً تعال هنا، تعال واقتله، سأمنحك امرأته إذا فعلت هذا.

لم يتحرك بيريل، كان يختبـــىء جزئيًـــا خلـــف ويليـــام سنوبول، الذى كانت لديه بعض السلطة البسيطة باعتباره وكيل ضيعة اللورد سلايتون لكنه لم يجرؤ على مواجهة الـــسير چون كورنويل الذى أضاف:

- ثمة شيء واحد فقط، إذ عليك أن تقتل هوك وتقتلنـــى قبل أن تحصل على المرأة. وإذن تعال! قاتلنى أولاً.

وجرد سيفه، وانتظر.

لم يتحرك أحد، ولم يتحدث أحد. راقب السير مارتين مـــا يحدث من خلف بعض الجنود، ووجه السير چون ســـؤالاً إلـــى هوك:

- أهذا هو القس؟

- إنه هو.

صاح السير چون:

- اسمى هو چون كورنويل وبعضكم يعرف من أكـــون. وهوك من رجالى. إنه رجلى! إنه تحت حمايتى وكذلك هذه الفتاة!

ووضع يده الخالية حول كتفي ميليساند. وأشار بالأخرى التى تمسك بالسيف إلى السير مارتين:

- أنت، أيها القسيس، تعال هنا.

لم يتحرك السير مارتين.

قال السير چون:

- تستطيع أن تأتى إلى هنا ، أو سآتى أنا وأجلبك.

مشى السير مارتين جانبًا، بعيدًا عن حماية الجنود، ووجهه الطويل يرتجف، وتطلع حوله كأنه يبحث عن مكان يهرب إليه، لكن السير چون زعق به ليقترب أكثر فأطاع، وصاح السير چون:

- إنه قسيس ولذا سيكون شاهدًا على هذا القسم. أقسم بهذا السيف وبعظام القديس كريدان لو مُسَّت شعرة من رأس هوك، إذا هُوجِم، إذا جُرِح، إذا قُتِل، سأجدك وأقتلك.

حدق مارتين فى السير چون وكأنه فقرة من عرض فى السيرك، ربما بقرة ذات خمسة أرجل، أو امرأة لها لحية. والآن

رفع القديس يديه إلى السماء ولا يزال وجهه يحمل نفس الحيرة. وصاح:

- سامحه، أيها الرب، سامحه!

بدأ السير جون:

- أيها القس.

أجاب السير مارتين بقوة مفاجئة:

- أيها الفارس! إن الشيطان يركب حصاناً والمسيح يركب آخر. هل تعرف ماذا يعنى هذا؟

رفع السير جون ذؤابة سيفه تجاه حلق القسيس:

- أنا أعرف ماذا يعنى هذا، إنه يعنى أن أيًا منكم أيها القمامة يا ممتطى الفئران، يا حثالة، إذا مس هوك أو امرأته فإن حسابكم سيكون معى وسأخرج أحشاءكم القذرة من أدباركم العفنة بيدى العاريتين، سأجعلكم تموتون صارخين. سأرسل أرواحكم القذرة إلى الجحيم. سأقتلكم!

ساد الصمت. أعاد السير جون سيفه إلى غمده، اصطك مقبض السيف بفوهة الغمد بقوة، حدق إلى السير مارتين فربما

يجرؤ القس على تحديه، لكن السير مارتين كان قد شرد إلى أحد أحلام يقظته. قال السير چون:

- هيا بنا.

وعندما ابتعدوا عن المدى الذى يمكن أن يسمعوهم فيه، ضحك.

- هذا ينهى الأمر.

قالت ميليساند:

- شكرًا.

- تشكريننى؟ لقد استمتعت بذلك، يا فتاة.

وقد قال الأب كريستوفر عندما قص عليه ما حدث:

- ربما استمتع بما حدث لكنه كان سيستمتع أكثر لو قبل أحد قتاله، إنه يحب القتال.

تساءل هوك:

- من هو القديس كريدان؟

قال الأب كريستوفر:

- لقد كان شخصًا ساكسونيًا وعندما جاء النورمانـديون قالوا: إنه يجب ألا يكون قديسًا على الإطلاق، لأنه كان

فلاحًا سكسونيًا مثلك يا هوك ولذا أحرقوا عظامه ولكن العظام استحالت ذهبًا، إن السير چون يحبه وليس لدى أدنى فكرة عن السبب.

ثم عبس واستطرد:

- إنه ليس بالسهولة التى يحب أن يتظاهر بها.

قال هوك:

- إنه رجل جيد.

قال الأب كريستوفر موافقًا:

- ربما هو كذلك، ولكن لا تدعه يسمعك تقول ذلك.

- وأنت تتعافى الآن يا أبتى.

- الشكر للرب، ولامرأتك يا هوك، أنا أتعافى فعلاً.

ومد القسيس يده وأخذ يد ميليساند، واستطرد:

- وقد حان الوقت لتجعل منها امرأة محترمة يا هوك.

قالت ميليساند:

- أنا محترمة.

قال الأب كريستوفر:

- إذاً حان الوقت لتروضى السيد هوك.

نظرت ميليساند إلى هوك، وللحظة لم يبد على وجهها أى شيء، ثم أومأت، قال الأب كريستوفر:

- ربما من أجل هذا أبقانى الرب. لأزوجكما أنتما الاثنين سنقوم بهذا الصنيع يا هوك قبل أن نغادر فرنسا.

ويبدو أن هذا سيكون قريبًا ولا شك لأن هارفليه كانت صامدة لا تهزم، والجيش الإنجليزى يموت بالمرض، والعام يمر فى عناد. لقد أتى سبتمبر بالفعل، وأمطار الخريف ستبدأ فى الهطول خلال أسابيع قليلة وسيأتى البرد، وسيحصد المحصول باطمئنان من خلف أسوار الحصن ولذا فإن موسم الحملة العسكرية سينتهى. إن الوقت ينفد.

لقد ذهبت إنجلترا للحرب، وها هى ذى تخسر.

قذف فى ذلك المساء توماس إيفل-جولد بحقيبة كبيرة إلى هوك. تنحى هوك جانبًا ظانًا أن الحقيبة ستدهسه ولكن لدهشته كانت خفيفة ورفعها على كتفه. قال إيفل-جولد مفسرًا:

- نسالة.

- نسالة؟

قال إيفل-جولد:

- نسالة من أجل السهام النارية. أريد حزمة منها مع كل رامٍ. ويريد السير چون هذا جاهزًا بحلول منتصف الليل، ويجب أن ننزل الخندق قبل الفجر. إن بيلى يغلى القار من أجلنا.

كان بيلى هو أندرو بليتشر؛ وهو وكيل السير چون الذى يشرف على خدم المطبخ والدواب، وتساءل إيفل-جولد:

- هل صنعت سهامًا نارية من قبل؟

قال هوك معترفًا:

- أبدًا.

- استخدم السهام ذات الرؤوس العريضة، واربط قبضة من النسالة برأس السهم وتغمسها فى القار وتصوب عاليًا. نحتاج إلى دزينتين.

حمل إيفل-جولد مزيدًا من الحقائب إلى المجموعات الأخرى بينما جذب هوك قبضات من النسالة المشحمة، والتى

كانت ببساطة قطعًا من صوف الأغنام غير المغسول، والــذى أخذ مباشرة من ظهر الخراف. قفز برغــوث مــن الــصوف، وصعد على كمه، واختفى هناك.

قسم النسالة إلى سبعة عشر جزءًا متساويًا وقسم كل واحد من رماته نصيبه إلى أربعة وعشرين جزءًا، لكل سهم قطعــة. مزق هوك بعض أوتار الأقواس الاحتياطية، واستخدم رجالــه الأوتار لربط قطع الصوف إلى رؤوس السهام، واصطفوا جوار مرجل بيلى لغمس النسالة فى القار المغلــى. كــانوا يــصفون الأسهم منتصبة للأعلى جوار جــذوع الأشــجار أو البراميــل ليتركوا القار ليجف وقال هوك موجهًا سؤاله إلى إيڤل-جولد:

- ماذا سيحدث عند الفجر؟

قال إيڤل-جولد بتجهم:

- لقد ركل الفرنسيون مؤخراتنا هذا الصباح ولذا علينا أن نركل مؤخراتهم صباح الغد.

وهز كتفيه وكأنه لا يتوقع إنجاز الكثير، واستطرد:

- هل فقدت مزيدًا من الرجال اليوم؟

- كوبيت وفليتش وماتسون لن يبقى طــويلاً علــى قيــد الحياة.

أطلق إيفل-جولد سبابًا، وقال بتجهم:

- كانوا رجالاً جيدين وماتوا من أجل ماذا؟

وبصق تجاه نار المعسكر، واستطرد:

- عندما يجف القار، مشط الصوف قليلاً، هـذا يجعلـه يلتقط النار بسهولة.

لم يهدأ المعسكر طيلة الليل، كان الرجال يحملون الحزم إلى الخندق الأمامى الأقرب إلى البرج الدفاعى للعدو. كانت الحزم مجموعات كبيرة من الأخشاب مربوطة بالحبال، وشكلها يوضح تمامًا ما سيحدث عند الفجر. إن البرج الدفاعى يحميه خندق ممتلئ بالماء، سيحتاجون لملئه لو أن الرجال سيعبرونه ويهاجمون الحصن.

تلقى جنود السير چون الأوامر أن يرتدوا كامل دروعهم، لقد أبحر ثلاثون جنديًا من مياه ساوث-هامبتون فى اليوم الـذى رفرفت فيه البجعات فوق الأسطول رمزًا لمواتاة الحـظ، لكـن تسعة عشر فقط هم القادرون على الخدمة الآن. لقد مات سـتة، والخمسة الآخرون يقيئون ويتغوطـون ويرتجفـون. والجنـود القادرون يعاونهم حملة الدروع وغلمان الفرسان الـذين كـانوا يثبتون لهم الدروع على السترات الجلدية الطويلة المبطنة، والتى

كانت قد مسحت بالشحم لتتحرك الدروع المعدنية فوقها بسهولة، علقت أغمدة السيوف على المعاطف رغم أن معظم الجنود اختاروا أن يحملوا الفؤوس أو الرماح القصار. تلقى قس ممن يعملون ببيت السير ويليام بورتر الاعترافات ومنح البركات. والسير ويليام هو صديق السير چون الحميم، وأخوه فى السلاح، وهو ما يعنى أن يحاربا جنبًا إلى جنب وقد أقسما أن يحمى كل منهما الآخر وأن يفتدى أى منهما الآخر إذا شاء سوء الحظ أن يؤخذ أسيرًا وأن يحمى أى منهما أرملة الآخر إذا مات. كان السير ويليام يبدو رجلاً جادًا، له وجه نحيل وعينان شاحبتان وبدا شعره ناحلاً قبل أن يخبئه بخوذة ضخمة ذات قناع. بدا بدروعه غريبًا عن المكان وكأن مكانه الطبيعى هو المكتبة أو ربما قاعة المحكمة، لكن السير چون اختاره رفيق المعارك، ويدور الحديث كثيرًا حول شجاعته، ضبط خوذته ورفع قناعها، قبل أن يومىء بتحية متوترة إلى رماة السير چون.

كان الرماة مسلحين ومدرعين. وكان أغلب الرجال مثل هوك يرتدون درعًا مبطنة ثبتت عليها الدروع المعدنية فوق المعطف الجلدى. يرتدون خوذات والبعض يرتدى وقاءً، وهو غطاء للرأس يرتدى تحت الخوذة وينزل على الكتفين. يرتدون على أيديهم وقاءات تحميهم من ارتداد الوتر ويرتدون سيوفهم

ويحمل كل منهم ثلاثا من جعبات السهام، اثنتان منها تحتويـــان على السهام النارية ذات الرؤوس التى لفت بالكتان. اختار البعض أن يحمل الفأس مع القوس ولكن الأغلبية، مثل هـــوك فـــضلوا الفأس الحربية. ارتدى كل الرجال شعار صليب القديس چورچ على معاطفهم سواء كانوا لوردات أو فرسانًا أو جنودًا أو رماة.

حيا السير ويليام الرماة قائلاً:

- فليكن الرب معكم.

وتمتم الرماة يجيبونه فى احترام.

صاح السير چون وهو يوسع الخطى خارجًا من خيمته:

- وليأخذ الشيطان الفرنسيين.

كان مزاجه جيدًا، ومنح توقع المعركة عينيه وميضًا، وقال باستخفاف:

- إنها مهمة بسيطة لهذا الصباح علينا أن نستولى علـــى البرج الدفاعى من أولاد الحـــرام ! فلـــنقم بهـــذا قبـــل الإفطار.

كانت ميليساند قد أعطت لهوك قطعة من لحـــم الخنزيـــر المملح وقطعة خبز أكلهما، بينما تحركت مجموعة السير چـــون

تملأ أسفل التل متجهة إلى أعمال الحصار. كان الجو لا يـزال مظلمًا، والهواء يهب باردًا ومنعشًا من جهة الشرق حاملاً معـه رائحة مستنقعات الماء المالح وقد طغت على رائحة الموتى في الهواء. سار الرماة من الممرات الملتوية وجعابهم تقعقع فيهـا السهام. كانت النيران تتوهج في خطوط الحصار وكـذا عنـد دفاعات هارفليه، وعلم هوك أنهم يصلحون ما دمر فـي اليـوم السابق وصاح قسيس عندما مرت عليه أرتال الرماة:

- فليبارككم الرب. فليكن الرب معكم! فليحفظكم الرب!

لا بد أن الفرنسيين قد شعروا بأن شرًا يدبر لهـم، فقـد استخدموا اثنين من المجانيق ليقذفا ببطء بكرات إضـاءة عبـر الدفاعات، وكرات الإضاءة هذه عبارة عن كرات ضخمة مـن القماش والصوف المشبع بالقار والكبريت وقد طارت مـشتعلة في سماء الليل ثم سقطت كقطرة من اللهـب وتفجـرت علـى الأرض؛ انعكست أضواء النيران على الخوذات فـي الخنـادق الإنجليزية، وقد دفع وميضها الرماة علـى الأسـوار ليبـدأوا التصويب. هسهست السهام فـوق الـرؤوس وانغرسـت فـي المتاريس. كانت الهجمات تشن من فوق الأسوار، ولكن يعوزها الحماس فقد تعبت الحامية، وفقدت ثقتها.

كان الخندق الإنجليزى مزدحمًا، وأُمِر الرماة أن يكونوا فى المقدمة بسهامهم النارية، وخلفهم ينتظر المزيد من الرماة بمجموعات من الحزم. كان فى قيادة هذا الهجوم السير چون هولاند ابن شقيق الملك، كما كان فى قيادة مجموعة الاستكشاف التى أنزلت على الشاطئ قبل الغزو، ومرة أخرى كان فى صحبته السير چون كورنويل زوج أمه. قال السير چون الأصغر:

- عندما أعطى الأمر سيطلق الرماة السهام النارية على البرج الدفاعى، نريد أن نشعل النار فيه.

وضعت مجامرة حديدية بطول الخندق، يفصل بين كل اثنين بضعة أقدام. كانت ممتلئة بفحم بحرى مشتعل يصدر دخانًا لاذعًا.

حث السير چون هولاند الرماة بقوله:

- اغمروهم بالنيران! أعموهم بالدخان ليخرجوا كالفئران! وعندما يعميهم الدخان سنملأ الخندق ونهجم على البرج الدفاعى ونأخذه!

جعل كلامه الأمر يبدو سهلاً.

حملت المدافع الإنجليزية بالحجـــارة المكـــسوة بالقـــار، وانتظر المدفعيون الهولنديون وقضيب الإطـــلاق يتـــوهج فـــى أيديهم. بدا الفجر كأنه لن يأتى أبدًا. تعب المدافعون من إطـــلاق سهامهم وأخذت سهامهم وبذاءاتهم تخبو. انتظر الجانبان، صاح ديك صغير فى المخيم وتبعته مجموعة من الطيور فى الصياح. كان غلمان الفرسان يحملون حزم الأسهم وينتظرون فى خنادق ضيقة خلف الخندق بينما يردد القساوسة الصلوات ويـــستمعون إلى الاعترافات. أخذ الرجال دورهم فى الركوع وتلقى رقـــائق الخبز الهشة المباركة من الرب. غمغم قس لهوك:

- لقد غُفِرَت ذنوبك.

وهو ما تمنى هوك أن يكون حقيقيًا. لم يعترف بقتل توم بيريل وتساءل وهو يأخذ خبز القربان المقدس إذا كانـــت هـــذه الخدعة ستجعله مذنبًا، كاد أن يفشى ذنبه دون تفكير لكن القـــس كان قد أومأ بالفعل إلى الرجل التالى ليتقدم ولذا نهـــض هـــوك وابتعد. التصقت رقائق الخبز بأعلى فمه وتلا فجأة صلاة صامتة للقديس كريسبينيان. تساءل: هل لهارفليه قديس يحرسها وهـــل يتضرع هذا القديس إلى الرب ليقتل الإنجليز؟

لفتت حركة بسيطة انتباه هوك، فاستدار ليرى الملك محاطًا بالصفوف المحتشدة. كان فى دروعه الحربية الكاملة رغم أنه لم يرتد خوذته بعد. كانت دروع صدره وظهره يغطيها معطف يرتسم عليه شعار الجيش الملكى ويتلألأ ويتقاطع معه شعار صليب القديس چورچ الأحمر. حمل الملك فأسًا حربية عريضة النصل وكذا سيفه الذى لا يزال فى غمده. لم يكن يحمل ترسًا وكذا لم يحمل الترس أى فارس ولا جندى، إن دروعهم المعدنية تمثل حماية كافية والترس المعدنى عادة قديمة من العهود البائدة. أومأ الملك بلطف للرماة وقال وهو يسير بطول الخندق:

- استولوا على الحصن الدفاعى وستسقط المدينة بالتأكيد، فليكن الرب معكم.

وكرر هذه الجمل وهو يشق طريقه بطول الخندق يتبعه حامل دروعه واثنان من الجنود، وقال عندما اقترب من هوك:

- سأذهب معكم. إذا أراد الرب أن أحكم فرنسا فسيحمينا! فليكن الرب معكم! وابقوا فى صحبتى أيها الرفاق ونحن نسترد حقوقنا المشروعة.

قال السير چون هولاند عندما مر الملك:

- أوتروا أقواسكم، نحن على وشك الهجوم!

وضع هوك نهاية القوس الكبير قبالة قدمه اليمنى وثنى القوس حتى يستطيع أن يعقد على الوتر على الطرف العلوى.

زمجر توماس إيڤل-جولد:

- أطلقوا السهام النارية عاليًا، لن يمكنهم سحب الوتر بها حتى آخره لئلا تحترق أيديكم! ولذا أطلقوا عاليًا! وتأكدوا أن القار قد اشتعل جيدًا قبل أن تطلقوا!

ازداد الضوء الرمادى سطوعًا، وحدق هوك من بين سلتين مملوءتين بالتراب من سلال المتراس، واستطاع أن يرى أن الحصن الدفاعى يتهدم. تحطمت الجذوع الخشبية الضخمة المُطَوَّقَة بالحديد والتى كانت تشكل سورًا مرعبًا ودقت بنيران المدافع، ولكن العدو ملأ الفجوات بالمزيد من الأخشاب، ولذلك أصبح الحصن النائى الآن يشبه تلاً قبيحًا مكتظًا بالكتل الخشبية. أما القمة التى كانت تبلغ ما يقارب أربعين قدمًا من قبل أصبحت الآن بنصف ارتفاعها لكنها لا تزال حتى الآن تقف عائقًا عتيدًا. كانت الواجهة منحدرة والخندق عميقا وتوجد بالأعلى غرفة لأربعين أو خمسين من الرماة والجنود وعلى الواجهة المحطمة

ترفرف الرايات التى ارتسمت عليها شارات القديسين والجيوش وبين الحين والآخر يلوح وجهٌ لشخص يرتدى خوذة بين الأخشاب المحطمة إذ يترقب الرجال الهجمة المتوقعة.

ذكر السير چونكورنويل رجاله:

- ستبدأون فى إطلاق سهامكم النارية عندما تنطلق المدافع! هذه هى الإشارة! أطلقوا بثبات! وإذا رأيتم رجلاً يحاول إخماد النيران فاقتلوا ابن الحرام!

طقطق الفحم فى المجمرة القريبة مرسلاً دفقة مفاجئة من الضوء والشرر، جثا أحد غلمان الفرسان جوار المجمرة الحديدية ومعه حفنة من الفحم المشتعل يؤجج بها النيران التى ستشعل السهام المشبعة بالقار. رفرفت النوارس وحومت أسرابًا فوق المستنقع المالح حيث ألقيت جثث الموتى فوق أحد روافد المد البحرى. لقد سمنت نوارس نورماندى بجثث الإنجليز. كانت رقائق الخبز المقدس لا تزال ملتصقة بفم هوك الجاف.

قال السير ويليام بورتر:

- فى أى لحظة الآن.

وكأن فيما قاله ما يريح الرجال المنتظرين.

صدر صوت قعقعة، ونظر هوك إلـى يـساره، فـرأى الرجال يديرون الرافعة التى تدير الحاجز المائل من أمام المدفع القريب. رأى الفرنسيون ذلك أيضًا وانطلقت السهام من الحصن لتضرب الحاجز المرفوع. سحب أحد المدفعيين سلة التراب من أمام فوهة المدفع السوداء.

وانطلق المدفع.

اشتعل القار الذى يغطى الحجر آخذا نيرانه من انفجـار البارود فصارت القذيفة الحجرية المندفعة ككرة مـن الـضوء تنطلق كالسوط من سحابة الدخان، وتعبـر الأرض المحطمـة مصطدمة بالبرج الدفاعى، صاح السير چون هولاند:

- الآن.

ووضع الغلام الجمر المشتعل فى المجمرة فاشتعل منهـا اللهيب وقال إيڤل-جولد ناصحًا الرماة وهم يمـسكون الـسهام الأولى قرب النيران التى اشتعلت:

- لا تدعوا السهام تلمس بعضها البعض.

أطلقت المزيد من المـدافع قـذائفها، وتحطمـت إحـدى عوارض البرج الخشبية، وانسكب بعض التراب على الواجهـة المتحدرة. انتظر هوك حتى اتقدت النار فـى رأس سـهمه ثـم

وضع السهم على الـوتر. خـشى أن تحتـرق قامـة القـوس المصنوعة من خشب البلوط ولذا جذب الوتر سريعًا وأجفـل إذ لسعت النيران يده اليسرى، صوب عاليًا وأطلق بسرعة. كانـت سهام نارية تندفع بالفعل تجاه البرج الـدفاعى. وتطيـر بـبطء وصعوبة، انطلق سهمه يومض ويطلق الشرر فى رحلته وسقط بعد مسافة قصيرة. ضربت سهام أخرى أخشاب البرج الدفاعى المتهدمة وتصاعد دخان المدفع كالساتر يقف بين الرماة وهدفهم.

صاح السير چون هولاند:

- استمروا فى الإطلاق.

أخذ هوك من جعبة قوسه الخرقة التى فرك بها القـوس بالشمع ولفها حول يده اليسرى ليحمى نفسه من النيران. طـار سهمه الثانى بشكل صحيح ليضرب إحدى العوارض الخـشبية المكسورة، طارت القذائف المشتعلة عبـر ضـوء أول النهـار الخافت كموجات من النار وبدأ البرج الدفاعى يمتلئ بنقاط مـن اللهب بينما تسقط عليه المزيد والمزيد من السهام. رأى هـوك المدافعين ينتقلون إلى الحصن البديل وخمن أنهم يسكبون المـاء أو التراب على واجهة البرج ولذا أخذ سهمًا عريض الرأس من جعبته وأطلقه بسرعة وبشكل صحيح ثم أطلق آخر سهم نـارى

معه ورأى أن النيران تنتشر والدخان يتصاعد من البرج الدفاعى من مائة موضع، اشتعلت إحدى الرايات فجأة واتقد كتانها ساطعًا. أطلق ثلاثة سهام أخرى من الأسهم عريضة الرؤوس وبعدها دوى صوت بوق على بعد أقدام قلائل فى الخندق وحمل الرجال الحزم واندفعوا مرورًا به يتسلقون المتراس ويندفعون إلى الأمام.

صاح السير چون هولاند:

- اذهبوا خلفهم، أعطوهم سهامًا.

اندفع الرماة والجنود من الخندق وتمكن هوك الآن أن يطلق سهامه فوق رؤوس الرجال أمامه مصوبًا على الرماة الذين احتشدوا فجأة فى الدخان المتصاعد من البرج الدفاعى، صاح:

- سهام.

وأعطاه أحد الغلمان جعبة سهام جديدة. كان يطلق أسهمه الآن مدفوعًا بغريزته، يرسل الواحد تلو الآخر تجاه المدافعين الذين بدوا ظلالاً هلامية فى الدخان المتكاثف. انطلقت صيحات من حافة الخندق. كان الرجال يموتون هناك لكن حزم عصيهم كانت تملأ الحفرة العميقة.

صاح السير چون كورنويل:

- من أجل هارى والقديس چورچ، أريد حامل الراية.

أجاب أحد حملة الدروع الذى أوكلت إليه مهمة حمل راية السير چون:

- أنا هنا!

- إلى الأمام!

ذهب الجنود مع السير چون يصيحون، وهم يتقدمون عبر الأرض الوعرة المتكسرة المحترقة ومن خلفهم الرماة، والبوق لا يزال يدوى. تقدم رجال آخرون إلى اليمين واليسار. جرى الرماة الذين كانوا يملأون الخندق إلى كل من الجانبين وأخذوا يطلقون سهامهم الآن إلى البرج الدفاعى. ضربت السهام الرجال بقوة. فتح أحد رجال السير چون فمه فجأة وأمسك بطنه دون أن يصدر عنه أى صوت وانثنى على ذاته وسقط، تساقطت الدماء من مقدمة الخوذة المفتوحة لجندى آخر هو ابن إيرل وقد ضربه سهم قصير. ترنح وسقط على ركبتيه. هز يد هوك الذى حاول مساعدته وحاول أن ينهض ويتقدم إلى الأمام والسهم لا يزال فى وجهه، صاح السير چون:

- صيحوا عاليا يا أولاد الحرام!

وصاح المهاجمون عاليا باسم القديس چورچ.

- أعلى!

أطلق مدفع دخانا كريه الرائحة من فوق أسوار المدينـــة، وانطلق الحجر مائلاً على الأرض الوعرة التـــى يتقـــدم منهـــا المهاجمون. أصيب جندى فى فخذه وسقط يتلوى واندفعت الدماء على معطفه واستمر الحجر فى انطلاقه، لينزع أحـــشاء أحـــد غلمان الفرسان، واستمر فى انطلاقه، تتساقط منه قطرات الـــدم ليختفى فى مكان ما فى المستنقعات، انقطع وتر قوس أحد الرماة عندما سحبه لمداه الأقصى فأطلق سبابًا. صـــاح الـــسير چون كورنويل وهو يقفز على حزم العصى التى ملأت الخندق:

- لا تمنحوا أولاد الحرام وقتًا! اقتلوهم!

صار الصياح الآن متصلاً بينمـــا طليعـــة المهـــاجمين يتمايلون على الحزم غير المستوية التى لم تملأ الخندق بالكامل. هسهست السهام وهى تسقط عليهم بالإضـــافة إلـــى الحجـــارة والأخشاب الطويلة التى يقذفها المدافعون من البـــرج الـــدفاعى المرتفع. انطلق مدفعان آخران من أسوار المدينة يطلقان الدخان وتندفع أحجارهما خلف المهاجمين دون أن تسبب أذى يـــذكر. دوت الأبواق فى هارفليه بينما السهام تنطلق من فوق أسوارها،

وكلما اقترب المهاجمون من البرج الدفاعى صاروا بأمان من القذائف التى تنطلق من المدينة ولكن بعض الرجال كانوا يحاولون تسلق جانبى الحصن المتهدمين وقد جعلهم هذا فى مرأى من المدافعين عن هارفليه.

أفرغ هوك جعبة سهامه على الرجل فى قمة البرج الدفاعى ثم تطلع بحثًا عن غلام يحمل المزيد من السهام لكنه لم ير أيًا منهم. صاح على أصغر رماته سنًا:

- هوروكس اذهب وأحضر أسهمًا.

ورأى راميًا مصابًا يجلس على بعد خطوات قليلة منه، لم يكن أحد رجاله. أخذ قبضة من السهام من جعبة الرجل وأمسك سهمًا بين إبهامه وقامة القوس. كانت الرايات الإنجليزية عند أعتاب البرج الدفاعى ومعظم الجنود أسفل منحدراته يحاولون التسلق بين ألسنة النيران التى تشتعل بشدة ويتصاعد منها الدخان ليعمى المدافعين. كان هذا أشبه بتسلق واجهة متهدمة، لكنها واجهة تشتعل فيها النيران ويلفها الدخان، كان الفرنسيون يصيحون بتحدٍ: إن أفضل أسلحتهم الآن هى الحجارة التى يقذفونها على الواجهة ورأى هوك جنديًا ينطرح أرضًا وقد حطم حجر خوذته تقريبًا. كان الملك هناك أو على الأقل كانت رايته

تتلألأ قبالة الدخان وتساءل هوك: هل كان الملك هو الرجل الذى رآه يسقط بخوذة نصف محطمة. ماذا سيحدث إذا مات الملك؟ ولكنه هناك على الأقل، فى المعركة، وأحس هوك بموجة من الفخر لأن لإنجلترا ملكًا مقاتلاً وليس ملكًا أحمق نصف مجنون، يحيط جسده بالضمادات لأنه مقتنع أنه مصنوع من الزجاج.

كانت راية السير چون إلى الميمنة الآن، معها راية السير ويليام بورتر التى يرتسم عليها شعار يتكون من ثلاثة أجراس، وصاح هوك فى رجاله أن يتبعوه، وهو يجرى إلى حافة الخندق. وقفز إليه وهبط على جثة رجل لا تزال عليه الدروع المصفحة. لقد اخترق سهم قصير درع الرجل فتدفق الدم من حلقه وقد نهب شخص ما بالفعل السيف والخوذة من الجثمان. تغلب هوك على تردده وأخذ نفسه إلى الجهة البعيدة حيث الدخان كثيف، أطلق ثلاثة أسهم ثم وضع سهمه الأخير على القوس. ازدادت النيران اشتعالاً وهى تتغذى على أخشاب البرج الدفاعى المحطمة، وأصبحت هذه النيران التى أُوقِدَت لتحجب الرؤية عن المدافعين تقف الآن عائقًا أمام المهاجمين. هسهست السهام فوق الرؤوس مما يدل على أن الغلمان وجدوا المزيد منها وجلبوه إلى الرماة لكن هوك كان قد تقدم أبعد من أن يعود ويملأ جعبة سهامه. جرى إلى الميمنة، عبر فى طريقه بين الجثث

غير ملتفت إلى الأسهم التى تتساقط حوله. رأى السير چون يقف فى مكان عال خطر على بعض الأخشاب التى يطوقها المعدن. يقف محفوفاً بالخطر يحدق إلى الأعلى تجاه الرجال الذين يصدون المهاجمين. ظهر أحد المدافعين بسرعة وهو يرفع حجرًا أعلى رأسه مستعدًا ليقذفه على السير چون؛ توقف هوك وسحب الوتر وأطلق فأصاب سهمه الرجل فى إبطه فدار حول نفسه ببطء وسقط للخلف بعيدًا عن مرأى هوك.

جاءت هبة ريح من الشرق أخذت الدخان كالدوامة من ميمنة البرج الدفاعى ورأى هوك فتحة هناك، كهف فى البرج النصف متهدم الذى يحمى الجانب المطل على البحر. علق القوس وسحب الفأس الحربية من على كتفه. صاح صياحًا مفككاً وهو يركض ثم يقفز متسلقاً واجهة البرج، باحثاً لقدمه عن موطئ ثابت على المنحدر الحاد. كان على الجانب الأيمن من الحصن المتحطم واستطاع أن يرى الجانب الجنوبى من هارفليه حيث يقع الميناء. واستطاع المدافعون كذلك أن يروا هوك من فوق الأسوار وطارت السهام على البرج ولكن هوك التف إلى الكهف الذى أصبح مأوى من الأخشاب المنهارة والحجارة المهدمة. كان هناك بهذا المأوى مساحة ضئيلة للحركة إذ هو أكبر قليلاً من عرين كلب برى. وتساءل هوك، ثم ماذا الآن؟

كانت الأسهم تهسهس خارج مأواه الصغير واستطاع سماع الرجال يصيحون وبدا لهوك أن الفرنسيين يصيحون صياحًا أعلى مما يدل أنهم يعتقدون أنهم ينتصرون. مال قليلاً للخارج محاولاً أن يلقى نظرة على السير چون لكن جاءت هبة من الريح محملة بالدخان غطت وكر هوك.

لكنه رأى على يمينه بالضبط تجاه واجهة البرج الدفاعى أطواقًا معدنية تحيط ثلاثة من جذوع الأشجار الضخمة معًا ودار بخلده أن الحلقات المعدنية تصنع سلمًا يقود للأعلى والدخان يخفيه ولذا قفز وتعلق بالأخشاب بيده اليسرى ووجدت قدماه موطئًا صغيرًا على الحلقات الحديدية الأخرى. رفع فأسه الحربية للأعلى وعلقها كالخطاف على الحلقة العليا وسحب نفسه إلى أعلى، وأعلى، وقد صار قريبًا جدًا من القمة ولم يره الفرنسيون بسبب الدخان ولأنهم كانوا يراقبون الحشود الإنجليزية التى تحاول تسلق وسط البرج حيث الواجهة أقل انحدارًا، تتساقط فوقهم الأحجار، والأسهم، والأخشاب المكسرة، بينما ترفرف الأسهم الإنجليزية فى الدخان ردًا على ذلك.

زأر صوتٌ من تحته:

– هوك! يا هوك! يا ابن الحرام! اسحبنى إلى أعلى!

كان هذا هو السير چونكورنويل، أخفض هوك الفأس الحربية، وترك السير چون يمسك برأس المطرقة، ثم سحبه إلى أعلى على الأخشاب.

زمجر السير چون قائلاً:

- أنت لن تسبقنى يا هوك وماذا تفعل هنا بحق اسم المسيح؟ ألا يجب أن تكون هناك تطلق السهام؟

قال هوك:

- أردت أن أرى ماذا على الجانب الآخر من هذا الحطام.

تعالت النيران فى الأخشاب مقتربةً من قدمى السير چون.

بدأ السير چون يتحدث:

- أردت أن ترى...

ثم أطلق ضحكة عصبية واستطرد:

- سَأُشوَى هنا، اسحبنى أكثر إلى أعلى.

استخدم هوك الفأس الحربية ليشد السير چون إلى قمة الأخشاب فى هذه المرة؛ بدا الاثنان كالذباب على القائمة الخشبية

المحطمة المحترقة بالضبط تحت السور الدفاعى البـــديل لكــن المدافعين لم يروهما بعد. قال السير چون:

- يا للمسيح عيسى الرائع وكل من شرب خمــره مــن القديسين، ولكن هذا يبدو مكاناً جيدًا للموت.

وسحب فأسه الحربية من على كتفه واستطرد:

- هل تأتى معى للموت يا هوك؟

- يبدو هذا يا سير چون.

- رجل جيد. ادفعنى إلى أعلى أولاً ثم انضم إلى، ولنمت بشكلٍ محترمٍ يا هوك، لنمت بشكلٍ محترمٍ جدًا.

أمسك هوك حزام سيف السير چون من الخلف، وعنــدما أعطاه الإشارة رفعه. ارتفع السير چون إلى أعلى، وتقلب على السور، وصاح صيحته الحربية:

- هارى والقديس چورچ!

ومن أجل هارى والقديس چورچ والقــديس كريــسبينيان تبعه هوك.

وصرخ.

قال القديس (كريسبينيان):

- لن نموت هنا.

سمع هوك الصوت بالكاد، لأنه يصيح بصيحة المعركة، التى كانت تحمل مساحة من الرعب ومساحة من البهجة.

وصل هوك والسير چون إلى قمة البرج الدفاعى حيث تقبع بقية المنصة الحربية. كانت الضربات الإنجليزية قد حطمت واجهة البرج فتناثرت الأتربة والحجارة، وما كان من قبل منصة حربية قد صار الآن مساحة محطمة وعرة.

أما الحائط الخلفى المواجه لبوابة ليور فقد تأذى بشكلٍ أقل، ويقف الآن كحاجز يخبىء ما حدث من ضرر للقمةً المحطمة الوعرة لأسوار هارفليه الدفاعية، كانت القمة الآن كومة وعرة من التراب والحجارة والأخشاب المحترقة، مكتظة بالرماة والجنود. جاءهم هوك والسير چون من ميسرتهم وهاجمهم السير چون الآن كملاكٍ منتقم.

كان سريعًا، وهذا هو السبب أنه أكثر مقاتل يخشى بأسه فى العالم المسيحى، فالوقت الذى يستغرقه رجل ليضرب مرةً، كان السير چون يضرب فيه اثنتين، رأى هوك ذلك إذ بدا له مرة أخرى أن الوقت نفسه قد تباطأ. كان هوك يتحرك على

يمين السير چون، وقد أدرك فجأةً أن القديس (كريسبينيان) قد حطم صمته وشعر بفورة اطمئنان كبيرة لأن القديس لا يزال يرعاه. كان هوك يضرب بفأسه الحربية، بينما يستخدم السير چون فأسه الحربية مزدوجة النصل فى طعنات وحشيةٍ قصيرة. حطمت الضربة الأولى الدرع المستديرة التى تحمى ركبةً جندى. وبقرت ضربة ثانية موجهة إلى الأعلى أحشاء رامٍ وأسقطت الثالثة الجندى الذى تحطمت ركبته. التفت جندى آخر موجهًا سيفه إلى السير چون ولكن فأس هوك شقت خاصرته مخترقة حافة دروع صدره، وألقته على ظهره فوق الرجال خلفه. استمر هوك يدفع النصل فى الرجل، يقوده خلفًا ليصطدم برفاقه من الجنود بينما السير چون يصنع ضجة بهتافه، أصواتًا تدل على المتعة الخالصة. كان هوك يصرخ رغم أنه لم يدرك ذلك، كان يستخدم قوته الهائلة كرامٍ ليدفع العدو للخلف بينما يستفيد السير چون من ميزة اضطرابهم فيوسعهم تقطيعًا وجرحًا وقتلاً.

حاول هوك انتزاع فأسه الحربية لكن قمة نصلها كانت منغرسة فى درع الرجل. قال السير چون بحدة:

- خذ هذه!

ومد الفأس إلى هوك. فيما بعد عندما انتهى القتال تعجب هوك من هدوء السير چون المطلق فى وسط المعركة. لقد رأى السير چون مأزق هوك، وقام بحله، رغم أنه نفسه كان يُهَاجَم. لقد أعطى هوك الفأس وفى الوقت الذى استغرقه هوك ليأخذها كان السير چون قد جرد سيفه. كان هذا سيفه المفضل، السيف الذى أسماه (حبيبى)، كان السيف أفضل من غالبيةِ السيوف وصلب بما يكفى لضرب الدروع الفولاذية. استخدمه السير چون ليفقد الأعداء توازنهم وترك لهوك مهمة القتل الآن. كانت ضربة هوك الأولى على خوذة، انتزعت الضربة مقدمتها بالكامل وظلت معلقة بميل، قال السير چون:

– فولاذ رخيص.

لا يزال سيفه يتطاير فى وجوه الرجال يدفعهم إلى التراجع. دفع هوك نصله فى دروع بطن أحد الجنود ورأى الدم يتدفق لامعًا سريعًا. صاح السير چون:

– الراية! اجلبوا لى رايتى اللعينة!

كان هوك يقف منفرج القدمين، يضرب بفأسه الرجال الذين يقاتلون بالكاد. كانوا يتعثرون فى الجثث تحت أقدامهم، وقد ملأهم الرعب من مهارة السير چون الشديدة وضراوته. إن

رجلاً ثابت الجنان ليستطيع أن يهاجم سيف السير چون وفأس هوك ولكن بدلاً من ذلك كان المدافعون يحاولون التراجع مبتعدين عن النصال، بينما الرجال الفرنسيون خلفهم يدفعونهم للأمام. كان السير چون يَعُد بالفرنسية الرجال الذين يصيبهم أو يقتلهم:

- ثلاثة! أربعة!

ثم استطرد بالإنجليزية:

- هيا! يا أولاد الحرام الملاعين! إنى ظمآن إلى الدم!

كانت فأس هوك هى السلاح الأخطر لقوتها. كان النصل يخترق الدروع مثل رقاقة جلدية أو يضرب اللحم مثل سكين الجزار، وكان هوك يقطب حين يؤرجح النصل، وظن الأعداء أنه يبتسم وكانت هذه الابتسامة مخيفة أكثر من النصل. وقد منع ضغط الفرنسيين الشديد رماتهم من التصويب، بينما قام السور الخلفى السليم والدخان الكثيف بإخفاء المعركة عن أبراج بوابة ليور. كان السير چون يصيح وهوك يعول بضجةٍ مجنونةٍ بينما اصطبغت نصالهما باللون الأحمر. لم يكن هوك يحاول القتل الآن كان فقط يدفع العدو إلى الخلف ويطرح الرجال أرضًا ليصنع حاجزًا. قام أحد الجنود الذين سقطوا بتسديد طعنة إلى

الأعلى لكن هوك رأى الطعنة آتية فأخذ نصف خطوة جانبًا وضرب بفأسه بعنف على مقدمة خوذة الجندى. سمع قعقعة النصل وهو يصطدم بالفولاذ ويخترقه إلى اللحم. طوح الفأس للخلف ليضرب دروع صدر رجل ثم دفعها إلى الأمام ليدفع رجلاً ثالثًا إلى التراجع.

صاح السير چون مرة أخرى:

- رايتى! أريد أن يعرف أولاد الحرام هؤلاء من يقتلهم!

جاء حامل رايته فجأة متعثرًا من فوق السور خلفه وجاء معه المزيد من الجنود ممن يرتدون شعار أسد السير چون، صرخ السير چون:

- اقتلوا أولاد الحرام!

لكن أولاد الحرام كانوا قد نالوا كفايتهم. كانوا يتدافعون عبر فتحة من الحائط الخلفى للبرج ويهبطون سلمًا، أو يلقون بأنفسهم على المنحدر المغطى بالحجارة المتكسرة قبل أن يركضوا عبر الدخان إلى بوابة المدينة. كانت الشمس تضىء هذا الدخان، والرجال الإنجليز المتصايحون يقتلون آخر المدافعين الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى الفتحة فى الوقت المناسب. رفع أحد الرجال قفازه دلالة على الاستسلام، ولكن

أحد الرماة ضربه بمطرقةٍ ذات يدٍ طويلة وأصابه آخر بفأسه الحربية.

صاح صوت:

- كفاكم! كفاكم! كفاكم!

صاح السير چون:

- أوقفوا ضرباتكم! لقد قلت أوقفوها!

قال الرجل صاحب الأمر الأول بإيقاف القتال:

- فلنشكر الرب!

ورأى هوك الملك الذى ركع على ركبتيه على الحجارة، وسيفه فى يده، ورسم الصليب على نفسه. لقد احترق الشعار الملكى اللامع المزين بصليب القديس چورچ الأحمر الذى كان على معطف الملك. اندفعت قذيفة فى الأخشاب المواجهة للمدينة مما جعل السور يهتز. صاح الملك وهو يقف على قدميه:

- أطفئوا النيران!

ونزع خوذته وبطانتها الجلدية فانساب من تحتهما شعره المقصوص الكثيف فى خصلاتٍ صغيرةٍ التصقت بالعرق.

- أظهروا بعض الشفقة نحو هذا الرجل!

أومأ إلى الرجل الفرنسى الذى حاول الاستسلام والذى يتلوى الآن ويئن بينما تنتشر الدماء فى بطانة درع صدره. كانت الفأس الحربية لا تزال منغرسة فى بطنه. سحب أحد الجنود خنجرًا وتحسس الفتحة التى تحمى حلق الرجل المحتضر فى دروعه وطعنه مرة واحدة قبل أن يلف النصل فى رقبة الرجل. تشنج الرجل وانسال الدم من فتحات خوذته المحطمة وتقلصت عضلاته ثم هدأت حركته تمامًا. قال الملك مرة أخرى:

- فلنشكر الرب.

نزل رام على ركبتيه فجأةً وظن هوك أن الرجل يصلى ولكن بدلاً من ذلك تقيأ. ضربت السهام سور البرج الخلفى وكان صوت ضرباتها كمطرقة الحنطة التى تدق فوق أرض الصومعة. رفرفت راية الملك على البرج الدفاعى وتمزق القماش الثقيل إذ ضربه سهمٌ فى موضع الحياكة. قال الملك:

- يجب أن أشكرك يا سير چون.

تساءل السير چون وهو ينزل على إحدى ركبتيه:

- على قيامى بواجبى يا مولاى؟

ثم استطرد وهو يومىء إلى هوك:

- ولقد ساعدنى هذا الرجل.

نزل هوك على ركبتيه أيضًا، نظر الملك إليه، ولم يبد ما يدل على أنه تعرفه. قال الملك هنرى باقتضاب:

- شكرى لكم جميعًا.

واستدار مبتعدًا وأمر حاشيته:

- ابعث الرسل وأخبـــرهم أن يطلبـــوا تـــسليم المدينـــة! وأحضروا ماءً للنيران!

سُكِبَت المياه على النيران ولكنها كانت قد اخترقت عمق أخشاب البرج الدفاعى المحطمة التى أصبحت تحترق بلا لهب ويتسرب منها دخان خانق حول البرج المأسور. كان الرماة يحرسون قمة الحامية المحطمة الآن وفى تلك الليلة جروا بخشونة أحد المدافع الصغيرة الذى يدعى (الرسول) إلى القمة وتناثرت أخشاب بوابة ليور مع أولى طلقاته.

ركب الرسل إلى تلك البوابة بعد الاستيلاء على البرج الدفـــاعى، وشـــرحوا تفصيلاً أن الإنجليز سيهـــدمون البوابة الضخمة وأبراجها وأن سقوط هارفليه حتمى وعلى الحامية أن

تفعل الشيء المعقول بل حتى الشيء الذى يحفظ كرامتها؛ أن تستسلم قبل أن يموت المزيد من الرجال. وأوضح الرسل أنهم لو رفضوا الاستسلام فسيسرى قانون الرب؛ وسيصبح كل رجل وامرأة وطفل فى هارفليه غنيمة جنسية للإنجليز. وصاح أحد الرسل على قادة الحامية قائلاً:

- فكروا فى بناتكم الجميلات، ومن أجلهن استسلموا!

ولكن الحامية لم تستسلم، ولذا حفر الإنجليز حفرًا جديدة للمدافع أقرب إلى المدينة، وضربوا بوابة ليور المكشوفة محطمين برجيها الجانبيين وهادمين قوسها الحجرى ولا يزال المدافعون يقاومون.

وأتى المطر مع أول هبات الرياح الباردة فى نهاية فصل الصيف.

ولم يتوقف المرض، وكان جيش الملك هنرى يموت وسط الدم والقىء والبراز السائل.

وبقيت هارفليه فرنسية.

كان لا بد أن يحدث كل هذا مرة أخرى. هجوم آخر، هذه المرة على بوابة ليور المحطمة، وليتأكدوا أن المدافعين لن يركزوا رجالهم على الركن الجنوبى الغربى من الحصن ستقوم

قوات دوق كلارينس بالهجوم على بوابة مونتفيلس على الجانب البعيد من المدينة.

قال السير چون إنهم فى هذه المرة سيدخلون المدينة:

- لن يستسلم أولاد الحرام الملاعين! ولذا تعلمون ما ستفعلون مع أولاد الحرام! من كان له قضيب فاقتلوه، ومن كان لها ثدى فامتطوها! كل شىء فى هذه المدينة لكم! كل عملة وكل قدر جعة، وكل امرأة! كلها لكم! والآن اذهبوا واحصلوا عليها.

ولذلك اندفعت الهجمتان المتلازمتان عبر الخنادق الممتلئة وأمطرت السماء الأسهم، ودوى صوت البوق كأنه يتحدى شمسًا لا تبالى به وبدأ القتل. ومرة أخرى كان السير چون هولاند هو القائد مما يعنى أن يكون رجال السير چون كورنويل فى مقدمة الهجوم الذى سيستولى بسرعة على بوابة ليور المحطمة ثم فجأة توقفوا.

كانت البوابة تقود من قبل إلى شوارع تجتشد بالمنازل ذات الأسقف المتحدرة، لكن الحامية هدمت هذه المنازل لتصنع ساحة مناسبة للقتل، صنعوا خلفها متراسًا جديدًا حمته بقايا السور القديم والبوابة من أحجار المدافع الإنجليزية. وُضِع المدفع المسمى (الرسول) على قمة البرج الدفاعى وبدأ يطلق

بعض الأحجار على المنشآت الجديدة، لكنه لا يتمكن إلا من إطلاق ثلاث طلقات فى اليوم والفرنسيون يصلحون ما يسببه من دمار بين الطلقةً والأخرى. أنشىء السور الجديد من كتل حجرية ضخمة، وأخشاب الأسقف، وسلال مملوءة بالحجارة وخلف ذلك هناك الرماة وما أن ظهر الجنود الإنجليز حتى بدأت السهام تطير عبر حطام بوابة ليور.

رد الرماة على السهام المتطايرة لكن الفرنسيين كانوا بارعين لقد صنع السور الجديد به فتحات وشقوق يمكن للرماة أن يطلقوا من خلالها لكنها صغيرة بما يكفى لتمنع أى رامٍ أن يصوب من خلالها سهامه. جثا هوك على حطام البوابة القديمة وافترض أن هناك مقابل كل رام يطلق سهمًا، ثلاثةً أو أربعةً يجهزون سهامهم ولذا لم تتوقف السهام أبدًا، يعد أكثر الرماة محظوظين لو تمكنوا من إطلاق سهمين فى الدقيقة، لكن السهام كانت تأتى من فتحات الإطلاق بمعدل أكثر من هذا ولا تزال القذائف تنبعث من النوافذ العليا للمنازل النصف متهدمة خلف الســـور. هكذا –كما عرف هوك– كان يجب الدفاع عن سواسون.

زمجر السير چون من مكان آخر فى الحائط المتحطم:

– سنحتاج أن نجلب مدفعًا.

لكنه بدلاً من أن يقود هجمةً على المتراس، صاح فى رماته أن يغرقوه بالسهام. ولقد فعلوا، لكن الأسهم الآتية من المتراس استمرت فى الانطلاق، وحتى لو أخفقت فى اختراق الدروع فإن قوة اندفاعها كانت تلقى بالمرء على ظهره، وأخيرًا، عندما وصلت نصف دزينة من الرجال إلى السور وحاولوا هدم أخشابه وحجارته وانسكب على المهاجمين زيت السمك المغلى من مرجل من فوق قمة السور. جروا وترنحوا، والبعض منهم يلهث من آلام الحروق وعاد السير چون معهم ودرعه زلق بالزيت وسقط على حطام البوابة وأطلق سيلاً واهنًا من اللعنات. كان الفرنسيون مبتهجين. كانوا يلوحون براياتهم ساخرين من فوق سورهم الجديد المنخفض. وخلف السور الجديد بدا ضباب متلألئ ينذر بالمزيد من الزيت المغلى بانتظار استقبال أى هجمة جديدة.

حاولت المجانيق الإنجليزية قذف الحجارة على الحائط الجديد لكن أغلب القذائف طارت طويلاً لتسقط مصطدمة بالمنازل المحطمة بالفعل.

سطعت الشمس. عادت حرارة آخر الصيف. أحس كل من المهاجمين والمدافعين أنهم يشوون داخل دروعهم. جلب الصبية الماء والجعة. نزع الجنود خوذاتهم وهم يستريحون فى

مأواهم من حطام بوابة ليور. شعورهم ملتصقة والعرق يتصبب من وجوههم. جثا الرماة بين الصخور، يطلقون سهامهم أحيانًا إذا ظهر شخص ما، ولكن لفترات طويلة لم يطلق أى من الجانبين سهمًا أو قذيفة، كانوا فقط ينتظرون ظهور الهدف.

بصق السير چون تجاه العدو قائلاً:

- أولاد الحرام.

رأى هوك اثنين من المدافعين يحاولان بصعوبة تحريك سلة مملوءة بالتراب من جزء من السور الجديد. وقف نصف وقفة وأطلق سهمًا كما فعلت بالضبط دزينة من الرماة. سقط كلا الرجلين وقد أصابتهما السهام ولكن سقطت السلة معهما ورأى هوك ماسورة مدفع، عريضة ومنخفضة وانبطح فوق حطام البوابة لحظة إطلاق المدفع. عوى الهواء وصرخ. انطلقت قطع الأحجار كالسياط عبر الدخان، وعلا صوت صرخة طويلة مريعة تحولت إلى بكاء بينما تحولت المساحة الواقعة أمام السور إلى غيمة من دخان كثيف. قال ويل:

- أوه يا إلهى.

- هل أصبت يا ويل؟

- لا، فقط أرهقنى هذا المكان.

لقد ملأ الفرنسيون مدفعهم بكمية من الأحجار الصغيرة التى ضربت المهاجمين. مات جندى إذ ثقب حجر صغير قمة خوذته. عاد رامى أسهم يترنح إلى البرج الدفاعى وهو يضغط بإحدى يديه بإحكام على محجـــر عينه الدامى الذى أفرغه حجر آخر. قال ويل:

- سنموت جميعًا هنا.

قال هوك بقوة:

- لا.

رغم أنه لم يصدق اعتراضه هذا. انقشع دخان المدفع ببطء ورأى هوك أن السلة المملوءة بالتراب قد عادت لتملأ الفتحة الموجودة فى الجدار.

صاح السير چون مرة أخرى:

- أولاد الحرام.

كان الملك يصيح:

- نحن لن نتوقف!

أراد أن يجمع مجموعة من الجنود، ويحاول قهر السور بالزيادة العددية وحمل رجاله الأوامر إلى الرجال الإنجليز المبعثرين على حطام السور القديم. صاح رجل:

- رماة الأسهم إلى الجانبين، إلى الأجنحة!

بدأ عازف بوق فرنسى فى عزف نغمات قصيرة حادة، كانت ثلاث مقطوعات صاعدة وهابطة تعاد مرارًا وتكرارًا وكان فى هذا نبرة سخرية. صاح السير چون:

- اقتلوا أولاد الحرام!

ولكن أولاد الحرام كانوا مختفين خلف السور.

صاح الملك:

- تحركوا!

أخذ هوك نفسًا عميقًا ثم تحرك إلى يمينه، لم تنطلق السهام من الدفاعات ودار بخلده أن الحامية تنتظر. ربما قاربت أسهمهم على النفاد ولذا يحتفظون بما يستقبلون به الهجوم التالى. واتخذ من جزء السور المتهدم مأوى له؛ وبعد ذلك مباشرة وقف عازف البوق الفرنسى على السور الجديد ورفع آلته إلى شفتيه ووقف هوك أيضًا وسحب الوتر إلى أذنه اليمنى وأطلق،

فى ارتدادته ضرب الوتر وقاء ساعده وطار السهم المريش بريش الإوز لتضرب رأسه الحاد عازف البوق فى حنجرته ويخترق عنقه ويخرج من مؤخرتها بفخر. انطلقت زعقة مريعة من البوق ثم انتهت فجأة إذ سقط الرجل للخلف. تطايرت المزيد من السهام الإنجليزية فوقه إذ اختفى خلف السور مخلفاً وراءه دمه المتناثر والصدى المحتضر لنداء بوقه المقطوع.

صاح السير چون:

- أحسنت صنعًا أيها الرامى!

انتظر هوك. أصبح النهار أشد حرًا تحت الشمس التى كانت فرنًا هائلاً فى السماء التى يعكرها القليل من الدخان الذى يتصاعد من المدينة المحاصرة. لقد توقف الفرنسيون عن الإطلاق تمامًا، مما أقنع هوك أنهم فقط يدخرون قذائفهم من أجل الهجوم الذى يدركون أنه قادم. سار القساوسة بين حطام السور القديم يقدمون الغفران للموتى والمحتضرين بينما خلف السور فى المساحة بين بوابة ليور المتهدمة والبرج الدفاعى المحطم احتشد الجنود تحت رايات لورداتهم، وكان من السهل على المدافعين رؤية قوة تقارب الأربعمائة جندى. لكنهم استمروا فى عدم الإطلاق.

أحضر أحد غلمان السير چون قربتين من الماء للرماة، كان صبيًا فى العاشرة أو الحادية عشرة من عمره له كتلة كثة من الشعر الأشقرِ اللامع فوق رأسه وعينان واسعتان زرقاوان، وقال له هوك:

- نحتاج إلى أسهم يا فتى.

قال الصبى:

- سأحضر بعض السهام.

أمال هوك القربة إلى فمه ثم تساءل دون أن يوجه سؤاله إلى شخص بعينه:

- لماذا لا يتحرك الجنود؟

لقد جمع الملك قوة الهجوم والرماة فى أماكنهم ولكن كسلاً عجيبًا سيطر على المهاجمين.

قال الغلام بتوتر:

- لقد أتى رسول.

كان الغلام الكريم المحتد قد أُرسِل إلى منزل السير چون ليتعلم طرق الجندية وسيكون ولا شك فى الوقت المناسب لوردًا عظيمًا فى دروعه المتلألئة يمتطى حصانًا مكسوًا بسرج

مزركش ولكنه الآن متوتر من وجوه الرماة القاسية والذين قد يحاربون تحت قيادته يومًا ما.

- رسول؟

قال الصبى وهو يستعيد قربة الماء:

- من دوق كلارينس.

لقد عسكر الدوق فى الجانب البعيد من هارفليه وكان هو الآخر يهاجم المدينة رغم عدم وجود أى صوت يدل على وقوع أى قتال عند البوابة البعيدة وسأل هوك الغلام:

- إذن ماذا أخبرنا الرسول؟

قال الصبى:

- إن الهجوم قد فشل.

قال هوك فى اشمئزاز:

- أيا أيها المسيح.

ولذلك فكر أن الملك ينتظر الآن حتى يبدأ أخوه فى هجمة جديدة، وبعدها سيقوم الإنجليز بمجهود أخير من جهة الشرق والغـرب ليتغلبـوا على المـدافعين العنيدين، ولذا انتظر هوك

ورماته. إذا أرسل الملك أوامر جديدة لأخيه فربما تستغرق ساعتين على الأقل لتصل إليه إذ إن على الرسول أن يقود فرسه بعيدًا حول الجانب الشمالى من المدينة ويعبر النهر الممتلىء بالماء بقارب.

تساءل سكلايت؛ العامل الغبى ذو القوة الهائلة:

- ماذا يحدث؟

قال هوك:

- لا أعرف.

سال العرق على وجهه وألهب عينيه. بدا الهدوء مشبعًا بالغبار الذى التصق بحلقه وجعله عطشًا مرة أخرى، تألق الضوء على حطام أحجار السور الحجرى الجيرية المتناثرة. كان متعبًا، فك وتر قوسه ليريح قامة القوس من توترها.

تساءل سكلايت:

- هل سنهاجم مرة أخرى؟

قال هوك مقترحًا:

- أظن أننا سنهاجم عندما يهاجم الدوق الجانب البعيـد، لدينا ساعتان من الآن.

قال سكلايت بكآبة:

- سيكونون مستعدين لنا.

ستكون الحامية مستعدة، مستعدة بالمدافع والأقواس والقذائف والزيت المغلى. هذا ما ينتظر الرجال الذين يرتدون شعار الصليب الأحمر. كان الجنود قد جلسوا الآن يرتاحون قبل أن تأتيهم الأوامر بالذهاب إلى ساحة القتل، كانت الرايات اللامعة متراخيةً على قوائمها وصمتٌ غريبٌ يلف هارفليه. انتظار. انتظار.

حطم صوت السير جون الصمت بقوله:

- عندما نهاجم!

كان يوسع الخطو على طول واجهة مأوى الرماة، غير مكترث أنه مكشوفٌ تمامًا للعدو، ولأن الرماة الفرنسيين كان لديهم أوامر بادخار سهامهم فتجاهلوه. صاح مرةً أخرى:

- عندما نهاجم، تتقدمون! تستمرون فى الإطلاق! ولكن تستمرون فى التقدم إلى الأمام! عندما نرتقى السور أريد الرماة معنا! نريد أن نصطاد أولاد الحرام فى شوارعهم اللعينة! أريدكم كلكم هناك وأريد صيدًا جيدًا! هذا يوم قتل أعداء ملكنا، ولذاك اقتلوهم!

دار بخلد هوك، وعندما يتم القتل كم سيتبقى من الإنجليز؟ لقد كان الجيش الذى أبحر من مياه ساوث-هامبتون صغيرًا بما يكفى، ولكن الآن؟ وقد أصبح الآن -حسب ظنونه- بالكاد نصف جيش، والعديد منهم مرضى، يملأون حطام هارفليه بينما الجيش الفرنسى يتحرك للقتال. تناثرت شائعات تقول إن جيش العدو ضخم، حشد من الرجال المتلهفين إلى تدمير الغزاة الإنجليز الوقحين، رغم أن الرب على ما يبدو يقوم بذلك فعلاً بالمرض.

غمغم ويل بتذمر:

- فلنتغلب عليهم.

قال توم سكارليت مقترحًا:

- أو فلندعهم يحتفظون بهذه المدينة اللعينة، إنها كومة من الروث الآن.

وتساءل هوك: وماذا لو فشلت الهجمة؟ ماذا لو لم تسقط هارفليه؟ إذن ستبحر بقايا جيش الملك هنرى عائدة إلى إنجلترا مهزومة. إن الحملة التى بدأت جيدة جدًا بعتاد حرب كامله من الرايات والأمل قد صارت الآن دماءً وبرازًا ويأسًا.

من المدينة بدأ عازف بوقٍ آخر يعزف نفس المقطوعات الهازئة. كان السير چون يسير متبخترًا فى اتجاه العودة تجاه رماته فالتفت وسب المدافعين.

– أريد ابن الحرام الحقير هذا مقتولاً! أريد قتله!

صرخ بالكلمتين الأخيرتين بصوت عالٍ كفاية ليسمعه كل رجل فرنسى.

بعد ذلك تسلق رجل على حين غرة قمة السور. لم يكن عازف البوق الذى استمر يرسل نغماته من خلف السور، لم يكن الرجل على الحائط مسلحًا ووقف ولَوَّح بكلتا يديه إلى الإنجليز.

وقف الرماة وبدأوا يسحبون أوتار أقواسهم، صاح السير چون:

– لا! لا! لا! لا! أنزلوا الأقواس! أنزلوا الأقواس! أنزلوا الأقواس!

اضطربت نغمة البوق وانخفض صوتها ثم توقفت. رفع الرجل على السور يديه الخاويتين عاليًا فوق رأسه. لقد انتهى كل شىء بشكل معجز ومدهش ومفاجئ.

لم يكن جنود حامية هارفليه يريدون الاستسلام ولكن أهل المدينة عانوا بما فيه الكفاية، كانوا جوعى. حطمت القذائف الإنجليزية منازلهم وحرقتها، انتشر المرض، ورأوا الهزيمة حتمية وعلموا أن الأعداء المنتقمين سيغتصبون بناتهم وأصر مجلس المدينة على استسلامها، والحامية لا تستطيع أن تطيل القتال دون دعم رجال المدينة الذين يطلقون السهام من على الأسوار ودون الطعام الذى تعده النساء.

طلب السير دى جاكورت الذى قاد الدفاع هدنة لثلاثة أيام يمكنه أن يرسل فيها رسولاً إلى ملك فرنسا، ليعرف إن كان سيرسل قوة لمساعدة المدينة أم لا، وإذا لم تكن هناك قوة فسيستسلم شريطة ألا ينهب الجيش الإنجليزى المدينة ويغتصبها. وافق الملك هنرى فاجتمع القساوسة والنبلاء عند مقدمة بوابة ليور وجاء القادة من المدينة وأقسموا كلهم بأغلظ الأيمان على الالتزام بشروط الهدنة وبعد ذلك، وبعد أن أخذ الملك هنرى رهائن تأكيدًا على التزام الحامية بتعهداتها، ركب مناد وسار بالقرب من الأسوار وصاح بالفرنسية على أهل المدينةً الذين كانوا يشاهدون الحدث:

- لا تخشوا شيئًا، إن ملك إنجلترا لم يأت لتدميركم! نحن مسيحيون صالحون وهارفليه ليست سواسون! لا تخشوا شيئًا.

تصاعد الدخان من المدينة، ليكسو سماء آخر الصيف بدا غريبًا أن المدافع لا تطلق نيرانها، والمجانيق لا تطلق قذائفها بصوتها المكتوم وأن القتال قد توقف، ولكن الموت لم يتوقف لا تزال الجثث تحمل إلى النهر وتُلقَى لطيور النورس، وبدا أن المرض بلا نهاية.

ولم تكن هناك قوة إمدادٍ فرنسية.

إن الجيش الفرنسى يحتشد إلى الشرق، ولكن جاءت رسالة أنه لن يزحف ليرفع الحصار عن هارفليه ولذا فى يوم الأحد التالى، عيد القديس فينسنت(٣٨) استسلمت المدينة.

---

(٣٨) القديس فينسنت (Saint Vincent): وُلد القديس فينسنت ببلدة ساراجوسا بأسبانيا فى القرن الثالث. رسمه القديس فاليرياس أسقف ساراجوسا شماسًا له، وأرسله رغم صغر سنه ليعظ ويرشد الشعب. وكان حاكم أسبانيا فى ذلك الوقت واسمه "دايكان" رجلاً شريرًا. حين أصدر الامبراطور دقلديانوس وماكسيميان المرسومين الثانى والثالث ضد المسيحية فى سنة ٣٠٣م، قام داكيان بقتل ثمانى عشر مسيحيًا فى ساراجوسا كما اعتقل القديسان فاليرياس وفينسنت. بعد فترة قصيرة أرسلهما إلى فالنسيا وهناك أرسلهما الحاكم إلى السجن حيث عانيا من الجوع الشديد والتعذيب والإهانة، واعتقد الحاكم أن هذه العذابات سوف تهز ثباتهما، ولكنه دهش عندما أحضروهما أمامه إذ وجدهما ثابتين فى فكريهما وجسديهما، مما جعله يعاقب حراسه على=

أقيم سرادق كبيرٌ على جانب التل خلف المعسكر الإنجليزى ووضع العرش تحت مظلةٍ، وأسدل عليه قماش مذهب، وضعت الرايات الإنجليزية علىً جانبى السرادق الذى امتلأ بالنبلاء وقد ارتدوا أفضل ملابسهم، حمل رجل خوذة الملك الكبيرة عاليًا. يحيطها تاج ذهبى، بينما اصطف الرماة على جانب الممر الطويل الذى يمر عبر حجارة أعمال الحصار إلى البوابة المحطمة التى قاومت كثيرا من الهجمات، وخلف الرماة وقف بقية جيش الملك هنرى شهودًا على ما يحدث فى هذا اليوم.

=عدم قسوتهم معهما كما أمرهم. تحمل فينسنت عذابات كثيرة لا يستطيع أحد احتمالها، وعلى الرغم من هذه الآلام فإنه كان يحتفظ بهدوئه وسلامه مما أدهش مضطهديه، بينما كان الغضب والكدر الذى يشعر به الحاكمِ واضحًا فى رجفة أطرافه ولمعان عينيه وعدم ثبات صوته. عُلِّق القديس على خشبة وأخذوا يقطعون لحمه بخطاطيف حديدية، وكلما ازداد ثبات قلبه وسلامه الداخلى. ألقوه الحراس فى الزنزانة وتركوه مُلقى على الأرض يُعانى من جراحه. أراحه الله من عذاباته إلى الأبد، وكان استشهاده فى سنة ٣٠٤م. حين علم داكيان بموته، أمر بإلقاء جسمه فى وسط المستنقعات، ولكن غرابًا حفظ الجسد من الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة، ويقال أيضًا بأن جسده وُضع فى شوال وأُلقى به فى البحر ولكن اثنين من المسيحيين وجداه وأخذاه إلى الشاطئ. (المترجم).

جلس ملك إنجلترا على عرشه فى صمت متوجًا بتاج ذهبى بسيط يرتدى معطفًا بالشعار الملكى للجيش الفرنسى. كان يشاهد وينتظر وربما يتساءل عما يجب عليه أن يفعله بعد ذلك؟ لقد جاء إلى نورماندى وفاز بهذا الاستسلام، لكن هذا النصر كلفه نصف جيشه.

كان هوك عند بوابة ليور حيث يقود السير چون قوة من عشرة جنود وأربعين راميًا، يرتدى درعه المعدنية المستديرة. نظيفة ولامعة ويمتطى حصانه العظيم المسمى (لوسيفر) الذى انسدل عليه غطاء كتانى براق يحمل شارة نبالة السير چون؛ إنها شارة الأسد المصنوعة من الخشب الملون وقد أطلت بوحشية من خوذة السير جون. ارتدى الجنود أيضًا دروعهم، وارتدى الرماة معاطف جلدية طويلة وسراويلهم المبقعة وحمل كل رماة الأسهم حبالاً خشنة من النوع الذى قد يستخدمه فلاح ليقود بقرته إلى السوق، قال السير چون لرماته:

– عاملوهم بلطف، لقد حاربوا جيدًا! إنهم رجال!

قال ويل بصوت منخفض، لكن ليس منخفضًا كفاية:

– كنت أظنهم كلهم ضراطين لعاقى غائط.

أدار السير چون حصانه (لوسيفر) وقال:

- إنهم كذلك! لكنهم حاربوا مثل الرجال الإنجليـز! لـذا عاملوهم مثل الرجال الإنجليز!

كان جزء من السور الجديد قد حُطِّم، وبعد حديث السير چون مباشرة خرج من الفتحة ثلاث دزيناتٍ من الرجال، تلقوا أمرًا بالاقتراب من ملك إنجلترا حفاة مرتدين ستراتٍ وسراويل كتانيةٍ بسيطة، كانوا متوترين وهم يسيرون ببطء وحذرٍ نحو الرماة المنتظرين.

أمر السير چون:

- الأنشوطات.

عقد هوك وباقي الرماة عقد الأنشوطات بالحبال. أشار السير چون إلى أحد حملة الدروع، وأعطاه لجام حصانه، ثم هبط من فوق سرجه المرتفع، ربت على أنف (لوسيفر) ثم سار تجاه الرجال الفرنسيين المقتربين.

انفرد بأحد الرجال، كان طويلاً ذا أنف معقوفٍ ولحيةٍ سوداء قصيرة، كان شاحبًا وخمن هوك أنه مريض لكنه أرغم نفسه على قيادة الرجال الفرنسيين خارج المدينة، ليحتفظ بما بقى له من كرامة. أشار الرجل الملتحى لرفاقه لينتظروا بينما

اقترب وحده من السير جون. وقف الرجلان تفصل بينهما خطوة، بدا الرجل الإنجليزى عظيمًا فى درعه،ودلائل نبالته سيفه المصقول ودرعه المتلألئة بينما يرتدى الرجل الفرنسى ملابس متواضعة على غير مقاسه منحها له الملك هنرى، رفع السير جون مقدمة خوذته وقال شيئًا لم تلتقطه أذنا هوك ثم تعانق الرجلان.

رفع السير جون ذراعه اليمنى على كتف الرجل الفرنسى واصطحبه تجاه الرماة، وقال معلنًا:

- هذا هو السير دى جاكورت، قائد أعدائنا فى الأسابيع الخمسة الماضية، ولقد حارب بشجاعة! وهو يستحق أفضل من هذا ولكن أوامر ملكنا لا بد أن نطيعها، هوك، أعطنى الأنشوطة.

أمسك هوك الأنشوطة، ورمقه الرجل الفرنسى بنظرة إجلال، وأحس هوك بضرورة أن يومئ برأسه فى اعتراف بالاحترام.

قال السير جون بالفرنسية:

- أنا آسف.

قال راؤول دى جاكورت بخشونة:

- هذا ضرورى.

تساءل السير چون:

- أهو كذلك؟

قال دى جاكورت:

- يجب أن نُذَل لتعلم بقية فرنسا المصير الذى ينتظرهم إذا قاوموا ملككم.

وابتسم ابتسامةً شاحبةً ثم ألقى نظرةً على الجيش الإنجليزى الذى ينتظر ليشاهده يسير بإذلال إلى عرش الملك، واستطرد:

- لكننى أشك أن ملككم يملك من القوة ما يخيف به فرنسا، هل تسمى هذا انتصارًا، يا سير چون؟

تساءل وهو يشير إلى السور المحطم الذى دافع عنه بشجاعة. لم يجبه السير چون، وبدلاً من ذلك رفع الأنشوطة ليضعها حول رأس دى جاكورت، ولكن الرجل الفرنسى أخذها منه وقال:

- اسمح لى.

ووضع الحبل على رقبته.

وضعت الحبال على رقاب الرجال الفرنسيين وبعد ذلك عاد السير چون يمتطى سرج فرسه (لوسيفر) وقد أحس بالرضا. أومأ إلى دى جاكورت ثم اندفع بفرسه بطول الممر بين الجنود الإنجليز الذين وقفوا يراقبون ما يحدث.

سار الرجال الفرنسيون فى الممر صامتين، كان بعضهم تجارًا عجائز، بينما أغلبهم جنودًا، كانوا شبابًا أقوياء. هؤلاء هم الفرسان والمواطنون، الرجال الذين تحدوا ملك إنجلترا وقد التفت الأنشوطات حول أعناقهم تعلن أن حيواتهم تحت رحمة الملك هنرى الآن. تسلقوا جانب التل وركعوا فى ذل عند العرش المغطى بقماش مذهب. حدق بهم الملك هنرى لفترة طويلة. هز الهواء الرايات الحريرية وقد حمل الدخان من حطام المدينة. انتظر النبلاء الإنجليز المحتشدون متوقعين أن يعلن الملك حكم الموت على الرجال الراكعين، قال الملك هنرى:

– أنا الملك الشرعى لهذه الأنحاء ومقاومتكم كانت خيانة.

بدت نظرة ألم على وجه دى جاكورت لفترة وجيزة، وتجاهل اتهامه بالخيانة ورفع بدلاً من ذلك مجموعة سميكة من المفاتيح الثقيلة وقال:

– مفاتيح هارفليه يا مولاى، هى لك.

لم يأخذ الملك المفاتيح المعروضة، وقال بعبوس:

- إن مقاومتكم كانت ضد القوانين البشرية وضد قانون الرب.

كان بعض التجار العجائز يرتعدون خوفًا، وأحدهم جرت الدموع على وجهه، واستطرد الملك هنرى بتعالٍ:

- ولكن الرب رحيم.

وأخذ المفاتيح أخيرًا، واستطرد:

- ونحن سنكون رحماء ولن نهدر دماءكم.

تعالى الهتاف الفرح من الجيش الإنجليزى عندما رفع شعار صليب القديس چورچ على المدينة، وفى اليوم التالى سار هنرى ملك إنجلترا حافيًا إلى كنيسة القديس مارتين ليقدم الشكر للرب على النصر رغم أن العديدين ممن شاهدوا حجه المتواضع قدروا أن نصره كان هزيمة مقنعة. لقد أضاع الكثير من الوقت عند أسوار هارفليه، ومزق المرض جيشه وموسم التخييم قد انتهى تقريبًا.

تحرك الجيش الإنجليزى إلى داخل الأسوار. أحرقوا مخيمهم وسحبوا مجانيقهم ومدافعهم عبر البوابة المحطمة، قسم

رجال السير چون أنفسهم إلى أربع مجموعات فى صف من المنازل والحانات والمخازن خلف السور المجاور للميناء، حيث وجد هوك مكاناً فى الطبقة العليا لحانة تدعى (الطاووس)، قالت ميليساند تشرح له:

- الطاووس هو طائر له ذيل كبير.

ومدت ذراعيها عن آخرهما.

قال هوك:

- ليس هنالك طائر له ذيل بهذه الضخامة.

قالت ميليساند فى إصرار:

- الطاووس.

قال هوك:

- لا بد أنه طائر فرنسى إذن وليس إنجليزيا.

وهارفليه الآن إنجليزية، يرفرف على برج كنيستها المتهدم شعار صليب القديس چورچ وأهل المدينة الذين عانوا كثيرًا يعانون المزيد الآن.

لقد تم نفيهم، فقد حكم الملك بإعادة تسكين المدينة بمواطنين إنجليز كما حدث فى كاليه. ولإفساح مكانٍ للسكان الجدد، اقتيد أكثر من ألفين من الرجال والنساء والأطفال من المدينة، حُمِل المرضى على عربات، وسار الباقون، وحرس مائتى رجل إنجليزى من راكبى الخيول تَقَدُّم هذا الصف الحزين بطول الضفة الشمالية لنهر السين. كان الجنود الإنجليز هناك لحماية اللاجئين من أهل بلادهم الذين قد يسرقونهم أو يغتصبونهم، قادهم الجنود بينما سار الرماة على جانبهم.

كان هوك أحد الرماة وقد اجتمع ثانية مع حصانه المخصى الأسود المسمى (راكر) الذى كان حصانًا شكسًا ويحتاج إلى كبح جماحه دومًا، بعد غسيل معطف هوك صار شعار صليب القديس چورچ الأحمر باهتًا، وأصبح أقرب إلى اللون الوردى، تحت معطفه كان يرتدى معطفًا آخر ذا دروع جيدة أخذه من جثة فرنسية ووقاء للرأس والكتفين أعطاه له السير چون وفوق الوقاء كان يضع الآن خوذة مغلقة أخذها من جثة أخرى، والخوذة المغلقة هى خوذة ذات حواف عريضة صممت لتدفع أى نصل متجه إلى الأسفل للانحراف. ومثل بقية الرماة ثنى هوك حافة الخوذة من الجانب الأيمن ليعطى مساحة لوتر قوسه عندما يسحبه إلى مداه الأقصى، سيفه معلق على

خصره وقوسه داخل جعبته معلق على كتفه بينما جعبة سهامه معلقة على الجزء الخلفى المقوس من سرجه. عن يمينه تلألأ النهر بضوء الشمس وضاق خلف اللاجئين، وعلى يساره جرد جامعو المؤن الإنجليز المرج من قطعانه وخلف هذه المراعى لا تزال غابات التلال مترعة بأوراق نهاية الصيف اليانعة، بقيت ميليساند فى هارفليه ولكن الأب كريستوفر أصر على أن يصحب اللاجئين، كان يمتطى حصان السير چون العظيم المدعو (لوسيفر)، أراد السير چون أن يتدرب حصانه وسعد الأب كريستوفر أن يقوم بالمهمة، قال له هوك:

- ما كان يجب أن تأتى أيها الأب.

- أأنت طبيب الآن يا هوك؟

- من المفترض أن ترتاح يا أبتى.

قال الأب كريستوفر بسعادة:

- ستكون هناك راحة كافية فى الجنة.

كان ما زال شاحبًا، لكنه عاد يأكل ثانية، كان يرتدى رداء القساوسة وهو شىء صار يفعله كثيرًا منذ تعافيه، قال القسيس بجدية واضحة:

- لقد تعلمت شيئاً أثناء ذلك المرض.

- نعم، وماذا كان ذلك؟

- لن يكون هناك غائط فى الجنة يا هوك.

ضحك هوك:

- ولكن هل سيكون هناك نساءٌ أيها الأب؟

- بوفرة أيها الشاب هوك، ولكن ماذا لو أن كلهن نساءٌ صالحات؟

- أتعنى أن سيئات الخلق كلهن سيكن فى الدرك الأسفل مع الشيطان يا أبتى؟

قال الأب كريستوفر بابتسامة:

- هذا ما يقلق ولكننى واثق أن الرب سيقوم بالترتيبات الملائمة.

ابتسم ابتسامةً عريضةً سعيدًا أنه لا يزال حيًا ويمتطى الحصان تحت شمس سبتمبر جوار سياج مثقلٍ بالتوت البرى، تردد صرير طائر الصفرد[٣٩] من التلال، وبعد الفجر مباشرة

---

(٣٩) طائر الصفرد (Corncrake): طائر صغير يألف حقول الحنطة. (المترجم).

عندما أُجبِر الأهالى المعترضون على ترك هارفليه، ظهر أيل علىٍ طريِق روون متألقًا فى قرونه الجديدة، واعتبر هوك ذلك فألاً حسنًا لكن الأب كريستوفر تطلع إلى الفروع القائمة لشجرة الدردار الميتة واعتبر ذلك فأل سوء وقال:

- إن عصافير السنونو تحتشد مبكرًا.

قال هوك:

- إذن سيكون شتاء سيئًا.

- ذلك يعنى نهاية الصيف يا هوك وتنتهى معــه آمالنــا وسنختفى مثل طيور السنونو هذه.

- عائدين إلى إنجلترا؟

قال القس بحزن:

- وإلى الإخفاق وخيبة الأمل. إن لدى الملك ديونًا واجبة السداد لن يستطيع الوفاء بها، لو عاد بنصرٍ إلى الوطن فلن يكون ذلك مهمًا.

قال هوك:

- لقد انتصرنا أيها الأب لقد استولينا على هارفليه.

قال الأب كريستوفر:

- لقد استخدمنا مجموعة من الكلاب الذئبية لقتل أرنب بري وهناك بالخارج...

وأشار برأسه جهة الشرق واستطرد:

- هناك مجموعة أكبر بكثيرٍ من كلاب الصيد تحتشد.

ظهر بعض من أفراد هذه المجموعة الأكبر عند منتصف النهار. توقفت مقدمة صف اللاجئين فى بعض المروج جوار النهر والآن تتزاحم مؤخرة الصف خلفهم، ما أوقف تقدمهم كان مجموعةً من فرسان العدو الذين سدوا الطريق الذى يؤدى إلى بوابة المدينة المسورة، كان أهل المدينة يراقبون ما يحدث من فوق الأسوار والعدو يرفع راية واحدةً فقط، راية بيضاء كبيرة عليها نسر أحمر مزدوج الرأس يفرد مخالبه الطويلة. كان الجنود يرتدون زى القتال، تتلألأ دروعهم اللامعة تحت المعاطف الزاهية والقليلون الذين كانوا يرتدون الخوذات، يرفعون مقدمات خوذاتهم، علامة واضحة أنهم لا يتوقعون أى قتال. خمن هوك أن هناك مائةً من أفراد العدو وأنهم هنا ضمن هدنة مرتبة لاستلام اللاجئين الذين أُخِذوا إلى روون على أسطول من المراكب الكبيرة التى كانت ترسو على الضفة

الشمالية من النهر قال الأب كريستوفر وهو يحدق فى النسر المرتسم على الراية التى ترفرف بها الريح التى يجلبها النهر:

- يا إلهى، إنه المارشال.

ورسم علامة الصليب على نفسه.

- المارشال؟

- چان دى مينچر، بوسيكول، مارشال فرنسا.

نطق الأب كريستوفر اسم الرجل وألقابه ببطء وصوته ينم عن إعجاب بالرجل الذى يرتدى شعار النسر ذى الرأسين.

قال هوك بابتهاج:

- لم أسمع عنه أبدا يا أبتى.

قال القس:

- إن فرنسا يحكمها رجل مجنون والأمراء لا يزالون شبابًا ومتهورين لكن أعداءنا لديهم المارشال، والمارشال رجل يخشى بأسه.

كان السير ويليام بورتر رفيق السلاح للسير چون كورنويل هو الذى يقود الحامية الإنجليزية وقد ركب الآن حاسر

الرأس ليحيى المارشال الذى حث حصانه بدوره تجاه السير ويليام. علا الرجل الفرنسى الضخم الذى يمتطى حصانًا طويلاً فوق الرجل الإنجليزى بينما تحدث الإثنان واعتقد هوك الذى كان يراقبهما من بعيد أنهما يتمازحان، وبناء على إشارة مهذبة من السير ويليام دفع المارشال بحصانه نحو القوات الإنجليزية. تجاهل المدنيين الفرنسيين وبدلاً من ذلك قاد حصانه ببطء إلى صف الجنود والرماة المتعرج.

لم يكن المارشال يرتدى خوذة، كان شعره بنيًا قاتمًا مقصوصًا بطريقةٍ فظة وقد وَخَطَ الشيب فوديه. وقد أطر هذا الشعر وجهه الذى يحمل مسحة من الضراوة أذهلت هوك، كان وجهًا مربعًا، فظًا به ندوب وكسور أكسبتها إياه المعارك والحياة لكنه وجه غير منهزم. وجه قاسٍ، وجه رجل، وجه محارب، له عينان قاتمتان مدققتان تفحصتا الرجال والخيول مستكشفتين أحوالهم، كان فمه مغلقًا فى عبوس لكنه ابتسم فجأة حين رأى الأب كريستوفر ورأى هوك فى ابتسامته رجلاً قد يُلهِم الآخرين الولاء العظيم والنصر، فقال المارشال وقد استطرف ما رأى:

- قس يمتطى حصانًا غير مخصى! نحن نجعل قساوستنا يمتطون خيولا أليفة هزيلة وليس أحصنة القتال!

أجاب الأب كريستوفر:

- لدينا نحن الإنجليز العديد من الأحصنة غير المخصية يا سيدى، يمكننا أن نتخلى عنها من أجل رجال الرب.

نظر المرشال بتعالٍ إلى (لوسيفر) وقال:

- حصان جيد، لمن هذا؟

أجاب القس:

- للسير چون كورنويل.

ابتهج المارشال:

- آه! هلا أبلغت السير چون المحترم تحياتى! أخبره أننى سعيد أنه زار فرنسا وأننى أرجو أن يحمل معه ذكريات رائعة وهو عائد إلى إنجلترا وأنه لسوف يحملها قريبًا جدًا.

ابتسم المارشال إلى الأب كريستوفر ثم تطلع إلى هوك باهتمام واضح ونظر إلى سلاح الرامى ودروعه قبل أن يمد يده المغطاة بقفاز الدرع المعدنية قائلاً:

- هلا منحتنى الشرف وأعرتنى قوسك.

ترجم الأب كريستوفر لهوك الذى فهم ما قيل على أى حال لكنه لم يبد ردة فعلٍ لأنه لم يكن واثقًا تمامًا مما يجب فعله، قال الأب كريستوفر:

- دعه يأخذ القوس يا هوك وأوتره أولاً.

أخرج هوك قامة القوس الضخمة من الجعبة ووضع طرفه السفلى على الناحية اليسرى من سرجه وعقد أنشطوته على طرفه العلوى. كان يستطيع أن يشعر بالقوة المطلقة لخشب السرو، أحيانًا يبدو له أن الخشب يصبح حيًا عندما يوتر القوس وكأنه يرتجف ترقبًا، كان المارشال لا يزال يمد يده ومد هوك القوس ناحيته.

قال بوسيكول بإنجليزية حذرة جدًا:

- إنه قوس كبير.

قال الأب كريستوفر:

- أحد أكبر الأقواس التى رأيتها، ويحمله رامى سهام قوى جدًا.

تبع المارشال دزينة من الجنود الفرنسيين وشاهدوه من على بعد خطواتٍ قليلة وهو يمسك القوس بيده اليسرى ويجرب

أن يشد الوتر بيده اليمنى ارتفع حاجباه فى دهشة من أجل المجهود الذى يحتاجه جذب الوتر ونظر إلى هوك نظرة تقدير، وعاد ينظر إلى القوس. تردد ثم رفع القوس وكأن على وتره سهمًا متخيلاً وأخذ شهيقًا ثم شد الوتر.

راقبه الرماة الإنجليز بنصف ابتسامةٍ مدركين أن راميًا مدربًا وحده يستطيع سحب وتر قوس كهذا إلى مداه الكامل. وصل الوتر إلى نصف مداه وتوقف ثم جذبه بوسيكول مرة أخرى إلى الخلف، حتى وصل إلى فمه ورأى هوك المجهود على وجه الرجل الفرنسى لكن بوسيكول لم يكن قد انتهى بعد. عبس عبوسًا بسيطًا وشد مرة أخرى وأخذ القوس يتحرك إلى الخلف حتى وصل إلى أذنه اليمنى وأبقاه مفتوحًا على مداه الأقصى ونظر وحاجباه مرفوعان إلى هوك.

لم يستطع هوك منع نفسه من الضحك وفجأة هتف الرماة الإنجليز يحيون المارشال الفرنسى الذى بدت على وجهه سعادة غامرة وأرخى قبضته ببطء وأعطى القوس إلى هوك الذى ابتسم ابتسامة عريضة وهو يأخذه منه وانحنى انحناءة بسيطة وهو على سرجه وصاح بوسيكول:

- أيها الرجل الإنجليزى، هاك!

وألقى بعملةٍ إلى هوك وسار بحصانه وهو لا يزال يبتسم فى سعادةٍ عبر صفٍ الرماة الذين صفقوا استحساناً.

قال الأب كريستوفر وهو يبتسم:

- لقد أخبرتك أنه رجل.

قال هوك وهو يحدق فى العملة:

- رجلٍ سخيٍ.

كانت عملة ذهبية فى حجم الشلن وخمن هوك أنها تعادل راتب عام كامل. دفع العملة الذهبية فى جرابه الذى يحتوى رؤوس سهام احتياطيةٍ وثلاثة أوتار احتياطية.

وافقه الأب كريستوفر بقوله:

- رجل سخيٌ طيب، لكنه ليس بالرجل الذى تتخذه عدوًا.

اقتحم صوت حديثهما قائلاً:

- وكذلك أنا.

والتفت هوك على سرجه ليرى ذلك الجندى الذى يتبع المارشال، كان السير دى لانفيريل الذى مال على مقدمة سرجه محدقاً إلى هوك.

تطلع إلى إصبع هوك المقطوع وبدا شبح ابتسامة على وجهه:

- هل أصبحت صهرى الآن؟

قال هوك:

- لا يا سيدى.

وعَرَّف الأب كريستوفر بالمتحدث لانفيريل.

أمعن الرجل الفرنسى النظر إلى القس.

- لقد كنتَ مريضًا أيها الأب.

وافقه الأب كريستوفر بقوله:

- نعم، كنت كذلك.

- أهذا هو حكم الرب؟ أضرب برحمته جيشكم كعقابٍ لإثم ملككم؟

تساءل الأب كريستوفر بلطف:

- إثم؟

قال لانفيريل:

- بقدومه إلى فرنسا.

ثم اعتدل فى سرجه. كان شعره مدهونًا بالزيت يتدلى ناعمًا لامعًا وفاحم السواد حتى خصره المحاط بحزام سيف فضى. لوجهه وسامةٌ لافتةٌ ببشرة تضاعفت سمرتها مما جعل عينيه تبدوان أكثر بريقًا.

- ورغم ذلك، أتمنى أن تبقى فى فرنسا يا أبتى.

- أهذه دعوة؟

ابتسم لانفيريل فبدت أسنانه شديدة البياض.

- إنها كذلك! كم لديكم من الرجال الآن؟

أجاب القسيس بابتهاج:

- عددنا كعدد حبات الرمال على شاطئ البحر، وكثيرون كالنجوم فى قبة السماء، وعديدون كالبراغيث العاضة بين فخذى عاهرة فرنسية.

قال لانفيريل الذى لم تخل عليه كلمات القس المتحدية:

- وبنفس الخطورة، كم عددكم؟ أقل من عشرة آلاف الآن؟ وسمعت أن ملككم يرسل الرجال المرضى إلى الوطن

قال الأب كريستوفر:

- إنه يرسل الرجال إلى الوطن لأن لدينا ما يكفى لنفعل ما يريد، أيا كان ما يجب فعله.

تساءل هوك كيف علم لانفيريل أن المرضى يُرسَلون إلى الوطن ثم توقع أن الجواسيس الفرنسيين يراقبون هارفليه من التلال المحيطة وربما شاهدوا النقالات التى حُمِلت إلى السفن الإنجليزية التى تمكنت أخيرًا من الدخول إلى الميناء المسور.

قال لانفيريل:

- وملككم يجلب الإمدادات ولكن كم عدد رجاله الذين يجب أن يتركهم فى هارفليه لحماية أسوارها المحطمة؟ ألف؟

وابتسم ثانية وأضاف:

- يا له من جيشٍ صغيرٍ أيها الأب.

قال الأب كريستوفر:

- ولكنه على الأقل يحارب بينما ينعس جيشكم فى روون.

قال لانفيريل وقد اكتسى صوته بقسوة مفاجئة:

- ولكن جيشنا يبلغ عدده حقًا عدد البراغيث بين فخذى عاهرة باريسية.

واستجمع لجام حصانه واستطرد:

- أتمنى أن تبقى يا أبتى وتأتى إلى حيث ستتغذى البراغيث على الدماء الإنجليزية.

أومأ إلى هوك:

- أوصل تحياتى إلى ميليساند وأعطها أيضًا شيئًا آخر.

واستدار على سرجه وقال بالفرنسية:

- چان تعال.

جاء نفس تابعه ذى الوجه الكئيب الذى كان يحدق فى ميليساند فى الغابة عند هارفليه. ركض نحو سيده، وانصياعًا لأوامر لانفيريل، نزع معطفه المدرع من على رأسه، أخذ السير لانفيريل الثوب المزين بالشمس المتألقة والصقر الفخور وطواه إلى شكل مربع وألقاه إلى هوك، وقال:

- إذا حدثت معركة فأخبر ميليساند أن ترتدى هذا، ربما يكون كافيًا لحمايتها. سيؤسفنى موتها أتمنى لكم يومًا طيبًا.

ثم قاد حصانه خلف المارشال.

تجمعت الغيوم فى اليوم التالى وتراكمت فوق البحر وتكاثرت ببطء لتصنع سحابة داكنة فوق هارفليه. كان الرماة منشغلين فى عمل إصلاحات مؤقتة لخروقات السور، يشيدون سياجًا من أوتادٍ خشبيةٍ قويةٍ ستكفى كنوع من الدفاعات حتى يأتى البناءون من إنجلترا لإعادة بناء المتاريسِ جيدًا. كان الرجال لا يزالون يسقطون مرضى، والشوارع المحطمة أنتنت من القاذورات التى تتسرب إلى نهر ليزارد الذى عاد مرة أخرى يجرى حرًا فى قناةٍ حجريةٍ تقطع المدينة نحو المرفأ الضيق الذى صارت رائحته كالمجارير.

بعث الملك برسالة تحد إلى ولى عهد فرنسا يعرض محاربته وجهًا لوجه، ويرث المنتصر منهما تاج فرنسا من الملك المجنون تشارلز، قال السير چون كورنويل:

- لن يقبل.

كان السير چون قد أتى ليشاهد الرماة وهم يثبتون جذوعًا خشبية فى الأرض لتدعيم سياج الأوتاد الخشبية الجديد.

- إن ولى العهد ابن زنا سمين وكسول وملكنا هنرى مقاتل، سيكون الأمر كذئب يقاتل خنزيرًا صغيرًا.

تساءل توماس إيڤل-جولد:

- وإذا لم يوافق ولي العهد على القتال يا سير چون

قال السير چون في ضيق:

- سنذهب إلى الوطن على ما أظن.

كان هذا هو الرأى السائد فى الجيش، إن النهار يغدو أقصر ويزداد برودة وستهطل أمطار الخريف عما قريب مما يعنى انتهاء موسم التخييم، وحتى لو أراد الملك هنرى استمرار الحملة فإن جيشه صغير جدًا والجيش الفرنسى ضخم جدًا وقد أوضح الرجال ذوو الوعى، والرجال ذوو الخبرة أن الأحمق فقط هو من يجرؤ على مقاومة هذا الحشد، قال السير چون:

- لو أن لدينا ستة أو سبعة آلاف رجل آخر لجرؤت على القول أن بإمكاننا أن ندمى أنوفهم اللعينة، لكن ليس لدينا ذلك. سنترك حامية لتحافظ على هذا الثغر القذر، وسيبحر بقيتنا إلى الوطن.

استمرت الإمدادات العسكرية فى الوصول، لكن عددها لم يكن كبيرًا. لا تقترب حتى من تعويض من مات أو سقط فريسة المرض لكن المراكب جلبتهم إلى الميناء العفن وهبط الوافدون الجدد على المعابر ليحدقوا بعيون متسعة إلى الأسطح المتهدمة

والكنائس المحطمة والأحجار المتناثرة، أخبر السير جون رجاله:

- سيعود أغلبنا إلى الوطن قريبًا ويمكن للقادمين الجدد أن يدافعوا عن هارفليه.

كان يتحدث بحدة. لم يكن الاستيلاء على هارفليه كافيًا ليعوض الأموال التى أنفقت والأرواح التى ضاعت. سرت الشائعات أن السير جون يريد المزيد وكذلك الملك، لكن كبار اللوردات الآخرين جميعًا، والأمراء الملكيين، وكل دوق، وكل إيرل، والأساقفة وكل ربان، كلهم نصحوا الملك بالعودة إلى الوطن.

قال توماس إيڤل-جولد لهوك ذات مساء:

- ليس هناك خيار.

عقد كبار اللوردات مجلس الحرب مع الملك محاولين تهدئة طموحه، وانتظر الجيش قرار المجلس. كانت أمسية جميلة ترسل الشمس الغاربة فيها ظلالها بطول المرفأ. جلس هوك وإيڤل-جولد على طاولة خارج حانة (الطاووس) يشربان الجعة التى جلبت من إنجلترا لأن مصانع الجعة فى هارفليه قد دمرت كلها، قال إيڤل-جولد:

- علينا أن نعود إلى الوطن.

وبدا واضحًا أنه يفكر فى النقاش الحار الذى حمى وطيسه ولا شك فى قاعة الاجتماع جوار كنيسة القديس مارتين.

قال هوك مقترحًا:

- ربما نبقى كجزء من الحامية.

قال إيفل-جولد بحدة:

- بحق المسيح، لا!

ثم رسم الصليب على نفسه، واستطرد:

- ذلك الجيش الفرنسى الكبير اللعين؟ سيستعيدون هـذه المدينة دون جهد يذكر! سيتغلبون على سياجنا فى ثلاثة أيام ثم يقتلون كل رجلٍ هنا.

لم يقل هوك شيئًا. كان يراقب مدخل الميناء الضيق عندما وصلت سفينةٌ تندفع بقوة مجاديفها الضخمة لأن الرياح قد هدأت إلى ما يشبه الهمس، حامت النوارس فوق صارى السفينة الوحيد وأبراجها المزخرفة بفخامة، قال إيفل - جولد وهو يشير إلى السفينة:

- إنها السفينة المسماة (الروح القدس).

كانت (الروح القدس) سفينة جديدة شُيِّدَت بأموال الملك لتدعم جيشه الغازى ولكنها الآن تعمل بشكل رئيس فى نقل الرجال المرضى إلى الوطن فى إنجلترا. اقتربت رويدًا من المرفأ. استطاع هوك أن يرى الرجال على سطحها لكن عددهم لم يكن حتى يقارب من أحضرتهم السفينة فى رحلتها السابقة وخمن هوك أنهم ربما يكونون آخر الإمدادات التى ستصل.

قال إيفل–جولد:

– إن ألفًا وخمسمائة سفينة أحضرتنا إلى هنا ولكننا لـــن نحتاج كل هذا العدد للعودة إلى الوطن.

ضحك بمرارة.

– يا لها من مضيعةٍ لصيفٍ لعين.

تلألأت الشمس، وانعكست أشعتها من على زخارف برجى السفينة (الروح القدس). حدق الركاب من على متنها إلى الشاطئ. قال إيفل – جولد:

– أهلاً بكم فى نورماندى، هل ستعود امرأتك إلى إنجلترا؟

– ستعود.

– أظنكما ستتزوجان؟

- أظن أننا سنفعل.

- افعل ذلك فى إنجلترا يا هوك.

- ولماذا إنجلترا ؟

- لأنها بلد الرب، وليست مثل هذا المكان الملعون.

قدم قادة الرماة والجنود إلى المرسى ليستكشفوا إن كان أىّ من القادمين الجدد ينتمى إلى مجموعاتهم. كان أحدهم قائد رماة اللورد سلايتون؛ ويليام سنوبول الذى حيا هوك بلطف. قال هوك :

- لقد أدهشتنى رؤيتك هنا يا سيد سنوبول.

- لماذا؟

- من يقوم بمهام الإشراف على الضيعة بينما أنت هنا؟

- چون ويليتس يمكنه التصرف جيدًا من غيرى، وقد أراد فخامته أن آتى.

تدخل إيفل – جولد:

- ذلك لخبرتك.

وافقه سنوبول قائلاً:

– نعم، الأمر كذلك وقد أراد فخامته أن أراقب...

وتردد.

– حسناً، أنت تعلم.

تساءل هوك:

– السير مارتين؟ ولماذا بحق اسم الرب أرسله إذن؟

أجاب سنوبول بحدة:

– ما السبب فى رأيك؟

مثل هوك وكأنه يقطع رقبته بخنجر.

– أهذا ما يتمناه؟

قال سنوبول بغموض:

– لقد أراده أن يرعى أرواحنا.

وبعدها، ربما ظناً منه أنه أفضى بأكثر مما يجب، سار مبتعداً على رصيف المرفأ.

راقب هوك، السفينة (الروح القدس) وهى ترسو مقتربة وتساءل:

– هل نتوقع أى رجال جدد؟

- لا نتوقع أحدًا على حد علمى، لم يقل السير چون شيئًا.

قال هوك:

- إنه ليس سعيدًا.

- لأنه مجنون، ملتاث، معتوه كأرنب برى.

وفكر توماس إيڤل – جولد لوهلة واستطرد:

- إنه يريد أن نزحف إلى فرنسا! جنون! يريدنا أن نموت جميعًا! ولكن كل هذا عادى بالنسبة إليه.

- عادى!

- إنه لن يُقتل، أليس كذلك؟ ماذا سيحدث لو زحفنا إلى فرنسا بحثًا عن معركة؟ إن النبلاء لا يُقتَلون يا هوك، إنهم يأخذون أسرى ولكن أحدًا لن يفتديك أو يفتدينى ستذبح يا هوك بينما يُقتَاد سيادتهم إلى إحدى القلاع المريحة ويطعمون ويأتى إليهم بعاهرات. إن السير چون لا يبالى. إنه يريد الحرب فقط، لكنه يعلم أننا لن نبقى أحياء حتى نهاية المعركة، لا بد أن يفكر فينا.

شرب إيڤل–جولد جعته واستطرد:

- لكن هذا لن يحدث، سنكون كلنا فى الوطن بحلول يوم عيد القديس مارتين.

قال هوك:

- إن الملك يريد الزحف.

قال إيفل - جولد باستخفاف:

- إن الملك يستطيع العد، مثلك ومثلى ولن يواصل التقدم.

قذفت الحبال من السفينة (الروح القدس) ليتلقفها الرجال على الشاطئ وببطء وعناد وقفت السفينة الضخمة فى المرسى، أنزلت المعابر ثم عدا القادمون الجدد بسرعةٍ إلى الشاطىء وقد بدوا نظيفين بشكل غير عادى. كانوا حوالى ستين راميًا، كلهم يحملون أقواسهم فى أجربتها وجعاب السهام وحزمها. بدا شعار صليب القديس چورج على معاطفهم زاهيًا جدًا. نزل قس من أقرب المعابر وجثا على ركبتيه على رصيف الميناء ورسم علامة الصليب، ومن خلفه أربعة رماة يرتدون شعار الهلال والنجوم الخاص باللورد سلايتون، كان لأحدهم شعرٌ ذهبيٌ ناعمٌ يتقافز من تحت حافة خوذته، لم يصدق هوك ما رآه للحظةٍ، ثم نهض وصاح:

- مايكل! مايكل !

كان هذا أخاه الأصغر، رآه مايكل وابتسم ابتسامة عريضة. قال هوك موضحًا لإيفل-جولد:

- أخي.

ثم تقدم ليقابل مايكل. تعانقا، قال هوك:

- يا إلهي، إنه أنت.

نادى ويليام سنوبول اسم مايكل لكن هوك استدار إلى وكيل الضيعة الإقطاعية قائلاً:

- سيأتي عندما يكون مستعدًا يا سيد سنوبول، أين ستجتمعون؟

أخبره سنوبول على مضض بالمكان، ووعده هوك أن يجلب أخاه، ثم أخذ مايكل إلى الطاولة وصب له قدحًا من الجعة. تركهما توماس إيفل-جولد وحدهما، تساءل هوك:

- يا إلهي، ماذا تفعل هنا؟

قال مايكل وهو يبتسم ابتسامة عريضة:

- لقد أرسل اللورد سلايتون آخر رماته، لقد قــدر أنكــم جميعًا فى حاجة إلى المساعدة، أنا لم أكن أعلم حتى أنك هنا!

ثم تبادلا ما فات كلاً منهما من أخبار الآخر، قال هوك: إن روبرت بيريل قد قُتِل فى الحصار رغم أنه لم يقل كيف حدث هذا وأخبره مايكل كيف ماتت جدتهما، ولم يؤثر الخبر فى هوك قيد أنملة، قال:

- لقد كانت عجوزًا قاسية عاهرة.

قال مايكل:

- لقد اعتنت بنا، رغم كل شىء.

- لقد اعتنت بك، وليس بى.

ثم أتت ميليساند من الحانة وقدمها هوك الذى أحس سعادة مفاجئة غامرة لم يعتدها. إن أكثر اثنين يحبهما معه، لديه مال فى محفظته وبدا كل شىءٍ جيدًا. إن الحملة على فرنسا قد تنتهى، وتنتهى قبل إحراز نصرٍ كبير، لكنه ظل سعيدًا وقال لمايكل:

- سَأسأل السير چون إن كان بإمكانك الانضمام إلينا.

قال مايكل:

- لست أظن اللورد سلايتون يسمح بهذا.

- نعم، يمكننا أن نحاول، حسناً.

تساءل مايكل وهو يرغب فى مزيدٍ من المعرفة:

- إذن ماذا سيحدث هنا.

قال هوك:

- أظن أن بعض أولاد الحرام المساكين سيتركون هنا لحماية هذه المدينة وبقيتنا سيعودون إلى الوطن.

عبس مايكل:

- نعود إلى الوطن، لكننا وصلنا للتو هنا!

- هذا ما يقوله الناس. إن اللوردات يحاولون اتخاذ قرار الآن، لكن هذا الوقت من العامِ متأخر جدًا للزحف إلى داخل هذه البلاد، وبجانب هذا فالجيش الفرنسى ضخمٌ جدًا. سنعود إلى الوطن.

قال مايكل عابسًا:

- أتمنى ألا يحدث هذا، لم آت كل هذه المسافة لأعود إلى الوطن مرة أخرى. أريد أن أحارب.

قال هوك:

- لا، أنت لا تريد ذلك.

أدهشه ما قال وأدهش ميليساند كذلك وتطلعت إليه بفضول.

- لا أريد؟

قال هوك:

- الحرب دم، ورجال ينادون أمهاتهم، والكثير من الصراخ والألم وأولاد الحرام فى دروعهم المعدنية يحاولون قتلك.

بوغت مايكل وقال باضطراب:

- لقد قالوا إننا سنطلق السهام عليهم فقط.

- نعم، ستفعل ولكن فى نهاية الأمر يا أخى عليك أن تقترب، تقترب بما يكفى لترى أعينهم، تقترب بما يكفى لتقتلهم.

قالت ميليساند بشكل قاطع:

- ونيكولاس يجيد هذا.

قال هوك:

- لا يمكن لكل رجلٍ أن يفعل هذا.

وتوقع أن مايكل بطبيعته الطيبة الواثقة يفتقر إلى القسوة التى تجعله يقترب ويرتكب الذبح.

قال مايكل بتفكر:

- ربما معركة واحدة فقط، معركة ليست كبيرة جدًا.

أخذ هوك أخاه مايكل إلى المدينة عند غروب الشمس. كان رجال اللورد سلايتون قد وجدوا منازل قريبة إلى بوابة مونتقيلس، وقاد هوك أخاه إلى هناك ومنها إلى ساحة منزل تاجر حيث تجمع الرماة. صمت رفاقه القدامى عندما ظهر الأخوان هوك. لم يكن هناك ما يدل على وجود السير مارتين، ولكن توم بيريل كان جالسًا يستند إلى حائط، حزينًا ومكتئبًا، وحدق إلى الأخوين هوك دون أن يبدو على وجهه أى تعبير. شعر سنوبول أن مشكلة ستقع فوقف.

أعلن هوك بصوت جهورى:

- إن مايكل سيصحبكم وأراد السير چون كورنويل أن تعلموا أن أخى تحت حمايته.

لم يقل السير چون شيئًا كهذا ولكن لن يدرك أحد من رجال اللورد سلايتون ذلك.

ضحك توم بيريل ضحكة ساخرة لكنه لم يقل شيئًا، وقف ويليام سنوبول أمام هوك وقال موافقًا:

- لن تكون هناك أى مشاكل.

ردد صوت آخر نفس الجملة:

- حقًا، لن تكون هناك أى مشاكل!

والتفت هوك ليرى السير إدوارد ديروينت، قائد اللورد سلايتون، الذى أسر فى النفق، يقف عند مدخل الفناء. لقد أُطلِق سراح السير إدوارد عندما استسلمت المدينة، وتوقع هوك أنه كان ولا شك فى مجلس الحرب لأنه كان يرتدى أفضل ملابسه. أوسع السير إدوارد الخطى الآن نحو منتصف الفناء. قال ثانية:

- لن تكون هناك أى مشاكل! لن يقاتل أى منكم الآخر لأن مهمتكم هى قتال الفرنسيين!

قال سنوبول فى ارتباك:

- ظننت أننا سنذهب إلى الوطن.

قال السير إدوارد:

- حسناً، لن تذهب إلى الوطن، إن الملك يريد المزيد وما يريده الملك يحدث.

تساءل هوك بلهجة غير مصدقة:

- سنبقى هنا؟ فى هارفليه؟

قال السير إدوارد:

- لا يا هوك، سنتقدم.

بدت فى نبرة صوته حدة وكأنه لا يوافق على هذا القرار، ولكن هنرى هو الملك كما قال السير إدوارد، وما يريده الملك يحصل عليه.

وما أراده الملك هنرى هو المزيد من الحرب.

لذا سيزحف الجيش إلى داخل فرنسا.

الجزء الثالث

إلى نهر السيوف

كان عليهم ألا يأخذوا عربات مؤنٍ ثقيلة أثناء الزحف، وبدلاً منها سيحمل المؤنَ الرجالُ، وأحصنة الجر والحمل، والعربات الخفيفة. أوضح السير چون:

- علينا أن نسافر بسرعة.

وقد قال الأب كريستوفر مخبرًا هوك فيما بعد:

- إنه التفاخر، لا شيء سوى الفخر.

- الفخر؟

- لا يستطيع الملك أن يزحف عائدًا إلى إنجلترا دون شيءٍ في مقابل أمواله سوى هارفليه، عليه أن يفعل أكثر من أن يركل الكلب الفرنسى فقط، إنه يشعر بأن عليه أن يشد ذيله أيضًا.

لكن الكلب الفرنسى بدا نائمًا. قالت التقارير: أن الجيش الفرنسى يزداد ضخامةً، لكنه لا يبدى أى دلالة على التحرك من حول روون، ولذا قرر ملك إنجلترا أن يُظهِر للعالم المسيحى أنه

يستطيع الزحف من هارفليه إلى كاليه دون أن يواجه مقاومة، أخبر السير چون رجاله:

- إنها ليست بهذا البعد. ربما مسيرة أسبوع.

سأل هوك الأب كريستوفر:

- وماذا نستفيد من الزحف لأسبوعٍ عبر فرنسا؟

قال القس بحدة:

- لا شيء.

- وإذن لماذا نفعل ذلك؟

- لنظهر أننا نستطيع ذلك، ولنظهر أن الفرنسيين لا حول لهم ولا قوة.

- ونسافر دون عربات المؤن الكبيرة؟

تجهم الأب كريستوفر.

- لا نريد للفرنسيين الذين لا حول لهم ولا قوة أن يلحقوا بنا، أليس كذلك؟ سيكون ذلك كارثةً أيها الشاب هوك! ولذا لا يمكننا أن نأخذ مائتى عربة مؤنٍ ثقيلة

معنا فهى ستبطئ تحركنا كثيرًا جدًا، ولذا سنأخذ الخيول، وندفعها للركض، وليأخذ الشيطان من يتباطأ.

اندفع السير چون كالعاصفة إلى حانة (الطاووس)، ودق على أحد البراميل بمقبض سيفه، وقال لرجاله:

– هذا مهم، أأنتم يقظون؟ أتنصتون؟ ستأخذون طعامًا يكفى ثمانية أيام! وكل ما يمكنكم حمله من السهام! ستأخذون الأسلحة، والدروع، والسهام، والطعام، ولا شىء آخر! لو رأيت أى رجلٍ يحمل أى شىءٍ آخر غير الأسلحة، والدروع، والسهام، والطعام، فسأدفع بهذه الأمتعه العديمة الجدوى فى فمه اللعين حتى أستخرجها من دبره اللعين! علينا أن نسافر بسرعة!

قال الأب كريستوفر مخبرًا هوك فى الصباح التالى:

– لقد حدث كل هذا من قبل.

– من قبل؟

– ألا تعرف تاريخك يا هوك؟

– أعرف أن جدى قد قتل وكذلك والدى.

قال القس:

- لكم أُحِبُ عائلةً سعيدةً كهذه، ولكن ارجع بتفكيرك إلى زمن جدك الأكبر، عندما كان إدوارد هو الملك؛ إدوارد الثالث[١] لقد كان هنا فى نورماندى، وقرر السير إلـــى كاليه بسرعة، ولكنه حوصر فى منتصف الطريق.

- ومات؟

- أوه، يا إلهى، لا، لقد هزم الفرنـــسيين! لقــد ســمعتَ بالتأكيد عن كريسى!

قال هوك:

- أوه، لقد سمعتُ عن كريسى!

(١) إدوارد الثالث (Edward III): ١٣ نوفمبر ١٣١٢-٢١ يونيو ١٣٧٧، هو ابن الملك إدوارد الثانى والملكة إيزابيلا من فرنسا. بعد وفاة والده أصبحت أمه الوصية عليه لمدة ثلاث سنوات، حكم بعدها إنجلترا من عام ١٣٢٧ حتى وفاته. اشتهر بانتصاراته العسكرية وتعزيزه لقوة إنجلترا بعد الانتكاسات فى عهد والده، وفى عام ١٣٣٧، أعلن أنه الوريث المستحق لحكم فرنسا.وبدأ حروبًا بين إنجلترا وفرنسا عرفت بعد ذلك بحرب المائة عام. (المترجم).

- ويعلم كل رامى سهام عن كريسى؛ وهى المعركة التى قلص فيها رماة إنجلترا عدد النبلاء الفرنسيين.

- إذن أنت تعرف يا هوك أنها كانت معركة مجيدة، وقد فضل الرب فيها الإنجليز، ولكن عطف الـــرب شـــىءٌ متقلب.

- هل تقول لى إنه ليس فى جانبنا؟

- أنا أقول لك إن الرب فى جانب من يفوز يا هوك.

فكر هوك فى ذلك لوهلة. كـــان يـــشحذ رؤوس الـــسهام العريضة، والحادة، والخناجر على صـــخرة، فكـــر فـــى كـــل القصص التى سمعها وهو صغير، والرجال العجائز يتحـــدثون عن عواصف السهام فى كريسى وبواتييه، ورفع رأس سهمٍ حادٍ تجاه الأب كريستوفر، وقال بشجاعة:

- إذا قابلنا الفرنسيين فسنفوز، سنخرق دروعهم بهذه يـــا أبتى.

قال القس بلطف:

- عندى إحساسٌ مفجعٌ أن الملك يتفق معك فى الـــرأى، إنه يؤمن حقًا أن الرب يقف إلى جانبه، ولكن أخـــاه لا يصدق هذا.

تساءل هوك:

- أى إخوته؟

فقد كان كل من دوق كلارينس ودوق جلوسستر[٢] مع الجيش.

قال الأب كريستوفر:

- كلارينس، لقد أبحر إلى الوطن.

عبس هوك عندما سمع هذه الأخبار، إن الدوق -حسبما سمع من بعض الرجال- أفضل فى مجال الجندية من أخيه

---

(٢) دوق جلوسيستر (Duke of Gloucester): هو لقب بريطانى يمنح عادة لابن الملك. منح لأول مرة عام ١٣٨٥ لتوماس من وودستوك الابن الثالث عشر للملك إدوارد الثالث. مُنِح اللقب ست مرات لطبقة النبلاء: أول أربعة فى إنجلترا، والخامسة فى بريطانيا العظمى، والأخيرة فى المملكة المتحدة. أما جلوسستر (Gloucester): هى مدينة وعاصمة مقاطعة جلوسسترشير فى إقليم جنوب غرب إنجلترا على نهرِ سيفيرن بالقرب من حدود إنجلترا مع ويلز علىٍ بعد حوالى ٣٢ ميلاً (٥١ كم) شمال شرق مدينة بريستول، ٤٥ ميلاً (٧٢ كم) جنوب غرب مدينة برمنجهام. أسسها الرومان سنة ٩٧ م، تحت حكم الامبراطور نيرڤا. تم إحياء ذكرى ما حدث عام ١٦٤٣، فى جلوسستر حيث تصدى الشعب للقوات الملكية فى أول حرب أهلية فى إنجلترا ليصبح عيدًا سنويًا يتم الاحتفال منذ عام ٢٠٠٩. (المترجم).

الأكبر، تفحص هوك أحد رؤوس السهام، لقد صار لون أغلب رؤوس السهام الطويلة قاتمًا بفعل الصدأ، لكن طرفها المدبب يلمع معدنه الآن ساطعًا وحادًا للغاية. اختبره بأن وخز به راحة يده ثم بلل أصابعه ومررها على الريش ليزيده نعومة.

- ولماذا رحل؟

قال الأب كريستوفر دون اكتراث:

- أظنه معترضٌ على قرار أخيه، من الناحية الرسمية بالطبع، الدوق مريض، لكن حالته تبدو جيدةً بشكلٍ ملحوظٍ بالنسبة إلى رجل عليل، وبالطبع إذا قُتِل الملك هنرى، لا سمح الرب، فإن كلارينس سيصبح الملك توماس.

قال هوك بقوة:

- إن ملكنا هنرى لن يموت.

قال القس بلهجةٍ لاذعة:

- إن هذا الاحتمال قوى جدًا إذا لحق بنا الفرنسيون، ولكن حتى ملكنا هنرى استمع إلى النصيحة، لقد قيل له بأن يعود إلى الوطن، وأراد هو الزحف إلى باريس

لكنه اختار كاليه بدلاً منها، وبعون الرب يا هوك علينا أن نصل إلى كاليه قبل أن يستطيع الفرنسيون أن يصلوا إلينا بوقتٍ طويل.

- أنت تجعل الأمر يبدو كأننا نهرب.

قال القس:

- ليس بالضبط، ولكن تقريبًا، فكر في حبيبتك ميليساند.

عبس هوك مرتبكًا:

- ميليساند؟

- إن الفرنسيين يحتشدون عند سرتها يا هوك، ونحن جاثمون على حلمة نهدها اليمنى، وما نخطط لنفعله أن نجرى إلى حلمة نهدها اليسرى، ونضرع إلى الرب ألا يصل الفرنسيون إلى النهر بين نهديها قبلنا.

- وإذا فعلوا؟

- إذن سيصبح ذلك النهر بين النهدين واديًا لظلال الموت، ولذا صَلِّ أن نزحف سريعًا وأن يستمر الفرنسيون في نومهم.

قال السير چون لرماته فى الخانة:

- لا تكونوا مزعجين، لا يمكننا أن نحزم السهام فى البراميل، لا يمكن أن نأخذ العربات لحمل البراميل! ولا يمكنكم استخدام الاسطوانات! ولذا حزموها، واربطوها جيدًا فى حُزم!

إن السهام المربوطة فى حزمٍ ينسحق ريشها، والريش المتحطم يجعل السهام غير دقيقة، ولكن ليس هناك خيارٌ سوى ربط السهام جيدًا فى حزمٍ يمكن تعليقها فى السرج، أو حملها على ظهور خيول الحمل والجر، وقد استغرق حزم السهام يومين، فقد طلب الملك أن يحملوا معهم خلال الرحلة كل سهمٍ متاحٍ، وهذا يعنى حمل مئات الآلاف من السهام، وقد كوموا ما يمكن تكديسه على العربات الزراعية الخفيفة التى سترافق الجيش، ولكن ليس ثمة عدد كاف من هذه المركبات، ولذلك حتى الجنود تلقوا أوامر أن يربطوا الحزم خلف سروجهم. هناك خمسة آلاف رامٍ فقط يزحفون إلى كاليه، ويمكن لهؤلاء الرجال أن يطلقوا ستين أو سبعين ألف سهمٍ فى دقيقةٍ واحدة، ولكن لا يمكن الفوز بمعركةٍ فى دقيقةٍ واحدة، دمدم توماس إيڤل-جولد بتذمر:

- إذا أخذنا كل سهمٍ نملكه، يظل ذلك غير كافٍ، وسنقذف أولاد الحرام بالحجارة بعد ذلك.

تُرِكَت حاميةٌ فى هارفليه؛ حاميةٌ قويةٌ تزيد على ثلاثمائة جندى وألف رامٍ تقريبًا، رغم نقص الخيول لديهم، لأن الملك طلب أن تتخلى الحامية عن أحصنتها وحيواناتها، عدا أحصنة النبلاء غير المخصية المدربة على الحرب. ثمة حاجةٌ إلى الخيول لحمل السهام، والمدافعون الجدد عن هارفليه قد تُرِكُوا فى وضع خَطِرٍ لنقص السهام لديهم، ولكن سهامًا جديدة من المتوقع أن تصل فى أى يومٍ من إنجلترا حيث يقوم حراس الغابات بقطع جذوع البلوط، وتشكل نيران الحدادين رؤوس السهام العريضة والحادة ويربط صانعو السهام عليها ريش الإوز. صاح قسٌ بصوتٍ مدوٍ:

- سنسير بسرعة!

زار القس - فى اليوم السابق على مسير الجيش - كل شارع فى هارفليه وفى يده رقعةً كتبت عليها أوامر الملك. إن مهمة القس التأكد أن كل رجلٍ قد فهم أوامر الملك.

- غير مسموح بالتباطؤ! تعد ملكية الكنيسة مقدسةً فوق كل شىء! سيُشنَق أى رجلٍ ينهب ممتلكات الكنيسة!

إن الرب معنا، ونحن نزحف لنُظهِر أننا بفضله أسياد فرنسا!

صاح السير چون عندما انصرف القسيس:

- أسمعتم، أبعدوا أيديكم التى اعتادت اللصوصية عن ممتلكات الكنيسة! لا تغتصبوا الراهبات! إن الرب لا يعجبه هذا وكذاك أنا!

وفى تلك الليلة جعل الأب كريستوفر من هوك وميليساند زوجًا وزوجةً فى كنيسة القديس مارتين(٣)، بكت ميليساند وركع

---

(٣) كنيسة القديس مارتين (Church of Saint Martin): بُنيت على الطراز الباروكى عام ١٧٦٥م، فى عهد الأمير يوهان فيليب فون انجلهايم فى ضاحية أوبيت ايراينباخ وهى إحدى ضواحى مدينة باد هومبورج منذ عام ١٩٧٢. انتقل المذبح الباروكى العالى والمذابح الجانبية من دير ضاحية البينشتات بعد إلغائه فى عام ١٨٠٨م، إلى الكنيسة ذات القيمة الفنية والتاريخية. أما عن القديس مارتين (Saint Martin): وُلد القديس مارتين فى بلاد المجر عام ٣١٦ م، وكان والده له منصب عالٍ فى جيش الإمبراطورة قسطنطين الكبير، إلا أنه لم يكن مسيحيًا بل كانَ وثنيًا. كان أكثر أصدقائه من المسيحيين يذهب معهم للأديرة ويسألهم عن معتقداتهم. صدر حينها أمر من القصر الملكى أن يلتحق بالجيش، فذهب هو وأصدقاؤه المسيحيون، فتعلم منهم الكثير وكان يساعدهم بقدر ما يستطيع من المال. عزم القديس مارتين على=

هوك على ركبتيه وحدق فى الشموع المرتعشة على مذبح الكنيسة متمنيًا أن يتحدث القديس كريسبينيان إليه، لكن القديس لم يقل شيئًا، وتمنى لو فكر فى استدعاء أخيه إلى الكنيسة، لكن لم تسنح الفرصة لذلك. لقد أصرّ الأب كريستوفر ببساطة على أن الوقت قد حان ليجعل هوك من ميليساند زوجته، ولذا أخذهما إلى الكنيسة المتهدمة القمة، قال القس بعد أن انتهت المراسم القصيرة :

- فليكن الرب معكما.

قالت ميليساند:

- إنه معنا.

=أن يصير مسيحيًا وبالفعل نال سر المعمودية. قرر حينها أن يترك الجيش، ولما قدم استقالته رفض قائده واتهمه بالخوف من دخول الحرب، فرد عليه بأنه سوف يدخل الحرب، على أنه إذا خرج من الحرب سالمًا يُسمح له بترك الجيش، فرتبت العناية الإلهية أن يعقد صلحًا مع الأعداء، وخرج مارتين من الجيش. ترك بلدته بعد فترة وسافر إلى فرنسا حيث أسس فيها ديرًا يُعَد الأول فى البلاد الغربية. رُسم أسقفا في سنة ٣٧٢ م، على مدينة تورز الفرنسية، وجعل مقر أسقيفيته كوخا من الخشب. وعندما قارب التسعين من عمره مرض قليلاً وأسلم الروح، ودُفن فى مدينة تورز بفرنسا. وتحتفل الكنيسة الغربية بعيده فى ١١ نوفمبر من كل عام. (المترجم).

- إذن فلتصليا أن يبقى معكما لأننا نحتاج عــون الــرب الآن.

استدار القس، وانحنى مثقلاً بالهموم على مذبح الكنيــسة، وأضاف بتشاؤم:

- بحق الرب، نحــن نحتــاج إلــى عونـــه، فقــد بــدأ البورجونديون الزحف.

تساءل هوك:

- لمساعدتنا؟

وبدا أن زمنًا طويلاً قد مر منذ ارتــدى شــعار صــليب بورجوندى الأحمر المتعرج وشاهد قوات فرنسا وهى ترتكــب مذبحةً فى المدينة.

قال الأب كريستوفر:

- لا، بل لمساعدة فرنسا.

بدأ هوك بالحديث قائلاً:

- ولكن...

ثم توقف وقد بدا التأثر على صوته. قال الأب كريستوفر:

- لقد سووا نزاعهم العائلى ومن ثم استداروا إلينا.

تساءل هوك:

- ورغم ذلك سنسير.

قال الأب كريستوفر بكآبةٍ:

- إن الملك مصر، إننا جيشٌ صغيرٌ علــى حافــة أرضٍ كبيرة.

وصمت هنيهةً ثم استطرد:

- ولكن على الأقل لقد ربطنا بينكما للأبــد ولا يــستطيع شيءٌ -حتى الموت- أن يفرقكما.

قالت ميليساند:

- شكرًا للرب.

ورسمت علامة الصليب على نفسها.

وفى اليوم التالى، الثلاثاء، الثامن من أكتوبر، يوم عيــد القديس بينديكت، تحت سماء صافية، تحرك الجيش.

تحركوا شمالاً بمحاذاة خط الساحل، وأحــس هــوك أن معنويات الجيش ارتفعت عندما غادروا مبتعدين عــن رائحــة

الغائط والموت. ابتسم الرجال ابتسامةً عريضةً دون سببٍ واضح، مازح الأصدقاء بعضهم البعض ببهجةٍ ووخز البعض بطون خيولهم وركضوا بها مبتهجين فقط أنهم قد خرجوا إلى الريف المفتوح ثانية.

قاد السير چون كورنويل مقدمة الجيش. كان رجاله على أول المقدمة، ولذا ركبوا فى بدايات الصف. رفرفت راية السير چون بين الراية التى تحمل شعار صليب القديس چورج والعلم الذى يحمل شعار الثالوث المقدس، وقام جنود السير چون بحماية حاملى الرايات الثلاث، يتبعهم أربعةٌ من قارعى الطبول الذين دقوا على طبولهم بلا توقف، ركب الرماة فى المقدمة يستطلعون الطريق، ويراقبون، بحثًا عن العدو الذى كان أول ظهورٍ له كمينًا، رغم أن أيًا من رجال السير چون لم يُصَب فيه. انتظر الفرنسيون حتى مرت مقدمة الجيش المسلحة جيدًا والمتيقظة، ثم هجموا من مدينةٍ محاطةٍ بالأسوار قريبة من الطريق تدعى "مونتڤيلس". أطلقَ رماةُ السهام أسهمهم من بين أشجار الغابات، وهاجمت مجموعةٌ من الجنود الصف، ووقع قتالٌ مضطربٌ قبل أن ينهزم المهاجمون الذين لا يبلغ عددهم خمسين رجلاً، ولكنهم تمكنوا من أسر نصف دزينةٍ من الأسرى وخلفوا وراءهم قتيلين إنجليزيين.

حدثت هذه المصادمة فى اليوم الأول، ولكن بعد ذلك بدا أن الفرنسيين قد عادوا إلى النوم، ولذا ركب الجنود الإنجليز دون أن يرتدوا دروعهم، وحملت أحصنة الجر معاطفهم ودروعهم. وقد أعطت الألوان المختلفة لراكبى الخيول مع الرايات المرفرفة فى مقدمة كل جماعةٍ منهم بهاءً، وقد ركبت النساء وغلمان الفرسان والخدم خلف الجنود يقودون خيول الحمل المثقلة بأحمالها من الدروع، والطعام، وحزم السهام الكبيرة. كان لجماعة السير چون عربتا حملٍ خفيفتين؛ حملت إحداهما بالطعام والدروع المعدنية وكدست الأُخرى بالسهام.
عندما استدار هوك فى سرجه رأى سحابةً من التراب تغشى التلال المنخفضة والغابات الكثيفة. لَوَّن الغبار مؤخرة الجيش الإنجليزى فى سيره الملتف عبر الأودية الصغيرة التى تقود إلى نهر سوم، وبالنسبة إلى هوك بدا أنه جيشٌ كبيرٌ لكنه فى الحقيقة كان مجموعةً مترابطةً يقل عددها عن عشرة آلاف رجلٍ، لكنها تبدو فقط أكثر عددًا لأن معهم أكثر من عشرين ألف حصان، انسحبوا من التلال الصغيرة الضيقة يوم الأحد إلى الريف الأكثر انفتاحًا وانبساطًا، وقد قال السير چون إنه يظن أن هذا هو اليوم الذى ينبغى لهم أن يصلوا فيه إلى نهر سوم، وأضاف أن هذا النهر

هو العقبة الرئيسة الوحيدة فى رحلتهم، وبعبور ذلك النهر يبقى لديهم بالكاد مسيرة ثلاثة أيام إلى كاليه. سأل مايكل هوك أخاه:

- إذن لن تكون هناك معركةٌ؟

كان رجال اللورد سلايتون أيضًا فى المقدمـــة، رغــم أن السير مارتين وتوماس بيريل بقيا بعيـــدَين عــن الـــسير چون ورجاله. قال هوك:

- إنهم ينفون ذلك، ولكن مِن يدرى؟

- ألن يوقفنا الفرنسيون؟

قال هوك وهو يومئ إلى الريف الخاوى أمامهم:

-لا يبدو أنهم يحاولون، أليس كذلك؟

كان هو وبقية رماة السير چون أمام الصف بنصف ميلٍ يقودونهم عبر الطريق إلى النهر، وقال مقترحًا:

- ربما سعد الفرنسيون لرؤيتنا نرحل فتركونا نفعل ذلك وحسب، ربما.

قال مايكل:

- لقد ذهبتَ من قبل إلى كاليه!

وقد أثار إعجابه أن أخاه الأكبر قد ســافر بعيــدًا، ورأى الكثير منذ آخر مرةٍ كانا فيها معًا.

قال هوك :

- مدينةٌ صغيرةٌ غريبةٌ، إنها سورٌ ضخمٌ وقلعةٌ عظيمـــةٌ وجمعٌ من المنازل، لكنها الطريق إلى الوطن يا مايكل، الطريق إلى الوطن!

قال مايكل بأسى:

- لقد أتيت إلى هنا فقط.

قال هوك:

- ربما نعود إلى هنا العام القادم وننهى مهمتنا، انظر!

وأشار بعيدًا أمامه إلى حيث يتلألأ بريقٌ من الضوء فــى بقع الأوراق البنية والذهبية والصفراء، واستطرد:

- ربما يكون هذا هو النهر.

قال مايكل مقترحًا:

- أو بحيرة.

قال هوك:

- نحن نبحث عن مكان يدعى بلانشتك.

قال مايكل وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً:

- إن لديهم أطرف الأسماء.

قال هوك:

- هنالك معبرٌ عند بلانشتك نعبره ونكون بخيرٍ كأننا فى الوطن.

استدار إثر سماع وقع حوافر خيلٍ صاخبةٍ آتيةٍ من خلفهم فرأى السير چون ونصف دزينةٍ من الجنود يهرعون نحوه. أبطأ السير چون من سرعة (لوسيفر)، كان السير چون حسير الرأس يرتدى معطفه المدرع وكان يتطلع إلى اليسار حيث يظهر البحر خلف نتوءٍ صخرىٍ منخفضٍ وسأل ببهجةٍ:

- هل ترى ذلك يا هوك؟

- سير چون؟

أشار السير چون إلى نتوءٍ أبيضٍ ضئيلٍ عند أفق البحر قائلاً بالفرنسية:

- الأنف الرمادية(٤) يا هوك؟

---

(٤) الأنف الرمادية (Gray Nose): وتسمى أيضًا (Cap Gris Nez) وهى رأس: أى أرض داخلة فى البحر فى شمال فرنسا، منحدراتها=

وكررها بالإنجليزية.

- وما ذلك يا سير چون؟

- لسانٌ بحريٌ يا هوك، يبعد نصف يومٍ من المسير فقط عن كاليه! أترى كم نحن قريبون؟

تساءل هوك:

- ثلاثة أيامٍ من المسير على ظهور الخيل؟

قال السير چون وهو يُمَسِّد شعر ظهر حصانه غير المخصى:

- يومان فقط على ظهرِ حصانٍ مثل (لوسيفر).

استدار لينظر إلى الريف القريب متسائلاً:

- أهذا هو النهر؟

=الصخرية هى أقرب نقطة لإنجلترا. من هذه الرأس وفى يوم صافٍ يمكن رؤية المنحدرات الصخرية البيضاء لدوڤر فى الشاطئ الإنجليزى. تتكون تربتها من الحجر الرملى، والطَفل، والطباشير؛ لونهم رمادى مما أعطى الرأس هذا الاسم. يوجد على قمة المنحدر أطلال القلعة الإنجليزية التى بناها هنرى الثامن فى بداية القرن السادس عشر. (المترجم).

- أظن ذلك يا سير چون.

- إذن بلانشتك لا يمكن أن تكون بعيدة! إنها المكان الذى عبر فيه إدوارد الثالث نهر سوم فى طريقه إلى كريسى، ربما كان جدك الأكبر معه يا هوك.

- لقد كان راعيًا يا سير چون ولم يجذب وتر القوس فى حياته أبدًا.

قال مايكل وقد بدا على صوته التوتر لأنه يتحدث إلى السير چون:

- كان يستخدم المقلاع.

قال السير چون وهو لا يزال يحدق فى اللسان البعيد:

- مثل داوود وجالوت، هاه؟ لقد سمعت أنك تزوجت فى الكنسية يا هوك!

- نعم يا سير چون.

قال السير چون وقد بدت فى صوته كآبة:

- إن النساء يحببن ذلك.

واستطرد وقد اكتسى صوته بالبهجة:

- ونحن نحب النساء، إنها فتاةٌ جيدةٌ يا هوك.

وحدق إلى الأرض أمامه، وقال:

- ليس ثمة رجلٌ فرنسيٌ لعينٌ على مرمى البصر.

قال مايكل بخجلٍ شديد:

- هنالك فارسٌ بالأسفل.

زمجر السير چون قائلاً:

- هناك ماذا؟

قال مايكل مشيرًا إلى مجموعة أشجارٍ على بعد ميلٍ أمامه:

- إلى الأسفل هناك، فارسٌ يا سيدى السير.

حدق السير چون ولم ير شيئًا، ولكن هوك استطاع الآن أن يرى الرجل الجالس على حصانه دون حراكٍ في الظلال القاتمة لأشجار غابةٍ مكسوةٍ بالأوراق، وأكد هوكٌ ما قاله أخوه:

- إنه هناك يا سير چون.

- إن ابن الحرام يراقبنا، هل تستطيع إزاحته يا هوك؟ ربما يعلم إذا كان الفرنسيون الملاعين يحرسون المعبر أم لا، لا تدفعه للهرب بعيدًا، أريده أن يستدرج إلينا.

تطلع هوك إلى الأرض عن يمينه باحثًا عــن المــساحة الخفية التى تمكنه من الالتفاف على الفارس دون أن يراه، وقال:

- أظننى أستطيع ذلك يا سير چون.

- افعلها يا رجل.

أخذ هوك معه أخاه، وسكويل اللندنى، وتوم ســكارليت، وقاد حصانه بعيدًا عن الفارس النصف مختبئ عائدًا تجاه الجيش المقترب، ثم نزل إلى منحدرٍ بسيط، أخذه بعيــدًا عــن مــرأى الرجل، بعد ذلك استدار إلى شرق الطريــق، وغمــز جــانبى حصانه (راكر) ليعدو به عبر المرج العشبى الممتد، كــانوا لا يزالون فى خفيةٍ عن عدوهم وأمام راكبى الخيل الأربعــة ثمــة أيكاتٌ وبعض الدغل، لم تكن للحقول هنا أسيجة، فقــط هنالــك قنوات الرى وقد تمكنت الخيل من القفز عليها بسهولة، والأرض مسطحة نسبيًا لكن بها قدر من المرتفعات والمنخفضات يكفــى لإخفاء الرماة الأربعة حيث استدار هوك شمالاً مرةً أخرى، ثمة رجلٌ عن يمينه يحرث حقلاً ويعانى ثوراه لــسحب المحــراث الكبير الذى انغرس نصله عميقًــا فــى الأرض، لأن الحنطــة الشتائية توضع بذورها عادةً عميقةً فى الأرض، صاح مايكل:

- إنه يحتاج إلى بعض المطر!

أجاب هوك:

- سيساعده ذلك.

صعدت الخيول المرتفع البسيط، وكشف المنظـــر الـــذى التقطه هوك فى رأسه عن نفسه. لم يستدر هوك إلى الغابة حيث كان الفارس مختبئًا، وإنما ظل متجهًا إلى الشمال ليقطع عليـــه الطريق إلى سوم، ربما رحل الرجل بالفعل بعيدًا؟ إنه فى أغلب الأحوال أحد الرجال النبلاء المحليـــين أراد أن يـــشاهد مـــرور العدو، لكن النبلاء يعلمون ما يحدث فيما يجاورهم من الأنحـــاء أكثر من الفلاحين، ولهذا أراد السير چون أن يستجوب الرجل. كان الحصان (راكر) متعبًا، ينفخ الهواء من منخاريـــه ويعانـــد قائده. كبح هوك جماح الحصان، وقال:

- الأقواس.

وأخرج قوسه من جرابه وأوتره بأن أسند أحد طرفيه إلى ركاب السرج.

قال توم سكارليت:

- ظننت أن علينا ألا نقتله.

قال هوك:

- إذا كان ابن الحرام هذا من النبلاء.

وقد قدر هوك أنه كذلك لأنه كان يمتطى صهوة جـواد، واستطرد:

- فسيكون متمرسًا على استخدام الـسيف وإذا هاجمتـه بسيف فسيضرب رأسك ولكنه لن يفضل مواجهة السهم، أليس كذلك؟

ووضع سهمًا على قامة القوس بإبهامه الأيسر. ربت هوك على رقبة حصانه (راكر)، ثم غمز الحصان إلى الأمام ثانيـة. إنهم يتجهون الآن إلى الغابة من الجانب البعيد للطريق، استطاع أن يرى السير چون وقد مكث على المرتفع الصغير غير راغبٍ فى دفع الرجل ليغادر مكمنه، لكن الرجل الفرنسى الوحيد اشتم رائحة الخطر أو أنه ببساطة شاهد الإنجليز المقتربين من مسافة كافيةٍ إذ كشف مخبأه فجأةً، وحث حصانه ليندفع شـمالاً تجـاه النهر. قال هوك:

- فليلعنه الرب.

رأى السير چون الرجل يندفع بحصانه بعيدًا وعلى الفور طارده هو وجنوده، ولكن الخيول الإنجليزية كانت متعبـة أمـا حصان الرجل الفرنسى فقد كان مرتاحًا. قال سكويل:

- ليس لديهم أى فرصةٍ للحاق به.

تجاهل هوك تلك الجملة المتشائمة، وأدار حصانه (راكر) بدلاً من ذلك وضربه بمهمازيه عائدًا، كان الرجل الفرنسى يتبع الطريق الذى ينحنى إلى اليمين، وكان بإمكان هـوك أن يعـدو بحصانه عبر قطر المنحنى، لكنه أدرك أنه لا يستطيع أن يتفوق على الرجل فى العدو بالحصان، ولذا بقى الأمر على حالـه أن ليس ثمة فرصةٌ للحاق به، ولكن لديه فرصةٌ أن يـتمكن مـن الاقتراب للدرجة التى تمكنه من استخدم القوس. استدار الرجـل على سرجه ورأى هوك ورجاله. ساط حصانه ليدفعه لمزيدٍ من الركض. غمز هوك حصانه هو الآخر. قدحت حـوافر الخيـل الشرر فى ركضها على الأرض الصلبة. رأى هـوك أن هـذا الهارب قد يختفى بين الأشجار فى أى لحظةٍ، ولذا شـد لجـام (راكر) وسحب قدميه من الركاب، ورمى نفسه من فوق السرج. تعثر ونزل على إحدى ركبتيه، والقوس مرفوعٌ بالفعل فى يـده اليسرى. وأمسك بالوتر. وضع السهم وشده إلى الخلف.

قال سكويل وهو يكبح جماح حصانه:

- إنه بعيدٌ جدًا، لا تهدر سهمًا جيدًا.

وافقه مايكل قائلاً:

- بل أكثر من بعيد جدًا.

ولكن القوس كان ضخمًا ولم يفكر هوك فى هدفـــه، لقــد شاهد الفارس البعيد وحسب، وانعقدت مشيئته؛ إلـــى أى مكـــان يرغب هو للسهم أن يذهب، ثم سحب الـــوتر وأطلـــق الـــسهم. أصدر الوتر رنين اهتزازه، ولسع فى ارتداده هذا رسغ هـــوك غير المحمى بالوقاء، واهتز السهم فى طيرانه للحظة قبـــل أن يلتقط ريشه الهواء فيعتدل طيرانه منطلقًا فى رحلته.

قال توم سكارليت:

- أراهن ببنسين على أن سهمك لن يصله بمقدار عشرين خطوة.

طار السهم رحلته المقوسة فى السماء وقد قلـــل ريـــشه الأبيض من اهتزازه فى الضوء الخريفى. عدا الفـــارس البعيـــد بحصانه غير مدرك للسهم ذى الرأس العريض الذى طار عاليًا قبل أن يبدأ هسهسة هبوطه. هبط السهم بسرعةٍ كأنه يغطس وقد بدأ يفقد قوة انطلاقه واستدار الرجل الفرنسى مرةً أخرى ليـــرى مطارديه، وفى استدارته ضرب السهم الحـــاد بطـــن الحـــصان مخترقًا الدم واللحم. تلوى الحصان فجأةً بعنفٍ من الألم المروع، ورأى هوك الرجل يفقد توازنه ويسقط من علَى السرج.

قال مايكل بإعجابٍ خالص:

- يا عيسى الحبيب.

قال هوك:

- هيا!

واستجمع لجام (راكر)، وجذب نفسه على السرج، وركل كفل حصانه قبل أن تجد قدماه الركاب، وللحظةٍ ظن أنه سيوقع نفسه، لكنه تمكن من دفع قدمه اليمنى فى الركاب. رأى الرجل الفرنسى يعود إلى امتطاء حصانه، لقد جرح هوك الحصان ولم يقتله، ولكن الحيوان كان ينزف لأن السهم ذا الرأس العريض مصممٌ ليشق ويقطع عبر اللحم، وكلما دفع الرجل الفرنسى الحيوان للركض؛ نزف دمًا أكثر.

استحث الفارس حصانه الجريح ليتوارى بين الأشجار، وبعدها بدقيقةٍ كان هوك على الطريق وبين نفس الأشجار، ورأى الرجل الفرنسى أمامه على بعد مائة خطوة وحصانه يترنح مخلفًا وراءه خطًا من الدماء. رأى الرجل مطارديه فنزل من على سرجه، لأن حصانه لن يستطيع أن يمضى أكثر من ذلك. استدار ليركض إلى داخل الغابات، فصاح هوك بالفرنسية:

- لا!

وترك حصانه (راكر) يبطئ من ركضه حتى توقف. سحب هوك قوسه. وضع سهمًا آخر على الوتر وجذبه. وجه

السهم إلى الفارس الذى أومأ برأسه دلالةً على الاستسلام. كـان يرتدى سيفًا لكنه لم يكن يرتدى أى دروع، وحين اقترب هـوك أكثر لاحظ أن ملابسه تبدو من نوعية جيدة، بزته الخارجيـة[٥] جيدة ويرتدى قميصًا من الكتان جيد النسيج وحـذاءً ثمينـا ذا رقبة. بدا رجلاً حسن المظهر، ربما يبلغ الثلاثين من العمر، له وجه عريض ولحية مشذبة وعينان خضراوان شاحبتان ثبتهمـا الآن على رأس السهم، قال هوك:

- ابق فقط حيث أنت.

ربما لا يتحدث الرجل الإنجليزية، لكنه فهم الرسالة التى يحملها القوس المشدود وسهمه ذا الرأس الحاد، ولذا أطاع وهو يربت على أنف حصانه المحتضر. صهل الحـصان صـهيلاً شجيًا، ثم انهارت ساقاه الأماميتان، وسقط على أرض الطريق. جثا الرجل وربت على حصانه المحتضر متحدثًا إليه بلطف.

صاح السير چون عندما وصل:

- لقد كدت تجعله يهرب يا هوك!

---

(٥) استخدم الكاتب لفظة (Broad Cloth) وهى ملابس انتشرت فى إنجلترا فى القرون الوسطى كانت تصنع من الصوف أو الحرير أو القطن، الجزء العلوى محكم على الجسد والجزء السفلى عبارة عن بنطال واسع قصير. (المترجم).

- تقريبًا، يا سير چون.

قال السير چون:

- لذا دعنا نرى ما الذى يعرفه ابن الحرام هذا.

وانزلق من على سرجه وطلب إلى رماته:

- ليقتل أحدٌ هذا الحصان المسكين! خلصوا هذا الحيوان من معاناته!

تمت هذه المهمة بضربةٍ من الفأس الحربية إلــى جبهــة الحصان، ثم تحدث السير چونَ مع الأسير، وتعامل مع الرجــل بتهذيبٍ رائعٍ، وكان الرجل الفرنسى بدوره ثرثارًا، ولكن مما لا شك فيهِ أن أيًا كان ما باح به للسير چونٍ فقد أثار فزع الــسير چون. استدار السير چون إلى الرماة قائلاً لهم:

- أريد حصانًا من أجل السير چول فسيقابل الملك.

أُخِذ السير چول إلى الملك، وتوقف الجيش. كانت مقدمــة الجيش تبعد خمسة أميالٍ فقط عن المعبر القائم عند بلانــشتك، وتبعد كاليه مسيرة ثلاثة أيامٍ شمالاً من ذلك المعبر، وخلال ثلاثــة أيامٍ من حينها؛ ثمانية أيامٍ منذ غادروا هارفليه، سيعبر الجــيش بوابات كاليه ويكون الملك هنري قادرًا على أن يــدعى علــى

الأقل أنه أذل فرنسا، إذا لم يدع نصرًا، ولكن هذا الخزى يعتمد على عبور المعبر الضيق عند بلانشتك.

كان الفرنسيون هناك بالفعل، كان تشارلز دو ألبرت؛ كونستابل فرنسا على الضفة الشمالية لنهر سوم، ووصف الأسير الذى عمل فى خدمة الكونستابل كيف زرع المعبر بأوتاد مستدقة وكيف ينتظر ستة آلاف رجل على الضفة البعيدة ليوقفوا عبور الإنجليز.

قال السير چون بكآبة فى ذلك المساء:

- لا يمكن أن نتم ذلك، إن أولاد الحرام هناك.

وقد سد أولاد الحرام النهر، وعندما حل الليل عكست السماء الغائمة نيران معسكر القوة الفرنسية التى تحرس معبر بلانشتك، وقد قال السير چون موضحًا:

- يمكن اجتياز المعبر فقط عندما ينحسر المد وحتى عندها يمكننا أن نتقدم فى كل صف عشرين رجلاً متجاورين ولن يستطيع عشرون رجلاً محاربة ستة آلاف.

لم ينطق أحدٌ لبرهة، ثم سأل الأب كريستوفر السؤال الذى يرغب كل واحدٍ فى مجموعة السير چون أن يسأله رغم أنهم يخشون إجابته:

- حسنًا وماذا سنفعل يا سير چون؟

- سنجد معبرًا آخر بالطبع.

- أصلى من أجل ذلك ولكن أين؟

قال السير چون بتجهم:

- فى العمق.

قال الأب كريستوفر:

- سنسير فى اتجاه السرة.

حدق السير چون إلى القسيس وكأن به مسًا من الجنون.

- لا شىء يا سير چون، لا شىء!

ولذا فإن على جيش إنجلترا الآن ومعه طعامٌ يكفيه لثلاثة أيام فقط أن يزحف متعمقًا داخل فرنسا ليعبر نهرًا، وإذا لم يتمكنوا من عبور النهر فسيموتون، وإذا عبروا النهر فربما يموتون أيضًا، لأن التعمق إلى الداخل سيستغرق وقتًا، والوقت

يمنح الجيش الفرنسى الفرصة ليستيقظ من سباته ويتحرك، لقد فشل الانطلاق من الساحل. والآن كان على الملك هنرى وجيشه الضئيل الدخول إلى عمق فرنسا.

وفى الصباحِ التالى، وتحت سماء كساها اللون الرمادى بكثافة، توجهوا شرقًا.

كان الأمل قد سرى فى الجيش يدعمه، ولكن اليأس تسلل إليه الآن، وعاد المرض يهاجمه، سار الرجال مترجلين طوال الوقت يركضون إلى جانب الطريق مسقطين سراويلهم القصيرة للتبرز، ولذا سارت مؤخرة الجيش وسط رائحة الغائط الكريهة. ركب الرجال وقد خيم عليهم الصمت والتجهم. هطلِ المطر فى نواتٍ قادمة من المحيط مجتاحًا عمق البلاد وتاركًا صف المسافرين مبتلاً يقطر ماء.

كان كل معبرٍ على امتداد النهر مراقبًا وهناك من يحرسونه، تم تحطيم الكبارى والجيش الفرنسى يتعقب الآن الجيش الإنجليزى. لم يكن هذا هو الجيش الرئيس، فلم يكن ذلك هو الحشد الكبير من الجنود ورماة السهام الذين تجمعوا فى

روون، ولكنها قوة أصغر تعد أكثر من كافيةٍ لتمنع أى محاولةٍ للعبور من أى معبرٍ محصن.

كان الجنود والرماة بادين فى مجال الرؤية كل يوم. كلهم فوق ظهور الخيل. يسيرون بطول ضفة النهر الشمالية ليبقوا خطوة بخطوة مع الجيش الإنجليزى الذى يتحرك على ضفته الجنوبية، وقد قاد السير چون أكثر من مرة رماةً وجنودًا فى عدوٍ سريعٍ بالخيول ليحاول السيطرة على معبر قبل أن يصله الفرنسيون، ولكن دائمًا كان الفرنسيون بانتظارهم، لقد وضعوا حامياتٍ عسكريةٍ عند كل معبر.

أصبح الطعام نادرًا رغم أن المدن الصغيرة غير المحاطة بالأسوار قدمت على مضضٍ سلالاً من الخبز والجبن والسمك المدخن بدلاً من أن تهاجم وتحرق، وكل يوم يزداد الجيش جوعًا ويزحف إلى عمقٍ أكبر داخل دولة العدو.

غمغم توماس إيڤل-جولد بتذمر:

- لماذا لا نعود إلى هارفليه وحسب؟

قال هوك:

- لأن ذلك يعد هروبًا.

قال إيڤل-جولد:

- ذلك أفضل من الموت.

كان الأعداء أيضًا على الجانب الإنجليزى من النهر، جنود فرنسيون يراقبون الطابور المار من قمم التلال المنخفضة إلى الجنوب، عادةً ما يكونون فى مجموعاتٍ صغيرة، ربما ستة أو سبعة رجال، وإذا ركبت ناحيتهم قوةٌ من الفرسان الإنجليز ينسحبون فى ثباتٍ رغم أنه بين الحين والآخر يرفع أحد أفراد العدو رمحه فى إشارةٍ إلى أنه يطلب نزالاً فرديًا، وربما عندها يستجيب له أحد الرجالٍ الإنجليز ويعدو كلا الرجلين بحصانيهما وترتفع قعقعة الرماح الحديدية على الدروع ويسقط أحد الرجلين ببطءٍ من على حصانه، وفى إحدى المرات ضرب كلا الرجلين الآخرِ بالرمح، ومات كلاهما وقد اخترق رمح الآخر دروعه، وأحيانًا تهاجم مجموعةٌ من الفرنسيين يبلغ عددها الأربعين أو الخمسين جنديًا نقطة ضعيفةً فى الطابور الزاحف ليقتلوا عددًا قليلاً من الرجال قبل أن يعدوا بخيولهم مبتعدين.

أما الرجال الفرنسيون الآخرون فانشغلوا بمقدمة الجيش، ينهبون الحصاد حتى لا يتركوا للغزاة شيئًا، نقل الطعام الذى جمع من المخازن والصوامع إلى أماينز؛ وهى مدينة سيدورون حولها فى اليوم الذى يجب أن يصلوا فيه إلى كاليه.

فرغت الحقائب التى كانت مملوءةً بالطعام. حدق هـوك وهو يمتطى صهوة جواده تحت رذاذ المطر الخفيف فى المشهد الأبيض البعيد لكاتدرائية أماينز[٦] التى ترتفـع شـامخة فـوق المدينة وفكر فى كل الطعام الموجود داخل الأسوار. كان جائعًا وكانوا كلهم جوعى.

عسكروا فى اليوم التالى قرب قلعةٍ تقف فوق قمة منحدرٍ طباشيرىٍ أبيض. أسر جنود السير چون اثنين من فرسان العدو الذين ضلوا طريقهم بالقرب من طليعة الجـيش، وقـد تبـاهى السجناء بالكيفية التى يمكن بها للفرنسيين أن يهزموا جيش الملك هنرى الصغير، بل إنهم كرروا تفاخرهم أمام الملك هنرى نفسه،

---

(٦) كاتدرائية أماينز (Amiens Cathedral): هى كاتدرائية رومانية كاثوليكية وهى مقر أسقفية أماينز. توجد فى فرنسا فى بيكاردى تطل على نهر سوم، وهى أطول كاتدرائية مكتملة فى فرنسا يصل ارتفاعها إلى ٤٢,٣٠ متر. تم بناؤها ما بين عامى ١٢٢٠ و ١٢٧٠، وسجلتها منظمة اليونسكو إرثًا عالميًا منذ عام ١٩٨١. ربما يكون نشب حريق بين عامى ١٢١٨ و١٢٥٨ فى أرشيف الكاتدرائية الذى أحرق الكنيسة نفسها، ولعل هذا هو السبب وراء ندرة الوثائق المتعلقة بتشييد الكاتدرائية. أرض الكاتدرائية عليها تصميمات كثيرة مثل الصليب المعقوف الذى يرمز إلى انتصار المسيح على الموت. وفى عام ١٢٨٨، وضع رأس چون المعمدانى فى الكاتدرائية. (المترجم).

وقد نقل السير چون أوامر الملك إلى رماته، وقف بين نيـــران مخيمهم، وقال:

- فى صباح الغد على كل رجل أن يقطع عصا بطـــول عصا القوس أو أطول إذا استطعتم، اقطع عصا بسمك ذراعك واجعل طرفيها مستدقين.

تساقط رذاذ المطر على النار مصدرًا صوتًا كالفحيح. أكل رماة هوك وجبةً هزيلةً من أرنب برى اصطاده توم ســكارليت بسهم، وشوته ميليساند على النـــار، وقـــد أحاطتهـــا بـــصخورٍ مفلطحة، وصنعت عليها كعكًا كثيفًا مـــن خلـــيطٍ مـــن حبـــوب الشوفان والجوز، كان لديهم قليلٌ من البنـــدق وبعـــض التفـــاح الأخضر القاسى. لم يتبق لديهم جعة ولا خمر، ولذا شربوا ماء من النهر. والآن، التفت ميليساند فى معطـــف هـــوك المـــدرع الضخم وربضت فى جواره.

تساءل إيڤل-جولد بحذر:

- عِصى؟

قال السير چون وهو يسير مقتربا من أكبر النيران:

- لقد قرر الفرنسيون -فلندع الـــرب أن يتعفنـــوا فـــى الجحيم- كيف يهزمونكم! أنتم رمـــاة الـــسهام! إنهـــم يخافونكم! أتنصتون جميعكم إلىّ؟

راقبه الرماة فى صمت. كان السير چون يرتـــدى قبعـــةً جلديةً، ومعطفًا جلديًا سميكًا، وقطرات المطر تتساقط من حواف القبعة وأطراف المعطف. حمل رمحًا قصيرًا من النـــوع الـــذى قُصَّ حتى يستطيع الجنود المشاة استخدامه، غمغم إيڤل-جولد:

- نحن منصتون يا سير چون.

قال السير چون معلنًا:

- لقد أرسلت تعليمات من روون طبقًا لخطة لدى مارشال فرنسا، والخطة هى أن يقتلكم، أنتم الرماة أولاً، ثم يقتل بقيتنا.

قال إيڤل-جولد، ولكن فى صوت خفيض للغايـــة، لكـــيلا يسمعه السير چون:

- تقصد أن يأخذ النبلاء أسرى.

قال السير چون:

- إنهم يجمعون الفرسان على خيولهم المدرعـــة جيـــدًا، وسيكون لدى ممتطيها أفضل ما يمكن أن يجـــدوا مـــن الدروع! وأنتم تعرفون الدروع الميلانية.

عرف هوك أن الدروع المصنوعة فى ميلان[٧] -أيا كان موقع ميلان هذه- ذات السمعة الأفضل فى العالم المسيحى. يقال بأن الدرع الميلانية تستطيع صد أقوى رؤوس السهام، ولكن من حسن الحظ أن هذه الدروع نادرةٌ، لأنها غاليةٌ جدًا. بلغ مسامع هوك أن بزةً كاملةً مدرعةً بدروعٍ ميلانيةٍ قد تكلفه قرابة المائة جنيه، وهو ما يفوق راتب رامى السهام لعشر سنين، وهى أيضًا كلفةٌ ثقيلةٌ بالنسبة إلى أغلب الجنود الذين يعدون أنفسهم أثرياء إذا حصلوا على أربعين جنيهًا فى العام.

---

(٧) ميلان (Milan): ميلانو (بالإيطالية) مدينة تقع شمالى إيطاليا معظم سكانها كاثوليك؛ هى ثانى أكبر مدن إيطاليا بعد روما. تعد العاصمة الاقتصادية للبلاد، كما أنها عاصمة إقليم لومبارديا أكبر أقاليم البلاد. هى أيضًا عاصمة لمقاطعة ميلانو، ومن أشهر المعالم التاريخية فيها الدوميو الذى يعتبر أحد أهم المبانى فى أوروبا وثالث أكبر كنيسة فيها. وبها قصر الكاستلو وهو قلعة عريقة. وهى واحدة من أهم المدن السياحية فى الاتحاد الأوروبى. أسس السلت هذه المدينة. احتلها الرومان عام ٢٢٢ ق.م، وأصبحت فيما بعد عاصمة الامبراطورية الرومانية الغربية منذ ٢٨٦ حتى ٤٠٢. غزى الفرنسيون ميلان بقيادة نابليون الأول عام ١٧٩٦، وجعلها عاصمة المملكة الإيطالية عام ١٨٠٥. (المترجم).

استطرد السير چون:

- إذن سيغطون خيولهم بالـدروع ويرتـدون الـدروع الميلانية ويهاجمونكم أنتم الرمـاة. إنهـم يريـدون أن يقتحموا صفوفكم بالسيوف والصولجانات.

أنصت الرماة باهتمامٍ الآن، متخيلين الخيـول الـضخمة بوجوهها المعدنية وجوانبها المغطاة وهى تدور وتـشب علـى قوائمها بين صفوفهم المذعورة.

- إذا أرسلوا ألف فارسٍ فستكونون محظوظين إذا أوقفتم مائة منهم، وسيذبحكم الباقون لكنهم لن يتمكنوا من ذلك لأنكم سيكون لديكم عِصى.

ورفع رمحه القصير ليريهم ما يعنى، ثم غرس مؤخرتـه فى الأرض المغطاة ببقايا النباتات العفنة، وأمال قامته فصارت قمته الحادة بارتفاع الصدر تقريبًا وقال لهم:

- ستغرسون العِصى فى الأرض وإذا هاجمتكم الخيـول فستطعنها هذه العصى، وهذه هى الطريقة التى توقفون بها رجلاً يرتدى الدروع الميلانية! ولذا فى صباح الغد ستقطعون كلكم عِصيًا. لكل رجـلٍ عـصا ولتجعلـوا أطرافها مستدقة.

تساءل إيڤل-جولد وفى صوته ريبة:

- غدًا يا سير چون؟ أهم بهذا القرب؟

قال السير چون:

- ربما هم فى أى مكان، ومنذ صباح الغد تركبون فى دروعكم ومعاطفكم الجلدية، ترتدون خوذاتكم وتحملون العِصى.

قطع هوك فى الصباح التالى غصنًا من شجرة بلوط، وشذب خشبه الأخضر بنصل فأسه، قال ويل بكآبةٍ:

- عندما غادرنا إنجلترا قالوا لنا إننا أفضل جيش على الإطلاق! والآن أوتارنا رطبة ونأكل كعك الجوز ونستخدم العِصى! العِصى اللعينة.

كان من الصعب حمل عصا البلوط الطويلة على ظهر الحصان، كانت الخيول متعبةً، ومبللةً، وجائعةً، وهطلت الأمطار ثانيةً بقوةٍ أكبر. أخذت تهب من خلفهم تضرب سطح النهر بالآلاف من قطرات الماء، والفرنسيون على الضفة البعيدة، دائمًا هم على الضفة البعيدة.

ثم جاءت الأوامر الجديدة من الملك، وانصرفت المقدمـــة مبتعدة عن النهر لتتسلق منحدرًا طويلاً رطبًا، يقود إلى مرتفعٍ واسعٍ من الأرض المسطحة الرطبة.

تساءل هوك عندما اختفى النهر من أمام بصره:

- إلى أين نحن ذاهبون الآن؟

قال الأب كريستوفر:

- الرب يعلم.

- ألم يخبرك أيها الأب؟

- هل يخبرك قديسك بشىء؟

- لا يتلفظ بكلمة.

قال الأب كريستوفر:

- إذن فالرب وحده يعلم أين نحن، الرب وحده.

كانت أرض المرتفع طينية، وقد استحال الطريق من فوره إلى مستنقعٍ من الطين تتساقط عليه الأمطار باستمرار. تزايدت البرودة، وكان فى المرتفع قليل من الأشجار مما يعنى ندرةً فى أخشاب الوقود. أحرق بعض الرماة فى مجموعةٍ أخرى عِصيهم

المشذبة أطرافها طلبًا للتدفئة فى الليل، توقف الجـيش ليـشاهد هؤلاء الرجال يُضرَبون بالسياط وقد قطعت أذنا قائدهم.

أحس الفرسان الفرنسيون باليأس الذى سرى فـى جـيش الملك هنرى، فصاروا يمتطون خيولهم إلى الجنـوب يتعقبـون الجيش، وقد كان الجنود الإنجليز متعبـين، وخيـولهم جائعـة للدرجة التى جعلتهم لا يقبلون التحدى الذى توحى بـه الرمـاح المرفوعة، ولذا صار الفرنسيون أكثر شجاعةً، واقتربوا أكثـر بخيولهم، وقد أخبر السير چون رماته:

- لا تهدروا سهامكم.

قال هوك مقترحًا:

- فَليَقِل عدد الرجال الفرنسيين الذين نضطر إلى قتلهم فى المعركة رجلاً.

ابتسم السير چون بتعبٍ قائلاً:

- إنها مسألة شرفٍ يا هوك.

أومأ السير چون برأسه ناحية الرجل الفرنسى الذى يخب به حصانه على مسافة أقل من ربع ميل. كان الرجـل منفـردًا تمامًا يمتطى فرسه ومعه رمحه منتـصبًا كـدعوةٍ لأى رجـلٍ إنجليزىٍ ليبارزه، وقال السير چون موضحًا:

– لقد أقسم على أن يقوم بعملٍ باسلٍ عظيم، مثل قتلى أو أى فارسٍ آخر وهذا طموحٌ نبيل.

أجاب هوك بقسوة:

– وهل هذا يقيه من السهام؟

– نعم، هذا يقيه يا هوك. دعه يَعِش إنه رجلٌ وشجاع.

اقترب المزيد من الرجال الشجعان فى تلك الظهيرة، ولا يزال الرجال الإنجليز لا يستجيبون لهم، ولذا ازدادت شجاعة الرجال الفرنسيين واقتربوا ممتطين خيولهم بما يكفى ليتعرفوا وجوه الرجال الذين يقابلونهم فى مباريات المبارزة عبر أوروبا. تحدثوا معهم. قد يبلغ عدد الفرسان الفرنسيين الذين يمكن رؤيتهم فى أى وقت دزينةً من الرجال، أحدهم يمتطى حصانه الطويل الأسود النشيط الذى يثير التربة فى ركضه المتحمس، إذ أخذ طريقه تجاه مقدمة الجيش. صاح الراكب:

– يا سير چون!

كان هذا السير دى لانفيريل، وقد انسدل شعره الطويل خفيفًا ورطبًا وراءه.

– لانفيريل!

- إذا أعطيتك الشعير لحصانك فهل تقبل مبارزتى بالرمح؟

صاح السير چون مجيبًا:

- إذا أعطيتنى الشعير فسيأكله الرماة!

ضحك لانفيريل، وانحرف السير چون بحصانه متجهًا إلى جوار الرجل الفرنسى، وسارا معًا بود.

قالت ميليساند:

- يَبدُوَان كالأصدقاء.

قال هوك:

- ربما هما كذلك.

- وسيقتَلان بعضهما فى المعركة؟

صاح لانفيريل وهو يتّجه الآن إلى الرماة:

- أيها الرجل الإنجليزى! يقول السير چون أنك تزوجت ابنتى!

قال هوك:

- لقد فعلت.

قال لانفيريل وفى صوته عبث:

- ودون مباركتى.

تطلع إلى ميليساند مستطردًا:

- هل أخذت المعطف المدرع الذى أرسلته إليكِ؟

قالت بالفرنسية:

- نعم.

قال والدها بخشونة:

- ارتديه، إذا حدثت معركةٌ فارتديه.

تساءلت ميليساند بمرارة:

- ألأنه سيحمينى؟ إن رداء الراهبات المبتدءات لم يحمنى فى سواسون.

قال لانفيريل:

- اللعنة على سواسون يا فتاة، إن ما حدث هناك لسوف يحدث لهؤلاء الرجال، إنهم ملعونون!

وطوح ذراعه مشيرًا إلى الصف البطىء الموحل واستطرد:

- إن الملاعين سائرين إلى حتفهم، سيسعدنى أن أنقذكِ.

- لماذا؟

قال لانفيريل:

- من أجل أى قرار أيًا كان أتخذه بشأنك، لقد تذوقت حريتك وانظرى إلى أين قادتك؟!

ابتسم، وبدت أسنانه بيضاء بشكلٍ مدهش، واستطرد:

- يمكنك أن تأتى الآن؟ سآخذك بعيدًا قبل أن نذبح هذا الجيش.

قالت:

- سأبقى مع نيكولاس.

قال لانفيريل بقسوة:

- فلتبقى إذن مع الملاعين، وعندما يموت رجلك نيكولاس، سآخذك بعيدًا.

أدار عنق حصانه، وبعد كلماتٍ قليلةٍ أخرى مع السير چون، قاد حصانه جنوبًا.

تساءل هوك:

- الملاعين؟

قالت:

- هذا ما يطلقه الفرنسيون عليكم أنتم الإنجليز.

ثم تطلعت إلى السير چون متسائلة:

- أنحن ملعونون؟

ابتسم السير چون بحزنٍ قائلاً:

- هذا يتوقف على ما إذا لحق بنا جيشهم، وإذا لحق بنا هل يستطيع هزيمتنا؟ نحن لا نزال أحياء!

تساءلت ميليساند:

- هل سيلحق بنا؟

أشار السير چون إلى الشمال، وقال موضحًا:

- هناك جيشٌ فرنسيٌ صغيرٌ على الضفة الشمالية للنهر، وهم يسيرون معنا خطوةً بخطوةٍ ليتأكدوا أننا لن نستطيع العبور. إنهم يقودوننا تجاه جيشهم الأكبر، ولكن هنا يا عزيزتي، ينعطف النهر شمالاً. منعطفًا

كبيرًا! نحن نختصر الطريق عبر الريف، لكن ذلك الجيش الصغير سيضطر إلى الدوران حول ذلك المنعطف كله، وسيستغرقهم ذلك ثلاثة أو أربعة أيام، وفى الغد سنكون عند النهر، ولن يكون هناك جيشٌ صغيرٌ على الجانب الآخر، وإذا وجدنا معبرًا، أو إذا وجدنا بمشيئة الرب جسرًا، سنعبر نهر سوم، ونمتطى خيولنا إلى حانات كاليه، وسنعود إلى الوطن.

لكن حركتهم ازدادت بطئًا كل يوم. لم تعد هناك مراعٍ للخيول ولا شعير، وكل يوم يضطر المزيد من الرجال إلى الترجل، ويسيرون وهم يسحبون خيولهم المتعبة الضعيفة. أعطت المدن التى مروا بها فى الأسبوع الأول من السير طعامًا لهذا الجيش المار، ولكن الآن المدن الصغيرة المحاطة بالأسوار تغلق بواباتها، وترفض أن تقدم أى مساعدة، كانوا يدركون أن الجيش الإنجليزى لن يضيع الوقت ليغتصب حصونهم رغم ضعفها، ولذا فهم يراقبون الصف البائس العابر، ويصلون إلى الرب ليدمر تمامًا هؤلاء الغزاة الضعاف.

وغضب الرب هو آخر شيءٍ يمكن للملك هنرى المخاطرة به، ولذا ففى آخر يومٍ لهم على المرتفع، اليوم الذى نسبة ، كوبهم نازلين إلى وادى نهر سوم مرةً أخرى، عندما

أتى قسٌ يشكو أن أحد الرجال الإنجليزيين قد سرق وعاء القربان المقدس الخاص بكنيسته، أمر الملك الصف بالتوقف، وطُلِب من رقباء الرماة وقادتهم أن يفتشوا رجالهم. ووعاء القربان المفقود هو علبة نحاسية مغطاة بالذهب حيث تحفظ الرقاقات المقدسة، كان الوعاء ذا قيمةٍ ضئيلةٍ، ولكن الملك صمم على أن يجده، وقال توم سكارليت مقترحًا:

- ربما سرقه أحد أولاد الحرام المساكين ليحصل على الرقاقات وأكلها ثم ألقى بالوعاء بعيدًا.

سأل السير چون:

- حسنًا، هوك؟

- لم يأخذه أحدٌ منا يا سير چون.

زمجر السير چون:

- وعاء قربانٍ مقدسٍ واحدٍ لعين، اللعنة على الوعاء أيها الأب.

قال الأب كريستوفر:

- أوافقك يا سير چون.

- أنعطى الفرنسيين فرصةً ليلحقوا بنا من أجل وعاءٍ لعين!

قال الأب كريستوفر مقترحًا:

- سيكافئنا الرب إذا اكتشفنا اللص، فى الواقع لقد رفع المطر عنا بالفعل!

كان هذا حقيقيًا، فمنذ بدأ البحث توقف المطر، وبدأت شمسٌ ضعيفةٌ تصارع لتكشف الغيوم وتلمع على الأرض المبتلة.

وتم العثور على وعاء القربان المقدس.

كان مخبئًا فى كم معطفٍ جلديٍ لأحد الرماة، وقد احتفظ به ملفوفًا ومربوطًا فى سرج حصانه، رغم أن الرامى نفسه ادعى أنه لم ير المعطف ولا الوعاء من قبل، وقد قال أحد القساوسة الملكيين للملك:

- كلهم يدعون البراءة، اشنقه فقط يا مولاى.

وافقه الملك بشدةٍ بقوله:

- سنشنقه، وسندع كل رجلٍ يراه مشنوقًا! هذا ما يحدث عندما تذنب فى حق الرب! اشنقوه!

قال هوك معترضًا:

- لا.

لأن الرجل الذى كان يُجَر إلى الشجرة، حيث ينتظر الملك وحاشيته كان أخوه مايكل.

وحبل المشنقة فى انتظاره.

جر رجال الملك مايكل إلى أسفل شجرة الدردار، حيث انتظر الملك هنرى وقضاته على ظهور الخيل، جوار القسيس الريفى الذى تشكى فى البداية بشأن سرقة وعاء القربان المقدس الخاص به. صدرت الأوامر للجيش بالحضور، فاحتشد فى دائرةٍ هائلة، رغم أن القليل منهم الموجودين فى مقدمة الصفوف هم من استطاعوا رؤية ما حدث. ارتدى جنديان معاطف مدرعةٍ نصف مغطاةٍ بشارة الجيش الملكى، وقيدا ذراعى مايكل هوك، ودفعاه، وجذباه تجاه الملك. لم يكونوا تقريبًا بحاجةٍ إلى استخدام القوة، فقد كان مايكل يتجه معهما عن طيب خاطرٍ وبدا فقط مرتبكًا.

صاح هوك:

- لا.

تمتم توماس إيڤل–جولد بتذمر:

- اخرس.

وإذا كان الملك قد سمع اعتراض هوك فإنه لـــم يبــد أى دلالةٍ على ذلك، كان وجهه ثابتًا، ومترفعًا، وحليقًا، وعنيدًا.

- إنه...

شرع هوك فى الحديث قائلاً: إن أخاه لـــم يــسرق، ولا يستطيع أن يسرق وعاء القربان المقدس، ولكــن إيڤــل–جولــد استدار بسرعةٍ، ودفع قبضته فى بطن هوك بشدة.

قال إيڤل–جولد:

- فى المرة القادمة سأحطم فكك.

قال هوك لاهثًا:

- أخى.

وجاهد ليأخذ نفسًا.

زمجر السير چون من مقدمة مجموعته:

- هدوء!

قال الملك متحدثًا إلى مايكل وفى صوته قسوة الحجر:

- لقد أسأت إلى الرب، وعرضت حملتنا كلهـــا للخطـــر، كيف نتوقع من الرب أن يكون إلى جانبنا إذا أسأنا إليه؟ لقد عرضت إنجلترا نفسها للخطر.

قال مايكل متوسلاً:

- أنا لم أسرقه.

تساءل الملك:

- مِن مجموعة مَن؟

خطا السير إدوارد درو وينت إلى الأمام، وقال وهو يحنى رأسه الذى وخطه الشيب:

- إنه أحد رماة اللورد سلايتون يا مولاى، وأنا أشك يـــا مولاى فى كونه لصًا.

- أكان وعاء القربان المقدس فى متعلقاته؟

قال السير إدوارد بحذر:

- لقد وُجِد فى متعلقاته يا مولاى.

قال مايكل:

- ليس هذا المعطف لى يا مولاى.

سأل الملك السير إدوارد متجاهلاً رامى السهام الشاب ذا الشعر الأشقر الذى نزل على ركبتيه.

- هل أنت متأكدٌ أن وعاء القربان المقدس كان فى أمتعته؟

- لقد كان فيها يا مولاى رغم أننى لا أستطيع أن أقول كيف وصل إلى هناك.

- من الذى اكتشفه؟

قال السير مارتين وهو يخطو إلى الأمام من بين الجمع:

- مولاى، أنا، يا مولاى.

وكان رداؤه الكهنوتى قد حال لونه من الطين، واستطرد وهو ينزل على إحدى ركبتيه:

- لقد كنت أنا من وجده يا مولاى، وهو فتى طيب يا مولاى، إنه فتىً مسيحىٌ حقًا يا مولاى.

كان بإمكان السير إدوارد أن يدافع عن براءة مايكل طوال اليوم ولن يستطيع دفع الملك حتى للشك، ولكن كلمة قسيسٍ لها ثقلٌ أكبر بكثير.

استجمع الملك هنرى زمام حصانه، ومال إلى الأمام على سرجه قائلاً:

- هل تقول إنه لم يأخذ وعاء القربان المقدس؟

بدأ هوك بالحديث:

- إنه...

لكن إيڤل-جولد ضربه بشدةٍ فى بطنه لدرجـــة أن هـــوك انثنى على ذاته ألمًا.

قال السير مارتين:

- لقد وجدنا وعاء القربان فى أمتعته يا مولاى.

بدأ الملك بالحديث:

- ثم؟

لكنه توقف، وبدت عليه الحيرة، فالقس منذ لحظةٍ يقـــول ببراءة مايكل والآن يقول بعكس ذلك.

قال السير مارتين وقد صبغ صوته بالأسى:

-إن مما لا جدال فيه يا مولاى أن وعاء القربان كان بين أمتعته، وقد أحزننى هذا يا مولاى، لقد سحق قلبى.

صاح الملك:

- وهذا يغضبنى، ويغضب الرب لقد خاطرنا بالإساءة إليه، بإثارة غضبه من أجل صندوقٍ نحاسى! اشنقوه!

صاح مايكل:

- مولاى!

ولكن لم يكن هناك شفقةٌ، ولا ملجأٌ، ولا أمل.

كان الحبل قد رُبِط بالفعل فى أحد الفروع، دفعت الأنشوطة على رأس مايكل، وسحب الرجلان طرف الحبل ليرفعاه إلى الهواء.

أصدر أخو هوك ضوضاء مختنقة وهو يتعذب بشدة، تأرجحت ساقاه وضربتا الهواء، وتحولت الضربات ببطء، ببطءٍ شديد، إلى تشنجات، وإلى رعشات، وأصبحت الضوضاء المختنقة لهاثًا قصيرًا خشنًا، وتلاشت فى النهاية تمامًا. استغرق الأمر عشرين دقيقة، وراقب الملك كل اختلاجة، وعندما اطمئن أن اللص قد مات تمامًا. أبعد عينيه عن الجثة. ترجل، وأمام جيشه، ركع على إحدى ركبتيه أمام القسيس الريفى الذى علته الدهشة، وقال بصوتٍ عالٍ متحدثًا بالإنجليزية التى لا يفهمها القس:

- نحن نستجدى عفوك ومغفرة الرب العظيم.

ومد يديه بوعاء القربان المقدس. والقس -خائفًا مما رأى- أخذ الوعاء بعصبية، ثم علت وجهه الدهشة لأن الإناء الصغير كان أثقل بكثيرٍ مما كان عليه فى أى وقتٍ مضى. لقد ملأه ملك إنجلترا بالمال.

أمر الملك هنرى وهو ينهض على قدميه:

- دعوا الجسد هناك! وابدأوا السير! دعونا نواصل الزحف.

أخذ بزمام حصانه، ووضع قدمه فى الركاب، وأرجح جسده برشاقةٍ ليصعد على السرج، وركب مبتعدًا تتبعه حاشيته. تحرك هوك تجاه الشجرة التى عُلق عليها جسد أخيه.

سأله السير چون بخشونة:

- إلى أين تذهب بحق الجحيم؟

قال هوك:

- سأدفنه.

قال السير چون:

- يا لك من أحمقٍ لعينٍ يا هوك.

ثم ضرب وجه هوك بيده المغطاة بالقفازات، واستطرد:

- من أى جبلة أنت؟

قال هوك محتجًا:

- إنه لم يفعل ذلك!

ضربه السير چون بعنفٍ أكثر، مما ملأ خد هوك بالخدوش التى بدأت تذرف الدماء، وزمجر السير چون:

- ليس مهمًا إن كان لم يفعلها، لقد أراد الرب قربانًا، وقد حصل عليه، ربما ستعيش أنت لأن أخاك قد مات.

قال هوك:

- إنه لم يسرقه، إنه لم يسرق قط من قبل، إنه أمين.

ضربت اليد المغطاة بالقفاز خد هوك الآخر، وقال السير چون:

- وأنت لن تعترض على قرار ملكنا، ولن تدفنه، لأن الملك لا يريد له أن يدفن، أنتَ محظوظ يا هوك لأنك لم تشنق جوار أخيك وينساب البول على ساقيك اللعينتين، والآن امتط حصانك وسر.

- لقد كذب القس.

قال السير چون:

- هذا الأمر يعنيك أنت، ولا يعنينى، ولا يعنـــى الملــك بالتأكيد، امتط حصانك، وإلا قطعت أذنيك اللعينتين.

امتطى هوك حصانه وتجنبـــه الرمـــاة الآخـــرون وقــد استشعروا حظه التعس، وحدها ميليساند ركبت معه.

كان رجال السير چون فى المقدمة على الطريق، علـــى تلك الحالة من المرارة والذهول لم يدرك هوك أنه يمـــر علـــى رجال اللورد سلايتون، هسهست له ميليساند، وعنـــدها فقــط، لاحظ الرماة الذين كانوا رفاقه فى الماضى، كان توماس بيريل يبتسم ابتسامةً عريضةً منتصرةً ويشير إلى عينيه فـــى تـــذكيرٍ بشكه أن هوك قتل أخاه، بينما حدق السير مارتين فى ميليساند، ثم نظر إلى هوك، ولم يستطع مقاومة ابتسامته عندما رأى دموع رامى السهام.

قالت ميليساند تَعِد هوك:

- ستقتلهم جميعًا.

ودار بخلد هوك أن ذلك سيحدث ما لم يقم الفرنسيون بالمهمة من أجله. هبطوا بخيولهم، متجهين الآن إلى نهر سوم وإلى الأمل الوحيد للجيش؛ معبرًا أو جسرًا دون حراسة.

وأمطرت السماء مرةً أخرى.

لم يكن هناك معبرٌ واحدٌ على نهــر ســوم بــل اثنـــان، والأفضل أنه لم يكن على أيٍ منهما حراسة. لم تتمكن أشـــباح الجيش الفرنسى على ضفة النهر الشمالية مــن قطــع مــسافة المنحنى الكبير كلها، وعندما وصل الإنجليز إلى حافة المستنقع الواسع الذى يحف نهر سوم لم يروا سوى ريف العدو الخـــاوى خلف النهر. استكشفت المقدمة المعابر، وقدموا تقاريرهم أن مياه النهر مرتفعة بسبب المطر، ولكن ليس إلى الدرجة التى لا يمكن عبورها، رغم أن الجيش لكى يصل إلى المعابر يحتاج إلى قطع ممرين يبلغ طولهما رمية سهم بطول المستنقع الواســع. كـــان طول هذين الممرين أكثر من ميل، طريقان متوازيان يرتفعـــان عن الوحل وتحميهما سدود حطمها الفرنسيون، ولذا كـــان فـــى منتصف كل منهما فجوةٌ واسعةٌ تحطم عندها الممر تاركًا فخًـــا من الأرض الموحلة الغادرة. عبر المستكشفون هذا المـــستنقع، لكنهم ذكروا أن خيولهم قد انغرست حتى ركبها فى الوحل، وأن

عربات الجيش لا يُأمَل لها أن تتمكن من عبور تلك المنطقــة، فألقى الملك أوامره قائلاً:

- إذن فلنعد بناء الجسور.

استغرق هذا أغلب اليوم. تلقى أغلب جنود الجيش أوامر بتجريد القرية المجاورة من عوارض الأسـقف، والأرضـيات، والروافد الخشبية، لاستخدامها كدعامات فى إصلاح الجـسور، ألقيت حزم القش، وقضبان المعدن، والأتربة فـوق العـوارض الخشبية لتصنع جسورًا جديدةً، بينما شكل جنود المؤخرة تشكيلاً قتاليًا لحماية العمل من أى هجومٍ مفاجئٍ من الجنوب. لم يحدث أى هجومٍ من هذا القبيل. راقب الفرسان الفرنسيون ما يحـدث من مسافةٍ بعيدةٍ، لكن فرسان العدو هؤلاء كانوا قلةً ولم يقوموا بأى محاولةٍ للتدخل.

لم يقم هوك بأى دورٍ فى هذا العمل، فقد تلقـت مقدمـة الجيش أوامر بعبور النهر قبل عمـل أى إصـلاحات. تركـوا خيولهم وراءهم وساروا حتى فجوة الممر. قفزوا إلى المـستنقع حيث جاهدوا عبـره للوصول إلى الامتداد الآخر للممر الـذى يقود إلى ضفة النهر. خاض الرماة حاملين أقواسهم وسـهامهم فوق رؤوسهم فى وحل نهر سوم. ارتعد هوك وهو يمضى فى

النهر، إنه لا يستطيع السباحة، وقد اعترته رجفة خوفٍ إذ غمر الماء خصره ثم صدره، لكنه أحس بعدها، وهو يقاوم ضغط تيار الماء البسيط، بقاع النهر يأخذ فى الارتفاع مرة أخـــرى. ســـار بخطوات ثابتةٍ رغم أن قلةً من الرجال انزلقوا، وقد سقط أحـــد الجنود فى التيار، وتلاشت صرخاته بسرعةٍ إذ سحبته دروعـــه إلى أسفل، خاض هوك بعدها فى الأحراش، وتـــسلق مرتفعًـــا موحلاً صغيرًا ليصل إلى الضفة الشمالية. لقد عبـــرت طليعـــة الرجال نهر سوم.

أمر السير چون رماته أن يذهبوا نصف ميلٍ إلى الشمال، حيث يلتف سياجٌ متداخلٌ بين اثنين من المراعى الواسعة. قـــال السير چون بكآبة:

- إذا أتى الفرنسيون الملاعين، فاقتلوهم.

تساءل توماس إيڤل-جولد:

- هل تتوقع جيشهم يا سير چون؟

قال السير چون:

- أتقصد ذلك الذى كان يتعقبنا بطول النهر؟

- سيصل أولاد الحرام أولئك ها هنا قريبًا جدًا. أما جيشهم الأكبر؟ فالرب وحده يعلم. فلنأمل أن يظنوا أننا لا نزال جنوب النهر.

وقد دار بخلد هوك أنه حتى إذا كان هذا هو الجيش الأصغر وحده الذى سيأتى، فلا أمل لهؤلاء القلة من رماة مقدمة الجيش فى إيقافه. جلس عند حافة حفرةٍ غارقةٍ بالماء تحت شجره حورٍ روميٍ ميتةٍ يحدق إلى الشمال، وقد هام عقله فى دوامةٍ من الأفكار وقد خَلُص إلى أنه كان أخًا سيئًا. لم يعتن أبدًا بمايكل كما ينبغى له، بل إنه إذا واجه نفسه بالحقيقة فسيعترف أن شخصية أخيه الواثقة والتى تحمل تفاؤلاً لا ينتهى كانت تثيره، أومأ محييًا توماس سكارليت إذ جاء وجلس القرفصاء إلى جواره، كان توماس قد فقد أخاه التوءم بسيف لانفيريل، قال سكارليت بارتباك:

- عزائى لك فى مايكل، لقد كان فتى جيدًا.

قال هوك:

- لقد كان كذلك.

- وكذلك كان مات أيضًا.

- نعم، فعلاً وكان راميًا جيدًا.

قال سكارليت:

- نعم، لقد كان كذلك حقًا.

وتطلعا إلى الشمال بصمت. لقد قال الســير چون أن أول ما سيقابلهم من القوات الفرنسية سيكون طليعةً راكبةً، ولكن لا يوجد فى مدى الرؤية أى فرسان.

قال هوك:

- كان مايكل دائمًا ينزع الوتر نزعًا عند إطلاقه. حاولت أن أعلمه، لكنه لم يستطع التوقف عن ذلك، كان دائمًــا ينزع الوتر فيخطئ الهدف، كان يفعل ذلك.

قال سكارليت:

- حقًا.

قال هوك:

- لم يتعلم قط، ولم يسرق أيضًا وعاء القربان اللعين.

- لم يكن يبدو كاللصوص.

- لم يكن كذلك! لكننى أعلم من سرقه، وسأقطع حنجرته اللعينة.

- لا تسلم رقبتك لحبل المشنقة من أجل ذلك يا نيك.

عبس هوك قائلاً:

- لو أمسك بنا الفرنسيون فلن يكون ذلك مهمًا، أليس كذلك؟ إما أن تُشنَق وإما أن تُذبَح.

وبدت لهوك رؤيا مفاجئة للرماة المحتضرين فى عذابهم أمام الكنيسة الصغيرة فى سواسون وعلته الرجفة.

قال سكارليت بثبات:

- لكننا عبرنا النهر، وهذا شىء جيد، كم نبعد الآن؟

- يقول الأب كريستوفر أنها تبعد مسيرة أسبوع من هنا، وربما تزيد يومًا أو يومين.

قال سكارليت بأسى:

- هذا ما قالوه منذ أسبوعين، ولكن لا يهم، يمكننا الذهاب جوعى لأسبوع.

جلب چيوفرى هوروكس، أصغر الرماة سنًا، خوذةً مليئةً بثمار البندق، وقال لهوك:

- لقد وجدتها عند السياج، أتريد أن تقسمها بينهم أيها الرقيب؟

- افعل أنت ذلك يا فتى وأخبرهم أن هذا هو العشاء.

قال سكارليت:

- وإفطار الغد أيضًا.

قال هوك:

- لو أن لدى شبكةً لأمكننا الإمساك ببعض عصافير الدُورى[٨].

قال سكارليت بشوق:

- فطيرةٌ محشوةٌ بالعصافير.

ساد الصمت، وتوقف المطر، رغم أن الريح الشديدة جعلت الرماة المبتلين يقشعرون حتى العظام. طار سربٌ من طيور الزرزور الأسود[٩]، كان السرب كثيفًا جدًا حتى بدا كغيمةٍ

---

(٨) عصفور الدورى (Sparrow): طائر صغير يجمع بين اللونين البنى والرمادى ذيله قصير ومنقاره قوى، قصير وغليظ. الفروق بين أنواعه المختلفة طفيفة ودقيقة. هو طائر اجتماعى يعيش فى المناطق المأهولة. يوجد فى بلاد مثل أوروبا، وأفريقيا، وأسيا، تم إدخال عدة أنواع إلى الأمريكيتين واستراليا وغيرها. (المترجم).

(٩) الزرزور الأسود (Black Starling): من الطيور وهناك صغيرة الحجم ومتوسطة الحجم. توجد فى أماكن كثيرة مثل أوروبا، وأسيا، وأفريقيا، وكما فى=

تتقلب. علا، ثم هبط على بعد حقلين. كدح الرجال لإعادة بنـــاء الجسور هناك بعيدًا عبر النهر، خلف هوك.

- أتعرف أنه كان رجلاً ناضجًا؟

تساءل هوك وقد أجفل مفيقًا من أفكاره النصف محلقة:

- ماذا قلت يا توم؟

قال سكارليت:

- لا شيء، لقد كنت غافيًا حتى أيقظتنى.

قال الصوت بهدوء:

- لقد كان رجلاً جيدًا جدًا، وهو مرتاح فى الجنة الآن.

=بعض مناطق الشرق الأقصى واستراليا، ولكن تم إدخال عدة أنواع أوروبية وأسيوية لأمريكا الشمالية واستراليا ونيوزيلندا والزرازير متوسطة الحجم قوية القدمين، تستطيع الهروب بمهارة شديدة، كما أنها اجتماعية جدًا، تأكل الحشرات والفاكهة. أقصر الزرازير جدًا يبلغ طوله ١٥ سم، وأخفها وزنًا يزن ٣٤ جرامًا. أطول الزرازير يتجاوز ٣٠ سم ويزن أكثر من ٢٢٥ جرامًا. ريش الزرزور عادة قاتم اللون وبه لمعان، تبنى أعشاشها فى الثقوب وتضع بيضًا أزرق وأبيض. (المترجم).

ودار بخلد هوك أنه القديس كريسبينيان، وغامت عيناه بالدموع، وأراد أن يقول أنت لا تزال معى، واستطرد القديس:

- فى الجنة ليست هناك دموعٌ ولا مرضٌ، ليس هناك موتٌ ولا سادة، ليس هناك جوع. إن مايكل فى سعادة.

تساءل توم سكارليت:

- هل أنت بخيرٍ يا نيك؟

قال هوك:

- أنا بخير.

ودار بخلده أن كريسبينيان يعرف كل شيءٍ عن الإخوة. لقد عُذِّب وقُتِل مع أخيه كريسبين، وكلاهما مع مايكل الآن، وبشكلٍ ما يبدو ذلك شيئًا جيدًا.

استغرق الأمر معظم اليوم لإعادة بناء الممرين، وبعد ذلك بدأ الجيش العبور فى صفين طويلين من الخيول، والعربات، والرماة، والخدم، والنساء. عبر الملك متألقًا فى دروعه وتاجه. عدا به حصانه بسرعةٍ، ومر على خندق هوك، يتبعه عشرون من النبلاء الذين يمسكون بجماح خيولهم، وحدقوا إلى الشمال مثلما فعل هوك، لكن الجيش الفرنسى الذى كان يرافقهم خطوةً بخطوةٍ

بطول الضفة الشمالية للنهر وقد تلاشى بعيدًا خلفهم، ولا يوجد أى فردٍ من أفراد العدو على مرمى البصر. كان الجيش الإنجليزى يعبرُ النهر الآن وقد دخل إلى مقاطعة يطالب دوق بورجوندى بحكمها رغم أنها لا تزال فرنسية، ولكن ليس ثمة عوائق كبيرة بين الجيش وإنجلترا الآن إلا إذا تدخل الجيش الفرنسى.

قال الملك هنرى لقواده:

- سنستمر فى المسير.

سيسيرون شمالاً مرة أخرى، شمالاً وغربًا، سيسيرون تجاه كاليه، تجاه إنجلترا وتجاه الأمان.

وساروا.

تركوا نهر سوم الواسع خلفهم، لكن فى اليوم التالى أمر الملك بالتوقف لأن جنود الجيش تقرحت أقدامهم من كثرة المسير. ومرض بعضهم وهدهم الجوع. توقف المطر، وأشرقت الشمس عبر الغيوم الخفيفة. كان الجيش الآن فى ريفٍ كثيف الأشجار، ولذا توفر خشب من أجل النيران وعاش المعسكر حالة الأجازة، إذ علق الرجال ملابسهم لتجف على الحواجز الخشبية. تم ترتيب الحراس، لكن بدا كأن الجيش الإنجليزى هو

الموجود وحده فى الأراضى الفرنسية الواسعة. لم يظهر رجلٌ فرنسىٌ واحد. مسح الرجال الأشجار ليقتاتوا بثمار البندق، وفطر عيش الغراب، والتوت البرى. تمنى هوك أن يجد غزالاً أو خنزيرًا بريًا، لكن الحيوانات -مثلها مثل العدو- قد اختفت عن الأنظار.

قال الأب كريستوفر محييًا هوك عند عودته من رحلة صيده الفاشلة:

- علينا أن نهرب فى التو.

قال هوك:

- لا بد أن الملك يفكر فى هذا.

- لماذا؟

- وأعطانا يومًا من التوقف والراحة؟

قال القس:

- إن ملكنا الشفوق مجنونٌ جدًا لدرجة أنه ربما يتمنى أن يجدنا الفرنسيون.

- مجنون؟ مثل ملك فرنسا؟

قال الأب كريستوفر:

- لا، إن الملك الفرنسى مجنونٌ حقًا، أما ملكنا فهو مقتنعٌ • تمامًا أن الرب يحبه.

- وهل هذا جنون؟

توقف الأب كريستوفر عن الحديث، إذ جاءت ميليساند لتنضم إليهما، مالت على هوك، ولم تقل شيئًا. لقد ازداد نحول جسدها كما لم يرها هوك من قبل، ولكن الجيش كله قد صار ناحلاً، وجائعًا، ومريضًا الآن.

لم يُصَب هوك وزوجته بطريقةٍ ما بالمرض المسبب للإسهال، رغم أن العديد من أفراد الجيش الآخرين قد التقطوا المرض، وقد أنتن المعسكر به. وضع هوك ذراعه حولها، وضمها إليه، ودار بخلده فجأةً أنها أصبحت أغلى شيءٍ في عالمه كله. قال هوك:

- أتمنى من الرب أن نفر.

قال الأب كريستوفر:

- ويتمنى ملكنا ذلك جزئيًا، ويتمنى أيضًا أن يمكنه التدليل على أن الرب يحبه.

- وهذا هو جنونه؟

- حذار من اليقين. إن هناك رجالاً، يا هوك، فى الجيش الفرنسى يؤمنون -مثل الملك هنرى- أن الــرب إلـــى جانبهم، إنهم رجالٌ طيبون أيضًا، يصلون، ويعطــون الصدقات، ويقومون بالاعتراف بذنوبهم، وينـــذرون ألا يعودوا إلى الخطيئة أبدًا مرة أخرى. إنهم رجال جيدون جدًا، أيمكن أن يكونوا مخطئين فى يقينهم؟

قال هوك:

-أخبرنى أنت يا أبتى.

تنهد الأب كريستوفر قائلاً:

-لو أننى فهمت الرب يا هوك فقد أفهم كــل شـــىء، لأن الرب هو كل شىء. إنه النجوم، والرمـــال، والريـــاح، والهدوء، وعصفور الدورى، والباشق[١٠]، إنه يعــرف

---

(١٠) الباشق (Sparrowhawk): هو أحد أنواع الصقور، يتواجد بكثرة فى أوروبا وأسيا، وشمال أفريقيا. يمكن لهذا الطائر أن يكون بعدة ألوان. وهو أصغر من الباز، خفيف الطيران، سريع الإقلاع. يسمى فى المغــرب (بو عميرة) وهــو منتشر كثيرًا هناك ويمكن مشاهدته فى=

كل شيء، يعرف مصيرى، ويعرف مصيرك، ولو فهمت كلً ذلك، فماذا سأكون؟

قالت ميليساند:

- ستكون إلهًا.

قال الأب كريستوفر:

- وهذا ما لا يمكن أن يحدث، لأننى لا أستطيع فهم كل شيءٍ، وحده الرب يستطيع هذا، ولذا أحذر من الشخص الذى يقول إنه يعرف إرادة الرب. إنه مثل الحصان الذى يعتقد أنه يتحكم براكبه.

- وهل يؤمن ملكنا بهذا؟

قال الأب كريستوفر:

- إنه يؤمن أن الرب يحبه، وربما كان كذلك. إنه ملكٌ على أى حالٍ، مُسِح بالزيت المقدس، وبورك.

قالت ميليساند:

- لقد جعل منه الرب ملكًا.

= المدن الكبيرة كالدار البيضاء. ويسمى فى المملكة العربية السعودية وبعض الدول العربية باسم (الشبوط). (المترجم).

قال الأب كريستوفر بطريقةٍ لاذعة:

- لقد جعله سيف والده ملكًا، ولكن بالطبع، فالرب قاد ذلك السيف.

ورسم علامة الصليب على نفسه، واستطرد حديثه بصوتٍ رقيقٍ قائلاً:

- وحتى الآن، هناك من يقول أن والده لم يكن له الحق فى تولى العرش، وذنوب الآباء تنتقل إلى أبنائهم.

قال هوك:

- هل تقول...

ثم أمسك لسانه، فقد مال الحديث إلى منحى خطرٍ يقارب الخيانة والمؤامرة.

قال الأب كريستوفر بحزم:

- أنا أقول إننى أصلى أن نعود إلى وطننا إنجلترا قبل أن يجدنا الفرنسيون.

قال هوك:

- لقد أضاعونا أيها الأب.

وكان يأمل أن يكون محقًا.

ابتسم الأب كريستوفر بلطفٍ، وقال:

- ربما لا يعرفون أين نحن يا هوك، ولكنهم يعرفون إلى أين نحن ذاهبون. ولذا لا يحتاجون أن يجدونا، أليس كذلك؟ كل ما يحتاجونه أن يأتوا أمامنا ويدعونا نحن نجدهم.

قال هوك بتجهم:

- ونحن نستريح لهذا اليوم.

قال القسيس:

- حسنًا، نحن كذلك، وهو ما يعنى أنه يجب أن نصلى أن يكون عدونا على مسيرة يومين على الأقل حولنا.

عادوا للسير فى اليوم التالى، كان هوك أحد فرقة الاستكشاف التى تسبق مقدمة الجيش بحثًا عن العدو. لقد أحب كونه من فرقة الاستكشاف، وهذا يعنى أنه يستطيع أن يضع عصاه المستدقة الأطراف على عربة المؤن، ويركب حرًا أمام الجيش. تكاثفت الغيوم مرةً أخرى، وصارت الريح باردة. صبغ الصقيع العشب بالبياض، عندما تعالت ضجة العسكر رغم أنه

تبدد سريعًا. بهت لون أوراق أشجار الزان إلى اللون الذهبى المائل للحمرة، وتحولت أوراق أشجار البلوط إلى اللون البرونزى، بينما فقدت بعض الأشجار أوراقها بالفعل. انغمرت الأجزاء المنخفضة من المراعى بالمياه بسبب الأمطار الأخيرة، وفى الحقول المحروثة بعمقٍ للقمح ظهرت خيوط فضية من الماء فى الأخاديد التى شقها المحراث. كان رجال هوك يتبعون ممر الرماة الذى يمر على القرى، ولكن كل الأكواخ كانت خاوية، ليس ثمة مؤنٌ ولا حبوبٌ، ولقد دار بخلده أن شخصًا ما عرف أن الإنجليز على هذا الطريق، وجرد الريف مما به، وأيًا كان من رتب هذا التجريد فإنه قد اختفى. لم تكن ثمة إشارةٌ على وجود أيٍ من أفراد العدو.

بدأت الأمطار تهطل ثانيةً فى منتصف النهار، كانت مجرد رذاذ لكنه اخترق كل ثقبٍ فى ملابس هوك. سار حصانه؛ (راكر) ببطءٍ، لقد تباطأ الجيش كله غير قادر على الإسراع. مروا على مدينةٍ. نظر قليلاً إلى أسوارها براياتها البراقة المتحدية، إن ما رآه الآن يزيده كآبةً. واستمر فى المسير وحسب ممتطيًا حصانه يتبع الطريق تاركًا المدينة وأسوارها خلفه، حتى أدرك فجأةً أنهم مشئومون.

صعد هو ورجاله مرتفعًا صغيرًا، وامتد أمامهم وادٍ واسع من المراعى، يرتفع جانبه البعيد رويدًا إلى الأفق، حيث يبين برج كنيسةٍ، وتتناثر الأشجار، كان الوادى أرض مراعٍ وبدا خاليًا من الحياة الآن، ولكن أرضه تحمل آثارًا تشهد على قدرهم المشئوم الوشيك.

جذب هوك لجام (راكر) وحدق ببصره.

امتدت بقعةٌ من الطين أمامه بالضبط من الشرق إلى الغرب، ندبةٌ واسعةٌ عريضةٌ من الأرض سحقت فيها كل عشبةٍ. يلمع الماء فى عشرة آلاف حفرةٍ خلفتها حوافر الخيل. باتت الأرض فوضىً مبتلةً ملأتها الأخاديد والحفر والنقر لأن جيشًا قد سار عبر الوادى.

اعتقد هوك أنه -ولا شك- جيشٌ عرمرم. إن الآلاف من الخيول خلفت وراءها آثار حوافرها حديثًا. سار بحصانه حتى حافة الأثر ورأى بوضوحٍ شديدٍ آثار الحوافر حتى أنه استطاع أن يرى آثار أطراف حدوات الخيول فى بعض المواضع. تطلع غربًا حيث ذهب ذلك الجيش الخفى لكنه لم ير شيئًا سوى الممر الذى سافر عبره الآلاف من الرجال، تلك الأرض التى امتلأت ندوبًا والتى تلتف شمالاً عند نهاية الوادى.

قال توم سكارليت في رهبةٍ:

- يا عيسى الحبيب، لا بد أنهم الآلاف من أولاد الحرام.

قال هوك لبيتر سكويل:

- عد وأخبر السير چون بشأن هذا.

تساءل سكويل:

-أخبره بشأن ماذا؟

تذكر هوك أن سكويل لندنى، فقال مشيرًا إلى الأرض التى امتلأت بالآثار:

- ما هذا فى رأيك؟

قال سكويل:

- خليطٌ من الوحل.

- أخبر السير چون أن العدو كان هنا خلال اليوم الأخير.

- أكانوا هنا؟

قال هوك بصبرٍ نافد:

- اذهب!

ثم استدار محدقًا فى آثار الحوافر التى يبلغ عددها العشرة آلاف، ثمة الآلاف من وقع الأقدام فوق الآلاف، لقد عبر الكثير جدًا منهم أرض الوادى اللينة. لقد رأى من قبل الطـرق التـى يسلكها الرعاة بقطعان ماشيتهم فى إنجلترا وهم يقتادون قطعانهم للنحر فى لندن، وكم أذهله وهو صبىٌّ حجم القطعان، لكن هـذه الآثار أكثر بكثيرٍ من أى قطيعٍ لعينٍ رآه من قبل. وقد ظـن أن كل رجلٍ فى فرنسا، وربما كل رجلٍ فى بورجوندى قد ركـب عبر هذا الوادى، وقد مروا البارحة، ولذا فإن مضيفهم الـضخم ينتظرهم فى مكانٍ ما إلى الغرب أو الشمال، فى مكانٍ ما بـين هذا الموضع وبين كاليه.

قال:

- لا بد أنهم يراقبوننا.

قال توم سكارليت مرة أخرى:

- يا عيسى الحبيب.

ورسم علامة الصليب على نفسه. تطلع كلا الراميين إلى الغابة البعيدة، وليس ثمة أى انعكاسٍ لضوء الشمس يشى برجلٍ يرتدى دروعه. ولكن هوك كان متأكدًا أن استطلاع العدو يحوم حول الجيش الإنجليزى المنهك.

وصل السير چون مع دزينةٍ من الجنود. حدق -دون أن يقول شيئًا- فى آثار الأقدام، وبعد ذلك تطلع تجاه الغرب وتجاه الشمال كما فعل هوك، وقال فى النهاية بصوتٍ مستسلم:

- إذن هم هنا.

قال هوك:

- إن هذا ليس الجيش الصغير الذى كان يتبعنا بطول النهر.

قال السير چون وهو ينظر إلى الحقول التى ملأتها الآثار:

- بالطبع إنه ليس ذلك الجيش اللعين.

واستطرد بتهكم:

- هذه هى القوة الفرنسية يا هوك.

قال هوك:

- ومن المؤكد أنهم يراقبوننا يا سير چون.

قال السير چون بحدة:

- أنت تحتاج أن تحلق يا هوك، تبدو كمتشردٍ لعين.

- نعم يا سير چون.

- وبالطبع هؤلاء الضراطون يراقبوننا ولذا فارفعوا الرايات! وعليهم اللعنة! عليهم اللعنة، عليهم اللعنة، عليهم اللعنة!

جفل (لوسيفر) من صياحه باللعنات.

قال السير چون:

- عليهم اللعنة ولتواصلوا التقدم.

ليس ثمة خيارٌ آخر. وفى اليوم التالى على الرغم من عدمِ ظهور أى إشارةٍ تدل على وجود جيش العدو فإنهم وجدوا دليلاً أن الفرنسيين يعرفون مكان الإنجليز، فلقد ظهر ثلاثة رسل ينتظرونهم على الطريق مرتدين بزاتهم العسكرية البراقة ويحملون صولجاناتٍ بيضاء طويلة، وقد حياهم هوك بأدب، وأرسل إلى السير چون مرةً أخرى، واصطحب السير چون الرسل الثلاثة إلى الملك.

تساءل ويل:

- ماذا يريد أولاد الحرام المبهرجون هؤلاء؟

قال هوك:

- إنهم يريدون دعوتنا كلنا إلى الإفطار، لحم خنزيرٍ مملحٍ وخبز وكبد الإوز المقلى وفطيرة البازلاء وجعةً جيدة.

ابتسم ويل ابتسامةً عريضةً، وقال:

- يمكنني أن أشنق أمي نفسها من أجل وعاءٍ من الفول الآن، فقط الفول وحده.

قال هوك بشوق:

- فول وخبز ولحم خنزير مملح.

قال ويل:

- لحم ثورٍ مشويٍ مع عصارته المتقاطرة.

قال هوك:

- تكفي قطعة من الخبز.

كان هوك يعلم أن الرجال الثلاثة الفرنسيين سيعرفون الكثير أثناء زيارتهم. من المفترض أن يكون الرسل فوق الانقسامات، إنهم مراقبون وملاحظون لا أكثر. إلا أنه كان واثقا أنهم سيخبرون القادة الفرنسيين – ولا شك– عن أفراد الجيش الإنجليزي الذين يركضون إلى جانب الطريق لينزلوا سراويلهم القصيرة ويفرغوا أمعاءهم، سيخبرونهم عن الخيول الواهنة وعن الجيش المتهالك الصامت الذي يرحل شمالاً وغربًا ببطءٍ شديد.

قال الأب كريستوفر بعد أن غادر الرسل:

- إنهم يتحدوننا ويدعوننا للقتال.

إن القسيس يعلم بالتأكيد ما حدث عندما قابل الرسل الثلاثة الملك، وقد أخبر هوك ورماته به.

- كان الجميع شديدى الأدب، وانحنى كل واحد برقةٍ شديدةٍ وتبادلوا التحايا الجميلة، وتحدثوا عن الطقسِ القاسى ثم أبدى ضيوفنا تحديهم لنا.

قال هوك بسخريةٍ:

- هذا لطفٌ منهم.

قال القس وفى نبرة صوته توبيخٌ لهوك:

- إن الشكليات المهذبة شىءٌ مهم، أنت لن تراقص امرأةً دون أن تطلب منها ذلك أولاً، ليس فى المجتمع الراقى، ومن ثم فإن كونستابل فرنسا[١١] ودوق

---

(١١) كونستابل فرنسا (Constable of France): هو الضابط الأول فى البلاط الملكى من أصل خمسة ضباط وكان أيضًا قائد الجيش فاق كل البلاد وأصبح القائد الثانى بعد الملك. أوجد الملك فيليب الأول هذا المنصب عام ١٠٦٠، وكان ألبير هو الكونستابل الأول وألغى عام ١٦٢٧. عرضت الأسرة الملكية فى البوربون –أثناء فترة حكم=

البوربون[١٢] ودوق أورليــون[١٣] يــدعوننا الآن إلـــى الرقص.

تساءل توم سكارليت:

- من هؤلاء؟

- الكونستابل هو تــشارلز دو ألبــرت وصَــلِّ وادع ألا ترقص معه وجهًا لوجهِ يا توم وأما من يتقلدون منصب الدوق فهم رجالٌ عظماءٌ. ودوق البوربون صديقٌ قديمٌ لك يا هوك.

- صديق لي؟

= الامبراطورية الفرنسية الأولى- على نابليون بونابرت لقب كونستابل فرنسا لو استطاع أن يعيدهم إلى الحكم. المترجم.

(١٢) دوق البوربون (Duke of Boarbon): هو لقب لأحد النبلاء في فرنسا. منحه الملك روبرت لأول مرة لأكبر أبنائه في النصف الأول من القرن الرابع عشر عام ١٣٢٧، وظل يمنح حتى عام ١٥٢٧. منح اللقب مرتين على الأقل بعد اندماج الدوقية في الحكم الملكي. المترجم.

(١٣) دوق أورليون (Duke of Orleans): واحد من أعلى الرتب والألقاب التي تمنح لأحد النبلاء في فرنسا. وهو محدد فقط للأمراء الأقرب نسبًا من العائلة الملكية. أول دوق لأورليون يصل إلى الحكم هو لويس الثاني عشر في القرن الخامس عشر. منح هذا اللقب ست مرات؛ الأولى عام ١٣٤٤، والأخيرة عام ١٦٦٠. (المترجم).

- لقد قاد الجيش الذى دمر سواسون.

قال هوك:

- يا عيسى.

وفكر مرةً أخرى فى الرماة المكفوفين الذين تُرِكُوا ينزفون حتى الموت فوق الحجارة.

استطرد الأب كريستوفر:

- وكل دوقٍ من هؤلاء يقود فرقةً ربما أكبر من جيشنا كله.

تساءل هوك:

- وهل قبل الملك دعوتهم؟

قال الأب كريستوفر:

- آه، بكل ترحيب، إنه يحب الرقص، رغم أنه رفض تحديد مكان الرقص، لقد قال إن الفرنسيين لن يواجهوا صعوبةً فى إيجادنا.

وقد أمر الملك الآن أن يركب كل رجل حصانه مرتديًا كامل دروعه، لأنه علم أن الفرنسيين لن يواجهوا صعوبةً فى

العثور عليهم، ولأن جيشه قد يخوض معركةً فى أى لحظة. كان عليهم أن يرتدوا الدروع والمعاطف رغم أن أغلب الدروع والمعاطف قد صارت الآن متسخة جدًا وعلاها الصدأ وتمزقت مما لن يترك انطباعًا إيجابيًا بالمرة لدى العدو فما بالك بإرهابه. ولم يظهر العدو بعد. لم يظهر أحدٌ من العدو يوم عيد القديسة كورديولا[١٤]، العذراء الإنجليزية التى ذبحها الوثنيون، ولا فى اليوم التالى يوم عيد القديس فيلكس[١٥] الذى قطعت رأسه

---

(١٤) القديسة كورديولا (Saint Cordula): تقول المرويات إنها كانت إحدى رفيقات القديسة أورسيولا ارتعبت عندما رأت الأخريات يُذبحن على يد الهانز فاختبأت ولكنها ندمت على أنها آثرت نفسها فكشفت عن مكانها فى اليوم التالى ولذا كانت آخر الشهيدات. اكتُشفت جثة كورديولا فى كنيسة القديس چون المعمدانى، وكانت عطرة ومكتوب على جبينها (كورديولا، ملكة، وعذراء). (المترجم).

(١٥) القديس فيلكس (Saint Felix): فى بداية اضطهاد دقلديانوس، قام عدد من المسيحيين بتسليم الكتب المقدسة لأيدى المضطهدين الذين قاموا بحرقها. كان فيلكس أسقفًا فى إفريقيا، رفض بشدة التخلى بسهولة عن أمانته وتدقيقه. استدعاه ماجنيليان حاكم ثيبيوكا وأمره بتسليم كتب الكنيسة ومخطوطاتها لكى يحرقها حسب أوامر الامبراطور. أجابه القديس بأن أوامر الله يجب أن تُطاع قبل أوامر الإنسان، فأرسله ماجنيليان إلى حاكم قرطبة. حاول حاكم قرطبة معه ولكنه صُدم من ردوده الحادة ورفضه الشديد، فحبسه تسعة أيام فى جُب كريه، ثم أرسله مكبلاً بالحديد فى قاع سفينة إلى ماكسيمينوسوس فى إيطاليا. =

لرفضه تسليم الكتب المقدسة التى بحوزته. لقد سار الجيش الآن أكثر من أسبوعين، وفى اليوم التـــالى؛ يـــأتى عيـــد القـــديس رافاييل(١٦)، الذى قال الأب كريستوفر أنه أحد الملائكة الـــسبعة

=ظل الأسقف مُلقى أربعة أيام فى السفينة بدون طعام أو شراب حتى وصلت المركب إلى اجريجنتم فى صقلية، حيث استقبله المسيحيون فى الجزيرة وفى كل المدن التى مر بها بكل احترام وتبجيل. حين وصل فيلكس إلى ڤينوسا فى أبوليا، فكَّ القائد عنه الحديد وسأله إن كان يملك كتبًا مقدسة ولماذا لا يريد تسليمها، فأجاب القديس بأنه فعلاً يملكها ولكنه لن يسلمها لهم أبدًا. وبدون أى تردد أمر القائد بقطع رأسه، فصلى القديس شاكرًا الله على مراحمه ثم مدَّ رأسه للسياف مقدمًا نفسه ذبيحة لله. وكان استشهاده فى سنة ٣٠٣ م، وكان له من العمر حينئذ ٥٦ سنة، وكان من أوائل الذين استشهدوا فى عصر دقلديانوس. وتقول بعض المصادر أن الشهيد لم يسافر إلى إيطاليا بل عُذِّب واستشهد فى قرطبة وأن رفاته ما تزال مدفونة هناك. يُحتفل بعيده فى الكنيسة الغربية فى ٢٤ أكتوبر من كل عام. (المترجم).

(١٦) القديس الملاك رافييل (Saint Raphael The Archangel): رافييل هو الإله الشافى وبالعربية هو إسرافيل. هو الملاك الرئيسى فى اليهودية والمسيحية والإسلام ويمثل فى اليهودية والمسيحية الشافى من كل الأوبئة. ذُكِر اسم رافييل فى العديد من الكتب اليهودية المشكوك فى صحتها أنه تصدى لعزازيل وقيده أسفل صحراء داديل Dudael. ويظهر اسم الملاك رافييل فى الكاثوليكية أنه يجسد لأول مرة فى الصورة البشرية وارتحل مع جماعة ابن توبيت Tobit وأطلق على نفسه اسم عزارياس Azarias. ظهرت معجزاته أثناء الرحلة حيث قيد=

الرئيسة التى تقف أمام عرش الرب. ووجـــه الأب كريـــستوفر سؤالاً إلى هوك فى عيد القديس رافاييل:

- هل تعلم ما هو الغد؟

اضطر هوك أن يفكر فى الإجابة، وعندما أجاب جـــاءت إجابته غير واثقة.

- أهو الأربعاء؟

قال الأب كريستوفر مبتسمًا:

- لا، غدًا هو الجمعة.

قال هوك وهو يبتسم ابتسامةً عريضةً:

- حسنًا، لقد عرفت الآن أن غـــدًا هـــو يـــوم الجمعـــة، وستجعلنا كلنا نأكل السمك يا أبتى. أهى سمكة من سمك السلمون المرقط ممتلئة وجميلة؟ أو ربما ثعبان الماء؟

قال الأب كريستوفر بلطف:

=الشيطان فى صحراء مصر العليا. وبعد العودة وشفائه لتوبين من العمى سمى عزارياس نفسه الملاك رافاييل واحدًا من السبعة الذين يرمزون إلى الإله. (المترجم).

- إن الغد هو يوم عيـــد القـــديس كريـــسبين والقـــديس كريسبينيان.

قال هوك:

- أوه، يا إلهى الحبيب.

وأحس كأن ماءً باردًا قد غسل قلبه فجأةً، رغم أنـــه لـــم يعرف على وجه الدقة أهذا خوفٌ أم يقينٌ مفاجئٌ أن يومًا كهذا يشى بدلالةٍ حقيقيةٍ ومفيدة.

اقترح القس عليه:

- وربما يكون هذا يومًا جيدًا لتتلو صلواتك.

وعده هوك:

- سأفعل أيها الأب.

وبدأ يصلى فى نفس اللحظة. ودعا للقديس كريسبينيان:

- دعنا نعيش حتـــى عيـــدك دون أن نـــرى الفرنـــسيين وسأعرف وقتها أننا آمنون.

وصلى:

- دعنا نهرب وخذنا بأمانٍ إلى الوطن.

وتضرع:

- أعم الفرنسيين عن وجودنا.

وكرر تلك الصلاة إلى القديس رافاييل، القديس الراعي للمكفوفين.

وصلى:

- فقط خذنا بأمان إلى الوطن.

ونذر للقديس كريسبينيان أنه سيقوم بحجةٍ إلى سواسون إذا أعاده القديس إلى الوطن، وأنه سيضع مالاً في وعاء النذور في الكاتدرائية؛ ما يكفي من المال ليعوض ستار المذبح الأمامي الذي قطعه چون ويلكنسون منذ زمنٍ طويل.

صلى:

- فقط خذنا إلى الوطن، خذنا كلنا إلى الوطن وآمنا من الخوف.

وقد استجيبت صلوات هوك في ذلك اليوم، يوم عيد القديس رافاييل، الخميس، الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٤١٥.

كانوا يسيرون عبر منطقةٍ من التلال الصغيرة المنحدرة والجداول السريعة الجريان. يقودهم رجلٌ محليٌّ، حائك ملابس،

يعرف الطرق الريفية المتشابكة التى تملأ الريف. وقد قاد هوك وفرقة الاستكشاف عبر ممرٍ للعربات يتلوى تحت الأشجار. إن الطريق إلى كاليه يبعد عنهم بعض المسافة تجاه الغرب، لكن ليس بإمكانهم أن يسلكوه لأنه يقود إلى هيستن(١٧)؛ وهى مدينةٌ محصنةٌ على ضفة نهرٍ صغيرٍ، والجسر هناك يحرسه برجٌ دفاعىٌ ولذا أخذهم الدليل تجاه معبرٍ آخر.

قال الرجل:

- اذهبوا شمالاً بعد النهر، فقط اذهبوا شمالاً وستجدون الطريق مرةً أخرى. أتفهمون؟

بدا خائفًا من الرماة، وخاف أكثر من الجنود فى بزاتهم العسكرية وهم على صهوة جيادهم خلفه بالضبط، يأخذون القرارات حول ما إذا كان بالإمكان الوثوق فى حائك الملابس.

---

(١٧) هيستن (Hesdin): هى كوميون (أصغر وحدات التقسيم الإدارى) وتقع فى شمال فرنسا. أعطى فيليب كونت فلاندرز (أرتويس) Artois مهرًا لابنة أخيه إيزابيل Isabel عندما تزوجت من فيليب أغسطس من فرنسا عام ١١٨٠، ولذا انتقلت هيسددن وباقى الإقطاعيات إلى ملكية فرنسا. أمر الامبراطور تشارلز الخامس عام ١٥٥٣، بتدمير كل المدينة الحصينة القديمة تدميرًا تامًا وبناء المدينة الحالية فى العام التالى على بعد ستة كيلومترات تقريبًا من الموقع الأصلى. (المترجم).

قال هوك:

- لقد فهمت.

قال الرجل فى إصرار:

- فقط اذهبوا شمالاً.

كان الممر يهبط إلى وادٍ حيث تقف قريةٌ على الضفة الجنوبية للنهر.

قال الرجل:

- نهر ترنواز(١٨).

ثم أشار إلى الضفة البعيدة حيث ترتفع التلال، وقال:

- تسلقوا هناك وستجدون الطريق إلى القديس أومير.

- القديس أومير؟

---

(١٨) نهر ترنواز (Ternoise): هو واحد من الأنهارالصغيرة التى تتدفق من سهل بيكاردى الواسع المرتفع ويصب فى القناة الإنجليزية. منبعه الأصلى من مقاطعة Pas-de-Calais والدولة الرئيسية التى يمر بها هى فرنسا. يبلغ طوله ٤٣ كم. هو واحد من الأنهار السبعة فى منطقة الأودية السبعة السياحية ومنه تأخذ منطقة ترنواز اسمها. (المترجم).

قال الدليل بالفرنسية:

- نعم!

وتذكر هوك رحلته مع ميليساند عندما كان القديس أومير هو هدفهم، ولم تكن كاليه تبعد كثيرًا عنــه، ودار بخلــده كــم اقتربوا! قال الدليل المتوتر شيئًا آخر، ولم يسمعه هــوك جيــدًا فطلب منه تكرار ما قال، فقال الرجل:

- إن السكان المحليين يطلقون على ترنواز اســم نهــر السيوف.

بعث الاسم رجفةً فى جسد هوك.

- لماذا؟

هز الرجل كتفيه وقال:

- كلهم مجانين، إنه مجرد نهر.

بدا ماء النهر ضحلاً رغم الأمطار الأخيرة، وأمر الفارس الذى يقود الجنود هوك أن يأخذ رماته عبر النهر ويصعد الضفة الأخرى، وقال له:

- انتظروا عند القمة.

غمز هوك حصانه (راكر) مطيعًا الأوامر، نازلاً إلى نهر السيوف وتبعه رماته، أثارت أرجل خيولهم رذاذ الماء الذى وصل بالكاد إلى بطون الخيل، وصعدوا الضفة الأخرى الشديدة الانحدار ببطءٍ على ظهور خيولهم المنهكة. لقد توقف المطر رغم أن السماء بين الحين والآخر ترسل بعض الرذاذ وقد غدت أكثر قتامة عما كانت من قبل. كانت السحب منخفضةً وسوداء تقريبًا، وبدا الهواء على الأفق الشرقى وكأنه اكتسى بالسناج. قال هوك لويل:

- إنها ستمطر بغزارة.

أجاب ويل بسرعة:

- تبدو كذلك.

كان الهواء قاسيًا وكثيفًا ويمتلىء بنذير غريب.

لم يكد هوك يصل إلى نصف المنحدر حتى طرطشت خيول فرقة الجنود فى ماء النهر صعودًا خلفه وهم يستحثون خيولهم. استدار هوك فوق سرجه ورأى صف الرجال وقد ملأ ضفة نهر ترنواز البعيد وكأن إحساسًا بالخطر قد لحق بهم. مر السير چون أمام هوك وحوافر حصانه تضرب الأرض بقوة وخلفه يسير حامل رايته فى اتجاه القمة التى ارتسمت كخطٍ قبالة

السماء الغائمة القاتمة، وبعد لحظةٍ عدا الملك نفسه بحصان لونه كالليل صاعدًا المنحدر، تساءل توم سكارليت:

- ماذا يحدث؟

قال هوك:

- الرب أعلم.

كبح الملك وحاشيته ألجمة خيولهم، وكذا فعل كل جندى آخر عند قمة التل ووقفوا يحدقون الآن جهة الشمال.

ثم وصل هوك إلى خط الأفق وحدق هو الآخر.

انبسطت الأرض أمامه حتى قريةٍ تقع فى وادٍ أخضر صغير يصعد منها طريقٌ إلى أرضٍ واسعةٍ جرداء تحت السماء المحدقة إليها. كانت الأرض المرتفعة الجرداء محروثةً وعلى جانبى الأرض التى شقتها المحاريث حديثًا تقوم غابتان كثيفتان وفوق قمم الأشجار إلى جهة الغرب تظهر أسوار قلعة صغيرة ويرفرف من برجها المبنى على طراز القلاع راية لكنها بعيدة جدًا فلا يبين الشعار الذى يرتسم عليها.

هنالك شىءٌ ما مألوفٌ فى هذا الموضع من الأرض، ثم تذكر هوك، وقال دون أن يوجه حديثه إلى شخصٍ بعينه:

- لقد كنت هنا من قبل، أنا وميليساند كنا هنا.

أجابه توم سكارليت:

- حقًا؟

لكنه لم يكن منتبهًا إليه بالفعل. قال هوك وهو يحدق في ذهول:

- لقد قابلنا فارسًا هنا وقد أخبرنا باسم المكان ولكننى لا أستطيع أن أتذكره.

قال سكارليت دون اهتمام:

- لابد أن له اسمًا على ما أظن.

وصل المزيد من الرجال الإنجليز إلى القمة. توقفوا هناك محدقين. لم يتفوه أحدهم بشيء. رسم الكثيرون علامة الصليب على أنفسهم لأن العدو أمامهم على الشاطئ كالرمال أو كالنجوم فى السماء. لقد احتشدت قوات فرنسا وبورجوندى عند الطرف القصى للأرض المحروثة. ترفرف راياتهم المتباهية التى لا يمكن إحصاؤها فوق جموعهم.

إن قوات فرنسا قد سدت الطريق إلى كاليه وصار الإنجليز محاصرين.

وقد ملأ مرأى العدو الملك هنرى، إيرل تشستر[١٩]، دوق أكواتين[٢٠]، لورد أيرلندا[٢١] وملك إنجلترا بطاقةٍ جديدةٍ وحشيةٍ، وصاح:

---

(١٩) إيرل تشستر (Earl of Chester): أصبحت تشستر واحدة من أقوى المقاطعات التى يحكمها إيرل فى إنجلترا فى القرون الوسطى، وقد تداخل اللقب مع لقب أمير ويلز منذ القرن الرابع عشر، حكم تشستر رجال أقوياء من النورمانديين الفرنسيين منذ القرن الحادى عشر. وقد منح هذا اللقب ست مرات منذ عام ١٠٦٦ حتى ١٣٧٧. ومنذ عام ١٣٠١، واللقب يمنح إلى الوريث المؤكد لعرش إنجلترا. (المترجم).

(٢٠) دوق أكواتين (Duke of Aquitaine): دوقية تاريخية حكمت المنطقة التاريخية أكواتين (وينبغى لنا عدم الخلط بينها وبين أكواتين الحديثة) وكانت تابعة فى البداية لإنجلترا ثم ملوك فرنسا. وقد ورثت أكواتين – كونها الدولة الوريثة لمملكة القوط- القوانيين القوطية والرومانية وقد توحدت هذه القوانيين لتمنح المرأة حقوقًا أكثر من تلك التى تتمتع بها النساء المعاصرات حتى القرن العشرين. (المترجم).

(٢١) لورد أيرلندا (Lord of Ireland): تشير إلى ذلك الجزء من إيرلندا سيطرت عليه البابَاوية من خلال ملك إنجلترا. ظهر هذا اللقب بعد الغزو النورماندى لأيرلندا عام ١١٦٩. أصبح ملك إنجلترا هو لورد إيرلندا. اتسعت اللوردية لتشمل كل إيرلندا إلا أن سيادتها الحقيقية لم تشمل إلا مناطق محدودة من الجزيرة. عندما قسم الملك هنرى الإقطاعيات على أبنائه لم تبق لأصغرهم چون أى أراضٍ ليحكمها؛ ولذا استخدم هذه الأرض ليحل هذا النزاع ومن ثم أصبح چون لورد إيرلندا عام ١١٧٧ وحتى ١٢١٦. وقد ازدهرت اللوردية فى القـــرن=

- تشكيل القتال! تشكيل القتال!

وعدا بحصانه أمام جيشه المحتشد، قائلاً:

- أطيعوا قادتكم! إنهم يعلمون أيـن يجـب أن تكونـوا، تشكلوا حول راياتهم، سنقاتل هذا اليوم بفضل الـرب! تشكيل القتال!

كانت الشمس منخفضةً خلف الغيوم الهائلـة، ولا يـزال الجيش الفرنسى يتجمع تحت الرايات الكثيرة كالأشـجار، قـال توماس إيڤل-جولد:

- لو أن كل راية تمثل لوردًا، وكل لورد يقـود عـشرة رجال، فكم يكون عدد أولئك الرجال.

قال هوك:

- آلاف اللعناء.

قال رقيب الرماة:

- إن عشرة رجال عدد قليل، قليل جدًا، أظنهم مائة رجل لكل راية ربما مائتين.

= الثالث عشر خلال فترة الرخاء والدفء فى القرون الوسطى، حيث تحسن الطقس وأصبح أكثر دفئًا وازدادت المحاصيل. (المترجم).

قال هوك:

- يا عيسى الحبيب.

وحاول أن يعد رايات العدو، لكنها كانت كثيرةً جدًا، كل ما استطاع أن يعرفه أن جيش العدو كان ضخمًا وجيش إنجلترا كان صغيرًا، ولم يستطع مقاومة القول :

- فليساعدنا الرب.

ومرة أخرى تذكر الدم والصراخ فى سواسون، تلك الذكرى التى تبعث الرجفة فى جسده.

قال إيفل-جولد بخفة:

- على أحدهم أن يساعدنا.

ثم استدار إلى رماته، وقال:

- نحن على الميمنة. ترجلوا! العصى والأقواس! نشاط! أريد غلمانًا للأحصنة! هيا، لا تتباطأوا! حركوا عظامكم اللعينة! علينا إنجاز مهمة: أن نموت!

تُرِكَت الخيول فى المرج جوار القرية، بينما تسلق الجيش المنحدر البسيط إلى المرتفع. لم يكن بإمكانهم رؤية العدو من الوادى الصغير لكن عندما واجه هوك الأرض المحروثة على

المرتفع، استطاع رؤية الفرنسيين مرةً أخرى وأحس مخاوفه تتسلل إليه ثانيةً. إن ما رآه جيشٌ جيد. جيشٌ فخورٌ محتشدٌ جاء ليعاقب الرجال الذين تجاسروا على غزو فرنسا وليس مجموعةً من الهاربين الشعثاء المرضى.

صارت المقدمة الإنجليزية الآن على الميمنة، ورماتها إلى أقصى يمينها، وقد انضم إليهم هناك نصف رماة قلب الجيش، أما نصفهم الآخر فقد ذهب إلى الميسرة، وهكذا تشكل جناحا الجيش من تجمعين من الرماة اللذين حوطا الجنود المشاة من الجانبين، وشكل هؤلاء خطًا في المنتصف.

قال توم سكارليت:

- أيها المسيح الحبيب، لقد رأيت أكثر من هؤلاء الرجال في سوق الخيول.

كان يشير إلى الجنود الإنجليز الذين يقل عددهم عن ألف رجلٍ وقد شكلوا خطًا صغيرًا مثيرًا للشفقة في قلب التشكيل القتالي. إن الرماة أكثر منهم بكثيرٍ. وقد تجمع منهم على كل جناح أكثر من ألفين. عدا فارسٍ يرتدي معطفًا أخضر بحصانه في مواجهة الرماة وهو يصيح:

- العصي! اغرسوا عصيكم أيها الرجال!

سار السير چون الذى انضم مع جنوده إلى وسط الخط القتالى، وتوجه إلى حيث يعد الرماة عصيهم، وقال شارحًا لهم:

- سننتظر لنرى إذا هاجمونا، فإذا لم يفعلوا فسنقاتلهم فى الصباح.

تساءل رجل:

- ولماذا لا نهرب فقط تحت جنح الظلام؟

صاح السير چون:

-لم أسمع هذا السؤال!

ثم واصل السير أمام الخط وهو يخبر الرجال بضرورة الاستعداد لهجومٍ فرنسيٍ.

لم يكن الرماة فى صفهم على مقربة من بعضهم البعض مثل الجنود الذين وقفوا والكتف المدرعة إلى الكتف فى صف من أربعة رجال، أما الرماة فيحتاجون -على العكس من ذلك- إلى مساحةٍ ليشدوا قامات أقواسهم الطويلة، واستجابةً للأوامر التى ألقيت عليهم بأصواتٍ مرتفعةٍ تحركوا بعض الخطوات أمام الجنود، حيث تفرقوا قليلاً ليجد كل رجلٍ لنفسه المساحة الملائمة. وقف هوك فى طليعة رجال المقدمة مع بقية رجال

السير چون. أحصى هوك حوالى مائتى رامٍ على نفس الصف معه، أما البقية فكانوا خلفه فى دزينةٍ من الصفوف المخلخلة حيث يدقون الآن عصيهم وأطرافها المدببة تجاه الفرنسيين، وبعد أن تثبت العصا فى مكانها يحتاج طرفها المستدق الظاهر إلى زيادة حدته مرةً أخرى بعد الدق، صاح الرجل ذو المعطف الأخضر:

- قفوا أمام عصيكم! لا تدعوا العدو يراها!

غمغم ويل بتذمرٍ:

- إن أولاد الحرام ليسوا مكفوفين، إنهم رأوا ولا شك ما قمنا به.

راقب الفرنسيون ما يحدث فهم على بعد نصفٍ ميلٍ ولا يزالون يَصِلون، حشدٌ من الألوان على ظهور الخيل تحت الرايات التى تبدو أكثر لمعاناً من السماء التى صارت أكثر قتامةً بتكاثف السحب.

التف معظم الفرنسيين عند الأفق حيث تنتصب خيامهم، لكن المئات منهم توجهوا جنوبًا فوق صهوة جيادهم ليحدقوا فى جيش إنجلترا.

قال توم سكارليت:

- أراهن أن أولاد الحرام يضحكون علينا، ربما يبولون على أنفسهم من الضحك.

كان أقرب فرسان العدو على بعد ربع ميلٍ فقط، وقد وقفوا أو ساروا فى الأرض المحروثة يحدقون فقط فى الجيش الصغير الذى يواجههم. بدت الغابات مظلمة إلى اليمين واليسار فى ضوء المساء الشاحب. ذهب بعض الرماة بعد أن ثبتوا عصيهم فى أماكنها إلى الأشجار ليفرغوا أحشاءهم فى الشجيرات المتشابكة من الزعرور البرى والإيلكس والبندق، لكن أغلب الرماة حدقوا إلى العدو وحسب. ظن هوك أن توم سكارليت محقٌ فيما قال. على الفرنسيين أن يضحكوا، فلديهم بالفعل أربعة أو خمسة رجال على الأقل مقابل كل رجلٍ إنجليزى، وما زالت قواتهم تتوارد نحو الطرف الشمالى للحقل. نزل هوك على إحدى ركبتيه على الأرض الرطبة، ورسم علامة الصليب على نفسه، وصلى للقديس كريسبينيان، لم يكن هو الرامى الوحيد الذى يصلى، دزيناتٌ من الرجال نزلوا راكعين على ركبهم وكذلك الجنود. سار القساوسة بين صفوف الجيش المشئوم يقدمون البركات، بينما يدرب الفرنسيون خيولهم بالسير عبر الأرض المحروثة، وقد تخيل هوك وعيناه مفتوحتان، ضحكهم

وسخريتهم على هذا الجيش المثير للشفقة الذى تحداهم، وحاول أن يهرب منهم لكنهم حاصروه الآن.

صلى للقديس كريسبينيان:

- احمنا.

لكن القديس لم يجب صلواته بشىءٍ. ظن هوك أن صلواته قد ضاعت ولا شك فى الفراغ المظلم العظيم خلف السحب المشئومة.

أمطرت بغزارة، كان مطرًا باردًا وكثيفًا، ومع اشتداد الريح تساقطت قطرات المياه بكثافة شديدةٍ، مما جعل الرماة يفكون أوتار أقواسهم ويلفونها داخل قبعاتهم وخوذاتهم لئلا تتشبع بالماء. ركب الرسل منطلقين على رأس المجموعة ليقابلوا مماثليهم من الفرنسيين، ورأى هوك الرجال يحيون بعضهم بعضًا بالانحناء وهم على سروجهم، وبعد هنيهةٍ عاد الرسل الإنجليزيون وقد تلطخت خيولهم بالطين من حوافرها حتى بطونها.

جلب السير جون الأخبار إلى الرماة، وأخبرهم:

- ليس ثمة قتالٌ الليلة يا شباب! فلنبق حيث نحن! لا تشعلوا أى نيرانٍ هنا! عليكم أن تبقوا صامتين!

سيمنحنا العدو شرف القتال غدًا، ولذا حاولوا النوم!
ليس ثمة قتالٌ الليلة!

. سار بفرسه بمحاذاة خط الرماة وقد تلاشى صوته في هسيس وقع المطر الشديد.

ظل هوك راكعًا على إحدى ركبتيه، قال للقديس:

- سأقاتل في يومك، في يوم عيدك، اعتن بنا، أبق ميليساند بأمان، أبقنا كلنا بأمان. أتوسل إليك. أتوسل إليك باسم الآب. خذنا آمنين إلى الوطن.

وليس ثمة إجابة سوى تلك الهسهسة الحادة للمطر، وهزيم الرعد البعيد.

قال توم بيريل بسخريةٍ:

- على ركبتيك يا هوك.

وقف هوك، واستدار، ليواجه عدوه، لكن توم إيفل-جولد كان قد وقف بالفعل بجسده بين الرامين، وقال قائد الرماة متحديًا بيريل:

- هل تريد التحدث مع هوك؟

قال بيريل متجاهلاً إيفل-جولد:

- أتمنى أن تعيش غدًا يا هوك.

قال هوك:

- أرجو أن نعيش جميعًا غدًا.

وأحس كراهيةً رهيبةً تجاه بيريل، لكن لم تكن لديه طاقةٌ ليحولها إلى معركةٍ فى هذه الظلمة الرطبة.

قال بيريل:

- لأننا لم ننته بعد.

وافقه هوك القول:

- حقًا، نحن لم ننته بعد.

قال بيريل وهو يحدق إلى هوك:

- أنت قتلت أخى، لقد قلت أنك لم تفعل. لكنك قتلته، وموت أخيك لم يغير شيئًا يذكر. لقد وعدت أمى بشىءٍ وأنت تعرف ما هو ذلك الوعد.

وتساقطت قطرات المطر من على حافة خوذته.

قال إيفل-جولد:

- يجب أن تغفرا لبعضكما البعض. إذا كنا سنقاتل في الغد فيجب أن نكون أصدقاء. لدينا من الأعداء ما يكفينا.

قال بيريل بعنادٍ:

- لدي وعدٌ لأوفيه.

تساءل هوك:

- لأمك؟ وهل يُعد الوعد لعاهرةٍ شيئًا يذكر؟

لم يستطع مقاومة السخرية.

عبس بيريل لكنه حافظ على تماسك أعصابه.

- إنها تكره عائلتك وتريدها أن تموت، وأنت آخر من بقي من هذه العائلة.

قال إيڤل-جولد:

- ربما يسعد الفرنسيون أمك بقتله.

قال بيريل:

- سيقوم أحدنا بذلك، إما أنا أو هم.

أومأ برأسه إلى جيش العدو، وإن أبقى عينيه على هوك، واستطرد:

- لكننى لن أقتلك أثناء قتالهم لنا. هذا ما أتيت لأخبرك به.

وأكمل وفى صوته سخرية:

- أنت خائفٌ بما يكفى ولا ينقصك أن تراقب خلف ظهرك.

قال إيفل-جولد:

- لقد قلت كلماتك، اذهب الآن.

اقترح بيريل متجاهلاً قائد الرماة:

- فلنأخذ هدنةً حتى ينتهى هذا الأمر.

وافقه هوك قائلاً:

- أنا لن أقتلك بينما هم يحاربوننا.

طلب بيريل:

- ولا هذه الليلة.

قال هوك:

- ولا هذه الليلة.

قال بيريل:

- إذن نم جيدًا يا هوك، فقد تكون هذه ليلتك الأخيرة على الأرض.

ثم سار مبتعدًا.

تساءل إيقل-جولد:

- لماذا يكرهك؟

- يرجع هذا الأمر إلى عهد جدى، نحن فقط نكره بعضنا البعض. أفراد عائلة هوك وأفراد عائلة بيريل، إنهم فقط يكرهون بعضهم البعض.

قال إيقل-جولد بشدةٍ:

- حسنًا، ستكونان أنتما الاثنان فى عداد الأموات فى مثل هذا الوقت من الغد، سنكون كلنا كذلك. ولذا قم باعترافك، وصل قداسًا قبل القتال، وسيقوم رجالك بالحراسة هذه الليلة. سيقوم رجال والتر بالنوبة

الأولى، وخذ أنت الثانية. عليك أن تـذهب لمنتـصف ساحة القتال.

وأومأ برأسه إلى الأرض المحروثة، واستطرد:

- وعليكم ألا تصنعوا أية جلبة، لا يُقدِمَنَّ أحـدكم علـى ذلك، لا صياح، لا غناء، لا موسيقى.

- ولم لا؟

- وكيف لى أن أعرف بحق الجحيم؟ إذا قام أحد الرجال النبلاء بضوضاءٍ يأخذ الملك حصانه وعدته الحربيـة، وإذا قام بذلك أحدٌ الرماة تقطع أذناه. إنها أوامر الملك. ولذا قم بالمراقبة، وليساعدك الرب إذا جاء الفرنسيون.

- لن يأتوا، أليس كذلك؟ ليس فى هذه الليلة؟

- إن السير چون لا يظن ذلك ولكنه رغـم ذلـك يريـد حراسة.

وهز إيفل-جولد كتفيه، وكأنه يعتقد أن الحراسة لن تفيـد بشىءٍ، ثم سار بعيدًا إذ لم يبق المزيد مما يقال.

أتى المزيد من الفرنسيين ليروا أعداءهم قبل أن يخفيهم الليل.

اجتاحت الأمطار بقوةٍ شتى أنحــاء الأرض المحروثــة، وحجب صوت تساقطها أى صوت أو ضــحكةٍ تــصدر مــن الأعداء. إن الغد هو يوم عيــد القــديس كريــسبين والقــديس كريسبينيان، وقد قدر هوك أنه سيكون يومه الأخير.

أمطرت طوال الليل؛ مطرًا باردًا كثيفًا، جرى السير چون كورنويل تحت هذه الأمطار إلى كوخ فى ميزون–سيل[٢٢] حيث مساكن الملك، لكنه وجد هناك فى الغرفــة الــضيقة الممتلئــة بالدخان أخا الملك الأصغر؛ هامفرى، دوق جلوستر، وتوماس، دوق يورك[٢٣]، بيد أن أحدًا منهما لم يكن يعرف أين ذهب ملك إنجلترا.

---

(٢٢) ميزون–سيل (Maisoncelle): هى كوميون يقع فى مقاطعة Pas-de-Calias فى فرنسا. يوجد بها كنيسة القديس چين المعمدانى التى أعيد بناؤها عام ١٩٥٩. (المترجم).

(٢٣) مدينة يورك (York): مدينة بريطانية قديمة تقع إلى الشمال الغربى من إنجلترا وتبعد حوالى ٢٠٠ ميل عن العاصمة لندن، تشتهر بآثارها القديمة كقلعة يورك وكاتدرائية يورك والسور المحيط بجزء من المدينة. تعرف هذه المدينة باسم يورك منذ نحو ١٠٠٠ سنة للميلاد، وفى حقبة سيطرة الفايكنج كانت تعرف باسم يرويك حيث كانت عاصمة الجزيرة البريطانية وقبل ذلك كانت تعرف بالأنجلوساكسون=

قال دوق يورك:

- ربما يصلى يا سير چون.

قال السير چون بقوة:

- إن الرب ليصم أذنيه الليلة يا صاحب السمو.[٢٤]

قال الدوق:

= باسم أفرويك. أراد ريتشارد الثانى أن يجعل المدينة عاصمة لإنجلترا لكن خلعه حال دون ذلك. تعج مدينة يورك بالمعالم السياحية التى تتمثل بكاتدرائية يورك مينستر الشهيرة ومتحف السكك الحديدية ومتحف قلعة يورك ومركز جورفيك وحصن كليفورد وزنزانة يورك. أما دوق يورك (Duke of York) فهو لقب نبالة يمنح لأبناء طبقة النبلاء فى إنجلترا. منح هذا اللقب منذ القرن ١٥ لأول مرة إلى الابن الثانى لملك إنجلترا. منح هذا اللقب إحدى عشر مرة بصورة استثنائية. أول ثمانى مرات يمنح لقب دوق يورك والثلاث التالية أصبح اللقب دوق يورك وألبانيا. دوق يورك الحالى هو الأمير أندرو الابن الثانى للملكة إليزابيث الثانية، وليس لديه أى أبناء ذكور ليرثوا اللقب من بعده. منح اللقب لأول مرة عام ١٣٨٥ لإدموند من لانجلى Edmund of Langely ابن الملك إدوارد الثالث. (المترجم).

(٢٤) هكذا وردت فى النص الأجنبى: (God's ears are getting a battering tonight، your grace) وقد أثبتناها لأمانة الترجمة ولكننا ننزه الله عن كل نقص. (المترجم).

- فلتضف صوتك إلى النشاز.

كان الدوق حفيد إدوارد الثالث وابن عم ريتشارد الثاني[٢٥] الذى اغتصب والد الملك عرشه. لكنه أثبت ولاءه لابن مغتصب عرشه، ولأن ولاءه وافق مزاج الملك فقد تعمقت ثقة الملك هنرى فيه، واستطرد الدوق:

---

(٢٥) ريتشارد الثانى (Richard II): (٦ يناير ١٣٦٧-١٤ فبراير ١٤٠٠) ثامن ملوك إنجلترا من أسرة بلانتاجينية، استمرت فترة حكمه من عام ١٣٧٧ حتى الإطاحة به فى عام ١٣٩٩. كان ريتشارد ابنًا للأمير إدوارد الأسود حيث ولد فى عهد جده إدوارد الثالث ملك إنجلترا. وفى الرابعة من عمره أصبح ترتيب ريتشارد ثانيًا فى ولاية العهد بعد وفاة شقيقه الأكبر إدوارد أنجولد، ثم وليًا للعهد بعد وفاة والده فى عام ١٣٧٦. ومع وفاة إدوارد الثالث فى العام التالى اعتلى ريتشارد العرش فى سن العاشرة.

خلال السنوات الأولى فى ملك ريتشارد كان الحكم فى يد سلسلة من المجالس حتى لا يسيطر چون دوق لانكستر عم الملك والوصى على العرش بمفرده. كانت ثورة الفلاحين عام ١٣٨١ هى أول التحديات الرئيسة فى عهده وقد تعامل معها الملك الشاب بشكل جيد. وفى عام ١٣٨٧ سيطر على الحكومة مجموعة من النبلاء، وهو ما عرف باسم مجلس اللوردات. بعد وفاة عمه چون دوق إنجلترا، جرَّد ابن عمه هنرى من أملاكه فغزى هنرى إنجلترا وبعد مقاومة لا تذكر خلع هنرى ريتشارد ونصب نفسه ملكًا تحت اسم هنرى الرابع. توفى ريتشارد فى الأسر فى بداية العام التالى ويرجح أنه قتل. (المترجم).

- أنا واثقٌ أن جلالته خرج يختبر حماس الرجال.

قال السير چون:

- سوف يفعلها الرجال.

لا يرتاح السير چون مع الدوق إذ إن تعليمه وقدسيته تمنحانه جوًا منعزلاً بعيدًا، لكنه استطرد:

- إنهم يشعرون بالبرد، والملل، بللتهم السماء، وأرهقهم الجوع، وضربهم المرض، لكنهم سوف يقاتلون غدًا مثل الكلاب المسعورة. لم أكن أنا لأتمنى محاربتهم.

بدأ هامفرى، دوق جلوسستر، الحديث:

- أنت لم تنصح...

ثم تردد وقرر ألا يستمر فى الحديث. عرف السير چون السؤال الذى لم يُطرح. هل نصح الملك أن يهرب أثناء الليل؟ لا، لم يفعل ذلك، كما أنه لم يتفوه بمثل ذلك الرأى. لن يفر الملك، ليس الآن. إن الملك مؤمنٌ أن الرب يسانده، وفى الصباح مطلوبٌ من الرب أن يثبت ذلك بمعجزة.

قال السير چون:

- سأترك سموك وأذهب للجيش.

تساءل دوق يورك:

- هل نترك رسالةً لجلالته؟

قال السير چون:

- أتيت فقط لأتمنى له بركات الرب.

لقد ذهب فى الحقيقة إلى هناك ليختبر حالة الملك النفسية، رغم أنه لا يشك حقًا فى عزيمة الملك هنرى. ودعهم، وعاد إلى الحظيرة التى كان يقيم بها. كانت كوخًا بائسًا عفنًا، لكن السير چون أدرك أنه محظوظٌ أن وجده فى تلك الليلة التى يتعرض فيها أغلب الرجال للبرق، والرعد، والمطر، وبرد الشتاء.

نقرت قطرات المطر على السطح الهش، وتسربت من القش، وأوحلت الأرضية، حيث تثير نارٌ ضعيفةٌ الدخان أكثر مما تمنح الضوء. وجد فى انتظاره ريتشارد كارترايت؛ صانع دروع السير چون، بدت عليه أمارات الكهنوتية أكثر من أىّ كاهن بوجهٍ جليلٍ ترتسم عليه الجدية والتهذيب اللطيف، تساءل:

- الآن يا سير چون؟

قال السير چون:

- الآن.

وخلع معطفه المبتل جوار النار.

خلع درعه التى ارتداها أثناء النهار، وقــام كارترايــت بتجفيفها وتنظيفها من الصدأ وصقلها.

استخدم الآن قماشاً حافظ عليها جافة فى جعبته على ظهر الحصان لينظف ويجفف البنطال القصير والسترة اللتــين كــان السير چون يرتديهما. إن الجلد المستخدم من جلد الأيل الطرى، وقد حاك الثوبين الغاليى الثمن حائك ملابس فى لندن ولذا كانــا يناسبان السير چون كأنهما جلدٌ ثانٍ فــوق جلــده. لــم ينطــق كارترايت ببنت شفهٍ وهو يفرك ملء قبضته من اللانولين على جلد الأيل.

غاب السير چون مع أفكاره، لقد فعل هذا مرارًا. أن يقف وقد مد يديه على اتساعهما بينما كارترايت يجعل الجلــد علــى يديه ورجليه زلقًا حتى تتحرك الدروع فوقهــا بــسهولة. عــاد بأفكاره إلى بطولات الفروسية والمبــارزة والمعــارك، وإلــى الإثارة التى تصحب دائمًا انتظار ذلك القتال، لكنه لا يحــس أى إثارةٍ الليلة. ما زالت قطرات المطر تدق دقاتها والرياح تــدفعها عبر باب الحظيرة. فكر السير چون فى آلاف الرجال الفرنسيين

الذين يعدهم صانعو دروعهم للمعركة، ودار بخلده أنهم آلافٌ كثيرةٌ جدًا، إنهم كثرة.

قال كارترايت:

- هل تقول شيئًا يا سير چون؟

- هل قلت؟

- لا بد أننى أخطأت السمع يا سير چون، ارفع يديك، رجاءً.

ألبس كارترايت السير چون معطفه المدرع من فوق رأسه، إن المعطف ذا الدروع اللينة منضبط المقاس، دون أكمام، ويمتد حتى أعلى فخذى السير چون، فتحات الذراعين واسعةٌ حتى لا تعيق السير چون. غمغم كرترايت:

- اغفر لى يا سير چون.

كانت هذه عادته دائمًا عندما يركع أمام سيده ويربط الحواشى الأمامية والخلفية للدرع بين ساقى السير چون. لم يقل السير چون شيئًا.

ظل كارترايت صامتًا هو الآخر وهو يلف الدروع على فخذى السير چون، وتتراكب الدروع الأمامية قليلاً فوق الخلفية.

ثنى السير چون رجليه ليتأكد أن الدروع الفولاذية تتحرك قبالة بعضها البعض بنعومةٍ. لم يطلب أى تعديلٍ لأن كارترايت يعرف بالضبط ما يفعله. الخطوة التالية هى الدّروع التى تحمى ساقى السير چون، والجزء الدائرى الذى يحمى ركبتيه. والدروع التى تغطى حذاءه وتثبت بابزيمٍ على دروع الساقين.

وقف كارترايت وربط السترة فى موضعها، وكانت السترة من الجلد المقوى بدروعٍ والمغطى بشرائط متراكبةٍ من الفولاذ لتحمى حوض السير چون. كان السير چون يفكر فى رماته الذين يحاولون النوم تحت الأمطار الغزيرة. ربما يشعرون بالإنهاك، والبلل، والبرودة فى الصباح، لكن لم يراوده شك أنهم سيقاتلون. سمِع احتكاك الحجارة بالنصال، إن السهام والسيوف والفؤوس تُحد.

تأتى بعد ذلك دروع الصدر والظهر، وهما القطعتان الأثقل، وهما مصنوعتان من صلب بوردو(٢٦) مثلهما مثل بقية

---

(٢٦) بوردو (Bordeaux): هى مدينة فرنسية تقع على نهر جارون بالقرب من مصبه فى جنوب غرب البلاد. هى عاصمة مقاطعة أكواتين. وتشتهر بأنها عاصمة صناعة النبيذ فى العالم. عدتها منظمة اليونسكو ضمن التراث العالمى. كانت فى عام ٣٠٠ ق.م تقريبًا مستعمرة قبائل السلت. فيما مضى سيطر عليها المسلمون فى عهد الخلافة الأموية بقيادة=

الدرع. قام كارترايت بغلق شرائطها المعدنية بنشاطٍ، ثم ثبت الدروع التى تغطى عضدى السير چون، ثم دروع ساعديه، ثم الدروع المستديرة لمرفقيه، ثم قدم له بانحناءةٍ قفازيه الطويلين المدرعين اللذين قُصَّ الجلد عند راحتيهما حتى يستطيع السير چون أن يحس مقابض أسلحته بيديه العاريتين. غطت الشرائط الجزء غير المحصن؛ حيث تلتقى دروع الصدر والظهر. ثم ثبت كارترايت وقاء العنق حول رقبة السير چون. يستخدم بعض الرجال وقاءً من سلاسل معدنية متراكبة ليحمى المسافة بين الخوذة ودرع الصدر، لكن وقاء الرقبة المشكل جيدًا من الفولاذ أفضل من أى وقاءٍ مصنوع من السلاسل المتراكبة، وعلى الرغم من ذلك فإن السير چون عبس بانفعال عندما حاول أن يدير رأسه.

- هل أرخى الشرائط يا سير چون؟

- لا، لا.

قال كارترايت ملمحًا بلطفٍ:

= عنبسة بن سحيم الكلبى ومن قبله السمح بن مالك الخولانى وأقاموا بها حكومة إسلامية لفترة طويلة، من أشهر المعالم السياحية بها: متحف أكواتين، ومتحف التاريخ الطبيعى. (المترجم).

- يداك يا سير چون

ثم شد المعطف فوق رأس سيده، وساعد السير چون ليدخل ذراعيه فى الكمّين الواسعين، ثم سوى القماش الكتانى المزين بشعار الأسد المتوج وشعار صليب القديس چورج. ثبت كارترايت حزام السيف فى موضعه، ثم علق به السيف الضخم المدعو (حبيبى)؛ سيف السير چون المفضل، وتساءل كارترايت:

- هل ستودع غمْد السيف معى فى الصباح يا سير چون؟

- بالطبع.

دائما ما يترك السير چون غمد سيفه قبل القتال، لأنه قد يربك قدمى الرجل، وعندما تقترب المعركة يقر السيف المسمى (حبيبى) فى عقدة من الجلد عارى النصل.

ثم وضع غطاءً جلديًا على رأس السير چون، وهكذا تم الأمر. سيقوم الغطاء بدور الوسادة للخوذة التى أخذها السير چون ثم أعادها إلى كارترايت، وأمره قائلاً:

- انزع القناع.

- ولكن...

- انزعه.

فقد حدث ذات مرةٍ فى مسابقةٍ للمبارزة فى ليـــون[٢٧] أن تمكن السير چون من ضرب قناع مُبَارِزِه فأغلقه، وقــد جعــل انعدام الرؤية الجزئى الذى سببه هذا من الرجــل هــدفًا ســهلاً للهزيمة. وقد دار بخلده أن أى رجلٍ إنجليزىٍ يحتاج كل مزيــةٍ يمكنه الحصول عليها وإن كانت صغيرة.

قال كارترايت بتواضع:

- أظن أن لدى العدو رماة سهام.

- انزعه.

نزع كارترايت القناع وأعاد الخوذة إلى السير چون وهو ينحنى انحناءةً صغيرة. سيرتديها السير چون فيما بعد، وسيثبتها

---

(٢٧) ليون (Lyon): هى المدينة الثانية فى فرنسا بعد باريس. تقع بين مدينتى باريس ومارسيليا. فيها يلتقى نهرا الرون والسون. تشتهر بصناعتها للنسيج وبشكل خاص الحرير والرايون وصناعة السيارات. صنفت منظمة اليونسكو عام ١٩٩٨، المدينة القديمة فى ليون ضمن مواقع التراث العالمى وبها المقر الرئيسى للانتربول. بنيت مدينة ليون فى موقع قرب مصب نهر الرون فى البحر، وأصبحت عاصمة لبلاد الغال القديمة وتعتبر فى الوقت الحاضر أقدم موقع أثرى رومانى بعد روما ذاتها. (المترجم).

كارترايت إلى الشرائط على عنقه وكتفه، ولكن الآن، يمكن القول إن السير چون مستعد.

هطل المطر، وصهل حصانه بالخارج، وعلا هزيم الرعد. التقط السير چون تميمة من شريط من الحرير الأرجوانى والأبيض تحبه زوجته أن يرتديها، وقَبَّل التميمة قبل أن يضعها فى الحيز الضيق بين وقاء الرقبة ودرع الصدر. يربط بعض الرجال التمائم التى تمنحها لهم نساؤهم حول أعناقهم، وذات مرةٍ تمكن السير چون -ومَن يَعدِلُه؟- من نزع تميمةٍ مثل هذه، وجذب عدوه منها، فأوقعه من على حصانه، ثم قتله، ولو حاول أحد الأعداء غدًا أن يشد التميمة التى يتمازج فيها اللونان الأرجوانى والأبيض فستتحرر بسهولة ولن تطيح بالسير چون. كل مزيةٍ صغيرة. ثنى السير چون يديه، ووجد كل شىء مريحًا. فابتسم ابتسامةً مقتضبةً، وقال:

- شكرًا يا كارترايت.

أحنى كارترايت رأسه، وتحدث بما اعتاد أن يقول من كلمات من أول مرةٍ ألبس فيها سيده دروعه، قال:

- لقد أُلبِست لباس الحرب يا سير چون.

وكذا كان ثلاثون ألف رجلٍ فرنسيٍ.

قال هوك لميليساند:

- ما عليك أن تفعليه أن تهربى. اذهبى الليلة. خذى كل نقودنا وكل شىءٍ تستطيعين حمله واذهبى.

تساءلت:

- إلى أين أذهب؟

قال هوك:

- جِدِى أباك.

دار الحديث بينهما وهما فى المعسكر الإنجليزى الذى يقع فى أقصى الجنوب من الحقل المحروث الطويل. استولى اللوردات على البيوت الصغيرة بالقرية، وسمع هوك صوت المطارق تدق على الفولاذ إذ يقوم صانعو الدروع بالتعديلات الأخيرة على الدروع الثمينة. بدا الصوت حادًا وترافق مع صوت قطرات المطر الذى لا ينتهى. وقفت عربات مؤن الجيش إلى الشرق من القرية واتقدت النيران تصارع للبقاء تحت هطول المطر الشديد تضىء جوار عجلاتها التى تدعمها الأسلاك المعدنية. تصعب رؤية الجيش الفرنسى من هذه الأرض المنخفضة، لكن يشى بوجودهم انعكاس نيران مخيمهم على الجانب السفلى من السحب القاتمة، وقد استضاءت هذه

السحب على حين غرةٍ بخطوط متعرجة من البرق تصل إلــى داخل الغابة الشرقية، وبعد هنيههةٍ، ملأ هزيم الرعد الكون كأنــه صوت مدفعٍ وحشيٍ.

قالت ميليساند بعنادٍ:

- لقد اخترت أن أبقى معك.

قال هوك:

- سنموت.

قالت معترضةً دون أن يبدو عليها الاقتناع:

- لا.

قال هوك بقسوةٍ:

- لقد تحدثت إلى الأب كريستوفر وهو قد تحــدث مــع الرسل، إنه يقدر عددهم بثلاثين ألف رجــلٍ فرنــسى. ونحن ستة آلاف رجل.

جثمت ميليساند بالقرب من هوك محاولةً أن تجــد لهــا مساحة تحت الغطاء الذى يتشاركانه وهما يستندان بظهريهمــا إلى شجرة بلوط لم تحمهما كثيرًا من المطر، وقالت:

- لقد تزوجت ميليساند من أحد ملوك القدس.

لم يقل هوك شيئًا. تاركًا لها المجال لتقول ما تحتـــاج أن تقوله، فاستطردت:

- ومات الملك، وقال جميع الرجال إن عليها أن تـــذهب إلى الدير، وتمكث هناك تتلو الصلوات، لكنها لم تفعل! لقد نصبت نفسها ملكةً، وكانت ملكةً عظيمةً.

قال هوك:

- أنت مليكتى.

تجاهلت ميليساند مجاملته الخرقاء، واستطردت:

- وعندما كنت فى الدير! كانت لى صديقةٌ واحدةٌ، كانت أكبر منى سنًا، أكبر بكثيـــرٍ، الأخـــت بيـــاتريس وقـــد نصحتنى أن أهرب. قالت إنٍ علـــى أن أجـــد حيـــاتى الخاصة، ولم أحسب أن باستطاعتى ذلك، ولكن بعـــدها أتيت أنت. والآن سأفعل ما فعلتـــه الملكـــة ميليـــساند، سأفعل ما أريد.

وعلتها رجفةٌ وهى تقول:

- سأبقى معك.

قال هوك بكآبة:

- أنا رامى سهام، مجرد رامٍ.

- لا، أنت قائد رماة! ومن يدرى قد تصبح غـدًا رقيـب رماة؟ ويومًا من الأيام ستمتلك أرضًا. سنمتلك أرضًا.

قال هوك:

- غدًا يوم عيد القديس كريسبينيان.

كأنه لم يقدر حتى على تخيل ملكيته للأرض.

قالت ميليساند:

- ولن ينساك! سيكون معك غدًا .

تمنى هوك صحة ذلك، وقال:

- قومى بشىءٍ واحدٍ من أجلى، ارتدى معطـف والـدك المدرع.

ترددت ثم أومأت برأسها بالموافقة، وقالت تَعِدُه:

- سأقوم بذلك.

عوى صوت توماس إيڤل-جولد منبعثًا من الظلمة:

- هوك! لقد حان الوقت لتأخذ رجالك إلى الأمام.

توقف توم إيڤل-جولد منتظرًا إجابة، وقامت ميليساند باحتضان هوك، وصاح إيڤل-جولد ثانيةً.

- هوك:

- أنا آتٍ.

قالت ميليساند:

- سأراك ثانيةً قبل...

واختنق صوتها.

قال هوك:

- سترينني ثانيةً.

وقبلها بقوةٍ قبل أن يترك الغطاء لها، ويصيح على توم إيڤل-جولد ثانيةً:

- أنا آتٍ!

لم يجد أحدًا من رماته نائمًا، فلم يستطع أحدٌ منهم النوم فى الأمطار الغزيرة المتساقطة تحت هزيم الرعد. تمتموا وهم يتبعون هوك صعودًا على ذلك المنحدر البسيط إلى الامتداد

الأسود لتلك الأرض المحروثة، حيث بحثوا طويلاً عن نوبة الحراسة التى سيحلون محلها. اكتشف هوك فى النهاية أن والتر ماجوت ورجاله على بعد مائة قدم أمامهم حيث ثبتت العِصى الخشبية المشذبة، وحياه ماجوت قائلاً:

- قل لى أنك تركت نارًا كبيرةً متقدةً وإناءً من الحساء.

قال هوك:

- حساءٌ سميك القوام يا والتر، ولحم بقرٍ، وبعض الجزر الأبيض، وزوجٌ من اللفت كذلك.

قال ماجوت:

- ستسمع الفرنسيين، إنهم يسيرون بخيولهم، وإذا اقتربوا كثيرًا فارفع صوتك بالصياح وسينصرفون بعيدًا.

أمعن هوك النظر جهة الشمال، فرأى نيران معسكر الفرنسيين متقدة رغم المطر، وانعكس لهيبها فى ومضات ماء المطر فوق مياه الأخاديد على أشكال الرجال الذين يقودون خيولهم فى الساحة، قال هوك:

- إنهم يريدون إبقاء خيولهم دافئةً من أجل الصباح.

قال ماجوت:

- يريد أولاد الحرام أن يهاجمونا، أليس كذلك؟ سيأتى كل هؤلاء الرجال الضخام على صهوة هذه الخيول الضخمة اللعينة.

قال هوك:

- ولذا فلنتصل لكى يتوقف المطر.

قال ماجوت بحماس:

- أيها المسيح، فليتوقف المطر.

ففى مثل هذه الأمطار تصبح أوتار الأقواس رطبة وواهنة، المطر يسرق القوة من السهام.

قال ماجوت:

- ابق دافئًا يا نيك.

ثم قاد رجاله إلى الراحة المشكوك فى أمرها فى المخيم. جلس هوك القرفصاء تحت سياط الريح والمطر. تدفق شرر البرق يضىء السماء ويطعن كالسكين فى الوادى خلف المخيم الفرنسى الهائل، ورأى هوك فى لمحةٍ قصيرةٍ تحت هذا الضوء تلك الخيام والرايات. الكثير من الخيام، والكثير من الرايات،

والكثير من الرجال، أتوا إلى ساحة القتال. صهل حصان. هناك أكثـــــر من عشـــــرين حصــــانًا يسير بها أصحابها فى الأرض المحروثة، وعندما اقتربوا من هوك استطاع سماع الحوافر الضخمة تنغمس فى الأرض الرطبة. وقد اقترب اثنان من الرجال كثيرًا، وصاح هوك فى المرتين فانحرف الخدم الفرنسيون مبتعدين. هدأت الأمطار من وقتٍ إلى آخر تاركةً وراءها قناعًا خفيفًا من صوت هطولها؛ فاستطاع هوك سماع صوت الضحكات والغناء المنبعث من معسكر العدو. قبع المعسكر الإنجليزى فى الصمت. راودت الشكوك هوك حول استطاعة الكثير من الرجال النوم فى أيٍ من الجانبين. ليس الجو فقط ما أبقى الرجال يقظين، بل يقينهم أيضًا أنهم سيقاتلون فى الصباح، حَدَّ صناع الدروع الأسلحة، وعلت رجفةٌ قلب هوك عندمـــا دار بخلده مــــا سيأتى به الصبــــاح. وصلى للقديس كريسبينيان:

– كن معى.

ثم تذكر النصيحة التى نصحه إياها ذلك القسيس فى كاتدرائية سواسون؛ أن السماء تولى اهتمامًا أكبر إلى المصلين الذين يطلبون البركات للآخرين، ولذا صلى من أجل ميليساند، ومن أجل الأب كريستوفر، ليبقوا أحياء فى هوجاء اليوم التالى.

أومض البرق الأبيض المذهل شديدًا عبر الغيوم، واندلع هزيم الرعد فوق الرؤوس، وهطلت موجةٌ جديدةٌ شديدةٌ قاسية من المطر بكثافةٍ، حتى أنها أضعفت نيران المعسكر الفرنسى، صاح توم سكارليت فجأةً:

- من هناك؟

أجاب رجلٌ ما صائحًا:

- صديق!

أظهر وميضٌ آخر من البرق جنديًا يقترب من المعسكر الإنجليزى. كان الرجل يرتدى معطفًا ودروعًا على ساقيه، وأومض البرق مرةً أخرى لوهلةٍ كفت هوك ليرى أن الرجل لا يرتدى معطفًا مدرعًا، ويلبس بدلاً من الخوذة، قبعةً جلديةً ذات حوافٍ عريضةٍ، سأله هوك:

- من أنت؟

قال الرجل:

- سوان، چون سوان، رجال مَن أنتم؟

أجاب هوك:

- السير چون كورنويل.

قال سوان:

- لو أن كل رجلٍ فى الجيش مثل السير چون، فسيهرب الفرنسيون إذا كانوا فطنين!

اضطر إلى أن يرفع صوته لدرجةٍ تقارب الصياح ليجعله يعلو على صوت زخات المطر القاسى. لم يجبه أىّ من الرماة، فتساءل سوان:

- هل أقواسكم موترة؟

أجاب هوك:

- فى هذا الجو يا سيدى؟ لا!

- ماذا لو أمطرت بهذا الشكل فى الصباح؟

هز هوك كتفيه.

- سنقصر طول أوتارنا، ياسيدى، ونطلق، ولكن ستتمدد الأوتار.

أضاف ويل:

- وستتقطع فى نهاية المطاف.

قال توم سكارليت مفسرًا:

- إنها تنحل.

تساءل سوان:

- إذن ماذا سيحدث فى الصباح.

جلس القرفصاء بالقرب من رماة الأسهم الذين بدا من الواضح أنهم غير مرتاحين فى حضور هذا الغريب.

قال هوك:

- أخبرنا أنت يا سيدى.

قال سوان بقوة:

- أريد أن أعرف فيم تفكرون.

جثم عليهم صمتٌ حرجٌ لأن أحدًا من الرماة لم يرغب فى طرح مخاوفه. تعالت نوبةٌ من الضجك والهتاف من المعسكر الفرنسى، قال سوان:

- سيكون العديد من الفرنسيين ثملين فى الصباح، وسنكون نحن يقظين.

قال توم سكارليت:

- نعم، فقط لأننا ليس لدينا جعة.

قال سوان فى إصرارٍ:

- إذن ماذا سيحدث فى ظنكم؟

ساد الصمت مرةً أخرى، وقال هوك فى النهاية:

- سيهاجمنا الأنذال الثملون الملاعين.

- وبعد ذلك؟

قال توم سكارليت:

- وبعد ذلك سنقتل الأنذال الثملين الملاعين.

تساءل سوان:

- وهكذا ننتصر فى المعركة؟

لم يجبه أحدٌ مرةً أخرى، وتعجب هوك لماذا يدفعهم سوان لهذا النقاش القسرى؟ ولما لم يجب أحد، قال هوك فى نهاية الأمر بطريقةٍ خرقاء:

- هذا الأمر متروكٌ للرب يا سيدى.

قال سوان بصرامةٍ شديدةٍ:

- الرب إلى جانبنا.

قال توم سكارليت وفى صوته ريبةٌ:

- نأمل ذلك ياسيدى.

تدخل ويل قائلاً:

- آمين.

قال سوان بقوةٍ أكبر:

- الرب إلى جانبنا، لأن أغراض ملكنا عادلـــةٌ، لـــو أن أبواب الجحيم انفتحت فى فجر الغد وأتت منها فرقةٌ من الشياطين لتهاجمنا فسننتصر، فالرب معنا.

وتذكر هوك ذلك اليوم البعيد المشمس فى مياه ساوث-هامبتون، عندما رفرفت بجعتان أمام الأسطول المنتظر، وتذكر أيضًا أن البجع أحد شعارات الملك هنرى؛ ملك إنجلترا.

تساءل سوان:

- أتصدقون هذا؟ أن أغراض ملكنا عادلة؟

لم يجبه أحد من الرماة الآخرين، لكن هوك تعرف الصوت الآن، وقال بحدةٍ:

- أنا لا أعرف إذا كانت مطالب ملكنا عادلة أم لا.

ساد الصمت للحظات، وشعر هوك بأن الرجل الذى أطلق على نفسه اسم سوان قد تصلب ممتلئاً بالحنق. تساءل سوان وقد امتلأ صوته ببرودةٍ خطرةٍ:

– ولماذا لا ينبغى له أن يكون كذلك؟

قال هوك:

– لأن الملك قد شنق رجلاً من أجل السرقة فى اليوم السابق على عبورنا نهر سوم.

قال سوان وفى صوته نبرة رفضٍ لما يقال:

– لقد سرق الرجل من الكنيسة وكان يجب أن يموت بالتأكيد.

قال هوك:

– لكنه لم يسرق قط ذلك الوعاء.

أضاف توم سكارليت:

– لم يفعل ذلك.

قال هوك بحدةٍ:

- لم يسرق ذلك الوعاء قط، ورغم ذلك شنقه الملك. وشَنق رجلٍ برىءٍ ذنبٌ، وإذن لماذا يقف الرب إلى جانب مذنبٍ؟ أخبرنى ياسيدى؟ أخبرنى لماذا يحب الرب ملكًا قتل رجلاً بريئًا؟

ساد الصمت ثانيةً. وهدأت الأمطار قليلاً، واستطاع هوك سماع موسيقى آتية من المعسكر الفرنسى، ثم اندلعت موجةٌ من الضحك. هنالك مصابيح بالتأكيد داخل خيام العدو، لأن خيامهم تتأجج باللون الأصفر. تحرك الرجل المسمى سوان حركةً بسيطةً فأصدرت دروع ساقيه صريرًا، قال سوان فى صوتٍ خفيضٍ:

- لو كان الرجل بريئًا؛ فإذن لقد أخطأ الملك.

قال هوك بعنادٍ:

- لقد كان بريئًا، وأراهن بحياتى على ذلك.

وتوقف، متسائلاً إذا كان يستطيع المضى لأبعد من ذلك، ثم قرر أن يخوض غمار المخاطرة.

- بحق الجحيم ياسيدى، أنا أراهن بحياة الملك على ذلك!

أخذ الرجل المدعو سوان شهيقًا مفاجئًا مصدرًا هسيسًا، لكنه لم يقل شيئًا.

قال ويل:

- لقد كان فتىً طيبًا.

قال توم سكارليت بحنقٍ:

- ولم يحصل حتى على محاكمة! فى الوطن ياسيدى على الأقل يأخذون شهادتنا فى المحكمة قبل أن يشنقوننا.

قال ويل:

- نعم! نحن رجالٌ إنجليزيون، ولنا حقوقٌ!

تساءل سوان بعد برهةٍ من الصمت:

- هل تعرفون اسم الرجل؟

قال هوك:

- مايكل هوك.

قال سوان ببطءٍ كأنه يفكر فى رده وهو يقول:

- لو كان بريئاً فسيردد الملك القداسات من أجل روحــه، وسيهب وقفاً من أجله، وسيصلى من أجل روح مايكــل هوك كل يومٍ.

وضرب شعاعٌ آخر من البرق الأرض وأضاءها، فرأى هوك الندبة القاتمة جوار أنف الملك حيث ضربه سهمٌ ذا رأسٍ حادٍ فى معركة شروزبرى.

قال هوك:

- لقد كان بريئًا ياسيدى، والقس الذى قال غير ذلك كذب، لقد كان خلافًا عائليًا.

قال الملك متعهدًا:

- إذا سَتُتلَى الصلوات، وسَيُوهَب الوقف، وسيذهب مايكل هوك إلى الجنة مصحوبًا بــصلوات الملــك، وغــدًا، سنحارب هؤلاء الفرنسيين، بفضل الرب، وسنعلمهم أن الرب والرجال الإنجليز لا يمكــن الــسخرية مــنهم. سننتصر. هاك.

وألقى شيئًا إلى هوك الذى التقطه فوجده زجاجةً جلديةً ممتلئةً، قال الملك:

- نبيذٌ، ليدفئكم فيما بقى من الليل.

وسار متبعدًا بينما قدماه المدرعتان تتغرسان فى التربة الرطبة.

قال چيوفرى هوروكس عندما أصبح الرجل الذى يدعى سوان بعيدًا عن مرمى السمع:

- لقد كان رجلاً لعينًا غريبًا.

أضاف توم سكارليت:

- ما أرجوه فقط أن يكون ذلك الرجل اللعين على حق.

غمغم ويل فى تذمر:

- مطرٌ لعينٌ، يا لعيسى الحبيب، أكره هذا المطر اللعين.

تساءل سكارليت:

- كيف يمكن أن ننتصر غدًا؟

قال هوك:

- تطلق جيدًا يا توم وتتمنى أن يحبك الرب.

وتمنى أن يكسر القديس كريسبينيان صمته، لكن القديس لم ينطق بشىءٍ.

قال توم سكارليت:

- إذا اخترق الفرنسيون الملاعين صفوفنا غدًا...

ثم تلعثم.

قال هوك:

- ماذا يا توم؟

- لا شيء!

- قل ما شئت!

- كنت سأقول أنه يمكننى أن أقتلك وتقتلنى قبل أن يعذبونا، لكن هذا يبدو صعبًا، أليس كذلك؟ أعنى أنك ستكون قد مت، وسيصعب عليك حقا أن تقتلنى إذا كنت ميتًا.

بدا سكارليت جادًا فى حديثه، لكنه بعد ذلك، بدأ بالضحك، وفجأة ضحكوا كلهم بيأسٍ رغم أن أيًا منهم لم يعرف السبب، رجالٌ محكومٌ عليهم بالموت يضحكون. ولكن هوك ظن ذلك أفضل من البكاء.

تقاسموا النبيذ الذى لم يمنحهم دفئًا يذكر، وبدأ الفجر يدفع الظلمة ببطءٍ وبضوءٍ رماديٍ كلون الدروع. ذهب هوك إلى

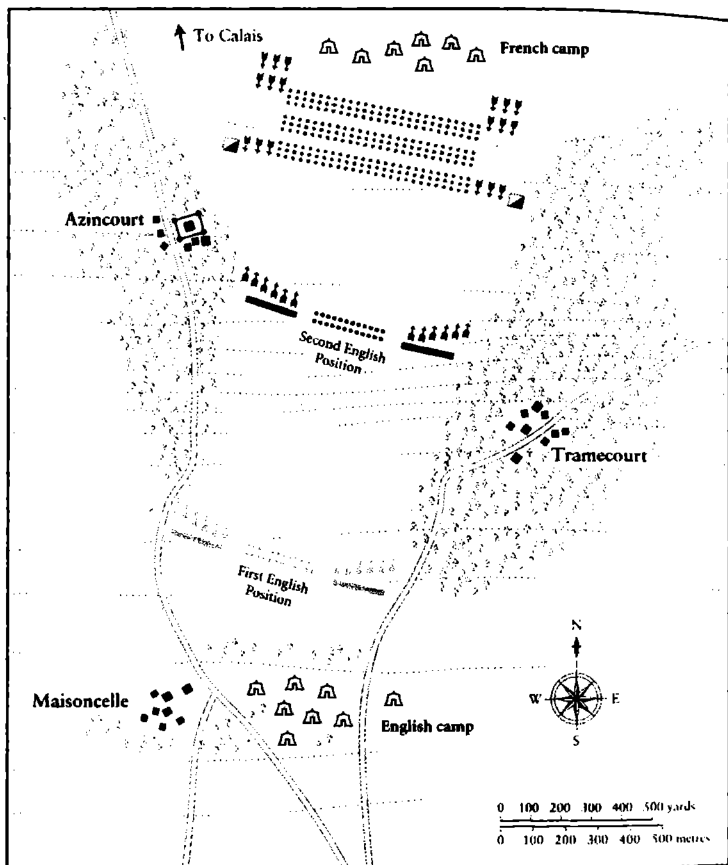
الغابة الشرقية ليفرغ أمعاءه، ورأى قريةً صغيرةً وراء الأشجار مباشرةً، لقد قسم الجنود الفرنسيون أنفسهم بين الأكواخ، وهم الآن يمتطون صهوات خيولهم ويتجهون إلى المعسكر الرئيسى. وأثناء عودته إلى المرتفع شاهد هوك الفرنسيين يعدون تشكيلاتهم القتالية تحت راياتهم المبتلة.

قام الإنجليز بذات الأمر. أتى تسعمائة جندي وخمسة آلاف من رماة السهام إلى ساحة أزينكور فى الفجر، وقبالتهم، انتظرهم ثلاثون ألف رجلٍ فرنسى فوق شقوق الأرض التى حرثت بعمق تنتظر حبوب القمح الشتوى.

إلى المعركة يوم عيد القديس كريسبين.

الجزء الرابع

عيد القديس (كريسبين)


To Calais
French camp
Azincourt
Second English Position
Tramecourt
First English Position
N
W
E
S
Maisoncelle
English camp
0 100 200 300 400 500 yards
0 100 200 300 400 500 metres

Azincourt

الفجر باردٌ ومظلمٌ. تساقطت زخاتٌ قليلةٌ متقطعــةٌ مــن الأمطار على الساحة المحروثة، ولكن هوك أحــس أن أمطــار الليل الغزيرة قد انتهت. تراكمت بقعٌ صــغيرةٌ مــن الــشابورة المائية فوق شقوق الأرض، وعلقت على الأشجار التى تتــساقط منها قطرات الماء.

دق قارعو الطبــول القــابعون وراء مركــز الخطــوط الإنجليزية طبولهم بإيقاعٍ سريعٍ تتخلله أصوات الأبواق. تجمــع الموسيقيون حيث راية الملك؛ أكبر رايات الجيش والتى يــزين جانبهــا صــليب القــديس جــورج جــوار رايــة إدوارد ذى الاعترافات[1]، تجمعوا بجوار الراية التى يرتسم عليها الثــالوث

---

(١) إدوارد ذو الاعترافات (Edward The Confessor): هو ابــن الملــك إيثلرد غير المستعد وإيما من نورماندى. وهو آخر ملوك إنجلترا مــن أصل أنجلوساكسونى. ولد ما بين عامى ١٠٠٣- ١٠٠٥ وتوفى يوم ٤ أو ٥ يناير من عام ١٠٦٦. تولى الحكم مــن عــام ١٠٤٢. وصــف بالورع والتقوى. جعله البابا إليكساندر الثالث كنسيًا عام ١١٦١، ويحتفــل بذكراه يوم ١٣ أكتوبر فى الكنيسة الكاثوليكية فى إنجلترا وويلز. كان=

المقدس. رفرفت تلك الرايات الأربع فوق ساريات شديدة الطول في قلب التشكيل القتالى، بينما ارتفعت رايات القادة فوق جناحى التشكيل ومؤخرته. رفرفت خمسون راية أخرى على الأقل فى الهواء الرطب فوق جنود الملك هنرى، لكن هذه الرايات الإنجليزية لا تمثل شيئا مقارنةً بالرايات الحريرية والكتانية التى رفرفت فى زهوٍ فوق الفرنسيين. قال توماس إيڤل-جولد مقترحًا طريقة لتقدير أعداد الفرنسيين:

- عد الرايات، وافترض أن كل رايةٍ تمثل لوردًا مع عشرين رجلاً.

لدى بعض لوردات فرنسا عدد أقل من الجنود، وأغلبهم لديه أكثر بكثيرٍ، ولكن توم إيڤل-جولد بدا واثقًا أن طريقته ستسفر عن رقمٍ تقريبىٍ لأعداد العدو، بيد أن أحدًا -حتى هوك ببصره الحاد- لم يستطع التمييز بين الرايات. إنها ببساطةٍ كثيرة جدًا. قال إيڤل-جولد بتعاسةٍ:

- هناك الآلاف من أولاد الحرام، وانظر إلى كل رماة الأسهم الملاعين هؤلاء!

= يعد واحدًا من القديسين القوميين حتى أقر الملك إدوارد الثالث القديس چورچ بأنه القديس الراعى عام ١٣٥٠. ولأن إدوارد مات ميتة طبيعية أطلق عليه لقب المعترف وليس القديس. (المترجم).

وقف الرماة الفرنسيون على جانبى الجيش، وخلف جنود المقدمة.

صاح رجل عجوز يرتدى زى الجنود ويمتطى حصانًا مخصيًا لطخه الطين فى الرماة قائلاً:

- انتظروا!

إنه واحدٌ فقط ممن لا يحصون من الرجال الذين أتوا لتقديم النصائح أو إلقاء الأوامر. صاح ثانيةً:

- انتظروا حتى ألقى بهراوتى فى الهواء!

كان الرجل ممسكاً بعصًا قصيرةٍ سميكةٍ ملفوفةٍ فى قماشٍ أخضرٍ وفى قمتها نقوشٍ ذهبيةٍ.

- هذه إشارة إطلاق السهام! لا يطلق أحدكم سهمًا قبل ذلك! ترقبوا هراوتى!

وجه هوك حديثه إلى إيفل – جولد متسائلاً:

- من ذاك؟

- السير توماس ايربينجهام

- ومن يكون؟

- الرجل الذى يلقى بالعصا.

صاح السير توماس:

- سألقيها عاليًا! هكذا!

وألقى هراوته بقوة فدارت فى المطر عاليًا فوقه. واندفع ليمسك بها أثناء سقوطها. لكنه أخفق، وتساءل هوك: هل يُعدُّ ذلك فألاً سيئًا؟

قال إيقل-جولد:

- التقطها يا هوروكس وحاول أن تبدو نشيطًا يا فتى!

لم يستطع هوروكس أن يركض، فقد غرقت شقوق الأرض وحوافها فى الوحل فانغرست قدماه حتى عقبيه، لكنه استعاد العصا الخضراء وحملها للفارس ذى الشعر الرمادى.

شكره السير توماس، وسار عبر صفوف الرماة يصيح بأوامره ثانيةً. لاحظ هوك كيف يعانى حصان السير توماس فى الأرض المحروثة. قال إيقل-جولد:

- لابد أنهم حرثوا بنصل المحراث عميقًا فى الأرض.

قال هوك:

- القمح الشتوى.

- وما علاقة هذا بذاك؟

أوضح هوك قائلاً:

- إن الأرض دائمًا ما تُحرَث أعمق من أجل القمح الشتوى.

قال إيقل-جولد:

- لم أقم بالحرث قط من قبل.

فقد عمل دباغًا قبل أن يعمل قائدًا للرماة لدى السير چون.

قال هوك:

- نحرث بعمقٍ فى الخريف وبطريقةٍ سطحيةٍ فى الربيع.

قال إيقل-جولد بقسوةٍ:

- أظن أن هذا سيوفر على أولاد الحرام حفر قبور لنا، يمكنهم أن يدحرجونا وحسب فى هذه الشقوق الضخمة، ثم يهيلون التراب فوقنا.

قال هوك:

- إن الغيوم تنقشع.

فقد بدأ الضوء يلمع بعيدًا إلى الغرب فوق أسوار القلعـــة الصغيرة فى أزنيكورت، والتى تظهر من فــوق قمـــم أشـــجار الغابة.

قال إيڤل – جولد:

– على الأقل ستجف أوتار أقواسنا، وهو مـــا يعنـــى أن نتمكـــــن من قتل القليل مـــن أولاد الحـــرام قبـــل أن يذبحوننا.

رفع العدو المزيد من الرايات، وتزايدت أعداد موسيقييهم أيضًا. عزفت الأبواق الإنجليزية سلسلةً قصيرةً من المقطوعات الحماسية، ثم توقفت لتفسح المجال لقارعى الطبـــول ليقرعـــوا مقطوعاتهم الحادة الإيقاع، لكن الأبواق الفرنسية لم تتوقف قط. خمشت الآذان الإنجليزية، وحملت الريح الباردة صوت نهيـــقٍ علا ثم اختفى. كان أغلب الجيش الفرنسى راجـــلاً مثلــــه مثـــل الجيش الإنجليزى، لكن هوك استطاع أن يرى على الجنـــاحين حشودًا من الفرسان على صهوات الجياد، والخيـــول مـــسرجةٌ بسروجٍ كتانيةٍ طويلةٍ مزخرفةٍ بـــشارات الجـــيش، وراكبوهـــا يحاولون إبقاءها دافئةً فيسيرون ذهابًا وإيابًا. طعنت أسنة الرماح صفحة السماء. قال توم سكارليت:

- سيأتى أولاد الحرام الملاعين قريبًا.

قال هوك:

- ربما، وربما لا.

ربما تمنى لوهلة أن يأتى الفرنسيون وينهوا المأساة، لكنه تمنى أيضا أن يعود إلى فراشه فى إنجلترا بأمان.

صاح إيفل-جولد فى رماة السير چون:

- لا تربطوا الأوتار حتى يتحركوا.

كرر هذه النصيحة ست مرات على الأقل، لكن يبدو أن أحدًا من الرماة لم يلحظ ذلك. كانوا يرتجفون ويراقبون العدو. قال إيفل-جولد:

- غائط!

تساءل هوك وقد تنبه إلى قائده:

- ماذا؟

- لقد دست على بعض منه.

قال هوك:

- يفترض أن يجلب هذا لك الحظ.

- وإذن فمن الأفضل أن أرقص فى هذا الغائط اللعين.

رتل القساوسة القداسات بين الرماة، وذهب الرجال واحدًا بعد الآخر يتناولون رقائق خبز الحياة، ويحصلون على الغفران لذنوبهم، كان الملك راكعًا بفخرٍ على ركبته عارى الرأس أمام أحد قساوسته فى الخارج أمام قلب التشكيل القتالى. ركب مرورًا بالصف مرةً واحدةً على حصانٍ أبيض صغير، وبدا التاج الذهبى المحيط بخوذته الحربية متلألئًا فى عتمة الصباح. كان يدفع الرجال إلى مواقعهم، ومال على سرجه، وشد عصاة أحد الرماة ليتأكد أنها غُرست جيدًا فى الأرض. صاح بالرماة:

- إن الرب معنا أيها الرفاق.

بدأ الرماة فى الركوع على ركبهم احترامًا، لكنه أشار إليهم ليقفوا قائلاً:

- الرب إلى جانبا! كونوا واثقين!

تجاسر صوت من بين الرماة، وقال:

- تمنيت لو أن الرب قد أرسل المزيد من الرجال الإنجليز.

قال الملك فى صوتٍ مرحٍ:

- لا تتمن ذلك أبدًا! إن عناية الرب كافية، وباستطاعتنا القيام بعملٍ من أجله.

تمنى هوك من الرب أن يكون الملك على حقٍ، بينما يسير إلى الخلف ليركع على ركبته أمام الأب كريستوفر، الذى كان يرتدى عباءةً كهنوتيةً سوداء، فوقها حُلةٌ كنسيةٌ لطختها بقعٌ من الوحل، مطرزةٌ برسوم الحمام الأبيض، وصلبانٍ خضراء وشعار كورنويل؛ الأسود الحمراء.

قال هوك:

- لقد أذنبتُ يا أبتى.

وقام باعترافٍ لم يقم به قط من قبل، بشأن قتله روبرت بيريل، وأنه لا يزال يخطط لقتل كل من توماس بيريل والسير مارتين. بدا صعبًا أن يتفوه بتلك الكلمات، ولكن دفعته إليها فكرةٌ تصل إلى حد اليقين أن هذا آخر يومٍ له على الأرض.

أحكم الأب كريستوفر يديه على رأس هوك، وسأله:

- لماذا ارتكبت جريمة القتل؟

قال هوك:

- إن عائلة بيريل قتلت جدى وأبى وأخى.

قال الأب كريستوفر بصرامةٍ:

- والآن، لقد قتلتَ واحدًا منهم، يا نيك، يجب أن ينتهى هذا.

- أنا أكرهم يا أبتى.

قال الأب كريستوفر:

- إن هذا يوم معركةٍ، يجب أن تذهب إلى أعدائك، وتستجدى عفوهم، وتصنع سلامك الداخلى.

توقف القس، لكن هوك لم يقل شيئًا، فاستطرد الأب كريستوفر:

- إن الرجال الآخرين يفعلون ذلك، إنهم يسعون إلى أعدائهم، ويصنعون سلامهم، وعليك أن تقوم بنفس الشىء.

قال هوك:

- لقد تعهدت ألا أقتله أثناء المعركة.

- هذا ليس كافيًا يا نيك، أتريد أن تذهب إلى قضاء الرب وهذه البغضاء فى قلبك؟

قال هوك:

- لا أستطيع التصالح معهم، ليس بعد أن قتلوا مايكل.

- لقد غفر المسيح لأعدائه يا نيك، وعلينا أن نكون مثل المسيح.

- أنا لست المسيح أيها الأب، أنا نيك هوك.

تنهد الأب كريستوفر قائلاً:

- والرب يحبك.

ثم رسم علامة الصليب على رأس نيك، واستطرد:

- أنت لن تقتل أى رجلٍ آخر يا نيك، هذا أمرٌ من الرب. هل تفهمنى؟ أنت لن تذهب إلى هذه المعركة والبغضاء تملأ قلبك. هكذا سينظر الرب إليك بلطفٍ. عدنى أنك لن تفكر فى ارتكاب أى جريمة قتل يا نيك.

وكانت تلك معاناةٌ. صمت هوك لبرهةٍ، ثم أومأ فجأةً قائلاً بتعاسة:

- لن أقتلهم يا أبتى.

- لا اليوم، ولا غدًا وإلى الأبد. أتقسم على ذلك؟

أطبق الصمت عليهما ثانيةً. فكر هـوك فـى الـسنوات الطويلة من الكراهية العميقة، وفى اشمئزازه من السير مارتين، ومن توم بيريل، ثم فكر فيما عليه أن يواجهه فى هـذا اليـوم، وأدرك أنه إذا أراد الذهاب إلى الجنة، فعليـه أن يعطـى الأب كريستوفر هذا العهد المقدس. أومأ برأسه فجأةً، وقال:

- أقسم على ذلك.

أحكم الأب كريستوفر يديه مرةً أخرى على فـروة رأس هوك العارية، وقال:

- كفارتك أن تطلق سهامك جيدًا هذا اليوم يا نيكـولاس هوك، أطلق جيدًا من أجل الرب ومن أجل ملكك.

واستطرد باللاتينية:

- ابتلع هذا.

وعاد يكمل بالإنجليزية:

- لقد غفرت ذنوبك، والآن ارفع رأسك، وانظر إلىّ.

رفع هوك رأسه. لقد توقف المطر أخيرًا. حدق إلى عينى الأب كريستوفر، بينما أخذ القسيس قطعةً من الفحم، وكتب شيئًا على جبهة هوك بعنايةٍ، وقال عندما انتهى:

- هاك.

- ما هذا أيها الأب؟

ابتسم الأب كريستوفر.

- لقد كتبت (ى. م. الناصرى) على جبينك. يعتقد بعض العامة أن هذا يحمى الرجل من الموت المفاجئ.

- وماذا تعنى يا أبتى؟

- إنه اسم المسيح الناصرى.

- اكتبها على جبهة ميليساند يا أبتى.

- سأفعل يا هوك، بالطبع سأفعل، والآن جهز نفسك لجسد المسيح.

أخذ هوك القربان المقدس، ثم أخذ حفنة من التراب الرطب، كما فعل الرجال الآخرون، وكما فعل الملك، وابتلعها مع رقائق خبز القربان، ليُظهر أنه على استعداد للموت، إنها إشارةٌ إلى أنه استعد لاستقبال الأرض كما أَنَّ الأرض قد تستقبله. قال الأب كريستوفر:

- فليباركك الرب يا نيك.

قال هوك وهو يسحب الخوذة فوق وقاء العنق:

- أتمنى أن نلتقى عندما ينتهى هذا أيها الأب.

قال القس:

- أنا أيضًا أصلى من أجل هذا.

غمغم ويل متذمرًا عندما انضم هوك إلى رجاله:

- سيأتى أولاد الحرام آكلو الغائط هؤلاء قريبًا ولا شك.

ولكن الفرنسيين لم يظهروا ما يدل على رغبةٍ فى الهجوم، لقد انتظروا وصفوفهم الطويلة تملأ المساحة الواسعة بين الغابتين. سار الرسل الإنجليز متلألئين فى أزيائهم العسكرية، يحملون صولجاناتهم البيضاء الطويلة، وامتطوا خيولهم إلى منتصف المسافة التى تفصلهم عن خطوط العدو، حيث قابلهم نظراؤهم الفرنسيون والبورجونديون، وشكلوا كلهم الآن مجموعةً متلألئة تجلس على صهوة جيادها عند حافة الأشجار، جوار كوخٍ متداعٍ ذى سطحٍ غطته الطحالب. سيراقبون المعركة معًا، وعند نهايتها سيقضون من الفائز.

غمغم رجلٌ ما:

- هيا، يا أولاد الحرام الملاعين.

ولكن أولاد الحرام الملاعين لم يأتوا. عوت أبواقهم، لكن صفوفهم المعدنية الطويلة لم تبد ما يدل على استعدادهم للتقــدم، انتظروا، أخفت الخيول المسرجة بسروجٍ لامعةٍ مصقولةٍ رمــاة السهام وراءها، برق شعاعٌ قصيرٌ من أشعة الشمس منعكسًا من مركز خطوطهم العسكرية، ورأى هوك راية الحرب الفرنسية، الراية المثلثة المتفرعة الحمراء التى تعلن للفرنسيين أنهــم لــن يَأخُذُوا أسرىً. اقتلوا كل شخصٍ.

استدار السير چون الآن، وسار أمام الرماة قائلاً:

- إيڤل-جولد! هوك! ماجوت! كاندلير! تعالوا هنا! أنــتم الأربعة!

رافق هوك قادة الرماة الثلاثة الآخرين، كان السير فــى تلك الأرض المحروثة عميقًا يمثل صعوبةً غيــر عاديــةٍ، لأن الطين تحول إلى وحلٍ لزجٍ مُحمرٍ يلتصق بحذائه. كــان ذلــك أصعب على السير چون الذى ارتدى كامــل دروعــه، ســتون رطلاً[٢] من الفولاذ، ولذا تمايل فى سيره مجبرًا أن يسحب كــل

---

(٢) الرطل الإنجليزى (Pound): من وحدات القياس فى النظام الإنجليزى وهو يقابل الكيلوجرام إذ يساوى الباوند الواحــد ٠,٤٥٣٦ كيلــوجرام. ويرجع أصل هذه الوحدة إلى الليبــرا الرومانيــة القديمــة (الرطــل الرومانى). (المترجم).

قدمٍ من أقدامه التى تغطيها الدروع الفولاذية من قبضة الأرض التى تلتصق بها. جاهد السير چون حتى وصل إلى مكانٍ يبعد أربعين أو خمسين قدمًا أمام الرماة، ثم انتظر قادة رماته، واستقبلهم بقوله:

- عليكم أن تنظروا دائما إلى جيشكم لتروه كما يراه العدو، ألقوا نظرةً.

استدار هوك ليحدق إلى الجيش الملطخ بالوحل، الصدئة دروعه، والذى بلله المطر. جيشه. إن قلب الصف العسكرى مكون من ثلاثة تشكيلات قتالية، كلٌ منها نحو ثلاثمائة جندى، التشكيل المركزى يقوده الملك، والآخر فى أقصى الميمنة قاده اللورد كامويز، بينما الميسرة بقيادة دوق يورك. وبين التشكيلات القتالية الثلاثة، مجموعتان صغيرتان من الرماة، بينما على الجناحين الفرق الأكبر من رماة السهام. هذان الجناحان ومعهم عصيهم يصطفون على زاويةٍ من مقدمة القلب، وهكذا يمكنهم أن يضربوا بسهامهم من الجانبين. تساءل السير چون:

- إذن، ماذا يفعل الفرنسيون؟

قال إيفل - جولد بحدةٍ:

- سيهاجمون.

تساءل السير چون بخشونةٍ:

- يهاجمون ماذا، ولماذا؟

لم يجب أىّ من الرماة الأربعة، وبدلاً من ذلك حدقوا إلى جيشهم الصغير، وتعجبوا أى إجابةٍ يريدها السير چون الذى زمجر وهو يرمق قادة رماته بنظرة غضبٍ تطل من عينيه الزرقاوين اللامعتين:

- فكروا! إذا كنتم رجالاً فرنسيين! تعيشون فى بعض المزارع الملطخة بالغائط، وتعيش الفئران فى حوائطها الرطبة وترقص فوق سقوفها. فماذا تريدون؟

قال هوك مقترحًا:

- المال!

- إذن ماذا ستهاجمون؟

قال توماس إيڤل-جولد:

- الرايات.

قال السير چون:

- لأن هذا هو مكان المال. إن أولاد الحرام الملاعين رفعوا راية الحرب، لكن هذا لا يعنى شيئًا، إنهم

يريدون أسرى. يريدون أسرى أغنياء. يريدون الملك، ودوق يورك، ودوق جلوستر، ويريدوننى، إنهم يريدون الفديات! ليس ثمة فائدةٌ من ذبح الرماة، ولذا سـيهاجم أولاد الحرام الجنود. سيهاجمون الرايات، ولكن البعض قد يأتى من أجلكم، ولذا ادفعوهم إلى القلب بالسهام. هذا ما ستفعلونه! ادفعوا أجنحتهم إلى القلب، فهناك يمكننى أن أقتلهم.

قال إيفل-جولد بارتيابٍ:

- لو أن لدينا ما يكفى من السهام.

قال السير چون بقوةٍ:

- احتفظ بما يكفى منها! لأنك إذا نفدت أسهمك ستضطر للاشتباك المباشر معهم وهم مدربون على ذلك وأنتم لا.

قال هوك متذكرًا الشتاء الذى تدربوا فيه بالسيوف والفؤوس:

- لقد دربتنا يا سير چون.

تساءل السير چون بسخريةٍ:

- أنتم مدربون جزئيًا، فماذا عن بقية الرماة؟

تطلع هوك إلى الرجال المنتظرين مدركًا أنهم ليسوا أكفاء لمواجهة الجنود الفرنسيين. إن الرماة حائكون، وصانعو أحذية، وبائعو أقمشة، ونجارون، وطحانون، وقصابون. هم رجالٌ ذوو مهنٍ مختلفةٍ، لكن لديهم مهارةً رائعةً هى القدرة على سحب وتر القوس المصنوع من خشب السرو حتى آذانهم، وإرسال السهم فى رحلة موتٍ طويلةٍ. إنهم قتلةٌ، لكنهم ليسوا رجالاً زادتهم المعارك قسوةً، ولا هم تدربوا على استخدام الأسلحة منذ الطفولة، ليس لدى كثير منهم دروع سوى معاطف مبطنة، والبعض لم يمتلك حتى هذه الوقاية البسيطة، قال السير چون:

- فليمنع الرب الفرنسيين من اقتحام صفوفكم!

لم يجب أىّ من قادة الرماة. دار بخلدهم ما سيحدث حين يأتى الجنود الفرنسيون تكسوهم الدروع المعدنية لقتلهم، ارتعد هوك ثم انصرف ذهنه عن ذلك عندما رأى خمسة فرسانٍ إنجليز يمتطون خيولهم تحت الراية الملكية الإنجليزية متجهين إلى الجيش الفرنسى المنتظر. تساءل إيڤل-جولد:

- ماذا يفعل هؤلاء ياسير چون؟

قال السير چون:

- لقد أرسلهم الملك فى محاولةٍ لعقد صلحٍ، سيطلبون أن يسلم الفرنسيون التاج إلى الملك هنرى، ونتعهد نحن بألا نذبحهم.

حدق إيفل-جولد تجاه السير چون فقط، كأنه لا يصدق ما سمع. كتم هوك ضحكةً. هز السير چون كتفيه، وقال:

- ولذا فلن يقبلوا هذه الشروط، وهذا يعنى أننا سنقاتل، ولكن هذا لا يعنى أنهم سيهاجموننا.

تساءل ماجوت:

- حقا؟

- علينا أن نعبرهم للوصول إلى كاليه، ولذا ربما نضطر إلى أن نشق طريقنا خلالهم.

تمتم إيفل-جولد:

- ياعيسى.

تساءل ماجوت:

- هل يريدوننا أن نهاجمهم يا سير چون؟

- لو أننى مكانهم لفعلت ذلك!

استدار السير چون ليحدق إلى العدو، واستطرد:

- إنهم لا يريدون عبور هذه الأرض مثلنا بالضبط، لكنهم لا يحتاجون إلى عبورها، بينما نحتاج نحن إلى ذلك. نحتاج أن نصل إلى كاليه، وإلا سنموت من الجوع، ولذا لو لم يهاجمونا سنضطر إلى مهاجمتهم.

قال إيفل-جولد مرةً أخرى:

- ياعيسى المسيح.

حاول هوك أن يتخيل المجهود الذى يحتاجونه لعبور ذلك النصف ميل من الوحل الزلق اللاصق المتماسك.

دار بخلده: فلندع الفرنسيين يهاجمون، وارتعد فجأةً بعنفٍ. اعتراه شعورٌ بالبرد، والجوع، والتعب. جاء الخوف على موجاتٍ ما أصاب أمعاءه بالإسهال. ولم يكن وحده كذلك، فقد كان الكثير من الرجال ينزلقون إلى الغابة ليفرغوا معيهم.

قال:

- أحتاج للذهاب إلى الغابة.

قال السير چون بحدةٍ:

- إذا أردت التغوط فأفعلها هنا.

ثم صاح فى الرماة المحتشدين:

- لا يذهبن أحدكم إلى الغابة!

خشى أن يختبأ أولئك الرجال إذا خانتهم الشجاعة بين الأشجار.

- تغوط حيث تقف!

قال توم إيقل-جولد:

- تغوط ومت.

زمجر السير چون:

- واذهب إلى الجحيم بسروالٍ يلطخه الغائط، من يبالى؟

قلب نظره فى قادة رماته، ثم تحدث وقد قلت الحدة فى نبرة صوته:

- لن نخسر هذه المعركة. تذكروا، لدينا رماة السهام وهم ليس لديهم.

قال إيقل-جولد:

- ولكن ليس لدينا ما يكفى من السهام.

قال السير چون، وقد نفد صبره من تشاؤم قائده.

- إذن اجعل كل سهمٍ صائبًا.

ثم عبس فى وجه هوك قائلاً:

- ياعيسى المسيح، ألا يمكنك أن تفعل هذا من أجلى؟

- آسف ياسير چون.

ابتسم السير چون ابتسامةً واسعةً، وقال:

- على الأقل يمكنك التغوط. حاول أن تفعل ذلك وأنت ترتدى كامل دروعك. دعنى أخبرك أن رائحتنا لن تكون كرائحة زهور السوسن[٣] عندما ننتهى من عملنا اليوم.

---

(٣) زهور السوسن (الزنبق) (Lilium): نبات ينتمى إلى الفصيلة الزنبقية. يضم حوالى ١١٠ أنواع. تزرع البصيلات على عمق ١٥ سم أو أكثر تحت سطح التربة فى نهاية فصل الشتاء أو أوائل الربيع. تحتوى أوراق النبتة على مادة سيكلوبامين، التى تمنع تكون روابط معينة ضمن التفاعلات الكيميائية الحيوية، التى ينجم عنها تكون الخلايا السرطانية، وبالتالى يتوقف تكاثر الخلايا السرطانية وتقتل خلايا الورم. تنمو أزهار الزنبق من بصيلات محرفشة. معظم أصناف الزنبق تحمل عناقيد ذات ألوان ساطعة على سيقان مستقيمة. تأخذ الأزهار شكل الأبواق ولها ست بتلات. تنمو بكثرة فى أوروبا وآسيا وكندا والولايات المتحدة. (المترجم).

حدق تجاه العدو. تطلعت عيناه اللامعتان إلى راية الحرب، واستطرد بقوة:

- شيءٌ واحدٌ أخيرٌ، لا يبدأ أحدٌ منكم فى أخذ أسرى حتى نعطى الأوامر بأن من الممكن أن نأخذ الأسرى بأمانٍ بدلاً من القتل.

تساءل إيڤل-جولد فى دهشةٍ غير مُصَدِقَةٍ:

- أتظن أننا سَنَأخُذُ أسرى؟

قال السير چون متجاهلاً السؤال:

- إذا حاول الرجال أخذ أسرىً فى وقتٍ مبكرٍ أكثر مما يجب، فإنهم يضعفون التشكيل القتالى. عليكم أن تحاربوا، وتقتلوا، حتى لا يقدر أولاد الحرام على المزيد من القتال، وعندها فقط تبدأ فى البحث عن الفديات.

وربت على كتف إيڤل-جولد التى يغطيها المعطف المدرع، قائلاً:

- أخبر رجالك أننا سنحتفل هذا المساء على المؤن الفرنسية التى ستقع فى أيدينا.

ودار بخلد هوك: إما أن يحدث هذا وإما أن نأكــل مــن شجر الزقوم. جاهد عائدًا إلى رجاله الذين يقف كل واحدٍ مــنهم جوار عصا. وهذه العِصى ذات رؤوسٍ حادةٍ، عِــصىٌّ غليظــةٌ مكتظةٌ يوجد منها على هذا الجناح الأيمن من الجيش الإنجليزى أكثر من ألفين. يمكن للرجال أن يتحركوا بينها بسهولةٍ كافيــةٍ، لكن خيول الحرب لا تستطيع المناورة بينها.

تساءل ويل:

- ماذا أراد السير چون؟

- أراد أن يخبركم أننا سنأكل من المؤن الفرنسية بحلول المساء.

تساءل ويل بشكٍ:

- أيظن أنهم سيأخذوننا أسرى؟

- لا، إنه يظن أننا سننتصر.

أثار ذلك بعض الضحك المرير. تجاهله هوك، وراقــب العدو. امتدت مقدمة جنودهم المشاة على خط الأفــق محتــشدةً بالرؤوس المعدنية الحادة للــسهام القــصيرة. لا يزالــون دون حراكٍ، ولا يزال الإنجليز ينتظرون، استمر الفرسان الفرنسيون

فى تدريب خيولهم، ولأن الخيـــول ضـــايقتها شـــقوق الأرض المحروثة بعمقٍ، ذهب العديد من الفرسان إلى المراعى المعشبة وراء الغابة. ارتفعت الـــشمس وزاد ســـطوعها وراء الغيـــوم الخفيفة. قابلت مجموعةٌ من الرسل الفرنـــسيين مثيلتهـــا التـــى أرسلها الملك لتقدم عرضه للسلام، وهـــى عائـــدةٌ الآن عبـــر الأرض المحروثة، وبعدها بلحظاتٍ سرت شائعةٌ أن الفرنسيين قد وافقوا على عبور الإنجليز، ثم تمَّ تكذيب الشائعة. قال تـــوم سكارليت:

- إذا لم يريدوا القتال فربما يقفون هناك طوال اليوم!

- علينا أن نجتازهم يا توم.

- يمكننا أن نتسلل هذه الليلة! نعود إلى هارفليه.

- لن يفعل الملك ذلك.

- ولم لا بحق الرب؟ أيريد أن يموت؟

قال هوك:

- إن الرب إلى جانبه.

ارتعد توم.

- ألم يكن أجدى بالرب أن يرسل إلينا إفطارًا جيدًا!

جلبت النساء ما تبقى لديهن من طعامٍ قليلٍ ادخرنه لهــذا اليوم. أعطت ميليساند لهوك كعكةً من كعك الشوفان. قال هوك:

- سنتشارك فى هذا.

قالت بإصرارٍ:

- إنها لك.

ثمة عفنٌ على الشوفان لكن هوك أكل نصفها بأى حــالٍ، وأعطى ميليساند النصف الآخر. لم تكن ثمة جعةٌ، فقــط مــاءٌ مجلوبٌ من النهر أحضرته ميليساند فى زجاجــة نبيــذٍ جلديــةٍ قديمةٍ. بدا طعم الماء زنخًا. وقفت ميليساند جواره تحــدق فــى الفرنسيين. قالت بهدوءٍ:

- كثيرون جدًا.

قال هوك:

- إنهم لا يتحركون.

- إذن ماذا سيحدث؟

- علينا أن نهاجمهم.

ارتعدت.

- أتظن أن والدى هناك؟

- أنا واثقٌ من ذلك.

لم تقل شيئًا. انتَظَرُوا. انتَظَرُوا. ظلت الأبـواق تعـوى والطبول تدق، لكن الموسيقيين تعبوا، وصارت الموسيقى أقـل غزارةً. استطاع هوك سماع طيور (أبى الحناء)[٤] تغنى برقـةٍ بين الأشجار التى تساقطت أوراق بعضها بالفعـل، فـصارت غصونها هزيلةً مثل سقالة منصوبة تجـاه الـسماء الرماديـة. امتلأت الأرض المحروثة المبللة المتلألئـة التـى تقـف بـين

(٤) أبو الحناء (Robins): طائر صغير جذاب يتبع جـنس أبـى الحنـاء يتراوح طوله ما بين ١٢,٥سم : ١٤سم. يتشابه الـذكر والأنثـى فـى الألوان. له صدر برتقالي ووجه مخطط رمادى، الأجزاء العليا تتصف باللون البنى والأجزاء السفلى تتصف باللون الأبيض. يوجد فى أوروبا، وشرق وغرب سيبريا وجنوب وشمال إفريقيا. وهـو طـائر نـشاطه نهارى على الرغم من أن نشاطًا ليليًا فى الليالى المقمرة قد سُجل لـه. فى بريطانيا وأيرلندا عندما يقوم البستانى بأعمال الحرث فإن الطـائر يقترب منه لالتقاط دود الأرض وأى طعام آخر. متوسط عمره المتوقع هو ١٠١ سنة. توضع صورته على كروت الكريسماس منذ القرن ١٩. (المترجم).

الجيشين المنتظرين بطيور الدج[٥] الصغيرة وطيور الــردون[٦] التى تبحث عن الديدان فى الشقوق.

فكر هوك فى الوطن، فى الأبقار التى تحلــب، وصــوت الأيائل التى ثلمت قرونها فى الغابات، وفى المساءات القصيرة، وضوء النيران فى الأكواخ.

ثم حدثت حركةٌ ما، وجفل هوك عائدًا إلى أرض الواقع، إذ رأى الملك يمتطى حصانه الأبيض الصغير مرةً أخرى سائرًا

---

(٥) طيور الدج (Fieldfares): طائر يتربى فــى الغابــات والأرض ذات الأشجار الخفيضة في شمال أوروبا وأسيا. يهاجر فى فصل الشتاء إلى الجنوب مع الطيور الشمالية. يتغذى فى الصيف على أنواع شتى مــن الحشرات وديدان الأرض أما فى فصل الشتاء فإنه يتغذى على التوت. يتراوح طوله بين ٢٢ سم إلى ٢٧ سم، ظهره بنى اللون، أسفل الأجنحة أبيض، مؤخرة رأسه لونها رمادى، الصدر أحمر خفيف وباقى الأجزاء السفلية تتصف باللون الأبيض. الصدر وجوانبه منقطــة بكثــرة. كــل أجناسه متشابهة. (المترجم).

(٦) طيور الردون (Redwings): طائر موطنه الأصلى فى أوروبا وأسيا. حصل على اسمه الإنجليزى من اللون الأحمر الــذى يكــسو أســفل جناحيه. يتراوح طوله بين ٢٠ سم: ٢٤ سم، واتساع جناحيه يتــراوح بين ٣٣ سم: ٣٤,٥ سم، ويزن من ٥٠ جم: ٧٥ جم. أجناسه متشابهة. لون ظهره بنى والأجزاء السفلية لونها أبيض عليه نقاط بنيــة داكنــة. يتغذى على التوت. يبنى أعشاشه غالبًا على الأرض. (المترجم).

أمام الجيش يصحبه حامل رايته وحده. كان قادمًا تجاه الرمـــاة على الميمنة، وحصانه يرفع حوافره عاليًا إذ أزعجـــه الخطـــو المهتز. خلع الملك خوذته المتوجة، وشعثت الريـــاح البـــسيطة شعره البنى القصير، فجعلته يبدو فى عمرٍ أصغر مـــن ســـنينه الثمانية والعشرين. كبح لجام حصانه على بعد خطـــواتٍ قليلـــة أمام العِصىّ الأمامية، وصاح الرماة فى رجـــالهم أن يخلعـــوا خوذاتهم، ويركع كل منهم على ركبته. تركهم الملك يركعـــون هذه المرة، وانتظر حتى ركع كل الألفين وخمسمائة رامى سهامٍ على ركبهم.

- يا رماة إنجلترا.

ثم صمت، حتى يحاول الرجال الاقتراب ليسمعوه. كانت الأقواس الحربية فى جعابها معلقة على أكتافهم، تـــسلح بعـــض الرجال بفؤوس حراس الغابة أو المطارق الخشبية الثقيلة الوزن. لدى أغلبهم سيوفٌ رغم أن البعض لم يكن يحمل أى شيءٍ سوى القوس والخنجر. حدقوا جميعًا فى ملكهم العارى الرأس، وقـــد خلعوا خوذاتهم وأزاحوا أغطية رأس معاطفهم المدرعة.

صاح هنرى مرةً أخرى:

- يا رماة إنجلترا.

غزت رعشةٌ صوته ولذا توقف عن الكلام ثانيةً. داعب الهواء مَعرَفَةَ الحصان. صاح الملك وقد صار صوته واضحًا وممتلئًا بالثقة:

- سنحارب اليوم بسبب خصومتى معهم! لقد أنكر عدونا حقى فى العرش الذى منحه الرب لى! إنهم واثقون أنهم سيذلوننا اليوم! إنهم واثقون اليوم أنهم سيجروننى أسيرًا أمام الحشود فى باريس!

وتوقف عن الحديث، إذ اجتاحت غمغمةٌ رافضةٌ المئات من الرماة، استطرد الملك:

- لقد هدد عدونا بقطع أصابع كل رجلٍ إنجليزىٍ يحمل القوس!

علت الغمغمات الآن مدمدمةً بالسخط، وتذكر هوك الميدان فى سواسون، حيث كان قطع الأصابع هو بداية الرعب فقط. وأضاف الملك:

- وقطع أصابع كل رجلٍ ويلزىٍ يشد وتر القوس.

وعلت موجاتٌ من الهتاف بين صفوف الرماة.

صاح الملك:

- إنهم واثقون من كل ذلك، لكنهم نسوا إرادة الرب. عميت أعينهم عن القديس چورچ والقديس إدوارد الذين يرعوننا، وليس هذين القديسين وحدهما هما من يحميانِنا! اليوم هو عيد القديس كريسبين والقديس كريسبينيان، وهذان القديسان يريدان الانتقام لما فعله الشياطين في سواسون.

وتوقف مرةً أخرى، لكن لم تظهر الغمغمة ثانيةً. لم يَعنِ اسم سواسون شيئًا لأغلب الرماة لكنهم ظلوا ينصتون باهتمام.

قال الملك:

- لقد صارت مهمتنا أن نصب عليهم نار الانتقام، ويجب أن تعلموا، كما أعلم يقينًا، أننا أدوات الرب في هذا اليوم! إن الرب يكمن في أقواسكم، الرب في سهامكم، الرب في أسلحتكم، الرب في قلوبكم، الرب في أرواحكم. الرب سيحمينا وسيدمر أعداءنا.

وتوقف ثانيةً، عندما بدأت تمتمةٌ بسيطةٌ تسرى بين الرماة، صاح الملك بصوتٍ جهوريٍ هذه المرة:

- بمعونتكم! بقوتكم! سننتصر اليوم!

مرت لحظة صمتٍ، ثم علا هتاف الرماة. انتظر الملك حتى هدأ الصوت، واستطرد:

- لقد عرضت السلام على أعدائنا! قلت لهم أن يعيدوا إلى حقوقى الشرعية، ويمكننا أن نتفق على السلم، لكن قلوبهم لا يسكنها السلام، وليس فى أرواحهم بركةٌ، ولذا وصلنا لحظة الحساب هذه!

وهنا أدار الملك عينيه للمرة الأولى عن حشد الرماة الراكعين إلى الأرض المشققة بين الجيشين.

عاد ينظر إلى مستمعيه، وقال فى صوتٍ انخفض قليلاً الآن لكنه لا يزال يحتفظ بشدته:

- لقد أتيت بكم إلى هذا المكان، إلى هذا الحقل فى فرنسا، لكننى لن أترككم هنا! أنا بفضل الرب ملككم.

وعاد صوته يعلو مستطردًا:

- ولكن فى يومٍ كهذا، أنا لا أزيد ولا أنقص عن أيٍ منكم. سأحارب فى هذا اليوم من أجلكم، وأضع رأسى على كفى من أجلكم.

اضطر الملك إلى التوقف، إذ عاد الرماة يهتفون ثانيــــةً. رفع يده المغطاة بالقفاز، وانتظر حتى يصمتوا.

- إذا مِتم هنا، سأموت هنا! لن أُأخَذ أسيرًا.

هتف الرماة له ثانيةً، فرفع الملك يده مرةً أخرى، وانتظر حتى هدأت الضوضاء، ثم ابتسم ابتسامةً واثقةً.

- لكننى لا أتوقع الوقوع فى الأسر، ولا أن أُقتَل، كل ما أطلبه منكم أن تقاتلوا من أجلى اليوم، كما سأقاتل مــــن أجلكم!

مد يده اليمنى تجاه الرماة، محركًا أصابعه يـــشير إلـــيهم جميعًا. تواثب حصانه فى الوحل، وهدأه الملك بمهارةٍ.

- سأحارب اليوم من أجل بيوتكم. من أجل زوجاتكم. من أجل أحبتكم. من أجل أمهاتكم. من أجل آبائكم. من أجل أطفالكم. من أجل حياتكم. من أجل وطنكم؛ إنجلترا.

ولا مناص أن الهتاف الذى انطلق تجاوبًا مع تلكم الكلمات قد وصل حتى أطراف الحقل القصية، حيث لا يزال الفرنسيون ينتظرون تحت راياتهم البراقة.

- اليوم نحن إخوةٌ! ولدنا فى إنجلترا، ولدنا فــى ويلــز، وأقسم على رمح القديس چورچ(٧)، وعلى يمامة القديس داڤيد(٨)، أننى سأعيدكم إلى الوطن فى إنجلترا، وإلــى

---

(٧) رمح القديس چورچ: تقص إحدى الروايات أن القديس چورچ خـسر أول معركة له ضد التنين فانسحب وتجول على طــول النهــر. أخـذ يصلى، أزال عنه درعه وصهرها، صنع من المعدن المنصهر صندوقًا دفن فيه كل مخاوفه وشكوكه وضعف إيمانه وخرج ليواجه التنين ثانية بدون الدرع. ذبح القديس چورچ التنين بسيفه الذى أطلق عليــه اسـم أسكالون وهو اسم مقارب لمدينة أشكيلون فى إسرائيل وضع وينستون تشرتشل اسم أسكالون على طائرته فــى الحــرب العالميــة الثانيــة. (المترجم).

(٨) يمامة القديس داڤيد: يقال إن أفضل معجزاته المعروفة حــدثت وهــو يعظ وسط حشد كبير فى المجمع الكنسى فى بريفــى، وذلــك عنــدما اشتكى من يقفون فى الصفوف الخلفية أنهم لا يــستطيعون ســماعه أو رؤيته. ارتفعت الأرض من تحت أقدامه لتصبح تلة صغيرة وحطــت على كتفه يمامة بيضاء واعتبروها نعمة من الرب. رمز القديس هــو اليمامة ويظهر فى كل الأعمال الفنية واليمامة مرسومة على كتفه، أما القديس داڤيد: هو أسقف ويلزى عاش فى القرن السادس، أصبح بعــد ذلك قديسًا والقديس الراعى لويلز. ما زال تاريخ مولده مجرد توقعات غير مؤكدة بين عامى ٤٦٢: ٥١٢. توفى فــى عــام ٦٠١، القــانون الديرى لداڤيد يفرض على الرهبان أن يجروا المحراث بأنفــسهم دون الاستعــانة بالحيــوانات ويقتاتوا فقط على المــاء والخبز والأعشاب=

الوطن فى ويلز، بأمجاد جديدة تبرق فوق أسمائنا، قائلوا كرجالٍ إنجليزيين! هذا كلّ ما أطلبه منكم! وأعد أننى سأحاربً إلى جواركم، ومن أجلكم! أنا ملككم، ولكن أنا اليوم أخوكم، وأقسم بروحى الخالدة أننى لن أتخلى عن إخوتى! فليحفظكم الرب، يا إخوتى!

أدار الملك عنق جواده بعد هذه الكلمات، متجهًا إلى صف الجنود، ليلقى عليهم نفس الخطبة تاركًا رماة الجناح الأيمن يهتفون له.

قال ويل:

- بحق الرب، أيظن حقًا أننا سننتصر!

رفع هبوب الرياح راية الحرب الحريرية الحمراء فى نهاية ساحة القتال، فرفرفت فوق أسنة رماح العدو. لا أسرى.

= ويقضوا الليل فى الصلوات والقراءة والكتابة وغير مسموح لهم امتلاك أى شىء. يقال إنه عاش قرابة المائة عام، وتنيح يوم الثلاثاء الأول من مارس ويحتفل به فى هذا اليوم من كل عام. ودفن القديس داقيد فى كاتدرائيته. (المترجم).

وظل الفرنسيون على حالهم. لم يتحركوا. جلس الرماة الآن رغم الأرض المبتلة. حتى أن بعضهم نام، وعلا غطيطه في الوحل. لم يزل القساوسة يقدمون الغفران، استخدم الأب كريستوفر قطعةً من الفحم ليكتب تميمة اسم عيسى على جبهة ميليساند، وقال لها:

- ستبقين مع عربات الأمتعة.

- حسناً يا أبتي.

قال القسيس ينصحها:

- وأبقِ فرسك مسرجًا.

تساءلت:

- لأهرب؟

فوافقها القول:

- لتهربي.

أضاف هوك:

- ارتدِ معطف والدك.

- سأفعل.

كانت تحتفظ بالمعطف فى الحقيبة التى احتفظت فيها بكل ما تمتلكه فى الدنيا. أخرجت الـرداء الكتـانى الجيـد النـسيج وفردته.

- أعطنى خنجرك، يا هوك.

أعطاها خنجره فاستخدمته لقطع قطعةً من حاشية الـرداء السفلية. وأعطته إياه قائلةً:

- هاك.

تساءل هوك:

- أأرتديها؟

- بالطبع، فهذا ما يفعله الجندى، يرتـدى تميمـةً مـن حاجيات امرأته.

أومأ تجاه الجنود الإنجليز، كان أغلبهم يرتدى مناديل يـدٍ حريريةٍ أو يلف تميمةً حول عنقه. عقد تميمته حول عنقـه ثـم عانق ميليساند.

قال لها:

– لقد سمعت الملك، إن الرب إلى جانبنا.

قالت:

– أتمنى أن يعرف الرب هذا.

قال الأب كريستوفر:

– أنا أصلى من أجل ذلك أيضًا.

ثم انبثقت حركةٌ على حين غرةٍ، ليست من الفرنسيين الذين لم يظهروا أى إشارةٍ على نيتهم للهجوم، بل من مجموعةٍ من الجنود الإنجليز الذين امتطوا صهوات الجياد، وساروا الآن أمام مقدمة الجيش، صاح الرجل الذى أتى جهة الميمنة:

– علينا أن نتقدم! التقطوا عِصيكم! علينا أن نتقدم.

– أيها الرفاق!

إنه الملك ذاته، وقد تقدم بضع خطوات أمام الصف، ووقف فى ركابه ولوح بذراعيه ليراه كل رجاله.

– أيها الرفاق! هيا بنا!

قالت ميليساند:

- آه، يا إلهى، يا إلهى.

قال لها:

- عودى عند الأمتعة.

وبدأ يحاول انتزاع عصاه من الأرض الموحلة، وقال:

- اذهبى، يا حبيبتى، سأكون بخير، لن يتمكن أى رجلٍ فرنسيٍ من قتلى.

لم يكن واثقًا من ذلك، لكنه أجبر نفسه على الابتسام من أجلها، أحس أحشاءه تضطرب. أشعره الخوف بالبرودة. أحس نفسه هشًا وضعيفًا ومهتزًا، لكنه بطريقةٍ ما حرر العصا، وحملها على كتفه.

لم يلتفت إلى ميليساند، وبدأ السير المرهق فى الوحل السميك، وكذا فعل التشكيل القتالى الإنجليزى كله. تحركوا ببطء يدعو إلى الرثاء. يجرون أقدامهم من الوحل الذى يعلق بها. ينقلون الخطوة تلو الأخرى بصعوبةٍ تجاه الفرنسيين.

راقبهم الفرنسيون. راقبوهم فقط. قال إيفل-جولد:

- لو أن لدى أولاد الحرام أى إدراكٍ لهاجمونا الآن.

قال هوك:

- ربما سيفعلون.

راقب العدو القابع على البعد. تراجع بعض الفرسان الذين يمرنون خيولهم إلى الجناحين، ولكن لم تبد على أفعالهم العجلة. لم تغير الأبواق من نغماتها. بدا الفرنسيون راغبين فـــى تـــرك الإنجليز يسيرون بطول الأرض المحروثة، وأحس هوك روحه تنزلق كما ينزلق الأرنب البرى على العشب الربيعـــى. أأتـــى الملك حقًا بنفسه إلى الرماة فى الليل؟ لقد نسى أن يُقَوِّى منتصف أحد أوتاره الاحتياطية حيث يتكئ السهم. أسيصلى الملك حقًا من أجل مايكل؟ أسيكون الموت سريعًا؟ أطلق بيرس كاندلير ســـيلاً من السباب، وألقى بحذائه ذى الرقبة العالية ليسير فـــى الأرض المحروثة حافيًا. تذكر هوك رامى السهام الذى شنقه فى لنـــدن، وتساءل: هل أحس ذلك الرجل بنفس هذا الخوف عندما شـــاهد الجيش الاسكتلندى آتيًا ليقاتلهم عند تل هوميلدون؟ ثم فكر بعـــد ذلك فى كل الرجال الإنجليز الآخرين الذين حملوا قوس الحرب من أجل ملكهم. لقد قاتلوا الاسكتلنديين، والـــويلزيين، وقـــاتلوا بعضهم البعض، وعادة، دائمًا، ما قاتلوا الفرنـــسيين، ومـــا زال هؤلاء الفرنسيون لم يتحركوا، وقد أخاف جمودهم هذا هـــوك.

بدوا مصرين على الانتظار، مدركين أن الجـيش الإنجليـزى الصغير مضطرّ أن يلقى بنفسه على نصالهم.

انغرست قدم هوك فى الوحل، ولذا فعل ما يفعلـه بقيـة الرماة؛ تخلى عن حذائه ذى الرقبة العالية. وتخلى عـن فـردة حذائه الأخرى إذ وجد الأمر كذلك أسهل، صاح إيڤـل-جولـد محذرًا:

- إذا تحركوا سنقف ونوتر أقواسنا ونغرس العِصىّ.

ولكن لم يتحرك الفرنسيون. استطاع هوك أن يرى المزيد من الرجال، لا يزالون ينضمون إلى جيشهم، ويأتى أغلبهم من الشرق. وقف الفرسان على الجناحين، يراقبون الإنجليز، لكنهم لم يستحثوا خيول الحرب الضخمة للركض، تلك الخيول التـى تغطت وجوهها بالدروع المعدنية وتغطت صـدورها وأكفالهـا بالقماش المبطن. حمل الفرسان رماحهم الطويلة مشرعةً. على بعض هذه الرماح المصنوعة من خشب الدردار ذات الـرؤوس الفولاذية علقت راياتٍ صغيرة، بقيت مقدمة خـوذات الفرسـان مفتوحةً، واستطاع هوك أن يرى الوجوه التى يؤطرها الفولاذ، شعر بالبرد رغم تعرقه. ارتدى درعًا مبطنة فوق معطفه الجلدى المبطن، وتلك الدروع قد تصد ضربة سيفٍ، لكن بإمكان رمـح

أن يخترقها بسهولة. حاول أن يتخيل تفادى طعنة حربةٍ فى هذا الوحل السميك، لكنه أدرك أن ذلك سيكون مستحيلاً.

انطلق صوتٌ آمرٌ:

- أبطئوا المسير!

لقد تقدم الرماة كثيرًا عن الجنود الإنجليز الذين أثقلتهم دروعهم فشق عليهم السير فى الأرض المحروثة التى أغرقها الماء. لكنهم تقدموا بثباتٍ خطوةً تلو الأخرى، وقد ضاقت المسافة بين الغابات على الجانبين، فصارت الصفوف الإنجليزية تملأ المساحة بين الأشجار، كانت مجموعة المراقبين الزاهية من الفرنسيين، والإنجليز، والبورجونديين، تسير بخيولها، أقرب إلى الفرنسيين، مع احتفاظهم بموقعٍ وسيطٍ بين الجيشين.

غمغم إيڤل-جولد بتذمرٍ:

- يا للمسيح على صليبه اللعين[٩]، ولكن إلى أى حدٍ يريدوننا أن نقترب؟

---

(٩) هكذا وردت فى النص الأصلى: (Christ on His roddam Cross) وقد أثبتناها لأمانة الترجمة لكننا نحمل للسيد المسيح كل الاحترام ونرفض إهانته بأى شكل. (المترجم).

ثم صاح صوتٌ فى الرماة أن يعيدوا غرس عِصيهم. لقد أصبح العدو قريبًا الآن، أبعد من مائتى خطوةٍ بقليلٍ، وهذا يبعد قليلاً عن أقصى العلامات فى أيٍ من مسابقاتً الرماية، وتـــذكر هوك أيام الصيف تلك مع المشعوذين، والدببة الراقصة، والجعة المجانية، وهتاف الحشود، عندما يسحب الرماة أوتار أقواســـهم ويطلقون السهام، صاح رجلٌ:

– العِصىّ! اغرسوها جيدًا.

انغرست عصا هوك بسهولةٍ فى الأرض الرخوة، ألقـــى نظرةً على العدو، ورآهم على حالهم دون حراكٍ، فنزع فأســـه الحربية، ودق على رأسها المدبب ثلاث دقاتٍ، مما أفقدها حـــدتها، وإن دفعها أعمق فى الأرض. استخدم خنجره ليزيـــل الخـــشب المتكسر ويعيد إلى طرف العصا التى أعاد غرسها حدته، ثم فى النهاية، أخرج القوس من جعبته المصنوعة من جلد الخيل. وقف جميع من حوله من الرماة يثبتون العِصىّ، أو يوترون الأقواس. ثبت هوك قوسه قبالة نهاية العصا السفلية، وثنى قامة القـــوس المصنوعة من خشب السرو، ليثبت عقدة الـــوتر فـــى نهايتهـــا العلوية. التقط هوك جعبتى السهام من على كتفه. أخرج الأسهم، وغرسها من جهة رؤوسها فى الأرض؛ السهام ضيقة الرؤوس إلى يساره، ونصف دزينةٍ من السهام عريضة الرأس إلى يمينه.

قبل بطن القوس، حيث يلتقى الخشب الداكن بالخشب الفاتح، ودعا: يا إلهى، ثم صلى للقديس كريسبينيان، وأحس قلبه يرفرف كالطير الذى وقع فى الفخ، وحلقه قد جف، وارتعدت ساقه، ولا يزال الفرنسيون بلا حراك، ولا يزال القديس كريسبينيان لا يجيب بشىءٍ عن صلوات هوك.

انتشر الرماة. لم تكن عِصيهم تشكل خطًا منتظمًا فى مواجهة الفرنسيين، لكنها انغرست بدلاً من ذلك فى خطوط متناثرة تملأ مساحةً واسعةً عريضةً كتلك الساحة التى أحرق فيها الملك هنرى وشنق الزنادقة. بين العصا والأخرى خطوتان، مسافة تكفى الرجل ليتحرك، لكنها ضيقة جدًا لا تسمح لأى حصانٍ أن يناور بحرية. تمددت خطوط الرماة غير المنتظمة إلى الخلف، ولذا لم يعد بإمكان الرجال فى المؤخرة رؤية العدو بسبب الرماة أمامهم، لكن هذا لم يعد أمرًا مهمًا فعلى مسافة مائتى خطوة سيكون عليهم أن يطلقوا سهامهم عاليًا فى الهواء، إذا أرادوا أن تصل إلى الفرنسيين. كان هوك فى مقدمة الصفوف الأولى، واستدار فرأى توماس بيريل يدق على عصاه خلفه ببعض الخطوات إلى اليمين. لم ير ما يشير إلى السير مارتين، وتساءل إن كان القسيس قد عاد إلى المعسكر، جعلته هذه الفكرة يرتعد خوفًا على سلامة ميليساند، لكنه لم يجد الوقت

الكافى ليقلق على ذلك، فقد صاح توم إيڤل-جولد على رجالـــه لينظروا أمامهم.

ظن هوك أن العدو يتقدم أخيرًا، لكن الفرنسيين كانوا بلا حراك، ووقف صف طويل عريض من الجنـــود المـــشاة فـــى معاطفهم الزاهية ودروعهم المصقولة فى قلب التشكيل، بينمـــا جناحاهم حشدان من الفرسان المـــسلحين بالرمـــاح، ورفرفـــت الرايات الحريرية المشرقة على خلفية السماء الرماديـــة، وفـــى مركز القلب من الصفوف الفرنسية أكبر الرايات، راية الحـــرب الفرنسية؛ شريطٌ أحمرٌ تحركه الرياح ليخبر الإنجليز أن العـــدو لن تأخذه بهم رحمةٌ.

حاول هوك أن يجد السير دى لانفيريل فى خطوط العدو، لكنه لم يستطع أن يراه. وبدلاً من ذلـــك رأى الأســـلحة. رأى السيوف، والرماح، وفـــؤوس الحـــرب، والـــسيوف الطويلـــة، والمطارق الحربية، وفؤوس المعارك ذات الـــذراع الطويلـــة، والصولجانات التى ثبتت على رؤوس بعضها مسامير. وضـــع سهمًا عريض الرأس على قامة قوسه العريض، وعاودته الرغبة فجأةً فى إفراغ أحشائه ثانيةً. أغلق عينيه للحظةٍ، وصلى صلاةً حارةً للقديس كريسبينيان، ثم غرس قدميه الحافيتين فى الأرض الغروية مثبتًا نفسه.

قال توماس سكارليت:

- يا عيسى المسيح الرائع.

تمتم ويل:

- يا إلهى، يا إلهى.

امتطى السير توماس ايربينجهام حصانه الصغير أمام الصف الإنجليزى حاسر الرأس، رمادى الشعر. رفع الحصان أقدامه عاليًا، إذ لم يرتح للسير فى الأرض الدبقة. انتظر الجنود الإنجليز خلف السير توماس. اصطف الجنود التسعمائة فى أربعة صفوفٍ، يقف فى وسطهم الملك متألقًا فى درعه اللامعة، ويؤطر خوذته الحربية تاجٌ ذهبىٌ مرصعٌ بالجواهر. أدار السير توماس حصانه، فصار ظهره جهة الفرنسيين، وانتظر للحظاتٍ فى معطفه الأخضر الذى يزينه شعار صليب القديس چورچ الأحمر.

صلى هوك بصوتٍ جهورىٍ للقديس كريسبينيان قائلاً:

- كن معى الآن.

تمنى لو أن القديس تحدث إليه، لكن كريسبينيان ظل على صمته.

أصدر توماس إيڤل-جولد أوامره بصوتٍ خفيضٍ:

- شدوا أوتاركم!

رفع هوك القوس. شد وتر القنب إلى أقصى مداه حتى أذنه. أحس القوة الوحشية الكامنة فى الخشب المتقوس. صَوَّب إلى حصانٍ فى مواجهته تمامًا، لكنه أدرك أنه سيكون محظوظًا إن أصاب السهم حيث يصوبه. لو أن الفرنسيين أقرب خمسين خطوةً، لصوب إلى كل هدفٍ واثقًا من إصابته، ولكن عند إطلاق القوس على مسافةٍ بعيدةٍ سيكون محظوظًا إذا وصل السهم فى مساحة أربع أو خمس خطواتٍ من هدفه. شد الوتر إلى الخلف، وارتعدت يده اليمنى.

رفع خمسة آلافٍ أقواسهم، وشدت خمسة آلاف سهمٍ على خمسة آلاف وترٍ.

طار سربٌ من طيور الزرزور مرفرفًا فوق غابة ترامكور[١٠]. علت ضربات أجنحتها فجأةً. بدت كدوامةٍ من

---

(١٠) ترامكور (Tramcourt): كوميون فى منطقة مونتريال فى فرنسا تقع على الجانب الآخر من الموقع الذى دارت فيه معركة أزينكور، من أشهر الأماكن بها كنيسة القديس ليونارد التى بنيت فى القرن السادس عشر. (المترجم).

الدخان القاتم فوق الأشجار، وكما ظهرت فجأةً ذهبت فجأةً. أنزل الفرنسيون على طول صفوفهم القتالية مقدمات خوذاتهم، كان هوك يرى وجوهم، بينما الآن يرى القامات المعدنية دون وجوهٍ.

تمتم أحد الرماة عندما وقف السير توماس فى سرجه:

- فليكن الرب معنا.

ألقى السير توماس الصولجان الأخضر عاليًا فدار فى الهواء الرطب. خيم الصمت فوق ساحة أزينكورت، صمتٌ طار فيه الصولجان الأخضر وأطرافه الذهبية تلمع فى وجه السماء الغائمة. صاح السير توماس:

- الآن، اضرب!

نزل الصولجان.

أطلق هوك.

وانطلقت السهام.

أول ما طرق الأسماع هو صوت الأوتار، اهتزاز خمسة آلاف وترٍ من أوتار القنب التى تشدها أقواس خشب السرو

المقوسة. بدا ذلك الصوت كالضرب على أوتار قيثارة الشيطان. ثم صوت السهام، تنهيدة خفيفة فوق الريش، ولكن الكثرة جعلتها كصوت الريح العاصفة. خفت الصوت، إذ تصاعدت غيمتان من السهام إلى السماء الرمادية، كثيفتـــان كـــسربٍ مـــن أســـراب الزرزور، وبينما امتدت يده لتأتى بسهم آخر عـــريض الـــرأس شعر هوك بالدهشة لمشهد الخمسة آلاف سهمٍ التى طارت فـــى مجموعتين كثيفتين، وبدا أن العاصفتين، فى عنفوان انطلاقهما، تحومان حول قلب لا يزال يخفق بالحياة، ثم هبطت السهام.

كان هذا عيد القديس كريسبينيان فى بيكاردى.

أطبق الصمت لبرهةٍ.

ثم ضربت السهام أهدافها.

وعلا صوت اصطكاك الفولاذ بـــالفولاذ، جلبـــةٌ كأنهـــا عاصفةٌ ثلجيةٌ شيطانيةٌ.

وبدأ ضجيج الألم فى ذلك اليوم. انطلقت صرخة حصانٍ، وشب على قائمتيه الخلفيتين، إذ ضربه سهمٌ عريض الرأس فى كفله. وثب الحصان مندفعًا إلى الأمام، فاهتز راكبه المدرع بالفولاذ على سرجه المرتفع، وبدت حركة الحصان الجريح كأنها إشارةٌ، إذ تبعته المزيد من الخيول، ثم اندفع كل الفرســـان، وانطلقـــت

صيحةٌ عظيمةٌ من كل الصفوف الفرنسية إذ بدأ الفرسان هجمتهم.

- باسم القديس دانى، إلى الأمام.

صاح رجلٌ ما وسط صفوف الإنجليز:

- باسم القديس چورچ!

والتقط الجيش الصغير الصيحة. وأجاب الجنود الإنجليز صيحات الفرنسيين بصيحاتٍ متعاقبةٍ:

- القديس چورچ!

وتعالت الصيحات حتى صارت صخبًا، إذ علت صيحات الأبواق تصرخ فى سماء المعركة.

وانطلق سهم هوك الثانى العريض الرأس إلى هدفه.

كان جيلبير، سنيور دى لانفيريل، فى مقدمة صفوف الجيش الفرنسى، أحد الجنود المشاة الذين يفوق عددهم ثمانية آلاف رجلٍ، يشكلون أول التشكيلات القتالية الفرنسية الثلاثة. ارتدى دروعًا معدنيةً مصقولةً تحت معطفه الذى يزينه شعار الشمس والصقر، وإن تلطخت دروع ساقه بالوحل الآن. علق

فى جانبه سيفًا حربيًا طويلاً، وعلى كتفه صولجانًا معدنيًا ثقيلاً زوده بمسامير، وفى يديه حربةٌ صنعت قامتها من خشب الدردار بطولٍ قصيرٍ؛ نحو سبعة أقدام، وثبت فى نهايتها رأسًا فولاذيًا حادًا. على رأسه قلنسوةٌ جلديةٌ تنغلق تحت ذقنه وقد لُفَّ شعره الطويل تحتها. وفوق القلنسوة وقاءٌ من سلاسل معدنيةٍ يغطى رأسه وكتفيه، وفوق الوقاء خوذة حربٍ إيطاليةً تحيط برأسه تمامًا، أبقى مقدمة خوذته مرفوعةً ليتمكن من رؤية الإنجليز، ورأى أيضًا إلى أىّ حدٍ جيشهم صغيرٌ بشكلٍ مضحكٍ.

إن الفرنسيين متحمسون. لقد تجاسر هنرى ملك إنجلترا أن يسير بجيشه المثير للشفقة من نورماندى إلى بيكاردى، ظنًا منه أنه يستطيع أن يلحق العار بأعدائه باستعراض رايته الوقحة عبر الأرض الفرنسية، وقد حوصر الآن. راقب لانفيريل العدو منذ الفجر، وقدر أنهم لا يزيدون على ألف جندىٍ فى تشكيلهم القتالى، وقد بدا هذا العدد صغيرًا للغاية بشكلٍ يثير السخرية، وقد دقق فى عددهم مرارًا وتكرارًا، بأن قسم صفهم إلى أرباعٍ، وعد الرؤوس فى كل ربعٍ، وضربها فى أربعةٍ، وفى كل مرةٍ يصل إلى نفس المجموع، ربما يواجه ألف جندىٍ ثلاثة تشكيلاتٍ قتاليةٍ فرنسيةٍ متعاقبةٍ، يتكون كل منها من ثمانيةِ آلاف جندىٍ على الأقل لكن هناك أيضًا جناحى الإنجليز؛ الرماة.

كانوا آلافًا من الرماة، يفوق عددهم الحصر، رغم أن طليعة الاستكشاف الفرنسية قدرت عددهم بما يتراوح بين أربعة آلاف وثمانية آلاف. عرف لانفيريل أن هؤلاء الرماة يحملون الأقواس الطويلة المصنوعة من خشب السرو، وجعابًا من السهام ذات الرؤوس الفولاذية التى يمكنها من مدىً قصيرٍ أن تخترق أفضل الدروع التى تصنع فى العالم المسيحى، ولذا صُنع درع لانفيريل بتقوساتٍ لتنزلق عليه السهام، لكنه يعرف رغم ذلك أن إحدى الضرباتٍ قد يحالفها الحظ وتجد لنفسها مدخلاً، ولذا لم يشارك جيلبير؛ سيد الجحيم؛ سير لانفيريل مواطنيه الحماس. لم يراوده الشك للحظةٍ أن الجنود الفرنسيين يمكنهم ذبح الجنود الإنجليز، ولكن للوصول إلى ذلك التشكيل القتالى الحقير سيكون عليهم أن يواجهوا السهام.

ذهب السير لانفيريل أثناء الليل، بينما الرجال الآخرون يسكرون إلى عرافٍ؛ رجل شهير من باريس عرف بالقدرة على رؤية المستقبل، ووقف لانفيريل فى الصف الطويل الذى ينتظر استشارة العراف؟ بدا الرجل الملتحى غامضًا، وهو يلتف فى عباءة سوداء ذات حوافٍ من الفراء، وأخذ ذهب لانفيريل، ثم أعلن بعد كثيرٍ من الأنين والتنهيدات أنه لم ير شيئًا فى المستقبل سوى المجد، قال المنجم:

- سَتَقتُل يا سيدى اللورد سَتَقتَل وتَقتُل وتَحصُد المجد والثروات.

أحس لانفيريل بالخواء بعد ذلك وهو يقف خارج خيمة العراف تحت المطر الغزير.

لقد كان واثقًا أنه سيَقتَل ويَقتُل، لكن طموحه لم يكن ذبح الإنجليز، بل أخذهم أسرىً، وفى وسط قلب خطوط العدو تحت أطول الرايات هنالك ملك إنجلترا، فإذا أخذ الملك هنرى أسيرًا فستقضى الأمة الإنجليزية أعوامًا لتجمع الفدية، ويتطلع الفرنسيون إلى ذلك. هنالك أيضًا أكثر من دوقٍ ملكيٍ ولوردات عظامٍ، وأسر أحدهم يمكن أن يجعل الرجل غنيًا أكثر من أبعد أحلامه جموحًا.

ولكن الرماة يقفون بين الحلم والحقيقة.

وجيلبير؛ سنيور دى لانفيريل، يدرك قوة القوس المصنوع من خشب السرو.

وهذا هو السبب الذى دعا لانفيريل للذهاب إلى كونستابل فرنسا يستحثه إلى الهجوم عندما بدأ الإنجليز تقدمهم المرهق عبر الحقل المحروث الموحل بين ترامكور وأزينكور. فقد فَقَدَ الإنجليز تماسكهم وهم يكافحون للتقدم إلى الأمام، وبدلاً من

كونهم جيشاً فى تشكيل قتالى صاروا فجأةً مجموعةً مــن الرعــاع تناثرت وقد لطخها الطين تجاهــد للــسير عبــر خطــوط الأرض المحروثة الزلقة، ورأى لانفيريل انفــراط عقــد الرمــاة، فــصاح بالمارشال بوسيكول والكونستابل دى ألبرت يدعوهم مرةً أخرى:

- دعوا الفرسان تنطلق.

وقف الفرسان على الجناحين الفرنسيين. رجالٌ ضــخامٌ على خيولٍ ضخمة، وقد تغطت الخيــول بالــدروع المعدنيــة، وصدورها بالمعاطف الثقيلة المبطنة، ومهمــتهم أن يهــاجموا الرماة، ويذبحونهم بلا رحمة، لكن العديد من الفرسان ســاروا بخيولهم بعيدًا إلى المراعى المعشبة خلف الغابات ليدربوها، كى تظل الحيوانات دافئةً، ولم يقم بقية الفرسان بأكثر من مراقبــة الإنجليز.

أجاب المارشال بوسيكول طلب لانفيريل بقوله:

- القرار ليس بيدى.

- بيد من إذن؟

قال بوسيكول باقتضابٍ وتجهمٍ:

- لست أنا.

وفهم لانفيريل أن بوسيكول يشاركه خوفه من قدرات الرماة.

قال لانفيريل عندما لم يصدر أحد أمرًا للفرسان بالهجوم.

- من أجل المسيح!

وبدلاً من الهجوم، أوقفوا خيولهم الضخمة، وقبعوا يراقبون الإنجليز وهم يكافحون مقتربين أكثر فأكثر.

تساءل لانفيريل بصوتٍ جهوريٍ:

- من يقودنا؟ بحق المسيح، من يقودنا؟

لم يلق أحدٌ خطبةً حماسيةً فى الفرنسيين قبل المعركة، رغم أن لانفيريل رأى الملك الإنجليزى يمتطى جواده، ويقف أمام الصفوف الإنجليزية، وخمن أن الملك هنرى يستثير حماس رجاله للقتال.

ولكن من تحدث من أجل الفرنسيين؟ لا يقود الكونستابل ولا المارشال هذا الجيش الضخم، ويبدو أن ذلك الشرف يقع على عاتق دوق برابانت أو ربما هو دوق أورليان الشاب الذى وصل للتو إلى ساحة القتال، ويراقب الآن تقدم الإنجليز، ويحصى بلا شكٍ الفديات التى يمكن جمعها. بدا الدوق قانعًا أن

يرى أفراد العدو يكافحون متقدمين إلى مصارعهم، ولذا لم تعط الأوامر للفرسان على أيٍ من جناحى الفرنسيين. راقب لانفيريل بريبةٍ الإنجليز وهم يتقدمون إلى مرمى السهام. لدى الفرنسيين رماةٌ، بل لديهم حتى بضعة رجالٍ يمكنهم الرماية بالأقواس المصنوعة من خشب السرو، ولديهم أيضًا بعض المدافع الصغيرة جاهزةً للإطلاق، لكن الفرسان المنتظرين غطوا على المدافع والرماة. للقوس المستعرض مدىً أطول من قوس خشب السرو، لكن رماة القوس المستعرض لا يمكنهم الإطلاق، ولذا تمكن رماة العدو من اجتياز المسافة بعِصيهم دون أى رد فعلٍ، ودار بخلد لانفيريل: يا إلهى، ولكن هذا جنونٌ، كان من المفترضِ أن يصبح الرماة الآن مبعثرين ومذبوحين، وبدلاً من ذلك تُرِكوا ليتقدموا إلى مدى أقواسهم، وليدقوا عِصيهم فى الأرض اللينة لتعيق الفرسان. راقبهم، وهم يوترون أقواسهم، ويفعلون كل هذا وهم ضمن مدى السهام، لكن أحدًا لم يحاول منعهم، قال لانفيريل دون أن يوجه حديثه إلى شخصٍ بعينه:

- يا يسوع، إنها تأتى، وتخلع ملابسها، وتلقى بنفسها على السرير، وتباعد بين أرجلها، ونحن لا نفعل شيئًا.

تساءل تابعه:

- مولاى؟

تجاهل لانفيريل سؤاله، وصاح فى رجاله:

- مقدمة الخوذات!

استدار ليستوثق أن الجنود الستة عشر الذين يحاربون تحت قيادته أنزلوا مقدمات خوذاتهم قبل أن ينزل هو مقدمة خوذته مصدرةً صليلاً معدنيًا.

أحاطته الظلمة من فوره، كان قبلها بلحظةٍ يرى العدو بوضوحٍ. كان بإمكانه حتى أن يرى بريق التاجٍ الذهبى الذى يحيط بخوذة هنرى؛ ملك إنجلترا، أما الآن فقد أصبح هذا المصراع الفولاذى أمام عينيه، وبه عشرون ثقبًا صغيرًا، ولا يسمح اتساع هذه الثقوب حتى لرأس سهمٍ ضيقٍ بالعبور، وليرى أى شيءٍ عبر هذه الثقوب، فعلى لانفيريل أن يدير رأسه من جانبٍ إلى آخر، وحتى هذه الحركة لا تتيح له رؤية ما يحدث بوضوحٍ تامٍ.

لكنه رأى الجولة الوحيدة التى قام بها الفارس الذى تحرك من قلب الصف الإنجليزى، ورأى الصولجان يطير فى الهواء.

وسمع هذه الكلمات:

- الآن، اضرب!

خفض رأسه، كأنه يصارع ريحًا صرصرًا عاتيةً، وسمع الصخب المتصاعد لانطلاق السهام، وجفل، وارتعد، وصَرَّ على أسنانه، ثم ضربت السهام أهدافها.

ارتفعت ضوضاء رهيبة إذ اصطدمت آلافٌ من رؤوس السهام الفولاذية بالدروع الصلبة، وصاح رجلٌ فى ألمٍ مفاجيءٍ، وأحس لانفيريل بضربةٍ قويةٍ على كتفه اليمنى، ورغم أن السهم انزلق عن الدرع، فإن قوة اندفاعه جعلته يترنح إلى الجانب الآخر. اصطدم سهمٌ آخر برمحه رغم أنه لم يستطع رؤيته. ترك أحد الحمقى فى الصفوف الخلفية مقدمة خوذته مفتوحةً وقد سقط سهم من السماء ليخترق فمه، ويدخل حتى قصبته الهوائية وهو يغرغر الآن بالقرب منه. سقط الرجل ببطءٍ على ركبتيه وسعل الكثير من الدم الكثيف. هوت الأسهم الأخرى فى التراب، أو انزلقت عن الدروع. صهل حصانٌ، وشب على ساقية الخلفيتين إلى اليسار من لانفيريل.

صاح الفرنسيون:

- باسم القديس دانى! إلى الأمام!

حرك لانفيريل رأسه ليرى من خلال الثقوب الصغيرة فى مقدمة خوذته أن الفرسان بدأوا التقدم أخيرًا. ثم انطلقت صيحةٌ

أخرى تدعو للتقدم من وسط صفوف الفرنسيين، حيث ترفـرف راية الحرب الفرنسية، وتحرك كل التشكيل القتـالى الفرنـسى الأول تجاه العدو، صاحوا:

- إلى الأمام!

بدت أصواتهم جبارة تثير الصمم داخل خـوذاتهم، وأحـس لانفيريل أنه قادرٌ بالكاد على الحركـة إذ انغرسـت قـدماه اللتـان تغطيهما الدروع فى الطين، لكنه شد ساقه اليمنى، فأخرجهـا مـن الوحل وبدأ التقدم. رجالٌ يغطـيهم الفـولاذ والطـين، ولا تُـرَى أجسادهم، يسيرون ببطءٍ تجاه الإنجليز المنتظرين. عوى الإنجليـز بصيحات الصيد كشياطينٍ مسعورة تطارد الأرواح المسيحية.

وتساقطت عاصفة الأسهم الثانية.

وتساقطت عاصفة البرد الشيطانى، وصرخ المزيد مـن الرجال.

وهكذا بدأ الفرنسيون هجومهم أخيرًا.

أتى الفرسان أولاً. رأى هوك حصانًا يشب على قدميـه الخلفيتين، ويطيح براكبه إلى الوراء، فترسم حربته دائرةً وهميةً

فى صفحة السماء وهى تسقط معه، ثم ابتلع تقدم الهجمة ذلـك الحصان. غمز الفرسان خيولهم، وخفضوا رماحهم، وصـاحوا صيحات الحرب، ورأى هوك الحوافر الوحشية تنثـر وراءهـا كتلاً كبيرةً من الطين. أرجحت الخيول رؤوسها التـى أثقلهـا الدروع، فالخيل لا تحب السير على الأرض الوعرة، وغمزهـا راكبوها ثانيةً بالمهمازات، وبدأ الهجوم يتـشكل مـع تـسارع ركض الخيل.

إن من الحذق أن يبدأ هجوم الفرسان ببطء، رُكبَـة كـل راكبٍ بجوار الآخر، يتقدمون فى ذلك التشكيل المتقارب، ولـذا يضربً التشكيل كله بخيوله الضخمة خطوط العدو معًا، وعلى الفارس أن يغمز جواده فى الدقيقة الأخيرة فقط ليدفعه إلى الركض، لكن الأرض المحروثة كانت رخوةً جدًا، والسهام تتساقط علـى حين غرةٍ مما دفع الرجال إلى الركض بخيولهم مندفعين ليهربوا من كليهما. لم يأمر أحدٌ بالهجوم، بل استحثته وطـأة عاصـفة السهام الأولى. هجم الفرسان الآن على الجناحين بأقصى سرعةٍ تستطيعها الخيول. هاجم ثلاثمائة فـارسٍ الجنـاح الإنجليـزى الأيمن، بينما هاجم عددٌ أقل قليلاً الجناحً الأيـسر. كـان مـن المفترض أن يهاجم ألف فارسٍ كل جناحٍ، لكن بقيـة الفرسـان ليسوا هناك، كانوا لا يزالون يريضون خيولهم.

شد الرماة أوتار أقواسهم، وأطلقوا.

استخدم هوك السهام العريضة الرؤوس. إنها عديمة الفائدة فى مواجهة الدروع، لكنها تستطيع اختراق القماش المبطن الذى يحمى صدر الخيول، وإذ تقصر المسافة ترفرف السهام على مستوىً أكثر انخفاضًا، وكلما انخفض مستوى طيرانها لم تفقد قوتها فى الهواء على ارتفاعاتٍ كبيرةٍ، بل طارت مباشرةً إلى الحيوانات المهاجمة. ظن هوك لوهلةٍ أن السهام بلا جدوى، لكن حصانًا تعثر فجأةً، وسقط وسط موجةٍ كبيرةٍ من الطين، والرمح، واللجام، وراكبه. صرخ الحصان، وصرخ راكبه معه إذ حصره الجسد المتلوى، واصطدم حصانٌ آتٍ من الخلف بالحيوان المتلوى على الأرض أمامه، ورأى هوك راكب الحصان الثانى يندفع إلى الأمام مصطدمًا برأس حصانه، سحب هوك وتر قوسه مرةً أخرى متصيدًا حصانًا ضخمًا ذا مَعرَفَةٍ شعثاء، وأطلق سهمًا على جانبه أمام مقدمة السرج مباشرةً، فانقلب الحصان بعيدًا مصطدمًا بآخر، وضرب سهم هوك التالى صدر حصانٍ مغطىً بقماشٍ مبطنٍ فانغرس السهم حتى لم يبق ظاهرًا منه سوى الريش، وأصبح العالم ضربات حوافر، وصرخات، وصوت أوتار الأقواس، وعلى الأرض دزينةٌ من الخيول على الأقل، بعضها يحاول الوقوف،

والآخرون يثيرون الطين بــضربات حــوافرهم المحمومــة إذ تنسحب حيواتهم عبر الشرايين المقطعة. أصاب ويل حلق فارسٍ بسهمٍ ضيق الرأس، فترنح الرجل إلى الخلف بفعل قوة الضربة، ثم عاد إلى الأمام بفعل مؤخرة سرجه المرتفعة، وانغرس رأس رمحه فى الأرض، فوقع الرجل من على سرجه، بينما الحصان مستمرٌّ فى ركضه، وقد ابيضت عيناه، وشوهدتا مــن خــلال ثقوب دروع وجهه، وجر معه فى ركضه راكبه وقد علقت قدمه بالرِكَاب، وأصيب الحصان بسهمٍ فى عينه فانحرف إلى الجانب فأسقط معه حصانين آخرين، أطلق الرماة سهامهم بسرعةٍ. لــم يكن لدى الفرسان متسعٌ للتلكــؤ، لكــن الأرض أبطــأتْ مــن حركتهم، وفى الدقيقة التى استغرقها الفرسان الثلاثمائة للوصول إلى الرماة على الجناح الإنجليزى الأيمن، كانوا هدفًا لأكثر من أربعة آلاف سهمٍ. أطلق رماة الصفين الأماميين وحدهم سهامهم بينما الرماة الآخرون –إذ حجبت عنهم هذه الــصفوف مــرأى الهجوم– ظلوا يطلقون سهامهم عاليًا فتتــساقط علــى المــشاة الفرنسيين.

التف حصانٌ أصابه الألــم بــالجنون، وهــاجم الجنــود الفرنسيين في وسط الساحة والدم يتدفق من أحشائه الممزقــة، وتبعته خيولٌ أخرى. أجفل بعض الفرسان من مرأى الجثــث،

ومن الخيول المحتضرة أمــامهم، فكبحــوا ألجمــة خيــولهم، وأصبحوا بالتالى أهدافًا سهلةً للسهام التى تضربهم، يضرب كل واحدٍ منها حصانًا بصوت كساطور الجزار، وتصرخ الخيــول، ويحاول الرجال السيطرة عليها.

لكن ظلت بعض الخيول تصل إلى الصفوف الإنجليزية.

صاح قادة الرماة:

- إلى الخلف! إلى الخلف!

تراجع الرماة فى الصفوف الأولـــى، تـــاركين عِــصيهم تواجه العدو، بينما استمروا فى إطلاق سهامهم. أخذ هوك قبضةً من السهام الضيقة الرؤوس، وأطلق واحدًا على هدفٍ يبعد أقل من عشرين خطوة، ورأى رأس السهم البلوطى تنزلق على درع أحد الجنود. أطلق مرةً أخرى مصوبًا السهم هذه المــرة إلـــى صدر الحصان.

ثم وصلت الهجمة إلى هدفها.

لكن الفرسان وقد أنزلوا مقدمات خوذاتهم لم يعد بإمكانهم رؤية شيءٍ عبر الشقوق أو الفتحات الصغيرة، بينما الخيول قد عميت تقريبًا كالرجال، إذ أُلبِسَت دروعًا فولاذية على وجوهها. أصابت الهجمة هدفها، لكنها هاجمت العِصى، وصهل حــصانٌ

بصوتٍ يثير الشفقة، إذ اخترقت عصًا صدره بعمقٍ محطمةً ضلوعه، وانسكب الدم من فمه المفتوح. طوح راكب الحصان برمحه، لكن ضربته طاشت فى الهواء. ضربته السهام فصار الرجل والحصان يتلويان ويصرخان. تمكن حصانٌ آخر من تجاوز العِصىّ الأولى، ورأى الصف الثانى بطريقةٍ ما، فانحرف جانبًا لتنزلق أقدامه على الطين الموحل، سقط الحصان وراكبه مصدرين أصواتًا لتحطم الفولاذ، والرمح المصنوع من خشب الدردار. صاح توماس إيڤل-جولد:

- دعوه لى!

وركض الخطوات القليلة التى تفصله عنه رافعًا فأسه، طوح الفأس فى ضربةٍ قويةٍ بمطرقته التى يزيد الحديد من ثقلها على خوذة الجندى، ثم جثم فوقه، ورفع مقدمة خوذة الرجل الذى شله الذهول، ودفع نصل خنجره فى عينه، ارتجف الجندى ثم سكن. حاول الحصان النهوض على أقدامه، لكن إيڤل-جولد عاجله بضربةٍ من فأسه، ثم ثناها بأخرى بنصل الفأس اخترقت دروع وجهه، وشقت جمجمة الحيوان.

صاح إيڤل-جولد:

- ودعوهم!

لقد انتهت الهجمة عند العِصىّ. باءت هجمة الفرنسيين الأولى بالفشل. كان يفترض بالفرسان أن يبعثروا الرماة، لكن الأسهم قامت بعملها الخبيث، ومنعت العِصىّ من نجا منهم من الدخول بين الرماة. بدأ بعض الجنود يهربون الآن بالفعل على ظهور خيولهم بينما الراجلون ينقضون على خطوطهم هم وقد ذهب الألم بعقولهم. بدا أحد الرجال شجاعًا أكثر من الشجاعة نفسها إذ ألقى برمحه، وجرد سيفه، وحاول توجيه حصانه بين العِصىّ لكن السهام ضربت حصانه، ثم أصاب الفارس سهمٌ ضيق الرأس من مسافةٍ تقل عن عشرة خطواتٍ، فاخترق درع صدره ليقتله، وقبع هناك، جثةٌ سقط رأسها فوق حصانٍ يحتضر، وهزأ منه الرماة الإنجليز.

دار بذهن هوك أن من الغريب أن الخوف قد رحل. سرت فى عروقه بدلاً منه الإثارة، وعوى فى رأسه صوت حادٌ وهَّاجٌ. عاد إلى عصاه. التقط سهمًا ضيق الرأس. ذهب الفرسان وقد هزمتهم السهام، لكن الهجوم الفرنسى الرئيس ظل يتقدم، آتين على أقدامهم، لأن الرجال المشاة المدرعين أقل عرضة للإصابة بالسهام من الخيول. أتوا تحت راياتهم اللامعة لكن صفوفهم ضربتها الفوضى إذ فرت الخيول الجريحة التى صارت بلا فرسان تضرب الفرنسيين المتقدمين فى جنونٍ أعمى. سقط الرجال تحت الحوافر الثقيلة. حاول آخرون ضبط

الصف المبعثر المتعثر فى شقوق الأرض العميقة فى تقدمه تجاه الملك الإنجليزى وجنوده. تخير هوك أهدافه. أخذ يـشد الـوتر الذى ينساق معه إلى الخلف فى سهولة خادعة، ويطلق الـسهم تلو السهم. احتشد الرماة الآخرون حوله، وتدافعوا كلهـم إلـى الأمام لتتدفق سهامهم على الفرنسيين.

لا يزال الفرنسيون يتقدمون. شقت الخيـول المـذعورة صفوفهم، وتساقط الرجال إذ ضربت السهام أهـدافها لكـنهم لا يزالون يتقدمون. إن كل أفراد الطبقـة الأرسـتقراطية العليـا الفرنسية آتون تحت راياتهم المتباهية فـى التـشكيل القتـالى الأمامى. ثمانية آلاف جندىٍ راجلٍ يهاجمون تسعمائة.

وانطلق مدفعٌ فرنسىٌ.

صلت ميليساند. ليست صلاةً واعيةً بـل بكـاءً يائـسًا، صامتًا، مستمرًا، يطلب النجدة من السماء الرماديـة التـى لـم تمنحها أى راحة، كان من المفترض أن يتبع المتاع الجيش إلى الهضبة، لكن أغلبه بقى حول قرية ميزون–سيل[١١] حيث قضى

(١١) ميزون–سيل (Maisoncelles): هى كوميون يقع فى مقاطعة Pas-de-Calias فى فرنسا. يوجد بها كنيسة القديس چين المعمدانى التى أعيـد بناؤها عام ١٩٥٩. (المترجم).

الملك أكثر الليل. وقفت عربات الأمتعة الملكية هناك، يحرسها عشرة جنودٍ وعشرون راميًا، كلهم مرضـــى للغايـــة أو غيـــر قادرين على الوقوف فى التشكيل القتالى للمعركـــة، قـــاد الأب كريستوفر ميليساند إلى هناك قائلاً إنها ستكون أكثر أمنًا من أن تكون مع خيول الحمل القليلة التى اقتيدت إلى الأرض المحروثة المرتفعة، حيث التقى الجيشان. كتب القسيس حروفه الغامـــضة على جبهتها، (ى. م. الناصرى). وعدها قائلاً:

- ستحفظ هذه حياتك.

قالت ميليساند له:

- اكتبها على وجهك أنت.

ابتسم الأب كريستوفر، وقال:

- إن الرب يضعنى فى راحة يده يا عزيزتى.

ثم رسم علامة الصليب، واستطرد:

- وسيحفظك، لكن عليك أن تبقى هنا، ستكونين أكثر أمنًا هنا.

وضعها مع زوجات الرماة الآخرين بين عربتين فارغتين من العربات التى جلبت الأســهم إلـــى أزينكـــورت. تأكـــد أن

حصانها بالقرب منها، وأن الفرس مسرجٌ، ثم أخذ الأب كريستوفر أحد خيول السير چون، وركب صاعدًا المنحدر إلى المكان الذى تنتظر فيه الجيوش. راقبته ميليساند حتى اختفى فوق قمة التل، وعندها بدأت تصلى. صلت زوجات رماة السير چون هن الأخريات.

انتظمت صلوات ميليساند ببطء. بدأت كاستغاثة مفككة، لكنها أرغمت نفسها على اختيار كلماتها بعناية إذ صلت إلى العذراء. قالت لأم المسيح: نيك رجلٌ طيبٌ وقوىٌ لكن يمكن أن يكون أحيانًا غاضبًا وشرسًا، ولذا أعينيه الآن ليكون قويًا وحيًا. دعيه يعيش. كانت هذه صلاتها؛ أن تدعه يعيش.

تساءلت ماتيلدا كوبولد:

– ماذا نفعل إذا أتى الفرنسيون؟

قالت إحدى النساء الأخريات:

– نهرب.

ارتفع عندها بالضبط هديرٌ آتٍ من الأرض المرتفعة المختفية خلف الأفق. لقد سمعت صيحة الحرب باسم القديس چورچ، لكن النساء بعيداتٌ جدًا أن يسمعن اسم القديس، سمعن

فقط صوت خوارٍ عالٍ أخبرهن أن شيئًا ما يحدث خلف الأفق ولا ريب.

قالت ماتيلدا:

- فَليُعِنّا الرب.

فتحت ميليساند الحقيبة التى تحوى كل ما تملك من متاع الدنيا. أرادت المعطف الذى أرسله إليها أبوها، لكن الحقيبة حَوَت أيضًا القوس المغطى بالعاج الذى أعطاها إياه هوك قبل ثلاثة أشهرٍ تقريبًا. أخرجته.

تساءلت ماتيلدا:

- أستقاتلينهم بنفسك؟

ابتسمت ميليساند لكنها لم تستطع الحديث. كانت عصبية جدًا، وخائفةً للغاية، إذ أدركت أن ما يحدث خلف الأفق المرتفع سيقرر مصير حياتها، وكان كل هذا خارج نطاق سيطرتها. كل ما تستطيعه هو الصلاة.

قالت نيل كاندلير:

- اذهبى إلى هناك، يا حبيبتى، وأطلقى سهامك على بعض أولاد الحرام.

قالت ميليساند فى دهشةٍ:

– إنه لا يزال مُعَدًا.

تساءلت ماتيلدا:

– ماذا؟

قالت ميليساند:

– القوس، لم أطلقه قط.

حدقت إلى القوس، وتذكرت يوم قتل مات سكارليت؛ اليوم الذى صوبت فيه القوس إلى أبيها، ومنذ ذلك اليوم ظل القوس مُعَدًا. انثنت قامته المغطاة بالمعدن تحت ضغط وتره المشدود، ولم تلحظ ذلك أبدًا. كانت تقريبًا قد سحبت الزناد ثم ألقت بالقوس بقوةٍ إلى الحقيبة، وأخرجت المعطف المطوى. حدقت إلى القماش الزاهى، وانتوت بشكلٍ جزئىٍ أن تسحبه على رأسها، لكنها فجأةً أدركت أنها لا تستطيع ارتداء شعار العدو بينما نيك يقاتل، ثم غزاها يقينٌ آخر، فقد أحست أنها لن ترى نيك ثانيةً، لأنها حاولت أن ترتدى معطف والدها. يجب أن يُرمَى. قالت:

– أنا ذاهبةٌ إلى النهر.

قالت نيل كاندلير:

- يمكنك أن تتبولى هنا.

قالت ميليساند:

- أرغب فى المشى.

التقطت حقيبتها الثقيلة. ذهبت جنوبًا، بعيدًا عن الجيوش على المرتفع، وبعيدًا عن المتاع. سارت عبر أحصنة الجر والحمل الخاصة بالجيش، والتى وقفت ترعى العشب الربيعى، وتشبعت قدماها بالبلل، كانت قد فكرت أن تلقى المعطف فى نهر ترنواز، وتشاهده يطفو سابحًا مع التيار، لكن نهر السيوف بعيدٌ جدًا، ولذا توجهت نحو جدولٍ يجرى متدفقًا وقد ارتفعت مياهه بسبب أمطار الليل. جرى الجدول عبر شبكة الحقول الصغيرة والغابات التى تقبع مباشرة إلى الجنوب من القرية. جثمت ميليساند على شاطئه، حيث استحالت أوراق نباتات جار الماء والصفصاف إلى اللونين الأصفر والذهبى. أسقطت الحقيبة. أغلقت عينها. حملت المعطف بكلتا يديها كما لو كان قربانًا. صلَّت قائلةً:

- اعتن بنيك، دعيه يعيش.

ومع تلك الكلمات ألقت معطف أبيها إلى الجدول. راقبت التيار يبدأ بحمله بعيدًا بسرعة. دار بخلدها أن بقدر ما يــذهب بعيدًا، بقدر ما سيصبح نيك أكثرٍ أمانًا.

ثم انطلق المدفع الفرنسى بصوتٍ عالٍ تردد صــداه فــى جميع أرجاء الوادى خلف ساحة المعركة. دفع ذلــك الــصوت المرتفع ميليساند لتستدير، وتحدق شمالاً.

رأت السير مارتين نحيلاً يبتسم ابتسامةً عريــضةً، وقــد انزلق شعره الرمادى على جمجمته الناحلة، قال بشبقٍ:

- أهلاً أيتها السيدة الصغيرة.

وليس ثمة أحدٌ تستغيث به ميليساند.

إنها وحدها.

تصاعدت غيمةٌ من الدخان فوق الأفق تشير إلى الموضع البعيد حيث أطلق المدفع.

قال السير مارتين:

- وحدك تمامًا، فقط أنت وأنا.

وأصدر صوت غرغرةٍ ربما كان ضحكًا. رفــع أرديتــه مشمرًا إياها، وأتى إليها.

انطلق المدفع نافثًا دخانه فوق الجنـــاح الأيـــسر للجــيش الفرنسى.

رأى هوك قذيفة المدفع الحجرية، ولم يتعرف ماهيتهـــا، ولكن لوهلة علا شىءٌ قاتمٌ ثم هبط فوق الأرض المحروثة، وبدا ذلك الشىء كوميضٍ قاتمٍ آتٍ مباشرة تجاهه، ثم شـــق ضـــجيج المدفع صفحة السماء، وطارت الطيور صـــارخةً مـــن فـــوق الأشجار، وضربت قذيفـــة المـــدفع الحجريـــة رأس رامٍ يبعـــد خطواتٍ قليلةٍ عن هوك.

انمحت جمجمة الرجل فى لحظةٍ، واستحالت إلى رذاذٍ من الدم وعظمٍ متحطمٍ. استمر الحجر فى طيرانه مخلفًا وراءه ذيلاً من نثار الدم القاتم، حتى انغرس بقوةٍ فى الطين على بعد مائتى خطوةٍ خلف الصف الإنجليزى. أخطأ الحجـــر بمـــسافةٍ قليلـــة أحصنةً الجنـــــود المسرجة التى بقيت فـــى حمايـــة وُصَـــفَاء الفرسان.

قال توم سكارليت باشمئزازٍ:

- ياعيسى.

تناثر على مقبض قوسه فتاتٌ هلامىٌ متقاطرٌ من مخ الرجل.

قال هوك:

- استمر فقط فى الإطلاق.

تساءل سكارليت فى ذهولٍ ساخطٍ:

- هل رأيت ذلك؟

وما رآه هوك هو القتلى، والأحصنة المحتضرة، والفرسان الموتى، وخلفهم حشدٌ من الجنود المشاة يتقدمون تجاهه. فرقعت أصوات السهام بالقرب منه، لكن لدى العدو عدد قليل جدًا من الرماة يمكنهم رؤية الإنجليز بشكلٍ واضحٍ. اصطف الرماة الفرنسيون فى أقصى مؤخرة التشكيل القتالى، بعيدين جدًا أن يصوبوا بدقةٍ إلى أهدافهم، وأغلبهم لم يستطع حتى رؤية العدو، ومن ثم فعندما تقدم التشكيل القتالى الفرنسى الأول ليملأ الفراغ بين غابتى ترامكور وأزينكور، لم يعد الرماة الفرنسيون يرون الإنجليز نهائيًا، وتوقفت السهام عن التساقط.

انتشر التشكيل القتالى الفرنسى الأول عبر الحقل المحروث الواسع بين الأشجار، لكن ضاق صف الرجال المدرعين لأن الغابات تتقارب من بعضها البعض مضيقةً المسافة بينها تدريجيًا. تبعثرت صفوفهم بالفعل بسبب الخيول المذعورة التى انطلقت بينها، لكنهم الآن يتزاحمون من أجل موطئ قدم إذ يضيق الحقل بينما تضربهم السهام طوال الوقت.

أطلق هوك بثباتٍ. لقد أنهى بالفعل حزمةً من السهام، وصاح يطلب المزيد، بينما الصبية يلقون بحزمٍ جديدةٍ للرماة، لكنهم يحتاجون مئات الآلاف منها، يمكن لخمسة آلاف رامٍ أن يطلقوا بسهولةٍ ستين ألف سهمٍ فى دقيقة، وإذا استهدفوا الفرسان، فإنهم يطلقون سهامهم أسرع من ذلك. لا يزال بعض الرجال يشدون أوتارهم ويطلقون السهام بأسرع ما يستطيعون، لكن هوك أبطأ من سرعته. كلما اقترب العدو وجب أن يكون السهم أكثر قتلاً، ولذا فقد قنع الآن باستخدام السهام العريضة الرؤوس فى مواجهة الفرنسيين المتقدمين.

لم يكن هناك احتمال أن تخترق السهام العريضة الرؤوس الدروع المعدنية، لكن ضربتها كانت كافيةً لتلقى رجلاً على ظهره، وقد سبب كل رجلٍ أوقعه هوك على ظهره موجةً من الفوضى أبطأت الفرنسيين، ولم يكن الأعداء يصارعون الطين

وحده ولكن أيضًا ضربات السهام المتواصلة. استطاع هوك سماع اصطكاك السهام بالفولاذ؛ ضوضاءٌ عجيبةٌ لا تنتهى، وبدا الجنود الفرنسيون الذين لا يزالون على بعد مائة وخمسين خطوة كأنهم ينحنون فى مواجهة عاصفة، لكنها عاصفةٌ تقذف بوابلٍ من الفولاذ.

أطلق توماس برو سبابًا عندما انقطع وتر قوسه مرسلاً سهمًا يتلوى بجنونٍ فى الهواء. أخذ وترًا احتياطيًا من جعبته، ووتر قوسه مرةً أخرى. رأى هوك رايات العدو، وقد عَلِق بنسيج كلٍ منها دزينة أو أكثر من السهام. صوب تجاه رجلٍ يرتدى معطفًا أصفر براقًا، وأطلق سهمه فأسقط الرجل على ظهره. رقد حصانٌ على جانبه أمام الفرنسيين المتقدمين. جعلت سكرات الموت الحصان يضرب برأسه وحوافره، وحاول الرجال تجنب الحيوان، فصار الصف الفرنسى أكثر اضطرابًا. أصدرت أوتار الأقواس صخبها السريع الكئيب حول هوك فى كل اتجاه، وغامت السماء بالسهام. أطلق أغلب الرماة على الجنود الذين مثلوا تهديدًا مباشرًا لهم، ولتجنب عاصفة السهام تلك تزاحمت مقدمة الصفوف الفرنسية تجاه الداخل، وقد توجه رماة المؤخرة الإنجليزية إلى الأجمات الكثيفة من التوت البرى فى غابات ترامكور إذ حجب عنهم مَن أمامهم رجال المقدمة

مرأى أهدافهم، واصطفوا عند حافة الأشجار، وبدأوا يمطـرون الجناح الفرنسى بالسهام الضيقة الرؤوس، مما جعـل انكمـاش الصف الفرنسى أكثر وضوحًا.

جاهد أشجع الفرنسيين ليصلوا إلى الإنجليز بسرعةٍ، بينما قبع الأكثر حذرًا بالخلف ليحتموا بالأكثر بسالة فـى المقدمـة، ورأى هوك أن الجنود الفرنسيين الذين بدأوا تقدمهم فى صـف طويل مستقيم قد أعادوا تشكيل أنفسهم فى ثـلاث كتـلٍ غيـر منتظمة يتوجه كل منها نحو راية فى منتصف أحد التـشكيلات القتالية الإنجليزية الثلاثة. وحينها سيصبح الجنود فى مواجهـة الجنود، ويأمل الفرنسيون -كما افترض هوك- أن يحدثوا ثلاث فجواتٍ داميةٍ فى الصف الإنجليزى. وما أن ينكسر ذلك الصف المكونٍ من تسعمائة رجلٍ، حتى تقع الفوضى والقتل. ألقى هوك نظرةً شمالاً وقد راوده القلق أن يمنح انكماش التشكيل القتـالى الفرنسى فرصةً للرماة ليطلقوا سهامهم من جناحى المهـاجمين، لكن يبدو أن هؤلاء الرماة الفرنسيين قد تراجعوا إلى الخلـف، كأنهم قد فقدوا اهتمامهم بالقتال.

التقط سهمًا ضيق الرأس، ووجـد الرجـل ذا المعطـف الأصفر ثانيةً. شد الوتر، وأطلق. التقط سهمًا آخر، لكنـه رأى الرجل ذا المعطف الأصفر يسقط على ركبتيـه، إذن فالـسهام

ضيقة الرؤوس تخترق.وأطلق هوك مرةً بعد الأخرى مصوبًا سهامه على كومة الرجال الذين يتقدمون ببطءٍ. صوب سهامه على الصف الأمامى، لم تخترق أسهمه كل الدروع ولكن بعضها ضرب بقوة واخترق. تساقط الفرنسيون فأعاقوا الصفوف التى تليهم لكن الحشد المدرع العظيم كان لا يزال يصارع إلى التقدم.

صاح رجلٌ:

- أحتاج إلى سهام!

صاح آخرٌ:

- أحضر لنا بعض السهام اللعينة!

ما زال لدى هوك دزينةٌ منها. أصبح الأعداء قريبين الآن. أقل من مائة خطوةٍ من الصف الإنجليزى، لكن عاصفة السهام بدأت تضعف، إذ كادت السهام تفرغ من الرماة. شد هوك وتر قوسه إلى مداه الأقصى، واختار ضحيةً يرتدى معطفًا أسود. أطلق سهمه، ورآه يضرب بقوة عبر جانب خوذته، وبدأ الرجل يتمايل فى دائرة. بدا السهم ناتئًا من مخه، وضرب رمحه فارسًا آخر قبل أن يسقط الرجل المحتضر على ركبتيه، ثم يسقط بكامل طوله فى الوحل. انزلق السهم التالى عن درع

صدر أحد الرجال. أطلق هوك ثانيةً، من مسافة قريبة بما يكفى ليرى تفاصيل الزى العسكرى لهدفه. رأى رجلاً يرتدى ملابس تمازج فيها اللونان الأزرق والأخضر وعلى خوذته ما بدا كتاجٍ مطليٍ بالذهب. أطلق هوك عليه، ثم لعن نفسه، لأن مثل هذا الرجل يستطيع شراء أفضل الدروع، وسينزلق السهم عن الدرع ولا شك، إلا أن الرجل ترنح، ولم ينقذه سوى حامل رايته الذى دفعه إلى الخلف مباشرةً. أطلق مرةً أخرى مصوبًا سهمه فى مسارٍ منخفضٍ انتهى فى فخذ رجلٍ فرنسيٍ، وبعدها لم يبق معه سوى سهمٍ واحد، وضعه على قامة القوس، ووقف يترقب. بدا لهوك أن كل تلك الآلاف من السهام لم تسبب -لدهشته- سوى القليل من الضرر للأعداء، سقط العديد من الفرنسيين وأعاقت أجسادهم البقية، لكن لا تزال الأرض المحروثة تبدو مكتظةً بالأحياء الذين يترنحون فى مشيتهم فوق الوحل، رجالٌ فرنسيون مدرعون يحملون رماحهم، وسيوفهم، وصولجاناتهم، وفؤوسهم، متجهين إلى الصف الإنجليزى الرفيع. تحركوا بتثاقلٍ مقتربين يبذلون مجهودًا فى كل خطوةٍ على الأرض الموحلة، تخير هوك رجلاً بدا أكثر شغفًا من الباقين، وأرسل سهمه الأخير إلى صدر ذلك الرجل الطويل. ضرب رأس السهم الدرع، وثقب أحد الضلوع، ثم اخترق الرئة، ولذا سقطت خوذة الرجل مع دفقةٍ من الدماء انقذفت من فيه، وانسكبت من ثقوب مقدمة خوذته.

صاح هوك:

- سهام!

لكن ليس ثمة سوى القليل المتبقى فى أيدى رماة المؤخرة، وقد احتفظ هؤلاء الرجال بسهامهم. إن الرماة مجرد مشاهدين الآن. وقفوا بين عِصيهم تفصلهم ياردات ٌ قليلةٌ عن أقرب حشدٍ فرنسيٍ على بعد خطواتٍ قليلةٍ عن مقدمة الإنجليز.

لقد أدى الرماة مهمتهم. والآن على جنود إنجلترا أن يقاتلوا.

وأطلق الفرنسيون الذين نجوا من السهام فى نهاية المطاف صياحًا أجش، واندفعوا للقتل.

كان باستطاعة السير دى لانفيريل أن يقفز على ظهر حصانه وهو يرتدى بزة كاملة من الدروع، حتى أنه رقص فى بعض المرات بالدروع، ليس لأن النساء يعشقن الرجال فى زى القتال فقط، ولكن ليبين أنه أكثر أناقةً فى دروعه من معظم الرجال وهم دونها.

لكنه الآن يستطيع التحرك بشق الأنفس، كانت كل خطوةٍ قتالاً ضد التصاق الوحل به، غاصت قدماه فى بعض الأماكن

حتى منتصف الساق ولكن لا مناص من أن يجرها ليحررها لكنه خطوةً تلو الأخرى تمكن من الاستمرار بالتقدم، وكان أحيانًا ينحنى على جاره ليتمكن من انتزاع قدمه المدرعة من الأرض المتماسكة. حاول السَير فى أخاديد الحرث حيث ترقد المياه، لأن تلك الأخاديد لها قيعانٌ أكثر ثباتًا، لكنه استطاع بصعوبةٍ رؤية الأرض من خلال الفتحات الضيقة لمقدمة خوذته المغلقة. لم يجرؤ أيضًا على فتح خوذته لأن السهام تطايرت واصطكت ودوت حوله فى كل اتجاه. ضربه سهمٌ ضيق الرأس فى جبهته فدفع رأسه إلى الخلف، وكاد يسقطه لولا أن دفعه أحد رجاله لتستقيم قامته. ضرب سهمٌ آخر درع صدره ممزقًا جزءًا طويلاً من معطفة ومحتكًا مع الفولاذ بصريرٍ عنيفٍ حادٍ. قاومت دروعه الضربتين، لكن رجالاً آخرين لم يقف الحظ إلى جانبهم. فكل بضع لحظاتٍ يشهق رجلٌ، أو يصرخ، أو ينادى طلبًا للمساعدة، وسط مطرٍ السهام المعدنى. لم يرهم لانفيريل يسقطون بل سمعهم فقط، وأدرك أن الهجوم يفقد تماسكه لأن الرجال يتدافعون إلى الداخل من على يساره حيث تأتى معظم السهام، وهؤلاء الرجال يدفعون التشكيل القتالى للتضاغط. اصطكت الدروع المعدنية ببعضها. دفع الحشد لانفيريل ذاته بشدة على جاره إلى اليمين، حتى أنه لم يستطع تحريك ذراعه

الممسك بالرمح، وصاح محتجًا، وبذل مجهودًا هائلاً ليتقدم خطوةً عن الرجل. كان يحرك رأسه من جهةٍ إلى أخرى محاولاً أن يرى من خلال الغشاوة الرمادية التى أمامه، لاحظ أن أقنعة خوذات الإنجليز مرفوعة، لم تهددهم السهام ولذا يستطيعون أن يروا ليقتلوا لكن لم يجرؤ لانفيريل على رفع قناع خوذته لأن حفنة من الرماة تقف بين التشكيلات القتالية الإنجليزية ولسوف يشكر أولئك الرجال الرب على هدفٍ فرنسيٍ يمنحهم نفسه برفع قناع خوذته عن وجهه.

كان لتنفسه صوت أجش داخل الخوذة. لهث وهو يخوض فى الطين السميك رغم أنه يعد نفسه رجلاً قويًا.

سال العرق على وجهه. انزلقت قدمه اليسرى فى بقعةٍ من الطين السميك، وغاصت رجله اليمنى حتى ركبتيه، لكنه استطاع رفع قامته، وترنح متقدمًا. ثم زلت قدمه على شيءٍ ما، وسقط ثانيةً ووقع هذه المرة بجانب جثة أحد الجنود المشاة. شده اثنان من رجاله ليقف على قدميه. لقد أضحى مغطى بالوحل الآن. سدت بعض فتحات قناعه بالطين وحاول أن يزيله بيده اليسرى لكن قفازه المدرع لم يستطع إزالة الطين السميك. قال لنفسه: اقترب فقط، اقترب فقط وسيبدأ القتل. إن لانفيريل واثقٌ من قدرته على القتل. ربما لم يكن خبيرًا بالخوض فى الطين

لكنه قاتل، ولذلك بذل جهدًا ضخمًا مرةً أخرى محاولاً التقدم إلى الأمام بعيدًا عن الازدحام ليجد مساحة لاستخدام أسلحته. أدار رأسه ثانيةً متطلعًا عبر ثقوب مقدمة الخوذة الباقية ورأى أمامه مباشرة راية عظيم ارتسم عليها شعار إنجلترا الملكي ومعه الشعار المضاف إليه بوقاحة؛ الزنابق الفرنسية، وقد ارتسمت ثلاثة قضبان على الشعار الملكي فوق الراية، على كل منها ثلاث كرات حمراء، وتعرف فيه على شعار دوق يورك؛ إدوارد، ودار بخلد لانفيريل أنه يصلح كأسير. إن فدية دوق ملكي إنجليزي كفيلة بأن تجعل لانفيريل غنيًا، وبدا أن هذا المشهد قد منح قدميه المتعبتين قوةً جديدةً، أخذ يدمدم الآن رغم أنه لم يدرك ذلك تمامًا. صار الصف الإنجليزي قريبًا. صاح:

– أأنتم معي يا چان؟

وصرخ تابعه:

– نعم.

انتوى لانفيريل أن يضرب في الصف الانجليزي برمحه، وعندما يتراجع العدو جراء تلك الضربة، يلقي بالسلاح الثقيل الحركة، ويستخدم الصولجان المعلق على كتفه، وإذا انكسر الصولجان، سيأخذ أحد الأسلحة الاحتياطية التي يحملها غلامه،

أحس لانفيريل بإثارةٍ مباغتة. لقد ظل حيًا طوال هــذا الوقــت، ونجا من عاصفة السهام، وها هو ذا يأخذ حربته متجهًــا إلـــى الأعداء، ولكن عندها بالضبط أتى سهمٌ ضيق الرأس من الجناح، وشق أحد فتحات مقدمة خوذته، وغمر ضوءٌ مفــاجئٌ عينـــى لانفيريل إذ عبر السهم الفولاذ، وقطع بوحشية فى القطعة التـــى تغطى أنفه. تلوى رأسه ألمًا ملتفتًا إلى الجانب، إذ أخطأ الــسهم مقلة عينه اليمنى بمقدار شعرةٍ، وجرح عظمة خده لينغرس فى النهاية فى خوذته، أصبح باستطاعته الرؤية فجأةً، انتزع السهم بيده اليسرى، وصار بإمكانه أن يرى عبر الفتحة غير المنتظمة التى أحدثها السهم. لم يستطع أن يرى بوضوح، لكــن صــخبًا مباغتًا إلى يساره جعله يلتفت ليرى رجلاً طويلاً يرتمـــى إلـــى الأمام والدم ينسال من فتحات قناع خوذته، وعاد لانفيريل يتطلع أمامه، فرأى دوق يورك على بعد خطوات قليلة منه ولذا أنــزل يده اليسرى ليستند إلى حربته، وأخذ نفسًا عميقًا، وصاح صيحة الحرب. استمر بالصياح وهو يهجم، وهو يخــوض الخطــوات الأخيرة عبر الحقل المحروث الموحل. امتــزج الغــضب فـــى صيحته بالبهجة، الغضب من العدو الوقح، والبهجة أن نجا مـــن الرماة.

وهكذا وصل إلى ساحة القتال.

امتلأ السير چون كورنويل بالغضب هو الآخر.

لقد كان أحد قادة المقدمة منذ اليوم الذى حط فيه الجيش رحاله فى فرنسا. قاد الزحف القصير إلى هارفليه، فى الصفوف الأولى التى هاجمت تلك المدينة العنيدة، وقاد الزحف شمالاً من نهر السين حتى هذه الأرض الموحلة فى بيكاردى والآن أعطى دوق يورك؛ قريب الملك، قيادة المقدمة، والدوق الورع -من وجهة نظر السير چون- قائدٌ غير ملهمٍ.

ورغم ذلك تولى الدوق القيادة، ولم يستطع السير چون إلا أن يمتثل لأوامر التوزيع، وجاء موقعه على بعد خطوات قليلةٍ إلى يمين الدوق، وذلك الامتثال للأوامر لا يعنى أنه لا يستطيع إملاء أوامره على رجال الميمنة بما يجب عليهم فعله عندما يأتى الفرنسيون. راقب جنود العدو يقتربون، ورأى كيف يجاهدون للسير فى الوحل، وأدهشته كثافة عواصف السهام التى تتجه من اليسار إلى اليمين لتخترق، وتجرح، وتقتل. لم يرفع أى من الفرنسيين قناع خوذته، ولذا فقد صاروا شبه عمى بالغطاء الفولاذى، والطين يعوق حركتهم، وينتظرهم السير چون بالرمح، والفأس، والسيف، وصاح:

- هل تسمعون!

بدا فى ظاهر الأمر أنه يخاطب جنوده، لكن الأحمق فقط من لا يصغى إلى كلمات السير چون حين يتعلق الأمر بالقتال، صاح من خوذته المفتوحة القناع:

- أنصتوا! عندما يصلون إلينا سيندفعون الخطوات القليلة الباقية! يريدون أن يضربونا بقوة! يريدون إنهاء القتال! عندما آمركم سنخطو كلنا ثلاث خطوات إلى الخلـــف. أسمعتم؟ سنخطو ثلاث خطوات إلى الخلف!

يعرف أن رجاله سيطيعونه، وكذلك جنود السير ويليـــام بورتر. لقد درب السير چون رجاله على هذه المناورة البسيطة. سيأتى الأعداء مندفعين يتوقعون أن يطعنوا برماحهم القـــصيرة فى أفخاد الإنجليز، أو فى وجوههم، وإذا خطا الإنجليز فجأةً إلى الخلف، فستطيش تلك الضربات الأولى فى الهـــواء، وســـيقوم السير چون فى تلك اللحظة بهجومٍ مضادٍ إذ الأعداء فى حالـــة عدم اتزانٍ، صاح:

- ستنتظرون أوامرى.

وشعر بلحظة اهتمامٍ وجيزةٍ. ربما من خطر الخطو إلـــى الخلف فى مثل هذه الأرض الزلقة، ولكنه قدر أن من المحتمـــل أن تزل أرجل الأعداء، ويسقطون أكثر من رجاله هو. اصطف

هؤلاء الرجال فى ثلاثة صفوف تقريبًا، تزداد إلى ستة صفوف عند موضع دوق يورك، حيث تصطف فرقته الضخمة حول قائدها. والدوق -الذى بدا قلقًا من خوذته المفتوحة- لم يستدر لينظر إلى السير چون وهو يطلق تلك الصيحة. حدق بدلاً من ذلك إلى الأمام مباشرة، بينما ذؤابة سيفه المصنوع من أفضل أنواع صلب بوردو ترقد برفق على أخاديد الحرث. صاح السير چون وهو يتطلع ليرى إن كان الدوق سيبدى أى ردة فعلٍ:

- عندما ينتوون الضرب، ناوروا ضربتهم! تراجعوا إلى الخلف! وعندما يترنحون، هاجموا!

لم يقر الدوق النصيحة، وظل محدقًا إلى الحشد الفرنسى، الذى فقد انتظامه. انسحق الجناحان إلى الداخل هروبًا من السهام. وبعثر رجال المقدمة ما تبقى من التشكيل الفرنسى وهم متجهون نحو الأماكن التى ترتفع فيها رايات النبلاء فى الخطوط الإنجليزية، الذين يتوقع أن يدفعوا فديات باهظة. ورغم الخراب الذى أصاب صفوف الفرنسين، ظل التشكيل القتالى الفرنسى الأول ضخمًا، يفوق عددهم جنود الإنجليز بنسبة ثمانية إلى واحدٍ. حشدٌ مدرعٌ مسلح بالصولجانات، والسيوف، والأسلحة الكثيرة. موجةٌ طاحنةٌ من الفولاذ بدت كأنها لا تبالى

بالسهام، كثورٍ يتجاهل لدغات ذباب الخيل[١٢] المحتشد حولــه. سقط بعض الرجال الفرنسيين، وعندما يُسقِط سهمٌ ضيق الرأس أحدهم، فإنه يعوق الرجــل الــذى يليــه، ورأى الــسير چون احتشادهم، وتزاحمهم، وتدافعهم. صارع بعض الرجال ليكونوا فى مقدمة الصفوف، يريدون حيازة الشهرة، وتــردد الــبعض الآخر أن يكونوا أول من يضرب، لكنه عرف أنهم كلهم يتمنون الفديات، والثروات، والبهجة.

قال السير ويليام بورتر بعصبيةٍ:

– ليكن الرب معك يا چون.

وتحرك ليكون بجانب صديقه.

---

(١٢) ذباب الخيل: لسعة هذه الذبابة خطيرة وقد تصيب بالأوبئة وهى تعد واحدة من أكبر أنواع الذباب فى العالم. معروفة ذنتهــا العاليــة عنــد الطيران. وهى واحدة من أهم طرق التلقيح بين الورود خصوصًا فـــى جنوب إفريقيا. ينتشر هذا الذباب تقريبًا فى كل أنحــاء العــالم ماعــدا أقصى المناطق الشمالية أو الجنوبية. يوجد منها حوالى ٤٥٠٠ نــوع. الذباب البالغ يتغذى على الرحيق وأحيانًا اللقاح. يحتاج الإناث عادة إلى الدم من أجل التناسل. يفتقد الذكور إلى الأجزاء الفمية التى تساعد على التغذى على الدم. تضع الإناث بيضها فى الصخور أو الخضرة بالقرب من الماء. (المترجم).

قال السير چون بصوتٍ عالٍ:

- أظن أن الرب سيدعنا ننتصر.

قال السير ويليام:

- أتمنى لو كان الرب قد أرسل إلينا ألفًا آخر من الجنود الإنجليز.

أجاب السير چون صائحًا:

- لقد سَمِعتَ ما قاله ملكنا. لا تتمن رجلاً آخر إلى جانبنا! لماذا نقتسم النصر؟ نحن إنجليز! وإذا كنا نِصفَ ما نحن عليه من العدد، فسنكون أكفاء لنذبح لعاقى الروث أبناء العاهرات الكريهات هؤلاء.

قال السير ويليام بلطفٍ:

- ليساعدنا الرب.

قال السير چون بهدوءٍ:

- افعل ما قُلتُه يا ويليام، دعهم يصلون إليك، واخطُ إلى الخلف، ثم اضرب. ما أن تسقط الرجل الأول حتى تكون قد وضعت عقبة أمام الثانى، هل تفهمنى؟

أومأ السير ويليام موافقًا. اقترب كلا الجانبين من بعضهما الآن بشكلٍ كافٍ ليتعرف كل منهما الآخر من خلال معاطفهم، لكن معاطف الفرنسيين تلطخت جدًا بالوحل، لدرجة أن بعضها كادت تختفى تفاصيله وقد علِق سهمٌ أو أكثر فى ثنايا كل معطف.

استطرد السير چون:

- ثم اقتل الرجل الثانى. لا تستخدم سيفك، لن تفيد السيوف نفعًا فى هذه المعركة. اضرب أولاد الحرام بفأس الحرب. أذهلهم، حطم أرجلهم، هشم جماجمهم. أسقط الرجل الثانى يا ويليام ولن يستطيع الثالث أن يصل إليك دون أن يتعثر فوق جثتين اثنتين.

قال السير ويليام بخجلٍ:

- أنا أُفَضِل استخدام الرمح.

قال السير چون:

- إذن، اطعن فى أقنعة خوذاتهم. إنها أضعف نقطةٍ فى الدرع، اضرب عليها بقوةٍ، يا ويليام واجعلْ أولاد الحرام الملاعين يعانون.

كان الفرنسيون على بعد أقل من خمسين خطوة. توقفت ضربات السهام تقريبًا، وإن كانت بعض السهام الضيقة الرؤوس لا تزال تنطلق من الجناح تجاه مقدمة العدو المتقدم لتضرب في صفوفهم. استعد الرماة المتمركزون بين التشكيلات القتالية للتراجع خلفًا لينتظم صف الجنود الإنجليز؛ صفًا متصلاً من الرجال في دروعهم الكاملة. بقي لدى هؤلاء الرماة القليل من السهام، وظلوا يطلقونها بسرعة قبل أن يتلقوا الأوامر بالتراجع إلى الخلف. سقط المزيد من الرجال الفرنسيين. ركع أحدهم على ركبتيه، إذ أصابه سهم في بطنه وفتح مقدمة خوذته ليتقيأ مزيجًا من الدم والقيء، قبل أن يطأه الرجال من خلفه دافعين إياه إلى شقوق الأرض المحروثة.

قال السير جون:

- إن عمقنا ثلاثة صفوف بينما عمق صفوفهم لا يقل عن عشرين صفًا، ولذا سيدفع الرجال في المؤخرة أولئك الذين في المقدمة، سيدفعونهم نحو نصالنا.

وابتسم فجأةً ابتسامةً عريضةً، واستطرد:

- ونحن يقظون يا ويليام، لقد نفد نبيذنا ولذا سنقاتل يقظين لكنني أراهن أن نصف جيشهم غارقٌ في النبيذ. إن الرب معنا يا ويليام.

- أتصدق ذلك؟

ضحك السير چون، وقال:

- أصدق ذلك؟ أنا أعلمه يقيناً! والآن استعدوا!

تصاعد الصخب، إذ صاح الأعداء بصيحات الحرب. تقدم حشدٌ كثيفٌ من الفرنسيين بعيدًا إلى اليسار من السير چون، تجاه راية الملك، واستطاع السير چون أن يرى راية الحرب الفرنسية ترتفع عاليةً فوق ساريتها، حمراء وشريرة، ثم نسى تلك الشارة إذ استجمع الأعداء فى المقدمة قـوة كبيـرة للمـرة الأخيـرة، تصايحوا، بل حتى حاولوا الركض، كانوا فى طريقهم ليحصدوا نصرهم.

كانت رماحهم فى وضع الطعن، يصرخون:

- باسم القديس دانى! إلى الأمام! إلى الأمام!

وصاح الإنجليز كالصياد الذى على وشك قنص فريسته.

صاح السير چون:

- الآن! الآن!

دفع السير مارتين بميليساند أرضًا بعنفٍ مقحمًا يده بين نهديها، دفعها بعنفٍ وسرعةٍ، فسقطت على ظهرها بين الأشجار على ضفة الجدول، وقال:

- هنا، ابقى فقط هنا كفتاةٍ صغيرةٍ طيبةٍ، لا!

ورفع يده عاليًا، إذ حاولت الزحف مبتعدة. حملت تلك اليد المرفوعة تهديدًا مرعبًا، ولذا سكنت ميليساند مرةً أخرى، مما جعل السير مارتين يبتسم حتى ظهرت قواعد أسنانه المصفرة، وقال لها:

- لدى سكينٌ فى مكانٍ ما، أعرف ذلك.

ثم تحسس الجعبة المعلقة فى حزامه مستطردًا:

- سكينٌ حادةٌ أيضًا. آه! ها هى ذى!

وابتسم وهو يريها النصل القصير، قال:

- يقول الكتاب المقدس: ضع السكين فى رقابهم لو أنك رجلٌ ذواق، وسأفعل، سأفعل، لكننى لا أريد أن أقطع عنقك الجميل يا فتاة. إنه لَممَّا يفسد الأمور أن تُخَوِّض فى الدم، ولذا كونى طيبةً فقط، وارقدى هنا مثل فتاةٍ صغيرةٍ لطيفةٍ، وسينتهى هذا سريعًا.

وضحك على ما قال، ثم نزل على ركبتيه فوقهـــا، وقـــد صارت ركبتاه على جانبى بطنها، واستطرد:

- لكننى أظن أننا نريدك عاريةً، إن الفتاه العارية مباركةٌ، فى العرى تكمن الحقيقة، هذه كلمات سيدنا ومخلصنا.

لقد اخترع تلك الكلمات لكنها فى رأيه لا تـــزال تحمـــل رنين الحقائق الدينية. وضع يده على نهديها، مما جعلها تتـــشج. ابتسم ابتسامةً عريضةً، ورأت ميليساند فى عمق عينيه لمعـــان الجنون، لم تتحرك ، لم تكن تجرؤ على الحركة، لأن الـــسكين كانت آتيةً نحو حلقها، لكنها تحسست الأرض حتى وجدت عنق جعبتها، وجرتها ببطءٍ إليها.

سألها السير مارتين بصوتٍ أجشٍ:

- وما الذى يمكن أن يبعدنا عن حب المسيح؟ قولى لـــى، هه؟

ظل على ابتسامته العريضة يمد يده اليسرى إلى عنق ردائها.

- هذا هو ما يسألنا عنه الكتاب المقدس يا فتـــاة، يـــسألنا عما يمكن أن يبعدنا عن حب المسيح! ما الذى يمكـــن أن يبعدنا أنا وأنت، هاه؟ تقول كلمات الـــرب: ليـــست

المحنة، ولا الضيق، ولا الاضطهاد، ولا الجوع، أتنصتين إلى؟

أومأت ميليساند. جرت الجعبة تجاهها، وتحسست بحثًا عن فتحتها.

قال السير مارتين متكئًا هذه المرة على كلمات الكتاب المقدس الحقيقية:

- إن كلمات الرب، أيتها الفتاة الصغيرة، كتبها القديس بولس[١٣] ذاته من أجل راحتنا.

---

(١٣) القديس بولس: (من ٥-٦١م) بولس الطرسوسي ويعرف أيضًا ببولس الرسول، وهو أحد قادة الجيل المسيحى الأول وينظر إليه البعض على أنه ثانى أهم شخصية فى تاريخ المسيحية بعد المسيح نفسه. يعرف من قِبَل المسيحيين برسول الأمم، حيث يعتبرونه من أبرز من بشر بهذه الديانة فى أسيا الصغرى وأوروبا وكان له الكثير من المريدين والخصوم على حد سواء. فى فترة الخمسينيات زار بولس أورشليم مع بعض مسيحيى الأمم الذين آمنوا على يديه وهناك تم اعتقاله لأنه قام بإدخالهم (وهم يونانيون) إلى حرم الهيكل. وبعد سلسلة من المحاكمات أرسل إلى روما ليقضى بها سنتين وعظ خلالهما اليهود والأمم وهو فى الأسر، هنا تنتهى رواية سفر أعمال الرسل فلا يعرف بالضبط ماذا حدث له بعد ذلك. من بين كتب العهد الجديد الـ(٢٧) تنسب (١٣) منها بشكل مباشر إليه. كما أن قرابة نصف سفر أعمال=

يقول الحوارى:

- لا يحجبنا الخطر، ولا السيوف عن محبة المسيح، ولا العرى كذلك.

ومع هذه الكلمات شق رداءها بسكينه القصير، ومد الشق وقد تجهم تجهمًا بسيطًا حتى انكشف نهداها.

قال السير مارتين بوقار:

- يا إلهى، يا إلهى، يا إلهى، إن العرى لن يبعدك عن حب المسيح يا صغيرتى، هذا وعد الكتاب المقدس، يجب أن تسعدى بمجيئى. يجب أن تطربى له.

لم يباعد بين ساقيها بعد؛ لكنه ركع على ركبتيه جوارها ممزقًا رداءه الكتانى حتى حافته السفلى، ثم حدق بوقارٍ مروعٍ إلى جسدها الشاحب. رقدت ميليساند ساكنةً ويدها اليمنى داخل الجعبة الآن لكنها لم تتحرك.

قال السير مارتين:

= الرسل كرس للحديث عن حياته وعن مهماته التبشيرية. وبالمحصلة فإن حوالى نصف كتاب العهد الجديد قد تمت كتابته بيد بولس وبيد أشخاص تأثروا بفكره. (المترجم).

- لقد كنا عرايا يا فتاة قبل أن تجلب المرأة الخطيئة إلى العالم وجزاء هذا فقط يجب أن تعاقب المرأة على تلك الخطيئة الأولى. ألا توافقيننى الرأى؟

جلبت هبة ريحٍ معها أصوات الصياح من الهضبة المرتفعة، واستدار القسيس متطلعًا إلى الحافة البعيدة لوهلة. دفعت ميليساند يدها إلى عمق الجعبة تتحسس بحثًا عن أحد السهام القصيرة المريشة بالجلد. عادت للسكون ثانية عندما عاد السير مارتين ينظر إليها، وقال:

- إنهم منهمكون فى ألعابهم هناك، إنهم يحبون القتال، حقًا يحبونه، لكن الفرنسيين سيفوزون هذه المرة! هناك الآلاف من أولاد الحرام! سيسقط رجلك نيك يا فتاة، سيسقط على سيوف الفرنسيين. أنت فرنسيةٌ ، ألست كذلك؟ فرنسيةٌ صغيرةٌ جميلةٌ. كم يحزننى أن رجلك نيك لن يعرف أبدًا أننى عاقبتك لخطاياك. لقد جلبت المرأة الخطيئة إلى العالم ويجب أن تعاقبى. وددت لو يموت رجلك نيك وهو يعرف أننى عاقبتك، لكنه لن يعرف، وهكذا إذن. هكذا يسقط. هكذا أحسن الرب التدبير. ربما يموت حبيبى توماس أيضًا، وهذا

يثير الشفقة لأننى أحب توماس، لكن لى أبناء آخـــرين، ربما سيكون لك ابنٌ منى!

وابتسم عندما راودته هذه الفكرة وهو يتحـــسس ليرفـــع رداءه، واستطرد:

– لن أموت. لن يقتل الفرنسيون قسيسًا، لأنهم لا يريدون الذهاب إلى الجحيم، وإذا كنت لطيفةً معى يـــا فتـــاتى الصغيرة، فلن تموتى أنت أيضًا. يمكنـــك أن تعيـــشى لتحملى لى طفلى الصغير، ربما سنسميه توماس؟ أليس كذلك! باعدى بين فخذيك الجميلتين هاتين.

لم تتحرك ميليساند، لكن القسيس ركل ركبتيها، ثم ركـــل بقوةٍ أكبر مقحمًا قدمه بين فخذيها، وقال:

– إن ملكنا هنرى قاد رجاله إلى أرض الشيطان المقرفة هذه، أليس كذلك؟ والآن سيموتون جميعًـــا، ســـيموتون جميعًا، ونبقى وحدنا، أنا وأنت أيتها الفتـــاة الـــصغيرة، فقط أنا وأنت، ولذا فمن الأفضل أن تكونى لطيفةً معى.

سحب رداءه الأسود إلى فوق خاصرته، وابتـــسم إليهـــا ابتسامةً عريضةً، وقال:

– جميل، أليس كذلك؟ والآن يا صغيرتى استقبليه بالترحاب.

ودفع ركبتيه بين رجليها.

قال وهو يجثم فوقها:

- لكم رغبت فى هذا منذ وقتٍ طويلٍ.

وعلته رجفة، ثم انحنى إلى الأمام متكئًا على يده اليسرى، بينما لا تزال يده اليمنى تمسك بالسكين على حلقها. كان حــول رقبته كيسٌ آخر مربوط جوار صليبٍ خشبيٍ برباطٍ جلدى. وقد تأرجح الكيس والصليب بحريةٍ، وهو ما أزعج القــسيس الــذى تساءل:

- لا حاجة لنا بهذين، أليس كذلك، إنهما عائقان فقط يا فتاة.

واستخدم مقبض سكينه لينزع الكيس والصليب من عنقه، خشخش الكيس إذ ألقاه على ضفة الجدول، ودفعه الصوت إلــى الابتسام.

- إنه ذهبٌ فرنسيٌ، يا فتاتى الصغيرة، ذهبٌ وجدته فــى هارفيليه، وإذا كنت لطيفةً معى سأعطيك جُرُوتًا[١٤] أو

---

(١٤) جروت (Groat): الاسم الشائع للعملة الفضية البريطانيــة القديمــة وتساوى أربعة بنسات. (المترجم).

اثنين، ستكونين لطيفة معى، أليس كذلك؟ لطيفةً وهادئة مثل فتاةٍ صغيرةٍ طيبة؟

دفعت ميليساند يدها أكثر إلى داخل الجعبة، ووجدت ما تبحث عنه.

قالت، وقد اكتسى صوتها بالخوف:

- سأكون لطيفةً.

قال السير مارتين بصوتٍ أجشٍ واضعًا السكين مرةً أخرى على رقبتها:

- آه، ستكونين لطيفةً، بالطبع ستكونين كذلك.

خطا السير چون إلى الخلف. تكفيه خطوتان. ظن فى البدء أنه صاح بالأمر مبكرًا جدًا، ثم راوده الخوف أن يكون ألقاه متأخرًا جدًا، لأن قدميه قد التصقتا بالوحل، لكنه انتزعهما بقوةٍ، ثم خطا مترنحًا خطوتين إلى الخلف، وصاح الرجال الفرنسيون المواجهون ظنًا منهم أن الإنجليز يحاولون الهرب، ثم طاشت ضربات رماحهم فى الهواء، وأفقدتهم قوة الطعنات توازنهم، وعندما بدأ السير چون الهجوم، صاح:

- الآن! اهجموا!

وطعن برمحه إلى الأمام دافعًا رأسه المعدنية فى حقو أقرب الرجال إليه عند التقاء فخذه ببطنه. إن الرماح الإنجليزية، وكذا الفرنسية، قد قُصِّرَت، ولكن الفرنسيين قد قطعوا قامات رماحهم أقصر، فلم يكن مداها يطال الأسلحة الإنجليزية. ضرب رمح السير چون فى الدرع المعدنية. مال السير چون وهو يطعن ليعطى ضربته قوةً أشد. رأى عدوه ينثنى على موضع الضربة. سحب الرمح. رأى الرجل يسقط، ثم طعن برمحه مرةٍ أخرى.

تعثر الفرنسيون إذ طاشت ضرباتهم الأولى فى الهواء. كانوا قد تعبوا، ولا يستطيعون سحب أقدامهم من خطوط الأرض الموحلة، وأسقطتهم قوة ضربات الرماح الإنجليزية.

ثمة رجالٌ سقطوا على ركبهم على يسار ويمين السير چون، الذى طعن برمحه بقوةٍ فى قناع وجه رجلٍ فى الصف الثانى ليلقى به إلى الخلف، ثم ألقى الرمح من يده اليمنى إلى الخلف، قائلاً:

- الفأس الحربية!

أعطاه غلامه السلاح، وبدأ القتل.

ضرب رمحٌ رأس السير چون، الذى لم يكن يضع مقدمة خوذته، وحاول الرجل الفرنسى أن يفقأ عينى السير چون، لكن الضربة انزلقت عن خوذته، وخطا السير چون خطوةً إلى الأمام، وطوح الفأس فى ضربةٍ قصيرةٍ على خوذة الرجل محطمًا إياها، وهكذا سقط رجلٌ آخر فى الوحل. اضطرب صفٌ كاملٌ من الرجال، وتأكد السير چون من بقائهم أرضًا، بالضرب على خوذاتهم بالمطرقة الحديدية الثقيلة.

حاول الرجل الذى انثنى على رمح السير چون أن يقوم ثانيةً، وشق الرجل درع ظهره بنصل الفأس.

ثم صاح فى غلامه أن يقضى على الرجل:

- افتح خوذته، واقتله!

ثم ثبت السير چون قدميه، وبدأ يضرب أعداءه.

وقد أُثخِن هؤلاء الأعداء بالفعل. سقط الصف الأول كله تقريبًا على الأرض، ينزفون فى كتلةٍ من الأجساد والرماح التى تخلى عنها أصحابها، واضطرت الصفوف التى تليهم إلى الخطو متعثرين فوق هذه العوائق، وما أن يحاولوا ذلك، حتى تلاقيهم نصال الفؤوس، ورؤوس الصولجانات، ورؤوس الرماح. ولم يكن تجاوز هذه العوائق ليسبب مشكلةً لو أن الفرنسيين يفعلونه

بإرادتهم، بيد أنهم تقدموا مدفوعين بضغط الرجال من ورائهم، ولذا خطوا متعثرين حيث تنتظرهم النصال الإنجليزية.

صاح السير جون:

- اقتلوهم! اقتلوهم! اقتلوهم! اقتلوهم!

وهنا أتته نشوة القتال؛ تلك النشوة الخالصة لكونه بطلاً حربيًا- مرتديًا دروعه ومسلحًا- خطيرًا لا يُقهَر. استخدم المطرقة الموجودة فى رأس الفأس الحربية ليضرب الأعداء المدرعين. لا تحتاج المطرقة لاختراق الدروع فقليلٌ من الأسلحة يمكنه ذلك، لكن وزنها وحده يمكنه أن يفقد رجلاً وعيه، وتكفى ضربةٌ واحدةٌ عادةً لتلقى أى رجلٍ أرضًا، أو تشل حركته.

بدا للسير جون أن الفرنسيين يتحركون ببطءٍ أليمٍ، بينما هو يهجم بسرعة كسرعة الآلهة. ابتسم ابتسامةً واسعةً وهو يراقب ثلاثةً أو أربعةً من الأعداء فى ذات الآن، متخيرًا أيهم يهاجمه أولاً، ويعلم حقًا كيف سيحطم الثانى والثالث. أتوا تجاهه، وشعر برعبهم. حملت صفوف المؤخرة الفرنسية أسلحةً قصيرةً؛ صولجاناتٍ، أو سيوفٍ، أو فؤوسٍ، لكنهم لم يجدوا الوقت ليستخدموها، إذ دفعوا علّى جثث من سقط قبلهم. عرقلتهم

ضربات السير چون ورجاله، حتى حسب الكثيرون أن على السير چون أن يتخطى هو الموتى بنفسه. والآن صار الإنجليز هم من يهاجمون الفرنسيين. تسعمائة رجل يهاجمون ثمانية آلاف لكن التسعمائة يمكن لكل منهم أن يقدر لرجله قبل الخطو موضعها، دون أن يخشى أن يدفعه من وراءه.

تقدم رجلٌ فرنسيٌ يرتدى درعًا لُمِّعت حتى صارت تبرق كالفضة، لكنه تلطخ بالوحل الآن، وحاول الرجل أن يطعن السير چون بسيفه، لكن السير چون ترك ضربة الرجل تصطدم بدرع فخذه، فتطيش قوتها. ضرب الرجل إلى يسار السير چون مهاجمه فوق خوذته اللامعة بمطرقة الفأس الحربية، فتهاوى الرجل مثل ثورٍ صريعٍ، بينما ضرب السير چون بمقدمة فأسه المدببة فى وجه رجلٍ يرتدى زيًا عليه شعارٌ يصور حزمة قمح. اخترق الطرف المدببُ قناع الخوذة، والأسنان، وسقف حلق الرجل، وطوح رأس الرجل إلى الخلف، بينما جسده مندفعٌ إلى الأمام، ترك السير چون جاره يضرب بمطرقته على خوذة الرجل المنهار، بينما طوح بفأسه على رأس رجلٍ يرتدى خوذةً مزينةً بالريش، صاح السير چون:

- هيا تعالوا يا أولاد الحرام! أنا أريدكم!

انتابته نوبةٌ من الضحك فى تلك اللحظة لم يمر بمثلها من قبل، إذ حرص بعض الرجال الفرنسيين أن يحوزوا شرف قتل السير چون كورنويل أو أسره. أتوا، وسقطوا، ضحايا للأرض الرطبة، وللعوائق، ولم يكن باستطاعتهم الرؤية من خلال أقنعة خوذاتهم. أتوا إلى الضربات القصيرة القاسية للفأس الحربية التى أسقطت المزيد منهم.

جأر السير چون:

- ابقوا متقاربين، ابقوا متقاربين.

وتأكد أن ثمة رجلاً إلى يساره، والسير ويليامٍ إلى يمينه، سيحاربون كتفًا إلى كتفٍ لئلا يعطوا العدو مساحةً لاختراق الصف. حارب جنود السِير چون كما دربهم على القتال. خطوا إلى الأمام فوق من سقط فى البدء من الفرنسيين، بينما يقوم الصف الإنجليزى الثانى بفتح أقنعة خوذات العدو، ويدفعون خناجرهم فى عيون، أو أفواه الجرحى، لمنعهم من الطعن من مرقدهم على الأرض. صرخ الفرنسيون وهم يرون اقتراب النصال، وتلووا فى الوحل هربًا من الطعنات السريعة. ماتوا وهم يتشنجون، ولا يزال المزيد منهم يأتون ليُضرَبوا بالمطارق، أو يُقَطَّعُوا، أو يُسحَقوا، رفع بعض الفرنسيين مقدمة خوذاتهم وقد

قدروا أنهم فى مأمنٍ من السهام. دفع السير بنصل الطرف المستدق لفأسه الحربية فى وجه أحد الرجال، مديرًا النصل وهو يخترق محجر الرجل. سحبها دامية وعليها بقايا هلامية. راقب الرجل وهو يتخبط فى صياح آلام احتضاره مصطدمًا بالمزيد من الفرنسيين معيقًا إياهم. طعن السير ويليام بورتر بحربته وجوه الرجال. تكفى ضربةٌ واحدةٌ فى العادة لتفقد العدو توازنه، ويقوم الرجل الآخر المجاور للسير ويليام بإتمام المهمة بضربة مطرقةٍ. همهم السير ويليام، وهو الهادئ الجاد عادةً، وزمجر، وهو يقتنص ضحاياه. صاح السير چون:

– بحق الرب، يا ويليام، إن فى هذا لمتعة!

تواصل الصخب، اصطكاك الفولاذ بالفولاذ، الصرخات، صيحات الحرب، سقط ما يكفى من الفرنسيين لإيقاف الهجوم، ولم يعد باستطاعة الرجال الآتين من الخلف تجاوز أكوام الجثث، دون أن يقعوا على النصال الإنجليزية. سالت الدماء على شقوق الأرض. خطا السير چون فوق خوذة فرنسيٍ جريحٍ غير مدركٍ لفعلته، لكنه عرف أن قدمه اليمنى وجدت موطئًا ثابتًا. دفع وزنه قناع خوذة الرجل فى الوحل الذى تسرب من فتحات مقدمة الخوذة وخنقه ببطءٍ. لقد خنقه الوحل، وكتم أنفاسه،

بينما سخر السير چون من الفرنسيين داعيًا إياهم إلـــى التقـــدم نحوه، ثم خطا إلى الأمام ثانيةً شبقًا لمزيد من الموت، وصرخ :

- اقتلوهم! اقتلوهم!

أحس بدفقة من النشاط، استخدمها ليكسر الصف الفرنسى محدثًا فجوةً فيه لكى يستطيع رجاله أن يتبعوه وهـــو يطعـــن، ويضرب بسرعة أكثر المقاتلين إثارةً للخـــوف فـــى مـــسابقات الفروسية فى العالم المسيحى. أشلّ حركة الرجال بطرف سلاحه المستدق، يدفعه عبر ذلك الجزء من الدرع الذى يغطـــى حقـــو الرجل، وإذ ينثنون صارخين من الألم، يضربهم بالمطرقـــة أو بالفأس على خوذاتهم، تاركًا لمن خلفه من الرجال منح من سقط من العدو رحمة الموت. تلقى السير چون ضرباتٍ على دروعه لكنها كانت ضعيفةً، إلى أن قام أحد الفرنسيين بأرجحـــة فأســـه بقوةٍ، لكن ما وقى السير چون فقط أن قامـــة ســـلاح عـــدوه انكسرت. صرخ السير چون فى تحدٍ. أرجح فأسه ضاربًا ساق الرجل دافعًا نصله عبر الدرع إلى ركبته.

سقط الرجل مندفعًا بقامة سلاحه المكسورة. ضرب السير چون خوذة العدو برأس مطرقته ضربةً ساحقةً حطمت قوتهـــا الفولاذ وتدفق تيار من الدم من فتحات الخوذة. صنع السير چون

شقًا عميقًا فى حشد الصفوف الفرنسية، كانوا يقتلون مرة أخرى ليصنعوا كومةً جديدة من الجثث تعيق العدو.

مات دوق يورك على يسار السير چون دون أن يراه.

ضربت الهجمة الفرنسية مقدمة الجيش الإنجليزى فى البداية. مات مائة رجل فى ذلك القتال قبل أن تصل راية الحرب الفرنسية إلى رجال الملك هنرى، وفى قيادة رجال المقدمة لم يدرك جيلبير؛ سنيور دى لانفيريل بشكلٍ قاطعٍ أن الإنجليز على يساره. خطوا إلى الخلف عندما بلغت الهجمة هدفها، لكن دوق يورك ورجاله بقوا ليطعنوا برماحهم. استدار لانفيريل جانبًا تاركًا رمحًا ينزلق على جانب دروع صدره ثم طعن برمحه وجه رجل غير مغطى بقناع خوذة، وصاح:

- لانفيريل! لانفيريل!

أراد أن يعرف الإنجليز من يواجهون، وصد طعنة رمحٍ برمحه، ثم جرد صولجانه، وبدأ يضرب به.

لم يكن ثمة متسعٌ لاستعراض براعة مسابقات الفروسية، ولا متسع لاستعراض مهارات السيف، هذا موضع لتقطع، وتقتل، وتصيب، وتجرح، وتملأ العدو بالخوف. دفع لانفيريل صولجانه ذا النهايات المستدقة فى رجلٍ يرتدى زيًا يحمل شعار

الدوق. انتزع تلك الأطراف المدببة من خوذة الرجل الخربة وجمجمته. دفع الصولجان فى رجلٍ آخر قاذفًا إياه إلى الخلف، وأصبح باستطاعته أن يرى الدوق بوضوح الآن، لكن عليه أولاً قتل رجلٍ إلى يساره، وبصولجانه الثقيل وجه ضربة رجت ذراعه. صاح فى الدوق:

- استسلم!

أنزل الدوق مقدمة خوذته. وكانت ردة فعله أن طوح بسيفه الذى اصطك بدرع لانفيريل الذى ضرب برأس صولجانه على كتف الدوق، ثم جذب الصولجان، فتعثر الرجل الطويل إلى الأمام وفقد ثبات قدميه، وسقط.

صاح لانفيريل:

- إنه لى! ابن الحرام هذا لى!

أحس لانفيريل حينها بنشوة القتال، نشوة مقاتلٍ قهر خصومه.

وقف على الدوق واضعًا إحدى قدميه على العمود الفقرى للرجل الملقى أرضًا، وقتل أى رجلٍ حاول إنقاذه. أحاط أربعة من جنوده به، يحملون فؤوسهم الحربية يصيحون بسباب للإنجليز قبل أن يقتلوهم. صاح لانفيريل:

- أريد الراية!

فقد اعتقد أن راية الدوق الكبيرة ستكون زينةً جميلةً في استقبال ردهة قصره، حيث يمكن أن يعلقها في العوارض التي كساها الدخان بلونه تحت صالة الموسيقى، وسيجبر الدوق، إذ هو أسيرٌ في سجن لإنفيريل، أن يرى تلك الراية كل يومٍ. صاح لانفيريل في حامل الراية:

- تعال ومت!

لكن الجنود الإنجليز دفعوا الرجل إلى الخلف بعيدًا عن الخطر الآني، وأطبقوا على لانفيريل الذي تفادى ضرباتهم، دافعًا إياهم إلى الخلف بقوةٍ معتمدًا على وزن صولجانه ليخل بتوازن خصومه صائحًا برجاله في الصف الثاني طوال الوقت ليحموا ظهره. كان عليهم أن يمنعوا الحشود الفرنسية من الازدحام حوله، وقد فعلوا هذا على حساب انتظام صفوفهم معطين المساحة للانفيريل ليضرب بصولجانه في أي رجلٍ يجرؤ على مواجهته. استخدم رجاله الأربعة الفؤوس الحربيةً لاختراق الصف الإنجليزي الذي كان ضعيفًا للغاية. قدر لانفيريل أن باستطاعته القتال عبره، يقود حشدًا من الفرنسيين إلى نهاية قلب الجيش الإنجليزي. لم لا نأسر الملك والدوق أيضًا؟ صاح:

- إلى الأمام! إلى الأمام!

لكنه عندما حاول التقدم تعثر فى الجثث التى سقطت بين أرجل دوق يورك، حاول لانفيريل أن يركل جثث الموتى ليزيحها من طريقه، لكن رجلاً إنجليزيًا وجه طعنة رمحٍ إلى درع صدره رمته خلفًا. صاح لانفيريل:

- يا ابن الحرام!

ودفع شوكات صولجانه الملطخة بالدماء تجاه الوجه المزمجر، ثم جعلته صيحة تحذيرٍ ينظر إلى يساره. رأى أن الإنجليز يتقدمون داخل الصفوف الفرنسيةِ، مما يهدد بالتفافهم لقتاله من مؤخرة صفوفه. قدر أن لديه ما يكفى من الوقت ليكسر خطوط العدو، وحاول التقدم ثانيةً، فأعاقته جثث الموتى مرةً أخرى. أتت دفقةٌ مفاجئةٌ من الرجال الإنجليز لمواجهته. ضربت رماحهم وفؤوسهم الحربية وصولجاناتهم درعه، ولم يكن لديه خيارٌ سوى التراجع، لقد ضاعت فرصته فى اختراق الخط الإنجليزى الآن.

تراجع إلى الخلف تاركًا وجه دوق يورك فى الوحل. جَمَّد الذهول الدوق، وداسته الأقدام، فغرق فى الوحل. تقدم الإنجليز الآن فوق جثته آتين من أجل لانفيريل، ورايته ذات شعار

الشمس والصقر. وضعهم لانفيريل فى ورطةٍ بضرباته السريعة القوية. لم يعلم بموت الدوق، وإنما أسف فقط على فقدانه مؤقتًا، لكنه بعد ذلك رأى رايةً أخرى على يساره، راية دخلت إلى عمق الصفوف الفرنسية يرتسم عليها أسد واقف على قائمتيه الخلفيتين، ويزين رأسه تاجٌ وقد قدر أن فدية السير چون كورنويل ستجعله غنيًا بما يكفى، صاح:

- هيا معى!

وضرب، ودفع، وقاتل، ليشق طريقه إلى السير چون.

اشتد وطيس قتال حام بعيدًا إلى اليمين من لانفيريل حول رايات الملك الأربع، أراد العديد من الفرنسيين أن يحوزوا شرف أسر ملك إنجلترا، لكنهم واجهوا نفس الأهوال التى لاحقت بقية المهاجمين الفرنسيين. سقطت صفوف مقدمتهم بسرعةٍ، وقد أتعب الوحل رجالها، وأصابتهم عاصفة السهام، وقتلهم حرس الملك الشخصى بالفؤوس، والصولجانات، والمطارق، وتعثر الآن المهاجمون فى الجثث، وقُتِلوا بضربات الفؤوس. وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يزال مَن وراءهم يدفعونهم إلى الأمام. اخترق رمحٌ فرنسىٌ دروع هامفرى؛ دوق جلوستر؛ أخى الملك الأصغر، وألقته الضربة التى أصابته فى حقوه على

الأرض المحروثة، اندفع الفرنسيون إلى أخذ الرجل الذى سقط أسيرًا، لكن الملك هنرى وقف عند رأس أخيه الجريح، واستخدم سيفين فى كلتا يديه ليقطع أعداءه إربًا. حارب بالسيف، لأنه يعده سلاحًا ملكيًا، وإن كان هذا يعد عيبًا فى قتال الرجال المسلحين بالفؤوس والصولجانات، إلا أن الملك هنرى لا يعترف بذلك، لأنه علم أن الرب معه. أحس الرب فى قلبه، وشعر بأن الرب يمنحه قوةً، وقد حفظه الرب حتى عندما اصطكت ضربة فأسٍ حربيةٍ فرنسيةٍ بخوذته المتوجة بقوةٍ غاشمة. انكسرت إحدى زهرات اللوتس الذهبية من التاج، وانبعجت الخوذة، لكن الفولاذ لم يتحطم، وامتصت البطانة الجلدية بعضًا من قوة الضربة، وبقى الملك هنرى واعيًا، وطعن بالسيف فى إبط الرجل الممسك بالفأس، وصاح بصيحته الحربية:

– باسم القديس چورچ!

امتلأ هنرى؛ ملك إنجلترا بالسعادة التى منحها الرب إياه، ولم يشعر فى حياته بأنه بهذا القرب من الرب قط، وأشفق بعض الشىء على الرجال الذين أتوا ليقتلهم الرب. أحاط بالملك هنرى حرسه الشخصى. قتلوا ثمانية عشر فرنسيًا الواحد تلو الآخر، أولئك الذين أقسموا فى الليلة البارحة قسمًا مغلظًا أن يقتلوا، أو يأسروا ملك إنجلترا. ارتبط الرجال الثمانى عشر معًا بقسمهم،

وتقدموا معًا، والآن ماتوا معًا. رقدت جثامينهم متشابكة ودامية عائقًا أمام الرجال الذين لا زالوا يسعون إلى فخر أسر الملك. صاح رجلٌ فرنسىٌ متحديًا وتقدم متعثرًا إلى الأمام. شق صولجانه ذو الأطراف المدببة طريقه إلى الملك، الذى ضرب بسيفه بعنفٍ لتقتحم ذؤابته شقًا فى قناع خوذة الرجل الفرنسى، وضرب الصولجان الرجل المجاور للملك، ودفع إنجليزىٍ آخر بالطرف المستدق لفأسه الحربية فى حلق الرجل الفرنسى، فجرى الدم على مقبض الفأس المغطى بالمعدن. سقط الرجل على ركبتيه، ودفع الملك النصل فى شق مقدمة الخوذة قاطعًا شفتى الرجل ولسانه. سال الدم من الشق، وضربت فأس خوذة الرجل، لتشق الفولاذ وتفتح الجمجمة، فتناثرت الدماء على الملك، بينما سحب سيفه من شق القناع، وتفادى طعنة رمح، وصاح:

- باسم القديس چورچ!

وأحس القوة السماوية تسرى فى عروقه. لم يكن الفرنسى ذو الرمح مغلقًا مقدمة خوذته. رأى الملك هنرى الخوف فى عينى الرجل، ثم مناشدةً صامتةً من أجل الرحمة إذ انتُزِع الرمح من يديه، لكن الرب لا يريد الرحمة لأعداء الملك هنرى، ولذا مر الملك بسيفه على وجه الرجل شاقًا مقلتى عينيه. حطم أحد الحراس الشخصيين الملكيين خوذة الرجل الأعمى بالمطرقة،

وهكذا أضيفت جثة أخرى إلى كومة الجثث الفرنسية التى تحمى التشكيل القتالى الإنجليزى.

صمد الصف الإنجليزى. اضطر إلى التراجع فى بعض الأماكن تحت كثافة هجوم الجنود، لكن الصف لم ينكسر وتحميه الآن جدرانٌ من الجثث والجرحى الفرنسيين، وفى أماكن أخرى تقدم إلى الأمام إذ قام الإنجليز بهجومٍ مضادٍ على التشكيل الفرنسى، وبدأ الفرنسيون بالانتشار على أجنحتهم لعدم قدرتهم على التقدم مباشرةً إلى الأمام.

وعند هذه الأجنحة، كان الرماة هناك، وقد نفدت سهامهم.

- بإمكانك أن تموت، أو تقاتل.

بدا الصوت بعيدًا ومستمتعًا كأن المتحدث لا يبالى أى مصيرٍ سيلاقيه نيكولاس هوك.

قال توم سكارليت بعصبيةٍ:

- بحق الرب المقدس يا نيك، إنهم آتون إلينا.

كان الرماة قد تراجعوا وراء العِصىّ المغروسة فى المقدمة، وراقبوا بعد ذلك الجنود الفرنسيين يهاجمون الصف

الإنجليزى. أصدر الرماة هتافاتٍ مدويةٍ عندما أوقف هذا الصف الضئيل للغاية العدو، لكن العدوّ الآن ينتشر تجاه العِصىّ المغروسة فى الأرض.

قال هوك:

- إما القتال وإما الموت.

ألقى بقوسه، فلا فائدة من القوس دون سهامٍ وليس ثمة سهامٌ.

تحدث الصوت مرةً أخرى:

- إذن قاتل.

وعرف هوك أنه القديس كريسبين، إن القديس الأكثر حدةً هو من يخاطبه.

قال بصوتٍ عالٍ به ارتياحٌ ودهشةٌ:

- أنت هنا!

قال سكارليت:

- أنا هنا، يا نيك، لست أرغب فى ذلك لكننى هنا.

قال القديس كريسبين بحدةٍ:

- نحن هنا بالطبع، نحن هنا لنأخذ بالثأر! لذا قاتلهم، أنت يا ابن الحرام! ماذا تنتظر؟

توقف هوك ليراقب الفرنسيين. استشعر أنهم لا يحاولون الالتفاف حول الجنود الإنجليز، بل إنهم بالأحرى يهربون من القتل الذى كان مصطخبًا إلى يساره، لكن دار بخلده بعد ذلك مباشرةً أن بعض الرجال الفرنسيين قرروا مهاجمة الرماة ذوى الدروع القليلة، حتى يصلوا إلى مؤخرة صف الملك.

تساءل القديس مرةً أخرى بغضبٍ:

- ما الذى تنتظره؟ قم بعمل الرب، من أجل المسيح! فقط اقتل أولاد الحرام الملاعين!

أحس هوك برجفة خوفٍ. ترنح رجلٌ فرنسىٌ مقتربًا من العِصىِّ المغروسة، وقد تدلت ذراعه اليسرى المقطوعة من كتفه حيث شُق الدرع وتلطخ بالدم.

تساءل سكارليت:

- ماذا سنفعل يا نيك؟

أخذ هوك الفأس الحربية من على كتفه، وزمجر قائلاً:

- اقتلهم! اقتلوا أولاد الحرام الملاعين! باسم القديس كريسبين! اقتل!

أطلقت الصرخة رماة الأسهم من عقالهم، فصاحوا صيحةً عظيمةً، واندفعوا بيْن عِصيهم ليهاجموا الجناح الفرنسى، كان الرماة مسلحين بالفؤوس والسيوف والمطارق. معظمهم حافى القدمين، ليس على سيقان أى منهم دروع، والقليل منهم يمكنه دفع ثمن درع لصدره، لكنهم فى الوحل استطاعوا التحرك أسرع من الفرنسيين، صاح إيڤل-جولد:

- اقتلوهم!

وما زال المزيد من الرماة يلتقطون الصيحة. ثمة وحشيةٌ فى هذا الجو المعتم. رغبةٌ مفاجئةٌ متوحشةٌ لقتل الرجال الذين تعهدوا بقطع أصابع الرماة، ولذا ذهب الرجال الويلزيون والإنجليز، وقد قويت أذرعهم بممارسة الرماية لسنوات، ذهبوا لقتل نبلاء فرنسا.

تجاهل هوك الرجل المصاب، وبدلاً منه هاجم عملاقًا يرتدى زيًا أحمر لامعًا، كانت ضربته الأولى أرجحةٌ متوحشةٌ، لو رآها السير چون لنالت ازدراءه. تمايل الرجل الفرنسى إلى الخلف لتخطئه الضربة، ثم طعن برمحه القصير، لكن قوة

اندفاع هوك جعلته يتجاوز الرجل، ولذا استدار الرجل الطويــل ليتبع هوك. ضرب ويل الرجل على مؤخرة خوذته بالمطرقــة، فانكب العدو على وجهه فى الوحل. جثم چيــوفرى هــورروكس على ركبتيه فوق الرجل، ورفع مقدمة الخوذة، وطعنه بــسكين رفيع النصل طويل فى عينه. ضرب هوك بفأسه الحربية رجلاً يرتدى زيًا مخططًا باللونين الأسود والأبيض ضربةً قويةً فــى درع صدره ألقت العدو إلى الخلف، ثم طوح بــرأس المطرقــة ليسحق ذراع الرجل الممسكة بالسيف، وكــان ثمــة رام آخــر بالجوار يطوح بمطرقته الحديدية الثقيلة فى خوذة الرجــل. لــم يستطع الفرنسيون التحرك لتفادى الضربات، إذ علقت أقــدامهم فى الوحل، وطاشت ضرباتهم وطعناتهم فى الهــواء. تفاداهــا الرماة برشاقة. قاتل الأعداء بخوذات مفتوحــة الأقنعــة الآن إذ أمنوا السهام، واكتشف هوك أن من السهل أن تطعن بــالطرف المدبب للفأس الحربية فى أعينهم مما يضطرهم إلى الالتفــاف جانبًا لتفادى الضربة، وعندها يتبعهم أحد رفاقه بضربة مطرقة. قامت الفؤوس الحربية والمطارق المعدنية والخــشبية بالقتــل. طوحت أذرع رماة السهام بالمطارق ذات الــرؤوس الحديديــة الثقيلة. سحقت المطارق الخوذات، وحطمت العظام التى تغطيها الدروع. التقط الرماة الذين لم تكن معهم مطارق بعض فــؤوس

العدو الحربية وصولجاناتهم. بدأوا فجأةً يتخيرون الغنائم السهلة، واستمر المزيد من الرماة بالقدوم من عند العصى ليشاركوا فى الشجار.

كان شجارًا؛ شجار حانة، كمباراة كرم قدمٍ فى أعياد الميلاد، عندما يتقابل رجال قريتين ليلكزوا ويعرقلوا ويركلوا بعضهم، الفارق الوحيد: أن اللعب فى هذه المباراة كان بالحديد والفولاذ والرصاص، يهاجم اثنان أو ثلاثة من الرماة رجلاً يعرقلونه أو يضربونه بالمطرقة ثم ينحنى أحدهم ليجهز عليه بطعنة سكينٍ فى وجهه، إن أسرع طريقة لَهِيَ الطعن مباشرةً عبر العين، وصاح الفرنسيون طلبًا للرحمة عند رؤية النصل المقترب ثم يليها لحظة قصيرة من المقاومة، إذ يخترق رأس المدية مقلة العين ثم يتلاشى الصراخ عندما ينزلق النصل إلى المخ. لا تنثر مثل هذه الجروح الكثير من الدماء. وترددت الأبواق الإنجليزية طوال الوقت. ظل صوت الفولاذ يصطك بالفولاذ حيث يتقاتل الجنود فى وسط الساحة، واستمرت صيحات الرماة الذين أعملوا الذبح فى أجنحة العدو.

كان انتقامًا. قاتل هوك وفى رأسه ذكريات سواسون. عرف أن القديسين معه، إنه يوم عيدهما، واليوم سيدفع الفرنسيون ثمن ما فعلوه بمدينتهما. طعن هوك برأس الفأس

المدببة فى وجوه الرجال، وعند التفاتهم لتفادى الضربة، كـان يضرب بنصل الفأس معلقًا إياهم على كتفه، ثم يشد حتى يسقط الرجل على وجهه وأقدامه عالقة فى الطين، ثم يسحق خوذتـه برأس المطرقة، وهكذا ينتهى فرنسىٌ آخر. قـام المئـات مـن الرماة بفعل المثل، وتحول الحقل المحروث بعمقٍ الذى يـشغل المساحة بين الغابات إلى ساحة قتل واسـعة. امـتلأت شـقوق الأرض التى غرست بالقمح الشتائى حديثًا بالدماء.

ثمة العديد من الموتى والجرحى، مما اضطر هـوك أن يتقافز فوق جثثهم ليصل إلى الأعداء، أتى معه توم سـكارليت، وويل سكلايت الضخم، وويل وكذا فعل بقية الرماة، صـرخوا كلهم كالشياطين. طعن سيفٌ هوك، لكن درعه ومعطفه أوقفـا اندفاع النصل، وقام سكلايت الضخم المزمجر بضرب الرجـل المسلح بالسيف بفأسه. أوقع هوك فرنسيًا آخر بطعنةٍ، وضرب ويل فخذ الرجل الذى وقع بفأسه، فشقت دروع فخذه، وانبثقـت الدماء الكثيفة من الجرح المتهتك. حطم أحد الرمـاة الخـوذات بمطرقة، تكفى ضربةٌ واحدةٌ لتحطيم الفولاذ والجمجمة ومعهما الحياة. صاح رجلٌ فرنسىٌ تحطمت سـاقه بـضربة مطرقـةٍ بالاستسلام، وأنه يستطيع دفع فديةٍ، لكن أحدًا لم ينصت إليـه، ومات عندما طعنه رامٍ بمديةٍ فى محجر عينـه. كـان هـوك

يصرخ، غير مدركٍ أنه كذلك يحارب بهيـــاجٍ جنـــونيٍ. تلطـــخ الرماة حفاة الأقدام بالوحل، وتناثرت عليهم الدماء وهم يصيحون ويقتلون. تحول خوفهم كله إلى هياج.

تفادى فارسٌ فرنسىٌ متألقٌ فى معطفٍ صـــوفيٍ مطـــرزٍ بخيوطٍ ذهبيةٍ ضربةً من توم سكارليت، ورفع صولجانه ليسحق جمجمةَ رامى السهام الوقح، لكن طرف فأس هوك انغرست فى مؤخرة عنق الرجل مخترقةً بكامل قوتها دروع رقبتـــه. ســـقط الرجل، وسحب هوك النصل ليطعن بالقمة المدببة خصر رجلٍ آخر. طوح سكلايت العملاق الذى ترعرع فى الريف بمطرقته بين رجلى الرجل. دوت الصرخة التى أطلقها من جـــراء ذلـــك واضحةً عبر الحقل المنشع بالدم فى أزينكورت.

ثم جثا فرنسىٌ يرتدى درعًا لامعة لطخها الوحل، حـــول رقبته شريط حريرى أزرق، ويتوج خوذته أسدٌ فـــضىٌ، علـــى إحدى ركبتيه، وخلع قفازه الأيمن، ورفعه تجاه هوك، الذى مـــا زال يبعد عنه أربع أو خمس خطـــوات، وفـــى طريقـــه ليـــدق بالمطرقة فوق ذلك الأسد المتلألئ، لكنه فهم فجـــأةً مـــا يريـــده الرجل الفرنسى، وصاح:

- أسرى! أسرى!

التقط القفاز من الرجل الفرنسى، وأمره قائلاً:

- اخلع خوذتك.

لم يكن أحدٌ قد أعطى الأمر بعد بأخذ أسرى، وقد أكد السير چون قبل المعركة على عدم أخذ أسرى حتى يرى الملك أنهم انتصروا فى المعركة، لكن هوك لم يبال. إن الفرنسيين يستسلمون الآن.

رفع المزيد والمزيد من الفرنسيين قفازاتهم، وتركت خوذاتهم فى الوحل، بينما آسِرُوهم يقتادونهم من ساحة القتال، تساءل ويل:

- ماذا سنفعل مع أولاد الحرام هؤلاء؟

قال هوك مقترحًا:

- نربط أيديهم باستخدام أوتار الأقواس!

تقهقر التشكيل القتالى الفرنسى الأول الآن. مات الكثيرون، ولم تعد لدى الأحياء قدرةٌ على القتال الذى أسال الكثير من الدماء فى شقوق الأرض. اتكأ هوك على فأسه، وراقب راميًا يرتدى معطفًا أزرق اصطبغ بالماء، وهو يتقافز بين الأعداء الجرحى، وجد الرجل سلاحًا يدعى (منقار الصقر)،

وهو سلاح يشبه جزئيًا المطرقة ويشبه المخلب، ومضى يقتل الجرحى باختراق خوذاتهم بالجزء المدبب المعقوف المثبت على مقبض طويل، ومن السهل أن يخترق طرف السلاح الوتدى الشكل الفولاذ، ليحطم الجماجم تحته. صاح الرجل دون أن يخاطب شخصًا بعينه:

- مثل تحطيم البيض!

وحطم واحدًا آخر، واستمر بالصياح :

- أولاد الحرام، أولاد الحرام!

قتل مرارًا وتكرارًا. توسل الرجال الجرحى طلبًا للرحمة، لكن المطرقة المدببة استمرت فى اختراقها للخوذات. لم تكن لدى هوك طاقة للتدخل. بدا الرجل غافلاً عن كل شيء سوى رغبة القتل، وعندما يضرب جريحًا يكرر ذلك عدة مرات، حتى بعد موته بفترة طويلة، وقف كلب حراسة ضخم من نوع الدرباس(١٥) عند جسد سيده الجريح نابحًا على الإنجليز، وقتل

---

(١٥) كلاب الدرباس: نوع من الكلاب إنجليزى الأصل وزن الذكر يتراوح بين ٦٨ و ١١٠ كيلوجرامات. ووزن الأنثى يتراوح بين ٥٤ و ٩١ كيلوجرامًا. يبلغ طول الذكر ٧٥سم كحد أدنى والأنثى ٦٩سم كحد أدنى، جلد الكلب ناعم وأملس، ألوانه محدودة ومتوسط عمره عشرة أعوام.=

الرامى الكلب بسلاحه المسمى (منقار الصقر)، ثم قتل صـــاحب الكلب، وصاح فى الرجل:

- أكنت ستقطع أصابعى!

طوح الطرف المدبب ممثلاً بالجثة التى تهشمت خوذتهـــا بالفعل.

- سأقطع أنا قضيبك اللعين!

رفع فجأة الإصبعين اللذين يستخدمهما لشد الوتر وهزهما إلى أعلى وأسفل فى إشارة وقحة تجاه الجثث التى قتلها.

- أكنتم ستقطعون هذين، أليس كذلك؟ يا أولاد الحرام!

قال توم سكارليت:

- يا للمسيح.

تغطى وجهه بالدم الفرنسى، صار درعه أحمر، وتغطت ساقاه العاريتان تحت بنطاله القصير بالوحل، وقال مرةً أخرى:

- يا للمسيح.

= لون وجهه دائمًا أسود. وهو لطيف وطيب مع سيده إلا أنه قادر على حمايته. جسمه ضخم وجمجمته عريضة ورأسه مـــــربع الـــشكل. (المترجم).

أشارت كومةٌ طويلةٌ من الجثامين إلى أبعد نقاط تقدم الفرنسيين. تقهقر التشكيل القتالى الأول من الرعب، ولم يتبعه الإنجليز. لقد تعب الرجال، وارتووا من القتل. أُخذ الأسرى وراء الصفوف، حيث حدق الرجال الإنجليز والويلزيون فى بعضهم البعض، كأنهم مندهشون من البقاء على قيد الحياة.

دوت المزيد من الأبواق. نظر هوك ناحية الشمال ليرى التشكيل القتالى الفرنسى الثانى آتٍ. ضخمٌ كالأول تمامًا.

إذًا يجب أن يبدأ القتال مرةً أخرى.

قال السير مارتين:

- سيموتون كلهم هناك، سيموتون فى تشكيلاتهم! ربما تصيرين أرملةً من الآن.

ابتسم ابتسامةً عريضةً أظهرت أسنانه الصفراء.

- سمعت أنك تزوجت. لماذا يا فتاة. لماذا؟ إن الزواج للقوم المحترمين، وليس لآكلى حساء الخضر العاديين مثل هوك، لكن هذا لا يهم الآن. أنت أرملةٌ يا فتاة، وآه يا إلهى، لكنك أرملةٌ جميلةٌ! والآن ابقى ثابتةً يا

فتاة! ابقى هادئةً! (إن الرجل هو سيد كل امرأة) هذا ما يقوله الكتاب المقدس، كلمة الرب المباركة، ولذا عليك أن تطيعيني!

عبس فجأةً مستطردًا:

– وما هذه القذارة على جبينك؟

قالت ميليساند:

– إنها مباركةٌ من قسيس.

وجدت أخيرًا سهمًا، وظلت تتحسس لتضعه في مجراه في القوس، لكن القوس كان في الجعبة، ومن الصعب أن تستشعر تركيبه، ثم تركت السهم بعد أن تأكدت أنه في موضعه الصحيح. جثا السير مارتين على ركبتيه بين رجليها، ومال فوقها مستندًا على يده اليسرى، يتحسس بين فخذيها بيده اليمنى. سال القليل من اللعاب من فمه.

قال السير مارتين:

– إنها لا تعجبني.

وغادرت يده اليمنى حقوها ليحك الحروف المكتوبة بالفحم.

- أنا لا أحب مباركتك تلك. يجب أن تبدى جميلةً من أجلى! أنت لا تبقين ساكنةً يا فتاة! أتريدينى أن أضربك؟

قالت ميليساند:

- إنى ساكنةٌ.

رغم أنها فى الحقيقة تحركت بيأسٍ ولهثت وهى تحاول أن تزيح هذا الوزن الرهيب الذى يضغطٍ عليها. ترك السير مارتين محاولته لتنظيف جبينها، وأعاد يده بين رجليها. صرخت ميليساند مع لمسته، وجعل الصوت القسيسَ يعبس.

قال:

- إن المرأة هى فخر الرجل، هذه كلمات الرب القدير المقدسة، ولذا دعينا نأت بطفلٍ، هيا بنا؟

ظننت أن السهم فى مجراه. لم تكن متأكدةً، ولا تستطيع الانتظار لتتأكد، ولذا أدارت القوس ساحبةً معه الجعبة كلها، ورفع السير مارتين نفسه مستعدًا للإيلاج فيها، وقال:

- سلامٌ يا مريم العذراء، سلامٌ يا مريم العذراء.

دفعت ميليساند الجعبة فى المسافة بين بطنهـــا وبطنـــه، وجذبت الزناد.

لم يحدث شيءٌ.

لقد قبع القوس مهملاً وجاهزًا تمامًا فى جعبتهـــا لفتـــرة، ولابد أن الأجزاء الميكانيكية للزناد قد صدئت. صرخت. ســقط لعاب السير مارتين على وجهها. حركت إصبعها مرةً أخـــرى، وهذه المرة أعطى الزناد الفرصة للوتر لينطلق مصدرًا صـــوته المعدنى الشرير، وشق الجعبة سهمٌ معدنىٌ قصيرٌ سميكٌ.

بدا أن السير مارتين انزاح من عليها. حدق بها وقد فـــتح عينيه عن آخرهما، وانفتح فمه فى دائرة مرعوبة.

ثم صاح كخنزيرٍ برىٍ يخصى. تناثر الدم مـــن حقـــوه، ليتدفق فجأةً دافئًا على فخذى ميليساند. نتأ الجزء المريش مـــن السهم من مثانته، بينما خرج رأس السهم بين رجليه. استدارت ميليساند بعيدًا تزحف بيأسٍ، وتشبثت يدا السير مارتين بردائهـــا الممزق، وظلتا كذلك. إنه يصرخ الآن متشبثًا بالكتان كما لو أن هذا يمكن أن ينقذه. أفلتت ميليساند بعيدًا منه، تاركـــةً رداءهـــا، بينما تلوى القسيس على الأرض الرطبة، ينشج، ويلهث، ويدفع بالقماش الكتانى الممزق فى حقوه المحطم.

قالت ميليساند:

- ستموت، ستنزف حتى الموت.

انحنت بجواره، ونظر إليها بيأس بعينيه الداميتين، واستطردت:

- وسأظل أضحك بينما تموت أنت.

دوت صرخةٌ أخرى آتية من القرية، ورأت ميليساند أغرابًا بين الأمتعة. رأت المزيد من الناس يجرون تجاه العربات، وآخرين آتين إلى ضفة الجدول. هم من السكان المحليين، وقد جلبوا المجارف والفؤوس والسواطير، فلاحون يريدون نهب المتاع، رآها رجلٌ، وتوجه نحوها، وعلى وجهه نفس التعبير الشبق الذى كان على وجه السير مارتين.

إن ميليساند عاريةٌ.

ثم تذكرت المعطف.

ألقت نظرةً أخيرةً على السير مارتين، الذى يحتضر فى ألمٍ، والتقطت جعبتها، وكيس نقوده الجلدى، ثم قفزت فى الجدول.

أطلق السير دى لانفيريل بعض السباب. أَنَّ رجلاً عند قدميه، لهث وقد انبعج قناع خوذته وتغطى بالدم. تـدلت قدمه اليمنى بأكملها مقطوعة والدم يتدفق منها نابضًا ببطءٍ كثيف على الجثة تحته.

لهث الرجل قائلاً:

- قسيسٌ، من أجل الرب، أريد قسيسًا.

قال لانفيريل بغضب:

- ليس هنا قساوسةٌ.

ألقى لانفيريل بصولجانه، وقد اعتبر أن الفأس الحربية سلاحٌ أكثر شرًا، والشر هو ما يحتاجه إذا كان عليه أن ينتزع النصر من هذه الكارثة الواضحة. فهم لانفيريل جيدًا ما حدث، فقد صار الفرنسيون بسهولةٍ ضحايا للجنود الإنجليز بعد أن أنهكوا بالسير فى الوحل، وضَيَّقَت عليهم أقنعة خوذاتهم مدى الرؤية، ولكنه فهم أيضًا أن هؤلاء الجنود لن يستطيعوا أن يمدوا

صفهم الضيق ليملأوا الحيز الذى يفصل بين الغابتين بأكمله. لقد دُعِّمت أطراف الصف بالرماة، وهؤلاء الرماة –على حد علمه– ليس لديهم سهام. انتزع قناع خوذته المحطم رافعًا المعدن ذو الشقوق فوق حافة الخوذة، وقال:

– سنتوجه يسارًا.

لم يجبه أحدٌ من رجاله. تراجع التشكيل الفرنسى القتالى الأول عشرين خطوة، ولم يتبعهم الإنجليز، كأن ثمة اتفاقًا بينهم. كلا الجانبين متعب. اتكأ الرجال على أسلحتهم ليلتقطوا أنفاسهم. قبعت بين الجيشين كومةٌ طويلةٌ من الأجساد المغطاة بالدروع تكدست فوق بعضها البعض، بعضها موتى والبعض جرحى. تمزقت دروع الرجال الذين سقطوا والتى لُمِّعَت ليلاً حتى تتلألأ. تغطت الآن بالطين ولطختها الدماء. سقطت الرايات بين الضحايا. أخذ قلة من الرجال الإنجليز هذه الرايات الفخورة ومرروها نحو مؤخرة الجيش حيث يتجمع الأسرى الفرنسيون. اختفت راية الحرب الفرنسية التى كانت ترتفع فوق القلب الفرنسى معلنةً غرضها القاسى.

مرَّرَ الإنجليز الآن قِرَبًا من الماء أو النبيذ من رجلٍ إلى رجلٍ، وأحس لانفيريل فجأةً بجفاف حلقه، وسأل غلامه:

- أين النبيذ؟

- ليس لدى أى نبيذٍ يا سيدى، أنت لم تطلب منى ذلك.

- أعلى أن آمرك بكل شيءٍ حتى التبول؟ يـــا للمـــسيح، رائحتك منتنةٌ مثل كومةٍ من روث البهـــائم، أتغوطـــت على نفسك؟

أومأ الغلام بتعاسة. لم يكن هو الرجل الوحيد الذى جرت أحشاؤه من الرعب، لكنه زوى تحت نظرة لانفيريل المزدرية. صاح لانفيريل ثانيةً:

- سنتجه يسارًا!

حاول الوصول إلى السير چون وفشل، ولذا خطـــط الآن أن يقود رجاله لمهاجمة الرماة ذوى الدروع القليلة بدلاً من ذلك. باستطاعته أن يرى الرماة، وقد تسلحوا بالصولجانات وفـــؤوس الحرب، لكن هذا أفضل من ملاقاتهم وقـــد تـــسلحوا بـــالأقواس المصنوعة من خشب السرو والأسهم المصنوعة مـــن خـــشب البلوط. سيسقط أولاد الحرام ويقـــود رجالـــه عبـــر العِـــصىّ المغروسة، وهكذا يلتفون حول جناح الجنود الإنجليـــز، وقـــال لأتباعه:

– إن المعركة لم تَضِع، إنها حتى لم تبدأ بعد! لـــم يعـــد لديهم أســـهم! لـــذا يمكننـــا أن نقتـــل أولاد الحـــرام! أتسمعوننى! سنقتلهم!

دقت الأبواق من الطرف الشمالى للساحة. تقدم التـــشكيل الفرنسى القتالى الثانى على الأقدام، دروعهم متلألئة، ورايـــاتهم لم تقطعها السهام، تقدموا عبر مستنقع الأرض المحروثة التـــى خضخضتها بشدة حوافر الخيل وأقدام ثمانية آلاف رجلٍ فرنسيٍ من التشكيل القتالى الفرنسى الأول. مر التشكيل القتالى الثـــانى على المجموعة الصغيرة من المراقبين، ومراقبيهم، والمـــراقبين الإنجليز، والفرنسيين، والبورجونديين، الذين يراقبون المعركـــة معًا من حافة غابة ترامكور، وسرعان ما ستصل التعزيزات إلى ساحة القتال. ثمانية آلاف جندىٍ آخرين، لم يُـــرِد لانفيريـــل أن ينضغط تحت كثافة القادمين الجدد، فبدأ يشق طريقه نحو جناح الجنود الفرنسيين. إن معه أحد عشر رجلاً الآن ولقد قدر أنهـــم كافين ليشقوا طريقهم خلال الرماة. وإذا قادهم الشخص الثـــانى عشر سيتبعه الرجال الآخرون، قال لرجاله:

– إن هؤلاء الرماة الملاعين غير مدربين على اســـتخدام الأسلحة، إنهم تجارٌ! ليسوا سوى خياطين وخواصـــين.

إنهم فقط يلوحون بهذه الفؤوس. لذا لا تهاجموهم أولاً. دعوهم يطوحون بالفؤوس وتفادوهـا، ثـم اقتلـوهم، أتفهمونني؟

أومأ الرجال. لقد فهموا، لكن الساحة كانت مشبعة بالـدم، واختفت راية الحرب الفرنسية، ومات دزينةٌ من لوردات فرنسا العظام، أو فُقِدوا، ويعلم لانفيريل أن النصر يأتى فقط حينما يبدأ الرجال فى الإيمان به. ولذا سيمنحهم ذلك الاعتقاد. سيقاتل شاقًا طريقه عبر الصف الإنجليزى، ويمنح فرنسا نصرًا.

رأى الإنجليز الهجوم الثانى يقترب، فاعتدلوا، وأشـهروا أسلحتهم، وصل التشكيل القتالى الفرنسى الثـانى إلـى حيث التشكيل الأول، وصاح القادمون الجدد صيحةً عظيمةً:

– باسم القديس دانى، إلى الأمام!

أجابهم الإنجليز:

– باسم القديس چورچ.

بدأ عواء الصيد ثانيةً، أصوات الرجال الساخرة يـدعون أعداءهم ليأتوا ويموتوا.

ولكن لم يستطع التشكيل القتالى الثانى الوصول إلى الإنجليز، لأن الناجين من التشكيل الأول وقفوا فى طريقهم، ولم يكن أمام الفرنسيين إلا أن يدفعوا هؤلاء الناجين إلى الأمام، لذا خوضوا فى الطين مشرعين رماحهم يدفعون الرجال المتعبين تجاه أكوام الموتى ثم إلى النصال الإنجليزية من ورائهم. ارتفع الصخب؛ اصطكاك الفولاذ ببعضه، وصرخات المحتضرين، والدوى البائس للأبواق إذ تقدم ثمانية آلاف جنديٍ فرنسيٍ جدد إلى ساحة القتال.

ذهب لانفيريل إلى الرماة.

فرت النساء والخدم من وسط الأمتعة الإنجليزية. ركضوا صعودًا جهة الجيش المستعد للمعركة، بينما زحف العبيد والفلاحون على عربات المؤن الإنجليزية بحثًا عن نهبٍ سهلٍ.

وميليساند فى الجدول الذى جرى سريعًا، عاليًا، باردًا، موحلاً، وقد غذته الأمطار الكثيفة التى سقطت فى الأيام القليلة الأخيرة. تخبطت فى المياه تدفع الفروع الصغيرة النامية حتى رأت المعطف عالقًا فى جذع صفصافة. خلصته، ثم شقت

طريقها عبر نباتات الغليون[16] والقراص[17] التى تنمو على ضفة الجدول. سحبت المعطف فوق رأسها. تخللت البرودة الكتان المبلل، لكنه غطاها، ثم زحفت ببطءٍ شمالاً عبر الأشجار الشائكة وشجرة بندقٍ صغيرةٍ حتى رأت الفرسان.

---

(١٦) الغليون: نوع من الشجيرات المتصلقة. سيقانها مغطاة بالأشواك، الأزهار كبيرة وألوانها مبهجة تتراوح بين الأبيض المائل إلى الصفرة أو إلى الحمرة. معظم الأنواع توجد فى أسيا وبعض الأنواع القليلة فى أوروبا وأمريكا الشمالية وجنوب غرب إفريقيا. يمكن أن يبلغ ارتفاع النبات إلى سبعة أمتار. أزهار معظم الأنواع بها خمس بتلات. (المترجم).

(١٧) القراص: جنس نباتات عشبية من الفصيلة القراصية بأنواعها القراص الحارق الذى ينتشر فى الوطن العربى ومعظم مناطق العالم. القراص الرقيق ينتشر فى أمريكا الشمالية والقراص القنبى ينتشر فى غرب ووسط أسيا. فهو نبات كان يستعمل بكثرة فى قرية أرادن فى سرسنك فى العراق فى الصناعات وخصوصًا فى صناعة الأصباغ النسيجية، وكذلك كان يستعمل طبيًا لغرض البواسير وفقر الدم وتهدئة الأعصاب والأكزيما. يوجد منه نوعان الصغير وارتفاعه نحو ٥٠سم. والكبير ارتفاعه نحو متر. الأوراق مسننة وكبيرة بشكل القلب تكسوها والساق شعيرات دقيقة تؤلم اليد إذا لمستها وتسير الحكة. أما الأزهار الصغيرة خضراء اللون بشكل عناقيد تتدلى إلى الأسفل تزهر بين شهرى يوليو وسبتمبر. (المترجم).

ثمة خمسون أو ستون فارسًا يقفون بخيولهم إلى الغرب من القرية، يراقبون المعسكر الإنجليزى وحسب. ليست معهم رايةٌ ولو رفعوا رايةً لربما ما استطاعت ميليساند أن تتعرف شعارها، لكنها أيقنت أن الجيش الإنجليزى الصغير لا يستطيع مطلقًا أن يستغنى عن كل هؤلاء الفرسان ويتركهم خلف خطوطه. ذلك يعنى أن هؤلاء الفرسان فرنسيون، وميليساند تفكر الآن فى الفرسان باعتبارهم أعداءها رغم أنها فرنسيةٌ، لذا ربضت وسط الشجيرات تختفى فى معطفها اللامع خلف شجيرة شائكة.

ثم اعتراها قلقٌ آخر. إن المعطف غطاها لكنه أيضًا يقضم روحها، صلت إلى العذراء:

– سامحينى، لارتدائى المعطف. دعى نيك يعيش.

لم تستشعر استجابةً. لاشىء سوى الصمت فى عقلها.

لقد أقسمت ألا ترتدى المعطف، وفى يقينها أن ارتداء شعار أبيها سيجلب اللعنة على هوك حتى يموت فى تلك الأرض المحروثة المرتفعة، لكنها ارتدت المعطف المزين بشعار الشمس والصقر، ولم تمنحها العذراء استجابةً. هى تعلم

أنها كسرت المَقايضة التى عقدتها على الجنة. ارتعدت بــالبرد والرطوبة، واعترتها رجفةٌ مفاجئةٌ.

سيموت نيك. إنها واثقة من ذلك.

ولذا خلعت المعطف، لربما يعيش نيك.

ربضت. صلت عاريةً تشعر بالبرد والرعــب. ارتفــع صوت المعركة مرةً أخرى آتيًا مــن جهــة الــشمال خلــف الفرسان، وخلف القرية، وخلف الأفق.

صاح توماس إيقل-جولد:

- لقد قاتلناهم من قبل ونستطيع قتلهم ثانيةً! اقتلوا من أجل إنجلترا!

صاح رجلٌ:

- من أجل ويلز!

صاح رجلٌ آخر:

- من أجل القديس چورچ!

أجاب الرجل الويلزى:

– من أجل القديس داڤيد!

تدفق الرماة مع صيحة القتال تلك إلى الأمـــام ليهـــاجموا العدو الجديد. لقد مزقوا التشكيل القتالى الفرنسى الأول، وقـــدر بعض الرجال أنهم سيصبحون أغنياء من الأسرى الذين أمسكوا بهم، وهؤلاء السجناء خلف العِصىّ المغروسة، بلا خوذات وقد قُيِّدَت أيديهم بالأوتار الاحتياطية للأقواس. يحرسهم هنا حفنةٌ من الرماة المصابين. ذهب الرماة الآن ليوقعوا المزيد من الجثـــث، ويأتوا بالمزيد من الأسرى.

اندفعوا بقوة وقد علموا الآن كيف يسقطون الجنود الـــذين لا يستطيعون الحركة فى الوحل السميك، وهكذا ضرب الرمـــاة الجناح الفرنسى، وهاجموا عدوهم ليصنعوا خطًا جديـــدًا مـــن القتلى، يموت أغلبهم بطعنةٍ فى إحدى عينيه بخنجر الرماة، بعد أن يسقطوا بضربة مطرقةٍ. كانت تلك الـــصرخات مـــستمرة، ويمور المرتفع برجالٍ يغطيهم الفولاذ الـــذى تلطـــخ بـــالطين، يتحركون بتثاقلٍ تجاه الرماة. مدفوعين من الصفوف الكثيرة من الرجال من ورائهم. تعثر هؤلاء الرجال الثقيلو الحركـــة فـــى الجثث، حُطِّمَت خوذاتهم، وقُتِلُوا بالخناجر، وما زالوا يتـــدفقون. حاول الرماة أن يأسروا الرجال الذين يرتدون سلاسل ذهبية أو فضية حول أعناقهم، أو يرتدون دروعًا تدل روعتها على ثروة

مرتديها أو مكانته: يقتلون رفاق الرجل الثرى ثم -ككلاب الصيد التى تنبح على ظبى- يحيطون به صائحين ومهددين الرجل حتى يخلع قفازه.

صاح توم سكارليت فى رجلٍ يرتدى معطفًا مزينًا بشعار بجعةٍ حمراء:

- هيا يا ابن الحرام! تعال!

راقبه الفرنسى بعينيه الزرقاوين اللتين ظهرتا من خلف قناع خوذته المرفوع، كان على خوذته نقوشٌ من دواماتٍ فضيةٍ، وقد ثُبِّتَ حزام سيفه المخملى بأزرارٍ ذهبيةٍ. شق الرجلُ طريقهُ بين الجثث، وطعن برمحه تجاه بطن سكارليت، الذى دفع الرمح بفأسه الحربية. ضرب رجلٌ فرنسىٌ آخر يرتدى نفس شعار البجعة بسيفٍ عريض النصل على الفأس الحربية، لكن النصل الفولاذى ارتد عن يد الفأس المغطاة بالحديد. دفع سكارليت الفأس بقوةٍ إلى الأمام طاعنًا بطرفها المستدق بطن الرجل المرتدى شعار البجعة المغطاة بالدروع. مال الرجل إلى الخلف. ضرب الرجل بسيفه ثانيةً، وأوقف سكارليت الضربة بمقبض فأسه، وهنا وجد ويل سكلايت بجواره ينخر كالخنزير وهو يطوح فأسه الحربية فتشق خوذة الرجل ذى السيف، كأنها

رق كتابة. تحطمت الخوذة غارقةً فى الدم وأجزاء المخ، ورفع سكلايت بقامته الضخمة المخيفة رأس مطرقته.

صاح توم سكارليت:

- نحن نريده يا ويل! إن ابن الحرام ثرى!

وضرب بفأسه تجاه الرجل الثرى مــرةً أخــرى، كــان سكارليت واثقًا أنه يواجه رجلاً نبيلاً. حــاول اللــورد الطعــن برمحه. أمسك سكارليت بالرمح هذه المرة بإحدى يديه وشــده بقوة. زلَّ الرجل، وسقط إلى الأمام، وأمسك ســكارليت بحافــة خوذته السفلى، وشده خارج خط القتال. أسقط ويــل ســكلايت المزيد من الرجال بضرباته، وعاونه دزينةٌ من رمــاة الــسير چون، بينما أدار سكارليت أسيره، جثم وعبس فى وجه الرجل.

- غنى، أليس كذلك؟

حدق الرجل فيه بكراهيةٍ وسحب سكارليت خنجره جاعلاً طرفه فوق مقلعة عين الرجل اليسرى، وقال:

- إذا كنت غنيًا، عشت، وإن كنت فقيرًا، مت.

قال الرجل بالفرنسية:

- أنا كونت باڤيلى. أنا أستسلم! أنا أستسلم!

تساءل سكارليت:

- أذلك يعنى أنك ثرى.

علا صوت هوك صائحًا:

- خلفك يا توم!

استدار توم سكارليت ليرى فرنسيًا آتيًا عليه، ودفع كونت باڤيلى خنجره فى تلك اللحظة فى حقو توم سكارليت. صرخ سكارليت ألمًا. قام الكونت من الوحل، وطعن مرةً أخرى فى بطن توم سكارليت هذه المرة قاطعًا وممزقًا. طوح ويل سكلايت بفأسه الحربية كأنه يجز العشب وانغرس نصل الفأس فى وجه كونت باڤيلى محطمًا أسنانه المتبقية، دافعًا أجزاءها حتى مؤخرة جمجمته. امتزِج دمه ودم توم سكارليت، ورقد الجسدان؛ الرجل الثرى والرجل الفقير معًا، بينما ينزع سكلايت نصله من فوضى الحديد والعظام، قبل أن تدفعه دفقةٌ مفاجئةٌ من الفرنسيين إلى الخلف.

ودُفِع هوك أيضًا إلى الخلف.

هاجم صفٌ ضيقٌ من الرجال الفرنسيين الرماة. تفوق رماة الأسهم حتى الآن، لأنهم هاجموا، ولأنهم كانوا أقدر على الحركة من عدوهم، لكن الفرنسيين وجدوا طريقةً فى النهاية ليعيدوا الكرة على الرماة، لقد أتوا كتفًا إلى كتفٍ، وتركوا

ضربات الرماة تطيش بأن تفادوها بدلاً من صدها، وإذا انزلق رام أو طوح بسلاحه بقوةٍ ولم يستعد توازنه بسرعةٍ، فسيطاله أحد النصال، وهكذا يغوص أحد الرجال الإنجليز فى الوحل ليُضرَب بالصولجان. صاح لانفيريل الذى يقود صف المهاجمين:

- اقتلوهم فقط، واحدٌ فى كل ضربةٍ! سيعطينا الرب الوقت الكافى لنقتلهم كلهم! باسم القديس دانى! إلى الأمام!

أحس لانفيريل النصر الآن، كان الفرنسيون فزعين حتى هذه اللحظة، وتركوا أنفسهم يتساقطون كالقطيع إلى ساحة الذبح الشتائية تلك، لكن لانفيريل كان هادئًا وواثقًا وقاتلاً وتبعه المزيد والمزيد من الفرنسيين، وقد أحسوا أخيرًا أن شخصًا ما تولى زمام القيادة. رأى هوك شعار الصقر والشمس الساطعة.

صاح فى سكارليت:

- خلفك يا توم!

ثم رأى الرجل الفرنسى الذى يختلط فى معطفه اللونان الأحمر والأبيض ينهض فجأةً، لكنه لم يجد وقتًا ليرى المزيد لأن لانفيريل بدا أمامه مباشرةً، واضطر هوك أن يتراجع إلى

الخلف لأن لانفيريل حاول طعنه بفأس الحرب. لم تبد كطعنةٍ قاتلةٍ بل بالأحرى للإخلال بتوازن هوك، الذى اضطر للتراجع إلى الخلف ثانيةً ليتفادى الطرف المدبب، وكادت قدمه تزل في شقوق الحرث، لولا أن اصطدم ظهره بواحدةٍ من العِصىّ المائلة التى أبقته واقفًا. طوح بفأسه الحربية فى سلاح لانفيريل، لكن الرجل الفرنسى أزاح ضربة هوك جانبًا بطريقةٍ ما، وحاول طعنه ثانيةً واضطر هوك إلى أن يلتف حول العصا، لكن الطرف المدبب علق فى درعه، ولم يستطع التحرك. أعماه الرعب، قال القديس كريسبين:

- اقترب.

ضرب هوك بفأسه الحربية بقوةٍ إلى الأمام مجاهدًا في الوحل ليجد موطئًا ثابتًا لقدميه، وفوجئ لانفيريل بشدةٍ بالهجوم المضاد المفاجئ الذى صد ضربته الثانية. انزلق نصل هوك على درع لانفيريل، لكن اندفاع الضربة حرر درعه، واستطاع هوك أن يخطو إلى الخلف بالضبط قبل أن تَسحَق يدَه عند موضع إمساكها بالمقبض ضربةٌ من أحد رجال لانفيريل.

قال لانفيريل:

- لقد تمنيت أن نلتقى.

زمجر هوك قائلاً:

- أتريد أن تموت؟

ما زال الفزع يملأ أوصاله لكن داخلـه اطمئنـانٌ أنـه سينجو، ثم اضطر أن يتفادى بيأسٍ نصلين اندفعا بسرعةٍ نحـو رجليه اللتين لا تغطيهما دروعٌ، أتى توم إيڤل-جولد لمساعدته، وكذلك ويل.

قال ويل:

- لقد مات توم.

ثم طوح بفأسه الضخم ليزيح جانبًا طعنةً من رمحٍ. تساءل لانفيريل:

- كيف حال ميليساند؟

قال هوك:

- إنها على قيد الحياة، على حد علمى.

اندفع ثانيةً وأزيحت ضربة فأسه مرةً أخرى لكنه لم يكن قد وضع كل قوته فيها، ولذا استعاد توازنه سـريعًا، ليـضرب

برأس المطرقة الحديدى على ذراع لانفيريل، لكن الضربة لم تكن بالقوة الكافية، ويبدو أن الرجل الفرنسى قد لاحظ ذلك بالكاد.

ابتسم لانفيريل، وقال:

- ستعيش هى وتموت أنت.

وبدأ يطعن بسلاحه بضربات قصيرة، ضربات محكمة وسريعة، أحيانًا منخفضة وأحيانًا مرتفعة، ولم يكن هوك قادرًا على التفادى ولم تسنح له فرصةٌ لضربةٍ مضادة. لم يستطع سوى التراجع. بجوار إحدى عينى لانفيريل دمٌ متخثرٌ لكن وجهه بدا هادئًا بشكلٍ غريبٍ، وقد أرعب هدوؤه هذا هوك. تطلع الرجل الفرنسى إلى عينى هوك طوال الوقت، وعرف هوك أنه سيموت ما لم يتجاوز بأى طريقةٍ هذا النصل الخفاق، كان لدى توم إيڤل-جولد نفس الفكرة، وتمكن من دفع أحد الرماح، ودفع النصل جانبًا، ولذا فقد أصبح على يمين لانفيريل، ولذا صرخ قائد الرماة بلعنةٍ ممسكًا بفأسه الحربية بكلتا يديه كأنها حربةٌ مشرعةٌ وضرب بنصله إلى الأمام، والطرف المدبب موجه إلى دروع حقو لانفيريل. يمكن للنصل أن يخترق الدروع والمعطف والجلد ليمزق أسفل بطن لانفيريل، لولا أنه رفع

مؤخرة فأسه الحربية ليصد الطعنة، فانحرفت، وراحت قوتها كلها على دروع صدره. تصدى فولاذ ميلان للضربة، وانزلقت عنه، ثم طوح لانفيريل برأسه إلى الأمام ضاربًا بقناعِ خوذته المرفوع وجه توم إيفل-جولد بقوةٍ، بينما طعن رجلٌ فرنسىٌ آخر فخذ الإنجليزى، ولف السيفَ. ترنح إيفل-جولد. تدفق الدم منهمرًا على ساقه، وتناثر من أنفه المحطم. أعمته الضربة التى تلقاها على وجهه، ولذا لم ير طرف الفأس المدبب الذى يندفع إلى وجهه. أصدر أنينًا حادًا عندما أحسه، وقطعت فأسٌ أخرى بطنه، وشقت درعه، ومعطفه، ومزقت أمعاءه، ثم تجاوزه الفرنسيون يخطون بتأنٍ وحرص ويتقدمون خلال العِصىّ. صاروا أقرب ما يمكن من المؤخرة الإنجليزية.

صاح القديس كريسبين فى هوك:

- اقترب.

قال هوك:

- لا أستطيع.

ارتجف توم إيفل-جولد. دفع جندىٌ فرنسىٌ ذؤابة سيفه فى حلقه، وتفجرت دفقةٌ كثيفةٌ من الدم، ثم سكنت حركة قائد الرماة. تبع المزيد والمزيد من الفرنسيين لانفيريل فزادوا من سمك

صفه الضيق، ورغم أن الرماة حاربوهم فإن العدو بات يتقدم أخيرًا. ساعدتهم العِصِيّ فى ذلك إذ قدمت لهم شيئًا ثابتًا ليتكئوا عليه فى هذه الأرض الزلقة. إن الرماة الآن ينهزمون. حاول هوك أن يحشدهم لكن لم تكن لديهم دروعٌ ليقفوا فى وجه الجنود المدربين، ولذا تراجعوا. لم ينكسروا بعد لكنهم دُفِعُوا إلى الخلف أكثر وأكثر.

حاول هوك أن يثبت، وتبادل الضربات مع لانفيريل، لكنه عرف أنه لن يستطيع هزيمة الرجل الفرنسى. إن لانفيريل سريعٌ للغاية. ليست له قوة هوك، لكنه أسرع منه فى استخدام الأسلحة. قال لانفيريل:

- أنا حزينٌ من أجل ميليساند لأنها ستحزن من أجلك.

قال هوك:

- يا ابن الحرام.

وطعن بالفأس الحربية إلى الأمام، وطاشت الضربة، وسحب السلاح إلى الخلف، وعلقت رأس الفأس هذه المرة برأس فأس لانفيريل، وجذب هوك بقوةٍ، ولأول مرة، رأى نظرة دهشةٍ على وجه الرجل الفرنسى، لكن لانفيريل ترك المقبض ببساطة ينزلق مع هوك، وكاد هوك يسقط أرضًا.

قال لانفيريل:

- لكن النساء يتعافين بسرعةٍ بأن يجدن رجلاً آخر.

وانحنى والتقط الفأس التى سقطت أرضًا. قام بذلك بسرعةٍ بالغةٍ لم تمكن هوك من مهاجمته وهو منحنٍ، وعندما انتبه لذلك كان الوقت قد تأخر للغاية. قال لانفيريل:

- وربما أعيدها إلى دير الراهبات. وأجعل منها عروسًا مناسبةً للسيد المسيح.

عبس لانفيريل فى وجه هوك، ثم بدأت الفأس الحربية الجديدة طعنتها القاسية.

صرخ القديس كريسبين:

- ابتعد عن الطريق.

أجاب هوك صائحًا:

- سأقتله.

أراد قتل لانفيريل. شعر بالكراهية نحوه فجأةً، وصاح:

- سأقتله!

حاول أن يخطو متقدمًا إلى الأمام، لكن أوقفه نصل الرجل الفرنسى السريع الضربات.

زأر الصوت:

- ابتعد عن الطريق اللعين!

لكنه هذا ليس صياح القديس كريسبين، وأحس هوك بنفسه يُدفَع بعيدًا إذ ألقاه السير چون كورنويل جانبًا. جلب السير چون جنودًا معه طعنوا برماحهم الفرنسيين. اصطكت الأطراف الفولاذية بالدروع المعدنية، وتوجه هوك مترنحًا إلى حيث يهاجم ويل سكلايت بشدةٍ أتباع لانفيريل. رد لانفيريل بصرخة تحدٍ مدويةٍ، وحمل علًى السير چون، وتدفق رجالٌ فرنسيون آخرون متقدمين عبر الطين السميك. ضربت فأسٌ حربيةٌ خوذة هوك فسقط، لأنه كان فاقدًا لتوازنه بالفعل. لم تحمل ضربة الفأس كامل قوتها لكنها لم تزل ترن فى رأس هوك، وانزلق النصل من على الخوذة ليشق الدرع ويقطع المعطف من فوق كتفه فينكشف تقريبًا. رأى الرجل الفرنسى يرفع سلاحه مستعدًا ليدفع الطرف المدبب إلى بطنه أو صدره، وطعن هوك بسلاحه بيأسٍ، ضربة وحشية دفعت رأس الفأس إلى حقو الجندى، وكالضربةً التى أسقطته لم تحمل ضربته كامل قوتها لكنها كانت عنيفة بما

يكفى لتجعل الرجل الفرنسى ينحنى في ألمٍ مفاجئٍ أعجز جسده، ثم جذب ويل هوك ليقف، ووجد موطئًا ثابتًا لقدميه، ودفع طرف سلاحه المدبب إلى الأمام وهو يصيح مع طعناته. انغرس الطرف المدبب فى أعلى صدر أحد الأعداء مخترقًا معطفه، وانزلق على الحافة العليا لدرع صدره. دفع هوك فأسه وهزها فاندفع النصل مصدرًا صريرًا إلى القفص الصدرى للعدو، ورأى الجزء السفلى من خوذة الرجل يمتلئ بالدماء التى سالت من فتحة القناع. ضربت طعنةُ سيفٍ هوك من على يمينه لكن درعه أوقفتها، وضرب بسلاحه فى ذلك الاتجاه ساحبًا به ضحيته ليُفقِد الرجل ذا السيف توازنه، ثم هجم هوك.

استخدم الرجل المحتضر كدرع. دفعه على خطوط الفرنسيين، وتبعه سكلايت وويل وهما يصيحان:

– باسم القديس چورج!

صاح هوك:

– باسم القديس كريسبين!

وظل يدفع الرجل المحتضر على صفوف الفرنسيين ملقيًا بجسده على الرجال الآخرين. تناثر الدم من فم الرجل المصاب عندما حاول هوك إخراج طرف سلاحه المدبب. طعن رجلٌ

آخر بالطرف المستدق لسلاحه تجـاه هـوك، لكـن چيـوفرى هوروكس تبع هوك، وضرب الرجل على خوذته بالمطرقة ذات الرأس الحديدية الثقيلة، فأصدرت ضربتها صوتًا مكتومًا، بينما ارتد رأس الرجل إلى الخلف. سقط فى الوحل. انفـك اشـتباك الرجل الجريح وفأس الحرب أخيرًا. وبدأ هوك فـى الـصراخ بوحشيةٍ إذ انزاح ذلك الثقل عنه. طوح بالسلاح من جانبٍ إلـى آخر وهو يندفع تجاه الفرنسيين، وظل يصيح:

– اقتلوا أولاد الحرام، فقط فلنقتل أولاد الحرام!

تبعه الـرماة، وقـد انطـلق بركان غـضبهم بمجـىء السير چون.

كان السير چون يقاتل لانفيريل، يستخدم كلاهما أسـلحته بسرعةٍ بالغةٍ حتى لتصعب رؤية الضربة أو صدتها أو تفاديها، بينما هاجم الجنود الإنجليز الآخرون من كلا الجانبين، وجعـل ذلك الهجوم الوحشى أتباع لانفيريل يتراجعون بشكلٍ غريـزيٍ قاصدين الدفاع عن أنفسهم ضد الرجال الذين وصلوا مـؤخرًا. زلت أقدام بعضهم وهم يتراجعون فى الجثـث الملقـاة علـى الأرض خلفهم فسقطوا، وأتى الإنجليز إليهم يطعنونهم بالأطراف المدببة لفؤوسهم الحربية، فتشق الفـؤوس الـدروع. تجهمـت

الوجوه من عناء القتل. اقتلعت المذبحة الحماس من الفرنسيين المتبقين فحاولوا التراجع، ووجدوا الرماة إلى جناحهم. بدأ الرجال يصيحون بالاستسلام. خلعوا قفازاتهم وصاحوا باستسلامهم فى فزعٍ يائسٍ، قال ويل لأحد الرجال بسخريةٍ:

- تأخر الوقت كثيرًا.

وضرب بفأسه ممزقًا دروع كتف الرجل وضلوعه العليا. زحف رجلٌ فرنسىٌ آخر يرتدى معطفًا ممزقًا ببطءٍ على يديه وركبتيه والدم يسيل من فمه والدموع تنساب من عينيه العمياوين، يتخبط فى الوحل حتى ركله أحد الرماة وقتله عرضًا بطعنة خنجرٍ فى فمه. ضرب هوروكس الشاب كونت حتى الموت طاعنًا بفأسه الحربية مرةً بعد الأخرى فى دروع ظهر الرجل الواقع وصرخ بالسباب بينما النصل يمزق الفولاذ والعمود الفقرى.

بقى لانفيريل، واستمر فى قتال السير چون، ولم يتدخل الجنود الإنجليز الآخرون باتفاقٍ غير منطوق. لم يتحدث أى الرجلين. انغرست أقدامهما فى الطين يطعنان ويصدان ويناوران، لكن كليهما كان بارعًا للغاية وسريعًا جدًا حتى أن أحدهما لم يتفوق على الآخر، هما بطلا مسابقات الفروسية فى

العالم المسيحى. أحدهما فرنسى والآخر إنجليزى. واعتادا الحصول على رايات الفوز الحريرية، وإعجاب النساء، والأعلام اللامعة، واحترام النبلاء، لكنهما يتقاتلان الآن وسط الجثث وأنين المحتضرين ونشيجهم فوق الساحة التى يغرقها الدم والغائط.

أتت النهاية عرضًا. فقد وجه لانفيريل طعنةً خادعةً إلى يسار السير چون، واستعاد توازنه بسرعة مدهشة، وصد ضربةً أخرى وبهذا أجبر السير چون أن يخطوا إلى اليمين فنزلت قدمه على حافر حصانٍ ميتٍ، فتدحرج الحافر تحت ثقله، وانزلق السير چون، وسقط على إحدى ركبتيه، وانتزع لانفيريل فأسه الحربية، وضرب بها خوذة السير چون -بسرعة كالثعابين- ضربةً مدويةً، وسقط السير چون بجسده كله على بطن الحصان الغارقة فى الدماء، حيث تخبط محاولاً استعادة توازنه، ولذا بدأ يحاول إيجاد موطئ ثابتٍ لقدميه. رفع لانفيريل فأسه الحربية ليضرب ضربته القاتلة.

واندفع الفأس.

أجبر التشكيل القتالى الفرنسى الثانى الناجين من التشكيل الأول على العودة إلى ساحة القتل، حيث ينتظرهم الإنجليز خلف

سورٍ من القتلى والمحتضرين الفرنسيين، وهكذا صار العديد من كبارِ نبلاء فرنسا موتى بالفعل أو ينزفون وقد تكسرت عظامهم وشُقَّت أمعاؤهم وخرجت أمخاخهم من الخوذات المحطمة وقُلِّعَت أعينهم وبُقِرَت بطونهم. بكى الرجال، ونادى بعضهم الرب، أو زوجاتهم، أو أمهاتهم، لكن لم يأتهم الرب، ولا أى امرأة لمنحهم الراحة.

تقدم ملك إنجلترا إلى الأمام الآن. سحب إحدى الجثث من فوق اثنتين أخريين، ليشق معبرًا عبر كومة الجثث. حمل بسيفه على أحد الأعداء الذين جرؤوا على تحدى من اختاره الرب من أجل عرش فرنسا. تقدم جنـــوده معـــه، يقطعـــون بفؤوســـهم، ويضربون بصولجاناتهم، ويقتلون بأسلحتهم التى تسمى (منقـــار الصقر) الحادة المقوسة فى أعـــدائهم الـــذين أتعـــبهم الوحـــل، وانهارت معنوياتهم. صنعوا أكوامًا جديدة من الموتى والجثـــث التى تغطيها الدماء، والمزيد مـــن المـــصابين الـــذين ذهبـــت استغاثاتهم طلبًا للمساعدة أدراج الرياح. قادهم الملك هنرى رغم صرخات الرجال الذين يريدونه أن يحافظ على نفسه. انبعجـــت خوذته وتخدشت وسقطت زهرة اللوتس الذهبية من التاج، لكـــن ملك إنجلترا بدا مفعمًا بإحساسه بالشرعية، وبالسعادة المقدســـة، لأنه رأى فى معاناة العدو الدليل على العناية الإلهية. تحولـــت

شقوق الأرض المحروسة تحت وطء الأقدام إلى مستنقعٍ مسطحٍ يصطبغ بلون الدم. خوَّض الرجال فى بقع الوحل، والدم، والغائط، وتخبطوا، وماتوا، وسَمَت روح الملك هنرى. إن الرب معه وقد وجد فى ذلك قوةً جديدةً، واستمر فى القتل.

طعن لانفيريل بقوةٍ وعنفٍ، وفى نفس اللحظة التى عَلِقَ فيها نصل فأسٍ حربيةٍ على دروع كتفه اليسرى ساحبًا إياه بسرعةٍ وقوةٍ إلى الخلف، لذا قَصُرَت ضربة لانفيريل أن تطال السير چون، لكن لانفيريل حافظ على اتزانه بمعجزةٍ، والتفت إلى خصمه الجديد، ثم توقف.

لقد جذبته الفأس الحربية بعيدًا عن السير چون، وحرمته من قتله، والآن صار طرفها المدبب فى وجهه يضغط شفته على أسنانه، ووجد لانفيريل نفسه يحدق فى وجه هوك.

قال هوك:

-عندما حَارَبتَه من قبل تركك تنهض. ألن تفعل معه المثل؟

قال لانفيريل وقد غير ضغط السلاح من صوته:

- هذه معركةٌ وتلك كانت مسابقة فروسيةٍ.

تساءل هوك:

- وإذن إذا كانت هذه معركةٌ فلم لا أقتلك.

نهض السير چون لكنه لم يتدخل، بل راقب ما يحدث فقط.

قال لانفيريل:

-لأن ميليساند لن تسامحك أبدًا.

رأى التردد على وجه هوك. تـوتر لانفيريـل واسـتعد ليسحب فأسه الحربية، لكن الطرف المدبب الفولاذى انغرس فى فمه وشق لثته العليا.

قال هوك:

-هيا، حاول.

لم يزل السير چون يراقب ما يحدث.

استطرد هوك كأنه يتوسل:

- فقط حاول.

وأبقى عينيه على وجه لانفيريل، وتساءل:

- هل تريده يا سير چون؟

- إنه لك يا هوك.

قال هوك للانفيريل:

- أنت لى.

قال لانفيريل بالفرنسية:

- أنا أستسلم.

وترك مقبض فأسه الحربية لينغرس السلاح فى الوحل.

قال هوك آمرًا وهو يسحب طرف فأسه الحربية المدمى:

- اخلع خوذتك.

خلع لانفيريل خوذته ووقاء الرقبة والبطانة الجلدية من تحته، فانسدل شعره الأسود الطويل. أعطى هوك قفازه الأيمن. قام هوك مزهوًا بانتصاره بأخذ أسيره إلى الخلف حيث بقية الأسرى الفرنسيين تحت الحراسة. بدا السير دى لانفيريل متعبًا فجأةً، متعبًا، وذاهلاً، وقال متوسلاً:

- لا تقيد يدىّ.

- ولم لا؟

- لأننى شريفٌ يا نيكولاس هوك. لقد استسلمت، وأعاهدك ألا أحاول القتال ثانيةً، وألا أحاول الهرب.

قال هوك:

- إذن انتظر هنا.

قال لانفيريل متعهدًا:

- سأنتظر.

صاح هوك فى أحد الغلمان ليحضر للفرنسى بعض الماء، ثم عاد إلى المعركة التى كادت تنتهى هى الأخرى، لم يُبلِ التشكيل القتالى الفرنسى الثانى أفضل مما فعل الأول. أضاف المزيد من الأجساد إلى أكوام الموتى، وصارع الناجون الآن إلى التراجع عبر الوحل مخلفين وراءهم جثثًا ومصابين وأسرى، مئات من الأسرى ما بين دوق، وكونت، ولورد، وجنود كلهم فى معاطف ملطخة بالوحل، وقد ملأتها بقع الدماء. وقفوا كلهم خلف الصف الإنجليزى يراقبون تراجع التشكيلين القتاليين الفرنسيين، وهم لا يصدقون ما يحدث.

بقى التشكيل القتالى الفرنسى الثالث. رفرفت راياته، وقفز أفراده على سروجهم بطول ذلك الصف، وهم ينادون غلمانهم

ليجلبوا لهم رماحهم، تحدث القديس كريسبين فى ذهن هوك، قائلاً:

- سهامٌ، أنت تحتاج إلى سهامٍ.

لم ينته عمل اليوم بعد.

راقبت ميليساند ما يحدث.

كان المتاع الإنجليزى فى قرية ميزون- سيل، وفى المراعى الرطبة حولها، وبعضه فى منتصف المسافة فوق التل، حيث قاد الغلمان والخدم خيول الحمل إلى حماية الجيش الإنجليزى خلف الأفق، لو أن هنالك فى الحقيقة جيشاً إنجليزيًا باقيًا، وميليساند لا تدرى شيئًا عن ذلك. شاهدت رجالاً ينحدرون على ذلك الأفق إلى الوادى حيث تقبع ميزون-سيل لكن هؤلاء الرجال كانوا قلة. خمنت من حركتهم أنهم جنودٌ جرحى، وبعد هنيهةٍ، جاء المزيد من الرجال ببطءٍ، ولم يكونوا يركضون مذعورين، ولم تدرك أنهم أسرى يؤخذون تجاه القرية. وقد وشى عدم وجود الذعر أن صفوف الجيش الإنجليزى ما زالت متماسكةً، لكن راودها بعض التوقع، وبعض الخوف، أن تراهم ينحدرون على الحافة يلاحقهم الجيش الفرنسى المنتقم.

جاء الفرسان الفرنسيون بدلاً من ذلك من الغرب، واندفعوا الآن إلى داخل القرية. شاهدتهم ميليساند يسقطون الغلمان، ثم يترجلون، ليبدأوا نهب الأمتعة الإنجليزية.

شتت الفرسان الفلاحين الذين وصلوا قبلهم، كانت حفنة من الجنود الإنجليز والرماة المصابين قد قامت على حراسة المعسكر لكنهم ثلاثون فردًا فقط وقد نفدت أسهمهم عندما هاجمهم العبيد، وتقهقروا الآن إلى أعلى التل. ذهبت نساء الجيش معهم إذ وجد الفرسان متاع الملك الإنجليزى. بقى مع كنوز الملك قسيس، واثنان من الغلمان، وقد ذبح هؤلاء الثلاثة بسرعةٍ وبدأ النهب.

راقبت ميليساند ما حدث. شاهدت رجلاً يتبختر فى رداء أحمر له حوافٌ من الفرو، وعلى رأسه تاجٌ مما دفع رفاقه للضحك. لم تفهم ميليساند ما يحدث. لم تستطع إلا أن تصلى حتى يعيش نيك، ولذا أغلقت عينيها، وجلست القرفصاء، وصلت.

لقد عاش هوك.

تقهقر التشكيلان القتاليان الفرنسيان يتعثرون فى تراجعهم فوق الأرض المحروثة تاركين المساحة التـــى أمــام الإنجليــز ممتلئةً بالأجساد التى تغطيها الدروع الملطخة بالوحل. امتطـــى التشكيل القتالى الفرنسى الثالــث خيولـــه الآن، إنـــه أصــغر التشكيلات عددًا لكنه ما زال يفوق الإنجليز فى عـــدده. أشـــرع الخيالة رماحهم وقد عُلِّقَت فى بعضها الرايات. نُفِخَت الأبـــواق. لم يستطع التشكيل الثالث الهجوم بعد، لأن العديد من الفرنسيين المشاة كانوا أمامهم، لكنهم تحركوا بخيولهم خطواتٍ قليلةٍ إلـــى الأمام قبل أن يتوقفوا ثانيةً.

صاح هوك فى رجاله:

- سهام!

أجابه ويل صائحًا:

- ليس لدينا أىٌّ منها!

قال هوك:

- بل لدينا.

وجد قوسه، وعلقه على كتفه، وقاد رجاله إلـــى الـــساحة حيث ترقد أجساد الفرنسيين، وفى كل موضـــع حـــول هـــؤلاء

الرجال الذين سقطوا هنالك تلك السهام التـــى أُطلِقَــت. صــار بعضها عديم الجدوى إذ انبعجت رؤوســـها أو التــوت، لأنهــا اصطدمت مباشرةً بدروعٍ جيدةٍ، لكن الكثير منها فى حالةٍ طيبةٍ. وجد هوك بعض رؤوس السهام السليمة على قامــات خربـــةٍ، فجذب هذه الرؤوس وزاوجها مع قامات سليمةٍ. نهب أيضًا جثث الفرنسيين. وجد سلسلةً فضيةً حول عنقِ أحد الرجال، فألقـــاها فى جعبة سهامه. بحث الجنود أيضًا بـــين أكـــوام المـــصابين الفرنسيين. جروا الجثث بعيدًا عن الأحياء. قتلوا ذوى الإصابات الشديدة الذين لا يرجى نجاتهم، أو أولئك الفقراء للغايـــة الـــذين لايستطيعون دفع فديات قيمةٍ، وأنقذوا الأثرياء. التقط هوك سهمًا ذا ريشٍ رمادي وجده عالقًا فى معطف رجـــلٍ مـــستلقٍ علـــى ظهره، وتحرك الرجل فجأةً. كان هوك قد حـــسبه ميتًـــا، لكـــن الرجل أنَّ وأدار وجهه يغطيه قناع الخوذة تجاه رامى الـــسهام. رفع هوك مقدمة الخوذة ورأى عينين فـــزعتين. قـــال الرجـــل بالفرنسية فى صوتٍ نصفِ مختنقٍ:

- ساعدنى.

لم يستطع هوك أن يرى أى جرحٍ أو خرقٍ فى الـــدرع، لكن الرجل صرخ عندما حاول هوك رفعه. عانى الفرنسى ألمًا مبرحًا أفقده وعيه، وتركه هوك يسقط ثانيةً. أخذ السهم وتحرك.

نبح كلبٌ تجاهه. وقف الكلب على جثةٍ عليها معطفٌ تغطيه الدماء. ترك هوك الكلب وحاله، ومضى يبحث، حتى التقط دزينةً أخرى من السهام؛ وألقاها فى جعبة سهامه.

صاح ويل:

- يا نيك!

رفع هوك عينيه ليرى فارسًا فرنسيًا وحيدًا يمتطى فرسه عبر أفراد التشكيلين الأول والثانى المتقهقرين. بدا الراكب قصير القامة ضعيف البنية لا يحمل سلاحًا سوى سيفٍ مغمد، يرتدى دروعًا فولاذيةً لكنه لم يمتطِ حصانًا فحلاً مدرعًا، بل ركب بدلاً من ذلك فرسًا صغيرًا أرقط، زُيِّن معطفه الكتانى الأبيض بفأسين أحمرين يبرق عليهما انعكاس الضوء على سلسلة ذهبيةٍ ثقيلةٍ تتدلى من عنقه. كانت مقدمة خوذته مفتوحة، وبدا أنه يبحث بين الأجساد، لكنه كبح لجام حصانه عندما أيقن أن الرماة يحدقون به.

قال ويل:

- ابن الحرام هذا يريد المشاكل.

قال هوك:

- لا، إنه فقــط يتطلــع إلينا، إنه مجرد شابٍ صــغيرٍ، دعه يهرب.

والتقط سهمًا عريض الرأس، ثم آخر ضيق الرأس، ثــم ألقى نظرةً أخرى إلى الفارس الذى جرد ســيفه فجــأةً وركــل حصانه مندفعًا إلى الأمام، قال هوك:

- ربما يريد بعض المشاكل فعلاً.

أخذ القوس من على كتفه، وأسنده إلى درع صدر إحــدى الجثث، وعقد العقدة العليا للوتر.

توقف الفارس ثانيةً ليحدق هذه المرة فــى كومــة مــن الدروع والجثث. رقد الموتى فوق بعضهم البعض، وبدا الرجل مفتونًا بالمنظر. حدق لوقتٍ طويلٍ ثم صرخ فجأةً صرخة تحــدٍ عاليةٍ حادة، وغمز حصانه الأرقط متجهًا مباشرة إلى هوك. لا يبعد الآن أكثر من عشرين خطوة عن الرماة، ركضت الفــرس مستجيبةً لصاحبها تثير حوافرها الكثير من الوحل خلفها.

قال هوك بغضبٍ:

- ابن زنا غبى.

وضع سهمًا ضيق الرأس على الوتر. رفع قوسه وكذا فعلت دزينةٌ من الرماة بالضبط. ظن هوك أن الرجل سيستدير مبتعدًا ولا شك، لكن الفارس بدلاً من ذلك خفض سيفه موجهًا النصل تجاه هوك الذى سحب الوتر تجاه أذنه اليمنى ولم يفكر حتى فيما فعله. جرى الأمر كله غريزيًا. عاد الوتر إلى الخلف، ورأى الفارس يرتفع ويهبط مع حركة الفرس الأرقط، ورأى مقدمة الخوذة مفتوحة والعينين اللامعتين بشكل غير طبيعى، وأطلق السهم.

اخترق السهم عين الفارس اليمنى، ودفعت قوته رأس الرجل إلى الخلف بعنفٍ. سقط السيف، وأبطأت الفرس ثم توقفت فى حيرةٍ قبالة هوك على بعدٍ لا يزيد على طول رمحٍ قصيرٍ. لم يطلق رام آخر سهامه.

انطلق هتافٌ من الخط الإنجليزى إذ سقط الفارس ببطءٍ من فوق سرجه. استغرق وقتًا طويلاً ليسقط منزلقًا ببطءٍ من الجانب، ثم سقط فجأةً، وأحدثت دروعه ضجةً، قال هوك لهوروكس:

- هات حصانه.

ذهب هوك إلى الجثة، انتزع السهم من عينه الخربة ليتمكن من جذب القلادة الذهبية الغليظة من فوق رأس الرجل الميت، ثم توقفت يده إذ تدلت من القلادة قطعةً ثمينةً منحوتةً من العاج الأبيض مثبتةً على قرصٍ، وعليها ظبيٌ منحوتٌ من الكهرمان.

قال هوك:

- أنت ابن زنا صغيرٌ غبىٌ.

وخلع خوذة الصبى التى كانت كبيرةً عليه، وتطلع إلى الوجه المدمر للسير فيليب دى رويّل.

قال هورروكس وقد فاجأه ذلك:

- إنه مجرد صبى.

قال هوك:

- ما هو إلا ابن زنا صغيرٌ غبىٌ.

- ماذا كان يفعل؟

قال هوك:

- كان شجاعًا لعينًا.

وانتزع القلادة الذهبية الثقيلة، وسار خطواتٍ قليلةً إلى حيث حدق الفتى في كومة الموتى، هنالك جثةٌ ترقد فوق رجلين آخرين ترتدى معطفًا غارقًا فى الدماء، حتى أن هوك لم يستطع فى بادئ الأمر أن يميز الشعار المرتسم عليه، لكنه رأى بعد ذلك خطوط فأسين حمراوين على القماش الأكثر حمرة، كانت خوذة الرجل قد سقطت وشُقَّ حلقه حتى العمود الفقرى، قال هوك لهوروكس:

- لقد أتى بحثًا عن أبيه.

- كيف عرفت ذلك؟

قال هوك:

- لقد عرفت فقط. ابن الحرام الصغير المسكين، كان يبحث عن أبيه وحسب.

ألقى القلادة فى جعبة السهام، والتقط سهمًا آخر ضيق الرأس، واستدار تجاه الصف الإنجليزى.

امتطى الملك حصانه الصغير الأبيض، وقد ارتدى خوذته التى شُقَّت، ومعطفه الذى مزقته النصال، وتطلع ليرى الأعداء بشكلٍ أوضح. رأى الناجين من المذبحة وهم يصارعون متجهين

شمالاً، وخلفهم التشكيل القتالى الثالث، وقد رفعـوا رمـاحهم، وعرف الملك أن الرماة ليس لديهم أى سهام.

ثم جاءه رسول يخبره أن الفرنسيين فى مخـيم الأمتعـة، والتفت الملك فى سرجه ليرى المئات مـن رجالـه يحرسـون الأسرى الفرنسيين الآن. يعلم الرب كم هناك من الأسرى، لكن عددهم يفوق عدد جنوده كثيرًا. تطلع يمنةً ويسرةً. لقد بدأ القتال بتسعمائة جندى، والآن صار الصف العسكرى أكثر ضـآلةً لأن الكثير من الرجال أخذوا أسرى ويقومون بحراسـتهم، وفعـل الرماة مثل ذلك، وانطلق القليل منهم إلى ساحة القتال يجمعـون السهام، واستحسن الملك ذلك، لكنه أدرك أنهم لن يتمكنوا أبـدًا من جمع ما يكفى من السهام لقتل خيول التشكيل القتالى الثالث. شاهد الرجل الفرنسى الأحمق يهاجم الرماة وتجهم عندئذ. هتف رجاله فرحًا بموت ذلك الأحمق الشجاع، ثم نظر مرةً أخرى إلى جيشه.

بدا الملك هنرى مضطربًا. إنه يدرك أن الصف العسكرى سيتجمع مرةً أخرى عندما يهجم التـشكيل القتـالى الفرنـسى الأخير، لكن هنالك الآن المئات من الأسرى خلف ذلك الصف، ولا يزال بإمكان أولئك الأسرى القتال. ليس لديهم خوذاتٌ، وقد أخذت أسلحتهم لكن ما زال بإمكانهم أن يهاجموا مؤخرة صفه.

لقد قيدت أيدى معظمهم، لكن كلهم ليسوا كذلك، ويمكن لمن لم تقيد يداه أن يحرر الآخرين ليلقوا بأنفسهم على صفه العسكرى الضئيل، ثم هنالك ذلك التهديد الذى يمثله الفرنسيون الذين ينهبون متاعه، لكن هذا الأمر يمكن أن يُؤَجَّل. إن الأمر الحيوى الآن هو صد الهجمة الفرنسية الثالثة، ويحتاج من أجل ذلك إلى كل نصلٍ فى جيشه الصغير. ستعرقل المئات من الجثث الخيول المتقدمة، لكنها ستجتاز تلك الجثث فى نهاية المطاف، وبعدها ستطعن الرماح الطويلة فى صفه العسكرى. إنه يحتاج الرجال.

حدق الرجال إلى الملك. رأوه يغلق عينيه، فعلموا أنه يصلى إلى ربه الصارم، الرب الذى حفظ جيشه كثيرًا فى هذا اليوم. صلى الملك هنرى أن تستمر رحمة الرب. تحركت شفتاه بالصلاة ثم أتاه الجواب. وهذا الجواب صادمٌ للغاية حتى أنه لم يفعل أى شىءٍ لوهلةٍ، ثم قال لنفسه إن الرب يتحدث إليه، ولذا فتح عينه وأصدر أوامره:

- اقتلوا الأسرى.

حدق إليه أحد جنود حاشيته. لم يكن واثقًا أنه سمع ما قاله الملك بوضوح، فقال:

- مولاى؟

- اقتلوا الأسرى!

لن يستطيع الأسرى بهذه الطريقة أن يقاتلوا مرةً أخـــرى، وسيضطر الرجال الذين يحرسونـهم للعودة إلى التشكيل القتالى.

صاح الملك هنرى:

- اقتلوهم جميعًا.

وأشار بيده التى تغطيها القفازات إلى الأسرى. قام أحـــد جنوده بمحاولة سريعة لعدهم، وقدر أن هناك أكثر مـــن ألفـــى أسير فرنسى، وإشارة الملك هنرى تشملهم جميعًا. أمر الملـــك هنرى:

- اقتلوهم!

لقد رفع الفرنسيون راية الحرب ترفرف مزدهيةً، وتعـــد بأن لا رحمة بالأعداء، ولذا فلن يُمنَحُوا أى رحمةٍ الآن. سيموت الأسرى.

تجول السير دى لانفيريل بكآبةٍ خلف الصف الإنجليزى. رأى ملك إنجلترا يجلس فوق ظهر حصانه مرتديًا خوذة قتـــالٍ

عليها آثار خدوشٍ، ثم صدم لما رأى دوق أوليانز؛ ابن أخى ملك فرنسا، أسيرًا. لم يكن سوى شاب وسيم ذكى، لكنــه بــدا الآن ذاهلاً ومصابًا وعليلاً، يرتدى معطفًا ملطخًا بالــدماء، ويمــسك رامى سهام يرتدى الزى العسكرى الملكى الإنجليزى بذراعــه بإحكامٍ. قال لانفيريل وهو يهوى على إحدى ركبتيه:

- مولاى.

تساءل أورليون:

- ماذا حدث؟

قال لانفيريل وهو يقف ثانيةً:

- الوحل.

قال الدوق:

- يا إلهى!

وأجفل - ليس من ألم إصابته الشديدة- بل من الخــزى، واستطرد:

-مات ألينسون[١٨] وكذلك بار[١٩] وباربان[٢٠]، ومات سونس[٢١] أيضًا.

---

(١٨) دوق ألينسون: مُنح اللقب إلى الأخ الأصغر للملك الفرنسى. انقضت أسرتان من كونتات ألينسون قبل أن يصبح اللقب فى أسرة ڤالويس والتى حكمت فرنسا. مُنحت ألينسون على أنها إقطاعية إلى بيير ابن لويس التاسع ملك فرنسا عام ١٢٦٨، وبعده إلى تشارلز كونت ڤالويس أخى فيليب الرابع عام ١٢٩٣. أصبحت إقطاعية ألينسون دوقية عام ١٤١٤، وأصبح چين أول دوق لألينسون وقد قتل فى معركة أجنكور ١٤١٥. (المترجم).

(١٩) دوق بار: كانت بار دوقية تاريخية لكل من روما وفرنسا. فى منتصف القرن العاشر أصبحت مقاطعة بار مستقلة للامبراطورية الرومانية. وأول سلالة حكمت بار هم فى الواقع دوقات لوثارنجيا العليا من أسرة كونتات أردينيس. انتهى حكم هذه السلالة بموت الدوق فريدريك الثالث ١٠٣٣ وموت أخته الكونتيسة صوفيا ١٠٩٣، فى القرن الحادى عشر تحول لقب لورد بار إلى كونت بار. (المترجم).

(٢٠) دوق الباربان: أقيمت دوقية الباربان رسميًا عام ١١٨٣/١١٨٤، منح الامبراطوز الألمانى فريدريك بارباروسا لقب دوق الباربان لهنرى الأول. أصبحت دوقية باربان إقطاعية منذ وجود لقب كونت باربان الإقطاعى عام ١٠٨٥/١٠٨٦. أصبح دوق باربان دوق ليمبورج فى عام ١٢٨٨. تم إحياء اللقب ليصبح لقبًا شرفيًا فى مملكة بيلجيوم الحديثة وأصبح مقتصرًا على الأمير فقط. (المترجم).

(٢١) رئيس أساقفة سونس: رئاسة أسقفية الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى سونس هو طقس لاتينى يتم فى فرنسا. تشتمل رئاسة الأسقفية=

تساءل لانفيريل:

- كبير الأساقفة؟

وبدا بشكلٍ ما مصدومًا لموت أميرٍ كنسيٍ أكثر من صدمته لقتل ثلاثةٍ من نبلاء فرنسا كلهم يحمل لقب دوق.

قال الدوق:

- لقد بقروا بطنه يا لانفيريل، بقروا بطنه فقط، وقد مات دى ألبرت كذلك.

- الكونستابل؟

قال أوليانز:

- لقد مات وأسر بوربون.

قال لانفيريل:

- يا إلهى العزيز الرحيم.

ليس لمقتل كونستابل فرنسا، أو لأسر دوق البوربون الذى حاز نصر سواسون، ولكن لأن المارشال بوسيكول يقتاد

=على مقاطعة يون. تم تأسيس الأسقفية فى القرن الأول الميلادى بعد ذلك أصبحت رئاسة أسقفية فى القرن الثالث. (المترجم).

الآن لينضم إلى دوق أوليانز، وهو الذى كان يعد أصلب رجلٍ فى فرنسا.

حدق بوسيكول فى لانفيريل، ثم فى الدوق الملكى، ثم هز رأسه الأشيب، وقال فى تذمرٍ:

- يبدو أن الضيافة الإنجليزية قدرنا الذى لا مهرب منه.

قال لانفيريل:

- لقد أحسنوا معاملتى بما يكفى عندما كنت أسيرًا.

تساءل بوسيكول:

- يا عيسى المسيح، أعليك أن تجد فديةً ثانيةً؟

كان معطفه الأبيض الذى يزينه شعار نسر أحمر ذا رأسين ممزقًا وقد اصطبغ بالدماء. خدشت النصال دروعه التى قضى الليل فى صقلها حتى صار بريقها يخطف الأبصار، وتلطخت بالوحل الآن. استدار ونظر إلى بقية الأسرى نظرةً تملؤها المرارة، وتساءل:

- ما الذى يبدو أنه حدث هناك؟

قال لانفيريل:

- الخمر القوية، والجعة الجيدة، والأمطار بالطبع.

قال بوسيكول بمرارةٍ:

- الأمطار، هذا ما لا يد لنا فيه. الأمطار، والوحل.

لقد نصح بألا يقاتلوا جيش الملك هنرى على الإطلاق سواءٌ كانت هناك أمطار أو لم تكن، وقد ملأه الخوف مما يمكن للرماة الإنجليز أن يفعلوه، وقد قال إن من الأفضل أن يدعوهم يتعثرون حتى يدخلوا إلى كاليه، وأن يحشدوا قوات فرنسا لاسترداد هارفيليه، لكن كل دوق ملكى ممن امتلأت رؤوسهم بالحماس مثل الشاب أورليون أصروا على خوض المعركة. شعر بوسيكول بفورة غضبٍ تغريه أن يمطر الدوق بالاتهامات لكنه قاوم ذلك، وقال بدلاً منه:

- يا لإنجلترا الكئيبة، قل لى هل النساء كئيباتٌ أيضًا؟

قال لانفيريل:

- إنهن كذلك.

قال مارشال فرنسا(٢٢) وهو يحدق إلى السماء الرماديه:

- سأحتاج إلى النساء، أشك أن تستطيع فرنسا دفع فدياتنا، وهو ما يعنى أننا قد نموت جميعًا فى إنجلترا، وسنحتاج إلى شىءٍ ما نزجى به الوقت.

تساءل لانفيريل أين ميليساند؟ أراد فجأةً أن يراها ويتحدث إليها، ولكنه لم ير من النساء سوى حفنةٍ ممن يحضرن الماء للرجال المصابين. كان القساوسة يؤدون الطقوس الدينية الأخيرة لرجالٍ آخرين، بينما الأطباء جاثمون جوار الجرحى يقطعون الأحزمة التى تربط الدروع، ويشدون الفولاذ المسحوق من اللحم المهترئ، ويبقون الرجال الذين يتلوون من الألم المبرح تحت سيطرتهم. رأى لانفيريل أحد رجاله بعد أن ترك أورليون

---

(٢٢) مارشال فرنسا: لقب عسكرى شرفى فى فرنسا الحديثة وليس رتبة عسكرية يُمنح للجنرالات نظير الإنجازات الاستثنائية. وكان اللقب فى العصور القديمة يُمنح لأحد كبار الضباط الملكيين فى فرنسا. يحمل المارشال سبع نجوم. حصل سبعة من مارشالات فرنسا على لقب أكثر تمجيدًا وهو المارشال العام لفرنسا. تم إلغاء اللقب وفقًا للاتفاقية الوطنية عام ١٧٩٣، ثم أُعيد اللقب على يد نابليون الأول خلال أول امبراطورية فرنسية وأصبح اللقب مارشال الامبراطورية ثم عاد اللقب ليصبح مارشال فرنسا. أول من حصل على اللقب هو ألبيرك كليمنت عام ١١٨٥، وتوفى عام ١١٩١. (المترجم).

والمارشال لحراسهم، وذهب، وجثا جوار الرجل، وأجفل لما رأى ساقه اليسرى المحطمة شبه ممزقةٍ من ضربات فأس. ربط أحدهم وتر قوس حول فخذ الرجل لكنّ الدم لا يزال يسيل في نبضاتٍ كثيفةٍ من الجرح المتهتك. قال لانفيريل:

- أنا آسف يا چول.

لم يستطع چول أن يقول شيئًا، بل أدار رأسه من جانبٍ إلى آخر. كان قد عض شفته السفلى بقوةٍ حتى سالت الدماء على ذقنه.

قال لانفيريل:

- ستعيش يا چول.

وراوده الشك فى أنه يقول الحقيقة، واستدار إذ سمع صراخًا غاضبًا.

حدق بارتيابٍ فرأى الرماة الإنجليز يقتلون الأسرى. ظن لانفيريل لوهلةٍ أن الرماة جُنُّوا ولا شك، لكنه رأى جنديًا يرتدى الزى العسكرى الملكى يقودهم. حاول الأسرى الفرنسيون الهرب وهم مكبلو الأيدى، لكن الرماة أمسكوا بهم، وأداروهم، وشقوا حلوقهم بخناجرهم الطويلة. تناثر الدم ليغرق الرماة المتجهمين، بينما أسرع المزيد من الرماة إلى المذبحة بنصالهم

المنهكة. أخذ بعض الجنود الإنجليز أسراهم بعيدًا في محاولة واضحة لحماية مطامحهم في الفديات، بينما استُثنِي النبلاءُ والأسرى الأكثر قيمةً مثل المارشال بوسيكول ودوق أورليون والبوربون من هذه المذبحة، وقتل الباقون بلا رحمةٍ، ثم فهم لانفيريل، لقد خشي ملك إنجلترا أن يهاجم الأسرى مؤخرة الصفوف عندما يبدأ التشكيل الفرنسي الثالث هجومه، ولكي يمنع هذا يقوم بقتل الأسرى، وقد صدم هذا لانفِيريل رغم أنه أدرك هدفه. رأى الرماة آتين تجاهه، فربت على كتف چول، وقال:

- تظاهر أنك ميتٌ يا چول.

لم يستطع التفكير في وسيلةٍ أخرى لمنعهم من قتله، فهو لا يستطيع الدفاع عنه دون أسلحةً، ولذا أسرع بعيدًا باحثًا عن السير چون، إنه متأكدٌ أن السير چون سيحميه، وإذا لم يستطع إيجاد السير چون، سيحاول الوصول إلى غابة ترامكور، ويختبئ في أدغالها المتشابكة.

حاول بعض الأسرى أن يقاتلوا، لكنهم كانوا مجردين من السلاح وقد أسقطهم الرماة بالفؤوس الحربية. تحرك الرماة بمهارةٍ في الوحل، وقتلوا بكفاءةٍ رهيبةٍ. ركب بعض غلمان الفرسان ممن حرسوا الخيول الإنجليزيةً التي كانت تقريبًا ألف

فحل حصانٍ مسرجٍ واقفة عند الطرف الجنوبى للساحة، وحاول حفنةٌ من الأسرى الوصول إليها، لكن الغلمان دفعوهم إلى حيث قتلهم الرماة. تناثرت الدماء والصرخات، وازداد الرعب إذ قتل الرجال، ودفع الآخرون تجاه قاتليهم. أتى المزيد من الرماة للقتل، وتعثر الأسرى عبر الأرض المحروثة بعمقٍ بحثًا عن مهربٍ لا وجود له. ولم يكن ثمة مهربٌ للانفيريل أيضًا. وصل إلى الجناح الأيمن للصف الإنجليزى حيث يقبع كوخ حارس غابةٍ صغيرٍ بين صف الأشجار. تعالت ألسنة اللهب من الكوخ وسمع صرخات الرجال المحتضرين تأتى من بين اللهب والدخان الكثيف. رأى الرماة الذين أشعلوا النيران فى الكوخ لانفيريل وتوجهوا نحوه، فانعطف جهة الشمال ليرى المزيد من الرماة بينه وبين التشكيل العسكرى الإنجليزى حيث ترفرف راية السير چون، وبعد ذلك رأى قامة نيكولاس هوك الضخمة ووجهه الأسمر مما منحه شعورًا بالارتياح.

صاح:

- هوك!

لكن هوك لم يسمعه، فصاح:

- ميليساند!

صاح باسم ابنته آملاً أن يخترق صياحه باسمها هياج الصرخات. دوت الأبواق مرةً أخرى تستدعى الرجال الإنجليز إلى راياتهم. صاح فى يأسٍ:

- هوك!

تساءل رجلٌ:

- ماذا تريد من هوك!

واستدار لانفيريل ليرى أربعةً من الرماة فى مواجهته، كان المتحدث رجلاً طويلاً نحيلاً ذا فكٍ طويلٍ ضيقٍ يمسك فأسًا داميةً. تساءل الرجل:

- أتعرف هوك؟

تراجع لانفيريل مبتعدًا.

قال الرجل وهو يتبع لانفيريل:

- لقد سألتك سؤالاً.

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ واسعةٌ، وقد أمتعه الخوف الذى ارتسم على وجه الرجل الفرنسى.

- ثرى، أليس كذلك؟ لأنك لو كنت ثريًا لربما نتركك حيًا. لكن يجب أن تكون ثريًا جدًا.

طوح بفأسه الحربية تجاه ساقى لانفيريل آملاً أن يصيب ركبته فيسقط الرجل الفرنسى، لكن لانفيريل خطا متراجعًا إلى الخلف دون أن يسقط، وهكذا تفادى الضربة وتمايل ليحتفظ بتوازنه فى الوحل.

قال بيأسٍ:

- أنا ثرىٌ، ثرىٌ جدًا.

قال رامى السهام لرفاقه:

- إنه يتحدث الإنجليزية، إنه ثرىٌ، ويتحدث الإنجليزية.

وطعن بفأسه الحربية فضرب طرفها المدبب فى درع فخذ لانفيريل اليسرى لكن الدرع قاومت الضربة، وانزلق الطرف المدبب عن فخذ لانفيريل. تساءل الرجل وهو يسحب الفأس لضربةٍ أخرى:

- إذن لماذا تنادى على هوك؟

رفع لانفيريل يديه فى إشارة استرضاءٍ، وقال:

- أنا أسيره.

ضحك الرجل الطويل.

– صديقنا نيك: أخذ أسيرًا غنيًا، حقًا؟ هذا لن يحدث أبدًا.

طعن بفأسه الحربية ضاربًا بطرفها المدبب على دروع صدر لانفيريل الذى تمايل إلى الخلف، لكنه –للمرة الثانية– لم يسقط. تطلع حوله بيأسٍ يحدوه الأمل أن يرى سلاحًا واقعًا على الأرض. ابتسم الرامى الإنجليزى الطويل ابتسامةً عريضةً إذ رأى الخوف على وجه الرجل الفرنسى الذى تلطخه الدماء. كان رامى السهام يرتدى درعًا فوقها معطف قد تمزق فبرزت منه كتلٌ من الحشوة الصوفية، وقد غمرتها الدماء. أزال المطر شعار القديس چورچ الأحمر، ولذا فقد بدا من تحته شعار الهلال والنجوم. قال الرجل:

– لا يمكننا ترك نيك هوك يصير ثريًا.

ورفع فأسه مستعدًا ليسقطها على رأس لانفيريل العارى.

رأى لانفيريل السيف ساعتها بالضبط؛ سيفٌ قصيرٌ غير متقن الصنع، سيفٌ رخيصٌ يلف فى الهواء، وظن لوهلةٍ أن السيف ملقى عليه، ثم أيقن أنه ملقى إليه. دار النصل متجهًا نحو كتف رامى السهام الطويل. التقطه لانفيريل، وأمسك مقبضه بطريقةٍ ما، لكن الفأس كانت فى طريقها هابطة بالفعل تدفعها

قوة رامى السهام الهائلة، ولم يبقَ لدى لانفيريل وقتٌ للتفـادى، ولم يكن أمامه إلا أن يلقى بنفسه إلى الأمام داخل مـدى دوران النصل. ألقى بثقل جسده الذى تغطيه الدروع على صدر رامـى السهام ليلقى به إلى الخلف. ضربت يد الفأس عضده اليـسرى. دفع لانفيريل السيف فى ضربةٍ ضعيفةٍ طاشت على جعبة سهامَ الرجل. ضربه رامٍ آخر بفأسٍ حربيةٍ، لكن لانفيريل قد اسـتفاق الآن، فأزاح الضربة بعيدًا بنصله، ورد عليها بـسرعةٍ فائقـةٍ بضربةٍ قطعت وجه الرجل الثانى. دار الرجل حول نفسه مبتعدًا والدم يتدفق من أنفه المحطم ووجنته المقطوعة، بينمـا خطـا لانفيريل إلى الخلف، واستعد بسيفه لمواجهة الرجل الطويل.

وقف ثلاثةٌ من الرماة يواجهون لانفيريل الآن، لكن اثنان منهما فقدا رغبتهما فى القتال تاركين الرجل الطويـل وحـده. تطلع حوله ليرى هوك يقترب، فبصق تجاه هوك قائلاً:

- يا ابن الحرام، لقد أعطيته أنت ذلك السيف!

قال هوك :

- إنه أسيرى.

- وقال الملك أن نقتل الأسرى!

قال هوك:

- إذن اقتله يا توم، اقتله!

تطلع توم بيريل مرةً أخرى إلى الرجل الفرنـــسى، ورأى النظرة الوحشية التى تطل من عينيه، وتذكر السرعة التى راوغ الرجل بها، وتصديه للضربات، فخفض فأسه، وزمجر قائلاً:

- اقتله أنت يا هوك.

تحدث هوك إلى لانفيريل الآن قائلاً:

- يا سيدى اللورد، لقد تقاضى هذا الرجل مالاً ليغتــصب ابنتك، لقد فشل، لكنه طالما بقى حيًّــا فــإن عزيزتــك ميليساند فى خطرٍ.

قال لانفيريل:

- إذن اقتله.

- لقد عاهدت الرب ألا أفعل.

قال لانفيريل:

- لكننى لم أعاهد الرب على شىءٍ.

طوح بالسيف الرخيص فى وجه توم بيريل دافعًا رامـــى السهام إلى الخلف، حدق بيريل تجاه هوك وقد فتح عينيه عــن

آخرهما غير قادرٍ على إخفاء خوفه ودهشته، ثم استدار إلى لانفيريل الذى ابتسم، إن سلاح الرجل الفرنسى صغيرٌ ورخيصٌ ويقل مداه كثيرًا عن مدى الفأس الحربية، لكن لانفيريل أبدى ثقةً فرحةً وهو يخطو إلى الأمام.

صاح بيريل فى رفاقه:

– اقتلوه!

لكن لم يتحرك أحدٌ منهم. دفع بيريل الفأس إلى الأمام فى طعنةٍ يائسةٍ إلى خصر لانفيريل. أزاح الرجل الفرنسى النصل جانبًا بسهولةٍ تنم عن ازدراء، ثم رفع السيف ببساطةٍ، وطعن به.

شق النصل حلق بيريل، وبدأ الدم يتدفق. حدق رامى السهام فى قاتله، وخرج لسانه ببطءٍ، وجرى الدم من فمه كثيفًا، وجرى على السيف ليغرق يد لانفيريل التى لم تكن تغطيها القفازات. بقى الرجلان لوهلةٍ بلا حراكٍ، ثم سقط بيريل، وسحب لانفيريل النصل، وألقى به إلى هوك.

امتطى جندىٌ يرتدى الزى العسكرى الملكى حصانه خلف الصف العسكرى، وصاح فى رماة الأسهم:

– كفى! كفى! كفى! أوقفوا القتل! كفوا! كفى!

سار هوك عائدًا إلى التشكيل العسكرى.

رأى السحب الرمادية تغطى أرض أزينكورت المحروثة.

رأى أمام الجيش الإنجليزى ساحةً من الموتى والرجال المحتضرين، ودار بخلد هوك أن عدد القتلى يزيد على عدد الرجال الذين أتى بهم الملك إلى ساحة الذبح هذه. رقدوا متشابكين تغطيهم الدماء، موتى لا حصر لهم استلقوا ملطخين بالدم، جثثٌ تغطيها الدروع؛ ممزقين ومطعونين ومسحوقين. رجالٌ وخيولٌ، أسلحةٌ ملقاةٌ، ورايات سقطت، وآمالٌ ماتت، حقلٌ بُذِر بالحنطة الشتائية قد أثمر حصادًا من الدم.

وهناك فى نهاية ذلك الحقل، خلف الموتى، وخلف المحتضرين والنائحين كان التشكيل الفرنسى القتالى الثالث يستدير راجلاً.

وكان بأس فرنسا يزوى كذلك. اتجه الرجال شمالاً تاركين أزينكورت، وقد امتطوا خيولهم ليهربوا من الجيش الصغير المضحك الذى بث الرعب فى عالمهم.

لقد انتهى كل شىءٍ.

الخاتمة

ملأت دقات أجراس الكنائس، والهتافات، والغناء صفحة السماء المشرقة الباردة فى ذلك اليوم من شهر نوفمبر.

لم ير هوك مثل هذا الزحام من قبل. احتفلت لندن بملكها وانتصاره. امتلأت خزانات الماء بالخمر، وأقيمت بوابات النصر وأقواس الزينة على نواصى الشوارع. ارتدت جوقات الصبية المنشدين ملابس الملائكة، وبدا العجائز كالرسل، والفتيات كالعذراوات، وغنوا جميعًا مدائح وأناشيد النصر. سار الملك ممتطيًا حصانه وسط ذلك كله مرتديًا أبهى الثياب دون تاجٍ ولا صولجانٍ يتبعه نبلاء فرنسا وبورجوندى؛ تشارلز دوق أوليانز ودوق البوربون ومارشال فرنسا والمزيد ممن يحملون لقب دوق، وعددٌ لا يحصى ممن يحملون لقب كونت، وتعرضوا كلهم لسخريةِ الحشود. ركض الصبية الصغار جوار الخيول التى يمتطيهاً الرماة الذين يقومون بحراسة الأسرى، ومدوا أيديهم ليلمسوا الأقواس المغطاة بجعابها والسيوف المغمدة متسائلين:

– أكنت هناك؟ أكنت هناك؟

أجاب هوك:.

- كنتُ هناك.

ورغم ذلك ترك الموكب والهتاف والغناء والحمام الأبيض المحلق.

توجه مع أربعةٍ من رفاقه إلى الشوارع الصغيرة التى تقع شمال تشيبسايد. قادهم الأب كريستوفر مصطحبًا المجموعة إلى أزقةٍ أصغر فأصغر، أزقة ضيقة للغاية حتى أنهم اضطروا إلى السيرِ بخيولهم فى صفٍ منفردٍ، وأحنوا رؤوسهم حتى لا تصطدم بالعوارض التى تبرز من طوابق المنازل الخشبية. ارتدى هوك معطفًا مدرعًا، واثنين من السراويل القصيرة ليتقى البرد، ومعطفًا مبطنًا من أجل الدفء، وحذاءً طويل الرقبة أخذه من كونتِ ميتِ فى أزينكورت، وفوق ذلك كله، معطفًا جديدًا يزينه شعارُ السيرِ چون؛ الأسد الفخور. والتَفَّت حول رقبة هوك سلسلةً ذهبيةً تشير إلى رتبته؛ رقيب رماة السير چون كورنويل، تدلت من الجزء المقوس من سرجه خوذته المصنوعة من فولاذ ميلان، وعليها ندبةٌ خفيفةٌ إثر ضربة فأسٍ، معه سيفٌ مصنوعٌ من بوردو، زُيِّن مقبضه بنقش لحصانٍ؛ شعار الرجل الفرنسى الذى أخذ منه السيف والخوذة. قال لصبيٍ صغيرٍ رث الملابس:

- لقد كنتُ هناك، لقد كنا جميعًا هناك.

ثم تبع الأب كريستوفر حول الزاوية، وانحنى تحتَ فرع شجيرةٍ كثيفٍ؛ يافطة حانةٍ، ودخل إلى ميدانٍ صغيرٍ نتن الرائحة بمياه المجارى التى تسرى فى قنواته المكشوفة. ثمة كنيسةٌ فى الجانب الشمالى من الميدان؛ كنيسةٌ بائسةٌ صُنِعت جدرانها من أغصانٍ مجدولةٍ مغطاةٍ بالطين، وبرجها البائس مشيد من الأخشاب. عُلِق على ذلك البرج جرسٌ وحيدٌ، يدق ببطءٍ متداخلاً مع الضوضاء المتناثرة للحشود التى تهلل لنصر إنجلترا. قال الأب كريستوفر وهو يومئ إلى الكنيسة الصغيرة:

– ها هى ذى.

ترجل هوك ودفع صبيًا فضوليًا آخر ليبعده، ثم ساعد ميليساند لتترجل من على حصانها. كانت قد ارتدت فستانًا من القطيفة الزرقاء أعطته إياها ليدى باردولف زوجة حاكم كاليه، وفوقه معطف من الكتان الأبيض مبطن بالصوف، له حوافٌ من فراء الثعالب. ترنح شحاذٌ فوق عكازين خشبيين نحوها فألقت فى يده الممدودة إليها عملةً معدنيةً، ثم تبعت هوك والأب كريستوفر إلى داخل الكنيسة. سأل صبىٌ آخرَ من ترجل من الرجال:

– أكنت هناك؟

قال لانفيريل:

- لقد كنتُ هناك.

وتوقف الرجل الفرنسى ليعطى عملةً معدنيةً إلى ويل الذى بقى بالخارج ليحرس الخيول.

غطت أخشاب الأسل أرضية الكنيسة، وكسا البلاط أرضية موضع الجوقة فقط. بدا الداخل معتمًا لأن البنايات المحيطة حجبت أى ضوءٍ يمكن أن يدخل عبر النوافذ التى لا يكسوها الزجاج. وجدوا القسيس يدق الجرس، لكنه توقف عندما رأى الرجال الثلاثة والمرأة المرتدية ثيابًا فخمةً يدخلون إلى كنيسته الصغيرة. اعترت القس بعض العصبية من مرأى هؤلاء الغرباء، لكنه تعرف الأب كريستوفر فى أرديته السوداء الثمينة، فقال وفى صوته دهشةٌ:

- لقد عدت مرةً أخرى أيها الأب.

قال الأب كريستوفر بلطفٍ:

- لقد أخبرتك أننى سأعود.

قال القس:

- إذن أهلاً بكم جميعًا.

كان المذبح الرئيس مجرد منضدة خشبية مغطاة بقماشٍ كتاني رثٍ يقف عليه صليبٌ نحاسيٌ مطليٌ بماء الذهب، واثنان من الشمعدان الفارغة. وكان خلف المذبح ستارةٌ جلديةٌ عليها لوحةٌ رديئةٌ تصور ملاكين يركعان على ركبتيهما للرب. ركع الزوار الأربعة فى خشوع لفترة قصيرةٍ ورسموا علامة الصليب، ثم أمسك الأب كريستوفر بمرفق هوك، وأخذه إلى الجانب الجنوبى من الكنيسة حيث يقوم مذبحٌ آخر. بدا المذبح الثانى أسوأ حالاً من الأول فلم يكن سوى منضدةٍ متهدمةٍ فوقها صليبٌ خشبىٌ دون أى شمعدان. كانت إحدى ساقى المسيح محطمةً فصار معلقًا على صليبه بساقٍ واحدةٍ، فوقه لوحةٌ جلديةٌ لامرأةٍ فى رداءٍ أبيضٍ رغم أن اللون الأبيض تساقط بعضه، وبهت الآخر، وتساقطت الهالة الصفراء التى تحيط بها بالكامل تقريبًا.

حدّق هوك فى المرأة، ورأى فى الإضاءة المعتمة واللوحة البالية وجهها الطويل الحزين، وسأل الأب كريستوفر:

- كيف عرفتَ أنها هنا؟

قال القس مبتسمًا:

- "لقد سألتُ، دائمًا ما تجد شخصًا ما يعلـــم بـــالحوادث الغريبة التى تحدث فى لندن، لقد وجدتُ ذلك الرجـــل، وسألتُه.

تساءل السير دى لانفيريل:

- حدثٌ غريبٌ؟

قال الأب كريستوفر:

- أنا متأكدٌ أن هذا هو الضريح الوحيد للقديسة سارة فى المدينة كلها.

قال القس الإبرشى:

- إنه كذلك.

بدا القس رث الثياب، يقف مرتعدًا فى ردائه البالى، وقد امتلأ وجهه بندوب الجدرى.

ابتسم لانفيريل ابتسامةً قصيرةً، وقال:

- سارة؟ قديسة فرنسية؟

قال الأب كريستوفر:

- ربما، يقول البعض إنها خادمة مريم المجدلية، ويقول البعض إنها وفرت ملاذاً للمجدلية فى منزلها فى فرنسا، لا أعلم.

قاطعهم هوك بحدةٍ قائلاً:

- إنها شهيدة، لقد ماتت غير بعيدٍ من هنا، قتلها أحد الرجال الأشرار، ولم أنقذ حياتها.

أومأ إلى ميليساند التى توجهت إلى المذبح، وركعت على ركبتها هناك، وأخذت كيس نقودها الجلدى من تحت معطفها، ووضعت الكيس على المذبح.

قالت للقسيس:

- هذا من أجل سارة، يا أبتى.

أخذ القس الكيس، وفتحه. اتسعت عيناه ونظر إلى ميليساند فى شيءٍ من الخوف، كأنه توقع أن تغير رأيها وتسترد الذهب.

قالت:

- لقد أَخَذتُهُم من الرجل الذى اغتصب سارة.

جثا القس على ركبتيه، ورسم علامة الصليب، إن اسمه روچر، وقد تحدث الأب كريستوفر معه فى الأمس، وطمأن هوك بعدها أن الأب روچر رجلٌ طيبٌ. قال الأب كريستوفر:

- رجلٌ طيبٌ وأحمقٌ بالطبع.

تساءل هوك:

- أحمق؟

- يوقن أن الوُدُعَاء سيرثون الأرض، ويؤمن أن مهمة الكنيسة هى إراحة المرضى، وإطعام الجوعى، وكساء العرايا، أتعلم أنى وجدت زوجتك عاريةً تمامًا؟

قال هوك:

- دائمًا ما كنت رجلاً محظوظًا، إذن ما هى مهمة الكنيسة؟

قال بلطفٍ:

- هى إراحة الأثرياء، وإطعام الممتلئة بطونهم، وكساء الأساقفة بأبهى الثياب بالطبع، لكن الأب روچر لا يزال متمسكًا برؤية المسيح المخلص، إنه أحمقٌ كما قلت.

ربت هوك على كتف الأحمق قائلاً:

- أيها الأب روچر؟

- سيدى اللورد؟

قال هوك:

- أنا لست لوردًا، أنا مجرد رامى سهام، وستأخذ أنت هذه.

وأمسك بالسلسلة الذهبية الغليظة التى يتدلى منها شعار الظبى، واستطرد:

- وبالنقود التى ستحصل عليها من بيعها ستنشأ مذبحًا للقديسين كريسبين وكريسبينيان.

قال الأب روچر:

- نعم.

ثم قَطَّبَ، لأن هوك لم يفلت السلسلة الرائعة.

قال هوك:

- وستقرأ قداسًا كل يومٍ من أجل روح سارة التى قضت نحبها.

قال القس:

- نعم.

لم يفلت هوك السلسلة بعد.

قالت ميليساند مقترحةً:

- وصلاة من أجل أخيك؟

قال هوك:

- سيصلي الملك من أجل مايكل، ولن يحتاج أكثر من ذلك. قداسٌ يوميٌّ من أجل سارة أيها الأب.

قال الأب روچر:

- سَأُنفِذُ هذا.

قال هوك يختبر القس:

- لقد كانت زنديقةً.

ابتسم الأب روچر ابتسامةً بسيطةً سريعةً، وقال:

- إذن سأتلو قداسًا من أجلها مرتين كل يومٍ.

ومن ثم أفلت هوك الذهب.

دقت الأجراس، ترددت ترنيمة (من أجل الرب)[1] فى أديرة الكنيسة وكاتدرائياتها. قدموا الشكر والمدائح إلى الرب، لأن جيوش إنجلترا أبحرت إلى نورماندى، ثم زُجَّ بها إلى زاويةٍ من بيكاردى حيث واجهت هناك موت ملكها المحقق وجيشه.

لكن السهام تطايرت بعد ذلك.

أخذ هوك وميليساند الطريق المتجه غربًا. كانوا فى الطريق إلى منزلهما.

---

(١) **ترنيمة من أجل الرب**: هى ترنيمة مسيحية قديمة لتمجيد الإله. تنشد بانتظام فى الكنيسة الكاثوليكية فى صلوات شكر الرب للنعم الخاصة مثل اختيار البابا وترسيم الأسقف وتمجيد القديس وتتويج الملك. ينسب تأليفها إلى القديسين أمبروس وأغوسطين بمناسبة تعميد أوغسطين على يد أمبروس عام ٣٨٧، أصبحت الترنيمة بعد ذلك لتمجيد اسم الرب والمسيح وتذكر ميلاده ومعاناته وموته وبعثه يطلب فيها المنشد والكنيسة الرحمة والمغفرة للذنوب الماضية والحماية من الآثام المستقبلية والرجاء من أجل التوحد مع المختار من قِبَل الرب. قام العديد من الموسيقيين بوضع لحن للنص أمثال هايدن وموزارت وڤيردى. (المترجم).

نبذة تاريخية

كانت معركة أجنكور –والهجاء الفرنسي لها كان ولا يزال هو أزينكور– إحدى أبرز الأحداث في العصور الوسطى في أوروبا وقد فاقت شهرتها أهميتها بكثيرٍ. ولم ينل مثل تلك الشهرة في تاريخ الحروب الأنجلو–فرنسية سوى هاستنجز وواترلو[1] وترافلجار[2] وكريسي ويمكن الجدال حول

---

(١) معركة واترلو: وقعت في ١٨ يونيو عام ١٨١٥ في بلجيكا، حاليًا تقع جنوب بروكسل. هي آخر معارك القائد الفرنسي نابليون بونابرت التي هُزم فيها شر هزيمة على يد قوات التحالف السابع (بروسيا، المملكة المتحدة، هولندا المتحدة، مملكة هانوفر، ناساو، برونزيك) لدرجة أن الإنجليز يصفون الشخص الذي يعاني من سوء الحظ بأنه صادف واترلو. وهذه المعركة قد فرضها نابليون على الحلفاء بعد فراره من منفاه في جزيرة ألبا، واضطر أعضاء مؤتمر فيينا إلى إنهاء المؤتمر والتفرغ لحرب نابليون الذي اعتبروه مجرمًا. (المترجم).

(٢) معركة ترافلجار (طرف الغار): تعرف بشكل خاطئ بمعركة الطرف الأغر، وقعت في ٢١ أكتوبر ١٨٠٥، وهي معركة بحرية في المحيط الأطلسي قرب رأس طرف الغار في قادش جنوب غرب إسبانيا حيث واجه الأسطول البريطاني بقيادة الأدميرال هوراتيو نيلسون حلف=

أن بواتييه هي المعركة الحربية الأهم، وهي النصر الحربي الأكثر اكتمالاً، أو أن ڤيرنويل[٣] تضاهيها في الانتصار المذهل، ومن المؤكد أن معارك هاستنجز وبلينهايم[٤]

= الأسطولين الفرنسي والأسباني بقيادة الأدميرال بيير شارلز الفرنسي. انتصرت البحرية الملكية البريطانية وقد سمي ميدان ترافلجار في لندن باسم هذه المعركة تخليدًا لانتصار ويلسون أثناء الحرب عام ١٨٠٥ ، كانت القوة العسكرية المهيمنة على الأرض في القارة الأوروبية هي الإمبراطورية الفرنسية تحت حكم نابليون في حين سيطرت البحرية الملكية البريطانية على البحار. لقد فرضت الأخرى حصارًا بحريًا على فرنسا أثر على التجارة وأبقى فرنسا خالية تمامًا من تعبئة الموارد البحرية الخاصة بها وهكذا اضطر نابليون إلى الهجوم على الأرض. (المترجم).

(٣) معركة ڤيرنويل: واحدة من أهم المعارك الاستراتيجية التي دارت في حرب المائة عام، وقعت في نورماندي ١٧ أغسطس ١٤٢٤، تحالفت فيها المملكة الفرنسية مع مملكة اسكتلندا ضد المملكة البريطانية ودوقية بورجوندي. حققت فيها بريطانيا انتصارًا مهمًا. كان معركة دامية وصفها الإنجليز بأنها معركة أجنكور الثانية. (المترجم).

(٤) معركة بلينهايم: دارت في ١٣ أغسطس ١٧٠٤، بالقرب من باڤاريا في ألمانيا بين الحلف الفرنسي و باڤاريا ضد قوات التحالف الكبير (بريطانيا والإمبراطورية الرومانية)، وانتصرت قوات التحالف الكبير. هي معركة أساسية في حرب الخلافة الأسبانية. سعى لويس الرابع عشر إلى هزيمة الإمبراطور ليوبولد والاستيلاء على ڤيينا. كانت المخاطر تحاصر ڤيينا من كل اتجاه لذا قرر دوق مارلبورو أن يخفف=

وڤيكتوريا(٥) وترافلجار وواترلو كانت أشد تأثيرًا على مجـــرى التاريخ، ولكن يبقى لأجنكور مكانتها الاستثنائية فـــى الملاحـــم الإنجليزية. لقد حدث شيءٌ استثنائى فى ٢٥ أكتوبر عام ١٤١٥ -حدثت معركة أجنكور قبل انتقال العالم المسيحى إلى الطـــراز الجديد للتقويم بفترةٍ طويلةٍ، ولذا يجب أن تكون الذكرى السنوية الحديثة لها فى ٤ نوفمبر- لقد كانت حدثًا متفردًا جدًا لدرجة أن شهرتها استمرت ما يناهز السبعمائة عام التالية لها.

قد تكون شهرة أجنكور محض مصادفة، حدث تـــاريخى عارض أكدته عبقرية شكسبير، ولكن الدلائل تشير إلـــى أنهـــا كانت حقًا معركةً حربيةً بعثت موجة من الفزع فى أوروبا. وقد أطلق الفرنسيون لأعوام طوال على يوم ٢٥ أكتوبر عام ١٤١٥ اسم (اليوم التعيس)، وظلوا يتذكرون ذلك اليوم بحزنٍ حتى بعد أن طردوا الإنجليز من فرنسا. لقد كانت كارثةً.

= من وطنة هذا الخطر بأن قاد قواته جنوبًا كى يـــساعد الإمبراطـــور ليوبولد وقوات التحالف الكبير. (المترجم).

(٥) معركة ڤيكتوريا: معركة دارت يوم ٢١ يونيو ١٨١٣، فى ڤيتوريا فى أسبانيا بين الامبراطورية الفرنسية بقيادة چوزيف بونابرت والمرشـــال چين المعمدانى جوردان وقوات التحالف (المملكة المتحدة، والبرتغال، وأسبانيا). انتصرت قوات التحالف بقيادة الجنرال مركيز ويلنجتون وقد أدت إلى نهاية الحرب الدائرة بينهم. (المترجم).

إلا أن تلك المعركة كادت أن تكون كارثة لهنرى الخامس وجيشه الذى كان صغيرًا لكنه جيد التسليح. لقد أبحر ذلك الجيش من مياه ساوث-هامبتون يحمل آمالاً عظامًا على رأسها الاستيلاء على هارفليه، ثم الزحف إلى قلب الأرض الفرنسية يحدوه أملٌ فى جر الفرنسيين إلى معركةٍ. وكان النصر فى تلك المعركة سيبرهن -على الأقل فى ذهن الملك هنرى الورع- على وقوف الرب إلى جواره فى مطالبته بالعرش الفرنسى، وربما يدفعه حتى إلى اعتلاء ذلك العرش. لم تكن مثل تلك الآمال عبثيةً عندما كان جيشه سليمًا، لكن حصار هارفيليه استغرق أكثر من المتوقع، وكادت الدوسنتاريا أن تدمر جيش الملك هنرى.

إن قصة الحصار فى الرواية دقيقة بشكلٍ عامٍ، على الرغم من أننى أطلقت العنان لخيالى إلى حد بعيد فى قصة حفر نفقٍ مقابل بوابة ليور. لم يكن ثمة نفقٌ كهذا، فالأرض لم تكن لتسمح بذلك، وقد حفرت قوات دوق كلارينس كل الأنفاق الحقيقية، وتلك القوات هى التى هاجمت الجانب الشرقى من هارفليه. وقد تمكنت الأنفاق الدفاعية العكسية الفرنسية من هزيمة هؤلاء الحفارين لكننى أردت أن أعبر-بقدر استطاعتى-

عن رعب الرجال وهم يتقاتلون تحت الأرض، لقد كان دفـاع هارفيليه رائعًا، ويرجع الفضل الأعظـم فيـه إلـى راؤول دو جوكور أحد قادة الحصن الدفاعى، وقد مكنت مقاومته، والأيـام الطويلة للحصار، الفرنسيين من جمع جيشٍ لقتال الملك هنرى، ولو كان الحصار قد انتهى مع بدايات سبتمبر لما صار الجيش الفرنسى بتلك الدرجة التى أصبح عليها من الضخامة.

استسلمت هارفيليه فى النهاية ولم يحـدث بهـا النهـب والرعب الذى تلا سقوط سواسون فى عام ١٤١٤.

كان ذلك حدثًا آخر صادمًا لأوروبا رغم أنه فـى حالـة سواسون كان السلوك البربرى للجيش الفرنسى تجاه مواطنيـه، هو مصدر ذلك الشعور بالصدمة. ثمة شائعةٌ تقول إن المرتزقة الإنجليز أخذوا المال ليخونوا المدينة، وهو ما يفسر تـصرفات الشخصية الخيالية السير روچر بالبير، ولكن دلالة سواسون فى سياق حملة أجنكور تكمن فى القديسين الحاميين لها؛ كريـسبين وكريسبينيان اللذين كان يوم عيـدهما فـى الواقـع فـى ٢٥ أكتوبر، وقد مثلت الأحداث التى دارت فى عيد القديس كريسبين عام ١٤١٥ بالنسبة إلى العديد من الأوروبيين انتقامًـا سـماويًا للرعب الذى صاحب نهب سواسون عام ١٤١٤.

وقد كان من المنطقى أن يتخلى الملك هنرى عن التفكير فى حملات أخرى بعد استسلام هارفيليه. كان بإمكانه فقط أن يقيم حاميةً على المرفأ الذى استولى عليه حديثًا، ويبحر عائدًا إلى الوطن؛ إنجلترا ولكن هذا الموقف كان سيعد هزيمةً مُقَنَّعَة، فأن ينفق كل هذه الأموال، ولا يحوز مقابلها إلا على ميناءٍ نورمانديٍ، كان سيبدو منجزًا تافهًا وبلا قيمة أيضًا، وعلى الرغم من الخسارة التى منيت بها فرنسا بفقدان ميناء هارفيليه فإن استيلاء هنرى على الميناء لم يكن ليمنحه قوة تفاوضية، صحيح أن المدينة صارت إنجليزية فى تلك اللحظة -وستبقى كذلك لعشرين عامًا أخرى- لكن الاستيلاء عليها قد أضاع وقتًا ثمينًا، كما أن الملك هنرى اضطر إل ترك بعض جنوده حاميةً للمدينة المدمرة، ولذا ففى الوقت الذى بدأ الإنجليز فيه غارتهم داخل فرنسا، أصبح نصف جيشهم تقريبًا هو القادر على التقدم. لكن هنرى قرر الزحف. رفض النصيحة العاقلة بوقف الحملة، وألقى على جيشه الضئيل المريض عبء الزحف من هارفيليه إلى كاليه.

لم يبدُ الأمر فى ظاهره تحديًا هائلاً، فالمسافة كانت حوالى ١٢٠ ميلاً، وقد كان من المتوقع أن يقطع الجيش الرحلة فى ثمانية أيام وقد حُمِل بأكمله على ظهور الخيل. لم يقم الجيش بالنهب، فلم يكن لدى هنرى العتاد ولا الوقت ليحاصر المدن

المحصنة والقلاع التى تقع فى طريقه –والتى أخفى داخلها أى شىءٍ ذى قيمةٍ مع اقتراب الإنجليز– كما أنه لم يكن كذلك غزوًا تقليديًا: لم يكن إحدى تلك الغزوات التخريبية التى قامت بها الجيوش الإنجليزية عبر فرنسا، حيث تدمر الجيوش الإنجليزية كل ما فى طريقها أملاً فى دفع الفرنسيين إلى معركةٍ، ويراودنى الشك أن هنرى كان يأمل فى دفع الفرنسيين إلى معركةٍ، لأنه كان يدرك، ولا شك، ضعف جيشه رغم إيمانه الحار بدعم الرب له، فلو أنه أراد معركةً لحاول التقدم مباشرة إلى داخل الأراضى الفرنسية، لكنه بدلاً من ذلك سلك طريقًا بمحاذاة الشاطئ. يبدو لى الأمر كأنه حاول جَدْعَ أنفهم، ففى نهاية حصارٍ لم تؤت ثماره توقع مهانة العودة إلى إنجلترا دون إنجاز عظيم، فإن هنرى رغب فى إذلال الفرنسيين ليس أكثر بأن يظهر أنه استطاع الزحف عبر بلادهم دون مقاومةٍ.

وقد كان سينال هذا الاستعراض لو كانت المستنقعات الضحلة عند بلانشتك دون حراسةٍ، فلكى يصل إلى كاليه فى ثمانية أيام كان عليه عبور نهر سوم بسرعةٍ، لكن الفرنسيين قاموا بسد المعابر، وهكذا اقتيد هنرى إلى عمق الأراضى الفرنسية بحثًا عن معبرٍ آخر فامتدت الأيام من ثمانية إلى ثمانية عشر يومًا –أو ستة عشر، إذ يختلف المؤرخون كثيرًا حول

اليوم الذى غادر الجيش فيه هارفيليه- ونفد الطعام، وحشد الفرنسيون جيشهم فى النهاية، وتحركوا ليقتنصوا الإنجليز ذوا الحظ العثر.

وهكذا قابل جيش هنرى الصغير بشكلٍ مضحك أعداءهم على هضبة أجنكور فى عيد القديس كريسبين عام ١٤١٥، دون أن يعلموا أن جيشهم يتقدم نحو أسطورة.

وعندما كتب السير چون كيجان[٦] كتابه الرائع: وجه المعركة فى عام ١٩٧٦ قال عن أجنكور:

-إن أحداث حملة أجنكور -من وجهة نظر التاريخ العسكرى- كانت واضحة لأقصى حد فهناك الحد الأدنى للالتباس بشأن الأعداد التى احتشدت.

---

(٦) السير چون كيجان: هو إنجليزى الأصل، ولد فى ١٥ مايو ١٩٣٤ يبلغ الآن من العمر ٧٧ عامًا. عمل عسكريًا ومؤرخًا ومحاضرًا وكاتبًا وصحفيًا. نشرت له عدة أعمال حول طبيعة الاختلاف بين القرن الرابع عشر والقرن الحادى والعشرين بما فى ذلك طبيعة الأرض والهواء والملاحة والحرب وسيكولوچيا المعارك. تم اختياره فى عام ١٩٨٦، فى زمالة الجمعية الملكية للأدب. مُنح درجة الدكتوراه الفخرية فى الآداب عام ٢٠٠٢ من جامعة باث. (المترجم).

وقد تلاشت تلك الثقة فى أحداث الحملة للأسف -ربما لم تتلاش تمامًا بشأن الأحداث- لكنها تضاءلت بشأن الأعداد المحتشدة، فقد قامت البروفيسور آن كارى[٧]؛ وهى من أهم المؤرخين المحترمين الذين كتبوا حول حرب المائة عام، بنشر كتابها: أجنكور.. تاريخ جديد، حيث قالت فيه بعد تحليل مفصّل إن الأعداد المحتشدة على كل جانبٍ كانت مقاربة لبعضها أكثرً بكثيرٍ مما يذكر التاريخ. إن الرقم المعتاد هو ٦٠٠٠ إنجليزى فى مواجهة ٣٠٠٠٠ فرنسى وقد عدّلت د. كارى هذه الأرقام إلى ٩٠٠٠ إنجليزى و١٢٠٠٠ فرنسى. وإذا صح ذلك، فستعتبر شهرة المعركة دجلاً إذ إنها تقوم بالتأكيد على الفجوة الكبيرة بين أعداد الجانبين، وما كان شيكسبير ليكون على صواب عندما قال:

- نحن القلة. نحن القلة السعداء.

لو كان الفرنسيون يقاربون الإنجليز عددًا.

---

(٧) البروفيسور آن كارى: مؤرخة إنجليزية وأستاذة تاريخ القرون الوسطى فى جامعة ساوفامبتون ومتخصصة حرب المائة عام بالذات معركة اجينكورت كما أنها رئيسة الجمعية التاريخية لبريطانيا العظمى من عام ٢٠٠٨ إلى عام ٢٠١١. (المترجم).

وهكذا كان السير چون كيجان محقًا فى وصفه أى محاولة لتقدير أعداد المتحاربين فى إحدى معارك القرون الوسطى بأنها محل "شك عظيم". ومن حسن الحظ أن عددًا من شهود العيان قد كتبوا وصفهم للمعركة، ولدينا مصادر أخرى من الكتاب الذين تركوا رواياتهم وتقديراتهم بعد المعركة بوقتٍ قصيرٍ لكن هذه التقديرات تفاوتت بشدةٍ. يقدر المؤرخون البريطانيون القوات الفرنسية بتفاوتٍ كبيرٍ يتراوح بين ٦٠٠٠٠ حتى ١٥٠٠٠٠، بينما المصادر الفرنسية والبورجوندية تقدم لنا تقديرًا يتراوح بين ٨,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠، وقد قدَّر أفضل شهود العيان القوات الفرنسية بـ ٣٠,٠٠٠ و ٣٦,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠ وتساهم كل هذه الأرقام فى خلق الالتباس الحاد الذى زادته د. كارى بآرائها. وقد رأيت فى آخر الأمر أن الأرقام المتفق عليها فى العموم هى أن نحو ٦٠٠٠ إنجليزى واجهوا ٣٠,٠٠٠ فرنسى تقريبًا، وعلىّ أن أؤكد أن ذلك لم يكن نتيجة دراسة أكاديمية من جهتى بل هو بالأحرى غريزة داخلية تقول إن رد الفعل الذى عاصر المعركة يعطى انطباعًا أن شيئًا مذهلاً قد حدث، وأى شىء قد يكون مذهلاً فى أجينكور أكثر من ذلك التفاوت فى الأعداد! وقد قدر قسٌ إنجليزى حضر المعركة ذلك التفاوت بثلاثين رجلاً فرنسيًا فى مواجهة كل رجلٍ إنجليزىٍ، وهى مبالغةٌ واضحةٌ،

لكنها تدعم بقوةٍ وجهة النظر التقليدية التى تقول إن ذلك التفاوت الواسع في أعداد القوات المحتشدة هو ما أقنع العامة أن أجينكور كانت حدثًا استثنائيًا بحقٍ. ولأننى لست أكاديميًا فإن رفض استنتاجات د. كارى سيكون مجازفةً.

ثم صدر كتاب چولييت باركر؛ أجينكور فى نفس العام الذى ظهر فيه كتاب د. كارى التاريخى، وبدا الكتاب المنشور واضحًا وشاملاً وحاسمًا فى حساب أعداد الحملة والمعركة، وقد أبدت چولييت باركر تقديرها لاستنتاجات د. كارى لكنها اختلفت معها بكياسة وحزم. ولأن چولييت باركر أكاديميةٌ وكاتبةٌ جيدةٌ مثلها مثل د. كارى، فقد قامت ببحثها فى الوثائق الفرنسية والإنجليزية؛ وأشعرنى رأيها بأننى كنت على حقٍ فى اتباع غريزتى، وإذا أراد قارئ الاستزادة عن الحملة والمعركة فسيفيده الاطلاع على الكتب الثلاثة التى ذكرتها كلها وهى: وجه المعركة لچون كيجان وأجينكور، تاريخ جديد لآن كارى وأجينكور لچولييت باركر، وعلىّ أن أقر أننى رغم استخدامى العديد من المصادر لكتابة هذه الرواية، فإننى رجعت –بسعادة– مرارًا وتكرارًا إلى كتاب چولييت باركر: أجينكور.

أما التباين داخل الجيش الإنجليزى فيبقى خارج دائرة الاختلاف فى وجهات النظر، لقد كان بالأساس جيشًا من رماة

السهام الذين بلغ عددهم ثلاثة أضعاف عدد الجنود عندما غادروا إنجلترا، ولكن بحلول عيد القديس كريسبين صاروا تقريبًا ستة أضعاف. وهناك المزيد من الجدل؛ جدل لا نهاية له، حول طريقة توزيع هؤلاء الرماة، وما إذا كانوا جميعًا على جناحى الجيش، أم اصطفوا أمام الجنود، ويصعب علىّ تصديق أن الرماة كانوا فى المقدمة، والسبب ببساطةٍ هو صعوبة إخراجهم من الصفوف قبل أن يبدأ القتال وجهًا لوجهٍ، وأعتقد أن الأغلبية العظمى كانت حقًا على ميمنة وميسرة التشكيل القتالى الرئيس فى المعركة. وهناك تحليل جيد للرماية بالقوس فى المعركة فى كتاب روبرت هاردى الرائع: القوس الطويل.. التاريخ الاجتماعى والعسكرى.

لقد حاولت قدر استطاعتى أن أتتبع الأحداث الحقيقية التى وقعت فى عيد القديس كريسبين الكئيب فى فرنسا. باختصار، يبدو أن الإنجليز تقدموا أولاً (ويبدو أن هنرى قد قال بالفعل: "هيا بنا، يارفاق!") وأعادوا تشكيل صفوفهم ضمن مدى الأقواس الفرنسية، وقد ترك الفرنسيون، بحماقةٍ، تلك المناورة دون مقاومةٍ. ثم استفز الرماة التشكيل القتالى الفرنسى الأول بعاصفةٍ من السهام. كانت الهجمة الأولى من الفرسان الذين يفترض بهم أن يهزموا الرماة الخائفين، ولكن ذلك الهجوم فشل لعدة أسباب

منها: أن الخيول المغطاة بالدروع تعرضت للهلاك بالسهام، كما أن العِصيّ قد شكلت عائقًا كافيًا فى مواجهة الهجوم. ويبـــدو أن بعض الخيول الفرنسية المتقهقرة ركـــضت مقتحمـــةً التـــشكيل الفرنسى القتالى الأول مسببة هرجًـــا ومرجًـــا فـــى الـــصفوف المتراصة.

وواجه التشكيل القتالى الأول الذى تكون من قرابة ٨٠٠٠ جندى مشاكل عنيفةً بالفعل، كانت ساحة أجينكور قـــد حرثـــت حديثًا من أجل الحنطة الشتوية، والأرض التى تحرث بالفعل من أجل الحنطة الشتوية تكون أكثر عمقًا مما تحـــرث مـــن أجـــل الحنطة الربيعية -كما قال نيكولاس هوك- وأمطـــرت الـــسماء بغزارةٍ فى الليلة السابقة، وهكذا مشى الفرنسيون فى تربةٍ طينيةٍ دبقةٍ. بدا هذا، ولا شك، كابوسًا، فلا يستطيع شخصٌ الإســـراع فى سيره والسهام تتطاير حوله طوال الوقت، وكلمـــا اقتـــرب الفرنسيون من الصفوف الإنجليزية؛ صارت ضربات تلك السهام أكثر فتكًا. ثمة مزيدٌ من الجدل حول تأثير السهام، حيث يـــدعى بعض الأكاديميين أن أقوى السهام الضيقة الـــرأس لا تـــستطيع اختراق الدروع المعدنية حتى وإن أطلقت من أقـــوى أقـــواس خشب السرو، ولكن إذا كان ذلك كذلك، فلماذا كان فـــى جـــيش هنرى الكثير من الرماة؟ ربما تستطيع السهام اختراق الدروع،

ولكن يجب أن تكون الضربة صائبة تمامًا، لكن أفضل الـــدروع -مثل تلك المصنوعة فى ميلان- تستطيع مقاومة الضربات ولا شك بفاعليةٍ أكبر، ولو لم يكن لعاصفة السهام فائدة سوى أنهـــا أجبرت الفرنسيين على التقدم مُغلّقين مقدمات خوذاتهم مما ضيّق مجال رؤيتهم بشدةٍ، لكفتها. يستطيع رامى السهام الجيد أن يطلق بدقة خمسة عشر سهمًا فى الدقيقة -لقد رأيت ذلك بـــأم عينـــى بقوسٍ قوة شدّه ١١٠ أرطال، وذلك يقل نحو عشرين أو ثلاثين رطلاً عن الأقواس التى حملها الرجال فى أجينكور، لكنه أثقـــل بكثير من أيٍ من أقواس المباريات الحديثة- ولنفترض أن معدل إطلاق الرماة فى أجينكور كان اثنى عشر سهمًا فى الدقيقة تقريبًـــا، وهناك خمسة آلاف رامٍ، مما يعنى ستين ألف ســـهم تـــضرب الفرنسيين كل دقيقةٍ، أى ألف سهمٍ فى الثانية، مما يعنى أيـــضًا أنهم أطلقوا٦٠٠,٠٠٠سهم فى عشر دقائق .. ونخلص من ذلك فى نهاية الأمر أن سهامهم نفدت بسرعةٍ، ولكن أهم ما حققتـــه عاصفة السهام تلك أنها دفعت بصفوف الفرنسيين المرتبكة نحو القلب تجاه الجنود الإنجليز المنتظرين. كشف هذا الانكماش فى صفوف الفرنسيين جناحى الجيش الإنجليزى ولا ريب، وكانـــا يتكونان من الرماة، انكشف هذان الجناحان للرماة الفرنسيين لكن ليس ثمة دليل أن الفرنسيين استغلوا تلك الفرصة. وإذا غضضنا

الطرف عن زخات قليلة من السهام في البدايات المبكرة للمعركة، فلا يبدو أن الرماة الفرنسيين قد قاموا بأي دورٍ في القتال، وهو خطأٌ قاتلٌ نعزوه بالتأكيد إلى الانعدام التام للقيادة في الجانب الفرنسي.

استغرقت المعركة بين ثلاث إلى أربع ساعات رغم أن القتال كاد أن يكون محسومًا في الدقائق الأولى مع ضرب التشكيل القتالي الفرنسي الرئيسي. كان المشاة الفرنسيون قد تعبوا، وفقدوا الرؤية الواضحة بسبب إغلاق مقدمات الخوذات، واضطربت صفوفهم وعرقل الوحل من مسيرتهم. يبدو أن سقوط صفوفهم الأولى بسرعةٍ قد شكل عائقًا للرجال من خلفهم الذين دفعتهم صفوف المؤخرة بدورهم نحو هذا العائق، وهكذا تساقط الفرنسيون على النصال الإنجليزية. وقد تمتع الإنجليز - مع بعض الويلزيين والقليل من الجاسكونيين-بحرية أكبر للقتال والقتل. حوى ذلك التشكيل القتالي الفرنسي الأول أغلب نبلاء فرنسا، وهكذا ذبحوا وسقطت الأسماء العظيمة؛ دوق ألينسون، ودوق بار، ودوق باربان، ورئيس أساقفة سونس، وكونستابل فرنسا، وثمانية على الأقل ممن يحملون لقب كونت، وقد أُسِر الآخرون مثل دوق أورليون، ودوق البوربون، ومارشال فرنسا، وقد أصاب الإنجليز أيضًا نصيبهم من القتل فقد قُتل دوق يورك،

وكذلك إيرل سافولك[٨] -الذى مات والده من الدوسنتاريا فى هارفيليه -ولكن بدت إصابات الإنجليز هينةً جدًا بالمقارنة. حارب هنرى بلا شك فى الصفوف الإنجليزية الأولى، وقد أقسم ثمانية عشر رجلاً فرنسيًا؛ يمين الأخوة لقتله فقُتِلوا جميعًا. أصيب أخو هنرى؛ دوق جلوستر المدعو هامفرى إصابة بالغة، ويقال إن هنرى وقف يحميه ويدفع الفرنسيين وهو يسحب الدوق المصاب بعيدًا.

تقدم التشكيل الفرنسى الثانى لتعزيز الأول، لكن الفرنسيين ساعتها كانوا يحاولون القتال عبر حاجز من أجساد الموتى والمحتضرين، كما كانوا يحاربون أيضًا الرماة الإنجليز الذين تخلوا عن أقواسهم، والتحموا معهم بالفؤوس الحربية، والسيوف، والمطارق. والمزية التى تمتع بها الرماة هى قدرتهم على المناورة، إذ لم تكن تعيقهم الدروع التى تزن ٦٠ رطلاً، ويثقلها الطين، وكانت هجماتهم ساحقةً ولا ريب. ولا يمكننى أن أؤكد

---

(٨) إيرل سافولك: ظهر هذا اللقب أربع مرات فى طبقة نبلاء إنجلترا. منح أول مرة عام ١١٦٩ والثانية ١٣٣٧ والثالثة عام ١٣٨٥ لميشيل من بول. توفى والده فى حصار هارفلور ولذا ورث ميشيل اللقب ولكنه تمتع به لفترة قصيرة حيث قُتل فى معركة أجينكورت وآخر مرة مُنح اللقب عام ١٦٠٣. (المترجم).

أن إشارة الإصبعين البريطانية بدأت فى أجينكور كسخرية وقحة من الفرنسيين المهزومين فى إشارة إلى أن الرماة لا يزالون يمتلكون إصبعى إطلاق الوتر رغم أن الفرنسيين قد هددوا ببترها لكن يبدو أن القصة حقيقية.

وقد هاجمت مجموعة صغيرة من الفرسان الفرنسيين بقيادة سير أزينكور الأمتعة الإنجليزية بعد تقدم التشكيل القتالى الفرنسى الثانى ببعض الوقت. وقد دفع ذلك الحدث هنرى – بالإضافة إلى التأَهُب الواضح للقتال الذى أظهرته البقية الباقية من الفرنسيين– ليصدر أوامره بقتل الأسرى. إن تلك الأوامر لتصدمنا، اليوم لكن المؤرخين المعاصرين له لم يدينوه. فى تلك المرحلة من القتال كان هنالك نحو ألفين من الأسرى الفرنسيين بالقرب من مؤخرة الصفوف الإنجليزية ويتوقعون هجومًا بثمانية آلاف رجلٍ فرنسيٍ آخر، وخاف هنرى أن يقلب هؤلاء الأسرى دفة المعركة بمهاجمة مؤخرة جيشه، ولذلك أعطى ذلك الأمر لسوء طالع الكثير من الجنود الإنجليز (الذين خسروا فدياتٍ ثمينةً). أرسل هنرى أحد حملة دروعه، ومائتين من الرماة ليقوموا بالقتل بدلاً من الجنود، رغم أنه من الجلى أن ذلك توقف سريعًا، عندما صار واضحًا أن الهجوم على الأمتعة ليس طليعة هجومٍ من المؤخرة، وأن خطر التشكيل القتالى

الفرنسى الثالث قد تلاشى. لقد نال الفرنسيون كفايتهم، وبدأ الناجون يغادرون ساحة المعركة وحاز هنرى نصرًا غير عادي في أجينكور. ثمة لبسٌ كبيرٌ حول الخسائر ولكن مما لا شك فيه أن الفرنسيين قد منوا بخسائر فادحة، وقد سجل شاهد عيانٍ إنجليزيٍ يعمل قسيسًا فى سرده ثمانيةً وتسعين قتيلاً من النبلاء الفرنسيين، ونحو ١٥٠٠ فارسٍ فرنسيٍ، وعددًا يتراوح بين أربعة وخمسة آلاف جندى. بلغت الخسائر الفرنسية الآلاف، وربما تقارب ٥٠٠٠، بينما الخسائر الإنجليزية حوالى ٢٠٠ - ويشمل ذلك رامى السهام روچر هانت الذى قتلته طلقة مدفع- وقد كانت المعركة الحربية مذبحةً صدمت العالمِ المسيحى، مثلها فى ذلك مثل نهب سواسون. لقد كان عصرًا مليئًا بالعنف. أحرق هنرى وشنق زنادقةً فى لندن، وأعدم رامى سهامٍ لسرقة إناء قربانٍ نحاسيٍ مطليٍ بالذهب أثناء الزحف إلى أجينكور لكن تلك الأحداث كانت مألوفة. أما أحداث سواسون وأجينكور فقد كانت استثنائية، ويعتقد أنها مرتبطة بالقديسين كريسبين وكريسبينيان بطريقةٍ خارقةٍ للطبيعة.

وقد أخذتُ كل أسماء الرماة فى أجينكور -باستثناء توماس بيريل- من السجلات العسكرية لجيش هنرى وهى لا تزال محفوظة فى الأرشيف الوطنى، وإذا أراد القراء مصدرًا يسهل

الوصول إليه، فيمكنهم الاطلاع عليها فى ملحق كتاب آن كارى. كان هنالك بالفعل شخص يدعى نيكولاس هوك فى أجينكور، رغم أنه لم يكن فى خدمة السير چون كورنويل، الذى كان بالفعل بطل منافسات الفروسية فى أوروبا، وينطق اسمه عادةً بتشديدٍ خفيفٍ وبهذا الهجاء: (Cornwell) وليس ثمة صلة قرابةٍ تربطنى به.

ليس ثمة تغيرٌ يذكر في ساحة أجينكور رغم أن الغابات على الجانبين قد تقلصت قليلاً، والقلعة الصغيرة التى أعطت المعركة اسمها قد اختفت منذ أمد بعيد، ويوجد الآن متحفٌ صغيرٌ فخمٌ فى القرية، ونصبٌ تذكارىٌ، وخريطةٌ للمعركة بالقرب من ميزون-سيل حيث هوجمت الأمتعة الإنجليزية -وقد استرد هنرى الكثير من كنوزه الضائعة فيما بعد- ويقوم تمثالٌ للمسيح المصلوب شاهد قبرٍ على ما يفترض أنه إحدى المقابر الجماعية حيث دفن الفرنسيون موتاهم. لقد اندثرت هارفيليه إذ اندمجت فى المدينة الأكثر ضخامة لو-آفر، رغم أن بعض آثار المدينة التى كانت قائمةً فى العصور الوسطى لا تزال باقيةً. وقد شيدت مصانع بتروكيماوية الآن حيث رسا الأسطول الإنجليزى.

كانت قيادة هنرى الخامس عاملاً مهمًا ولا شك فى هذا النصر الذى بدا بعيد المنال. لقد استمر فى القتال فى فرنسا،

وأجبر الفرنسيين على الرضوخ لمطالبه بأنه الملك الشرعى، واتُفق على أن يُتوج بعد موت الملك المجنون تشارلز، لكن هنرى مات أولاً، وتُوِّج ابنه ملكًا على فرنسا بدلاً منه، لكن الفرنسيين استعادوا عافيتهم وطردوا الإنجليز من بلادهم. وقد قضى المارشال بوسيكول نحبه فى الأسر الإنجليزى بينما قضى دوق أورليون خمسة وعشرين عامًا أسيرًا، ولم يطلق سراحه إلا فى عام ١٤٤٠، وقد كتب الكثير من الشعر فى تلك الأعوام وترجمت چولييت باركر فى كتابها أجينكور أبياتًا مما كتب فى أثناء وجوده فى إنجلترا، أبياتًا يمكن أن تضع نهاية لهذه القصة عن معركةٍ حربيةٍ جرت من أمدٍ بعيدٍ:

السِلمُ كنزٌ لا يقدره المرء حق قدره

كم أمقت الحروب.

التى لا ينبغى لها أبدًا أن تمَجَّد

فقد حجبتنى لأمد طويل.. عدلاً كان أو ظلمًا

عن رؤية فرنسا.. قرة عينى لا ريب.

المؤلف فى سطور

برنارد كورنويل

ولد فى الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩٤٤ فى لندن. درس فى جامعة لندن، ثم عمل مدرسًا، وانتقل بعدها للعمل فى تليفزيون بى. بى. سى. لعشر سنوات ثم التحق بتليفزيون التايمز محررًا للأخبار، انتقل إلى الولاياًت المتحدة بعد زواجه من زوجه الأمريكية التى تدعى چودى، ويقيم حاليًا فى ماساشوتس.

كتب هو وزوجه سلسلةً من الروايات نشرت تحت اسمٍ مستعارٍ هو سوزانا كيلز، وقد ظهر أثر تربيته البروتستانتية المتشددة فى سياق روايته: (**A Crowning Mercy**).

وبعد أن نشر ثمانية كتب تلقى عرضًا من شركة إنتاجٍ تليفزيونيٍ نتج عنه سلسلة أفلامٍ تليفزيونيةٍ باسم سلسلة كتبه الأولى (سلسلة شاربى **Sharpe**) وهو اسم بطل السلسلة. وكتب أيضًا سلسلةً من أفلام الرعب كان آخرها عام ١٩٨٢م، وتخصص تقريبًا فى الرواية التاريخية.

المترجم فى سطور

على حسن على البعلاوى

- طبيب جراحات العمود الفقرى والعظام والمفاصل الصناعية وطب إصابات الملاعب م. بالهيئة العامة للمستشفيات والمعاهد التعليمية.
- ولد فى الأول من يناير عام ١٩٧٩.
- شاعر نشرت له العديد من الأعمال متفرقة فى عدد من المجلات والدوريات المصرية والعربية.
- صدر له:
  - ديوان من شعر الفصحى فى طبعة خاصة بعنوان: ترنيمة للحزن.
  - ترجمة رواية المالك (**Man of Property**)؛ الجزء الأول من ملحمة آل فورسايت (**Forsyte Saga**) للكاتب جون جولس-وورثى الحائز على جائزة

نوبل، عن المركز القومى للترجمـــةـ- مـــصر ٢٠١١.

- له تحت الطبع:

- ترجمة رواية بلاد الظـــلال (**Shadow Country**) للكاتب بيتر ماتيسين وهى الرواية الحائزة على جائزة الكتاب الوطنية الأمريكية، وتصدر عـــن وزارة الثقافة المصرية.

المراجعة فى سطور

سحر الموجى

مدرس الأدب الإنجليزى بكلية الآداب جامعة القاهرة.

كاتبة صدر لها:

- "سيدة المنام" و"آلهة صغيرة" (مجموعتان قصصيتان).
- "دارية" (رواية) ونون (رواية) الحاصلة على جائزة كفافيس ٢٠٠٧.

التصحيح اللغوى : **محمد الشربينى**

الإشــراف الفنى : **حســـــن كامل**



هذه رواية تاريخية بنيت على أكثر الانتصارات البريطانية درامية، وهى معركة أزينكور. ركز الكاتب على إدراك الخلفية التاريخية، والدينية، والعقائدية، التى دفعت بالرجال إلى ساحات المعارك فى القرون الوسطى، وقد خرجت من المنشأ نفسه الحروب الصليبية التى هاجمت عالمنا الإسلامى فى فترة تسبق فترة هذه الرواية بقليل، ولكننا نراه قد انتقل بنا عبر التاريخ إلى كثير من المشاعر والأحاسيس الإنسانية فأجاد وصفها، ونقلها لنا، بل نقلنا نحن إلى داخلها كالفخر، والألم والانتقام، والفقد، والحب، والخوف، واللحظات التى يكاد الإنسان يشعر فيها أن حياته ستنتهى عند هذه النقطة، وجنون العنف، والقتل عندما يعترى الإنسان فيحيله إلى وحش قاتل فى ساحات المعارك.

تصميم الغلاف: نسرين كمال